ول وايريل ديورانت

قصة الحضارة

[illegible]

بداية عصر العقل





قصة الحضارة

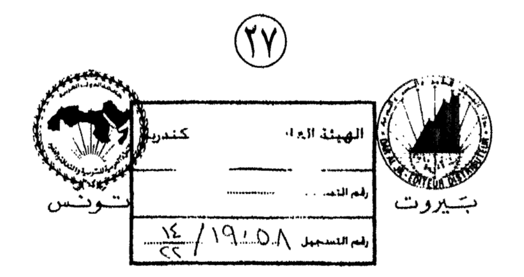
ول وايريل ديورانت

الإصلاح الديني

ترجمة
فؤاد أندراوس

مراجعة
علي أدهم

الجزء السادس من المجلد السادس



دار الجيل: ص.ب ٨٧٣٧ - ت: ٢٦٦١٥٨ - ٢٦٠٤١٥ - تلكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: دارجيلاب - بيروت - لبنان

فهرس

الجزء السادس من المجلد السادس

صفحة

صفحة

الكتاب الخامس

معارضة الإصلاح البروتستنتى

١٥١٧ ــ ٦٥

صفحة

الفصل الخامس والثلاثون

الأدب فى عصر رابليـــه

١٥١٧ — ٦٤

---

١ — فى صناعة الكتب

اتخذ حافز الإعلان عن النفس صورة جديدة بعد جوتنبرج . هى رغبة الكتاب الملحة فى طبع مؤلفاتهم . على أن هذا الحافز كان غالى الثمن ، لأن حق التأليف الوحيد المعروف آنئذ كان « الامتياز الخاص » الذى تمنحه السلطات المدنية أو الكنسية لطبع كتاب بعينه ، وهو منحة استثنائية ، بدونها كان فى استطاعة الناشرين المتنافسين ، حتى فى البلد الواحد ، أن يسطوا على أى أثر حين يشاءون ، وكان الناشر عادة — إذا راج الكتاب الذى ينشره — ينقد المؤلف أتعاباً ، ولكن المطبوعات الوحيدة تقريباً التى غلت من الربح ما يكفى لحصول المؤلف على أتعابه هى الروايات الشعبية ، وقصص السحر أو المعجزات ، والنشرات الجدلية التى كان شرط رواجها أن تحشى بالمطاعن . أما الكتب العلمية والثقافية فكانت محظوظة إن غطت نفقاتها . وكان الناشرون يشجعون المؤلفين على إهداء هذه الآثار إلى كبار رجال الدولة أو الكنيسة أو إلى أثرياء الأعيان والأشراف بأمل الحصول على منحة لقاء هذه الزلفى .

واجتمعت الطباعة والنشر عادة فى بيت واحد . وكان الرجل أو الأسرة المشتغلان بهما عنصراً حيوياً فى مدينتهما وجيلهما . أما الشهرة عن طريق الطباعة وحدها فقط فكانت نادرة ، وقد أفلح كلود جرامون الباريسى

فى إحرازها بنبذه حرف الطباعة « القوطى » الذى اتخذه الطباعون الألمان نقلا عن حروف المخطوطات ، وبتصميمه حرف طباعة « رومانياً » (حوالى ١٥٤٠) مبنيا على خط الكتابة الكارولنجى الصغير المنتشر فى القرن التاسع كما طوره الإنسانيون الإيطاليون والمطبعة الألدية : واختار الطباعون الفرنسيون والإنجليز هذا الحرف الرومانى ، أما الألمان فقد تمسكوا بالحرف القوطى حتى القرن التاسع عشر . وما زالت أنماط من حروف الطبع تحمل اسم جرامون .

وتزعمت ألمانيا العالم فى ميدان النشر . فقامت بيوت نشر نشيطة فى بازل وستراسبورج وأوجزبورج ونورمبرج وفتنبرج وكولونيا وليبزج وفرانكفورت ومجدبورج ؛ وكان الناشرون وتجار الكتب يلتقون مرتين كل عام فى سوق فرانكفورت ، فيشترون الكتب ويبيعونها ويتبادلون الأفكار . وأصدر طباع فرانكفورتى أول جريدة (١٥٤٨) . وكانت ورقة توزع فى السوق وتروى آخر الأحداث . وأصبحت أنتورب مركزاً للنشر حين عمد كرستوفر بلانتن إلى دكان التجليد الذى يملكه فحوله إلى مطبعة (١٥٥٥) ، وبعد عامين أرسل ١٢٠٠ مجلد إلى سوق فرانكفورت . أما فى فرنسا فكانت ليون مركزاً لصناعة الكتاب ، وأتاحت لها مائتان من مؤسسات الطباعة أن تتحدى باريس بوصفها العاصمة الفكرية للبلاد .

وكان إتيين دوليه الطباع والأديب الإنسانى شعلة ليون المتأججة بالثورة . ولد فى أورليان ، وتلقى علومه فى باريس ، ثم أولع بشيشرون . « إننى لا أستحسن سوى المسيح وتللى » . ولما سمع بأن الكفر يحظى بحرية غير عادية فى بادوا سارع إليها ، وهناك تبادل الشعر الساخر البذىء مع الشكاكين من المتأثرين بفلسفة ابن رشد : وفى تولوز أصبح الروح المحركة لجماعة حرة التفكير تهزأ بالبابويين والاوثريين على حد سواء . فاما نفى

قصد ليون وفيها اكتسب سمعة بكتابة الأشعار والمقالات ، ولكنه قتل طباعاً أثناء احتدام الجدل بينهما ، ففر إلى باريس حيث حصلت له مارجريت النافارية على عفو من الملك . وهناك صادق مارو ورابليه ، ثم تشاجر معهما . ولما عاد إلى ليون أنشأ مطبعة وتخصص فى نشر الكتب المهرطقة ، واستدعته محكمة التفتيش ، وحاكمته وسجنته ، فهرب من السجن ، ولكن قبض عليه أثناء زيارته ابنه خفية ، وفى ٣ أغسطس ١٥٤٦ أحرق حياً .

أما أبرز الناشرين الفرنسيين فكانوا آل إتيين ، وهم أسرة ثابرت على الطباعة مثابرة آل فوجير على التمويل . بدأ هنرى إتيين مطبعته فى باريس حوالى ١٥٠٠ ، وواصل العمل من بعده أبناؤه فرانسوا وروبير وشارل ، وإلى هؤلاء الأربعة تدين فرنسا بأفخر طبعاتها للآداب اليونانية واللاتينية . وصنف روبير قاموساً للغة اللاتينية (١٥٣٢) أصبح سنداً أساسياً لجميع القواميس اللاتينية الفرنسية التالية له . وغدت اللاتينية لغة ثانية لآل إتيين يتكلمونها بانتظام داخل الأسرة . وامتدح فرانسوا الأول عملهم وأيد مارجريت فى الدفاع عنهم ضد السوربون ، وحضر فى إحدى المناسبات اجتماعاً الفيف من الأدباء التقوا فى حانوت روبير . وفى رواية مشهورة أن الملك ظل ينتظر فى صبر ريثما يفرغ روبير من تصحيح تجربة طباعة عاجلة . وقدم فرانسوا المال الذى أتاح لروبير تكليف جرامون بتصميم وصب طقم طباعة جديداً للحروف اليونانية فيه من الجمال ما جعله نموذجاً لمعظم الطباعة اليونانية التالية . واستنكرت السوربون تلهى الملك بالثقافة الهيلينية ، وقال أحد أساتذتها يحذر « البرلمان » (١٥٣٩) « ان نشر معرفة اليونانية والعبرية سيعمل على تدمير الدين كله » . أما العبرية فكان رأى أحد الرهبان فيها « أنه من المعلوم جيداً أن كل من تعلموا العبرية أصبحوا من فورهم يهوداً . »(١) ولما لاحقت السوربون روبير وأرهقته طوال ثلاثين عاماً نقل مطبعته إلى

جنيف (١٥٥٢) وهناك أماط اللثام سنة وفاته (١٥٥٩) عن ميوله البروتستنتية بنشره طبعة من « مبادىء كالفن » . واحتفظ ابنه هنرى إتيين الثانى بسمعة الأسرة إذ أصدر فى باريس طبعات جميلة من الآداب القديمة ، وصنف معجماً للغة اليونانية (١٥٧٢) فى خمسة مجلدات لا تزال إلى يومنا أكمل المعاجم اليونانية قاطبة . غير أنه أثار حقد السوربون عليه بنشره كتاباً سماه « دفاع عن هيرودوت » (١٥٦٦) أشار فيه إلى النظائر من المعجزات المسيحية والعجائب الغريبة التى رواها المؤرخ اليونانى ولجأ هو الآخر إلى جنيف ، ولكنه وجد نظام الحكم الكالفنى لا يقل تعصباً عن السوربون .

وكثير من مطبوعات هذا العصر نماذج تحتذى فى الطبع والحفر والتجليد ، فقد حل محل الأغلفة نصف المعدنية ، الثقيلة ، الشائعة فى القرن الخامس عشر ، أغلفة أخف وزناً وأرخص ثمناً مصنوعة من الجلد أو الورق المتين أو الرق . ومن أمثلة هذا التقدم أن جان جروليبيه دسير فيير ، وزير مالية فرنسا فى ١٥٣٤ ، كلف الجلدين بتجليد كتبه البالغ عددها ٣,٠٠٠ مجلد الماعز المشرقى تجليداً بلغ من الأناقة حداً يضعها فى صنف أجمل الكتب إطلاقاً . وغدت المكتبات الخاصة الآن لا حصر لها ، وفتحت المكتبات العامة فى كثير من المدن — مثل كركاو (١٥١٧) ، وهامبورج (١٥٢٩) ، ونورمبرج (١٥٣٨) ، وفى عهد فرانسوا الأول نقلت المكتبة الملكية القديمة التى جمعها شارل الثامن من اللوفر إلى فونتنبلو ، وأثرتها مجموعات جديدة من الكتب وأغلفة فاخرة . وأصبحت هذه « المكتبة الملكية » بعد الثورة الفرنسية « المكتبة الأهلية » . وقد دمر كثير من المكتبات الديرية فى حركة الإصلاح البروتستنتى ، ولكن الكثير منها انتقل إلى أيدى الأفراد ووجد كل ثمين فيها طريقه إلى دور الكتب العامة . لقد ضاع فى التاريخ الكثير ، ولكن احتفظ بالكثير جداً مما له قيمته وليس فى استطاعة فرد ولو أوتى مائة عمر أن يستوعبه .

٢ — المدارس

كان من الطبيعى أن تعمد الثورة الفرنسية حيناً إلى تمزيق نظام غربى أوربا التعليمى لأنه جلّه كان خدمة تابعة للكنيسة ، ولم يكن فى الإمكان تحدى نفوذ رجال الدين التقليديين بنجاح ما لم تحطم هيمنتهم على التعليم . وقد أنحى لوثر باللوم على مدارس ذلك العهد الثانوية التى تركز على تعليم اللغات القديمة ، وقال إنها تعلم الطالب « من اللاتينية الرديئة ما يكفى لإعداده قسيساً وتمكينه من تلاوة القداس . . . ومع ذلك يظل طوال حياته جهولا مسكيناً لا يصلح لشيء »[٢] . أما الجامعات فبدت له مغارات للقتلة ، وهياكل للإله ملخ ، ومجامع للفساد « لم يظهر على الأرض . . . ولن يظهر . . . ما هو شر منها . » وخلص من هذا إلى أنها « لا تصلح إلا لهدمها وتسويتها بالتراب »[٣] . واتفق ملانكتون مع لوثر فى الرأى ، لأن الجامعات تحول طلابها إلى الوثنية[٤] . وتقبل الآباء الذين يضنون بنفقات تعليم أبنائهم ، رأى كارلشتات ، و« أنبياء » زفيكالو ، والقائلين بتجديد المعمودية ، فى غير تردد — وهو أن التعليم زخرف لا غناء فيه ، وخطر على الأخلاق ، ومعوق للخلاص . وكانت حجة بعض الآباء أنه ما دام التعليم الثانوى موجهاً إلى حد كبير لإعداد الطلاب ليكونوا قساوسة ، وما دامت هذه المهنة قد بارت سوقها ، إذن فليس من المنطق أن يبعثوا بأبنائهم إلى الجامعات .

كان دعاة الإصلاح البروتستنتى يتوقعون أن يفرد جانب من دخل الأملاك الكنسية التى استولت عليها الدولة لإنشاء مدارس جديدة تحل محل تلك الآخذة فى الزوال عقب إغلاق الأديار . ولكن « الأمراء والأشراف » على حد قول لوثر « شغلوا بشئون عالية وهامة — شئون كهف الخمور والمطبخ والمخدع ... فلم يعد لديهم متسع من الوقت » لمد يد المعونة إلى التعليم . وكتب يقول فى ١٥٢٤ « إن المدارس فى الولايات الألمانية تترك الآن فى كل مكان لتصبح خراباً يباباً »[٥] . وما وافى عام ١٥٣٠

حتى كان هو وملانكتون يرثيان ما أصاب الجامعات الألمانية من تدهور وانحلال(٦) . ففى إرفورت هبط عدد الملتحقين بالجامعة من ٣١١ فى عام ١٥٢٠ إلى ١٢٠ فى عام ١٥٢١ ، وإلى ٣٤ فى عام ١٥٢٤ ، وفى روستوك هبط العدد من ٣٠٠ فى عام ١٥١٧ إلى ١٥ فى عام ١٥٢٥ ؛ وفى هيدلبرج كان فى ذلك العام من الأساتذة عدد أكثر ممن كان فيها من الطلاب . وفى ١٥٢٦ لم يلتحق بجامعة بال سوى خمسة طلاب(٧) .

وجاهد لوثر وملانكتون لإصلاح ما فسد : فناشد لوثر فى « رسالته إلى العمد » (١٥٢٤) السلطات الزمنية أن تنشئ المدارس . وفى عام ١٥٣٠ تخطى زمانه بكثير فاقترح أن يقرر التعليم الأولى إجبارياً وأن يوفر للأطفال على حساب الدولة(٨) . أما الجامعات التى أعيد تأسيسها تدريجياً تحت الرعاية البروتستنتية فقد أوصى ببرنامج دراسة لها يتركز حول الكتاب المقدس . ولكنه يحوى أيضاً تعليم اللاتينية واليونانية والعبرية والألمانية والقانون والطب والتاريخ و « الشعراء والخطباء . . . الوثنيين منهم أو المسيحيين(٩) » . أما ملانكتون فقد جعل من إحياء التعليم مهمته الأولى . ففتح الكثير من المدارس تحت قيادته وبتشجيعه . وما وافت نهاية القرن السادس عشر حتى أصبح فى ألمانيا ٣٠٠ مدرسة . ثم وضع « خطة مدرسية » (١٥٢٧) لتنظيم المدارس والجامعات . وألف كتباً مدرسية فى النحو اللاتينى واليونانى . وفى البيان والمنطق وعلم النفس والأخلاق واللاهوت . ودرب آلاف الطلاب على الاضطلاع بالتعليم فى المعاهد الجديدة . وقد لقبه وطنه بمعلم ألمانيا اعترافاً بجميله . وانتقلت جامعات شمالى ألمانيا الواحدة تلو الأخرى إلى أيد بروتستنتية : فتنبرج (١٥٢٢) ، وماربورج (١٥٢٧) . وتوبنجن (١٥٣٥) . وليبزج (١٥٣٩) وكونجزبرج (١٥٤٤) . وبينا (١٥٥٨) . وطرد الأساتذة أو الطلاب المعارضون « للعقيدة الإنجيلية الصادقة الصحيحة » كما قال أولريش دوق فورتمبرج . ومنع الكالفنيون من دخول الكليات اللوثرية . والبروتستنت من دخول الجامعات التى لم تزل فى أيدى الكاثوليك . وتمكن التحول بصدمة

عامة إنه بعد صلح أوجزيورج (١٥٥٥) حرم على الطلبة الألمان أن يختلفوا إلى المدارس التابعة لمذهب آخر غير الذى يدين به أمير المقاطعة[١٠] .

هذا وقد أتيح للتعليم الجديد أن يحرز تقدماً هائلا على يد يوهان شتروم حين أنشأ مدرسة ثانوية « جمنازيوم » فى ستراسبورج (١٥٣٨) ، ونشر فى ذلك العام نبذة كان لها نفوذ كبير عنوانها « فى فتح مدارس الآداب بالطريقة الصحيحة » . وكان ككثيرين غيره من زعماء الفكر فى وسط أوربا قد تلقى علومه على يد « إخوان الحياة المشتركة » . ثم قصد لوفان وباريس حيث التقى برابليه . ولعل رسالة جارجانتوا الشهيرة فى التعليم صدى لتأثير الرجلين المتبادل . ومع أن شتروم يرى فى « التقوى المقترنة بالحكمة » الهدف الأول للتعليم ، فانه أكد تأكيداً متزايداً أهمية دراسة اليونانية واللاتينية وآدابهما ، وقد انتقلت هذه العناية والدقة فى تعليم الآداب القديمة إلى مدارس ألمانيا الثانوية التالية ، فربت جيش العلماء والأدباء الذى غزا العالم القديم وقتله بحثاً وتنقيباً فى القرن التاسع عشر .

أما مدارس إنجلتره فقد قاست أكثر حتى من مدارس ألمانيا نتيجة للثورة الدينية . وذابت مدارس الكاتدرائيات والأديار والنقابات والأوقاف فى لهيب الهجوم على رذائل الكنيسة وتراثها. وكان أكثر طلاب الجامعات يفدون إليها من هذه المدارس ، فلما توقف هذا السيل لم تخرج أكسفورد سوى ١٧٣ من حملة بكالوريوس الآداب ، وكمبردج سوى ١٩١ فى عام ١٥٤٨ ، وفى عامى ١٥٤٧ و ١٥٥٠ لم تخرج أكسفورد منهم أحداً .[١١]

وأحس هنرى الثامن بالمشكلة ، ولكن حاجته إلى المال للحرب أو لزيجاته العديدة حدت من قدرته ، فاكتفى بانشاء كلية ترنتى بكمبردج (١٥٤٦) وبتمويل كراسى بمنح ملكية فى اللاهوت ، والعبرية واليونانية ، والطب ، والقانون . وفى هذه الفترة قامت الهيئات الخاصة الخيرية بانشاء كلية كوربس كرستى ، وكلية كرايست تشيرش ، وكلية سانت جون ، وكلية ترنتى

بأكسفورد ، وكلية ماجدلين بكمبردج . وقامت اللجنة الملكية التي أوفدها كرومويل إلى أكسفورد وكمبردج (١٥٣٥) لتستولى للملك على براءاتهما وأوقافهما باخضاع الكلية والمنهج للاشراف الحكومى . وهكذا قضى بضربة عاجلة على سلطان الفلسفة الكلامية فى إنجلترة ، وذرت فى الريح — حقيقة لا مجازاً — أعمال دنزسكوتس(١٢) ، ونحى القانون الكنسي جانباً ، وشجعت الدراسات اليونانية واللاتينية ، وصبغ المنهج بالصبغة العلمانية إلى حد كبير — ولكن الدماطيقية لم تمت . فقد اشترط قانون صدر فى ١٥٥٣ على جميع طلاب الدرجات الجامعية أن يتعهدوا كتابة بقبول « مواد الدين الانجليكانية » .

أما فى فرنسا وفلاندر الكاثوليكيتين فقد تدهورت الجامعات لا من حيث أوقافها وعدد طلابها ، بل من حيث قوة الحياة الفكرية وحريتها . وفتحت جامعات جديدة فى رامس ودواى وليل وبيزانسون . ونافست جامعة لوفان جامعة باريس فى عدد الطلاب (٥٠٠٠) ، وفى الدفاع عن لون من الكاثوليكية التقليدية بدا متطرفاً حتى فى نظر البابوات . وكان طلاب جامعة باريس كثيرين (٦٠٠٠) ، ولكنها لم تعد تجتذب أى عدد مذكور من الطلاب الأجانب أو تتسامح كما كانت تفعل إبان عنفوانها فى القرن الثالث عشر مع خميرة الأفكار الجديدة المنشطة . أما كلياتها فسيطرت عليها كلية اللاهوت — السوربون — حتى كاد يصبح هذا الاسم مرادفاً لاسم الجامعة . ورأى مونتينى فى منهج اللاهوت والآداب القديمة المنقاة نمطاً سطحياً من الاستذكار والامتثال . أما رابليه فلم يتعب من ذم الشكليات المدرسية والتدريبات المنطقية السائدة فى السوربون ، وضياع سنى الدراسة فى مناظرات أبعدت فى حرص عن الاهتمام الفعلى بالحياة الإنسانية . وأما كليمان مارو فقد صرح بقوله « إننى على استعداد للتضحية عن طيب خاطر بنصيبى فى الجنة أو أن هؤلاء الوحوش الكبار (أى

الأساتذة) لم يدمروا شبابى »[١٣] . ووجهت قوة الجامعة وسلطانها كله ، لا لمقاومة البروتستنت الفرنسيين فحسب ، بل الإنسانيين الفرنسيين أيضاً .

وبذل فرانسوا الأول ما وسعه لحماية الثقافة الفرنسية من مثبطات المحافظين المنبعثة من السوربون . وكان قد شرب من خمر إيطاليا والتقى ببعض رجال الكنيسة ممن تعمقوا أدب اليونان والرومان . وبحض من جيوم بوديه ، والكردينال جان دبليه ، ومارجريت المثابرة فى غير كلل — قدم المال لإنشاء مدرسة مستقلة عن الجامعة (١٥٢٩) ، متفرغة بوجه خاص للدراسات الإنسانية . وبدئ بتعيين أربعة من «الأساتذة الملكيين » اثنان منهم لليونانية واثنان للعبرية ، وسرعان ما أضيفت كراس للاتينية والرياضيات والطب والفلسفة . وكان التعليم فيها مجاناً[١٤] . وأصبحت هذه « الكلية الملكية » التى عدل اسمها فيما بعد إلى «كلية فرنسا » باعثة النشاط فى الدراسات الإنسانية الفرنسية ، وملاذ العقل الفرنسى الذى يجمع بين الحرية والنظام .

أما أسبانيا فقد قيض لها جامعات ممتازة برغم تحمس الدولة للكاثوليكية التقليدية ، فكان عددها أربع عشرة عام ١٥٥٣ ، شملت ما أسس منها حديثاً فى طليطلة وسنتياجو وغرناطة . أما جامعة سلامنكا التى ضمت سبعين أستاذاً و ٦٧٧٨ طالباً فى عام ١٥٨٤ فتثبت للمقارنة بأية جامعة أخرى من جامعات ذلك العهد . وأما جامعات إيطاليا فقد واصلت ازدهارها ، فكان لجامعة بولونيا فى ١٥٤٣ سبعة وخمسون أستاذاً بكلية الآداب ، وسبعة وثلاثون بكلية الحقوق ، وخمسة عشر بكلية الطب ، وكانت بادوا مقصد الطلاب المغامرين الوافدين من شمال الألب ، وقدمت بولنده الدليل على عصرها الذهبى بقبولها ١٥,٣٣٨ طالباً دفعة واحدة فى جامعة كركاو[١٥] ، وفى بوزنان خصص « اللوبرانسكيانوم » الذى أنشأه الأسقف يوحنا لوبرانسكى (١٥١٩) للأبحاث والدراسات الإنسانية ،

ويمكن القول على الجملة أن الجامعات فى البلاد الكاثوليكية أوفر حظاً منها فى البلاد البروتستنية فى هذا القرن العنيف .

على أن المعلم لم يلق ما هو خليق به من تقدير . وكان مغموط الأجر إلى حد أليم . كان الأستاذ فى « الكلية الملكية » بفرنسا يتقاضى ٢٠٠ كراون فى العام (٥٠٠٠ دولار؟) . ولكن هذا كان استثناء نادراً . وكان الأساتذة فى جامعة سلامنكا يختارهم الطلاب بعد فترة اختبار يعرض فيها الأساتذة المتنافسون عينات من محاضراتهم . وكان أكثر التعليم بالمحاضرات . وأحياناً تضفى عليها الحياة بالمناظرات . وكان أخذ المذكرات يحل عند كثير من الطلبة محل الكتب الدراسية . أما القواميس فنادرة . وأما المعامل فمجهولة عملياً إلا للمشتغلين بالكيمياء القديمة . وكان الطلاب يسكنون حجرات رخيصة سيئة التدفئة ويقعون فريسة للمرض بسبب قذارة الطعام ونقصه . وكان كثير منهم يشتغلون لتغطية نفقات الكلية . وتبدأ الفصول فى السادسة صباحاً وتنتهى فى الخامسة بعد الظهر . وكان النظام صارماً ، يجوز بمقتضاه جلد الطلبة حتى من قارب منهم التخرج . وكان الطلاب يلتمسون الدفء فى مشاجرات الشوارع وفى كئوس النبيذ وأحضان البغايا إذا تيسر لهم المال . وهكذا كانوا بطريقة أو بأخرى يحصلون قسطاً محدوداً من التعليم .

أما فتيات الطبقات الدنيا فظللن أميات ، وكان كثيرات من بنات الطبقات الوسطى يظفرن بتعليم مدرسى متواضع فى أديار الراهبات . أما الفتيات الغنيات فلهن مربون خصوصيون . وقد فاخرت هولندة بعدة سيدات يمكن مغازلتهن باللاتينية ؛ وربما يستطعن تصريف الأفعال خيراً من تصريف الأسماء والضمائر والصفات . واشتهرت فى ألمانيا زوجة يوتنجر وشقيقات بركهيمر وبناته بثقافتهن ؛ وفى فرنسا كانت النساء المحيطات بالملك فرانسوا يجملن عبارات الغزل بمحسنات يقتبسنها من الآداب القديمة .

وفى إنجلترة كانت بعض النساء المثقفات ــ كبنات مور ، وجين جراى ، و « مارى الدموية » ؛ وإليزابيث ــ مضرب المثل فى سعة المعرفة والاطلاع .

وينتمى إلى هذا العصر معلمان شهيران . أما أقلهما شأناً فهو السير توماس إليوت ، الذى وضع فى كتابه « الحاكم » (١٥١٣) خطة تعليم تيسر إعداد الطلاب العريق النسب للاشتغال بشئون الحكم . وقد بدأ كتابه بنقد الفجاجة الثقافية التى يتردى فيها نبلاء الإنجليز ، وقارنها بما روى عن ثقافة رجال الأعمال عند اليونان والرومان ، ونقل ما روى عن الفيلسوف الكلبى ديوجين « حين رأى رجلا جاهلا جالساً على حجر فقال : انظر كيف يجلس حجر على حجر »(١٦) .

وفى رأى إليوت أن الصبى متى بلغ السابعة يجب أن يعهد به إلى مرب يختار بعناية ، فيعلمه مبادئ الموسيقى والتصوير والنحت ، حتى إذا ناهز الرابعة عشرة تعلم وصف الكون والمنطق والتاريخ ، ودرب على المصارعة والصيد والرمى بالقوس الطويل والسباحة والتنس ، دون كرة القدم لأنها لعبة سوقية « ليس فيها غير الثورة الوحشية والعنف الظاهر » . ويجب أن يعلم الصبى الآداب القديمة فى كل مرحلة من مراحل تعليمه ــ فيبدأ بالشعراء ، ثم المؤرخين ، ثم القواد ، ثم الفلاسفة ، ويضيف إليوت إلى هذا الكتاب المقدس ، وتكاد الإضافة تبدو فكرة لاحقة ؛ وهو بهذا يعكس الخطة التعليمية التى وضعها لوثر . ويفضل إليوت الآداب القديمة على الكتاب المقدس برغم توكيداته . فهو يقول « رباه ، يا لها من حلاوة لا نظير لها فى كلمات كتب أفلاطون وشيشرون ، وفى مادة هذه الكتب التى جمعت بين الرزانة والعذوبة ، واقترنت فيها الحكمة الرائعة بالبلاغة الإلهية ، والفضيلة المطلقة باللذة التى لا تصدق » ، وهكذا « فان هذه الكتب تكاد تكفى فى ذاتها لإعداد الحاكم الكامل الممتاز (١٧) »

أما ثانى المعلمين وهو جوان فيف ، أكثر الأدباء الإنسانيين إنسانية ،

فقد اختط هدفاً أوسع وترسم طريقاً أرحب . ولد فى بلنسيه فى ١٤٩٢ . ورحل عن أسبانيا وهو فى السابعة عشرة ، ولم يرها بعد ذلك قط . وقد درس فى باريس فترة أتاحت له حب الفلسفة واحتقار الفلسفة الكلامية . وحين بلغ السادسة والعشرين ألف أول تاريخ حديث للفلسفة . وفى السنة ذاتها تحدى الجامعات بهجوم على الطرائق السكولاستية فى تعليم الفلسفة . فقد شعر بأن خطة النهوض بالفكر بطريق المناظرة لا تشجع إلا الشجار العقيم حول مسائل لا وزن لها . ورحب إرزمس بالكتاب وأوصى مور بأن يقرأه ، وقال فى أدب إنه يخشى أن « يحجب . . فيف . . إرزمس .(١٨) » وعين فيف أستاذاً للدراسات الإنسانية فى لوفان (١٥١٩) ربما بنفوذ إرزمس . ثم نشر بتشجيع إرزمس طبعة من كتاب أوغسطين « مدينة الله » عليها شروح ضافية وأهداها إلى هنرى الثامن . وتلقى منه رداً رأى فيه من الود ما حمله على الانتقال إلى إنجلترا (١٥٢٣) . ورحب به مور والملكة كاترين التى تنتمى إلى وطنه (أسبانيا) . وعينه هنرى واحداً من أساتذة الأميرة مارى الخصوصيين . وربما ألف كتابه « فى تربية الأطفال » لإرشادها (١٥٢٣) . وسارت الأمور على ما يرام إلى أن أعرب عن استنكاره لطلب هنرى فسخ زواجه . فأوقف هذا راتبه واعتقله فى بيته ستة أسابيع ؛ ولما أطلق سراحه عاد إلى بروج (١٥٢٨) وهناك أنفق سنى حياته الباقية .

وإذ ظل مثالياً وهو فى السابعة والثلاثين فقد وجه إلى شارل الخامس نداء إرزمياً يدعوه فيه إلى إنشاء محكمة دولية للتحكيم بديلا عن الحروب (١٥٢٩) وبعد عامين أصدر أكبر كتبه ، وهو أكثر رسائل النهضة الأوربية التعليمية تقدماً ، وفيه دعا إلى تعليم موجه إلى « ضروريات الحياة ، وإلى شىء من النهوض سواء بالجسد أو العقل ، وإلى تربية الاحترام وزيادته(١٩) » وقال

إن على التلميذ أن يدخل المدرسة « كأنه يدخل هيكلا مقدساً » ولكن دراسته فيها يجب أن تعده ليكون مواطناً كريماً نافعاً ، وأن تغطى هذه الدراسات الحياة بأسرها مع مراعاة اتصالها بعضها ببعض كما تؤدى وظائفها فى الحياة . ويجب أن تدرس الطبيعة كما تدرس الكتب ، فالأشياء تعلم الطالب أكثر مما تعلمه النظريات ، فليلاحظ إذن العروق والأعصاب والعظام وسائر أعضاء الجسم فى تشريحها وفى أداء وظائفها . وليسأل المزارعين والصيادين والرعاة والبستانيين ، وليفد من خبراتهم ، فان هذه المعلومات التى يلتقطها ستكون أنفع له من « الثرثرة السكولاستية التى أفسدت كل فروع المعرفة باسم المنطق »(٢٠) . وينبغى أن تظل الدراسات القديمة المنقاة خصيصاً للشباب جزءاً حيوياً من المنهج ، ولكن يجب أن يدرس أيضاً التاريخ الحديث والجغرافيا . كذلك يجب أن تدرس اللغات القومية كما تدرس اللاتينية ، وكل هذا بالطريقة المباشرة المستعملة فى الحياة اليومية .

لقد كان فيف متقدماً جداً على جيله ، فلم يفطن إليه ذلك الجيل ، وتركه يموت فقيراً ، وقد ظل كاثوليكياً إلى النهاية .

٣ — العلمـــاء

كانت المهمة المميزة للجامعات والأكاديميات والعلماء الإنسانيين فى عصر النهضة هى جمع تراث العالم القديم ، عالم اليونان والرومان ، وترجمته ونقله إلى جيل الشباب فى أوربا الحديثة . وقد أنجزت هذه المهمة على وجه رائع ، وكان الكشف عن وحى العالم القديم كاملا .

بقى رجلان يجب أن نخلد ذكرهما كاهنين لهذا الوحى ، وأول الرجلين هو جيوم بوديه ، الذى بلغ الثانية والستين و هو يعلل النفس بأن يجعل باريس وارثة للدراسات الإنسانية الإيطالية ، ثم رأى هذا الأمل يتحقق

حين أنشأ فرانسوا الكلية الملكية . وقد بدأ بوديه دراساته فى كبره بدرس القانون ، فظل زهاء عشر سنوات يدفن نفسه فى « قوانين جستنيان » . ورغبة فى تفهم هذه النصوص تفهماً أفضل ، وهى لاتينية اللغة بيزنطية المعانى ، راح يدرس اليونانية على يوحنا لاسكارس ، ويدرسها فى إخلاص وتفان حملا مدرسه عند رحيله أن يوصى له بمكتبته الثمينة العامرة بالكتب اليونانية . فلما نشر وهو فى الحادية والأربعين كتابه Annotationes in xxiv libros Pandectarum (١٥٠٨) توفرت ثامرة الأولى فى فقه النهضة ، دراسة لخلاصة جستنيان تستهدف هذه الخلاصة ذاتها وبيئتها ، بدلا من أن تنحيها هوامش الشراح لعباراتها . وبعد ست سنوات أصدر أثراً جليلا آخر من آثار البحث العميق (De asse et Partibus) وهو فى ظاهره نقاش للعملات والمقاييس القديمة . ولكنه فى حقيقته درس شامل للأدب القديم فيما يتصل بالحياة الاقتصادية . وأوقع من هذا « تعليقاته على اللغة اليونانية » (١٥٢٩) . وهو كتاب مفكك الترتيب ، ولكنه غنى بالمعلومات والإرشادات المعجمية ، بحيث وضع بوديه على رأس جميع الهيلنستيين الأوربيين . وأرسل له رابليه خطاباً أعرب فيه عن احترامه وتقديره . أما إرزمس فكانت تحيته له أنه غار منه . لقد كان إرزمس رجل دنيا ولم يكن الدرس إلا جزءاً من الحياة عنده . أما بوديه فكان الدرس والحياة عنده شيئاً واحداً . كتب يقول : إن فقه اللغة هو الذى ظل طويلا رفيقاً وشريكاً لى ، بل كان لى الخليلة التى ارتبطت بى بكل مواثيق الحب . . . ولكننى اضطررت إلى إرخاء ربط هذا الحب الذى ينهشنى . . . حتى كاد يدمر صحتى[٢١] » . وكان نخزته أن يضطر إلى اقتناص بعض الوقت من دراساته ليأكل وينام . وفى لحظات لهوه تزوج وأنجب أحد عشر طفلا . وفى الصورة التى رسمها له جان كاويه (المحفوظة بمتحف الفن المتروبولتانى فى نيويورك) تبدو عليه مسحة من تشاؤم .

ولكن فرانسوا الأول لا بد قد وجد فيه شيئاً من الحيوية لأنه عينه أميناً لمكتبة فونتنبلو ، وكان يحب أن يكون هذا العالم العجوز قريباً منه حتى فى رحلاته ؛ وفى إحدى هذه الرحلات مرض بوديه بالحمى ، وقد ترك تعليمات دقيقة بألا يصحب جنازته أى إحتفال . وفارق هذه الدنيا فى هدوء (١٥٤٠) . أما الأثر الذى خلده فهو كلية فرنسا ؛

ولم تكن باريس إبان حياته قد استوعبت بعد الحياة الثقافية لفرنسا : كان للدراسات الإنسانية اثنا عشر وطناً فرنسياً : منها بورج وبوردو ومونبلييه ، وأهم من هذه كلها ليون ، التى امتزج فيها الحب والدراسات الإنسانية ، ونساء الطبقة الراقية والأدب ، امتزاجاً ساراً مبهجاً . وفى آجن ، التى ما كان أحد ليبحث فيها عن إمبراطور ، هيمن يوليوس قيصر سكاليجر على مسرح فقه اللغة بعد موت بوديه هيمنة الإمبراطور المستبد . ولعل بادوا مسقط رأسه (١٤٨٤) . وقد وفد على آجن وهو فى الحادية والأربعين ، وفيها عاش حتى مات (١٥٥٨) . وكان كل العلماء يخشون بأسه لشدة تمكنه من لغة القدح اللاتينية ، وقد اكتسب شهرة حين هاجم إرزمس لغضه من شأن « الشيشرونيين » أى المتمسكين باللاتينية شيشرون دون غيرها . وانتقد رابليه ، ثم انتقد دوليه لانتقاده رابليه . وفى مجلد من كتابه Exercitationes فحص كتاب جيروم كاردان De subtilitate وأخذ على عاتقه أن يثبت أن كل ما أكده الكتاب زائف ، وكل ما أنكره صحيح . وكان كتابه فى النحو اللاتينى أول أجرومية لاتينية مبنية على مبادئ علمية . أما تعليقاته على أبقراط وأرسطو فممتازة ، سواء من حيث أسلوبها أو من حيث إسهامها فى العلم . وكان ليوليوس خمسة عشر طفلا أصبح أحدهم أعظم علماء الجيل التالى . وقد أسهم كتاب يوليوس Poetice الذى نشر بعد موته بأربع سنوات . وما قام به ولده من دراسات ، وما أثر به الإيطاليون الذين

تبعوا كاترين مديتشى إلى فرنسا — كل هذا أسهم فى تحويل تيار الدراسات الإنسانية الفرنسية وردها من الدراسات اليونانية إلى اللاتينية .

وقد أهدت حركة إحياء الدراسات اليونانية للثقافة عطاء ممتازاً هو ترجمة أميو لكتاب بلوتارخ « التراجم » . كان أميو أحد الرجال الكثيرين الذين حظوا برعاية مارجريت . وقد عين بنفوذها أستاذاً لكرسى اليونانية واللاتينية فى بورج . وكوفئ على ترجماته لدافنيس وخلوا وغيرها من قصص الحب اليونانية ، على طريقة ذلك العصر العجيبة السخية ، بمنحه رئاسة دير غنى . وإذ كفل له الرزق على هذا النحو تنقل كثيراً بين أرجاء إيطاليا إرضاء لميوله الأثرية واللغوية . ولما نشر كتابه « التراجم » (١٥٥٩) قدم له بدعوة بليغة لدراسة التاريخ بوصفه « خزانة البشرية » ، والمتحف الذى يحتفظ بمثات الأمثلة للفضيلة والرذيلة ، وللحكم الصالح والطالح ، ليسترشد بها بنو البشر ؛ وكان كتابليون يرى كتاب بلوتارخ فى التاريخ معلماً للفلسفة خيراً من الفلسفة ذاتها . ومع هذا فقد اضطلع بعد هذا بترجمة كتاب بلوتارخ Moralia أيضاً ، وقد رقى إلى أسقفية أوجزير ، ومات هناك معمراً فى الثمانين (١٥٩٣) . أما ترجمته لكتاب بلوتارخ « التراجم » فلم تكن صحيحة دقيقة فى كل جزء منها ، ولكنها كانت أثراً أدبياً فى ذاته ، تميز بأسلوب طبيعى فردى لا يقل عن أسلوب الأصل . أما تأثيره فكان هائلا . وقد استمتع به مونتينى أيما استمتاع ، وانصرف عن فرنسا القديس بارتلميو إلى هذا الأثر القديم الذى أضفت عليه الترجمة روعة وسموا . واختار شكسبير ثلاث تمثيليات من ترجمة نورث القوية المنقولة عن ترجمة أميو ، وأصبح المثال الذى رسمه بلوتارخ للبطل نموذجاً حاكاه عشرات الثوار وكتاب المسرحيات . وأعطى هذا الكتاب Vies des hommes illustres للأمة مجمعاً من الأبطال المشهورين خليقاً بأن يحرك ما تنطوى عليه الروح الفرنسية من الفضائل الأكثر رجولة وأشد قوة .

٤ — النهضة الفرنسية (الميلاد الجديد)

من الأشياء المألوفة والمغتفرة أن تطلق عبارة « الميلاد الجديد » ، وهى عبارة حافلة بالمعانى الإضافية ، على الفترة الممتدة بين ارتقاء فرانسوا الأول العرش (١٥١٥) واغتيال هنرى الرابع (١٦١٠) . كان هذا الازدهار البهى للشعر والنثر والعادات الاجتماعية والفنون والملابس الفرنسية فى جوهره نضجاً أكثر منه ميلاداً جديداً . فقداستطاع الاقتصاد الفرنسى والروح الفرنسية أن يفيقا من حرب المائة عام بفضل ما أتيح للناس من مرونة صابرة وما استجد من نمو التربة التى ألقيت فيها البذار حديثاً . وكان لويس الحادى عشر قد منح فرنسا حكومة منظمة ممركزة قوية ، ومنحها لويس الثانى عشر عقداً مثمراً من السلام . وظلت إبداعية العصر القوطى الحرة ، الطليقة ، الغريبة الأطوار ، حية متوازنة غالبة على رابليه ، الذى بلغ إعجابه بالآداب القديمة مبلغاً جعله يقتبس منها كلها تقريباً . ولكن اليقظة الكبرى كانت كذلك ميلاداً جديداً . فقد تأثر الأدب والفن الفرنسيان تأثراً لا ريب فيه بما أتيح لهما من علم أوثق بالثقافة القديمة والأشكال الكلاسكية . واستمرت هذه الأشكال وهذا المزاج الكلاسيكى — الذى يغلب الفكر المتظم على العاطفة المشبوبة — فى الدراما والشعر والتصوير والنحت والمعمار الفرنسى زهاء ثلاثة قرون . أما العوامل المخصبة فى هذا الميلاد الجديد فهى الكشف والغزو الفرنسيان لإيطاليا ، والدراسة الفرنسية للآثار والفقه والآداب الرومانية وللآداب والفنون الإيطالية ، وتدفق الفنانين والشعراء الإيطاليين على فرنسا . وأسهمت عوامل كثيرة أخرى فى بلوغ هذه النهاية السعيدة : كالطباعة ونشر النصوص القديمة وترجمتها ، والرعاية التى حظى بها العلماء والشعراء والفنانون من الملوك الفرنسيين ومن عشيقاتهم ومن مارجريت النافارية ومن رجال الكنيسة والأشراف ، ومن إلهام النساء القادرات

على تذوق ألوان أخرى من الجمال غير جمالهن . كل هذه العناصر تضافرت للعمل على ازدهار فرنسا .

كان لفرانسوا الأول — الوريث لهذا التراث كله — تابع هو الشاعر الذى أدى مهمة الانتقال من القوطى إلى الكلاسيكى ومن فيون إلى النهضة . دخل هذا الشاعر — واسمه كليمان مارو — التاريخ صبياً مرحاً فى الثالثة عشرة يروح عن الملك بالقصص الظريفة والردود الذكية البارعة. وبعد سنوات هش فرانسوا لأنباء مغامرات الفتى ومشاجراته مع « جميع سيدات باريس » ، فقد وافقه على أنهن فى الحق فاتنات جداً .

« إن المرأة الفرنسية كاملة لا عيب فيها
فالسرور رائدها ، وهى لا تعبأ بالمال .
والفرنسيات — مهما قلت فيهن أو سخرت منهن —
هن أروع أعمال الطبيعة »(٢٢) .

كان مارو يثرثر بالشعر كأنه النبع الفوار ، وقلما اتصف شعره بالعمق ، ولكنه كان فى الكثير الغالب مشوباً بالعاطفة الرقيقة . كان شعر مناسبات ، وحديثاً فى أبيات قصيرة ، أو أغنيات شعبية ، أو قصائد غزلية صغيرة ، أو أغنيات ذوات لوازم متكررة ، أو هجائيات ورسائل تذكرك بهوراس أو مارتيال ، وقد لاحظ فى شىء من الغيظ أن النساء (برغم اعتراضه على هذا السلوك) يسهل إغراؤهن بالماس أكثر من القصائد العاطفية :

« حين تجد الغوانى عشيقاً ثرياً يلوح بماسة أمام عيونهن الضاحكة الخضراء فإن رءوسهن تدور . أتضحك مما أقول ؟ ملعون من يخطئ هنا . فالفضيلة العظمى لهذا الحجر الكريم هى التى تنشر الضباب أمام عيونهن. وإن عطايا وهدايا كهذه لأفضل من الجمال والحكمة والتوسلات . إنها تنوم الوصيفات ، وتفتح الأبواب الموصدة كأنها السحر . وتعمى

عيون المبصرين ، وتسكت نباح الكلاب . والآن أما زلت تكذبنى ؟ » .

وفى ١٥١٩ أصبح مارو وصيفاً خاصاً لمارجريت ووقع فى غرامها ممتثلا ، وذكرت الأقاويل أنها بثته شكوى بشكوى ، وأكبر الظن أنه لم ينل منها غير مذهبها . فقد عود نفسه الآن على التعاطف المعتدل مع قضية البروتستنت فى فترات غرامياته . وتبع فرانسوا إلى إيطاليا . وحارب فى بافيا وأبلى فيها بلاء الأبطال . ونال شرف الأسر مع مليكه ، ثم أطلق سراحه — ولا عجب ، فان أحداً لا يتوقع أن يفتدى شاعر بالمال . ولما عاد إلى فرنسا جهر بأفكاره البروتستنتية فى صراحة حملت أسقف شارتر على أن يستدعيه ويعتقله اعتقالا كريماً فى القصر الأسقفى . ثم أطلق سراحه بشفاعة مارجريت . ولكن سرعان ما قبض عليه لمساعدته المسجونين على الفرار من البوليس . وأطلق فرانسوا سراحه بكفالة وأخذه إلى بايون ليتغنى بمفاتن عروسه الجديدة إليانور البرتغالية . وبعد أن قضى فى السجن فترة أخرى لأكله لحم الخنزير فى الصوم الكبير تبع مارجريت إلى كاوُر ونيراك .

وسرعان ما تجددت الحملة على البروتستنت الفرنسيين نتيجة لحركة الملصقات . ونمى إلى مارو أن مسكنه فى باريس فتش ، وأن أمراً صدر بالقبض عليه (١٥٣٥) . وخاف ألا نجد مخبأ يكفى لإخفائه ولو كان عند مارجريت . ففر إلى إيطاليا لاجئا إلى الدوقة رينيه فى فررا . ورحبت به الدوقة ، كأن فرجيلا جديداً قد وصل من مانتوا . ولعلها كانت تعلم أنه يحب أن يربط اسمه باسم بوبليوس فرجيليوس مارو . ولكنه كان أكثر شبهاً بأوفيد العاشق المرح . أو بشاعره المفضل فيون . الذى أشرف على نشر قصائده . وترسم خطاه فى حياته . ولما أذاع الدوق إركولى الثانى أنه اكتظ بالبروتستنت . انتقل كايمان إلى البندقية . وهناك بلغه أن فرانسوا عرض العفو عن المهرطقين المرتدين

عن ضلالهم . فأعلن مارو ارتداده ، لأنه رأى أن نساء باريس جديرات بتضحية العقيدة . ومنحه الملك بيتاً وحديقة ، وحاول كلمان أن يعيش عيشة السادة البورجوازين .

ثم طلب إليه فرانسوا فاتابل الذى كان يدرس العبرية فى الكلية الملكية أن يترجم المزامير شعراً فرنسياً ، وشرحها له كلمة كلمة . فترجمها شعراً رخيماً ونشرها مشفوعة باهداء جميل العبارة إلى الملك . وأعجب بهـا فرانسوا إعجاباً حمله على أن يهدى نسخة خاصة منها إلى شارل الخامس ، الذى كان صديقاً له فى تلك الفترة : وبعث شارل إلى الشاعر بمائتى كراون (٥٠٠٠ دولار ؟) . وترجم مارو مزيداً من المزامير ونشرها فى ١٥٤٣ مع إهداء إلى غرامه الأول « سيدات فرنسا » . ووضع لها جوديميل موسيقى كما رأينا ، وبدأ نصف فرنسا ينشدها . ولكن إعجاب لوثر وكالفن أيضاً بها شكك السوربون ، فشمت فيها رائحة البروتستنتية ، أو لعل مارو عاد إلى التمتمة بهرطقاته فى محنة نجاحه . وتجددت الحملة عليه ، ففر إلى جنيف . ولكنه وجد المناخ اللاهوتى فيها أشد صرامة مما تحتمله صحته ، فتسلل إلى إيطاليا ومات فى تورين (١٥٤٤) فى التاسعة والأربعين ، تاركاً ابنة غير شرعية لرعاية ملكة نافار :

٥ — رابليـــه

(أ) رابليـــه الإنســـان :

أن مؤلف « أمتع وأنفع ماروى من قصص »[٢٢] هذا المؤلف الفذ ، الواسع الحيلة ، الشكاك ، المرح ، المثقف ، البذىء — رأت عيناه النور فى ١٤٩٥ ، ابنا لموثق غنى فى شينون . وأدخل فى سن مبكرة جداً ديراً فرانسسكانيا . وقد شكا بعد ذلك من أن النساء « يحملن الأطفال تسعة شهور تحت قلوبهن . . . ولكنهن لا يطقن تربيتهم تسع سنوات . . .

ويكفى أن يضفن ذراعاً من القماش إلى ثيابهم ويحلقن شعرات لا أدرى كم عددها من قمة رءوسهم ليحولنهم طيوراً بيضع كلمات » . وهو يعنى جز شعورهم وتحويلهم رهباناً . وقد ارتضى الغلام حظه هذا لميله إلى الدرس ، ولعله كإرزمس اجتذبته مكتبة الدير إلى الكتب. وهناك التقى براهبين أو ثلاثة أخر راغبين فى دراسة اليونانية ، وقد شدهم هذا العالم القديم الفسيح الذى فتح لهم الدرس والبحث مغاليقه . وأحرز فرانسوا من التقدم ما جعل بوديه نفسه يبعث إليه بخطاب ثناء . وبدا أن الأمور تسير على ما يشتهى . وفى عام ١٥٢٠ رسم شكاك المستقبل قسيساً ، ولكن نفراً من كبار الرهبان شموا الهرطقة فى فقه اللغة ، فاتهموا الهلنستيين الشبان بشراء الكتب بالأتعاب التى يتلقونها نظير الوعظ بدلا من تسليمها للخزانة العامة . وحبس رابليه وراهب آخر حبساً انفرادياً ، وحرما الكتب وهى لهما نصف الحياة . ونمى إلى بوديه هذا الاتجاه الرجعى فلجأ إلى فرانسوا الأول ، وأمر الملك باطلاق سراح الأديبين ورد امتيازاتهما . وبفضل شفاعة أخرى صدر مرسوم بابوى أذن لرابليه بتغيير تبعيته وإقامته الديريتين . فترك الفرنسسكان ، ودخل بيتاً بندكتيا فى مايزيه (١٥٢٤) ، وهناك أعجب به الأسقف جوفروا دستيساك إعجاباً حمله على أن يتفق مع رئيس الدير على السماح لرابليه بالذهاب حيث شاء للدرس ؛ وذهب رابليه ، ونسى أن يعود .

وبعد أن جرب عدة جامعات دخل مدرسة الطب فى مونبليه (١٥٣٠). ولا بد أنه كان قد حصل تعليماً سابقاً فى الطب ، لأنه نال درجة البكالوريوس فى الطب عام ١٥٣١ . على أنه لأسباب لا نعلمها لم يواصل دراسته لنيل الدكتوراة ، بل عاد إلى تجواله حتى استقر به النوى فى ليون فى ١٥٣٢ ، وجمع بين ممارسة الطب ودراساته الأدبية ، شأنه فى ذلك شأن سرفيتوس . ثم اشتغل مساعد تحرير للطباع سباستيان جريفيوس ونشر عدة نصوص

يونانية وترجم حكم أبقراط إلى اللاتينية . وانزلق برضاه إلى تيار الدراسات الإنسانية الذى كان يومها فى عنفوان تدفقه فى ليون . وفى ٣٠ نوفمبر ١٥٣٢ بعث بنسخة من « يوسيفوس » إلى إرزمس بخطاب زلفى يستغرب من رجل فى السابعة والثلاثين . ولكنك تشم فيه رائحة ذلك العصر الجياش بالحماسة :

« بعث إلى جورج دارمناك مؤخراً . . . بتاريخ فلافيوس يوسيفوس . . . وطلب إلى . . . أن أرسله إليك . وقد تحينت هذه الفرصة مشتاقاً ، يا أكثر الآباء إنسانية ، لأدلل لك بالتقدير الشاكر على احترامى العميق لك وعلى ولائى البنوى . أقول هل دعوتك بأبى ؟ أجدر بى أن أدعوك بأمى لو اتسع الملك صدرك . فكل ما نعرف عن الأمهات . اللائى يغذين ثمرة بطونهن قبل أن يرينها وقبل أن يعرفن حتى ما ستكون عليه . واللائى يرعينها ويحمينها من قسوة الجو . كل هذا صنعته أنت بى . أنا الذى لم يكن وجهى معروفاً لك ولا كان اسمى المغمور ليستطيع أن يستهويك . لقد ربيتنى وغذوتنى من ذلك الصدر الطاهر . صدر معرفتك المقدسة . وكل ما أنا عليه . وكل ما أساويه . إنما أنا مدين به لك وحدك . ولو لم أجهر بهذه الحقيقة لكنت أشد الناس عقوقاً . تحية مرة أخرى أيها الأب المحبوب . يا شرف وطنك . ويا عماد الأدب . ويا نصير الحقيقة الذى لا يقهر »(٢٤) .

وفى نوفمبر من ذلك العام (١٥٣٢) نجد رابليه طبيباً فى الأوتيل ديو ، وهو مستشفى مدينة ليون . يتقاضى راتباً قدره أربعون جنيهاً (١٠٠٠ دولار ؟) فى العام . ولكن يجب ألا نحسبه عالماً أو طبيباً مثالياً . صحيح أن ثقافته كانت منوعة وهائلة . فيبدو أنه كان كشكسبير له معرفة مهنية فى ميادين شتى — كالقانون والطب والأدب واللاهوت والطهو والتاريخ والنبات والفلك والميثولوجيا . وهو يشير إلى مئات الأساطير القديمة ، ويقتبس من عشرات المؤلفين القدامى . ونراه أحياناً

يعرض علمه الواسع عرض الهواة . ولكنه شغل بالحياة شغلا لم يتح له وقتاً لبلوغ الدقة الشديدة فى دراسته . ولم تكن الطبعات التى نشرها نماذج تحتذى فى دقة التفاصيل . لم يكن فى طبعه أن يكون أديبا إنسانيا متفانيا كإرزمس أو بوديه ، فلقد كان يحب الحياة أكثر من الكتب . والصورة التى تركت لنا عنه صورة رجل تروع الناظر طلعته ، فارع القامة حلو الوجه ، ينبوع للثقافة ومحدث يشع نوراً وناراً[٢٥]. ولم يكن سكيراً كما استنتجت خطأ رواية قديمة متواترة من تحياته للسكارى ومن خمرياته. بل انه على العكس عاش عيشة مهذبة الى حد معقول ، هذا إذا استثنينا طفلا غير شرعى أنجبه ،[٢٦] ولم يعش سوى فترة قصيرة بحيث يمكن اعتباره خطيئة بسيطة . وقد كرمته أسمى عقول جيله ، بما فيهم نفر عديد من أحبار الكنيسة . وكان فى الوقت نفسه يتصف بكثير من صفات الفلاح الفرنسى ، فيجد لذة فى أنماط الفلاحين الصرحاء المرحين الذين يلقاهم فى الحقول والشوارع ويستمتع بفكاهاتهم وضحكهم وبقصصهم الطويلة وعباراتهم البذيئة المتفاخرة . وقد طغت شهرته دون عمد منه على شهرة إرزمس لأنه جمع هذه القصص ، وربط بينها ، وحسنها ، ووسعها ، وأضفى عليها الكرامة بالعلم الكلاسيكى ورفعها إلى مقام الهجاء البناء ، وضمنها فى حرص ما حوته من فحش وبذاءة .

ومن هذه القصص قصة كانت آنئذ ذائعة فى كثير من أنحاء الريف ، روت أخبار مارد لطيف يدعى جارجانتوا ، وتحدثت عن شهيته الوحشية ، وعن غرامياته ومظاهر قوته العظيمة ، وكانت تنتشر هنا وهناك تلال وصخور ذكرت الروايات المحلية أنها تساقطت من سلة جارجانتوا أثناء مروره . وكانت هذه الأساطير لا تزال تروى فى عام ١٨٦٠ فى الكفور الفرنسية التى لم تسمع قط برابليه . وقد دون كاتب مجهول — ربما كان رابليه نفسه — على سبيل التفكه بعض هذه الخرافات وطبعها

فى ليون فى كتاب سماه « الأخبار العظيمة الثمينة للمارد الكبير الهائل جارجانتوا » (١٥٣٢) . وراج الكتاب بسرعة حملت رابليه على التفكير فى كتاب ملحق له عن ابن جارجانتوا . وهكذا ظهر فى سوق ليون المنعقدة فى أكتوبر ١٥٣٢ ، غفلا من اسم المؤلف ، كتاب عنوانه « الأعمال المرعبة المخيفة وأفعال البسالة التى قام بها بنتاجرويل الأشهر ». وكان هذا الاسم قد استعمل من قبل فى بعض الدرامات الشعبية ، ولكن رابليه أضفى على صاحبه محتوى وعمقاً جديدين . ونددت السوربون والرهبان بالكتاب لبذاءته ، وراج رواجاً حسناً . واستمتع به فرانسوا الأول ، ووجد بعض رجال الدين لذة فى قراءته . على أن رابليه لم يعترف بأنه مؤلفه إلا بعد مرور أربعة عشر عاماً ، فقد خشى أن يعرض للخطر سمعته كأديب ، إن لم يعرض حياته .

وكان لا يزال شديد التعلق بالدرس . حتى أهمل واجباته فى المستشفى فطرد . ولعله كان ملاقياً عنتاً فى كسب قوته لولا أن جان دبلليه أسقف باريس والمشارك فى تأسيس كليه فرنسا أخذ رابليه معه طبيباً فى بعثة إلى إيطاليا (يناير ١٥٣٤) . ولما عاد رابليه إلى ليون فى إبريل نشر فى أكتوبر « قصة جارجانتوا الكبير ، أبى بنتاجرويل ، وحياته المرعبة جداً » . وقد حوى هذا المجلد الثانى ، الذى أصبح بعد ذلك الجزء الأول من الكتاب كله ، هجاء مرحاً لرجال الدين حمل السوربون على التنديد به مرة أخرى . وسرعان ما راجت القصتان المنشورتان معاً رواجاً بز كل كتاب فى فرنسا باستثناء الكتاب المقدس و « محاكاة المسيح »(٢٧) . وقد قيل ن الملك فرانسوا ضحك وصفق استحساناً فى هذه المناسبة أيضاً .

ولكن لصق الإعلانات البروتستنتية المهينة فى ليلة ١٧ – ١٨ أكتوبر ١٥٣٤ على مبانى باريس وعلى باب قصر الملك نفسه بدل الملك من حامى الأدباء الإنسانيين إلى مضطهد المهرطقين . وكان رابليه قد

أخفى مرة ثانية أنه مؤلف الكتاب . ولكن الشكوك الكثيرة حامت حوله ، وحق له أن يخشى أن تطالب السوربون برأس الكاتب البذىء بعد أن حملت الملك فى ركابها . وهنا بادر جان دبلليه مرة أخرى إلى إنقاذه ، واختطف الكنسى الطيب الذى أصبح الآن كردينالا ذلك الأديب الطيب ، والكاتب البذىء ، من مخبئه فى ليون وأخذه إلى روما (١٥٢٥) . وكان من حظ رابليه أن يجد على كرسى البابويه رجلا مستنيراً. فاغتفر له بولس الثالث إهماله واجباته الديرية والكهنوتية وأذن له بممارسة الطب . وعكف رابليه — على سبيل التعويض والتكفير — على تنقية الطبعات التالية من كتابه ، « المؤيد يومئذ تأييداً مضاعفاً » ، من الفقرات التى تسىء إساءة شديدة إلى الذوق التقليدى . ولما احتال عليه إتيين دوليه فنشر دون إذنه طبعة غير منقاة ، شطب اسمه من قائمة أصدقائه . ثم عاد إلى الدرس فى مونبلييه برعاية الكردينال ، ونال الدكتوراة فى الطب ، وحاضر الجماهير الكبيرة هناك . ثم عاد إلى ليون ليستأنف حياته طبيباً وأديباً . وفى يونيو ١٥٣٧ ذكر دوليه أنه فى درس تشريح شرح أمام جماعة من الطلاب جثة مجرم نفذ فيه حكم الإعدام .

بعد هذا لا نعرف عن حياته المتقلبة غير نتف من هنا وهناك . كان فى حاشية الملك خلال الاجتماع التاريخى بين فرانسوا الأول وشارل الخامس فى إيجمورت (يوليو ١٥٣٨) . وبعد عامين نجده فى تورين طبيباً لجيوم دبلليه ، شقيق[٢] الكردينال ، بعد أن أصبح سفيراً لفرنسا فى سافوا . وحوالى هذه الفترة وجد الجواسيس فى رسائل رابليه فقرات أحدثت ضجة فى باريس فسارع إلى العاصمة وواجه الموقف بشجاعة . ثم برأه الملك (١٥٤١) ، وعلى الرغم من تنديد السوربون من جديد بجارجانتوا وبنتاجرويل عين فرانسوا المؤلف المطارد فى وظيفة حكومية صغيرة هى وظيفة مأمور العرائض ، ومنحه إذناً رسمياً بنشر

الجزء الثانى من بنتاجرويل الذى أهداه رابليه شاكراً إلى مارجريت النافارية . وقد أثار هذا الجزء من الاضطراب فى أوساط اللاهوتيين ما رأى معه رابليه أن من الحكمة أن يلتجىء إلى متز ، وكانت يومها جزءاً من الإمبراطورية . وهناك قضى عاماً يشتغل طبيباً بمستشفى المدينة (١٥٤٦ — ٤٧) . وفى ١٥٤٨ رأى أن لا خطر عليه فى الرجوع إلى ليون ، وفى ١٥٤٩ عاد إلى باريس . وأخيراً حصل له حماته من رجال الكنيسة على وظيفة قسيس لأبرشية مودون الواقعة إلى الجنوب الغربى من العاصمة مباشرة ، وهكذا عاد هذا الكهل المزعج ، المطارد ، إلى ثيابه الكهنوتية . ويبدو أنه وكل إلى مرءوسيه أداء واجبات وظيفته الدينية واكتفى بالانتفاع بايرادها (٢٨) . وكان على قدر عادمنا لا يزال قسيس مودون حين نشر ما هو الآن الجزء الرابع من كتابه (١٥٥٢) . وفى هذا الموقف شىء من الشذوذ . وقد أهداه إلى أوديه كردينال شاتيون ، بإذن منه على الأرجح ، وواضح أنه كان فى فرنسا إذ ذاك بين رجال الكنيسة نفر أوتوا ثقافة كرادلة النهضة الإيطالية ونساكهم . على أن السوربون نددت بالكتاب ، وحظر « البرلمان » بيعه . وكان فرانسوا الأول ومارجريت قد ماتا ، ولم يجد رابليه حظوة لدى هنرى الثانى المكتئب المزاج . فغاب عن باريس حيناً ثم عاد إليها سريعاً . وهناك مات بعد مرض طويل . وتروى قصة قديمة أنه حين سئل على فراش الموت إلى أين يتوقع أن يمضى أجاب « أنا ماض لأبحث عن ربما كبيرة »(٢٩) إنها أسطورة ، ويا للأسف .

(ب) جارجانتوا

تنبىء مقدمة الجزء الأول من هذا الكتاب (أو الجزء الثانى فى الأصل) للتو بمذاق الكتاب كله ورائحته :

« يا أشرف السكارى وأذيعهم صيتاً . وأنتم يا أغلى القضبان المرحين ،

المفترى عليهم ، (لأنه إليكم أنتم دون سواكم أهدى كتاباتى). . . لو أنكم تأملتم شكل سقراط وقدرتموه حسب مظهره الخارجى لما ساوى فى نظركم قشرة بصلة . . . إنكم يا تلاميذى الطيبين وغيركم من الحمقى المرحين ، المؤثرين الراحة والدعة ، إذ تقرءون العناوين السارة لبعض الكتب التى نخترعها . . . تتسرعون فى الحكم بأنه ليس فيها سوى النكات والدعابات الساخرة والحديث الفاجر والأكاذيب المروحة عن النفس . . . ولكن . . . حين تطلعون على هذا المقال ستجدون . . . تعليماً ذا تفكير أعمق وأكثر تجرداً . . . . سواء فيما يتصل بديننا أو شئون الحكم العام والحياة الاقتصادية . . . وقد يتكلم أحمق مغرور مشوش العقل بشر عن كتبى ، فلا تعبأوا به ، وامرحوا الآن يا أبنائى . واشرحوا صدوركم ، واقرأوا بابتهاج . . . . هيا إلى آخر كلمة » .

وهذا الكلام منقول عن ترجمة أوركهارت الشهيرة ، التى تتجاوز الأصل أحياناً ، ولكنها هنا تلتزمه بدقة ، حتى لتذكر الكلمات العنيفة التى لم يعد مسموحاً بها فى حديث المثقفين . وفى هاتين الفقرتين تطالعنا روح رابليه وهدفه : الهجاء الجاد مغلفاً فى تهريج يخفف من عنفه ، وملطخاً أحياناً بسناج خالص . ونحن نمضى فى هذه المغامرة على ما فيها من خطر ، شاكرين لأن الكلمة المطبوعة لا تنبعث منها رائحة خبيثة ، آملين أن نعثر وسط هذا الكوم من القمامة على بعض الأحجار الكريمة .

ويبدأ جارجانتوا بسلسلة نسب فريدة تحاكى أنساب التوراة شكلا . أما أبو المارد فهو جرانجوزييه ملك يوتوبيا . وأما أمه فهى جارجاميل ، حملته أحد عشر شهراً . ولما بدأت آلام مخاضها اجتمع أصدقاء الأسرة ليسمروا وهم يحتسون النبيذ ، زاعمين أن الطبيعة تكره الفراغ . ويقول الأب المخمور لزوجته بلهجة من لا يعرف الألم « امضى بشجاعة النعجة ، وأخرجى لنا هذا الغلام بسرعة ، وسنعكف بعدها على العمل فوراً . . .

لنصنع غيره » . وتتمنى الزوجة لحظة أن يلقى حظ أبيلار ؛ ويقترح هو أن ينجز ما تتمناه للتو ، ولكنها تعود فتعدل . أما جارجانتوا الجنين فاذ وجد المنفذ العادى للوليد مسدوداً بقابض أخذ فى غير أوانه . فقد « دخل وريد جارجاميل الأجوف » وتساق حجابها الحاجز وعنقها . ثم « انبثق من الأذن اليسرى » . وما ان ولد حتى راح يصيح . ويصيح بصوت علا حتى أسمع إقليمين : « الشراب ! الشراب ! الشراب ! » وخصص لطعامه ١٧,٩١٣ صفيحة من اللبن . ولكنه منذ البدء أبدى إيثاره للنبيـــذ .

ولما آن أوان تعليم المارد الصغير وتهيئته لارتقاء العرش . عين له مرب خاص هو الأستاذ جوبلان الذى أحاله فتى غبياً . لأنه حشا ذاكرته بالحقائق الميتة وأربك عقله بحجج الكلاميين . واضطر جارجانتوا إلى سلوك سبيل يائس ، فنقل الغلام ووضعه فى رعاية الأديب الإنسانى بونوكراتيس . وانطلق الأستاذ وتلميذه إلى باريس لتحصيل أحدث تعليم فيها . وكان جارجانتوا يركب فرساً ضخمة قطع ذيلها الهفاف الغابات الفسيحة أثناء مرورها ، وهكذا أصبح جزء من فرنسا سهلا . ولما بلغا باريس ارتقى جارجانتوا برجاً من أبراج نوتردام واستهوته أجراس الكاتدرائية فسرقها ليعلقها حول عنق فرسه. وبدأ بونوكراتيس من جديد تعليم المارد الذى أفسد تعليمه ، وذلك باعطائه مسهلا هائلا ليطهر أمعاءه ومخه جميعاً ، ولا غرو فكلاهما وثيق الصلة بالآخر . فلما تنقى جارجانتوا على هذا النحو أولع بالتعليم وبدأ بحماسة يدرب جسده وعقله وخلقه فى وقت معاً . فدرس الكتاب المقدس والآداب القديمة والفنون ؛ وتعلم أن يعزف على العود والبيان وأن يستمتع بالموسيقى . وكان يجرى ويقفز ويصارع ويتسلق ويسبح ، ومارس الركوب والدفع بمنكبيه والمهارات التى يحتاج إليها المقاتل فى الحرب . والصيد ليربى شجاعته .

ولكى ينمى رئتيه كان يصيح حتى سمعته باريس كلها . وزار صناع المعادن وقاطعى الأحجار والصياغ والكيمائيين والنساجين وصانعى الساعات والطباعين والصباغين ودرس حرفهم « باعطائهم شيئاً يشربونه » وكان فى كل يوم يشارك فى عمل بدنى نافع ، ويذهب أحياناً لحضور محاضرة أو مشاهدة تجربه أو الاستماع إلى « مواعظ الوعاظ الإنجيليين » (وتلك غمزة بروتستنتية) .

وفجأة استدعى جارجانتوا وهو يتلقى هذا التعليم كله إلى مملكة أبيه لأن ملكاً آخر يدعى بكروشول أعلن الحرب على جرانجوزييه . لماذا ؟ إن رابليه يسرق هنا قصة من كتاب بلوتارخ « حياة بيروس » ويروى أن قواد بكروشول راحوا يفاخرون بما يستطيعون فتحه من بلاد تحت قيادته : فرنسا وأسبانيا والبرتغال والجزائر وإيطاليا وصقلية وكريت وقبرص ورودس واليونان وأورشليم . . . ويغتبط بكروشول وتنتفخ أوداجه . غير أن فيلسوفاً عجوزاً يسأله : « وما نهاية كل هذه المتاعب والأسفار ؟ » ويجيب بكروشول : « حين نعود سنجلس ونستريح ونبتهج » . ويقترح عليه الفيلسوف هذا الرأى « ولكن هبك لم تعد إلى وطنك قط لطول الرحلة وخطرها ، أفلا يحسن بنا أن نستريح من الآن ؟ » وصاح بكروشول « كفى . امضوا بنا قدماً . إننى لا أخشى شيئاً . . . وليتبعنى من يحبنى » (١ — ٣٣) . وتكاد فرس جارجانتوا تنهى الحرب مع بكروشول بالفوز عليه لأنها أغرقت آلافاً من رجال العدو بدفقة بسيطة واحدة من بولها .

ولكن بطل الحرب الحقيقى هو الأخ يوحنا ، وهو راهب أحب القتال أكثر من الصلاة ، وسمح لتطلعه الفلسفى أن يغامر فى مسالك أكثر خطراً . فهو يتساءل مثلا « ما السبب فى أن فخذى السيدة النبيلة تبدوان دائماً غضتين رطبتين ؟ » — ومع أنه لا يجد فى كتب أرسطو أو بلوتارخ ما ينيره فى هذه المشكلة الجذابة ، فانه هو نفسه يجيب إجابات

غنية فى العلم بفنون الأفخاذ . وقد أحبه كل رجال الملك ، وهم يقدمون له من الطعام والنبيذ ما يشتهى ، ويدعونه لخلع رداء الرهبنة حتى يستطيع ابتلاع المزيد من الطعام ، ولكنه يخشى ألا تتوفر له الشهية الطيبة لو خلعه . ويذم المؤلف جميع النقائص التى يرمى بها المصلحون البروتستنت جماعة الرهبان ، عن طريق هذا العضو المرح من أعضاء هذه القبيلة : كالكسل والشره والإسراف فى الشراب والتمتمة بالصلوات والعداء للدرس والأفكار كلها ، اللهم الا رقعة متضائلة منها . يقول الأخ يوحنا : « فى ديرنا لا نعكف على الدرس أبداً مخافة أن نصاب بالتهاب الغدة النكفية » . (١ — ٣٩) .

واقترح جارجانتوا أن يكافئ الراهب على حسن بلائه فى الحرب بتعيينه رئيساً على دير قائم . ولكن يوحنا رجا بدل هذا أن يوفر له المال لتشييد دير جديد له قوانين « تناقض قوانين الأديار كلها » فيجب أولا ألا تقام حواله أى أسوار تحصره ، وأن يكون نزلاؤه أحراراً فى تركه حين يشاءون . ثانياً : يجب ألا تمنع النساء من دخول الدير . ولكن لا يدخله منهن سوى « الجميلات الحسنات الصورة الدمثات الخلق » ممن تتراوح أعمارهن بين العاشرة والخامسة عشرة . ثالثاً : لا يقبل من الذكور سوى من كان بين الثانية عشرة والثامنة عشرة ، على أن يكونوا وسيمى الوجوه كريمى المولد والطباع ، ولا يسمح للسكيرين أو المتعصبين بالدخول ، ولا للمتسولين أو المحامين أو القضاة أو الكتبة أو المرابين أو الجشعين النهابين أو المنافقين المتزلفين بدخول الدير . رابعاً : لا يسمح بنذور للعفة أو الفقر أو الطاعة ، فللأعضاء أن يتزوجوا وأن يستمتعوا بالمال وأن يكونوا أحراراً فى جميع شئونهم . ويطلق على الدير اسم تليمى أى « ماشئت » ، أما قانونه الوحيد فهو « افعل ما تريد » لأن « الناس الأحرار الطيبى العنصر الحسنى التربية الكريمى المعشر أوتوا بالطبع

غريزة وحافزاً يدفعانهم للفعال الفاضلة ويبعدانهم عن الرذيلة ، وهذه الغريزة اسمها الشرف » (١ — ٥٧) . وقد قدم جاجارجانتوا المال اللازم لإقامة هذه الفوضى الارستقراطية ، وارتفع بناء الدير حسب المواصفات التى وضعها رابليه فى تفصيل أغرى المعماريين برسم رسوم له . وقد زوده بمكتبة ومسرح وحمام سباحة وملعب للتنس وآخر لكرة القدم وكنيسة صغيرةوحديقة وأرض للصيد وبساتين فاكهة واسطبلات و ٩٣٣٢ حجرة . لقد كان فندقاً أمريكياً مقاماً فى بلد للنزهة . على أن رابليه نسى أن يزود الدير بمطبخ أو أن يدلنا على من يقوم بالأعمال الوضيعة فى هذا الفردوس .

ج — بنتاجرويل

بعد أن خلف جارجانتوا أباه على العرش جاء دوره فى الإنجاب والتربية . فحين بلغ من العمر أربعمائة وثمانين وأربعة وأربعين عاماً أنجب بنتاجرويل من زوجته باديبيك التى ماتت وهى تلد الغلام فبكى عليها جارجانتوا « كما تبكى البقرة » و « ضحك كما يضحك العجل » حين رأى ولده القوى البدن . وشب بنتاجرويل حتى استفحل حجمه : وفى إحدى وجباته ابتلع رجلا عن غير قصد ، ولم يكن بد من إخراجه بعملية تعدين فى قناة المارد الصغير الهضمية ، ولما ذهب بنتاجرويل إلى باريس ليتلقى تعليمه العالى أرسل له جارجانتوا رسالة تشم فيها عبير النهضة الأوربية : —

ولدى الأعـــز :

. . . . مع أن المرحوم أبى الطيب الذكر جرانجوزييه بذل ما وسعه من جهد ليسر لى الإفادة من جميع نواحى العلم والمعرفة السياسية ، ومع أن جهدى وعكوفى على الدرس قابلا رغبته هذه بل جاوزاها . فان

الزمن كما تعلم جيداً لم يكن يومها مواتياً كما هو الآن للتعلم . . . لقد كان زمناً مظلماً تحجب سماءه غيوم الجهالة وينبعث فيه شيء من نحس القوط ونكبتهم ، القوط الذين دمروا كل الأدب الطيب حيثما استقرت أقدامهم ، ذلك الأدب الذى رد بفضل الله فى عصرى إلى سابق إشراقه وكرامته بحيث لا يكاد يسمح لى الآن بدخول الصف الأول فى مدرسة ثانوية للصبيان . . . .

أما اليوم فقد زودت عقول الناس بشتى العلوم . وأحييت العلوم القديمة التى ظلت منقرضة أجيالا كثيرة ، وأعيدت لغات الثقافة إلى نقائها القديم — وأعنى اليونانية (التى يخجل الإنسان بدونها من أن يعد نفسه أديباً أو عالماً) ، والعبرية ، والعربية ، والكلدية ، واللاتينية . كذلك شاع استعمال الطباعة ، أنيقة دقيقة بحيث لا يمكن تصور ما هو أرقى منها . . .

وفى نيتى . . . أن تتعلم اللغات تعليماً كاملا . . . أما التاريخ فلا يفتك حفظ أى جزء منه . . . وأما الفنون الحرة كالهندسة والحساب والموسيقى فقد أتحت لك تذوقها حين كنت بعد صبياً . . . فامض فيها قدماً . . . وأما الفلك فادرس كل أصوله ، ولكن دعك من التنجيم . . . لأنه ليس سوى غش وغرور خالصين . . . وأما القانون المدنى فانى أريدك أن تحفظ نصوصه عن ظهر قلب ثم تبحثها مسترشداً بالفلسفة . . . وأما أعمال الطبيعة فانى أود أن تدرسها بدقة . . . ولا يفتك أن تطلع بعناية على كتب الأطباء اليونان والعرب واللاتين ، ولا تحتقر التلموديين ، والقبلانيين ، واستكثر من التشريح لتلم إلماماً تاماً بذلك العالم الصغير ، أعنى الإنسان . كذلك اعكف فى بعض ساعات النهار على درس الكتاب المقدس : أولا العهد الجديد باليونانية ، ثم العهد القديم بالعبرية . . .

ولكن بما أن الحكمة كما قال سليمان الحكيم لا تدخل عقلا شريراً، والعلم بدون ضمير ليس إلا مجلبة لخراب النفس ، فان من واجبك أن تخدم الله وتحبه وتخشاه . . . كن خدوماً لكل جيرانك وأحبهم كما تحب نفسك ، واحترم معلمك وتجنب حديث من لا ترغب فى التشبه بهم ، ولا تضيع المواهب التى منحك الله إياها . فاذا رأيت أنك حصلت كل ما يجب تحصيله من العلم فى تلك الناحية ، فعد إلى لكى أراك وأمنحك بركتى قبل أن أموت . » .

أبوك
جارجانتوا (٣٠)

وعكف بنتاجرويل على الدرس فى حماسة ، وتعلم لغات كثيرة ، وكان من الممكن أن يكرس وقته كله للقراءة والدرس لولا أنه التقى ببانورج . وهنا أيضاً يبرز التابع أكثر من السيد ، بأوضح حتى من بروز الراهب يوحنا ، كما يحجب سانشو بانزا أحياناً شخصية سيده دون كخوته . فرابليه لا يجد فى جارجانتوا ولا فى بنتاجرويل المجال الطليق لدعاباته البذيئة وألفاظه الصاخبة ، إنما هو فى حاجة إلى هذا المخلوق — الذى فيه أثر من الوغد ، ومن المحامى ، ومن الشاعر فيون ، ومن الفيلسوف — ليستخدمه أداة للهجو . وهو يصف بانورج (ومعنى الاسم : مستعد لعمل أى شىء) بأنه نحيل كالقط الجائع ، يسير فى حذر شديد « كأنه يمشى علىقشربيض » وأنه إنسان شهم وإن شابه بعض الفجور ، وأنه « عرضة لضرب من المرض . . . يسمى الإعسار » ، وأنه نشال ، « ومتشرد فاسق ، ومحتال ، وسكير . . . ورجل داعر جداً ، ولكنه فيما عدا ذلك خير الناس فى هذه الدنيا وأكثرهم فضيلة » (٢ — ١٤ ، ١٦) . وعلى فم بانورج يسوق رابليه أشد نكاته فحشاً . . . كان بانورج يمقت على الأخص ما درجت عليه نساء باريس من تزرير

أقمصتهن فى أعلى ظهورهن ، فقاضى النساء فى المحكمة . ولعله كان خاسراً دعواه ، ولكنه هدد بأن يبدأ عادة مماثلة فى سراويل الرجال . وهنا أمرت المحكمة بأن يترك النساء فتحة متواضعة ولكنها سالكة من الأمام (٢ — ١٧) . وحدث أن غضب بانورج من امرأة احتقرته . فرش ثوبها وهى راكعة للصلاة فى الكنيسة بسائل حيوان مدلل شديد الشهوة ، فلما قامت تبعها جميع كلاب باريس الذكور . وعددها ٦٠٠,٠١٤ فى ولاء إجماعى لا يعرف الكلل (٢ . ٢١ . ٢٢). ويبولع بنتاجرويل بهذا الوغد تخففاً من الفلسفة . برغم أنه أمير بالغ غاية التهذيب . فيدعوه لمصاحبته فى كل رحلاته .

وبينما تمضى القصة فى جذل إلى الجزء الثالث يناقش بانورج موضوع زواجه بينه وبين نفسه وبينه وبين غيره . فيعدد ما للمشروع وما عليه خلال مائة صفحة فيها المشرق ، والكثير فيها ممل . ولكننا فى هذه الصفحات نلتقى بالرجل الذى تزوج امرأة خرساء . والفقيه الشهير بريدلجوس الذى ينتهى إلى أكثر أحكامه سلامة برمى الزهر . وتستوحى مقدمة الجزء الرابع لوكيان فتصف « مجمعاً للآلهة » فى السماء . وجوبيتر يشكو من الفوضى اللاأرضية . التى تسود الأرض . والثلاثين حرباً المستعرة فى وقت واحد . والكراهية المتبادلة بين الشعوب . وانقسامات اللاهوتيين ، وأقيسة الفلاسفة « فماذا نحن فاعلون بهذه الحرب حرب راموس وجالان — هذين اللذين يحرشان باريس كلها بعضها ببعض ؟ » — ويشير عليه الإله بريابوس بأن نحول هذين البطرسين Pierres إلى صخرتين (pierres) ، وهنا نرى رابليه يسطو على تورية من الكتاب المقدس :

ثم يعود إلى الأرض فيسجل فى الجزئين الرابع والخامس(*) رحلات

(*) نشر الجزء الرابع فى ١٥٦٢ بعد موت رابليه بتسع سنوات . ولعل الخمسة عشر فصلا الأولى قد خلفها رابليه (٣١) ، أما الفصول الاثنان والثلاثون الباقية فنسبتها إليه مشكوك فيها .

طويلة أشبه برحلات جلفر ، خرج فيها بنتاجرويل وبانورج والأخ يوحنا وأسطول يوتوبى ملكى ليبحثوا عن « معبد القارورة المقدسة » ، وليسألوا هل يحسن بيانورج أن يتزوج . وبعد عشرات المغامرات ، وبعد التنديد بأصوام « الصوم الكبير » ، وبكارهى البابا من البروتستنت ، وبعباد البابا من المتعصبين ، وبالرهبان، وبتجار الآثار المزيفة ، وبالمحامين (القطط ذات الفراء) ، وبالفلاسفة الكلاميين ، وبالمؤرخين . تنتهى الرحلة إلى المعبد . وعلى بوابته كتابة يونانية تقول : «إن فى النبيذ لحقاً » . وفى نبع قريب قارورة غمرت فى النبيـــذ إلى نصفها ينبعث منها صوت يقرقر قائلا « ترنك » ، وتقول الكاهنة باكبوك : إن النبيذ خير الفلسفات ، وإن « ما يميز الإنسان ليس الضحك بل شرب . . . . النبيذ الرطب اللذيذ » . ويسعد بانورج ان تؤيد الكاهنة ما كان يعرفه طوال الوقت . فيصمم على أن يأكل ويشرب ويتزوج ويتحمل العواقب كما يخلق بالرجال ، وهو ينشد أغنية عرسية بذيئة ، ثم تصرف باكبوك الجماعة بعد أن تمنحها هذه البركة « ليحفظكم ذلك المحيط الفكرى الذى يوجد مركزه فى كل مكان ، ولا يوجد له نهاية فى أى مكان ، والذى ندعوه الله ، فى رعايته القوية القادرة » . (٥ — ٤٧) . وهكذا تختتم القصة العظيمة بمزيج مثالى من البذاءة والفلسفة .

(د) مضحك الملك :

أى معنى يتوارى خلف هذا الهراء ، وهل من حكمة فى هذا السيل الدافق من المرح الفالبرنى — البريابى ؟ يقول رابليه وهو يجرى الكلام على لسان أحد حمقاه « نحن مهرجى الريف فينا شيء من الحلاقة ، نميل إلى تحطيم الألفاظ وتفكيك أوصالها » . (٥ — ١٨) . إنه يحب الألفاظ ، وعنده منها معين لا ينضب ، وهو يخترع مئات من الكلمات الجديدة ،

ويشتقها كشكسبير من كل حرفة ومهنه. ومن كل ميدان فى الفلسفة أو اللاهوت أو القانون .وهو يضع قوائم بالنعوت أو الأسماء أو الأفعال، وكأنما يلذه تأملها (٣ — ٣٨) ، ثم يستكثر من المترادفات فى نشوة من الإطناب ، ولقد كان هذا الحشو من قبل حيلة قديمة فى المسرح الفرنسى[٣٢] . وهو جزء من فكاهة رابليه التى لا حد لها ولا ضابط، وفيض تتضاءل أمامه حتى فكاهة أرستوفان أو موليير . أما بذاءته فوجه آخر من وجوه هذا الفيض الذى لا يمكن التحكم فيه . ولعل بعضها رد فعل للنسك الديرى ، وبعضها لامبالاة تشريحية لا تستغرب من طبيب ، وبعضها تحد جرىء للحذلقة ، وكثير منها يساير أسلوب العصر . وما من شك فى أن رابليه قد غلا فى فحشه غلواً شديداً ، حتى أننا بعد أن نقرأ عشر صفحات أونحوها من التفاصيل الملوثة بالتبول والتناسل والإفراز والغازات نمل القراءة وننصرف عنها . ولم يكن بد من مجىءجيل جديد من التأثير الكلاسيكى ليروض هذا الفوران البركانى ويخضعه للنظام .

على أننا نغتفر هذه العيوب لأن أسلوب رابليه ينطلق معنا فى يسر كذا انطلق معه؛ إنه أسلوب خال من التكلف والصنعةالأدبية ، أسلوب طبيعى سهل متدفق، هو بالضبط الأداة لسرد قصة طويلة . والسر فى حيوية رابليه هو الخيال مضافاً إليه النشاط مضافاً إليهما الوضوح. وهو يرى مئات الأشياء التى لا يراها معظمنا، ويلحظ دقائق لا حصر لها فى اللباس والسلوك والحديث ، ثم يجمع بينها بطريقة خيالية غريبة؛ ويطلق هذه الأخلاط يطارد بعضها البعض فوق صفحاته الضاحكة .

ثم تراه يستعير يمنة ويسرة جرياً على عادة جيله ، معتذراً عن هذا بما اعتذر به شكسبير من أنه يجود كل شىء يسرقه . فهو يتناول مئات من نتف الأمثال الواردة فى كتاب إرزمس « أداجيا »[٣٣] ، ويحكى

الكثير مما سبقه فى « مدح الحماقة » أو « الأحاديث » ، وهو يتمثل خمسين موضوعاً من بلوتارخ ، وذلك قبل سنوات من ترجمة آميو التى فتحت سجل العظماء هذا لأى لص من لصوص الأدب . وهو ينتحل من كتاب لوكيان « الحديث السماوى » وقصة فولنجو عن الحروف الذى أغرق ذاته ، ونجد فى كوميديات عصره قصة الرجل الذى ندم على أنه شفى زوجته من الخرس ، ويستعمل عشرات الأفكار التى توحى بها الخرافات والقصص الصغيرة التى انحدرت من فرنسا الوسيطة . وحين يصف رحلات بنتاجرويل نراه يعتمد على الحكايات التى نشرها رواد الدنيا الجديدة والشرق الأقصى . ومع ذلك ، فعلى الرغم من هذه الاستعارات كلها ، ليس هناك مؤلف أكثر منه أصالة ، ولسنا نجد فى غير شكسبير وسرفانتيس مخلوقات واسعة الخيال ، مفعمة بالقوة والحياة ، كالراهب يوحنا ، أو كبانورج . على أن رابليه نفسه هو أهم خلق خلقه الكتاب ، إنه مزيج من بنتاجرويل ، والراهب يوحنا ، وبانورج ، وإرزمس ، وفيزاليوس ، ويوناثان سويفت ؛ مزيج ثرثار ، فوار ، محطم للأصنام ؛ عاشق للحياة .

وتعشقه للحياة هو الذى جعـــله يسلخ جلود أولئك الذين جعلوها أقل فتنــــة وإغراء . ولعله قسا بعض الشىء على الرهبان الذين لم يستطيعوا مشاركته ميوله أدبياً إنسانياً ، ولا بد أن محامياً أو محامين قد أنشبا براثنهما فيه ، لأنه يمزق فراء المحامين فى غل شديد . يقول محذراً قراءه « أنصتوا إلى ، إن عشتم ست دورات أولمبية فقط مضافاً إليهما عمر كلبين ، فسترون قطط القانون هؤلاء سادة على أوربا بأسرها » . ولكنه يسوط أيضاً القضاة ، والمدرسين ، واللاهوتيين ، والمؤرخين ، والرحالة ، وباعة صكوك الغفران ، والنساء . ولا تكاد تعثر فى الكتاب كله على كلمة طيبة عن النساء ، وتلك هى أشد نقط رابليه عمىً ، ولعلها الثمن الذى

دفعه راهباً وقسيساً وأعزب لافتقاره طول حياته إلى الحنان .

وقد اختلف المتشيعون له فى أمره . أهو كاثوليكى أم بروتستنتى أم حر التفكير أم ملحد . فهو فى رأى كالفن ملحد . أما عاشقه أناطول فرانس فينتهى إلى هذا الحكم « فى اعتقادى أنه لم يصدق أى شىء »(٣٤). وكان أحياناً يكتب كأشد ما يكون الكاثوليون سخرية من الناس واحتقاراً لهم ، كما ترى فى لغة الغنام فى حديثه عن أمثل الطرق لإخصاب الحقول (٤ — ٧) . كان يتهكم بالصوم ، وبصكوك الغفران . وبرجال محاكم التفتيش ، وبالمراسيم البابوية ، ويلذه شرح الشروط التشريحية المطلوبة فى المرشح للبابوية (٤ — ٤٨) . ويبدو أنه لم يؤمن بالجحيم (٢ — ٣٠) . وتراه يردد حجج البروتستنت الذين قالوا إن البابوية تنزح أموال الشعوب (٤ — ٥٣) ، وأن كرادلة روما يحيون حياة البطنة والنفاق (٤ — ٥٨ — ٦٠) . وكان يتعاطف مع المهرطقين من الفرنسيين ، وقد قال إن بانتا جرويل لم يطل مكثه فى تولوز لأن القوم هناك « يحرقون حكامهم أحياء كما تشوى الرنجة الحمراء » . — مشيراً بذلك إلى إعدام أستاذ قانون مهرطق (٢ — ٥) ولكن يبدو أن ميوله البروتستنتية اقتصرت على الإنسانيين من البروتستنت دون غيرهم . ولقد تبع إرزمس فى إعجاب . ولكنه لم يمل إلى لوثر إلا فى اعتدال . وقد صدف فى اشمئزاز عن جزمية كالفن وغاوه . كان يتسامح فى كل شىء إلا عدم التسامح . وكان كجميع الإنسانيين إذا أكرهوا على الاختيار يؤثر الكاثوليكية بأساطيرها وعدم تسامحها وفنونها ، على البروتستنتية بقدريتها وعدم تسامحها ونقائها . وكثيراً ما أكد إيمانه بالعقائد الأساسية فى المسيحية ، ولكن لعل هذا كان من قبيل الحصافة فى رجل كان على استعداد فى سبيل الدفاع عن آرائه لأن يلقى عقاب الحرق دون سواه . ولقد أحب تعريفه لله حباً جعله (أو جعل من أكمل كتابه) ، يعيده غير مرة (٣ — ١٣ ، ٥ — ١٤٧) . ويبدو أنه آمن بخلود النفس

(٢ — ٨ ، ٤ — ٢٧) ، ولكنه آثر بوجه عام حديث الموضوعات الداعرة على حديث الأخرويات . ولقد اتهمه فاريل بالارتداد لأنه قبل وظيفة كاهن مودون(٣٥) . ولكن هذا القبول كما فهمه واهب الوظيفة ومتلقيها على حد سواء لم يكن سوى سبيل إلى الرزق .

أما إيمانه الحقيقي فكان بالطبيعة . ولعله في هذه الناحية كان لا يقل عن جيرانه المحافظين إيماناً وسذاجة . لقد آمن بأن قوى الطبيعة تعمل للخير في النهاية ، ولم يقدر حيادها نحو الناس والحشرات على السواء حق قدره . وكان كروسو ، وعلى النقيض من لوثر وكالفن ، يؤمن بطبيعة الإنسان الخيرة ، أو يثق كغيره من الإنسانيين بأن التعليم الجيد والبيئة الطيبة كفيلان بجعل الإنسان خيراً . وقد نصح الناس كما نصحهم مونتيني بأن يتبعوا الطبيعة ، ولعله كان ينظر بعدم اهتمام خبيث بما قد يحدث عندها للمجتمع والحضارة . وقد يبدو في وصفه لدير تيليمي مبشراً بالفوضى الفلسفية ، ولكن الأمر لم يكن كذلك ؛ فهو لا يسمح بدخول الدير إلا لمن يؤهله حسن تربيته وتعليمه وإحساسه بالشرف لامتحانات الحرية .

لقد كانت « البنتاجرويليه » فلسفته النهائية . وعلينا ألا نخلط بين هذه الكلمة وبين كلمة بنتاجرويليون . التي تعني عشباً مفيداً ليس في حقيقته غير القنب . وفائدته النهائية أنه يصلح لصنع أربطة رقبة مناسبة للمجرمين . أما البنتاجرويلية فهي العيش على طريقة بنتاجرويل في عشرة لطيفة متسامحة مع الناس والطبيعة ، وفي استمتاع شاكر بكل طيبات الحياة ، وفي تقبل بشوش لما يصيبنا من تقلبات ومن نهاية لا مفر منها . وقد عرف رابليه هذه البنتاجرويلية مرة بأنها « ضرب من فرح الروح كامن في احتقار أحداث الحياة » (٤ — المقدمة) . وهي تجمع بين فلسفات الرواقي زينون ، والكلبي ديوجين . والفيلسوف أبيقور :

وخلاصتها تحمل كل الأحداث الطبيعية برباطة جأش . والنظر دون تضرر إلى جميع الحوافز والعمليات الطبيعية ، والاستمتاع بكل لذه سليمة دون كبت ديني مترمت أو تبكيت لاهوتي للضمير . لقد كان بنتاجرويل « يتقبل كل شيء برضى ، ويفسر كل فعل بأحسن نية . لا يتأكد نفسه ولا يزعجها . . . لأن كل ما تحويه الأرض من متاع . . . لا يساوى أن تضطرب من أجله عواطفنا أو تختل ، وأن نفكر أو نحير بسببه حواسنا أو أرواحنا » (٣ — ٢) . ويجب ألا نبالغ فيما تحويه هذه الفلسفة من عنصر أبيقوري . فخمريات رابليه لفظية أكثر منها كحولية . وهي لا تنسجم تماماً مع ما وصفه به أحد معاصريه من أنه رجل « طلق المحيا لطيف الوجه هادئه »(٣٦) . أما الخمر الذى احتفى به فهو خمر الحياة . إن هذا الأمير المزعوم لمدمنى الخمر يضع على فم جارجانتوا عبارة تصوغ فى بضع كلمات تحدى العصر الذى نعيش فيه «إن العلم بغير ضمير ليس إلا مجلبة لخراب النفس » . (٢ — ٨) .

ولقد اعتزت فرنسا برابليه أكثر من اعتزازها بأى من عمالقة القلم فيها باستثناء مونتيني وموليير وفولتير . ووصفه إتيين باسكييه الذى عاش فى قرنه بأنه أعظم كتاب العصر . وحين تصلبت عادات المجتمع الفرنسى فى القرن السابع عشر تحت المحرمات والباروكات . وطغت الأشكال الكلاسيكية . فقد رابليه بعض مكانته فى ذاكرة الأمة ، ولكن حتى فى تلك الفترة اعترف موليير وراسين ولافونتين بتأثرهم به ، وأحبه فونتينيل ، ولابرويير . ومدام دسفنيه . وانتحل باسكال تعريفه لله . أما فولتير فقد بدأ باحتقار جلافته . وانتهى بالولاء له . وحين تغيرت اللغة الفرنسية استعصى فهم رابليه على القراء الفرنسيين فى القرن التاسع عشر ، ولعله اليوم أكثر شعبية فى البلاد الناطقة بالإنجليزية منه فى فرنسا . ذلك أن السر توميس أوركهارت نشر فى ١٦٥٣

و١٦٩٣ ترجمة للجزئين الأول والثالث صاغها فى إنجليزية قوية لا تقل حيوية وتدفقاً عن الأصل الفرنسى . ثم أكمل بيتر دموتيه الترجمة فى ١٧٠٨ ، وبفضل جهود هذين الرجلين أصبح جارجانتوا وبنتاجرويل من عيون الأدب الإنجليزى . ولقد سرق منه سويفت كأنما يستند إلى حق انتمائه إلى الاكليروس . ولا بد أن ستيرن وجد فى الكتاب خميرة لسخريته اللاذعة . إنه أحد الكتب التى لا تنتمى إلى أدب بلد بعينه بل إلى الأدب العالمى . .

٦ — رونسار وجماعة البلياد (النجوم السبعة) Pléiade

كان فيض غامر من الشعر يتدفق خلال هذه الفترة على فرنسا . وقد وصل إلى علمنا أسماء نحو ٢٠٠ شاعر فرنسى لمعوا إبان حكم فرانسوا الأول وأبنائه . ولم يكن هؤلاء الشعراء أصواتاً جوفاء تصرخ فى برية لا تعبأ بهم ، بل مقاتلين يخوضون معركة أدبية — معركة الشكل ضد المضمون . ورونسار ضد رابليه — قررت طبيعة الأدب الفرنسى حتى عصر الثورة .

ولقد ألهمتهم حماسة معقدة . فهم من ناحية يتوقون إلى مباراة اليونان والرومان فى نقاء الأسلوب وكمال الشكل . ومنافسة كتاب السونيتات الإيطاليين فى رشاقة الكلام وجمال الأخيلة ، ولكنهم من ناحية أخرى مصممون على ألا يكتبوا باللاتينية كالأدباء الذين علموهم وأثاروا حماستهم ، بل بلغتهم القومية وهى الفرنسية . وهم فى الوقت ذاته يريدون أن يلينوا ويهذبوا هذه اللغة التى ما زالت خشنة ، وذلك بتعليمها الألفاظ والعبارات والتراكيب والأفكار التى سرقوها بحكمة من الآداب الكلاسيكية . وافتقار رواية رابليه إلى الشكل المحدد ، بما يتخللها من أحداث عرضية ، جعلها فى نظرهم إناء خشناً من الطين شكل باليد على عجل ثم أعوزه

الطلاء والصقل . لذلك اعتزموا أن يضيفوا إلى حيوة رابليه « الأرضية » ضبطاً للشكل المصمم بعناية ، وللشعور الخاضع لحكم العقل .

وبدأت الحملة الكلاسيكية فى ليون إبان حياة رابليه نفسه . فقد أنفق موريس سيف جانباً من حياته فيما خاله تحديداً لموقع قبر لورا حبيبة بترارك . ثم كتب ٤٤٦ مقطعاً شعرياً لحبيبته ديلى . ومهد الطريق أمام رونسار بفضل ما تميز به شعره من رقة حزينة . وكان أقدر منافسيه فى ليون امرأة تدعى « لويز لابيه » راحت وهى مدججة بسلاحها الكامل تقاتل كأنها جان دارك أخرى فى بربنيان . ثم هدأت ثائرتها بزواجها من صانع حبال أغضى — على طريقة الفرنسيين اللطيفة عن غرامياتها الجانبية . كانت تقرأ اليونانية واللاتينية والإيطالية والإسبانية . وتعزف على العود عزفاً ساحراً . وتحتفظ بصالون لمنافسيها وعشاقها . وقد كتبت بضع قصائد من أسبق وأروع ما كتب من سونيتات فى اللغة الفرنسية . وحسبنا للحكم على شهرتها أن نستشهد بجنازتها (١٥٦٦) التى قال مؤرخ إخبارتى أنها « كانت انتصاراً . فقد حمل نعشها مخترقاً المدينة ووجهها مكشوف ورأسها مكلل بتاج من الزهور . لقد عجـــز الموت عن أن يشوهها . وجلل أهل ليون قبرها بالزهور والدموع » .(٣٧) وعن طريق شعراء ليون هؤلاء انتقل الأسلوب والمزاج البتراركيان الى باريس ودخل إلى جماعة البلياد .

وكلمة البلياد ذاتها صدى يردد الكلاسيكية . ذلك أن إسكندرية القرن الثالث قبل الميلاد كان فيها كوكبة من شعراء سبعة أطلق عليهم هذا الاسم مأخوذاً من الثريا التى خلدت ذكر بنات أطلس وبليونى الاسطوريات . على أن رونسار ، ألمع نجوم البلياد الفرنسى . قل أن استعمل هذا اللقب . وكانت نماذجه التى حاكاها هى أناكريون ؛ وهوراس

لا ثيوقريطس أو كاليماخوس الإسكندريان . وفى ١٥٤٨ التقى فى فندق صغير بتورين بيو اكيم دبلليه Du Bellay ، وائتمر معه على توجيه الشعر الفرنسى صوب الكلاسيكية وضما إلى مشروعهما أربعة شعراء شبان آخرين هم : أنطوان دبايف ، ورنى بيللو ، وإتيين جوديل ، وبونتيس دتيار . ثم انضم إليهم أيضاً الأديب جان دورا الذى كان لمحاضراته عن الأدب اليونانى فى كلية فرنسا وكلية كوكيريه الفضل فى تأجيج حماستهم للشعراء اليونان الغنائيين . وأطلقوا على أنفسهم لقب البرياد (اللواء) وأقسموا أن ينقذوا ربة الشعر الفرنسى من أيدى جان دمونج ورابليه الخشنة . ومن بحور فيون ومارو المفككة . وكانوا يشمئزون من لغة جارجانتوا وبنتاجرويل الصاخبة وحكمتهما المستترة ، ولم يروا أى ضابط كلاسيكى فى تلك الأفعال والنعوت المختلطة ولا فى تلك التدفقات البذيئة ، ولم يجدوا فيها أى شعور بجمال شكل المرأة أو الطبيعة أو الفن . ولاحظ أحد أعدائهم من النقاد أنهم سبعة شعراء ، فأطلق عليهم لقب « البلياد » . ولكن انتصارهم جعل من هذا اللقب ناراً على علم .

فى ١٥٤٩ أذاع الشاعر دبلليه البرنامج اللغوى لهذه الجماعة فى كتابه « دفاع عن اللغة الفرنسية وجلاء لها » . فأما الدفاع فقد قصد به أن فى الاستطاعة تمكين الفرنسية من التعبير عن كل ما عبرت عنه اللغات القديمة . وأما الجلاء فقصد به أن فى استطاعة الفرنسية أن تكتسب بريقاً جديداً . وأن تصقل ذاتها وتجلو نفسها بنبذ الكلام الخشن الذى يسود النثر الفرنسى . والأغانى الشعبية . والقصائد القصيرة المتكررة اللازمات . والألوان القديمة من الشعر الفرنسى . وأن تجدد وتثرى ذاتها باقتباس العبارات ودراســة الأشكال الكلاسيكية . كما توجد فى أناكريون وثيوقراطيس وفرجيل وهوراس وبترارك . ولا غرو فقد أصبح بترارك فى نظر جماعة الشعراء السبعة كاتباً كلاسيكياً . وغدت السونيت أكمل الأنماط الأدبية قاطبة .

أما « بيير رونسار » فقد حقق فى شعره تلك المثل التى أعرب عنها دبلليه فى نثره الرائع . وهو سليل أسرة خلعت عليها النبالة مؤخراً . فقد كان أبوه رئيس خدم فرانسوا الأول . وعاش بيير حقبة من حياته فى البلاط الملكى الفخم . وكان تابعاً للدوفن فرانسوا . ثم للمادلين التى تزوجت جيمس الخامس ملك إسكتلنده . ثم مرافقاً للأمير الذى أصبح فيما بعد الملك هنرى الثانى . وكان يصبو إلى المشاركة فى المغامرات الحربية . ولكنه ابتلى بالصمم وهو بعد فى السادسة عشرة . ومن ثم فقد أحلام سيفه وجرد عوضاً عنه قلمه . والتقى بشعر فرجيل صدفة . فرأى فيه كمالا فى الشكل واللفظ لاعهد لفرنسا به . وأخذ دوريه بيده فانتقل به من اللاتينية إلى اليونانية ، وعلمه قراءة أناكريون واسخيلوس وبندار وارستوفان . وصاح به الفتى « سيدى ! لم أخفيت عنى هذه الكنوز طوال هذا الزمن ؟ »(٣٨) وحين بلغ الرابعة والعشرين التقى بالثائر دبلليه . ومن ذلك التاريخ وزع وقته بالإخلاص بين الأغانى والنساء والخمر .

وقد أكملت « قصائده الغنائية Odes » (١٥٥٠) هذه الثورة الغنائية . وكانت تقليداً صريحاً لهوراس . ولكنها أدخلت هذا اللون فى الشعر الفرنسى ، ووقفت القصائد على قدميها سواء فى نقاء اللغة أو جمال العبارة أو إحكام الشكل . وبعد عامين اتخذ بترارك نموذجاً له فى ١٨٣ قصيدة من السونيتات التى نشرها فى ديوانه « غراميات » وبلغ فيها من الرشاقة والصقل ما لم يبزه أحد قط فى الشعر الفرنسى . وكان يكتب ليتغنى الناس بشعره ، وقد لحنت له قصائد كثيرة فى حياته . بعضها لحنه كبار الموسيقيين أمثال جانكان وجوديميل . وكان فى قصائده يغرى النساء اللاتى يتغزل فيهن بتلك الدعوة القديمة ، دعوة الاستمتاع بالحياة ما دام حسنهن مضيئاً ، ولكنه حتى فى هذا الموضوع القديم راح يعزف نغمة أصيلة . كتنبيهه فتاة حذرة إلى أنها ستندم يوماً ما لأنها فوتت فرصة الغواية من

شاعر شهير مثله . يقول : « حين يتقدم بك العمر كثيراً . إذ تجلسين في المساء إلى المدفأة تتحدثين وتخيطين على ضوء شمعة ، ستنشدين قصائدى وتقولين فى عجب : لقد أذاع رونسار اسمى يوم كنت جميلة . عندها لن يكون من بين خدمك الذين يسمعون بنبأ كهذا — حتى ولو بعث طنين المناسج النوم إلى أجفانهم — من لا يفيق وهو يسمع اسمى . ليباركك على ما حظيت به من مديح خالد . عندها سأكون راقداً تحت الثرى ، شبحاً بلا عظم ، ثاوياً تحت الآس . وستكونين يومها عجوزاً قد احدودب ظهرها وهى جالسة إلى المدفأة ، وستأسفين على حبى وعلى ازدرائك الفخور . فاستمعى إلى وعيشى الآن دون انتظار لغد . واقطفى منذ اليوم ورود الحياة » .

وكانت عظمة الأسلوب تليق ببلاط كاترين دمديتشى التى جلبت معها إلى فرنسا حاشية إيطالية حملت بترارك فيما حملت من كتب . وما لبث الشاعر الجديد - بمشيته المختالة برغم ما مسه من صمم . وبقوامه العسكرى وشعر رأسه ولحيته الذهبى . ووجهه الشبيه بوجه هرمز كما وصفه براكسيتيليس — أن أصبح أثيراً لدى كاترين ، وهنرى الثانى ، ومارى ستيوارت . بل وإليزابث ملكة إنجلترة التى أهدته خاتماً من الماس بوصفها ابنة خاله السابعة عشرة . ووجدت أسطورة البلياد اليونانية الرومانية ترحيباً . وحين تحدث الشعراء عن أوليمبوس قدر البلاط لهم هذه التحية .(٣٩) فهنرى هو النظير لجوبيتر ، وكاترين هى المقابل لجونو ، أما ديان فهى ديانا ، وأكدت هذا التشابه التماثيل التى نحتها المثال جوجون .

وبعد موت هنرى واصل شارل التاسع مصادقة رونسار ، دون أن تسفر هذه الصداقة عن نتيجة طيبة . ذلك أن الملك الشاب كان يبغى أن ينظم له الشاعر ملحمة عن فرنسا تطاول ملحمة الاينيادة . وكتب الملك المغفل يقول : « أستطيع أن أعطى الموت ، أما أنت فتستطيع أن تعطى

الخلود(٤٠) . » وبدأ رونسار نظم « الفرنسيادة » المنشودة . ولكنه ألفى ربة شعره أقصر نفساً من أن تجرى هذا الشوط الطويل . وما لبث أن أقلع عن المحاولة المزعومة . وعاد إلى غنائياته وحبه . وقضى أيامه فى دعة وسلام حتى أدركته الشيخوخة وهو فى مأمن من ضجيج الدنيا . محافظاً فى السياسة والدين دون ما خطر . مكرماً من شباب الشعراء . محترماً من الجميع إلا من الموت . وقد وافته منيته فى ١٥٨٥ ودفن فى تور ، ولكن باريس منحته جنازة أولمبية مشى فيها كل أعيان العاصمة ليسمعوا أسقفاً يرتل « قصيدة جنائزية » .

أما الشعراء الذين خلعوا عليه لقب الإمارة فقدأصدروا كثيرا من دواوين الشعر . ولكنه شعر ميت برغم رقته . وكان أكثرهم كسيدهم وثنيين يعلنون كثلكتهم المحافظة حين يروقهم إعلانها . ويحتقرون الهيجونوت المتزمتين ، وكانوا أرستقراطيين كبرياء . ودما أحياناً . وإن خوت جيوبهم ، يكتبون لدائرة من القراء أتيح لها من الفراغ ما يكفى للاستمتاع بالشكل . ورد رابليه على خصومتهم بالسخرية من حذلقتهم ، ومن تقليدهم الوضيع للبحور والعبارات والنعوت اليونانية والرومانية ، ومن ترديدهم التافه للموضوعات القديمة وللأخيلة والمراثى البتراركية . وفى هذا الصراع بين المذهبين الطبيعى والكلاسيكى تقرر مصير الأدب الفرنسى . فأما شعراء فرنسا وكتاب مآسيها المسرحية فآثروا الطريق المستقيم الضيق ، طريق البناء الكامل والجمال المنحوت الدقيق . وأما كتاب النثر فقد استهدفوا إمتاع القراء بقوة مادتهم دون سواها . ومن ثم بات الشعر الفرنسى قبل عصر الثورة عصياً على الترجمة . فأنت لا تستطيع تحطيم إناء الشكل ثم إعادة صبه فى قالب أجنبى . على أن هذين النهرين التقيا فى فرنسا القرن التاسع عشر . وامتزج نصفا الحقيقة . واقترن المضمون بالشكل ، وعقد اللواء للنثر الفرنسى .

٧ — وايات وصـــرى

مر التأثير الإيطالى بفرنسا وبلغ إنجلتره ، لا فيضا دافقا بل نهراً ينطلق إلى البحر بمخارج كثيرة . فالعلم والدرس اللذان شغلا جيلا ألهما الأدب فى الجيل التالى ، وأصبح وحى اليونان والرومان المقدس إنجيل النهضة . ففى عام ١٤٨٦ مثلت مسرحيات بلوتوس فى إيطاليا ، ثم انتقلت سريعاً إلى بلاطى فرانسوا الأول وهنرى الثامن المتنافسين . وفى عام ١٥٠٨ افتتحت مسرحية كالاندرا للكاتب ببينا عهد الملهاة الكلاسيكية المكتوبة باللغة الوطنية فى إيطاليا . وفى عام ١٥٥٢ بدأت المأساة الكلاسيكية المكتوبة بالفرنسية فى فرنسا بمسرحية جوديل « كليوبطره أسيرة » ، وفى عام ١٥٥٣ أخرج نيكولاس أودال أول ملهاة إنجليزية ذات شكل كلاسيكى ، قال ناقد عنها «إن مسرحية رالف رويستر دويستر تشم فيها رائحة بلوتس»(٤١). وهذا حق ، ولكنك تشم فيها أيضاً رائحة إنجلترة ، ورائحة هذه الفكاهة القوية التى كان شكسبير مزمعاً أن يقدمها للدهماء من رواد المسارح الإليزابيثية .

وتجلى التأثير الإيطالى فى أروع صوره فى الشعر إبان حكم أسرة تيودور . كان أسلوب العهد الوسيط لا يزال حياً فى بعض القصائد الشعبية الجميلة مثل « العذراء غير السمراء » (١٥٢١) ، ولكن حين انصرف الشعراء الذين أظلهم الملك الشاب هنرى الثامن برعايته إلى قرض الشعر اتخذوا بترارك وأشعاره الغنائية « الكانزونيرى » مثلا يحتذونه . وقبل ارتقاء إليزابيث العرش بسنة واحدة نشر رتشرد توتل ، أحد الطباعين اللندنيين ، كتاباً سماه « منوعات » كشفت فيه قصائد رجلين من رجال البلاط البارزين عن انتصار بترارك على تشوسر ، وانتصار الشكل الكلاسيكى على فيض حماسة العهد الوسيط . أما أول الرجلين ، وهو السر توماس وايات Wyatt فقد قام برحلات كثيرة إلى فرنسا وإيطاليا بوصفه دبلوماسياً

فى خدمة الملك ، وجلب معه بعض الإيطاليين ليعاونوه فى تهذيب أصحابه وتمدينهم . ولقد أحرق أصابعه بنار الحب كما يخلق برجل بلاط أصيل يعيش فى عصر النهضة . وفى رواية أنه كان واحداً من عشاق آن بولين الأوائل ، وأنه سجن فترة قصيرة حين أرسلت إلى برج لندن[٤٢] . وقد ترجم أثناء ذلك سونيتات بترارك . وكان أول من ضغط الشعر الإنجليزى فى تلك الصورة المحكمة .

فلما مات وايات بالحمى وهو يعد فى التاسعة والثلاثين (١٥٤٢) تلقى القيثارة من يده شاعر رومانسى آخر من بلاط هنرى يدعى هنرى هوارد (إيرل أف صرى Surrey) . وتغنى صرى فى شعره بمفاتن الربيع ،وأنحى باللوم على الصبايا العازفات عن حبه ، وأقسم ليكونن وفياً إلى الأبد لكل منهن بدورها . وقد ولع بالمغامرات الليلية فى لندن ، وقضى فى السجن فترة عقاباً له على تحديه غريماً فى مبارزة ، وقدم للمحاكمة جزاء أكله اللحم فى الصوم الكبير . وحطم بعض النوافذ بقوسه العابثة . وقبض عليه ثانية ، ثم أفرج عنه . وأبلى فى الحرب على أرض فرنسا بلاء حسناً دفاعاً عن وطنه إنجلتره . ولما عاد راح يداعب فكرة ارتقاء العرش الإنجليزى على مسمع من الناس ، فحكم عليه بالشنق وانتزاع أحشائه وتقطيعه أرباعاً ، واكتفى من ذلك كله بضرب عنقه (١٥٤٧) .

كان الشعر ترفاً عارضاً وسط حياة صرى العنيفة . وقد ترجم بعض أجزاء من الإنيادة ، وأدخل الشعر المرسل فى الأدب الأنجليزى ، وخلع على السونيت الشكل الذى استخدمه شكسبير فيما بعد . وقد وجه إلى أحد شعراء الرومان أنشودة رعوية حزينة تتغنى بحياة الريف الرتيبة وما يشيع فيها من سلام وطمأنينة ، ربما حين توقع أن مسالك المجد الذى لا حق لصاحبه فيه قد توردة موارد الحتوف . « أى مارتيال ، إليك الأشياء التى ألفيتها مفضية إلى الحياة السعيدة : الزهد فى المال الذى لا يكسب بالعرق ،

والأرض المثمرة . والفكر الهادىء . والصديق الكفوء لصديقه ، لا بغضاء ولاشحناء ، لا تغيير فى السلطة ولا فى الحكومة ، حياة سليمة خلت من المرض ، وأسرة متصلة الأجيال ، وطعام بسيط لا ترف فيه ، وحكمة صادقة مقرونة بالبساطة ، وليل خلا من كل هم ، لا تستبد فيه الخمر بالعقل ، وزوجة وفية لا تلج فى النقاش ، ونوم يزجى الليل ، ورضى بما ملكت يداك . لا تخشى الموت ولا تخاف صولته ».

٨ — هانز زاكس

فى القرن الذى تلا مقالات لوثر تاه العقل الألمانى فى جدل المائة عام الذى مهد لحرب الثلاثين عاماً . وبعد عام ١٥٣٠ توقف نشر الكتب الكلاسيكية القديمة إلى حد كبير ، وقل عموماً عدد الكتب المنشورة ، وحل محلها سيل من الرسائل الجدلية . فراح راهب فرنسسكانى اسمه توماس مورنر ذو قلم حاد يسوط الناس يمنة ويسرة بسلسلة كتيبات عن الأوغاد أو الحمقى (طائفة الأوغاد ، مجمع الحمقى) . . . وكلها منقول بتوسع من كتاب برانت **Narrenschiff** سفينة الحمقى(*) . وكثير من الحمقى الذين هاجمهم مورنر كانوا من رجال الكنيسة ، وفى البداية ظنه الناس لوثرياً ، ولكنه أعلن أن لوثر « كلب صيد متوحش ، ومارق مجنون ، غبى ، مجدف »(١٣) . فوصله هنرى الثامن بمائة جنية .

أما سبستيان فرانك فكان أنبل من صاحبه وأصفى معدناً . وكان كاهناً فى أوجزبورج حين أقبلت حركة الإصلاح البروتستنتى ، فرحب بها ثورة جريئة تمس إليها الحاجة ، وأصبح بعد ذلك قسا لوثرياً

(*) نقل الكسندر باركلى مثل هذا عن برانت فى كتابه « سفينة الحماقات » (١٥٠٩) مضيفا اليه طعنات من عنده .

(١٥٢٥) . وبعد ثلاث سنوات تزوج من أوتيلى بهام ، وكان أخوتها من القائلين بتجديد العماد ، فعطف على هذه الطائفة المضطهدة ، وندد بالتعصب اللوثرى ، فطرد من ستراسبورج ، واحترف صناعة الصابون فى أولم ليكسب قوته : وسخر من تحكم النبلاء الألمان فى سلامة العقيدة ، فقال : « إذا مات أمير فأدخل خليفته مذهباً آخر ، أصبح هذا المذهب للتو كلمة الله »(٤٤) . « تتسلط على جميع الناس اليوم شهوة مجنونة تزعم أننا يجب أن نؤمن . . . أن الله إلهنا وحدنا . وأنه لا جنة ولا إيمان ولا روح ولا مسيح إلا فى مذهبنا » . أما إيمانه فكان الالوهيـــة الكونية التى لا توصد باباً . « إن قلبى ليس غريباً عن أى إنسان . فلى إخوة بين الترك والبابويين واليهود وجميع الشعوب(٤٥) » . وكان يتوق إلى « مسيحية . . . حرة لامذهبية . . . لا يقيدها أى شىء خارجى ، حتى ولا الكتاب المقدس(٤٦) . وأقصته أولم هى الأخرى إذ صدمتها هذه المشاعر التى لا تليق بجيله . فعمل طباعاً فى بال . وهناك مات شريفاً برغم فقره (١٥٤٢) .

ثم انغمس الشعر والدراما الألمانيان فى اللاهوت انغماساً أفقدهما صفة الفن وأحالها بعض أسلحة القتال . وفى هذه الحرب استحل الكتاب كل جعجعة وجلافة وفحش فى القول . ولو أنك استثنيت الأغانى الشعبية والتراتيل لما وجدت للشعر أثراً إلا فى وابل من طلقات القوافى المسمومة . ولم تعد الجماهير تتذوق مسرحيات القرن الخامس عشر الدينية التى ينفق على إخراجها بسخاء ، فحلت محلها مهازل شعبية تتهكم بلوثر أو بالبابوات .

على أن ألمانيا لم تعدم بين الحين والحين رجلا يطفو فوق هذا الحقد والعنف ليرى الحياة كلا متكاملا . ولو أن هانز زاكس استمع إلى قضاة نورمبرج لظل صانع أحذية كما كان ؛ ذلك أنه حين نشر تاريخاً منظوماً لبرج بابل دون أن يحصل على الإذن المدنى بطبعه ، صادروا الكتاب

وأكدوا لصاحبه أن الشعر ليس ميدانه ما فى ذلك ريب . وأمروه أن يلتزم قوالب أحذيته(٤٧) . ولكن هانز كان يتمتع ببعض الحقوق التى نالها بفضل مروره بالمراحل العادية التى أهلته لأن يصبح رئيس فرقة المغنين . ولعل المفارقة التى تبدو لنا فى كونه حذاء وشاعراً تنتفى إذا لاحظنا أن نقابة الغزالين والحذائين التى انتمى إليها كانت تمارس بانتظام الغناء الكورالى ، وتعزف فى حفلات موسيقية عامة ثلاث مرات فى السنة . ولهذه النقابة ، وفى أية مناسبة أخرى ، كان زاكس يكتب الأغانى والتمثيليات فى مثابرة وجلد كأنه يلوك فى فمه مسامير أحذيته .

وعلينا ألا نحسبه شاعراً عظيماً ، فما هو إلا صوت عاقل مبتهج يعلو وسط قرون من الكراهية . وكان شغله الشاغل هم البسطاء من الناس لا العباقرة ، وتمثيلياته كلها تقريباً تدور حول هؤلاء . بل إن الله نفسه يبدو فى هذه التمثيليات أحد العامة الخيرين ويتكلم كما يتكلم قسيس الناحية . وبينا راح معظم الكتاب يتبلون صحائفهم بالمرارة أو التبذل أو فحش القول ، كان هانز يصور ويمجد فضائل المحبة والواجب والتقوى والوفاء الزوجى والحب الأبوى والبنوى . وقد بدأ بنشر قصائد (١٥١٦) ، تستهدف « زيادة الثناء على الله والتحدث بمجده » و « مساعدة إخوانه على أن يحبوا حياة التوبة »(٤٨) . وظلت هذه الروح الدينية تبعث الدفء فى فى كتاباته إلى النهاية . وقد نظم نصف الكتاب المقدس ، مستخدماً نص الترجمة التى قام بها لوثر ، وحياه هانز ولقبه بـ « بلبل فتنبرج » الذى سينقى الدين ويرد الفضيلة . « استيقظوا ، استيقظوا ؛ فقد بزغ الفجر ، وهأنذا أسمع فى الغابات أنشودة تتردد . إنه البلبل العظيم تصدح موسيقاه فوق السهل والجبل . هاهو الليل يتلاشى فى الغرب ، والصبح يطلع من الشرق ، والفجر يقبل فيطرد غيوم الليل المنصرم »(٤٩) .

وأصبح زاكس الآن شاعراً ملحمياً لحركة الإصلاح البروتستنتى ،

وراح يندد بأخطاء الكاثوليك فى إصرار ساخر . فكتب التمثيليات عن الأوغاد من الرهبان ، وأرجع قبيلتهم إلى الشيطان ، ونشر مسرحيات كاريكاتورية ساخرة وهزليات تعرض على سبيل المثال كاهناً يغوى فتاة أو يتلو القداس وهو مخمور . وفى ١٥٥٨ نشر «تاريخاً منظوماً للبابة جوانا » — وهى قصة خرافية تقبلها معظم الوعاظ البروتستنت على أنها تاريخ . ولكن هانز ندد باللوثريين أيضاً ، ورماهم بالتناقض الفاضح بين حياتهم وعقيدتهم . «إنكم معشر اللوثريين جلبتم على الإنجيل أشد الاحتقار بسبب نهمكم للحم ، وضجيجكم الصاخب ، وذمكم للكهنة ، وشجاركم وسخريتكم وسبابكم وغير ذلك من مظاهر سلوككم الشائن(٥٠) . » وشارك الكثيرين فى الحزن على ما شاب الجيل من جرى وراء الكسب وفساد فى الخلق .

ونحن إذا استثنينا فكرة فاجنر المثالية ، وجدنا على الجملة أن هانز زاكس ربما كان الممثل للرجل الألمانى الطيب برغم ما يشوبه من فجاجة وجلافة ، والذى لا بد كان أغلبية فى الجنوب على الأقل . ونحن نراه سعيداً فى بيته ، مترنماً بشعره طوال أربعين عاماً . ولما ماتت زوجته الأولى (١٥٦٠) تزوج وهو فى الثامنة والستين من حسناء فى ربيعها السابع والعشرين ، وظل ينعم بالحياة برغم هذه المحنة . ولا بد لنا من إنصاف عصر ومدينة مكننا حذاء من أن يصبح فى ظلهما أديباً إنسانياً ، وشاعراً ، وموسيقياً ، وأن يقتنى مكتبة كبيرة ويستعملها ، وأن يتعلم الأدب اليونانى والفلسفة اليونانية ، وأن ينظم ٦٠٠٠ قصيدة ، وأن يعيش متمتعاً بقسط لا بأس به من الصحة والسعادة حتى وافته المنية وقد بلغ الثانية والثمانين .

٩ — ربه الشعر الإيبيرية ١٥١٥ — ٥٥

كانت هذه فترة مفعمة بالنشاط والحيوية فى أدب البرتغال . ذلك أن حافز الاكتشاف المثير ، والثروة المنتشرة بفضل التوسع فى التجارة ، والتأثير الإيطالى ، والأدباء الإنسانيين فى كويمبرا ولشبونه . والرعاية التى بسطها بلاط مثقف — كل هذا تضافر لإحداث ازدهار سيبلغ ذروته فى « اوزيادات » كاموينز (١٥٧٢) : ونشبت معركة مرحة بين « المدرسة القديمة » — مدرسة جل فيتشنتى الذى تعلق بالموضوعات والقوالب القومية ، ومدرسة أبناء القرن الخامس عشر (ويقابله عندنا السادس عشر) الذين اتبعوا صا دى مراندا فى تحمسه للنماذج والأساليب الإيطالية والكلاسيكية . قد ظل جل فيتشنتى — وهو « شكسبير البرتغالى » — طوال أربعة وثلاثين عاماً مهيمناً على المسرح بفصوله التمثيلية البسيطة . . . ورضى البلاط عنه ، وتوقع منه إحياء كل حدث ملكى بمسرحية ، وحين دب الشقاق بين الملك والبابا ، سمح لجل بأن يهجو البابوية فى غير تحرج حتى قال الياندر بعد أن شاهد إحدى هذه التمثيليات فى بروكسل « ظننتنى فى قلب سكسونيا أستمع إلى اوثر »(٥١) . وكان هذا الكاتب المسرحى الخصب يكتب تارة بالإسبانية ، وتارة بالبرتغالية ، وتارة بكلتيهما ، متخللا كتاباته بنتف من الإيطالية والفرنسية واللاتينية الكنسية والعامية الريفية . وكثيراً ما كان يقطع حركة المسرحية — كشكسبير — بأشعار غنائية تتسلل إلى قلوب الشعب . وكان جل كشكسبير ممثلا كما كان كاتب تمثيليات ومديراً للمسرح ومشرفاً على تنظيم مكان وزمان المشاهد المسرحية . وكان إلى ذلك من خيرة صاغة الذهب فى جيله .

وفى ١٥٢٤ عاد فرانشسكو صادى مراندا من إيطاليا بعد أن قضى فيها ست سنوات وجلب معه الحمى الكلاسيكية التى أتت بها النهضة . وكما

فعل رونسار وجماعة البلياد فى فرنسا ، وسبنسر وسدنى فى إنجلترة . رأى مراند أن يضفى الكرامة والوقار على الأدب القومى بصوغ موضوعاته وبحوره وأسلوبه على غرار القوالب الكلاسيكية . وقد سلك بترارك فى عداد الكلاسيكيين — شأنه فى ذلك شأن يواكيم دبلليه — وقدم السونيت لمواطنيه . وكما فعل جوديل ، كتب مراندا أول مأساة كلاسيكية بلغته القومية (١٥٥٠) ، وكان من قبل (١٥٢٧) قد ألف أول ملهاة نثرية برتغالية ذات شكل كلاسيكى . أما صديقه برنارديم ريبرو فنظم شعراً ريفياً بأسلوب فرجيل ، وعاش مأساة على طريقة تاسو . فقد أثار بغرامه باحدى نساء البلاط ضجيجاً عالياً انتهى بنفيه من وطنه ، ثم عفى عنه ورضى عنه مليكه ، وأخيراً مات مجنوناً (١٥٥٢) .

وقد سجلت مدرسة من المؤرخين تنبض كتبهم بالحياة الانتصارات التى أحرزها المستكشفون . ومن هؤلاء المؤرخين كاسبار كوريا الذى ارتحل إلى الهند وارتقى فى السلم الوظيفى حتى أصبح أحد سكرتيرى ألبوكيرك ، وندد بفساد الموظفين الحكوميين ، ثم قتل فى ماقا فى ١٥٦٥ . وقد ألف إبان هذه الحياة النشيطة ، فى خمسة مجلدات ، كتاباً سماه « خلاصة موجزة » للفتح البرتغالى للهند . مفعماً بالأوصاف الحية التى اتسم بها عصر التوسع هذا . أما فرناو لوبيس دى كاستانهيدا فقد قضى نصف حياته فى الشرق ، وأنفق جهداً امتد عشرين عاماً فى كتابة « تاريخ لكشف البرتغال وفتحها للهند » . أما جواو دى باروس فقد شغل عدة وظائف إدارية فى « بيت الهند » بلشبونه على مدى أربعين عاماً ، وأخجل سلفه بزهده فى جمع المال . وكانت المحفوظات والسجلات جميعها فى متناوله ، فألف بينها فى تاريخ اكتفى بتسميته « آسيا » ولكن الكتاب اكتسب اسماً آخر هو « العقود » لأن ثلاثة من مجلداته الأربعة الضخمة تناول كل منها فترة عشر سنوات تقريباً . والكتاب فى ترتيبه ودقته

ووضوحه يثبت للمقارنة بأى مؤلف تاريخى معاصر له باستثناء أعمال مكيافللى وجويتشارديني . ولو أخذ رأى أمته الفخورة لأنكرت هذين الاستثنائين ، فقد خلعت على باروس لقب « ليڤى البرتغالى » .

كانت اللغة القشتالية قد أصبحت اللغة الأدبية لأسبانيا . وعاشت اللهجات الجليقية والبلنسية والكتلونية والأندلسية فى الحديث الدارج ، وأصبحت اللهجة الجليقية اللغة البرتغالية ، ولكن استخدام القشتالية لغة للدولة والكنيسة أيام فرديناند وإيزابيللا وكسيمينيس ارتفع بهذه اللهجة إلى مقام لا يضارع . ومنذ ذلك العهد إلى يومنا هذا كان رنينها القوى الأداة المعبرة عن أدب أسبانيا . وقد أبدى بعض كتاب هذا العصر ولعاً باللغة . فضرب أنطونيو دى جيفارا المثل فى البحوث اللغوية والمحسنات البلاغية . وقد أعانت ترجمة اللورد بيرنرز لكتاب جيفارا « مزولة الأمراء » (١٥٢٩) على صياغة ذلك التأنق اللفظى الذى يتسم به كتاب جون لايلى Euphues واللعب السخيف بالألفاظ الذى نلحظه فى كوميديات شكسبير الأولى .

وتغنى الأدب الأسبانى بالدين والحب والحرب . وبلغ الولع بروايات الفروسية مبلغاً حمل مجلس النواب الأسبانى فى ١٥٥٥ على أن يوصى بحظرها قانوناً . وقد صدر هذا المرسوم فعلا فى أمريكا الإسبانية ، ولو أنه نفذ فى أسبانيا لكان من الجائز أن نحرم من دون كخوته » . ومن بين الروايات التى أبقى عليها الكاهن أثناء تنقيته لمكتبة « الفارس » رواية ألفها جورجى دى مونتيمايور تدعى Dian enamorata (١٥٤٢) ، وهى تقليد لرواية « أركاديا » التى كتبها الشاعر الأسبانى الإيطالى ساناتزارو (١٥٠٤) ؛ وقد قلدها هى الأخرى السر فليب سدنى فى قصة أركاديا (١٥٩٠) . ورواية مونتيمايور النثرية الشعرية مثال من مئات الأمثلة على تغلغل النفوذ الايطالى فى الأدب الأسبانى . وهنا أيضاً نرى المغلوب

وقد غلب غالبيه . وترجم جوان بوسكان « Cortigiano » لكاستايونى نثراً لا يقل روعة عن الأصل ، ووافق على اقتراح الشاعر البندقى نافاجيرو بتعميم شكل السونيت فى أسبانياً .

وللتو تقريباً ارتقى صديقه جاركيلازو دى لافيجا بالسونيت إلى مرتبة الكمال فى اللغة القشتالية . وكان ككثيرين من كشاب هذه الفترة الأسبان سليل أسرة عريقة ، إذ أن أباه كان سفيراً لفرديناند وإيزابللا فى روما . وقد ولد جاركيلازو بطيلطلة عام ١٥٠٣ ، ونذر للجندية منذ صباه . وفى ١٥٣٢ أبلى أحسن البلاء فى رد الترك عن فينا ، وفى ١٥٣٥ جرح مرتين جراحاً خطيرة فى حصار تونس ، وبعد ذلك بشهور شارك فى حملة شارل الخامس الفاشلة على بروفانس . وفى فريجى تطوع بأن يقود هجوماً على قلعة تعرقل تقدم الجيش ، وكان أول المتسلقين لسور القلعة . فتلقى ضربة على رأسه قضت عليه بعد أيام وهو فى الثالثة والثلاثين . وفى إحدى قصائده السبعة والثلاثين التى تركها لصديقه بوسكان تسمع نغمة تتردد فى كل الحروب : يقول « والآن أصابت اللعنة أشد ما أصابت جيلنا هذا ، وكل ما مضى يتغير من سىء إلى أسواء . وأحس كل منا وطأة الحرب — حرب تتلوها حرب ، ونفى وأخطار ورعب . و ... سئم فى صميم نفسه من رؤية دمه مراقاً على رمح وهو حى لأن الرمح لم يصب هدفه . وقد فقد بعض القوم بضاعتهم وكل متاعهم . وذهب كل شىء ، حتى اسم المنزل والأسرة والزوجة والذكرى . وما جدوى هذا كله ؟ أبعض الشهرة ؟ أم شكران الأمة ؟ أم مكان فى التاريخ ؟ سيكتبون يوماً كتاباً ، وعندها سنرى »(٥٢) .

ولم يعش ليره ، ولكن مئات الكتب خلدت ذكره فى إعزاز كبير . وسجل المؤرخون موته باعتباره أحد أحداث عصره الكبرى . وطبعت أشعاره فى مجلدات سهلة التداول حملها الجنود الأسبان فى جيوبهم

إلى عديد من الأقطار . ولحن الموسيقيون الأسبان شعره قصائد غنائية ، وأحال كتاب المسرحيات حوار قصائده الرعوية تمثيليات .

أما المسرحية الأسبانية فتوقفت عن الحركة ، ولم تدر أنها عما قليل ستكون قريعاً للمسرحية الإليزابيثية . وكانت الملهاة ذات الفصل الواحد ، والهزليات الناقدة ، والفصول المأخوذة من الروايات الشعبية . تمثلها الممثلون الجوالون فى الميادين العامة أو فى أفنية الفنادق الصغيرة ، وأحياناً فى مقر أمير أو بلاط ملك . وقد حقق لوبى دى رويدا . الذى خلف جل فيثنتى باعتباره أهم مورد للفصول التمثيلية لهذه الفرق . لنفسه الشهرة ، وأعطانا لفظاً جديداً . تمهرجيه (البوبو) .

وكثر عدد المؤرخين . وعين شارل الخامس جونزالو فرنانديز دى أوفيدو مؤرخاً رسمياً للدنيا الجديدة ، وأنجز عملا متوسط الجودة هو تأليف كتاب ضخم سيء الترتيب سماه « التاريخ العام والطبيعى لجزر الهند الغربية » (١٥٣٥) ، وقد أثرى خلال الأعوام الأربعين التى قضاها فى أمريكا اللاتينية بفضل التنقيب عن الذهب ، وساءه كتاب « قصة خراب جزر الهند ، (١٥٣٩ وما بعدها) الذى فضح فيه بارتلمى دلاس كازاس الاستغلال القاسى للعمال الوطنيين المستعبدين فى المناجم الأمريكية . وكان لاس كازاس قد أبحر مع كولمبوس فى ١٥٠٢ ، وأصبح أسقفاً لكيابا بالمكسيك ، وكرس حياته كلها تقريباً للدفاع عن قضية الهنود الحمر . وقد وصف فى «مذكراته» التى وجهها للحكومة الإسبانية السرعة التى يموت بها الوطنيون فى ظروف العمل الشاقة التى فرضها عليهم المستعمرون . فقال إن الهنود لم يألفوا غير العمل الخفيف بسبب حرارة مناخهم وبساطة طعامهم . ولم يستخرجوا الذهب من مناجمهم بل قنعوا بأخذه من سطح الأرض أو من قيعان

الجداول الضحلة ، ولم يستعملوه إلا حلية . وقد قدر لاس كازاس أن السكان الوطنيين لجزر الهند تناقصوا من ١٢,٠٠٠,٠٠٠ (وهو رقم مغالى فيه ولا ريب) إلى ١٤,٠٠٠ فى ثمانية وثلاثين عاماً(٥٣) . وانضم المرسلون الدومنيكان والجزويت إلى لاس كازاس فى الاحتجاج على هذا الرق الهندى(٥٤) ، وكانت إيزابلا لا تفتأ تندد به(٥٥) . ووضع فرديناند وكسيمينيس شروطاً رحيمة بعض الشىء لتجنيد العمال الهنود(٥٦) . ولكن تعليمات هؤلاء السادة بشأن معاملة الوطنيين كانت تلقى الإهمال فى أغلب الأحيان أثناء استغراقهم الشديد فى شئون السياسة الأوربية .

وقام جـــدل صغير حول فتح المكسيك ، ذلك أن فرانشسكو لوبيز دجومارا كتب يروى قصـــة هذا السطو الظالم فى انحياز شديد لكورتيز . واحتج برنال دياز ديل كاستيللو على الرواية بأن ألف فى ١٥٦٨ « التاريخ الحقيقى لفتح إسبانيا الجديدة » وفيه دان كورتيز على اختصاصه نفسه بكل مفاخر الفتح ومكاسبه دون أن يترك إلا أقل القليل للجنود البواسل من أمثال برنال ، هذا مع ثنائه على كورتيز بما يستحقه ؛ والكتاب يستهوى القارىء لأنه يزخر بشهوة الحركة وبهجة الاكتشاف والدهشة البريئة مما كانت ترفل فيه مكسيك الأزتكة من ثراء وترف ؛ يقول « حين شاهدت ما أحاط بى من مناظر قلت لنفسى هذه جنة الدنيا » ثم يضيف « وهذا كله دمر » (٥٧) .

وقد نسبت أنضج المؤلفات فى تاريخ إسبانيا . وأشهر رواية إسبانية كتبت فى هذه الفترة ، إلى كاتب واحد ، اسمه دنجو أورتادو دى مندوزا ولد بغرناطة بعد أن فتحها فرديناند بنحو أحد عشر عاماً . وكان أبوه قد ظفر بالمجد لحسن بلائه فى حصارها ، فعين حاكماً للمدينة بعد سقوطها ؛ وتلقى الفتى علومه فى سلمنقة ، وبولونيا ، وبادوا ، فحصل ثقافة عريضة فى اللاتينية واليونانية والعربية ، وفى الفلسفة والقانون ، وراح

بجمع النصوص الكلاسيكية بحماسة أمير من أمراء النهضة ، وحين أراده سليمان القانونى أن يحدد المكافأة التى يختارها جزاء خدمات معينة أداها للباب العالى ، لم يطلب سوى بعض المخطوطات اليونانية . وقد حظى بمكانة مرموقة خلال خدمته الدبلوماسية لشارل الخامس فى البندقية وروما ومجمع ترنت ، ولما وبخه البابا بولس الثالث على حمله رسالة جافة من شارل إلى البابا ، أجاب بكل كبرياء النبيل الأسبانى : « إننى فارس . وكان أبى فارساً قبلى ، وبهذا الوصف أرى أن واجبى يقتضينى أن أصدع بأوامر سيدى الملك ، دون أن يساورنى أى خوف من قداستكم ، ما دمت أراعى واجب التبجيل لنائب المسيح. إننى خادم لملك أسبانيا . . وما دمت ممثلا له فأنا فى مأمن حتى من سخط قداستكم »(٥٨) .

وتتشكك الأبحاث الحديثة فى صحة نسبة أول رواية بطلها متشرد (Picaresque) فى الأدب الأوربى لمندوزا . واسم الرواية « حياة ومغامرات لازاريللو دى تورميس » . ومع أنها لم تطبع إلا عام ١٥٥٣ فالراجح أنها كتبت قبل ذلك بأعوام كثيرة . ومما يثير الغرابة أن سليلا لأسرة لا تفوقها فى النبالة إلا الأسرة المالكة يختار لصاً ليكون بطلا لقصة ، وأشد غرابة أن رجلا ربى فى صباه ليكون قسيساً يهجو رجال الدين هجوا لاذعاً حمل محكمة التفتيش على حظر أى طبعات جديدة من الكتاب قبل تنقيته من جميع الشوائب المؤذية(٥٩) . ولازاريللو(*) هذا صبى متشرد يتعلم حيل السرقات الصغيرة أثناء اشتغاله قائداً لمتسول مكفوف ، ثم يرتقى إلى جرائم أكبر حين يعمل خادماً لكاهن ، ثم لراهب ، ثم لقسيس كنيسة خاصة ، ثم لناظر زراعة ، ثم لبائع متجول لصكوك

(*) ومعناها « لعازر الصغير » ، اشارة الى لعازر المسكين الوارد فى انجيل لوقا الاصحاح ١٦ ، ثم أصبح « متسولا صغيرا » ثم صبيا يقود شحاذا أعمى .

الغفران . ولكن حتى هذا اللص الشاب ، المتمرس بشئون هذه الدنيا ، تروعه بعض الغرائب التى لجأ إليها بائع صكوك الغفران المتجول ترويجاً لبضاعته . يقول « يجب أن أعترف أننى — ككثيرين غيرى — كنت مخدوعاً وقتها فحسبت سيدى آية فى القداسة »[٦٠]. وقد أدخلت هذه الرواية المرحة « أسلوب المتشرد » gusto picaresco فى القصص . وابتعثت عدداً لا يحصى من الروايات المقلدة لها ، والتى بلغت الذروة فى أشهر قصص التشرد ، وهى جيل بلا (١٧١٥ — ٣٥) لمؤلفها ألين لساج Lesage .

واعتكف مندوزا فى غرناطة بعد أن نفى من بلاط فيليب الثانى لأنه جرد سيفه فى جدل بينه وبين غريم ، وهناك نظم أشعاراً خفيفة فيها من التحرر ما حال دون طبعها وهو حى ، ثم روى قصة ثورة المغاربة فى ١٥٦٨ — ٧٠ فى « تاريخ حرب غرناطة » فى نزاهة وإنصاف للمغاربة حبسا هذا الكتاب أيضاً عن النشر ، فلم يتيسر طبعه إلا فى ١٦١٠ . ولم يطبع منه وقتها غير جزء واحد ، واتخذ مندورزا من صالوست مثالا يحتذيه ولكنه تفوق عليه ، وسرق من تاسيتوس موضوعاً أو اثنين . ولكن يمكن القول على الجملة ان كتابه كان أول مؤلف أسبانى تجاوز مجرد السرد الإخبارى أو الدعاية إلى التاريخ الواقعى المفسر بادراك فلسفى ، والمعروض بمهارة أدبية . ومات مندوزا عام ١٥٧٥ وهو فى الثانية والسبعين ، وكان من أكثر الشخصيات تكاملا فى عصر حفل بالرجال المتكاملين .

فى هـــذه الصفحات العجلى يدخل الضمير دائماً فى سباق مع الزمن ، وينبه القلم المستعجل إلى أنه ، كالمسافر المسرع ، إنما يمس السطح فقط . فكم من ناشرين ومعلمين وعلماء وأدباء ورعاة للعلم وشعراء وروائيين وثوار مشهورين جاهدوا نصف قرن لينتجوا هذا الأدب الذى ضغطناه

فى هذه الصفحات . كم من روائع أغفلنا اسمها ، وأم ضربنا صفحاً
عن ذكرها . وأشخاص كانوا يوماً فى عداد العباقرة الخالدين أهملناهم
إلا من كلمات معدودات ! ولكن لا حيلة لنا فى هذا . فالمداد ينضب ،
ويجب قبل نضوبه أن نقنع بما يسفر عنه رشاشه وخطوطه من صورة
غائمة لرجال ونساء يتخففون برهة من عناء اللاهوت والحرب . ويحبون
أشكال الجمال كما يحبون سراب الحقيقة والقوة، يبنون الألفاظ وينحتونها
ويصورونها — إلى أن يجد الفكر فنا يكسوه ، وتمتزج الحكمة بالموسيقى .
وينهض الأدب ليتيح لأمة أن تتكلم ، ولعصر أن يصب روحه فى قالب
شكلى فى شغف كبير ليصونه الزمن نفسه وينقله خلال مئات الكوارث
تراثاً للبشرية :

الفصل السادس والثلاثون

الفن في عصر هولبين

١٥١٧ – ٦٤

١ – الفن ، والإصلاح البروتستنتي ، والنهضة

لقد فرض على الفن أن يقاسي من جراء حركة الإصلاح البروتستنتي ، ولو لمجرد إيمان البروتستنتية بالوصايا العشر . ألم يقل الرب الإله ، « لا تصنع لك تمثالا منحوتاً ولا صورة ما مما في السماء من فوق ، وما في الأرض من تحت ، وما في الماء من تحت الأرض » (خروج ٢٠ - ٤) فأنى للفن التصويري أن يعيش بعد هذا التحريم الشامل ؟ فاما اليهود فقد صدعوا بالأمر وأغفلوا الفن . وأما المسلمون فكادوا يغفلونه . واكتفوا بجعل فنهم فناً زخرفياً ، تجريدياً إلى حد كبير . يمثل في أغلبه الأشياء ، وقل أن يمثل الأشخاص . ولا يمثل الله أبداً . واتبعت البروتستنتية هذا الخط السامي بعد أن كشف العهد القديم من جديد ، وأما الكاثوليكية التي طغى تراثها اليوناني الروماني على أصلها اليهودي فقد تجاهلت هذا التحريم المرة بعد المرة . وشكل النحت القوطي القديسين والآلهة من الحجر ، وصور الرسم الإيطالي قصة الكتاب المقدس ، ونسيت النهضة كل النسيان هذه الوصية الثانية وسط ازدهار الفن التصويري ازدهاراً رائعاً : فلعل هذا الحظر القديم قصد به تحريم التصوير لأغراض السحر ؛ وكان لرعاة الفن في إيطالية النهضة من الفطنة وسلامة الإدراك ما جعلهم يضربون صفحاً عن تحريم بدائي لم يعد له الآن معنى .

وكانت الكنيسة ، وهى أعظم رعاة الفن قاطبة ، قد استخدمت الفنون لتنشئ غير المتعلمين على عقائد الإيمان وأساطيره . وبدا هذا الاستخدام أمراً معقولا فى نظر رجل الدولة الكنسى ، الذى شعر بأن الأساطير ضرورة لا غنى عنها للأخلاق. ولكن حين احتالت الكنيسة بأساطير — كأسطورة المطهر — لتجمع المال الذى تنفقه فى مختلف وجوه الإسراف والفساد ، تمرد المصلحون — ولهم العذر — على التصوير والنحت اللذين يثبتان الأساطير فى عقول الناس . وفى هذا الأمر كان لوثر معتدلا ، حتى إذا اضطره الأمر لمراجعة الوصايا . « أنا لا أزعم أن على الأنجيل أن يدمر كل الفنون كما يعتقد بعض المؤمنين بالخرافات . فانا على العكس أتمنى أن أرى جميع الفنون . . . . تخدمه تعالى وهو الذى خلقها ووهبنا إياها. إن ناموس موسى لم يحرم سوى تمثال الله »[1] . وفى عام ١٥٢٦ دعا أتباعه إلى «مهاجمة . . الوثنيين الذين يعبدون عدو المسيح (بابا روما) بالتصوير »[2] : وحتى كالفن ، الذى كان أتباعه أشد محطمى الأصنام حماسة ، وافق على التماثيل موافقة محدودة فقال : «لست شديد التزمت بحيث أحكم بتحريم كل التماثيل . . . ولكن بما أن فن التصوير والنحت . . . آت من الخالق ، فانى أريد أن تصان ممارسة الفن نقية مشروعة ؛ لذلك يجب ألا يرسم أو ينحت شىء إلا ما يرى بالعين[3] » . ولكن المصلحين الأقل إنسانية من لوثر ، والأقل حذراً من كالفن ، آثروا تحريم التصوير والنحت الدينيين بتاتاً ، وتجريد كنائسهم من الزخارف إطلاقاً . وأقصى « الصدق » الجمال لأنه كافر . أما فى إنجلتره واسكتلندة وسويسرة وشمالى ألمانيا فكان التدمير بالجملة وبلا تمييز . وأما فى فرنسا فقد صهر الهيجونوت أوعية الذخائر والنفائس الدينية وغيرها من الآنية التى عثروا عليها فى الكنائس التى وقعت فى أيديهم ؛ وعلينا أن نتصور غيرة رجال خاطروا بحياتهم ليصلحوا الدين قبل أن نستطيع فهم سورة

الغضب التى دمرت فى لحظات الانتصار تلك التماثيل التى عاونت على إخضاعهم . لقد كان التخريب وحشياً وهمجياً . ولكن الذنب فيه يجب أن يلقى على تلك المؤسسة التى ظلت قروناً تضع العقبات فى طريق إصلاح ذاتها :

وانتهت حياة الفن القوطى فى هذه الفترة . ولكن حركة الإصلاح البروتستنتى لم تكن سوى سبب واحد من أسباب موته . صحيح أن الانتقاض على الكنيسة الوسيطة رافقه زهد فى طرز العمارة والزخرفة التى طالما اقترنت بهذه الكنيسة . بيد أن الفن القوطى كان يحتضر حتى قبل أن يتكلم لوثر . كان يشكو فى فرنسا الكاثوليكية شكواه فى ألمانيا وانجلترة المتمردتين . لقد احترق فى وهج ناره . وكانت النهضة كما كانت حركة الإصلاح البروتستنتى كارثة عليه . ذلك أن النهضة أقبلت من إيطاليا التى لم تحب الفن القوطى قط . والتى سخرت منه حتى وهى تقتبسه . وقد انتشرت النهضة أكثر ما انتشرت بين المتعلمين الذين لم يستطع تشككهم المهذب أن يتفهم ذلك الإيمان المشبوب . إيمان الحروب الصليبية وعهد القوط . وإذ تقدمت حركة الإصلاح البروتستنتى . أصاب الكنيسة ذاتها ؛ التى وجدت فى العمارة القوطية التعبير الفنى الأسمى لها . فقر شديد من جراء فقدها بريطانيا وألمانيا واسكندناوه ، ومن جراء الغارات التى شنها الملوك الكاثوليك على دخلها بحيث لم تقو على تمويل الفن بالسخاء الذى مولته به من قبل ، أو على تقرير الذوق والطراز الفنى . وراحت النهضة — تلك الحركة ذات التأثير الدنيوى والوثنى — تؤكد يوماً بعد يوم ميولها ونزعاتها الكلاسيكية التى تغلبت على التقاليد المقدسة : تقاليد الإيمان والشكل الوسيطين . وتخطى الناس — فى غير تقوى — قروناً من التقوى والخوف ليستعيدوا من جديد مشاعر العصر القديم الشيرية ، مشاعر حب العالم وحب اللذة . وأعلنت الحرب على الفن القوطى بوصفه

فن الهمج الذين دمروا الإمبراطورية ، وعاد إلى الحياة الرومان المغلوبون ، فبنوا معابدهم من جديد ، وأخرجوا من ظلام الإهمال تماثيل آلهتهم ، وأمروا إيطاليا أولا ، ثم فرنسا وانجلتره ، أن تستأنف ذلك الفن الذى تجسد فيه مجد اليونان وعظمة الرومان . وهكذا هزمت النهضة الفن القوطى ، أما فى فرنسا فقد هزمت الإصلاح البروتستنتى .

(٢) فن النهضة الفرنسية

١ — مرض البناء

خاض الفن القوطى معركة فى المعمار الكنسى الفرنسى لمد فى أجله حيناً ، ونجح فى معركته : فأضافت بعض الكاتدرائيات القديمة عناصر جديدة كانت بالضرورة قوطية ، وهكذا أكملت كنيسة القديس بطرس بمدينة كان خورسها الشهير ، وبنت كنيسة بوفيه جناحها الجنوبى ، وبذل الفن القوطى جهد المحتضر تقريبا حين شيد جان فاست فوق معبد هذا الجناح برجا ارتفع ٥٠٠ قدم (١٥٥٣) . فلما انهارت هذه الجرأة الشامخة فى عيد الصعود عام ١٥٧٣ وسقط البرج فوق الخورس المتهدم ، كانت الكارثة رمزاً لخاتمة أنبل الطرز فى تاريخ العمارة .

وارتفعت فى هذه الفترة مفاخر قوطية أقل من هذه شأناً فى بونتواز وكوتانس وأكثر من عشر مدن فرنسية أخرى . وفى باريس التى تكشف كل نظرة إليها عن معجزة من معجزات ماض مؤمن ، بنيت كنيستان قوطيتان جميلتان : سانت إتيين دمون (١٤٩٢ — ١٦٢٦) ، وسانت أوستاش (١٥٣٢ — ١٦٥٤) . غير أن ملامح النهضة تسللت إليهما : كالحجاب الحجرى الفخم الذى يستدير فوق الخورس فى كنيسة سانت إتيين ، والعمد المركبة والتيجان شبه الكورنثية فى سانت أوستاش . كان حاول عمارة النهضة اللادينية محل العمارة القوطية الكنسية انعكاساً

لذوق فرانسوا الأول ، ولاتكاء النزعة الإنسانية على اللذة الدنيوية دون الرجاء السماوى . وانصرفت الآن كل ثمرات الازدهار الاقتصادى ، والرعاية الارستقراطية ، ونزعة اللذة الوثنية – هذه كلها التى غذت من قبل نيران الفن فى إيطالية النهضة ، انصرفت إلى تغذية الجهود المخلصة التى بذلها المعماريون والرسامون والنحاتون والخزافون والصائغون فى فرنسا . واستقدم الفنانون الإيطاليون إلى فرنسا ليمزجوا بين مهاراتهم وعناصرهم الزخرفية وبين ما تخلف من الأشكال القوطية . وتضافرت روعة التصميم الإيطالى ، وواقعية التصوير الفلمنكى ، وذوق الارستقراطية الفرنسية وخمالها الخنثوى ، لتنتج فى فرنسز فناً تحدى تفوق الفن الإيطالى وورث هذا التفوق . ولم يقتصر هذا الفن على باريس وحدها ، بل جاوزها إلى فونتنبلو ، ومولان ، وتور ، وبورج ، وأنجيه ، وليون ، وديجون ، وأفنيون ، وإكس أن بروفانس .

وكان على رأس الحركة ملك أحب الفن حب المتيم المتحمس ولكن فى فهم وتمييز . وتركت روح فرانسوا الأول الحلية المشرقة طابعها على المعمار خلال حكمه . وكان يقول لفنانيه الجرأة الجرأة ! »(٤) ويتركهم ليجربوا بطريقة لم تسمح بها حتى إيطاليا من قبل . وقد تبين براعة الفنانين الفلمنك فى تصوير الأشخاص . فاحتفظ بجان كلويه رساماً لبلاطه ، وطلب إلى جوس فان كليف أن يرسم صوراً له ولحاشيته . ولكن إيطاليا كانت ملهمته فى جميع فنون الصقل والزخرفة . فقد زار ميلان وبافيا وبولونيا وغيرها من المدن الإيطالية عقب انتصاره فى مارنيانو (١٥١٥) ، وراح يدرس فى حسد عمارة هذه المدن ورسومها وفنونها الصغيرة : وقد نقل تشلليني عنه قوله : « أذكر جيداً أننى فحصت خيرة الأعمال الفنية التى أبدعها عظم الفنانين فى إيطاليا كلها »(٥) . ولعل هذه المبالغة أن تكون من صنع تشلليني المتحمس . على أن

فازارى يلاحظ فى مواضع كثيرة شراء فرانسوا الأول للآثار الفنية الإيطالية بواسطة عملاء له فى روما وفلورنسة والبندقية وميلان . وبفضل هذه الجهود استطاعت « موناليزا » ليوناردو ، و « ليدا » ميكلانجلو ، و « فينوس برونزينو وكيوبيده » ، و « مجدلية » تيشان (تزيانو) : ومئات الزهريات والمداليات والرسوم الصغيرة والصور الزيتية وقطع النسيج المرسومة — استطاعت هذه كلها أن تعبر جبال الألب لتستقر آخر المطاف فى اللوفر .

ولو كان الأمر بيد هذا الملك المتحمس لاستقدم نوابغ الفنانين الإيطاليين جميعاً . وكان هذا يقضى إغراءهم باغداق المال عليهم : قال لتشالينى واعداً « سأتخمك ذهباً » وجاءه بنفينوتو ومكث فترات متقطعة (١٥٤١ — ٤٥) ، كانت كافية لإرساء قدم الصياغة الفرنسية فى تقاليد من التصميمات البديعة والأساليب الفنية الرائعة . وكان دومنيكو برنابى « بوكادورو » قد وفد على فرنسا أيام شارل الثامن ، فوكل إليه فرانسوا الأول رسم « أوتيل دفيل » جديد لباريس (١٥٣٢) . وقد استغرق إنجازه قرابة قرن ، وأحرقه كومون ١٨٧١ ، فبنى من جديد وفق التصميم الذى وضعه بوكادورو . وأقبل ليوناردو فى شيخوخته (١٥١٦) ، وقدمت إليه دنيا الفن والنبالة الفرنسية فروض العبادة ، ولكننا لا نعرف له أثراً أبدعته يداه فى فرنسا . وجاء أندريا ديل سارتو (١٥١٨) ، ولكنه سرعان ما هرب . وأغرى جوفانى باتيستا « إلروسو » بالرحيل عن فلورنسة (١٥٣٠) فأقام بفرنسا حتى مات منتحراً . وتلقى جوليو رومانو دعوات عاجلة ، ولكن مانتوا كانت تفتنه بسحرها ؛ على أنه أوفد مساعده النابغة فرانشسكو بريماتيتشيو (١٥٣٢) ، وجاء فرانشسكو بللجرينو ، وكذلك جاكومو دا فنيولا ، ونيكولو دللاباتى ، وسبستيانو سرليو ، وربما كثيرون غيرهم . وشجع الفنانون الفرنسيون فى الوقت ذاته على الذهاب إلى إيطاليا ودراسة قصور فلورنسه وفرارا وميلان وكنيسة القديس

يطرس الحارى تشييدها فى روما . ولم يحدث مثل هذا النقل الفنى للدم الثقافى منذ أن غزا الفن والفكر اليونانيان روما القديمة .

وساء الفنانين الوطنيين والفلمنلكيين هذا الإغواء الإيطالى ، وسجل تاريخ العمارة الفرنسية احتدام معركة ملكية طوال نصف قرن (١٤٩٨ — ١٥٤٥) بين طراز قوطى تأصلت جذوره فى التربة الفرنسية وسط حب الناس له وتعلقهم به ، وبين البدع الإيطالية المتسللة إلى فرنسا فى أذيال الفاتحين المغلوبين . وتجلى الصراع فى الحجر فى قصور اللوار . ففيها ظل الفن القوطى صاحب الكلمة العليا ، وسيطر مهرة البنائين الغالبين على تصميم البناء : قلعة إقطاعية يحيط بها خندق يحميها ، وأبراج أشبه بالحصون تعلو فى الأركان فى سمت عمودى جليل ، ونوافذ فسيحة ذات عمد لتغرى الشمس بالدخول ، وأسطح مائلة تنزلق من فوقها الثلوج ،و رواشن ناتئة من السقوف كأنها المونوكلات . على أنه سمح للغزاة الإيطاليين بخفض الباكية المدببة لتعود إلى شكلها المستدير القديم ، وينتظم الواجهات فى صفوف من النوافذ المستطيلة المدعمة بالعمد والمتوجة بالقواصر . وزخرفة الداخل بزخارف كلاسيكية من الأعمدة والتيجان والأفاريز والقوالب والحليات المدورة والنقوش الغريبة والحليات القرنية المنحوتة الممثلة للنبات والزهر والفاكهة والحيوان وصدور الأباطرة والآلهة الأسطورية . كان الطرازان القوطى والكلاسيكى من الناحية النظرية متناقضين . ولكن مزج الفرنسيين بينهما فى هذا الجمال المتسق بفضل التمييز والذوق الفرنسيين أعان على جعل فرنسا يونان العالم الحديث .

وتسلطت على فرنسا ، أو قل على فرانسوا « حمى البناء » كما سماها قائد أخذ منه العجب كل مأخذ(٦) . فأضاف إلى قصر بلوا القديم (١٥١٥ — ١٩) للملكة كلود جناحاً شمالياً كان مهندسه المعمارى فرنسيا يدعى جاك سوردو ، ولكن الطراز الذى بناه به كان طراز النهضة

بعينه . وإذ رأى سوردو من غير المناسب أن يبنى سلماً داخل الجناح المضاف فقد صمم رائعة من روائع العصر المعمارية — وهى بيت للسلم حلزونى خارجى يرقى فى برج مثمن ، بثلاثة طوابق ، إلى بهو معمد أنيق يبرز من السطح : وكل طابق يحليه زخرف فاخر من شرفة منحوتة .

وبعد أن ماتت مليكته المرهقة ، وجه فرانسوا شغفه بالمعمار إلى شامبور ، وتقع على ثلاثة أميال جنوبى اللوار وعشرة أميال شمال شرقى بلوا . وكان أمراء أورليان قد بنوا هناك استراحة للصيد ، فبنى فرانسوا عوضاً عنها قصراً غلب عليه الطراز القوطى ، وبلغ اتساعه حداً احتاج معه إلى جهد ١٫٨٠٠ عامل على مدى اثنى عشر عاماً ، ولا غرو فقد احتوى على ٤٤٠ حجرة . ومرابط لخيل يصل عددها إلى ١٫٢٠٠ : وأبدع مصمموه الفرنسيون رسم واجهته الشمالية ولكنها اختلطت بمتاهة من الأبراج ، و « الفوانيس » ، والقمم ، والزخارف المنحوتة . وميزوا داخل القصر ببيت للسلم حلزونى فخم جداً ، فريد بممره المزدوج الذى يفصل المصعد عن المهبط . وكان فرانسوا يؤثر شامبور ويراها مكاناً ممتعاً للصيد . وفيها أحبت حاشيته أن تحتشد فى كل زينتها ، وفيها قضى سنى عمره الأخيرة . وقد دمر الثوار فى ١٧٩٣ معظم الزخرف الداخلى للقصر بدافع الانتقام المتأخر من إسراف الملوك الفرنسيين ، وهناك قصر آخر شيد على عهد فرانسوا — وهو قصر مدريد فى غابة بولون — وقد حلاه جيرولامو ديللا روبيا بواجهة من الخزف الإيطالى (الميوليك) ، ولكنه دمر تدميراً تاماً أيام الثورة .

على أن الإسراف لم يقتصر على الملك وحده . ذلك أن كثيراً من مساعديه شادوا لأنفسهم قصوراً ما زالت تبدو وكأنها مجلوبة من أرض الجان . ومن أروعها آزيه — لو — ريدو ، على جزيرة فى الآندر ، أما صاحبه

جيل برتيلو ، الذي بناه فى ١٥٢١ ، فلم يكن خازناً لفرنسا عبثاً ، وبنى توما بوييه كبير مأمورى الضرائب فى نورماندية قصر شينونسو (١٥١٣ وما بعدها) ، وأعاد جان كوتو وزير المالية بناء قصر مانتنون ، وشيد جيوم دمونمورنسى فى شانيتى (١٥٣٠) قصراً فخماً كان ضحية أخرى من ضحايا الثورة . وبنى ابنه آن دمونمورنسى . أحد كبار موظفى الأمن فى فرنسا ، قصر إيكوان (١٥٣١ — ٤٠) على مقربة من سان دنيس . ورمم جان لبريتون ، وزير الدولة ، قصر فيللاندريه ، وأكمل شارل دسبينى قصر أوسيه . أضف إلى هذه كلها « أوتيلات » أو قصور فالنسى ، وسمبلانسى فى تور ، واسكوفيل فى كان ، وبرنوى فى تولوز ، ولالمون فى بورج ، وبور — ترولد فى روان ، وعشرات غيرها ، وكلها من نتاج هذا العهد المسرف ، وفى وسعنا أن نحكم الآن على مدى ثراء النبلاء وفقر الشعب فى تلك الفترة .

وأحس فرانسوا أن قصر فونتنبلو الذى يسكنه لا يفى بأغراضه ، فقرر أن يعيد بناء ما بناه لويس السابع ولويس التاسع من قبل ، لأن فونتنبلو كانت كما قال تشلليني « أحب بقاع المملكة إلى الملك » . لذلك رمم البرج المحصن والكنيسة . أما باقى القصر فهدم ، وأقام جيل دبريتون وبيير شامبيج مكانه ، بطراز النهضة ، مجموعة من القصور ربط بينها « بهو فرانسوا الأول » الرشيق . أما مظهر القصر فلم يكن جذاباً ، ولعل الملك رأى — كما رأى أقطاب التجارة بفلورنسة — أن واجهة ضخمة لقصر قريب جداً من المدينة قد تثير حسد الجماهير . فاحتفظ بميوله الجمالية ليشبعها بزخرفة الداخل ، واعتمد فى هذه المهمة على فنانين إيطاليين نشئوا على التقاليد الزخرفية التى أرساها رفائيل وجوليو رومانو .

وظل إل روسو — الذى اشتق لقبه هذا من تورد وجهه . عشر سنوات (١٥٣١ — ٤١) عاكفاً على زخرفة بهو فرانسوا الأول . ويصف فازارى

هذا الفنان الذى كان يومها فى عامه السابع والثلاثين بأنه رجل « ذو طلعة مشرقة ، وحديث رزين لطيف ، موسيقار كفء ، وفيلسوف ضليع » و « معمارى ممتاز » ، وهو إلى ذلك نحات ومصور[٧] . وكذلك كان الرجال المتكاملون من أهل عصر التوسع الذى نحن بصدده . وقسم روسو الجدران إلى خمس عشرة حشوة ، كلها محلى بطراز النهضة المسرف : قاعدة من السنديان الجوزى المنقوش والمطعم ، ولوحة جصية جدارية ذات مناظر من الأساطير الكلاسيكية أو التاريخ ، ومحيط غنى من الزخارف الجصية فى التماثيل ، والودع ، والسلاح ، والمداليات ، وأشكال الحيوان أو الإنسان ، وأكاليل الزهر أو الفاكهة ، ثم سقف من الخشب العميق الحفر يكمل تأثير اللون الدافىء ، والجمال الحسى ، والبهجة العابثة . وكان هذا كله ينسجم غاية الانسجام مع ذوق الملك ، فأنعم على روسو ببيت فى باريس ، وبمعاش قدره ١،٤٠٠ جنيه (٣٥،٠٠٠ دولار ؟) فى العام . يقول فازارى « وعاش الفنان فى بذخ النبلاء ، يحف به خدمه وخيوله ، ويولم الولائم لأصدقائه »[٨] . وقد جند لخدمته من المصورين والنحاتين ستة من الإيطاليين ، وعدة فرنسيين ، وهم الأصل والنواة لـ « مدرسة فونتنبلو » . وفى قمة نجاحه وعظمته قضى طبعه الإيطالى الحاد على نشاطه . ذلك أنه اتهم أحد مساعديه المدعو فرانشسكو بللجرينو بالسرقة . ولكن براءة بللجرينو تكشفت بعد أن عذب عذاباً شديداً . وشعر روسو بالخزى وتأنيب الضمير ، فتجرع السم ومات معذباً ، ولما يجاوز السادسة والأربعين (١٥٤١) .

وحزن عليه فرانسوا ، ولكنه كان قد وجد فى بريماتتشيو فناناً قادراً على مواصلة عمل روسو بالأسلوب ذاته ، أسلوب الخيال الشهوانى . كان بريماتتشيو فتى وسيماً فى السابعة والعشرين يوم وطىء أرض فرنسا عام ١٥٣٢ . وسرعان ما تبين الملك كفاياته المتعددة معمارياً ومثالا ومصوراً .

فعين له عدداً من المساعدين ، وراتباً طيباً ، ثم اختصه بعد ذلك بموارد أحد الأديار ، وهكذا حولت عطايا المؤمنين إلى فن لعله كان يصدم مشاعر الرهبان لو شهدوه . وصمم بريماتشيو رسوماً للمصنع الملكى للنسيج المرسوم ، وحفر رفاً رائعاً لمدفأة حجرة الملكة إليونورا بقصر فونتنبلو ، ورد على رعاية الدوقة ديتامب وحمايتها إياه بتزيين حجرتها فى القصر بصور وتماثيل جصية . وقد ماتت الصور مرات تحت ترميماتها العديدة ، ولكن التماثيل محتفظة بروعتها ، وبينها تمثال من الجص لسيدة ترفع يديها إلى طنف ، وهو من أبدع التماثيل فى الفن الفرنسى . ترى كيف يسع ملكاً تعشق مثل هذا العرى المتظاهر بالاحتشام أن يرتضى الكالفنية بديلا عن كنيسة تبتسم فى تسامح لتصوير هؤلاء العاريات الفاتنات ؟ .

ولم تهتز مكانة بريماتشيو ولا هذب أسلوبه بعد موت هذا الملك « الساطير » وارتقاء هنرى الثانى العبوس للعرش ، فقد عكف الآن (١٥٥١— ٥٦) بمساعدة فيليبير ديلورم ونيكولو ديللاباتى على تصميم بهو هنرى الثانى فى فونتنبلو وتصويره ونقشه وتزيينه بشتى الزخارف . وقدد مرت اللوحات هى الأخرى ، ولكن جمال التماثيل الأنثوية ما زال يخلب الألباب ، وفى الجدار النهائى من العناصر الكلاسيكية ما يجعله الروعة مجسمة والجلال متجسداً . وفاق بهو أوليس فى روعته حتى بهو هنرى الثانى على ما روى (لأن البهو دمر فى ١٧٣٨) ، وقد زينه بريماتشيو ورفاقه بمواضيع مختارة من الأوديسا بلغ عددها ١٦١ .

ويعين قصر فونتنبلو انتصار الطراز الكلاسيكى فى فرنسا . وقد ملأ فرانسوا قاعاته بتماثيل وتحف اشتريت له فى إيطاليا فدعمت روعتها رسالة الفن الكلاسيكى . وفى هذه الأثناء نشر سياستيانو سيرليو ، الذى عمل فترة فى قصر فونتنبلو ، كتابه Opere di architettura (١٥٤٨) ، وفيه بشر بالكلاسيكية الفتروفية التى دان بها أستاذه بالداسار

بتروتزى ، وقد قام بترجمته إلى الفرنسية لتوه جان مارتان ، الذى ترجم أيضاً فتروفيوس (١٥٤٧) . وراح الفنانون الفرنسيون الذين دربهم روسو أو بريماتتشيو يبثون من مدرسة فونتنابلو القواعد والمثل الكلاسيكية فى أرجاء فرنسا ، فظلت مسيطرة عليها قروناً هى وما يقابلها من أشكال الأدب الكلاسيكية التى بدأتها جماعة البلياد. وذهب الفنانون الفرنسيون أمثال جاك أ. دسرسو . وجان بوللان ، وديلورم ، إلى إيطاليا منفعلين بسرليو وفتروفيوس ، لكى يدرسوا آثار العمارة الرومانية ، ونشروا بعد عودتهم أبحاثاً صاغوا فيها الأفكار الكلاسيكية . ونددوا كما ندد رونسار ودبلليه بالطرز الوسيطة لما فيها من همجية ، وصمموا على تهذيب المضمون وإحالته شكلا : وبفضل هؤلاء الرجال وكتبهم انبعث المعمارى فناناً متميزاً عن البناء الماهر ، ذا مكان مرموق فى السلم الاجتماعى: ولم تعد بعد ذلك حاجة إلى الفنانين الإيطاليين فى حركة البناء الفرنسية ، لأن فرنسا تخطت الآن إيطاليا إلى روما القديمة ذاتها تستوحيها فنون المعمار ، وجمعت جمعاً رائعاً بين الأساليب الكلاسيكية وتقاليد فرنسا ومناخها .

فى هذا الجو — جو الفكر والفن — ارتفع أنبل بناء مدنى فى فرنسا : والمتأمل للوفر اليوم من شاطىء السين الأيسر ، والمتجول يوماً بعد يوم خلال متحف العالم هذا الحافل بالكنوز ، يتضاءل خشوعاً ورهبة أمام ضخامة هذا الأثر . ولو خيرنا أى بناء فرد نرى الإبقاء عليه فى كارثة عالمية مدمرة لاخترنا اللوفر : كان فليب أغسطس قد بدأ تشييده حوالى عام ١١٩١ قلعة محصنة تقى باريس شر الغزو على طول نهر السين . ثم أضاف شارل الخامس جناحين جديدين (١٥٣٧) وبيتاً للسلم من خارج ربما كان الموحى بتحفة قصر بلوا . ولما وجد فرانسوا أن هذا البناء الوسيط ، نصف القصر ونصف السجن ، غير صالح لسكناه ولهوه،

أمر بهدمه وعهد إلى بيير ليسكو (١٥٥٦) أن يقيم فى مكانه قصراً قصراً يليق بملك يتربع على عرش فرنسا النهضة . ولما مات فرانسوا بعد عام أمر هنرى الثانى بالمضى فى المشروع .

كان ليسكو نبيلا وقسيساً ، فهو سيد كلانى الإقطاعى ، ورئيس دير كليرمون ، وكاهن نوتردام ، ومصور ونحات ومعمارى . وهو الذى صمم علية الصليب فى كنيسة سان جرمان لوكسروا (التى دمرت فى ١٧٤٥) والقصر الذى أصبح الآن « أوتيل كارنافاليه » . وقد استعان فى هذين العملين بصديقه جان جوجون ليقوم بالنحت الزخرفى ، وحين تقدم العمل فى اللوفر الجديد دعا جوجون ليزينه . وفى ١٥٤٨ شيد ليسكو الجناح الغربى للقصور التى تضم اليوم فناء اللوفر المربع (الكور كاريه) : أما الواجهة فهى من الأرض إلى السطح من إملاء طراز النهضة الإيطالية ، على وجه الحصر (كما كان رابليه يقول لو رآها) : ثلاثة صفوف من النوافذ المستطيلة ، وتفصل بين الصفوف كرانيش من الرخام . أما النوافذ فتفصل بينها أعمدة كلاسيكية ، ثم ثلاثة أروقة تعتمد على عمد كلاسيكية أنيقة ، ولم يكن فرنسياً غير السقف المائل ، ولكن الحليات المعمارية كانت هنا أيضاً ذات جمال كلاسيكى . ولولا أن جوجون أدخل تماثيل فى كوى الأروقة وحفر نقوشاً بديعة فى القواصر وتحت الكرانيش ، وتوج النتوء الأوسط بشعار هنرى وديانا — لولا هذا لكان المنظر العام شديد الصرامة : وفى داخل جناح ليسكو هذا بنى جوجون قاعة تسمى Salle des Cariatides — أربع إناث رائعات يسندن شرفة للموسيقيين ؛ وجوجون أيضاً هو الذى زخرف قبو السلم الكبير المؤدى إلى الحجرة الملكية التى نام فيها ملوك فرنسا ابتداء من هنرى الرابع إلى لويس الرابع عشر : واستمر العمل فى بناء اللوفر وزخرفته أيام شارل التاسع وهنرى الرابع ولويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر

ونابليون الأول ونابليون الثالث . ملتزماً على الدوام الطراز الذى حدده ليسكو وجوجون بحيث أصبح هذا الصرح الفسيح هو العصارة المركزة لثلاثة قرون ونصف من حضارة طحنت كد الشعب لتخرج منه هذه الروائع الفنية . ترى ، أكان ممكناً بناء اللوفر لو أنصفت الارستقراطية الشعب ؟ .

وأبدع فيليبر ديلورم لهنرى الثانى وديان دبواتييه آيات فى العمارة كأنها فى سحرها جنات عدن . وقد درس فيليبر فى شبابه آثار روما القديمة وفوقها ، فأحبها . ولكنه أعلن عقب عودته إلى فرنسا أن العمارة الفرنسية يجب منذ الآن أن تكون فرنسية . وكانت روحه روح الوثنية الكلاسيكية والوطنية الفرنسية — هى بالضبط برنامج جماعة البلياد . وقد صمم سلم « الكورد يزاديه Cour des Adieux » بفونتنبلو على شكل حدوة حصان ، والمدفأة والسقف الغائر النقوش فى بهو هنرى الثانى . وشيد لديان فى آنيه (١٥٤٨ — ٥٣) مدينة حقيقة من القصور والحدائق الرسمية ، وهناك وضع تشلليني تمثاله « حورية فونتنبلو » فى قوصرة . وبز جوجون المثال الفلورنسى بمجموعته التى تمثل ديانا وأيلها . ومعظم هذا الفردوس النفيس حل به الدمار ، ولم يبق منه سوى بوابة لا تثير إعجاباً بذكر فى فناء مدرسة الفنون الجميلة بباريس . ولأجل هذه الخليلة المنتصرة نفسها أكمل قصر شنونسو — هدية صغيرة من مليكها المتيم ، وفيليب هو الذى فكر فى مد القصر عبر الشير . ولما أخذت كاترين مديتشى القصر من ديان ، واصل ديلورم جهوده الشاقة فيه حتى اكتملت هذه الآية الفنية . على أن أسلوبه الرياضى المسرف لم ينل الرضا حيناً ، فاعتكف ليؤلف بحثاً موسوعياً فى العمارة . ثم دعته كاترين ثانية فى شيخوخته ليستأنف العمل ، فصمم لها قصراً جديداً هو التويلرى (١٥٦٤ — ٧٠) الذى دمره كومون

١٨٧١ . وقد تلقى الفنان من جميع رعاة فنه مكافآت سخية . فأصبح قسيساً ، وشغل عدة وظائف كنسية مجزية . ثم مات فى ١٥٧٠ كاهناً لنوتردام ، بعد أن دبر فى وصيته مستقبل طفليه غير الشرعيين(٩) .

كان جان بولان ثالث المعماريين النوابغ الذين زينوا فرنسا فى عهود زوج كاترين وأبنائها . وقد اكتسب شهرته فى ثلاثيناته بمدينة اكوان إذ صمم قصراً ريفياً لآن دمونمورنسى بلغ الكمال فى خطوطه الكلاسيكية . وفى ستيناته خلف ديلورم فى بناء التويلرى وواصل العمل إلى أن مات « من يوم إلى يوم ، أموت وأنا أتعلم » على حد قوله .

لقد درج الناس على أن يأسفوا لاستيرادالعمارة الفرنسية للطرز الإيطالية ، وعلى أن يقولوا إن الفن القوطى الوطنى لو ترك دون أن يحرفه هذا التأثير لتطور إلى عمارة مدنية أنسب للرشاقة الفرنسية من الخطوط الصارمة نسبياً التى اتسمت بها الطرز الكلاسيكية . ولكن الفن القوطى كان فى طريقه إلى الموت من الشيخوخة . ربما من الإسراف الحرم والزوقة العتيقة ، لقد جرى شوطه وانتهى . وكان اتكاء الفن اليونانى على ضبط النفس والاستقرار والخطوط البنائية الواضحة خير ما يصلح للتخفيف من الاندفاع الفرنسى والسير به إلى نضج مهذب . وقد ضحى فى هذا السبيل ببعض طرافة العصر الوسيط . ولكن هذه أيضاً عاشت أيامها وانقضت . وهى لا تبدو جذابة إلا لأنها ماتت . ولما طور معمار النهضة الفرنسية طابعه القومى الخاص ، مازجاً الرواشن والسعاوح المائلة بالأعمدة والتيجان والقواصر ، منح فرنسا طوال ثلاثة قرون طرازاً فى البناء كان مثار حسد أوربا الغربية . ونحن نحس الآن أن هذا الطراز كان جميلا لأنه هو الآخر فى طريقه إلى الزوال .

٢ — الفنون الملحقـــة

قام مئات من الصناع الفنانين بتزيين الحياة الفرنسية فى هذا العصر المرح ، عصر فرانسوا الأول وهنرى الثانى . ونقش النجارون مقاعد المرتلين فى كنائس بوفيه ، وآميان ، وأوخ ، وبرو ، وتجرأوا على زخرفة المبانى القوطية بمناظر حية من النهضة تمثل آلهة الحقول ، والعرافات . وأتباع باخوس والسواتير ، بل تمثل بين الحين والحين فينوس أو كيوبيد أو جانيميد . أو قد تراهم — لكى نلاحقهم ملاحقة محمومة — يصنعون الموائد ، والكراسى ، والإطارات ، والمراكع ، والأسرة ، والخزائن ، وينقشونها بزخارف ربما كانت مسرفة ، أو يكفتونها بالمعادن أو يطعمونها بالعاج أو الأحجار الكريمة . أما صناع الأشغال المعدنية الذين بلغوا الآن ذروة الإتقان فقد خلعوا الجمال الرائع على الأوانى والأسلحة بزخرفتها بالنقوش الدمشقية أو بحفرها ، ورسموا النوافذ ذات المصبعات — بقصائد من الشعر فى زخرف حديدى من الشجر — للكنائس والهياكل والحدائق والمقابر ، أو صنعوا مفصلات كتلك التى نراها على أبواب نوتردام الغربية ، وفيها من الجمال ما جعل الأتقياء ينسبون صنعها إلى أيدى الملائكة . وقد اعترف تشلينى ، وهو الذى لم يبق لغيره مديحاً يذكر بعد أن أشبع حاجاته منه ، بأن الصباغ الفرنسيين قد بلغوا فى صنعهم آنية الكنائس — أو آنية المنازل كتلك التى حفرها جان دوريه لهنرى الثانى — « درجة من الإتقان والكمال لا تجدها فى أى بلد آخر »(١٠) . أما الزجاج الملون (المعشق) فى كنيسة مرجريت النمساوية فى برو ، أو فى كنيسة سانت إتيين فى بوفيه . أو فى كنيسة سانت إتيين دمون فى باريس ، فقد كشف عن عظمة لم تكن فارقت فرنسا بعد . وقد أنشأ فرانسوا فى فونتنبلو مصنعاً تنسج فيه قطع النسيج

المرسومة قطعة واحدة بدلا من صنعها أجزاء منفصلة تخاط معاً كما كانت الحال من قبل ، وخلطت الخيوط الذهبية والفضية فى سخاء بالحرير والصوف المصبوغين . وبعد عام ١٥٣٠ لم تعد نماذج قطع النسيج الفرنسى المرسوم ومواضيعه قوطية وفروسية ؛ بل اتبعت تصميمات النهضة وموضوعاتها المجلوبة من إيطاليا .

وغلبت رسوم النهضة الزخرفية على الحراريات فى خزف ليون (المايوليك) ، وفى قاشانى جنوبى فرنسا ، وفى صناعة المينا بايموج . ورسم ليونار ليموزان وغيره بألوان المينا المصهورة البراقة أشكالا أنيقة من النبات والحيوان والآلهة والبشر على الأوانى النحاسية كالأحواض والزهريات والأباريق والكئوس والأطباق وغيرها من الأوانى المتواضعة التى سموا بها إلى مرتبة التحف الفنية : وهنا أيضاً كان لفرانسوا فضل المشاركة ، فقد وضع ليونار على رأس مصنع المينا الملكى بليموج ، وخلع عليه لقب « الوصيف الخاص للملك » . وتخصص ليونار فى رسم صور الأشخاص بالمينا على الأطباق النحاسية ؛ وفى متحف المتروبوليتان بنيويورك نموذج رائع منها يصور فرانسوا نفسه ، وغير هذا كثير فى قاعة أبوللو باللوفر مما يشهد فى هدوء لهذا العهد الذهبى .

كان تصوير الأشخاص فناً مكتمل النضج فى فرنسا قبل قدوم الإيطاليين . فمن من الفنانين الإيطاليين فى فرنسا كان بوسعه أن يرسم أروع من صورة جيوم دمونمورنسى التى رسمها فنان كبير لم يذكر عليها اسمه حوالى عام ١٥٢٠ ، والمحفوظة اليوم بمتحف ليون ؟ — Voila un homme ! « هاكم رجل » — إنها ليست تحية مصورة . إنها رجل . لقد جلب روسو وبريماتتشيو وديللاباتى وغيرهم من مدرسة فونتنبلو إلى فرنسا ما تعلموه من رفائيل أو برينو ديلفاجا أو جوفانى دا أوديني أو جوليو رومانو عن زخرفة العمد والكرانيش والأسقف

. . . . بال « جروتسك » أو الأشكال العابثة — أشكال الملائكة (الكاروبيم) والأطفال واللوالب والزخارف العربية والنبات . وقد رسم عضو مجهول من أعضاء هذه المدرسة لوحة « ديان دبواتييه » المحفوظة الآن بمتحف ورستر بولاية ماساشوستس — جالسة إلى خوان زينتها وعلى رأسها تاج . وبعد عام ١٥٤٥ قدم إلى فرنسا كثير من المصورين الفلمنك ، فيهم بروجل الأب ، ليدرسوا الأعمال الفنية فى فونتنبلو . ولكن أسلوبهم كان أعمق جذوراً من أن يستسلم للتأثير الإيطالى . وتغلبت القوة الواقعية التى اتسم بها فنهم على الجمال الأنثوى الذى تجلى فى فن ورثة رفائيل .

وكادت أسرة فلمنكية واحدة فى فرنسا أن تؤلف مدرسة قائمة بذاتها . كان يوحنا كلويه Clouet ملحقاً ببلاط فرانسوا فى تور وباريس ، وكل الناس يعرفون الصورة التى رسمها للملك حوالى ١٥٢٥ والمحفوظة الآن باللوفر ، وجسم فيها الملكية المستكبرة المغرورة السعيدة قبيل كبوة من كبواتها » وخلف فرانسوا كلويه أباه يوحنا مصوراً للبلاط ، وسجل بالطباشير أو الزيت صور كبار القوم خلال حكم أربعة من ملوك فرنسا . واللوحة التى رسم فيها هنرى الثانى أروع من تلك التى صور فيها أبوه فرانسوا الأول . ويدهشنا أن نرى فى اللوحة تلك الهوة بين العاشق المرح والابن المكتئب المزاج ، وفى وسعنا أن نفهم منها كيف استطاع هذا الرجل أن يصدق على تشكيل « الغرفة الغيور » لاضهاد المهرطقين ، وإن لم نلمح فى الوجه — الذى يكاد يكون بورجياً — أى إلماع لوفائه المقيم لديان . ووجدت أسرة كلويه من تحداها بعض الوقت فى شخص كورنيى الليونى الذى نافسها برسم خاص به . وظهر هذا التحدى فى صور كصورة المرشال بونيفيه ، عشيق مرجريت . ولكن أحداً من المعاصرين فى فرنسا لم يستطع مجاراة فرانسوا

كلويه فى ذلك الحشد من الصور التى رسمها لكاترين مدتشى . وفرانسوا الثانى . ومارى ملكة إسكتلندة . والیزابیث فالوا . وفيليب الثانى . ومرجريت زوجة هنرى الرابع المقبلة . وشارل التاسع فى شبابه — وقد بدا ألطف من أن نتبين فيه ملك « المذبحة » المرتاع . فى هذه الصور نرى الواقعية والصدق الفلمنكيين وقد خففت من حدتهما الرقة والدقة والحيوية الفرنسية . فالنبرة خافتة . والخط دقيق مطمئن ، وعناصر الشخصية المعقدة مقتنصة وموحدة . مثل هذا المؤرخ النابض بالحياة لن تستمتع بفنه غير إنجلترة هولبين .

كان النحت خادماً للعمارة ، ومع ذلك فهو صاحب الفضل فى تألقها . والواقع أن النحت الفرنسى راح يخرج سيلا متدفقاً من الروائع التى لم يفقها إلا تلك التى كان ميكلانجلو وغيره ينحتونها من كارارا . مثال ذلك المقابر الفخمة ، كمقبرة لويس الثانى عشر ومقبرة آن البريتانية اللتين نحتهما جوفانى دى جيوستوبتى (فى سان دنيس) ، وكمقبرتى اثنين من كرادلة آمبواز نحتهما رولان لرو وجان جوجون (فى روان) ، وكمقبرة لوى دبريزيه ، زوج ديان ، فى الكاتدرائية ذاتها . التى نحتها مثال غير معروف على التحقيق . وتبدو مقبرتا روان أوفر زينة مما يليق بجلال الموت ، ولكن الكردينالين يكادان يبعثان من جديد على صورة حكام أقوياء لا يحاول المثالان خلع الكمال عليهما ، إنما الدين عندهما أمر عارض وسط مهام الحكم . وقد دفن فرانسوا الأول ، وزجته كلود ، وابنته شارلوت ، بسان دنيس فى مقبرة من طراز النهضة صممها ديلورم ، تزينها منحوتات فخمة نحتهـا بيير بونتم : وعلى مقبرة منها رائعة صغيرة من صنع بونتم — هى وعاء جنائزى لقلب الملك . وهكذا لم يعد المثالون الفرنسيون فى حاجة إلى الوصاية الإيطالية ليرثوا فن روما الكلاسيكى .

ولقد ورث جان جوجون الجمال الكلاسيكى على الأقل . ونحن نسمع به لأول مرة فى سنة ١٥٤٠ ، وقد ورد فى القائمة أنه « حجار وبناء » فى روان . وفى روان قطع الأعمدة التى يرتكز عليها الأرغن فى كنيسة سان ماكلو . ونحت تماثيل لمقبرتى الكردينالين ، وربما لمقبرة بريزيه . وقد زين حجاب الصليب فى كنيسة سان جرمان لوكسروا بمنحوتات محفوظ بعضها فى اللوفر . وهى تذكرنا بالنقوش الهلنستية البارزة فى الأناقة المتناغمة التى اتسمت بها خطوطها . وقد قاربت الكمال تلك الموهبة المميزة لفن جوجون ، وهى تجسيد الجمال الأنثوى . فى تمثال « الحوريات » ، الذى شارك به فى « نافورة الأبرياء » التى صممها ليسكو (١٥٤٧) ، وفى رأى برنينى أن هذه التماثيل أجمل آثار الفن فى باريس : وقد ذكرنا من قبل تمثال جوجون « ديانا والأيل » فى آنيه ، ومنحوتاته فى اللوفر . وتماثيله للآلهة الوثنيـــة . ولجسد المرأة الممثل فى صورة كاملة ، توحى بأن فرنسا قد انتصرت فيها النهضة على حركة الإصلاح البروتستنتى ، والأفكار الكلاسيكية على الأفكار القوطية . والمرأة على منتقصى قدرها فى العهد الوسيط . ومع ذلك وصف الرواة جوجون بأنه هيجونوتى . وعقاباً له على حضوره عظة لوثرية . حكم عليه حوالى عام ١٥٤٢ بأن يسير فى شوارع باريس بقميصه وبأن يشهد حرق واعظ بروتستنتى(١١). وحوالى عام ١٥٦٢ رحل عن فرنسا قاصداً إيطاليا . ومات فى بولونيا قبل عام ١٥٦٨ . مغموراً مهملا إهمالا لا يستحقه رجل ارتقى بفن النهضة إلى ذروته فى فرنسا .

٣ — بييتر بروجل : ١٥٢٠ — ٦٩

كان هذا العصر مقفراً فى فن الأراضى المنخفضة إذا استثنينا بروجل والنسيج المرسوم . وتذبذب فن التصوير بين تقليد الإيطاليين — فى

الأسلوب المهذب والألوان الغنية والأساطير الكلاسيكية والنساء العاريات والخلفيات المعمارية الرومانية — وبين الميل المتأصل إلى التصوير الواقعى لكبار الشخصيات وللأشياء العادية . ولم يحظ الفنانون بالرعاية من البلاط والكنيسة والنبلاء فحسب ، بل نالوها باطراد من أغنياء التجار الذين عرضوا أجسادهم البدينة وألغادهم المتهدلة ليعجب بها الخلف . وأحبوا أن يروا فى الصور المناظر المألوفة والمشاهد الطبيعية لحياتهم الفعلية . وحلت روح الفكاهة ، وحب « الجروتسك » أحياناً ، محل الإحساس بالتسامى فى فن كبار الفنانين الإيطاليين . وقد انتقد ميكلانجلو ما رآه افتقاراً إلى التمييز والسمو فى الفن الفلمنكى فقال : « إنهم لا يرسمون فى فلاندر إلا ليخدعوا العين الظاهرة ، أشياء تبهجك . . . حشائش الحقول ، وظلال الأشجار ، والكبارى والأنهار . . . وأشياء صغيرة هنا وهناك . . . دون عناية بالاختيار أو الرفض »[١٢] . ولا غرو فالفن عند ميكلانجلو هو الاختيار ذو الدلالة لإبراز السمو ، لا التمثيل غير المميز للواقع ، وكانت طبيعته الوقور ، المحبوسة فى حذائه الذى لا ينزع وعزلته الكارهة للناس ، محصنة ضد التأثر بجلال الحقول الخضراء وحرارة الحب العائلى .

أما نحن فإننا ننحنى انحناءة العرفان ليواكيم باتينير ، ولو لما صورته لوحته « القديس جيروم » من منظر طبيعى يذكرنا بأسلوب ليوناردو دافنشى ، وبلجوس فان كليف على لوحته الجميلة التى رسم فيها اليانور البرتغالية ، ولبرنيرت فان أورلى للوحة « العائلة المقدسة » فى البرادو ، ولتصميماته للنسيج المرسوم ، ولزجاجه المعشق فى كنيسة سانت جودول ببروكسل ؛ وللوكاس فان ليدن لما حفلت به سنوه التسعة والثلاثون من حشد النقوش والكلشيهات الخشبية ، ولجان فان سكوريل على صورة المجدلية وهى تعتز بقارورة الطيب التى غسلت منها أرجل المسيح ،

ولأنطونيس مور على صوره القوية لدوق ألفا ، وللكردينال جرانفيل ، ولفيليب الثانى ، ولمارى تيودور ، ولصورة ليست أقل شأناً من كل أولئك . وهى صورته هو .

وليلاحظ القارىء كيف تركز فن التصوير بالأراضى المنخفضة فى الأسر . من ذلك أن جوس فان كليف ورث بعض مهارته لابنه كورنيليس ، الذى رسم صوراً ممتازة قبل أن يصاب بالجنون . كذلك نرى جان ماسيس الذى ورث مرسم أبيه كوينتين يؤثر رسم العاريات أمثال « يهوديت » . و« سوسنة والشيوخ » ، وواصل ابنه كوينتين ماسيس الثانى هذه الحرفة ، فى حين حمل أخوه كورنيليس فنه إلى انجلترة ورسم لوحة لهنرى الثامن فى شيخوخته وقد بدا منتفخ البدن بشع المنظر . ورسم بيتر بوربوس وابنه فرانس لوحات للأشخاص وصوراً دينية فى بروج ، ورسم فرانس بوربوس الثانى ، وهو ابن فرانس ، لوحات فى باريس ومانتوا . وكان هناك إلى هؤلاء بيتر بروجل « المضحك » وزوجته المصورة ، وحماته المصورة ، وأبناه بيتر بروجل « الجحيم » وجان بروجل « المخمل » ، وحفدته المصورون ، وأبناء حفدته المصورون . . .

أما بيتر بروجل الأب ، الذى أصبحت شهرته من موضات عصرنا التى لا مهرب منها ، فلعله اشتق اسمه من إحدى قريتين فى برابانت اسمهما بروجل . وكانت إحداهما قريبة من هرتوجنبوش مسقط رأس هيرونيموس بوش . وربما رأى بيتر فى كنائس هذه القرية عدة رسوم بريشة الرجل الذى أثر فى فنه تأثيراً لم يفقه غير تأثير الطبيعة ذاتها ؛ وحين ناهز الخامسة والعشرين (حوالى عام ١٥٤٥) هاجر إلى أنتورب وتتلمذ لبيتر كوك ، وربما أعانت محفورات كوك الخشبية للمناظر الطبيعية على تكوين ميل المصور الشاب إلى الحقول والغابات والمياه

والجو والسماء . وكان بييتر كوك هذا قد أنجب فتاة تدعى ماريا . كان بييتر يهدهدها بين ذراعيه وهي طفلة . وقد أصبحت فيما بعد زوجاً له. وفى عام ١٥٥٢ اتبع التقليد الذى جرى عليه المصورون ، ورحل إلى إيطاليا ليدرس التصوير ، ثم عاد إلى أنتورب بكراسة تضخمت برسوم المناظر الإيطالية ، ولكن لم يبد على أسلوبه الفنى تأثير إيطالى واضح . وقد ظل إلى النهاية يهمل من الناحية العملية تلك الدقة فى التشكيل . وفى توزيع الضوء والظل (الكياروسكيورو) ، وفى التزويق (الكولورا تورا) التى أخذ بها الفنانون الجنوبيون . ولما عاد إلى أنتورب عاش مع امرأة كانت خليلة ومدبرة لبيته . وقد وعدها بأن يتزوجها إذا أمسكت عن الكذب . وكان يسجل أكاذيبها بثلمات يحدثها فى عصا . وإذ لم يكن محتفظاً بعصا لذنوبه هو ، فقد هجرها حين فاضت العصا بالثلمات . وفى أواسط أربعيناته (١٥٦٠) تزوج ماريا كوك وقد بلغت السابعة عشرة ، واستمع إلى دعوتها إياه للرحيل إلى بروكسل ، ولم يكن باقياً له من العمر سوى ست سنوات .

ومع أن رسومه حملت الناس على تلقيبه بـ « بروجل الفلاح » فإنه كان إنساناً مثقفاً قرأ هومر وفرجل وهوراس وأوفيد ورابليه ، وفى الغالب إرزمس .[١٣] وقد وصفه كاريل ماندر (فازارى هولنده) بأنه « هادئ ، منظم ، قليل الكلام ، ولكنه ممتع الحديث إذا كان فى صحبة . يبتهج بافزاع سامعيه . . . . بقصص الأشباح والأرواح المنذرة[١٤] . وربما كان هذا علة لقبه الثانى « بروجل المضحك » . وكانت فكاهته تميل إلى الهجاء ولكنه خففه بالعطف . وفى حفر معاصر يبدو فى لحية كثة ووجه يحمل سمات التفكير الجاد[١٥] . وكان أحياناً يقتدى ببوش فى نظرته إلى الحياة على أنها اندفاع معظم النفوس إلى الجحيم دون مبالاة . وفى لوحته المسماة « دوللى جريت » صور الجحيم تصويرا بشعاً مشوشاً كما فعل

بوش نفسه ، وفى لوحته « انتصار الموت » لم يتخيل الموت نوماً طبيعياً لأجساد مكدودة ، بل تقطيعاً بشعاً للأطراف والحياة — هياكل عظمية تهاجم الملوك والكرادلة والفرسان والفلاحين بالسهام والبلط والأحجار والمناجل — ومجرمين تدق أعناقهم أو يشنقون أو يوثقون إلى عجلة التعذيب — وجماجم وجثثاً تركب عربة ؛ هنا مثل مغاير آخر لـ « رقصة الموت » التى تسرى وسط فن هذا العهد القاتم .

وتواصل صور بروجل الدينية هذا المزاج الجاد . فهى خلو من فخامة الصور الإيطالية ومن جمالها الرشيق على السواء . وليست سوى ترجمة جديدة لقصة الكتاب المقدس بلغة المناخ والملامح والثياب الفلمنكية . وندر أن تكشف عن عاطفة دينية . وأكثرها معاذير لتصوير الجماهير . وحتى الوجوه فى هذه الصور خلو من العواطف . فترى الناس المتدافعين بالمناكب ليشاهدوا المسيح وهو يحمل صليبه وكأنهم لا يبالون بآلامه ، إنما هم تواقون لاتخاذ موقف يشهدون منه المنظر بوضوح . وبعض هذه الصور أمثال من الإنجيل كصورة « الزارع » ، وبعضها يقلد بوش فيتخذ الأقوال المأثورة موضوعاً له . فصورة « عميان يقودون عمياناً » ترينا صفاً من الفلاحين لهم عيون ذابلة . وفيهم قبح شنيع ، يتلو بعضهم بعضاً فى طريقهم إلى مصرف للمياه . ولوحة « الأمثال الهولندية » ، توضح فى صورة مكتظة واحدة ، قرابة مائة من الأقوال المأثورة القديمة ، بعضها تشم فيه عبير الحكم الرابلية .

كان هم بروجل الأكبر تصوير جماهير الفلاحين ، والمناظر التى تنتظم خيرها وشرها على السواء أنشطة البشر العقيمة المغتفرة . ولعله ظن أن فى تصوير الجماهير سلامة . فلا حاجة به عند تصويرها لأن يميز الوجوه أو يشكل الأجساد . وقد أبى أن يصور شخصاً يجلس أو يقف أمامه خدمة للفن أو للتاريخ . وآثر أن يظهر الرجال والنساء والأطفال يمشون

ويجرون ويقفزون ويرقصون ويلعبون بكل ما فى الحياة من ألوان الحركة والفطرة . وقد رجع إلى مشاهد طفولته . وأمتعه أن يتأمل ويشارك فى مباهج الفلاحين وولائمهم وموسيقاهم وأعراسهم . وكان فى عدة مناسبات يصطحب صديقاً ويتنكران فى زى مزارعين ليحضرا أسواق القرية وأفراحها ، ثم يقدمان الهدايا للعروسين متظاهرين بأنهما من أقربائهما[١٧]. ولا شك أن بيتر كان فى هذه النزهات يحمل كراسته لأن بين رسومه الباقية كثيراً مما تظهر فيه وجوه الفلاحين وأحداث الريف . ولم يكن ذوقه يسيغ النبلاء الذين وجد مور وتيشان فى تصويرهم مجلبة للربح الوفير ، ولا كلف بتصويرهم . ولم يرسم سوى بسطاء الناس . بل إن الكلاب التى رسمها كانت كلاباً حقيرة مهجنة كتلك التى تلقاها فى أى زقاق بالمدينة أو كوخ بالقرية . لقد خبر الجانب المر فى حياة الفلاح ، وصور هذا الجانب أحياناً خليطاً محتشداً من الحمق . ولكنه أحب رسم ألعاب الأطفال القرويين ، ورقصات كبارهم ، وصخب أفراحهم . وفى لوحته « أرض كوكين » ترى الفلاحين الذين أرهقهم الكد أو الحب أو الشراب منبطحين على العشب فى الخلاء وهم يحلمون بعالم سعيد . وكأن بروجل يقول لنا إن الفلاح دون سواه هو الذى يعرف كيف يلعب وكيف ينام ، كما يعرف كيف يشتغل وكيف يتزوج وكيف يموت .

ولم ير أمام الموت غير عزاء واحد ، هو أنه جزء لا يتجزأ من الطبيعة ، تلك الطبيعة التى تقبلها فى جميع صورها من جمال وقبح ، ومن نمو وانحلال وتجدد . والمنظر الطبيعى عنده يفتدى الإنسان ، ويخف الجزء يغتفر فى جلال الكل . لقد كان دأب المصورين من قبله — باستثناء ألتدورفر — أن يرسموا المناظر الطبيعية خلفيات وملحقات للناس والأحداث . أما بروجل فقد جعل المنظر الطبيعى ذاته هو اللوحة ، وليس الإنسان فيها سوى عرض من الأعراض . ففى لوحته « سقوط إيكاروس » ترى السماء والمحيط والجبال والشمس وقد استغرقت انتباه

المصور والمشاركين فى اللوحة ، أما إيكاروس فليس سوى ساقين غير ملحوظتين تغوصان فى البحر بشكل مضحك . وفى لوحته « العاصفة » لا تكاد ترى الإنسان ، فهو ضائع عاجز بين حرب العناصر وبطشها .

ويبلغ فن بروجل وفلسفته قمتهما فى اللوحات الخمس الباقية من مجموعة خططها لبيان تقلبات العام . ففى لوحة « حصاد القمح » يصور تخطيطياً قطع حزم القمح وتكديسها ، وترى فيها العمال يتناولون غذاءهم أو يرقدون فى إغفاءة فى قيظ الصيف وسكون هوائه الواضحين . وفى لوحة « حصاد الدريس » يحمل الصبيان والبنات فاكهة الحقول الخريفية فى سلال على رءوسهم ، ويشحذ فلاح منجله ، وتقلب الدريس نسوة أشداء ، ويرفعه الرجال إلى أعلى حمل العربة ، وتمضغ الخيل طعامها فى فترة راحة . ولوحة « عودة القطيع » نذير بقدوم الشتاء — فالسماء تكفهر والماشية تساق عائدة إلى مرابطها . وأجمل لوحات المجموعة هى « الصيادون فى الثلوج » . وفيها ترى الأسطح والأرض بيضاء ناصعة ، والمساكن تنتظم فى منظور مدهش على طول السهول والتلال ، والرجال يتزلقون ويلعبون الهوكى ويسقطون على الجليد ، والصيادين وكلابهم ينطلقون لاقتناص الطعام ، والأشجار عارية ولكن زقزقة العصافير فى الأغصان تبشر بمقدم الربيع . أما لوحة « اليوم الكئيب » فهى الشتاء مكفهراً اكفهرارة الوداع . فى هذه اللوحات بلغ بروجل قصاراه ، ووضع سابقة لرسم مناظر الثلوج ليحتذيها فن الأراضى المنخفضة المقبل .

ولا يستطيع الحكم على هذه الصور فى مرتبتها وأسلوبها الفنيين سوى رسام أو خبير . ويبدو بروجل قانعاً بأن يعطى أشكاله بعدين ، ولا يكترث لخلط الظل بمادتها ، وهو يترك لخيالنا أن يضيف لبعديه

بعداً ثالثاً إن لم يكن من هذا بد . واهتمامه بالحشود أكبر من أن يتيح له الاهتمام بالأفراد ، وهو يجعل كل فلاحيه تقريباً متماثلين ، كتلا غليظة من اللحم . وهو لا يزعم أنه واقعى إلا فى المجموع ، وهو يضع الكثير من الناس أو الأحداث فى لوحة واحدة بحيث يبدو أنه يضحى بالوحدة . ولكنه يقتنص الوحدة اللاشعورية — وحدة قرية ، أو حشد ، أو موجه من موجات الحياة .

فما الذى يريد أن يقوله ؟ أهو ساخر فقط . ضاحك من الإنسان لأنه « فجلة مشعبة » غريبة الشكل . ومن الحياة لأنها اختيال غبى نحو الفناء ؟ لقد كان يستمتع بما فى رقص الفلاحين من هز عنيف . ويتعاطف مع كدهم ، وينظر فى مرح متسامح إلى نومهم المخمور . ولكنه لم يفق قط من تأثير بوش . فقد كان يجد لذة ساخرة كتلك التى وجدها ذلك الـ «جيروم » المجرد من التقوى فى تصوير الجانب المر من الكوميديا البشرية — المقعدين والمجرمين . المهزومين أو الداعرين . انتصار الموت الذى لا رحمة فيه . ويبدو أنه كان يبحث عن الفلاحين الدميمى الخلقة . يرسمهم رسوماً ساخرة . ولا يسمح لهم أبداً بالابتسام أو الضحك . فإذا أضفى على جلافة وجوهم أى تعبير فهو تعبير اللامبالاه الغبية ، والحساسية التى محتها لطمات الحياة[١٧]. وكان يثيره ويؤلمه ذلك الجمود الذى يحتمل به المحظوظون شقاء الأشقياء . وتلك السرعة والراحه التى ينسى بها الأحياء الأموات . وكان يحزنه منظور الطبيعة الشاسع تلك السماء الهائلة التى تبدو تحتها كل الأحداث البشرية غارقة فى الضآلة . وتلوح الفضيلة والرذيلة . والنمو والانحلال . والشرف والخسة . مضيعة فى عبث مترام لا يفرق ولا يميز ، والإنسان وقد ابتلعه منظر العالم .

ولا ندرى أهذه فلسفة بروجل الحقيقية أم أنها دعابة فنه لا أكثر .

كذلك لا ندرى لم كف عن المعركة بهذه السرعة وقضى وهو بعد فى التاسعة والأربعين (١٥٦٩) . ولعله لو مد فى أجله لخففت السنون من غضبه . وقد أوصى لزوجته بلوحة غامضة هى « الطريق المرح إلى المشنقة » ، وهى تشكيل رائع فى ألوان خضراء نضرة وزرقاء نائية ، والفلاحون يرقصون قرب مشنقة القرية ومن فوقها حط طائر العقعق ، ويرمز به للسان الثرثار .

٤ — كراناخ والألمان

توارى المعمار الكنسى الألمانى خلال حركة الإصلاح البروتستنتى : فلم تشيد للفن ولا للدين كنائس جديدة ، وترك كثير من الكنائس دون أن يكمل ، وهدم الكثير منها وبنيت بأحجاره قلاع الأمراء : أما الكنائس البروتستنتية فقد انصرفت إلى البساطة الصارمة ، وأما الكنائس الكاثوليكية فقد أسرفت فى زينتها كأنها تتحدى البروتستنتية ، وذلك أثناء انتقال النهضة إلى طراز الباروك .

وحلت العمارة المدنية وعمارة القصور محل بناء الكاتدرائيات فى الوقت الذى حل فيه الأدواق محل الأساقفة واحتوت الدولة الكنيسة . وبعض المبانى المدنية الجميلة فى هذه الفترة كان من ضحايا الحرب العالمية الثانية : مثل الألتاوس فى برنزويك ، ومقر طائفة الجزارين فى هيلدسهايم ، والراتهاوس أو قاعة مدينة نيميجين المبنية بطراز النهضة . واتخذ أكثر معمار هذا العهد والعهد الذى تلاه طموحاً شكل القلاع الضخمة المشيدة لأمراء الأقاليم : كقلعة درسدن التى كلفت الشعب ١٠٠,٠٠٠ فلورين (٢,٥٠٠,٠٠٠ دولار ؟) ، وقصر دون كرستوفر فى شتوتجارت الذى أسرف الدوق فى تأثيثه وفرشه حتى أن قضاة المدينة حذروه من أن [بذخ بلاطه يتناقض تناقضاً مخزياً مع فقر شعبه : وقلعة هيدلبرج المترامية

التى بدئ تشييدها فى القرن الثالث عشر وأعيد بناؤها بطراز النهضة فى ١٥٥٦ — ٦٣ ودمر جزء منها فى الحرب العالمية الثانية .

أما الحرف الفنية فقد احتفظت بتفوقها فى خدمة الأمراء والنبلاء والتجار ورجال المال . فنجارو الأثاث . ونقاشو الخشب والعاج ، والحفارون ، وصناع المنمنمات ، والنساجون ، وخراطو الحديد ، والخزافون ، والصائغون ، وصناع السلاح ، والجواهرية — كل أولئك احتفظوا بالمهارات القديمة التى كانت لأهل العصور الوسطى وإن نحوا إلى تضحية الذوق والشكل فى سبيل الزخرف المعقد . ورسم كثير من المصورين تصميمات للكلشيهات الخشبية بعناية فائقة كأنهم يرسمون صور الملوك . وعكف رسامو الكلشيهات من أمثال هانز لوتزبورجر البازلى على أعمالهم بتفان يليق بمصور كدورر . وبلغ صائغو نورمبرج وميونخ وفينا القمة بين أهل الحرفة ، وكان فى وسع صائغ كفنتزل يامنتزر أن يتحدى رجلا كتشلينى . وحوالى عام ١٥٤٧ بدأ الفنانون الألمان يرسمون الزجاج بألوان المينا ، وهكذا اتخذت الأوانى والنوافذ أشكالا وتصميمات غنية رغم فجاجتها ، واستطاع البورجوازى السرى أن يرى صورته وقد مزجت بألواح الزجاج فى بيته .

واحتفظ المثالون الألمان بحبهم للتماثيل والنقوش البارزة المعدنية . فواصل أبناء بيتر فشر فنه . أما بيتر الابن فصب لوحة برونزية لـ « أورفيوس ويوريديس » . وأما هانز فصمم تمثالا جميلا يسمى « نبع أبوللو » لفناء قاعة مدينة نورمبرج ، وأما بول فينسب له عادة تمثال لطيف من الخشب يعرف بعذراء نورمبرج : وصب بيتر فلوتنر النورمبرجى نقوشاً بارزة رائعة مثلت الحسد ، والعدالة ، وساتورن ، وربة الرقص . ومن أمتع محتويات اللوفر تمثال نصفى صنعه يواكيم ديشلر لأوتو هينريش ،

كونت بالاتين ، يبلغ ارتفاعه ست بوصات ونصفاً ، وعرضه مثل هذا لبدانته ، وله وجه هو وليد أعوام من النهم . هنا ترى الفكاهة الألمانية أكثر ما تكون انطلاقاً .

أما فخر الفن الألمانى فقد ظل فى التصوير . فقد أدرك هولبين دورر ، ثم لحق بهما كراناخ ، وألف بالدونج جرين ، وألتدورفر ، وأمبرجر ، صفاً ثانياً مشرفاً . فأما هانز بالدونج جرين فقد اكتسب شهرته برسم لوحة لمذبح كاتدرائية فرايبورج إيم — برايسجاو ، ولكن لوحة « العذراء ذات الببغاء » أكثر جاذبية ، وتبدو فيها فتاة تيوتونية ممتلئة الوجه ذات شعر ذهبى ، وببغاء تنقر خدبها . وأما كرستوفر أمبرجر فرسم صوراً أنيقة ، ويحتفظ متحف ليل بلوحة « شارل الخامس » التى يبدو فيها مخلصاً ، ذكياً ، «فى أول عهده بالتعصب . وفى « صورة رجل » المحفوظة بمعهد الفن بشيكاغو وجه مهذب دقيق القسمات . وأما ألبرشت ألتدورفر فيتميز بين هذه المجموعة الصغيرة بغنى مناظره الطبيعية . ففى لوحته « القديس جورج » يكاد الفارس والتنين يختفيان وسط محيط من الشجر المتزاحم . وحتى لوحته « معركة أرابيلا » يتوه فيها الجيشان المقتتلان وسط الكثير من الأبراج والجبال والمياه والسحاب والضياء . وتعد هاتان اللوحتان ، مضافاً إليهما لوحته « وقفة خلال الهروب إلى مصر » ، من طلائع التصوير الصادق للمناظر الطبيعية فى عصرنا الحديث .

اتخذ لوكاس كراناخ الأب اسمه من مسقط رأسه كروناخ فى فرانكونيا العليا . ولا نكاد نعرف عنه أكثر من هذا إلى أن عين فى الثانية والثلاثين من عمره مصوراً للبلاط لدى الناخب فردريك الحكيم فى فتنبرج (١٥٠٤) . وقد احتفظ بوظيفته فى البلاط السكسونى ، سواء فى فتنبرج أو فى فايمار ، زهاء خمسين عاماً . وقابل لوثر ، وأعجب به ،

وصوره المرة بعد المرة ، ورسم لبعض كتابات المصلح صوراً كاريكاتورية للبابوات ، على أنه رسم أيضاً صوراً لبعض أقطاب الكاثوليك أمثال دوق ألفا وألبرشت رئيس أساقفةماينز . وقد أوتى عقلية تجارية عملية . فحول مرسمه إلى مصنع لتصوير الأشخاص ورسم الصور الدينية . وإلى جوار المرسم باع الكتب والعقاقير ، وأصبح عمدة لفتنبرج فى عام ١٥٦٥ ، ثم مات شبعان مالا وأياماً .

كان التأثير الإيطالى خلال ذلك قد وصل إلى فتنبرج . وهو واضح فى جمال الصور الدينية التى رسمها كراناخ ، وأوضح فى صوره الأسطورية ، وأكثر وضوحاً من هذه وتلك فى صوره العارية . وقد أصبح مجمع الآلهة الوثنية ينافس الآن مريم والمسيح والقديسين كما نافسهم فى إيطاليا . بيد أن روح الفكاهة الألمانية يضفى الحيوية على التقليدى المتوارث ، وذلك بالسخرية من آلهة ماتوا ولم يعد هناك ما يخشى منهم . من ذلك أن لوحة كراناخ «حكم باريز» رسمت العاشق الطروادى (الذى أغوى هيلانه) يمضى إلى فراشه للنوم بينما الحسان المتفضات من البرد ينتظرن حتى يستيقظ ويقضى بينهن . وفى لوحته «فينوس وكيوبيد» تبدو إلاهة الحب فى جسدها العارى كالعادة ، إلا من قبعة ضخمة — وكأن كراناخ يلمع فى خبث إلى أن الرغبة وليدة العادة ، بحيث يمكن تهدئتها بإضافة غير مألوفة . ومع ذلك فقد أقبل الناس على لوحة فينوس ، وأخرج كراناخ منها — بمساعدة غيره — أكثر من عشرة أشكال لتضيء فى فرانكفورت ، ولننجراد ، والقاعة البورجية ، والمتحف المتروبوليتانى للفن . . . وفى فرانكفورت تخفى فينوس مفاتنها ليستشفها الناظر من خلف خيوط رقيقة كنسيج العنكبوت ، وهذه أيضاً تستخدم فى لوحة « لوكريشيا » ببرلين ، إذ تتأهب فى ابتهاج لافتداء شرفها بطعنة من خنجر صغير . وفى لوحة « حورية الربيع » (نيويورك) رسم كراناخ

هذه السيدة ذاتها راقدة على فراش من الأوراق الخضراء إلى جوار بركة . وفى متحف جنيف تصبح « يهوديت » ، التى لم تعد عارية ، بل مرتدية ثيابها لتقتل ، رافعة سيفها فوق رأس هولوفيرن المقطوع ، الذى يغمز بعينه فى سخرية من سوء طالعه . وأخيراً تعود السيدة إلى عريها فتصبح حواء فى لوحة « الفردوس » بفينا ، ولوحة « آدم وحواء » بدرسدن ، ولوحة « حواء والحية » بشيكاغو التى ترى فيها أيلا جميلا ينضم إلى جماعتها ويسمها باسمها . وكل هؤلاء العرايا تقريباً يتميزن بخلة تنقذهن من تهمة الإثارة الجنسية — هى فكاهة خبيثة ، أو دفء فى اللون ، أو رهافة إيطالية فى الخط ، أو نحافة فى قوام الأنثى تخرج على المألوف الوطنى ، فهاهنا محاولة جريئة لاختزال بدانة المرأة الألمانية (الفراو) .

وصور الأشخاص التى تدفقت من أيدى كراناخ ومساعديه أكثر طرافة من نسائه العاريات المكررات ، وبعضها يضارع صور هولبين. فلوحة « أنا كسبنيان » هى الواقعية تخففها الرقة والأثواب الفاخرة وقبعة فى شكل البالون . وقد جلس زوجها يوحنا كسبنيان إلى صورة أبدع حتى من صورة زوجته — فكل مثالية الأديب الإنسانى الشاب انعكست فى عينيه المفكرتين ورمز لها بكتاب يمسك به فى شغف . وقد خلد عشرات من كبار القوم فى الألوان الزيتية أو الطباشيرية فى هذا المرسم الشعبى ، ولكن أحداً منهم لا يستحق الخلود كما يستحقه الطفل « أمير سكسونيا » (واشنطن) الذى يفيض براءة ورقة وعقائص ذهبية . وفى الطرف الآخر من الحياة صورة الدكتور يوحنا شونر وقد بدا رهيب الملامح ولكن فى صورته صنعة رفيعة . ثم نلتقى هنا وهناك فى صور كراناخ بحيوانات رائعة الشكل ، كلها عريق النسب ، وظباء تبدو طبيعية جداً حتى أن صديقاً للمصور زعم أن « الكلاب تنبح حين تراها »(١٨)

ولولا أن كراناخ وفق هذا التوفيق السريع الكبير لجاز أن يكون فناناً أعظم . فبكثرة رعاته وزعت عبقريته فلم يكن في وقته متسع لينصرف بكل هذه العبقرية إلى عمل واحد فقط . لذلك لم يكن بد حين جاوز الحادية والثمانين أن يعتريه الكلل والتراخي ، وأصبح رسمه الذي كان في الماضي دقيقاً كرسم دورر مشوباً بالإهمال ، وراح يتجنب رسم التفاصيل ويكرر نفس الوجوه والعرايا والأشجار تكراراً أفقدها الحياة . ولا مفر لنا في النهاية من أن نتفق مع الكهل دورر في هذا الحكم الذي أصدره على كراناخ الشاب — « إن لوكاس يستطيع رسم الملامح لا الروح »(١٩) .

وحين بلغ الثامنة والسبعين في ١٥٥٠ رسم لنفسه صورة بدا فيها عضو مجلس المدينة والتاجر البدين أكثر منه المصور والحفار . في رأس مربع قوي ، ولحية بيضاء مهيبة ، وأنف عريض وعينين ممتلئتين كبرياء وقوة شخصية . وبعد ثلاثة أعوام أسلم جسده للزمن ، مخلفاً ثلاثة أبناء كلهم فنانون ، يوحنا لوكاس ، وهانز ، ولوكاس الابن الذي نقلت لوحته « هرقول النائم » موضوعاً من رابليه إلى سويفت . إذ أظهرت المارد وهو يتجاهل في هدوء تلك السهام التي أصابته بالجهد في طبقة المضغة الظاهرة من الأقزام المحيطين به . ولعل لوكاس الأب كان يتجاهل بمثل هذا الهدوء نقد الناقدين الذين نددوا به لمثله البورجوازية وعجلته التي لا يراعي فيها الذمة ، وهو اليوم راقد تحت نصب قبره الذي كتبت عليه عبارة مديح تحتمل معنيين : « أسرع المصورين » ؛

وبموته انقضى العصر الذهبي للتصوير الألماني . ولعل السبب الأساسي في هذا الانحطاط هو حدة النزاع الديني أكثر من رفض البروتستنت للتصوير الديني . ومن الجائز أن موجة من الفساد الخلقي كانت سبباً في تبذل التصوير الألماني بعد ١٥٢٠ . فبدأت أجساد العرايا تلعب دوراً

قيادياً ، وانصرفت الصور — حتى المأخوذ منها من الكتاب المقدس — إلى موضوعات مثل سوسنة والشيوخ ، أو زوجة فوطيفار تراود يوسف ، أو بتشبع فى حمامها . وتراجع التصوير الألمانى بعد موت كراناخ فترة قرنين من الزمان وارتد وراء قوى اللاهوت والحرب ؟

٥ — الطراز التيودورى ١٥١٧ — ٥٨

بدأ حكم هنرى الثامن برائعة من روائع الفن القوطى فى كنيسة هنرى السابع ، وانتهى بعمار النهضة المتمثل فى القصور الملكية ، وكان تغير الطراز انعكاساً صحيحاً لانتصار الدولة على الكنيسة . وتعطلت العمارة الكنسية زهاء مائة عام نتيجة لهجوم الحكومة على الأساقفةوالأديار والموارد الكنسية .

كان هنرى السابع وهو يتوقع موته قد خصص ١٤٠٠٠٠ جنيه (١٤,٠٠٠,٠٠٠ دولار ؟) لبناء كنيسة صغيرة للسيدة العذراء فى دير وستمنستر لتحوى قبره . وهى رائعة فنية ، لا فى بنائها بل فى زخرفها ، ابتداء من المقبرة ذاتها إلى الحصاة الحجرية المتشابكة فى القبو المروحى ، التى وصفته بأنها « أعجب ماصنعته يد الإنسان فى فنون البناء » : ولما كان تصميم الكنيسة قوطياً وزخرفها ينتمى إلى طراز النهضة ، فإن فيها تتجلى بداية الطراز التيودورى أو المنمق . ولم يلبث هنرى الثامن ، الإنسانى الشاب ، أن افتتن بالأشكال المعمارية الكلاسيكية ، فاستقدم هو وولزى عدة فنانين إيطاليين إلى إنجلترا . وكلف أحدهم وهو بييترو توريجيانو بتصميم مقبرة والديه . ومن ثم أفاض المثال الفلورنسى على التابوت المصنوع من الرخام الأبيض والحجر الأسود زخارف مسرفة سواء بالحفر أو البرونز المذهب : أشخاص ممتلئو الأبدان ، وأكاليل زهر غاية فى الرشاقة ، ونقوش بارزة للعذراء وشتى القديسين ، وملائكة جالسين على قمة المقبرة مادين أرجلهم الجميلة فى الفضاء ،

وفوق هذا كله تمثالان مضطجعان لهنرى السابع وزوجته إليزابث . وكان هذا نحتاً لا عهد لانجلترا به قط ، ولم يبزه فى إنجلترا نحت من بعد . « هنا — كما قال فرانسس بيكون — ينزل الملك الشحيح الذى يحرص على البنسات لينفق الجنيهات فى موته منزلا أبهى مما كان ينزل حياً فى أى من قصوره »[٢٠] .

لم يكن هنرى الثامن بالرجل الذى يسمح لأى إنسان بأن يدفن فى أبهة تفوق أبهة دفنه . ففى عام ١٥١٨ تعاقد على أن يدفع لتوريجيانو ٢,٠٠٠ جنيه نظير تصميمه مقبرة « أعظم بالربع » من مقبرة أبيه[٢١] ؛ ولكن لم يكتب لهذه المقبرة أن تتم ، ذلك أن الفنان أوتى كما أوتى الملك طبعاً ملكياً حاداً ، وغادر توريجيانو إنجلترا فى سورة غضب (١٥١٩) . ولما عاد إليها لم يضف مزيداً إلى المقبرة الثانية . وبدلا من ذلك صمم لكنيسة هنرى السابع مذبحاً عالياً ، وحاجزاً خلفه ، ومظلة فوقه ، دمرها رجال كرومويل فى عام ١٦٤٣ . وفى عام ١٥٢١ رحل توريجيانو إلى أسبانيا .

واستؤنفت مهزلة الموت هذه حين كلف ولزى فلورنسيا آخر يدعى بنديتو دا روفتسانو بأن يبنى له مقبرة فى كنيسة القديس جورج بوندزور . كتب هربرت لورد تشوربرى يقول : « إن تصميمها أفخم جداً من تصميم مقبرة هنرى السابع »[٢٢] . ولما سقط الكردينال توسل إلى الملك أن يسمح له على الأقل بالاحتفاظ بتمثاله ليوضع على مقبرة أكثر تواضعاً فى يورك . فأبى هنرى ، وصادر المقبرة كلها لتكون مثوى له ، وأمر الفنانين أن يحلوا تمثاله محل تمثال ولزى ، ولكنه شغل بمشكلات الدين والزواج ، ولم يتم قط بناء هذا الأثر الجنائزى . ثم أراد تشارلز الأول أن يدفن فيه . ولكن برلمانه الذى ناصبه العداء باع الزخارف قطعة قطعة . فلم يبق منها سوى تابوت

الرخام الأسود ليؤلف آخر المطاف جزءاً من ضريح نلسن فى كنيسة القديس بولس (١٨١٠) .

ونحن إذا استثنينا هذه الجهود الفنية ، وما زينت به كنيسة الكلية الملكية بكمبردج من حجاب خشبى ومقاعد وزجاج معشق وقبو . وكلها رائع فاخر ، وجدنا أن المعمار البارز فى هذا العصر كرس لإضفاء العظمة على بيوت النبلاء الريفية حتى تصبح قصوراً أشبه بقصور الخان قائمة وسط حقول إنجلترا وغاباتها ؛ وكان المعماريون هنا إنجليزاً ، ولكن اثنى عشر إيطالياً جندوا لأشغال الزخرفة . هنا ترى واجهة عريضة عرضاً مهيباً امتزج فيها الفن القوطى بفن النهضة ، وبوابة ذات أبراج تفضى إلى فناء ، وقاعة فسيحة للاحتفالات المكتظة بالناس ، وبيت سلم ضخماً يصنع عادة من الخشب المنقوش ، وحجرات تزينها الصور الجدارية أو قطع النسيج المرسومة وتضيئها نوافذ شبكية أو ناتئة ، وحول المبانى حديقة ومسرح للغزلان ومن خلفها أرض للصيد — تلك هى فكرة الشريف الإنجليزى المسبقة عن الشكاكة . عن النعيم .

وأشهر قصور النبلاء التيودورية هذه هو هامبتن كورت ، الذى بناه ولزى لنفسه (١٥١٥) وأوصى به لمليكه وهو فى رهبة منه (١٥٢٥). ولا يختص بفضل بنائه معمارى واحد ، بل لفيف من كبار البنائين الإنجليز الذين شيدوه أساساً على الطراز القوطى العمودى ووفق تصميم وسيط فيه الخندق والأبراج والأسوار ذوات الفوهات ؛ وأضاف جوفانى دا مايانو لمسة من لمسات فن النهضة تمثلت فى حلى مستديرة من التراكوتا على الواجهة . وقد وصف دوق فورتمبرج الذى زار إنجلترا فى ١٥٩٢ هامبتن كورت هذا بأنه أفخم قصور الدنيا قاطبة [٢٤]. وهناك قصور أخرى لا تقل عنه كثيراً فى الفخامة ، مثل صاتون بليس فى صرى ، الذى بنى للسر رتشارد وستون (١٥٢١ — ٢٧) ؛ وقصر

نونستشن الذى بدىء بتشييده هنرى الثامن فى ١٥٣٨ على نطاق إمبراطورى . تقول رواية قديمة إنه « جلب له أمهر الصناع والمعماريين والنحاتين والمثالين من شتى الأمم ، إيطاليين وفرنسيين وهولنديين وإنجليزاً من وطنه ، فأتوا كلهم بمثال معجز من فنهم فى زخرفة القصر ، وزينوه من الداخل والخارج بتماثيل تذكرنا بآثار الرومان القديمة من حيث المحاكاة الدقيقة لها ، ولكنها فيما عدا ذلك تفوقها إتقاناً ».(٢٥) واستخدم مائتان وثلاثون رجلا بصفة مستمرة فى بناء هذا القصر الذى قصد به أن يفوق بهاؤه بهاء قصرى فرانسوا الأول فى شامبور وفونتنبلو . ونادراً ما بلغ الملوك الإنجليز هذا الثراء ، أو الشعب الإنجليزى هذا الفقر . ومات هنرى قبل الفراغ من قصر نونستش . وقد جعلته اليزابث مقرها المحبب . ووهبه تشارلز الثانى لخليلته الليدى كاسلمين (١٦٧٠) فأمرت بهدمه . وباعت أجزاءه قطعاً ، لأنها رأت فى هذا الوسيلة الوحيدة لتحويل هذا العبء المالى إلى ثروة .

٦ — هولبين الابن : ١٤٩٧ — ١٥٤٣

ما أشد عجز الألفاظ أمام عمل من أعمال الفن ! فكل فن يقاوم بنجاح ترجمته إلى أى وسيط آخر . ذلك أن له سمة لاصقة به إما أن تتكلم عن نفسها أولا تتكلم على الإطلاق . وليس فى طاقة التاريخ إلا أن يسجل كبار الفنانين وآياتهم الفنية . أما توصيل هذه الآيات فذلك ما يعجز عنه . والجلوس فى صمت أمام لوحة هولبين التى تمثل زوجته وأبناءه خير من ترجمة لحياة الفنان . ومع ذلك . . .

كان هولبين محظوظاً فى نسبه عنه فى زمانه . فقد كان أبوه من كبار المصورين فى أوجزبورج . ومنه تعلم هانز مبادئ التصوير . ومن هانز بوركمير شيئاً من الجمال والتشكيل الإيطاليين . وفى عام ١٥١٢

رسم أربع حشوات للمذبح محفوظة الآن بمتحف أوجزبورج — متوسطة الجودة حقاً ، ولكنها جيدة إلى حد مدهش بالنسبة لغلام فى الخامسة عشرة . وبعد عامين ارتحل هو وأخوه أمبروز ، وهو رسام أيضاً ، إلى بال . ولعل أباهما كان قد غالى فى التشبث بأسلوبه الذى ما زال قوطياً ، أو لعله لم يتوافر فى أوجزبورج من مال الطبقة المتعلمة ما يكفى إلا لإعالة لقلة من الفنانين ، على أى حال قليلا ما يتعلق الشباب والعبقرية بالبقاء فى الوطن . وفى بال اكتشف الغلامان أن الحرية امتحان. ورسم هانز صوراً لعدة كتب من بينها كتاب إرزمس « فى مدح الحماقة » ، وقام ببعض أشغال الطلاء البسيطة ، وصنع لافتة لأحد المدرسين ، وزخرف رأس مائدة بمشاهد حية من قصة القديس المجهول الاسم — ذلك النكرة الذى يسهل تناوله ، والذى اتهم بكل الخبائث المجهولة ولم ينبس بكلمة دفاعاً عن نفسه . وكان جزاء هانز على هذا العمل مهمة مثمرة وكلت إليه — هى رسم لوحات للعمدة يعقوب ماير وزوجته (١٥١٧) . وذاع صيت هذه اللوحات ، وما لبث يعقوب هرتنشتين أن استقدم هانز إلى لوسرن ، وهناك رسم صوراً جصية على واجهة دار رب البيت وجدرانه ، ورسم لوحة بنــدكت هرتنشتين المحفوظة الآن بمتحف المتروبوليتان بنيويورك . ولعله انتقل من لوسرن إلى إيطاليا ، فقد أفصح فنه منذ الآن عن تأثير إيطالى من حيث دقة التشريح والخلفيات المعمارية وتكييف الضوء . فلما عاد إلى بال وقد بلغ الثانية والعشرين أقام لنفسه مرسماً وتزوج من أرملة (١٥١٩) . وفى هذه السنة مات أخوه ، وفى ١٥٢٤ مات أبوهما .

وامتزجت الواقعية الألمانية بالعمارة الرومانسكية والزخارف الكلاسيكية فى الصور الدينية التى راح هولبين يرسمها الآن . وأنها لواقعية يجفل لها الناظر — وتذكر بمانتينيا — تلك التى تطالعنا فى لوحة « المسيح فى القبر » :

الجسد ليس سوى عظم وجلد ، والعينان مفتوحتان بصورة رهيبة ، والشعر أشعث ، والفم فاغر فى جهد أخير للتنفس ، كل هذا يبدو موتاً لا رجعة فيه ، فلا عجب أن قال دستويفسكى عن الصورة أنها قد تدمر إيمان المرء[٢٦] . وحوالى هذه الفترة رسم هولبين صوراً جدارية لقاعة المجلس الكبير فى بال . فسر بها أعضاء المجلس ، وكلفه أحدهم بأن يرسم لوحة مذبح لدير كارتوزى . وهذه اللوحة ، واسمها « آلام المسيح » أوذيت فى حوادث الشغب التى قامت فى ١٥٢٩ لتحطيم الصور ، ولكن أنقذ منها مصراعان ، وأهديا لكاتدرائية فرايبورج — إيم — برايسجاو . وهما يستعيران الكثير من بالدونج جرين ، ولكنهما يتفردان بقوة تتجلى فى تلك الحركة العجيبة للضوء المنبعث من « الطفل » . وفى عام ١٥٢٢ طلب كاهن مدينة بال لوحة مذبح أخرى . وقد استخدم هولبين فى رسم هذه « المادونا » ذات الجمال الهادىء — والمحفوظة بمتحف الفن بسولوتورن — زوجتة وابنه نموذجين ، وكانت الزوجة يومها امرأة ذات حسن متواضع لم تمسه المأساة بعد . ولعله حوالى هذه الفترة[٢٧] أخرج رائعته الدينية « العذراء والطفل مع أسرة العمدة ماير » — وهى فريدة تكويناً وخطاً ولوناً ، حارة عاطفة . وفى وسعنا أن نفهم فى تعاطف أكثر صلاة العمدة للعذراء إذا علمنا أن ولديه المرسومين عند قدميه ، وإحدى الزوجتين الجاثيتين إلى اليمين ، كانوا قد فارقوا الحياة »

ولكن أجر هذه الصور الدينية كان ضئيلا بالقياس إلى ما تطلبته من عناية وجهد . وأما صور الأشخاص فأربح للمصور ، الذى اقتضاه ازدياد أفراد أسرته مزيداً من نفقات إعاشتهم . ففى عام ١٥١٩ رسم هولبين صورة للعالم الشاب بونيفاكوس أمرباخ — وجه نبيل ما زال محتفظاً بالمثالية رغم النظرة الثاقبة إلى العالم . وحوالى عام ١٥٢٢ رسم لوحة للطباع الكبير فروبن — رجل متفان فى عمله ، قلق ، برته

الحياة نتيجة جهوده الخلاقة . وعن طريق فروين عرف هولبين إرزمس. فنى عام ١٥٢٣ رسم صورتين من صوره الكثيرة للأديب الإنسانى الذى غشيه الحزن ؛ وفى لوحته التى بدا فيها إرزمس فى ثلاثة أرباع قامته ، وفق الفنان ، وقد بلغت قدراته غايتها ، فى تفهم روح رجل عمر أكثر مما ينبغى ، فالمرض ولوثر عمقا تجاعيد وجهه واكتئاب عينيه . أما الصورة الجانبية المحفوظة بمجمع الفن ببال فيبدو فيها أكثر هدوءاً وحيوية ، فالأنف ينبرى للنزال كأنه سيف مجالد رومانى . ولعل المخطوط الذى يرى تحت قلمه مسودة لكتابه **De libero arbitrio** (١٥٢٤) الذى بدأ يدخل به صفوف المعارضين للوثر . وأكبر الظن أن هولبين صور إرزمس مرة أخرى فى عام ١٥٢٤ صورته المحفوظة بمتحف اللوفر ، وهى أفضل صورة قاطبة ؛ ونظرة إلى هذا الوجه العميق الذى طهره الألم تذكر المرء بتعقيب لنيزار فيه إدراك وتفهم « لقد كان إرزمس أحد أولئك الذين كان فخرهم فى أن يفهموا الكثير ويجزموا بالقليل »[٢٨] .

وحوالى ١٥٢٣ صور هولبين نفسه وقد بلغ السادسة والعشرين وبدت عليه آثار النعمة ، ولكن النظرة الباردة توحى ببعض الامتعاض المناضل مما منى به فى الحياة من صدمات . وترميه الرواية بادمان غير مفرط على الخمر والنساء ، وتصوره رجلا غير سعيد مع زوجته. ويبدو أنه كان يشارك لوثر بعض آرائه . فلوحاته الخشبية المحفورة « رقصة الموت » (حوالى ١٥٢٥) تهجو الاكليروس — ولكن هذا فعله حتى الاكليروس أنفسهم فى ذلك العهد . وتصور هذه المجموعة الموت يتعقب خطوات كل رجل أو إمرأة أو طبقة — آدم ، وحواء ، والإمبراطور ، ونبيلا ، وطبيباً ، وراهباً ، وكاهناً ، وبابا ، ومليونيراً ، ومنجماً ، ودوقة ، ومهرجاً ، ومقامراً ، ولصاً — كلهم فى طريقهم إلى الدينونة الأخيرة ،

واللوحة عمل فنى يضارع فى قوته أى عمل لدورر استخدم فيه هذا الوسيط . وإذا استثنينا هذه الرائعة من روائع الرسم ، وعذراء ماير ، لم تتبين فى هولبين أى عاطفة دينية واضحة . ولعله تشرب بعض التشكك من إرزمس وإنسانيي بال[٢٩]. لقد كان اهتمامه بالتشريح أشد من اهتمامه بالدين .

ولقد عصفت حركة الإصلاح البروتستنتى بسوق صوره فى بال على الرغم من رضائه المرجح عنها . فلم تعد تطلب منه صور دينية . وتوقف دفع أجور اللوحات التى رسمها لقاعة المجلس. أما سراة القوم فقد لاذوا بالعزلة والشح إذ روعتهم حرب الفلاحين ، ورأوا أن الوقت غير مناسب للتصوير . كتب إرزمس من بال فى ١٥٢٦ يقول : «إن الفنون تتجمد هنا »[٣٠] . وقد زود هولبين بخطابات قدمه فيها لأصدقائه فى أنتورب ولندن ، وانطلق هولبين إلى بلاد الشمال سعياً وراء المال بعد أن ترك أسرته فى البيت . وزار كوينتين ماسيس ، وما من شك فى أنهما تبادلا الرأى فى إرزمس . ومن أنتورب عبر البحر إلى إنجلترا . وضمن له خطاب إرزمس لقاء حاراً من تومس مور الذى هيأ له مسكناً فى بيته بتشلسى ، وهناك رسم صورته (١٥٢٦) المحفوظة الآن بصالة فريك فى بنيويورك . ويرى المؤرخ ، بادراكه المؤخر . فى العينين المتوترتين اللتين يغشاهما بعض الاكتئاب إيذاناً بورع الشهيد وصلابته . أما أعجب ما فى اللوحة كما تراها بصيرة الفنان فهو فراء الكم وتلافيفه. وفى عام ١٥٢٧ رسم هولبين « تومس مور وأسرته » — وهى أقدم لوحة جماعية معروفة فى الفن غير الدينى عبر الألب .

وفى أواخر عام ١٥٢٨ عاد هولبين إلى بال بعد أن كسب بضعة جنيهات وشلنات ، وأعطى إرزمس نسخة من لوحة « مور وأسرته » ثم لحق بزوجته من جديد . وعكف الآن على رسم صورة من أعظم

صوره وأصدقها ، ترينا أسرته بواقعية لم يضن بها على نفسه . فكل وجه من الوجوه الثلاثة قد غشيه الحزن ، الفتاة مستسلمة بل تكاد تكون يائسة ، والصبي يتطلع إلى أمه مكتئباً ، أما هي فترمقهما بأسى وحب انعكسا انعكاساً عميقاً فى عينيها — أسى زوجة فقدت حب زوجها ، وحب أم لا يربطها بالحياة سوى ولديها . وترك هولبين أسرته ثانية بعد ثلاثة أعوام من رسمه هذا الاتهام الرائع لشخصه .

ورسم خلال إقامته هذه فى بال لوحة أخرى لفروين ، وست صور لإرزمس يعوزها ما تميزت به صور ١٥٢٣ — ٢٤ من عمق شديد . وجدد مجلس المدينة طلب رسوم جصية لحجراته ، ولكنه شجب الصور الدينية كافة مستسلماً لمحطمى الصور المنتصرين ، وأفتى بأن « الله لعن جميع من يصنعونها » (٣١). وهبط الطلب على الصور ، وفى عام ١٥٣٢ عاد هولبين إلى إنجلترا .

وهناك رسم صوراً بلغت من الكثرة حداً ظهر معه معظم الأشخاص ، الذين سيطروا على مسرح الأحداث فى إنجلترا خلال تلك السنوات الصاخبة ، وقد دبت فيهم الحياة بفضل ريشة هولبين الساحرة . فى مكتبة الملكة بقصر وندزور سبعة وثمانون رسماً تخطيطياً بالفحم أو الطباشير ، بعضها أعد لرسوم هزلية ، وأكثرها للوحات ، والظاهر أن الفنان لم يحتج لأكثر من جلسة أو جلستين من أصحاب رسومه ، ثم صورهم على لوحاته نقلا عن هذه الرسوم . وسعى التجار الهانسيون فى لندن إلى فنه ، ولكنهم لم يوحوا إليه بأفضل ما عنده . وقد رسم لقاعة نقابة الهانسيين صورتين جداريتين ، محفوظتين فى نسخ أو رسوم لها فقط ، مثلت إحداهما « انتصار الفقر » ، والأخرى : « انتصار الغنى » . وكلتاهما معجزة فى الشخصية المميزة ، والحركة الحية ، والتصميم المتماسك ، وهما توضحان شعار النقابة — « إن الذهب أبو الفرج وابن الهم ، المفتقر إليه حزين ، والمالك له قلق (٣٢)» .

وفى عام ١٥٣٤ أسلم تومس كرمويل وجهه الجامد وجسده الهش لريشة هولبين ، وكان مزمعاً أن يكون بشخصه مصداق هذه الحكمة . وعن طريقه اتصل الفنان بأرفع الشخصيات فى البلاط . ورسم لوحة « السفراء الفرنسيين » ووفق توفيقاً غير عادى فى تصوير واحد منهم يدعى شارل دسواييه ، إذ كشف عن الرجل المتوارى خلف رداء المنصب وشارته . وهناك أربعة آخرون — هم السر هنرى جلفورد (مراقب البيت الملكى) ، والسر نيكولاس كاريو (قيم الاسطبلات الملكية) . وروبرت تشيسمان (بازدار الملك) والدكتور جون تشيمبرز (طبيب الملك) — هؤلاء الأربعة تستشف فى صورهم صفاقة فى الجلد لولاها لاستحال عليهم العيش فى مأمن مع هذا الملك النارى الطبع . وقد أصبح هولبين واحداً منهم حوالى ١٥٣٧ بوصفه المصور الرسمى للبلاط . وأفرد له مرسم خاص فى قصر هوايتهول ، ونزل مسكناً مريحاً . وكان له كغيره عشيقات وأبناء غير شرعيين ، وغدا يرفل فى الخز والأثواب البهية (٣٣) . وطلب إليه أن يزخرف الحجرات ، ويصمم الأثواب الرسمية ، وأغلفة الكتب ، والأسلحة ، ومفارش المائدة ، والأختام ، والأزرار والمشابك الملكية ، والأحجار الكريمة التى كان هنرى يهديها إلى زوجاته ، وفى عام ١٥٣٨ أوفده الملك إلى بروكسل ليصور الأميرة كرستين الدنمركية ، وقد تبين أن فيها كثيراً من الفتنة ، وود هنرى لو اتخذها زوجة ، لولا أنها اختارت الدوق فرانسوا اللورينى بدلا منه ، ولعلها آثرت أن تعلق فى قاعة للصور عن أن يقطع رأسها . وانتهز هولبين الفرصة لزيارة بال زيارة قصيرة . وهناك عين راتباً سنوياً لزوجته قدره أربعون جلدراً (١,٠٠٠ دولار ؟) ثم أسرع بالعودة إلى لندن . وبعد عودته بقليل كلف بأن يصور آن كليفز ، وكاد هولبين أن يتنبأ بمصيرها فى العينين الحزينتين اللتين تطالعانك من صورتها المحفوظة الآن باللوفر .

أما الملك فقد رسم له عدة لوحات كبيرة فقدت كلها تقريباً . وبقيت منها واحدة فى قاعة « باربر سيرجنز » بلندن : « هنرى الثامن يمنح مرسوم شركة تضامنية لشركة باربر سيرجنز » ويرى فيها هنرى وقد طغى على المشهد فى أثوابه الرسمية : ورسم الفنان صورا جذابة لزوجة هنرى الثالثة جين سيمور ، ولزوجته الخامسة كاترين هوارد . وكان إذا جلس أو وقف له هنرى ، نفسه يرتفع إلى مستوى التحدى ويخرج لوحات لايفوقها من انتاجه سوى صور إرزمس المحفوظة باللوفروبال . ولوحة عام ١٥٢٦ تظهر الملك بدينا بدانة التيوتون ، مزهواً زهوهم . وأعجب بها هنرى على الرغم منه ، وكلف هولبين بتصوير الأسرة المالكة صورة جصية ملونة بقصر وايتهول . وقد دمرت النيران هذه الصورة الجدارية عام ١٦٩٨ . ولكن نسخة أخرجت منها عام ١٦٦٧ لتشارلز الثانى تشف عن براعة التصميم : فى أعلى اليسار يرى هنرى السابع ، تقياً متواضعاً ، وفى أسفل ولده يلوح بشعارات السلطة ويمد ساقيه كأنه العملاق . وإلى اليمين أمه وزوجته الثالثة ، وفى الوسط أثر من الرخام يفصل باللاتينية فضائل الملوك . وقد فصل وجه هنرى الثامن بواقعيه ترددت بسببها أسطورة تحكى أن أشخاصا دخلوا الحجرة وحسبوا أن الصورة هى الملك الحى ذاته . وفى عام ١٥٤٠ رسم هولبين صورة أشد وقعاً فى النفس حتى من هذه . وهى « هنرى الثامن فى ثياب العرس . » واخيراً (١٥٤٢.) أظهو لنا الرسام هنرى فى انحلال عقله وجسده . وكان عمل ربة الانتقام هنا بطيئا متأنيا : فمدت فى ثأر الآلهة ، وبدلا من الميتة الهادئة أو المباغته قضت عليه بانحلال طويل مذل ه

وهناك صورتان جميلتان تكفران عن سيئات قاعة الصور الملكية ، إحداهما للامير إدوارد فى الثانية من عمره وهو يفيض براءة ، والأخرى لإدوارد فى السادسة (بمتحف المتروبوليتان للفنون) . وهذه اللوحة الثانية

بهجة للناظرين . وفى وسعنا أن نحكم على فن هولبين حين نراه خلال سنة أو سنتين يصور فى غير إحجام كبرياء الأب البدين ، ثم يلتقط بمثل هذه البراعة المحيّرة وداعة الابن البريئة .

وصور الفنان نفسه مرة أخرى حين بلغ الخامسة والأربعين (١٥٤٢) ، وبذات الموضوعية التى رسم بها الملك : رجلا مرتاباً مشاكساً ذا شعر ولحية وخطهما الشيب وبدا عليهما الإهمال ؛ ثم مرة أخرى عام ١٥٤٣ فى صورة مستديرة تظهره فى حالة أرق وألطف . فى ذلك العام اجتاح الطاعون لندن واختاره واحداً من ضحاياً .

كان من الناحية التقنية واحداً من عظماء المصورين . فهو يرى فى تدقيق بالغ ، ويرسم كما يرى ، وهو يمسك بكل خط ، أو لون ، أو موقف ، بكل زاوية أو تغير فى الضوء، يمكن أن يكشف عن دلالة أو مغزى ، ويثبته على الورق أو القماش أو الخشب أو الجدار . . . وأى دقة فى الخطوط ، وعمق ونعومة ودفء فى الألوان، وبراعة فى ترتيب التفاصيل ليؤلف بينها تأليفاً موحداً! ولكننا فى كثير من اللوحات، التى لم يكن الهدف منها تصوير الشخص بل تقاضى الأجر ، نفتقد ذلك التعاطف القادر على رؤية نفس الإنسان الخفية وعلى مشاركتها شعورها . هذا التعاطف نجده فى صور إرزمس المحفوظة باللوفر وبال ، وفى صورة أسرته ، وإذا استثنينا عذراء ماير ، فإننا نفتقد المثالية التى سمت بالواقعية فى لوحة فان إيك « عبادة الحَمَل » . وقد قصر به عدم مبالاته بالدين عن بلوغ السمو الذى بلغه جرونفالد ، وأبعده عن دورر الذى ظل على الدوام محتفظاً بإحدى قدميه فى العصور الوسطى . ولم يكن هولبين فنان النهضة الخالص كتيشان ، ولا فنان الإصلاح البروتستنتى الخالص ككراناخ ، لقد كان ألمانياً — هولندياً — فلمنكياً — إنجليزياً فى واقعيته وإحساسه العملى . ولعل نجاحه حال دون دخول مبادىء التصوير الإيطالية ورقته

دخولا قوياً إلى إنجلترا . وبعد موته انتصرت البيورتانية على العاطفة الإليزابيثية ، وراح فن التصوير الإنجليزى يتعثر حتى جاء هوجارث . وفى الوقت ذاته فارق المجد التصوير الألمانى . ولم يكن بد من أن يتدفق فوق أوربا الوسطى سيل من الهمجية قبل أن يعود الإحساس بالجمال إلى التعبير عن نفسه هناك مرة أخرى .

٧ — الفن فى أسبانيا والبرتغال : ١٥١٥ — ٥٥

لم تعرف أسبانيا قط النهضة بالمعنى الإيطالى الغنى على الرغم من ظهور الجريكو وفيلاسكيز ، وسرفانتيس وكالديرون . فثروتها التى جاءتها من أقطار نائية أضفت على ثقافتها المسيحية زخارف جديدة ، وأتاحت لها إجزال العطاء للوطنيين النابغين فى الأدب والفن ، ولكنها لم تتدفق كما تدفقت الثروة فى إيطاليا وفرنسا إلى أى جهود مثيرة لاستعادة تلك الحضارة الوثنية التى ازدان بها عالم البحر المتوسط قبل المسيح وبعده ، والتى أنجبت سنيكا ولوكان ومارتيال وكونتيليان وتراجان وهادريان على أرض أسبانيا ذاتها . لقد طغى على ذكرى العهد الكلاسيكى طول الصراع بين المسيحية الإسبانية والمغاربة ، وكل الذكريات المجيدة كانت ذكريات ذلك الانتصار المتطاول ، وغدا الإيمان الذى حققه مقترناً بتلك الذكرى الفخور لا ينفصل عنها . وبينما كانت الدولة تذل الكنيسة فى كل أرجاء أوربا الأخرى ، كان النظام الكنسى فى أسبانيا يزداد قوة على الزمن ، فتحدى البابوية وتجاهلها ، حتى حين كان الأسبان يحكمون الفاتيكان ، وعاش رغم الاستبداد الورع الذى فرضه فرديناند وشارل الخامس وفيليب الثانى ، ثم سيطر على كل نواحى الحياة الأسبانية . وكانت الكنيسة فى أسبانيا الراعى الوحيد تقريباً للفنون ، ومن ثم فقد قررت اللحن الذى تريده ، وحددت الموضوعات . وجعلت الفن كالفلسفة خادماً للاهوت . وعينت محاكم التفتيش الإسبانية مفتشين

لتحريم العرى أو البذاءة أو الوثنية أو الهرطقة فى الفن ، ولتحديد طريقة تناول المواضيع المقدسة فى النحت والتصوير ، ولتوجيه الفن الأسبانى وجهة التبصير بالإيمان وتثبيته .

ومع ذلك فقد كان التأثير الإيطالى يتدفق إلى أسبانيا . فارتقاء الأسبان عرش البابوية وفتح ملوك الأسبان نابلى وميلان ، وحملات الجيوش الأسبانية وبعثات رجال الدولة والكنيسة إلى إيطاليا ، والتجارة الرائجة بين أسبانيا والثغور الإيطالية ، وزيارة الفنانين الأسبان أمثال فورمنت وبيروجويتى وابنه لإيطاليا ، والفنانين الإيطاليين أمثال توريجيانو وليونى ليونى لأسبانيا — هذه العوامل كلها أثرت فى الفن الأسبانى من حيث طرائقه وزخرفته وأسلوبه ، ولم تؤثر تأثيراً يذكر فى روحه أو موضوعه ؛ أثرت فى التصوير أكثر مما أثرت فى النحت ، وكانت أقل ما تكون تأثيراً فى العمارة .

وسيطرت الكاتدرائيات على مشاهد الريف والمدن سيطرة الدين على الحياة . فالرحلة فى أسبانيا أشبه بالحج من هيكل إلى آخر من هذه الهياكل الجبارة . وضخامتها المهيبة ، وغنى زخارفها الداخلية ، وصمت أبهائها الذى يلفه ضوء خافت ، وأشغال الحجر المكرسة التى تبنى بها أروقتها ، كلها تبرز البساطة والفقر الوضحين فى مساكن الآجر الجميلة المتزاحمة فى أسفلها وهى تتطلع إليها كأنها الوعد بعالم أفضل . وظل الطراز القوطى هو السائد فى الكاتدرائيات الشامخة التى ارتفعت فى سماء سلمنقة (١٥١٣) وسقوبية (١٤٢٢) ، ولكن المعمارى دييجو دى سيلوى ، وكان ابن نحات قوطى الفن ، صمم الأجزاء الداخلية من كاتدرائية غرناطة بأعمدة وتيجان كلاسيكية ، وتوج التصميم القوطى بقبة كلاسيكية (١٥٢٥) ؛ وأزاح طراز النهضة الإيطالية الطراز القوطى إزاحة تامة فى قصر شارل الخامس بغرناطة . وكان شارل قد وبخ أسقف قرطبة

على إتلافه المسجد الكبير ببناء كنيسة مسيحية داخل أعمدته البالغ عددها ٨٥٠(٣٤) ، ولكنه ارتكب ذنباً لا يكاد يقل فداحة حين هدم بعض قاعات قصر الحمراء وأبنيته ليفسح مكاناً لبناء كان من الجائز أن يتقبل المرء ضخامته الصارمة وتماثله السخيف دون تأذ لو أنه قام وسط أبنية مماثلة له فى روما ، ولكنه ظهر نابياً أشد النبو وسط القلعة المغربية برشاقتها الهشة وتنوعها البهيج .

وظهر شىء من ميل المغاربة للزخارف المعمارية فى طراز « الأطباق » الذى طبع أكثر ما طبع المعمار المدنى فى ذلك العهد . وقد اشتق اسمه من الشبه بينه وبين الحلى المعقدة الرقيقة التى كان صائغو الفضة (البلاتيرو) أو الذهب يحلون بها آنية المائدة وغيرها من تحف فنهم . وقد ملأ هذا الطراز قمم وجوانب البوابات والنوافذ بأحجار ملتفة عربية الطراز ، وحفر الأعمدة أو لولبها أو زهرها بخيال إسلامى غريب ، وثقب النوافذ المضبعة والدرابزينات بورق شجر وبوشى من الرخام . وكان هذا الطراز طابع كنيسة أوبيسبو فى مدريد ، وكنيسة سانتو توماس فى أفيلا ، وخورس كاتدرائية قرطبة . وقد أطلق لنفسه العنان فى قاعة مدينة إشبيلية (١٥٢٦) . واقتبست البرتغال هذا الطراز على بوابة حفلت بالحلى وأعمدة نقشت بالزخارف فى دير سانتا ماريا الفخم فى بيليم (١٥١٧) ، وحمله شارل الخامس إلى الأراضى المنخفضة وألمانيا حيث نشر طابعه على قاعات مدينتى أنتورب وليدن وقلعة هيدلبرج . ولكن فيليب الثانى وجد فى هذا الطراز إسرافاً فى الزخرف لا يطيقه ذوقه ، فمات موتاً مبكراً تحت عبساته .

أما النحت الأسبانى فقد خضع للمد الإيطالى المتعاظم بأيسر مما خضع المعمار . فبعد أن كسر بيترو توريجيانو أنف ميكلانجلو فى فلورنسة ، وتحدى هنرى الثامن فى لندن ، استقر فى إشبيليه (١٥٢١) وصنع من

الطين المحروق تمثالا غليظاً للقديس جيروم ، ارتأى فيه جويا رأياً خاطئاً ، هو أنه أعظم أعمال النحت الحديث[٣٥]. وأحس توريجيانو أنه نقد أجراً حقيراً لقاء صنعه تمثالا للعذراء ، فحطمه شذر مذر ، وقبضت عليه محكمة التفتيش فمات فى سجونها[٣٦] . أما داميان فورمنت فقد حمل روح النهضة على إزميله وفى عباراته الطنانة بعد عودته إلى أراجون من إيطاليا . كان يصف نفسه بأنه « قريع فيدياس وبراكسيتيليس » . وتقبله الناس بالقدر الذى قدر به نفسه ، فسمحت له السلطات الكنسية بحفر صور له ولزوجته على قاعدة حاجز المذبح الخلفى الذى صنعه لدير مونتى أراجون . ثم صنع من المرمر لكنيسة نويسترا سينورا ديل بيلار فى سرقسطة رافدة مذبح كبيرة بالنقوش ضئيلة البروز ، مزج فيها العناصر القوطية بعناصر النهضة ، والتصوير بالنحت ، واللون بالشكل . وكرس فورمنت لرافدة مذبح أخرى فى كاتدرائية وشقة فى السنوات الثلاث عشرة الباقية من حياته (١٥٢٠ — ١٥٣٣) .

وكما أن بدرو بروجويتى هيمن على التصوير الأسبانى فى نصف القرن السابق على شارل الخامس ، فكذلك أصبح ابنه أكبر النحاتين الأسبان فى العهد الذى نحن بصدده . وقد تعلم ألونسو فن اللون من أبيه ، وذهب إلى إيطاليا واشتغل مع رفائيل مصوراً ، ومع برامانتى وميكلانجلو مثالا . فلما عاد إلى أسبانيا (١٥٢٠) جلب معه ولع ميكلانجلو بالوجوه تلتقط فى حدة الانفعال أو عنف المواقف . وعينه شارل مثالا ومصوراً للبلاط . وظل ست سنوات فى بلد الوليد ينحت من الخشب حجاباً لمذبح كنيسة سان بنيتو إل ريال ، طوله اثنان وأربعون قدماً وعرضه ثلاثون ، ولم يبق منه إلا قطع متناثرة ، أهمها صورة للقديس سباستيان ذات ألوان حية ، والدم يتدفق من جروحه . وفى ١٥٣٥ اشترك مع أهم منافسيه ، فيليبى دبورجونا ، فى نقش مقاعد للمرتلين فى كاتدرائية طليطلة ، وهنا

أيضاً كان أسلوب ميكلانجلو هو الموجه ليده ، والمنبئ بطراز الباروك فى أسبانيا . ولما قارب الثمانين كلف أن يقيم فى مستشفى القديس يوحنا بطليطلة أثراً تذكارياً لمؤسسة الكردينال جوان دى تافيرا . وأخذ معه ابنه ألونسو مساعداً ، وأبدع إحدى الروائع الكبرى فى النحت الأسبانى . ثم مات خلال هذه المحاولة وقد بلغ الخامسة والسبعين (١٥٦١) .

أما التصوير الأسبانى الذى كان لا يزال آنئذ تحت وصاية إيطاليا وفلاندر فلم يجد بفنان بارز فى عهد شارل الخامس . وكان الإمبراطور يؤثر المصورين الأجانب ، فاستقدم أنطونيس مور ليصور أعيان الأسبان ، أما عن نفسه فقد صرح بأنه لن يسمح لأحد أن يصوره غير تيشان العظيم . والمصور الأسبانى الوحيد الذى عبرت سمعته جبال البرانس هو لويس دى مورالبس . وقد قضى السنين الخمسين الأولى من حياته فقيراً مغموراً فى بلدته بطليوس ، يرسم الصور للكنائس كبيرها وصغيرها فى إقليم استريمادورا . وكان يناهز الرابعة والخمسين حين أمره فيليب الثانى بالحضور والتصوير فى الاسكوريال (١٥٦٤) . فقدم نفسه للملك فى ثياب بهية رأى فيليب أنها لا تليق بفنان ، ولكنه لان حين علم أن لويس أنفق مدخرات العمر ليعد لنفسه ثياباً تليق بالمثول بين يدى جلالته . ولم تستهو الملك لوحته « المسيح حاملا الصليب » ، فعاد إلى بطليوس وحياة الضنك . وتعرض عدة لوحات بريشته فى الجمعية الأسبانية بنيويورك ، وكلها جميلة . غير أن أفضل مثال لفنه هو لوحة « العذراء والطفل » فى البرادو — وهى تذكرنا من بعض وجوهها برفائيل تذكيراً شديداً . ولما اجتاز فيليب ببلدة بطليوس فى عام ١٥٨١ خصص معاشاً متأخراً للفنان الذى أعجزه الفالج وضعف البصر ، فيسر له بذلك القوت المنتظم فى السنوات الخمس الباقية له من عمره .

أما صناع أسبانيا المهرة فكثيراً ما كانوا فنانين فى كل شىء ولا ينقصهم غير الاسم ؛ فقد ظلت أشغال التخريم والجلد تحظى بأرفع مكانة فى أوربا ؛ كذلك كان النجارون لا ضريب لهم ، وعند تيوفيل جوتييه أن الفن القوطى لم يدن قط من الكمال دنوه فى مقاعد المرتلين بكاتدرائية طليطلة . أما المشتغلون بالمصنوعات المعدنية فقد جعلوا من حجب الهياكل ، ومصبعات النوافذ ، ودرابزينات الشرفات ، ومفصلات الأبواب ، بل من المسامير ، تحفاً فنية . وأحال صاغة الذهب والفضة بعض المعدن النفيس المتدفق من أمريكا حلياً للأمراء وآنية للكنيسة ، واشتهر من أشغالهم الآنية التى صاغوها بتخريم الفضة أو الذهب لاحتواء القربان المكرس . ولم يمنع جل فيتشنتى بمكانته زعيماً لكتاب المسرحية فى البرتغال وأسبانيا فى هذه الفترة ، بل صنع وعاء للقربان المقدس — يخرج به الكاهن على جمهور المصلين — قيل فى تقديره « انه أروع أشغال الصياغة فى البرتغال »[٣٧]؛ وواصل فرانشيسكو دى هولاندا ، البرتغالى برغم اسمه ، زخرفة المخطوطات ببراعة ، وهى فن كان بسبيله إلى الزوال .

ويمكن القول على الجملة إن هذه الفترة التى تقل عن نصف قرن قد وفقت توفيقاً مشرفاً فى مجال الفن على الرغم من استنفاد الطاقات وتمزقها فى الثورة الدينية . لم يكن كبار المعماريين والنحاتين والمصورين ممن يثبتون للمقارنة بالعمالقة الذين زلزلوا باللاهوت أوربا ، وكان الدين لحن العهد ، وقصارى ما كان يستطيعه الفن أن يكون مصاحباً له . بيد أن إل روسو ، وبريماتتشيو ، وليسكو ، وديلورم ، وجوجون ، وآل كلويه فى فرنسا ، وبروجويتى وابنه فى أسبانيا ، وبروجل فى فلاندر ، وكراناخ فى ألمانيا ، وهولبين فى كل بلد — كل أولئك كانوا قائمة نبيلة من الفنانين لعهد شديد الاضطراب بالغ القصر . إن

الفن نظام ، ولكن كل شيء كان فوضى — لا الدين فحسب : بل الأخلاق ، والنظام الاجتماعى ، والفن نفسه . وكان الفن القوطى يخوض معركته الخاسرة مع الطرز والأساليب الكلاسيكية ، واضطر الفنان بعد أن اقتلع من ماضيه أن يجرب بمحاولات اجتهادية لم تستطع أن تمنحه جلال الاستقرار المتأصل فى زمان واثق من نفسه . كذلك كان الإيمان متردداً وسط هذا الاضطراب الشامل ، فلم يعد يعطى الفن أوامر وتوجيهات واضحة ، وهوجمت الصور الدينية وحطمت ، وأخذت الموضوعات المقدسة تفقد قدرتها على استثارة العبقرية أو الإعجاب أو التقوى بعد أن كانت مبعث إلهام لمبدع الجمال ولمشاهده على السواء . أما فى مجال العلم فقد راحت أعظم الثورات قاطبة تخلع الأرض عن عرشها اللاهوتى ، وتضيع فى الفراغ اللانهائى تلك الكرة الصغيرة التى كان الافتقاد الإلهى لها سبباً فى تكوين العقل الوسيط وخلق الفن الوسيط . ترى ، متى يعود الاستقرار ثانية ؟

الفصل السابع والثلاثون

العلم فى عصر كوبرنيق

(١٥١٧ — ٦٥)(*)

١ — الإيمان بالمستور (السحر والتنجيم وما إليهما)

من الحقائق الجديرة بالملاحظة أن هذا العهد الذى استغرقه اللاهوت والثقافة المدرسية قد أنجب رجلين لهما أرفع مقام فى تاريخ العلم — كوبرنيق وفيزاليوس ، ومن العجيب أن الكتب التى احتوت عصارة حياتهما قد ظهرت فى سنة واحدة ، هى « سنة العجائب » ١٥٤٣ . لقد وكان بعض الظروف مواتياً للعلم . فاكتشاف أمريكا وارتياد آسيا ، ومطالب الصناعة واتساع التجارة — كل هذا أثمر معرفة كثيراً ما ناقضت المعتقدا ت المتوارثة وشجعت التفكير الأصيل . وكان للترجمات من اليونانية والعربية ، ولطبع كتاب أبوللونيوس « الأشكال المخروطية » (١٥٣٧) والنص اليونانى لأرخميدس (١٥٤٤) ، الفضل فى حفز العلوم الرياضية والفزيائية . غير أن كثيراً من الرحالة كانوا كاذبين أو مهملين ، ونشرت الطباعـــة الهراء على نطاق أوسع من نشرها للمعرفة ، وكانت الأدوات العلمية بدائية برغم تعددها . فالمكروسكوب والتلسكوب والترمومتر والبارومتر والمكرومتر والمكروكرنومتر كلها كانت فى ضمير الغيب . أما النهضة فقد ولعت بالأدب والأسلوب ، واهتمت بالفلسفة اهتماماً مؤدباً ، ولم تكد تكترث للعلم . حقيقة أن

(*) انظر الفصل ٣٠ فى العلم الإسلامى ، والفصل ٣٢ فى العلم اليهودى ، والفصل ١٩ من فصول النهضة فى العلم الايطالى .

بابوات النهضة لم يقفوا موقف العداء من العلم . فقد استمع ليو العاشر وكلمنت السابع إلى أفكار كوبرنيق بذهنين مفتوحين ، وتقبل بولس الثالث فى غير خوف إهداء كوبرنيق كتابه له ، « كتاب الدورات » الذى زلزل العالم . ولكن رد الفعل الذى جاء فى عهد بولس الرابع ، وتطور محكمة التفتيش فى إيطاليا ، وقرارات مجمع ترنت القطعية ، كل هذا جعل الدراسات العلمية شاقة خطرة بصورة متزايدة بعد عام ١٥٥٥ .

ولم تستطع البروتستنتية أن تؤيد العلم ، لأنها أسست صرحها على كتاب مقدس معصوم . ورفض لوثر فلك كوبرنيق لأن التوراة ذكرت أن يشوع أمر الشمس — لا الأرض — أن تقف . أما ملانكتون فكان ميالا للعلم ، فدرس الرياضيات ، والفيزياء ، والفلك ، والطب ، وحاضر فى تاريخ الرياضيات فى العصور القديمة ، ولكن روحه السمحة غلبتها طبيعة أستاذه القوية وطغيان لوثرية ضيقة الأفق بعد موت لوثر . أما كالفن فلم يكن به كبير تقدير للعلم ، وأما نوكس فلا تقدير على الإطلاق .

وظل مناخ مثبط من الإيمان بالمستور يحدق بعلماء الغد ويشوش أذهانهم بل يهدد سلامة عقولهم أحياناً كما حدث لكاردن وباراسيلسوس : فالسحر والكيمياء القديمة من مصر ، والفيثاغورية والأفلاطونية الجديدة الصوفيتان من اليونان ، والقبلانية من اليهودية ، كلها حيرت مئات العقول المتلمسة طريقها . وغزت القصص الأسطورية وقصص المعجزات كتابة التاريخ الرسمى ، وروى الرحالة حكايات عن تنانين تنفث اللهب وفقراء يتسلقون الحبال . وكاد يفسر كل حدث شاذ فى الحياة العامة أو الخاصة بأنه ليس إلا تدبيراً من الله أو الشيطان لإنذار الإنسان أو تهذيبه ، لفتنته أو تدميره . وآمن الكثيرون بأن

المذنبات والنيازك إن هى إلا كرات من النار يقذف بها إله غاضب[١]، ودخلت الكتب الرخيصة كل بيت قارئ، مؤكدة إمكان تحويل المعادن الخسيسة ذهباً. وكما ذكرت رواية معاصرة. كان «كل الخياطين والحذائين والخدم والخادمات الذين يسمعون ويقرأون عن هذه الأشياء يعطون كل ما يوفرون من نقود . . . للجائلين والمحتالين» من المشتغلين بهذه الخدع[٢]. وقد ذكر مشعوذ يدعى وليم وتشرلى فى محاكمته بانجلترا عام ١٥٤٩ أن فى الجزيرة خمسمائة مشعوذ مثله[٣]. وكان الطلاب المتجولون فى ألمانيا يبيعون الأحجبة الواقية من الساحرات والشياطين. وأقبل الجند على التعاويذ والطلاسم التى تكفل تحويل رصاص البنادق عن هدفه[٤]. وكثيراً ما كان القداس نفسه يستعمل رقية لجلب المطر أو ضوء الشمس أو النصر فى الحرب. وشاعت إقامة الصلوات استدراراً للمطر، وكانت أحياناً تبدو موفقة فوق ما يطلب، فتقرع أجراس الكنائس لتنبيه السماء إلى الكف عن المطر[٥]. وفى ١٥٢٦ — ٣١ كان رهبان تروا يوقعون حرماً رسمياً على الديدان التى ابتليت بها المحاصيل، ولكنهم يضيفون إلى هذا أن الحرم لا يجدى إلا فى الأطيان التى يدفع زراعها عشورهم للكنيسة[٦].

ولعل الأحداث التى نسبت إلى الشيطان كانت أكثر من تلك التى نسبت إلى الله. يقول كاتب بروتستنتى فى عام ١٥٦٣ متفجعاً: «ندر أن تمر سنة دون أن نسمع بأبشع الأنباء من الإمارات والمدن والقرى عن الأساليب الفاجرة الرهيبة التى يحاول بها ملك الجحيم، بظهوره جسدياً أو فى شتى الصور والأشكال، أن يطفئ النور الجديد الساطع، نور الإنجيل المقدس»[٧]. وشارك لوثر عامة الناس فى نسبة معظم الأمراض إلى الأرواح الشريرة التى تدخل الجسد — وهى فكرة لا تتناقض على أية حال تناقضاً تاماً مع نظريتنا الشائعة الآن. وكان

الكثيرون يؤمنون بأن الأمراض تنجم عن العين الشريرة أو غيرها من أعمال السحر ، وأن فى الإمكان شفاءها بالجرعات السحرية — وهذا أيضاً لا يبعد كثيراً عن عاداتنا فى هذه الأيام . وكان أكثر العلاج يعطى حسب موقع الكواكب ، ومن هنا دراسة طلبة الطب للتنجيم .

وقد اقترب التنجيم من العلم لأنه افترض حكم القانون فى الكون ولأنه اعتمد إلى حد كبير على التجربة . صحيح أن الاعتقاد بأن حركات النجوم ومواقعها هى التى تقرر الأحداث البشرية لم يكن شاملا كما كان من قبل ، ومع ذلك فقد كان فى باريس ٣٠,٠٠٠ منجم فى القرن السادس عشر ،[٨] كلهم على استعداد لكشف الطالع لقاء قطعة من النقود . وراجت التقاويم الحاوية لتنبؤات المنجمين رواجاً كبيراً . وقد قلدها رابليه ساخراً فى « التنبؤات البنتاجرويلية » للسيد ألكوفريباس . ووافقه فى هذه النقطة لوثر والسوربون ، فنددا بالتنجيم فى جميع صوره . واستنكرت الكنيسة رسمياً تنبؤات المنجمين لأنها تتضمن معنى الحتمية وخضوع الكنيسة للنجوم ؛ ومع ذلك فان البابا بولس الثالث ، وهو من أعظم مفكرى ذلك العصر ، كان على حد قول سفير فى القصر البابوى ، « يأبى أن يدعو لأى اجتماع هام لمجمع الكرادلة ، وأن يخرج فى أى رحلة ، دون تخير للأيام الملائمة ورصد لحركات الأبراج » .[٩] وكان فرانسوا الأول ، وكاترين دمديتشى ، وشارل التاسع ، ويوليوس الثانى ، وليو العاشر ، وأدريان السادس — كانوا كلهم يستشيرون المنجمين .[١٠] وقد غير ملانكتون تاريخ مولد لوثر ليهيىء له طالعاً أسعد ،[١١] وتوسل إليه ألا يسافر والقمر هلال بعد .[١٢]

وما زال أحد منجمى هذه الفترة مشهوراً ، فالمنجم نوستراداموس كان بالفرنسية ميشيل دنوتردام . وقد زعم أنه طبيب وفلكى ،

وارتضته كاترين دمديتشى منجماً شبه رسمى . وبنت له مرصداً فى ليزال . وفى عام ١٥٦٤ تنبأ لشارل التاسع بأنه سيعمر إلى التسعين[١٣]، ولكنه مات بعد عشر سنوات فى الرابعة والعشرين . وقد ترك هذا المنجم عند مونه (١٥٦٦) كتاب تنبؤات صاغها بحكمة بحيث تحتمل معنيين . وبحيث يمكن أن تصدق بعض سطور الكتاب على أى حدث تقريباً فى التاريخ اللاحق .

كان مسيحيو القرن السادس عشر يؤمنون بامكان نيل قوى خارقة من الشياطين ، وكان الخوف من الشياطين يغرس فيهم منذ نعومة أظفارهم . لذلك شعروا بأنهم ملتزمون بحرق الساحرات . وأيد لوثر وكالفن البابا إنوسنت الثامن فى الحث على محاكمتهن . يقول لوثر « إنى لأرفض العطف على هؤلاء الساحرات ، وبودى لو أحرقتهن على بكرة أبيهن »[١٤] . وقد أحرق أربعة منهن فى فتنبرج فى ١٩ يونيو ١٥٤٠ . وأربعة وثلاثون فى جنيف عام ١٥٤٥[١٥] . وكان لدى دعاة الإصلاح البروتستنتى بطبيعة الحال مبرر من الكتاب المقدس لهذا الحرق . وأضاف استناد البروتستنتية إلى الكتاب إلحاحاً جديداً على اتباع ما ورد فى الآية الثالثة عشرة من الإصحاح الثانى والعشرين من سفر الخروج . وشجعت عادة إخراج الشياطين الكاثوليكية الإيمان بالسحر . لأنها افترضت أن قوة الشياطين تسكن فى البشر . وزعم لوثر أن خصمه الليبزجى يوهان إيك قد وقع ميثاقاً مع الشيطان . ورد يوهان كوخلايوس بأن لوثر نتاج جانبى لعبث الشيطان مع مارجريت لوثر[١٦] .

وكان الناس يلجأون أحياناً إلى اتهام أعدائهم بالسحر للتخلص منهم . وكان للمتهمة الخيار فى أن يوقع بها تعذيب طويل الأمد لاستخلاص اعتراف منها . أو أن تموت نتيجة للاعتراف . وقد نظم تعذيب المتهمين بالسحر فى أوربة القرن السادس عشر « بوحشية

هادئة لم تعهد . . . فى الأمم الوثنية »[١٧] . ويبدو أن كثيراً من الضحايا آمن بذنبهن — بأن لهن مع الشياطين معاملات وصلات ، جنسية أحياناً[١٨] . وكان بعض المتهمات ينتحرن ، وقد دون قاضٍ فرنسى خمس عشرة حالة انتحار فى سنة واحدة[١٩] . وكثيراً ما بز القضاة العلمانيون رجال الكنيسة فى التحمس لهذا الاضطهاد . وقد نصت قوانين هنرى الثامن (١٥٤١) على عقوبة الإعدام لأى من عدة أفعال نسبت إلى الساحرات[٢٠] . ولكن محكمة التفتيش الأسبانية دمغت قصص السحر والاعترافات بالسحر بأنها أوهام العقول الضعيفة ، ونبهت مندوبيها (١٥٣٨) إلى تجاهل طلب الجماهير لحرق الساحرات[٢١] .

كانت الأصوات التى ارتفعت لحماية الساحرات أقل من تلك التى ارتفعت للدفاع عن المهرطقين . وكان المهرطقون أنفسهم يؤمنون بالساحرات . ولكن حدث فى عام ١٥٦٣ أن أصدر طبيب فى كليفز يدعى يوهان فير بحثاً سماه « فى الخدع الشيطانية » جرؤ فى استحياء وتردد على التخفيف من هذا الجنون . ولم يتشكك الطبيب فى وجود الشياطين ، ولكنه ألمع إلى أن الساحرات هن الضحايا الأبرياء لمس الشياطين ، وأن الشيطان يخدعهن ليصدقن السخافات التى يعترفن بها : وفى رأيه أن النساء والأشخاص المصابين بعلة فى البدن أو العقل يتعرضون أكثر من غيرهم لمس الشياطين . وخلص من هذا إلى أن السحر ليس جريمة بل هو مرض ، ثم ناشد ملوك وأمراء أوربا أن يقفوا إعدام هؤلاء النسوة العاجزات . وبعد بضع سنوات عدل فير وضعه ليتلاءم مع جيله . فكتب وصفاً مفصلا للجحيم وزبانيتها ، ونظامها ، وعملهـا .

وعبرت روح العصر عن ذاتها فى قصة فاوست . وأول سماعنا بجيورج فاوست كان فى خطاب كتبه يوهان تريتيميوس عام ١٥٠٧ ،

وهو يصفه بالمشعوذ ، ثم فى ١٥١٣ إذ يذكره موتيانوس روفوس بوصف ليس بأرق من هذا . وقد كتب فيليب بيجاردى، أحد أطباء فورمز فى ١٥٣٩ يقول : « فى السنوات الأخيرة كان رجل عجيب يجوب كل إقليم وإمارة ومملكة تقريباً . . . ويفاخر ببراعته الفائقة لا فى الطب فحسب بل فى قراءة الكف ، والفراسة ،والعرافة بالتحديق فى الكرة البللورية، وما شابه ذلك من فنون . . . ولم ينكر أن اسمه فاوستوس »(٢٢)(ومعناه المحظوظ) . ويبدو أن فاوست التاريخى مات فى ١٥٣٩ — ويقول ملانكتون إن الشيطان اوى عنقه . وبعد موته بأربع سنوات ظهرت أسطورة فاوست حليف الشيطان فى كتاب « عظات مرحة » بقلم قسيس بروتستنتى فى بال يدعى يوهان جاست . وقد تضافرت فكرتان قديمتان على تحويل الدجال التاريخى إلى شخصية بارزة أو علم سواء فى الأسطورة والمسرحية والفن : أولاهما أن الإنسان قد يكتسب قدرات سحرية بتحالفه الوثيق مع الشيطان ، والأخرى أن العلم اللادينى إنما هو غرور وقح قد يودى بصاحبه إلى الجحيم. وفى فترة ظن الناس أن الأسطورة كاريكاتوركاثوليكى يسخر من لوثر ، ولكن نظرة أعمق للأسطورة رأت أنها تعبير عن استنكار الدين للعلم « الدنيوى » الذى يناقض تقبل الكتاب المقدس فى تواضع ، لأن فيه الكفاية من العلم والحقيقة . أما جوته فقد استنكر هذا الاستنكار ، وسمح لتعطش الإنسان للعلم بأن يطهر ذاته باستخدامه للصالح العام .

وتجسدت أسطورة فاوست تجسداً مرأ فى شخص هنرى كورنيليوس أجريبا : وقد ولد من أسرة طيبة بكولونيا (١٥٤٧) ثم شق طريقه إلى باريس ، وهناك التقى مصادفة بنفر من المتصوفة أو الدجاجلة الذين ادعوا الحكمة الخفية . وإذ كان متعطشاً للمعرفة والشهرة ، فقد احترف الكيمياء القديمة ، ودرس القبلانية ، واقتنع بأن هناك

عالماً من الاستنارة بعيد المنال على الإدراك أو التفكير العادى. وأرسل إلى الناشر تريتميوس مخطوطاً فى فلسفة السحر . **De occulta philosophia** مشفوعاً بالخطاب الشخصى التالى :—

« لقد أخذنى العجب الشديد ، لا بل السخط ، لأن أحداً لم ينبر إلى اليوم ليبرئ دراسة فى مثل هذا السمو والقدسية من تهمة الضلال . وهكذا استثيرت روحى . . . وشعرت أنا أيضاً بالرغبة فى التفلسف ، معتقداً أننى سأخرج كتاباً يستحق الثناء . . . إذا استطعت أن أدافع عن . . . ذلك السحر القديم ، الذى درسه جميع الحكماء ، مطهراً ومنقى من عيوب الضلال ، ومزوداً بنسقه المعقول » (٢٣).

ورد عليه تريتميوس مسدياً إليه هذا النصح الجميل . « تكلم على الأشياء العامة للعامة ، ولا تتكلم على الأشياء السامية والخفية إلا لأسمى وأخص أصحابك . إن الثور يطعم الدريس، والببغاء يطعم السكر ؛ ففسر هذا القول تفسيراً صحيحاً وإلا أصابك ما أصاب غيرك وداستك الثيران »(٢٤) .

وسواء أكان الدافع لأجريبا هو الحذر أم الافتقار إلى ناشر ، فانه أمسك عشرين عاماً عن دفع كتابه إلى المطبعة . ودعاه الإمبراطور مكسمليان للقتال فى إيطاليا ، فأبلى فى المعركة بلاء حسناً ، ولكنه انتهز الفرصة ليحاضر عن أفلاطون فى جامعة بيزا ، ولينال درجات فى القانون والطب من بافيا . ثم عين محامى مدينة فى ميتز (١٥١٨) ، ولكن سرعان ما فقد ذلك المنصب نتيجة تدخله فى محاكمة شابة متهمة بالسحر ، وقد حصل على أمر باطلاق سراحها من محكمة التفتيش، ولكنه رأى من الحكمة بعد ذلك أن يغير موطنه (١٥١٩) . وأنفق عامين طبيباً للويز أميرة سافوا ، غير أنه تورط فى خلافات كثيرة حملتها على قطع راتبه . فانتقل إلى أنتورب مع زوجته الثانية

وأبنائه ، وعيّن مؤرخاً رسمياً وأمين مكتبة لبلاط مرجريت الوصية على عرش النمسا ، ووفق فى كسب قوته بطريقة منتظمة . وعكف الآن على تأليف أهم كتبه « فى عدم يقينية العلوم وغرورها » . وقد نشره عام ١٥٣٠ ، ثم نشر كتاب « فلسفة السحر » الذى ألفه فى شبابه — ونشره الآن مما يثير العجب ، وصدره بمقدمة تنصل فيها من استمرار إيمانه بالتعاويذ والمعميات الصوفية المفصلة فيه . وتأذى الراسخون فى العلم من الكتابين جميعاً .

أما كتابه « فلسفة السحر » فقد أكد أن « روح الكون » تسود العالم وتحكمه كما أن روح الإنسان تسود الجسد وتحكمه ، وأن هذا المستودع العظيم لقوة الروح يمكن أن يستمد منه العقل إذا طهر خلقياً ودرب فى صبر على الأساليب المجوسية . ومتى اكتسب العقل هذه القوة ، استطاع أن يكشف الخصائص الخفية للأشياء والأعداد والحروف والكلمات ، وأن ينفذ إلى أسرار النجوم ، وأن يسيطر على قوى الأرض وشياطين الهواء . وراج الكتاب رواجاً كبيراً ، وأفضى تعدد طبعاته بعد موت أجريبا إلى قصص أسطورية حول تحالفه الوثيق مع شيطان كان يرافقه متنكراً فى صورة كلبه(٢٥) ، وتمكنه من الطيران فوق الكرة الأرضية والنوم فى القمر(٢٦) .

وقد خففت صروف الدهر من مزاعم أجريبا عن التجربة التى ترقى فوق الحس ، فتعلم أنه ليس فى مقدور أى سحر أو كيمياء (قديمة) إطعام أسرته أو حمايته من السجن بسبب الدين . وانقلب فى خيبة أمل غاضبة على البحث عن المعرفة ، فكتب فى عامه التاسع والثلاثين أكثر كتب القرن السادس عشر تشككاً قبل مونتينى « فى عدم يقينية العلوم وغرورها » . وقال فى تصديره للكتاب « إننى أدرك جيداً أى معركة دامية على أن أخوضها . . . أولا سيثير النحويون القلدرون

ضجة ، وكذلك . . . الشعراء المتبرمون ، والمؤرخون الكاسدة بضاعتهم ، والخطباء المتفيهقون ، والمناطقة العنيدون . . . والمنجمون المنحوسون ، والسحرة البشعون . . . والفلاسفة المجادلون» . فالمعرفة كلها غير يقينية ، والعلم كله عبث ، و «أسعد الناس من لا يعرف شيئاً» . المعرفة هى التى قضت على سعادة آدم وحواء ، واعتراف سقراط بالجهل هو الذى أكسبه القناعة والشهرة : «ليست العلوم كلها إلا قوانين الناس وآراءهم ، وهى تستوى ضرراً ونفعاً ، وأذى وفائدة ، وشراً وخيراً . هى بعيدة كل البعد عن الكمال ، مشكوك فيها ، حافلة بالخطأ والخلاف»(٢٧) .

ويبدأ أجريبا هجومه المدمر بالأبجدية ، فيأخذ عليها تناقضات النطق المحيرة . ويسخر من النحويين الذين تفوق شواذهم قواعدهم ، والذين تتغلب عليهم أصوات الشعب المرة بعد المرة . أما الشعراء فمجانين ، فما من إنسان «مالك لصوابه» يستطيع أن يكتب شعراً . والتاريخ أكثره حديث خرافة . لا «خرافة متواضع عليها» ، كما سيصفه فولتير خطأ ، بل خرافة دائمة التبديل ، يغيرها كل مؤرخ وجيل من جديد . أما الخطابة فهى إفساد البلاغة للعقول . وأما السحر فخدعة ، وينبه أجريبا قراءه الآن إلى أن كتابه فى السحر كان «زائفاً ، أو كاذباً إن شئتم» . وإذا كان قد مارس فى ماضيه التنجيم والسحر والعرافة والكيمياء القديمة وغيرها من «الجهالات» فانما كان أكثر ذلك استجابة لفرط إلحاح مشجعيه القادرين على إجزال العطاء له فى طلب المعرفة السرية . أما القبلانية فما هى إلا «عقيدة خرافية وبيلة» . وأما الفلاسفة فان اختلاف آرائهم اختلافاً يبطلها كفيل بابقائهم خارج هذه المحكمة ، فلنتركهم إذن يدحضون آراء بعضهم بعضاً . وما دامت الفلسفة تسعى إلى استنباط الفضيلة من العقل ، فسيحبطها

التناقض اللاعقلي للأخلاق في الزمان والمكان ، « إذ يحدث من جراء هذا التناقض أن ما كان في زمن ما رذيلة ، يعد في زمن آخر فضيلة ، وما هو في مكان ما فضيلة ، هو رذيلة في مكان آخر » . أما الفنون والمهن فقد أفسدها كما أفسد العلوم الكذب والغرور . وكل بلاط « مدرسة للعادات الفاسدة، ومأوى للشر الكريه» . والتجارة غدر وخيانة. والأمناء على الأموال لصوص لصقت بأيديهم الفخاخ وفي أناملهم الخطاطيف . والحرب مذبحة للكثرة تلهو بها القلة. والطب « فن من فنون القتل الخطأ » وكثيراً ما يكون « في الطبيب والدواء من الخطر ما يفوق خطر المرض نفسه » .

فما نتيجة هذا كله ؟ وإذا كان العلم هو الرأي العابر السريع الزوال ، والفلسفة هي التأمل المغرور في طبيعة اللانهائي من عقول حقيرة كالديدان ، فبمَ يحيا الإنسان؟ بكلمة الله وحدها معلنة في الكتاب المقدس . وفي هذا الرأي رنين تبشيري ، والواقع أننا نلتقي بتأكيدات عديدة لآراء أجريبا « الإنجيلية » مبعثرة وسط شكوكه . فهو يرفض سلطان البابوات الزمني ، بل سلطانهم الروحي إذا خالف الكتاب المقدس . وهو يرمي محكمة التفتيش بأنها لا تقنع الناس بالمنطق والكتب المقدسة بل « بالنار والحطب » ، وهو يود لو قل إنفاق الكنيسة على الكاتدرائيات وزاد على أعمال البر ، ولكنه يتجاوز رجال الإصلاح الديني حين يعترف بأن كتاب العهدين القديم والجديد كانوا عرضة للخطأ . فالمسيح وحده هو المصيب والصادق دائماً ، وهو وحده الذي يجب أن نثق به ، وفيه الملاذ الأخير للعقل والروح .

وقد استمتع أجريبا بما أحدثته ثورته هذه من غضب ، ولكنه دفع ثمن هذه المتعة غالياً خلال ما بقي له من عمر. طالبه شارل الخامس

بسحب نقده للكنيسة ؛ فلما رفض قطع راتبه . ولما سجن بسبب دينه ألتى التبعة على الإمبراطور لتخلفه فى دفع راتب مؤرخ بلاطه الرسمى . وأطلق سراحه بشفاعة الكردينال كامبيجيو وأسقف لييج . ولكن شارل نفاه من إمبراطوريته (١٥٣١) . وانتقل أجريبا إلى ليون حيث سجن ثانية بسبب الدين كما تقول رواية غير مؤكدة ؛ ولما أفرج عنه انتقل إلى جرينوبل . وهناك مات بالغاً من العمر ثمانية وأربعين عاماً . ولعل له بعض الفضل فى تكوين نزعة مونتينى الشكاكة . ولكن كتابه الرائج الوحيد كان فى السحر الذى تنكر له . وظلت الأفكار والعادات المتصلة بالسحر مزدهرة إلى نهاية القرن ؛

٢ — الثورة الكوبرنيقية

كان للخطوات التى خطتها العلوم الرياضية ، والتى تبدو لنا اليوم تافهة ، الفضل فى شحذ أدوات الحساب فى العصر الذى نحن بصدده . فأدخل كتاب مايكل ستايفل **Arithmetica integra** (١٥٤٤) علامات الزائد والناقص ، وكان كتاب روبرت ريكورد **Whetstone of Wit** (١٥٥٧) أول الكتب المطبوعة التى استعملت علامة « يساوى ». أما كتب الحساب التى ألفها آدم ريزى ، والتى كانت فى زمانها ذائعة الصيت ، فقد أقنعت ألمانيا بالانتقال من الحساب بالفيشات إلى الحساب التحريرى ؛ ونشر يوهان فرنر (١٥٢٢) أول بحث حديث عن الخاريط ، وواصل جيورج ريتيكوس عمل ريجيومونتانوس فى حساب المثلثات ، فضلا عن أنه ساعد كوبرنيق على نشر نظريته .

أما الفلك فقد أتيح له من الحسابات خير مما أتيح من الآلات . وعلى أساس هذه الحسابات تنبأ بعض المنجمين بطوفان ثان يقع فى

« فبراير ١٥٢٤ » حين يلتقى المشترى وزحل فى برج الحوت ، مما حمل مدينة تولوز على بناء فلك للاحتماء به ، والأسر الشديدة الحيطة على خزن الطعام فى قمم الجبال(٢٨) . وكان أكثر الآلات الفلكية من مخلفات العصر الوسيط : كرات سماوية وأرضية ، وعصا يعقوب ، واسطرلاب ، وكرة ذات حلق ، وربعيات واسطوانات ، وساعات كبيرة ، وبوصلات ، وعدة أدوات أخرى ليس من بينها التلسكوب ولا الفوتوغرافيا : بهذا الجهاز استطاع كوبرنيق أن يزلزل الدنيا .

وميكولاى كوبرنيك هذا كما تدعوه بولنده ، أو نيكلاس كوبرنيج كما تدعوه ألمانيا ، أو نيكولاوس كوبرنيكوس كما يدعوه العلماء ، ولد فى ١٤٧٣ بمدينة تورن على نهر فستولا فى بروسيا الغربية ، وكان الفرسان التيوتون قد نزلوا عنها لبولندة قبل ذلك بسبع سنوات : وأمه من أسرة بروسية غنية ، أما أبوه فقدم من كراكاو وأقام فى تورن واشتغل بتجارة النحاس : ولما مات الأب (١٤٨٣) كفل أبناءه شقيق الأم ، لوكاس فاتزيلرودى ، أسقف إيرملاند وأميرها ، وأرسل نيكولاس إلى جامعة كراكاو حين بلغ الثامنة عشرة ليعد نفسه للقسوسية . على أنه اقنع خاله بأن يسمح له بالدراسة فى إيطاليا لأنه لم يحب الفلسفة الكلامية التى حظرت الدراسات الإنسانية . فعين بنفوذ خاله كاهنا (*) فى كاتدرائية فراونبورج ببروسيا الشرقية البولندية ، ثم منحه أجازة ثلاث سنوات .

وفى جامعة بولونيا (١٤٩٧ — ١٥٠٠) درس كوبرنيق الرياضيات ، والفزياء ، والفلك . وكان من بين معلميه أستاذ اسمه دومنيكو دى

(*) « canon » من هيئة كهان الكاتدرائية ، وليس من الضرورى أن يكون قسيسا . وليس لدينا دليل واضح على أن كوبرنيق ارتقى من الرتب الدينية الصغرى إلى القسوسية قبل سنى عمره الأخيرة . وفى ١٥٢٧ زكى لشغل وظيفة الأسقفية ، مما يشير إلى أنه كان وقتها قسيسا . (٢٩)

نوفارا ، تتلمذ من قبل على ريجيو مونتانوس ، وانتقد ما فى نظرية الفلكى بطلميوس من تعقيد سخيف ، وعرف تلاميذه بقدامى الفلكيين اليونان الذين تشككوا فى ثبات الأرض ووضعها المركزى . فقد كان من رأى فيلولاوس البيثاجورى ، الذى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد ، أن الأرض وسائر الكواكب تدور حول هستيا ، وهى نار مركزية لا نراها لأن كل أجزاء الأرض المعروفة تحول بعيداً عنها . وقد روى شيشرون أن هيكيتاس السيراكيوزى ، وهو من فلكيي القرن الخامس ق.م. أيضاً ، كان يعتقد أن الشمس والقمر والنجوم ثابتة ، وأن حركتها الظاهرية مرجعها دوران الأرض حول محورها . وذكر أرخميدس وبلوتارخ أن أريستارخوس الساموسى (٣١٠ — ٢٣٠ ق.م.) رأى أن الأرض تدور حول الشمس ، وأنه اتهم بالضلال ، وأنه عدل عن رأيه . ويقول بلوتارخ أن سلوقس البابلى أحيا الفكرة فى القرن الثانى قبل الميلاد. وكان من الجائز أن ينتصر هذا القول بوضع الشمس المركزى فى العصور القديمة ، لولا أن كلوديوس بطلميوس الإسكندرى أكد من جديد، فى القرن الثانى بعد الميلاد ، نظرية وضع الأرض المركزى ، وأكدها بقوة وعلم كبيرين بحيث قلّ من جرؤ بعده على تحديها . وكان بطلميوس نفسه قد قرر أن على العلم وهو يحاول شرح الظواهر الطبيعية أن يتبنى أبسط ما يمكن من فروض متفقة مع المشاهدات المسلم بها . ومع ذلك فان بطلميوس ، كهيبارخوس من قبله ، حين أراد تفسير حركة الكواكب الظاهرية ، اضطرته نظرية وضع الأرض المركزى إلى افتراض مجموعات معقدة تعقيداً محيراً من الدوائر الصغيرة (epicycles)

والدوائر مختلفة المركز (eccentrics)(*) ؛ فهل من سبيل إلى فرض أبسط ؟ وجاء نيكولى أوريسمى (١٣٣٠ — ٨٢) ونيكولاس الكوزاوى (١٤٠١ — ٦٤) فجددا فكرة دوران الأرض ، وكتب ليوناردو دافنشى (١٤٥٢ — ١٥١٩) قبيل ذلك يقول : « إن الشمس لا تتحرك . . . وليست الأرض فى مركز دائرة الشمس ، ولا هى فى مركز الكون »[٣٠] .

وأحس كوبرنيق أن نظرية مركزية الشمس تستطيع أن « تنقذ المظاهر » — بشرحها الظواهر الطبيعية المشاهدة — بإحكام أشد من الرأى البطلمى . ففى سنة ١٥٠٠ ذهب إلى روما وقد بلغ السابعة والعشرين ، ربما لحضور اليوبيل، وألقى هناك محاضرات تقول رواية إنه شرح فيها نظرية دوران الأرض على سبيل التجربة . وكانت أجازته قد انتهت ، فعاد للقيام بواجباته الدينية كاهناً فى فراونبورج . ولكن رياضيات مركزية الأرض كانت تشوش صلواته . فطلب الإذن باستئناف دراساته فى إيطاليا ، مقترحاً الآن أن يدرس الطب والقانون الكنسى — وهو ما بدا لرؤسائه أدخل فى مهنته من الفلك . وقبل ختام القرن الخامس عشر كان قد عاد إلى إيطاليا . ونال درجة القانون فى فرارا (١٥٠٣) ، ولم ينل درجة فى الطب فيما يبدو ، ثم ارتضى الرجوع ثانية إلى فراونبورج ؛ وما لبث خاله أن عينه سكرتيراً وطبيباً (١٥٠٦) ، ربما ليتيح له متسعاً من الوقت للاستزادة من الدرس . وعاش كوبرنيق ست سنوات فى قلعة الأسقفية بهايلسبرج وهناك وضع الرياضيات الأساسية لنظريته ، ثم دونها فى مخطوط .

فلما مات الأسقف الكريم عاد كوبرنيق إلى مكانه فى فراونبورج . وواصل ممارسة الطب ، وكان يعالج الفقراء مجاناً[٣١] . وقد مثل كهنة

(*) الـ epicycle دائرة مركزها محمول على محيط دائرة أكبر منها ، أما الـ eccentric فدائرة ليس لها نفس المركز الذى لدائرة أخرى محتواة إلى حد ما فى داخلها .

الكاتدرائية فى مهام دبلوماسية وأعد لسجسموند الأول ملك بولنده خطة لإصلاح العملة البولندية.وفى مقال من مقالاته الكثيرة عن المالية ذكر هذه العبارة التى عرفت فيا بعد بقانون جريشام : العملة الرديئة . . . تطرد العملة القديمة الأحسن منها(٣٢). وهو يعنى أنه إذا أصدرت حكومة ما عملة منحطة اختزنت العملة الجيدة أو صدرت وامتنع تداولها، ودفعت الضرائب بالعملة الرديئة ، و « نقد الملك من عملته » . بيد أن كوبرنيق واصل أبحاثه الفلكية وسط هذه الشواغل المتنوعة. ولم يكن وضعه الجغرافى مواتياً لأبحاثه هذه . ففراونبورج قريبة من البلطى . يلفها الضباب أو السحاب نصف الوقت . وكان يحسد كلوديوس بطلميوس ، الذى كانت « سماؤه أبهج ، حيث لاينفث النيل الضباب الذى ينفثه نهر نافستولا . لقد حرمتنا الطبيعة تلك الراحة وذلك الهواء الهادئ»(٣٣) . لاعجب إذن أن يعبد كوبرنيق الشمس أويكاد . ولم تكن أرصاده الفلكية كثيرة ولا دقيقة ؛ ولكنها لم تكن ذات أهمية حيوية لهدفه . وكان فى أغلب أحيانه ينتفع بالبيانات الفلكية التى خلفها له بطلميوس . واعتزم أن يثبت أن كل ما وصل إليه من مشاهدات يتفق خير اتفاق مع نظرية مركزية الشمس .

وحوالى عام ١٥١٤ لخص ما انتهى إليه من استنتجات فى « تعقيب موجز » . ولم يطبع الكتاب فى حياته . ولكنه وزع بعض نسخ مخطوطة على سبيل جس النبض . وقد قرر فيه استنتاجاته ببساطة واقعية ، وكأنها لم تكن أعظم ثورة فى التاريخ المسيحى . قال :

١ — ليس هناك مركز واحد لجميع الكرات السماوية .

٢ — إن مركز الأرض ليس مركز الكون ، بل هو نقطة مركز الجاذبية والكره القمرية .

٣ — كل الكرات (الكواكب) تدور حول الشمس بوصفها نقطتها الوسطى ، وإذن فالشمس مركز الكون .

٤ — نسبة المسافة بين الأرض والشمس إلى ارتفاع قبة السماء أصغر بكثير من نسبة نصف قطر الأرض إلى بعدها عن الشمس بحيث أن المسافة من الأرض إلى الشمس لاتدرك لضآلتها بالقياس إلى ارتفاع قبة السماء ؛

٥ — إن الحركة التى تظهر فى قبة السماء لا تنشأ عن أى حركة فى قبة السماء بل عن تحرك الأرض . والأرض هى وعناصرها المحيطة بها تدور دورة كاملة حول قطبيها الثابتين فى حركة يومية ، فى حين تظل القبة الزرقاء والسماوات العليا ثابتة لا تتغير .

٦ — إن ما يبدو لنا حركات للشمس لا ينشأ عن تحركها بل عن تحرك كوكبنا الأرضى ، الذى يجعلنا ندور حول الشمس كأى كوكب آخر .

٧ — أن ما يبدو من تراجع الكواكب وحركتها المباشرة لا ينشأ عن حركتها بل عن حركة الأرض . إذن فحركة الأرض وحدها تكفى لتفسير الكثير من المفارقات البادية فى السماوات[٣٤] ؛

ولم يلق الفلكيون القلائل الذين قرأوا كتاب التعقيب كبير بال إليه. وأبدى البابا ليو العاشر اهتماما لا تحيز فيه بالنظرية حين أحيط بها عاماً وطلب إلى أحد الكرادلة أن يكتب إلى كوبرنيق طالباً إيضاح فكرته. وحظى الفرض برضى كبير فى البلاط البابوى المستنير دام بعض الوقت[٣٥]. أما لوثر فقد رفض النظرية حوالى عام ١٥٣٠ قائلا : « إن الناس يستمعون إلى منجم محدث حاول التدليل على أن الأرض تدور ، لا السماوات ولا القبة الزرقاء ، ولا الشمس ولا القمر . . . فهذا الأحمق يريد أن يقلب نظام الفلك كله رأساً على عقب . ولكن الكتاب المقدس ينبئنا بأن يشوع أمر الشمس لا الأرض أن تقف »[٣٦] . وأما كالفن فقد أجاب كوبرنيق بآية من المزمور الثالث والتسعين « أيضاً تثبتت المسكونة . لا تتزعزع » ثم تساءل : « فمن يجرؤ على ترجيح شهادة

كوبرنيق على شهادة الروح القدس؟[٣٧] » . هذه الاستجابة لكتاب « التعقيب » فتت فى عضد كوبرنيق حتى أنه بعد أن أكمل كتابه الكبير حوالى عام ١٥٣٠ قرر أن يحبسه عن النشر . وواصل القيام بواجباته فى هدوء ، وحاول الاشتغال قليلا بالسياسة ، وفى ستيناته اتهم بأن له خليلة[٣٨] .

ولكن فى عام ١٥٣٩ اندفع إلى قلب هذه الشيخوخة المستسلمة رياضى شاب متحمس يدعى جيورج ريتيكوس . كان فتى فى الخامسة والعشرين ، بروتستنتياً ، يحظى برعاية ملانكتون ، ويعمل أستاذاً فى جامعة فتنبرج . وكان قد قرأ « التعقيب » واقتنع بصدقه وتاقت نفسه لمساعدة الفلكى العجوز الذى كان يعيش بعيداً فى بلدة مغمورة على البلطى كأنها مخفر أمامى على حدود الحضارة ، منتظراً فى صبر أن يرى الآخرون معه دورة الأرض غير المرئية حول نفسها وحول الشمس . وأحب الفتى كوبرنيق حباً جماً ، ووصفه بأنه «خير الرجال وأعظمهم » وتأثر تأثراً عميقاً باخلاصه للعلم . وظل ريتيكوس عشرة أسابيع مكباً على دراسة المخطوط الكبير . ثم حث كوبرنيق على نشره ، ولكنه أبى ، غير أنه وافق على أن يقوم ريتيكوس بنشر تحليل مبسط لفصوله الأربعة الأولى . وعليه فقد أصدر العالم الشاب فى عام ١٥٤٠ ، فى مدينة دانتزج ، كتابه « أول تقرير عن كتاب دورات الأجرام السماوية» . وأرسل نسخة منه إلى ملانكتون والأمل يراوده ، ولكن اللاهوتى الكريم لم يقتنع . ولما عاد ريتيكوس إلى فتنبرج (فى مطلع ١٥٤٠) وأثنى على نظرية كوبرنيق فى فصله ، « أمر »— كما روى— أن يحاضر بدلا من ذلك عن كتاب يوهان دى ساكروبوسكو Sphaera[٣٩] . وفى ١٦ أكتوبر ١٥٤١ كتب ملانكتون إلى صديق له يقول : « يظن البعض أن من الإنجازات البارزة أن يؤلف

إنسان نظرية مجنونة كذلك الفلكى البروسى الذى يحرك الأرض ويثبت الشمس .حقاً إن واجب الحكام العقلاء أن يروضوا من جموح العقول»(٤٠).

وفى صيف عام ١٥٤٠ عاد ريتيكوس إلى فراونبورج ومكث بها حتى سبتمبر ١٥٤١ . ورجا أستاذه المرة بعد المرة أن ينشر على العالم مخطوطه . فلما انضم إليه فى هذا الرجاء رجلان بارزان من رجال الدين ، استجاب كوبرنيق ، ربما لاطمئنانه إلى أنه يضع الآن إحدى قدميه فى القبر . وأدخل على المخطوط إضافات نهائية ، ثم أذن لريتيكوس أن يبعث به إلى ناشر فى نورمبرج تكفل بجميع النفقات والتبعات (١٥٤٢) . وإذ كان ريتيكوس قد رحل عن فتنبرج ليدرس فى ليبزج فقد وكل إلى صديقه أندرياس أوزياندر ، وكان قسيساً لوثرياً فى نورمبرج ، مهمة الإشراف على طبع الكتاب .

كان أوزياندر قد كتب إلى كوبرنيق (٢٠ أكتوبر ١٥٤١) مقترحاً تقديم الرأى الجديد على أنه فرض لا حقيقة ثابتة، وذكر فى خطاب بنفس التاريخ أرسله إلى ريتيكوس أنه بهذه الطريقة «سيهدىء الأرسطاطاليون واللاهوتيون من روعهم فى غير مشقة»(٤١) . وكان كوبرنيق نفسه قد وصف نظرياته غير مرة بأنها فروض . لا فى تعقيبه الموجز فحسب ، بل فى كتابه المطول(٤٢) ، وفى الوقت ذاته زعم فى الاهداء أنه دعم آراءه «بأعظم الأدلة وضوحاً». ولا علم لنا بم ردّ على أوزياندر . على أية حال قدم أوزياندر للكتاب على النحو التالى دون أن يوقع باسمه :

«إلى القارئ ، حول فروض هذا الكتاب .

نظراً إلى ما ذاع من سمعة هذه الفروض الجديدة ، فان علماء كثيرين ستصدمهم ولا ريب نظريات هذا الكتاب صدمة قوية . . . على أن . . . فروض الأستاذ ليست بالضرورة صحيحة ، ولا حتى

مرجحة . ويكفى جداً أن تؤدى إلى حساب يتفق و المشاهدات الفلكية . . . وسيبادر الفلكى باتباع أسهل الفروض فهماً . أما الفيلسوف فربما طالب بترجيح أكثر ، ولكن لا هذا ولا ذاك سيستطيع اكتشاف أى شىء يقينى . . . ما لم يكشف له عنه بالوحى الإلهى. فلنسلم إذن بأن الفروض الجديدة التالية ستتخذ لها مكاناً إلى جوار الفروض القديمة التى ليست أكثر منها رجحاناً . وعلاوة على ذلك فان هذه الفروض جديرة بالإعجاب وسهلة الفهم حقاً ، وفضلا عن هذا فاننا واجدون هنا كنزاً من المشاهدات الدالة على علم واسع . أما فيما عدا هذا فلا يتوقعن أحد من الفلك اليقينية فيما يتصل بالفروض . فهو لا يستطيع أن يعطى هذه اليقينية. ومن يأخذ كل شىء وضع لأغراض أخرى مأخذ الحقيقة سيترك هذا العلم فى أغلب الظن أجهل مما كان حين بدأ فيه »(٤٣) .

وكثيراً ما ندد الناس بهذه المقدمة باعتبارها عنصراً مقحماً وقحاً(٤٤). ولعل كوبرنيق قد استنكرها ، ذلك أن هذا الشيخ بعد أن عايش نظريته ثلاثين عاماً أصبح يشعر بأنها بضعة من حياته ودمه ، وبأنها وصف لحقائق الكون الفعلية . ولكن مقدمة أوزياندر كان فيها حصافة وإنصاف ، فقد خففت من المقاومة الطبيعية التى تقاوم بها عقول كثيرة فكرة مقلقة وثورية . وهى ما زالت مذكراً طيباً لنا بأن أوصافنا للكون إن هى إلا آراء عرضة للخطأ صادرة من قطرات ماء عن البحر ، وأنها تحتمل هى الأخرى الرفض أو التصحيح .

وظهر الكتاب أخيراً فى ربيع ١٥٤٣ يحمل هذا العنوان : « الجزء الأول من كتاب نيكولاى كوبرنيكى عن الدورات » . وعرف الكتاب بعد ذلك بهذا الاسم : « فى دورات الأجرام السماوية » ، ووصلت إحدى نسخ الكتاب الأولى إلى يد كوبرنيق

فى ٢٤ مايو ١٥٤٣ . وكان على فراش الموت ، فقرأ صفحة العنوان، وابتسم ، ثم مات فى نفس الساعة .

وكان إهداء الكتاب إلى البابا بولس الثالث فى ذاته جهداً لنزع السلاح من يد المقاومة لنظرية تناقض حرفية الكتاب المقدس ، كما أيقن كوبرنيق، مناقضة صريحة . وقد بدأ بتأكيدات ورعة فقال : « ما زلت أومن أن علينا أن نتجنب النظريات البعيدة كل البعد عن سلامة العقيدة » . وذكر أنه تردد طويلا فى نشر الكتاب متسائلا « أليس الأفضل أن أحذو حذو الفيثاغوريين . . . الذين درجوا على توصيل أسرار الفلسفة بالفم لا بالكتابة ، ولأقربائهم وأصدقائهم دون سواهم » . ولكن رجلين من رجال الكنيسة المثقفين وهما نيقولا شونبرج كردينال كبوا ، وتيدمان جيزى أسقف كولم — كانا قد ألحا فى توصيته بنشر كشوفه . (وقد وجد كوبرنيق أن من الحكمة عدم ذكر اللوثرى ريتيكوس) . ثم اعترف بفضل الفلكيين اليونان عليه ، ولكنه فى زلة قلم أغفل اسم أرسترخوس . وقال إنه يعتقد أن الفلكيين فى حاجة إلى نظرية أفضل من النظرية البطلمية ، لأنهم يجدون الآن صعوبات كثيرة فى الرأى القائل بمركزية الأرض . ولا يستطيعون على هذا الأساس أن يحسبوا طول السنة حساباً دقيقاً . ثم إنه لجأ إلى البابا بوصفه رجلا « عظيماً . . . فى محبته للعلوم جميعها حتى الرياضيات » : لكى يحميه من « لدغ المفترين » الذين سيدعون لأنفسهم الحق فى الحكم على هذه الأشياء . أو « سيهاجمون نظريتى محتجين بفقرة من الكتاب المقدس »[٤٥] ، وذلك دون إلمام كاف بالرياضيات .

ويبدأ العرض بهذه المسلمات ، أولا أن الكون كروى ، ثانياً ، أن الأرض كروية — لأن المادة إذا تركت وشأنها تنجذب نحو مركز :

ومن ثم تكييف نفسها فى شكل كروى . ثالثاً ، أن حركات الأجرام السماوية حركات دائرية متماثلة ، أو مكونة من هذه الحركات — لأن الدائرة هى « أكثر الأشكال كمالا » ولأن « العقل يقشعر رعباً » من الفرض القائل بأن الحركات السماوية ليست متماثلة . (والصواب فى التفكير محال ما لم يكن هناك صواب فى سلوك موضوعات التفكير) .

ويلاحظ كوبرنيق نسبية الحركة : « كل تغيير يرى فى الوضع مرجعه الحركة سواء حركة المشاهد أو حركة الشيء الذى يشاهده ، أو مرجعه التغييرات الطارئة على وضع الاثنين بشرط أن يكونا مختلفين . لأنه إذا حركت الأشياء بنسبة متساوية إلى نفس الأشياء ، لم تلحظ أية حركة بين الشيء المرئى وبين المشاهد »[٤٦] . إذن فدوران الكواكب اليومى الظاهرى حول الأرض يمكن تعليله بدوران الأرض يومياً حول محورها ، وحركة الشمس السنوية الظاهرية حول الأرض يمكن تعليلها إذا افترضنا أن الأرض تدور سنوياً حول الشمس .

ويتوقع كوبرنيق الاعتراضات على نظريته . فقد زعم بطلميوس أن السحب والأجسام الموجودة على سطح أرض دائرة تتطاير بعيداً عنها وتُترك وراءها . ويرد كوبرنيق بأن هذا الاعتراض أحرى أن يعترض به على دوران الكواكب الكبرى حول الأرض ، لأن مسافاتها الشاسعة تعنى أن لها أجراماً هائلة وسرعات عظيمة . كذلك زعم بطلميوس أن الجسم المدفوع مباشرة إلى أعلى من أرض دائرة لا يعود فى سقوطه إلى نقطته الأصلية . ويرد كوبرنيق بأن هذه الأجسام ، شأنها شأن السحب ، هى « أجزاء من الأرض » وأنها تحمل معها فى سيرها . أما الاعتراض بأن دوران الأرض سنوياً حول الشمس لو صح « لتجلى فى تحرك النجوم « الثابتة » (وهى النجوم الواقعة وراء مجموعتنا الكوكبية) كما تشاهد فى طرفين

متقابلين لمدار الأرض ، فيرد عليه كوبرنيق بأن هذا التحرك موجود فعلا ، ولكن البعد الشاسع للنجوم (« القبة السماوية ») لا يتيح لنا رؤيته . (ويمكن اليوم رصد درجة معتدلة من هذه الحركة) .

ثم يجمل نظريته فى فقرة جامعة مانعة :

« أولا وقبل كل شيء هناك مجال النجوم الثابتة ، الذى يحتوى ذاته وكل الأشياء ، وهو لهذا السبب عينه ثابت : : : أما الأجسام المتحركة (الكواكب) فأولها زحل الذى يتم دورته فى ثلاثين سنة . ثم يأتى المشترى الذى يتمها فى اثنتى عشرة سنة ، ثم المريخ الذى يدور كل عامين . ويلى هذا فى الترتيب دورة رابعة تقع كل سنة . . . وهى تحتوى الأرض ومعها مدار القمر كدائرة صغيرة يدور مركزها على محيط دائرة أكبر . أما الكوكب الخامس فهو الزهرة التى تدور حول الشمس فى تسعة شهور . ثم يشغل عطارد المكان السادس ، وهو يدور دورته فى ثمانين يوماً . وفى وسط هذه الكواكب جميعها تقوم الشمس . . . ولم يخطىء البعض إذ وصفوها بمصباح الكون ، ووصفها غيرهم بعقل الكون ، وغيرهم بسيده الحاكم . . . والقول صواب لأن الشمس وهى متربعة على عرشها الملكى تحكم أسرة النجوم المحيطة بها . . . . وهكذا نجد بفضل هذا التنسيق تماثلا عجيباً فى الكون ، وعلاقة انسجام محددة فى حركة الأجرام السماوية وضخامتها وهى علاقة من نوع يستحيل تحقيقه بأى طريقة أخرى(*) »(٤٧) .

ويمكن القول بوجه عام إن أى تقدم يحرزه الإنسان فى نظرية ما يحمل معه الكثير من مخلفات النظرية القديمة المتروكة ، فقد أقام

(*) يفترض الفلك الحديث وجود تسعة كواكب وفترات دوران : عطارد (٨٨ يوما) ، والزهرة (٢٢٥) ، والأرض (٣٦٥ — ٦٦) ، والمريخ (٦٨٧) ، والمشترى (١١,٨٦ سنة) ، وزحل (٢٦,٤٦ سنة) وأورانوس (٨٤,٠٢ سنة) ، ونبتون (١٦٤,٧٩ سنة) ، وبلوتو (٢٤٨ سنة) .

كوبرنيق تصوراته على مشاهدات موروثة من بطلميوس ، واحتفظ بالكثير من تفاصيل الجهاز السماوى البطلمى ، كالدوائر ، والدوائر الصغيرة التى تدور مراكزها على محيط دائرة أكبر ، والدوائر المنحرفة عن المسار الدائرى ، أما رفض هذه التفاصيل فسوف يتم على يد كبلر . وكان أغرب الأشياء حساب كوبرنيق أن الشمس ليست بالضبط فى وسط مدار الأرض . فقد حسب أن مركز الكون « يبعد عن الشمس بمقدار ثلاثة أمثال قطر الشمس » ، وأن مراكز أفلاك السيارات هى كذلك خارج الشمس ، وأنها ليست واحدة على الإطلاق . وقد نقل كوبرنيق من الأرض إلى الشمس فكرتين يرفضهما العلم اليوم ، أولاهما : أن الشمس هى المركز التقريبى للكون ، والأخرى أنها ساكنة . وحسب أن الأرض ليست لها دورة حول محورها وأخرى حول فلكها فحسب ، بل حركة ثالثة ظنها ضرورية لتفسير ميل محور الأرض ومبادرة الاعتداليين .

وعلى ذلك يجب ألا نبتسم — ونحن ندرك الموقف بعد هذه القرون— سخرية من أولئك الذين تأخروا طويلا فى اعتناق نظرية كوبرنيق . ذلك أنه لم يطلب إليهم مجرد تصور الأرض وهى تدور وتندفع فى الفضاء بسرعة رهيبة على عكس ما تشهد به حواسهم شهادة مباشرة ، بل أكثر من ذلك أن يسلموا بعمليات حسابية تتوه فيها العقول ولا تقل فى تحييرها للأفهام عن حسابات بطلميوس إلا بقدر طفيف . ولم تبد النظرية الجديدة متفوقة على القديمة بصورة واضحة إلا بعد أن صاغ كبلر وجاليليو ونيوتن جهازها ليحقق بساطة ودقة أعظم ، وحتى بعد هذا يجب أن نقول عن الشمس تلك الكلمات التى ربما قالها جاليليو عن الأرض « ومع ذلك فهى تدور » . هذا وقد رفض تيكو براهى فرض مركزية الشمس بحجة أن كوبرنيق لم يرد على اعتراضات بطلميوس

رداً مقنعاً : وأعجب من هذا الرفض تلك السرعة النسبية التى قبل بها النظرية الجديدة فلكيون كريتيكوس ، وأوزياندر ، وجون فيلد ، وتومس ديجيز ، وإرزمس رينهولد — الذى بنى «جداوله البروتنية» (١٥٥١) للحركات السماوية على نظرية كوبرنيق إلى حد كبير . ولم تبد الكنيسة الكاثوليكية اعتراضاً على النظرية الجديدة ما دامت تعرض ذاتها على أنها فرض . ولكن محكمة التفتيش لم تعرف رحمة فى العقاب حين اعتبر جوردانو برونو الفرض حقيقة مؤكدة ، وبينت فى وضوح نتائجها على الدين . وفى ١٦١٦ حرمت «لجنة الفهرس» قراءة كتاب «الدورات» إلى أن يصحح ، وفى ١٦٢٠ أذن للكاثوليك أن يقرءوا طبعات حذفت منها تسع عبارات تمثل النظرية على أنها حقيقة . ثم اختفى الكتاب من فهرس١٧٥٨ المراجع ، ولكن الحظرلم يلغ صراحة إلا فى ١٨٢٨ .

كانت نظرية مركزية الأرض تلائم بصورة معقولة لاهوتاً يفرض أن كل الأشياء خلقت لمنفعة البشر .أما الآن فقد شعر هؤلاء البشر أنهم يترنحون فوق كوكب صغير اختزل تاريخه إلى «مجرد فقرة محلية فى أخبار الكون» .(٤٨) فماذا يمكن أن تعنيه كلمة «السماء» إذا كانت كلمتا «فوق» و «تحت» قد فقدتا كل معنى لها . وإذا كانت إحداهما تنقلب فتصبح الأخرى فى نصف يوم؟ كتب جيمس وولف إلى تيكو براهى فى ١٥٧٥ يقول : «ما من هجوم على المسيحية أشد خطراً من القول بضخامة السماوات وعمقها اللانهائيين» — مع أن كوبرنيق لم يقل بلانهائية الكون . فلا بد أن الناس حين توقفوا للتأمل فى المعانى التى تتضمنها النظرية الجديدة راحوا يتساءلون عن صواب القول بأن خالق هذا الكون الهائل المنظم قد أرسل إبنه ليموت على هذا الكوكب المتوسط الحجم . وبدا أن كل شعر المسيحية الجميل ،

« يتصاعد دخاناً » (كما قال جوته فيما بعد) تحت لمسة هذا الكاهن البولندى . وأجبر الفلك القائل بمركزية الشمس الناس على أن يتصوروا الخالق من جديد فى صورة أقل ضيقاً فى الأفق وأقل تجسداً . وواجه اللاهوت أقوى تحد فى تاريخ الدين . ومن ثم كانت الثورة الكوبرنيقية أشد عمقاً من حركة الإصلاح البروتستنتى ، فقد جعلت الفروق بين العقائد الكاثوليكية والبروتستنتية تبدو تافهة ، وتخطت حركة الإصلاح البروتستنتى إلى حركة التنوير ، من ارزمس ولوثر إلى فولتير ، وحتى إلى ما بعد فولتير ، إلى لاأدريه القرن التاسع عشر المتشائمة. هذا القرن الذى سيضيف الكارثة الداروينية إلى الكارثة الكوبرنيقية . ولم يكن هناك سوى واق واحد من أمثال هؤلاء الرجال ، وهو أن قلة قليلة فقط فى أى جيل هى التى ستدرك ما ينطوى عليه فكرهم من معان . فسوف « تشرق » الشمس و« تغرب » حين يكون كوبرنيق قد طوى فى زوايا النسيان .

فى عام ١٥٨١ أقام الأسقف كرومر نصباً تذكارياً لكوبرنيق على السور الداخلى لكاتدرائية فراونبورج بجوار قبر الكاهن . وفى عام ١٧٤٦ أزيل النصب ليفسح مكاناً لتمثال للأسقف زمبك. فمن هو هذا الأسقف ؟ من يدرى ؟ .

٣ – ماجلان وكشف الأرض

تقدم ارتياد الأرض بخطى أسرع من رسم خريطة السماء ، وكان لهذا التقدم تقريباً نفس التأثيرات المزعجة على الدين والفلسفة. أما الجيولوجيا فكانت أقل من غيرها تقدماً . لأن نظرية الخلق كما وردت فى الكتاب المقدس أصبحت فى مأمن من الشك بفضل الإيمان بمصدرها الإلهى . قال المصلح الإيطالى – الإنجليزى بيتر مارتر فرميلى « لو شاع

بين الناس رأى خاطىء عن الخليقة كما وردت فى سفر التكوين لبطلت كل وعود المسيح وفقد ديننا حياته كلها » .(٤٩) وأهم كتب الجيولوجيا التى صدرت فى النصف الأول من القرن السادس عشر كتاب ألفه جورج أجريكولا (هذا فضلا عن آراء ليوناردو المبعثرة هنا وهناك) . تأمل هذه الفقرة من كتابه De ortu et causis subterraneorum (بال ١٥٤٦) عن منشأ الجبال : « تتكون التلال والجبال بفعل قوتين ، إحداهما قوة المياه ، والأخرى قوة الرياح ، ويجب أن نضيف إليهما النار التى فى باطن الأرض . . . ذلك أن السيول تجرف أولا التربة اللينة ، ثم تحمل التربة الأكثر صلابة ، ثم تدحرج الصخور ، وهكذا تحفر السهول أو السفوح فى بضع سنوات و . . . ونتيجة لهذا الحفر فى عصور كثيرة يتكون مرتفع ضخم . . . هو الأنهار . . . والأنهار تحدث نفس النتيجة باندفاعها وجرفها ، ولذا كثيراً ما ترى جارية بين جبال شامخة كونتها هذه الأنهار ، أو بقرب الساحل الذى يحفها . . . وتكون الرياح تلالا وجبالا بطريقتين . . . إما بتحريك الرمال واثارتها بعنف ، وإما بكفاحها للخروج بقوة . . . . بعد أن تكون قد دفعت الى شقوق الأرض الخفية »(٥٠) .

أما كتاب أجريكولا De natura fossilium (١٥٤٦) فأول بحث منسق عن علم المعادن ، ويحتوى مقاله De metallica على أول بحث نسقى عن علم الطبقات ، وفيه كما رأينا أول تعليل للرواسب المعدنية .

أما الأثنوغرافيا (علم نشوء الأعراق) فقد أتحفتنا بكتابين كبيرين : أولهما Cosmographia universalis (١٥٤٤) ، لسباستيان مونستر ، وثانيهما Descriptio Africa (١٥٥٠) لليو الأفريقى Leo Africanus . كان الحسن بن محمد الوزان مسلماً من غرناطة ، وقد تنقل فى أرجاء أفريقيا ووصل جنوباً إلى السودان

يحدوه ولع شديد بالأسفار كولع ابن بطوطة. وقد أسره القراصنة المسيحيون وبعثوا به إلى روما هدية للبابا ليو العاشر الذى أعتقه ورتب له معاشاً بعد أن أعجب بما حصله من علم وثقافة. واستجاب لهذا العطف باعتناقه المسيحية واتخاذ « ليو » اسماً له . ثم أنفق الثلاثين السنة التالية فى تأليف كتابه هذا بالعربية أولا ثم بالإيطالية . وقبل الفراغ من طبعه الكتاب عاد إلى تونس ، وهناك مات عام ١٥٥٢ على دين آبائه فيما يبدو .(٥١)

وكان العصر مثيراً بالنسبة للجغرافيا. فقد جاءت الأنباء والتقارير تترى ، من المبشرين والفاتحين الأسبان والملاحين والرحالة ، مضيفة إضافات هائلة إلى معرفة أوربا بالكرة الأرضية. وكان الأسبان الذين فتحوا المكسيك وكاليفورنيا وأمريكا الوسطى وبيرو فى هذه الفترة مغامرين وطلاب ثراء أولا ، سئموا الفقر والحياة الرتيبة فى وطنهم ، واقتحموا المخاطر بلذة فى تلك الأقطار النائية الغريبة . وفى غمرة الشدائد التى عانوها فى مغامراتهم المستهترة نسوا قيود الحضارة ، واعتنقوا بصراحة أخلاقيات المدافع المتفوقة ، واقترفوا عملا من أعمال السطو والغدر والقتل لا يغتفر ، إلا أن يرى طرف ذو مصلحة أن نتيجته النهائية كانت كسباً للخضارة . ومع ذلك فما من شك فى أن المغلوبين كانوا فى ذلك الوقت أعظم تحضراً من الغالبين الفعليين . وحسبك أن تتأمل حضارة المايا التى وجدها هرنانديز القرطبى فى يوكاتان (١٥١٧) ، وإمبراطورية المونتزوميين الأزتيكية التى غزاها هرناندو كورتيز (١٥٢١) ، وحضارة الإنكا الاشتراكية التى دمرت إبان فتح فرانشسكو بيزارو لبيرو (١٥٢٦ — ٣٢) . ولا ندرى أى صور نبيلة أو خسيسة كانت هذه الحضارات متطورة إليها لو أتيح لها سلاح تدافع به عن نفسها .

ومضى الكشف الجغرافى المثير قدماً : فارتاد سبستيان كابوت تحت الراية الأسبانية الأرجنتين وأورجواى وبراجواى : واخترق دى سوتو فلوريدا وولايات الخليج حتى بلغ أوكلاهوما . واكتشف بدرو دى الفارادو إمبراطورية تكساس ، واخترق فرانشسكو دى كورونادو أريزونا وأوكلاهوما حتى بلغ كانزاس . وبدأت مناجم بوتوزى فى بوليفيا تبعث بفضتها إلى أسبانيا (١٥٤٥) ، وكانت خريطة العالم الجديد ترسم سنة بعد سنة بالذهب والفضة والدم . وتخلف الإنجليز والفرنسيون فى هذه القارة الكبرى لأن أرجاء أمريكا الشمالية التى تركها لهم الأسبان والبرتغال كانت فقيرة فى معادنها النفيسة ، وعرة فى غاباتها . وأبحر جون رت بحذاء ساحل نيوفوندلند ومين . وبعث فرانسوا الأول بجوفانى دا فيرانانو ليبحث عن مسلك شمالى غربى إلى آسيا ، فرسا على كارولينا الشمالية ، ودخل ميناء نيويورك (التى تذكره بتمثال عند بطاريتها) ، ودار حول رأس كود حتى وصل مين . وأبحر جاك كارتييه وهو يرفع علم فرنسا مصعداً فى السانت لورنس حتى بلغ مونتريال، مدعماً بذلك دعوى فرنسا بحقها فى امتلاك كندا .

على أن أعظم المغامرات إثارة فى هذا الجيل الثانى من أجيال الارتياد فيما وراء المحيط هى الدوران حول الكرة الأرضية . كان فرناو دى ماجالايس برتغالياً قد شارك بنشاط فى كثير من الرحلات والغزوات البرتغالية . ولكنه انتقل إلى خدمة أسبانيا بعد أن غضبت عليه حكومته . وفى عام ١٥١٨ أقنع شارل الأول (الخامس) بأن يمول بعثة تبحث عن ممر جنوبى غربى إلى آسيا . ولم يكن الملك الشاب قد أصاب يومها ما أصاب من ثراء بعد هذا . لذلك كانت السفن الخمس التى أعطاها لماجلان عتيقه بالية حتى أن أحد القباطنة

حكم بعدم صلاحيتها للملاحة ؛ وكانت حمولة أكبرها ١٢٠ طناً ، وأصغرها ٧٥ طناً : وعاف الملاحون الخبيرون بالبحر التطوع بين بحارة هذه المراكب ، واقتضى الأمر اختيار معظم بحارتها من بين حثالة أهل الساحل : وفى ٢٠ سبتمبر ١٥١٩ أقلع الأسطول من نهر الوادى الكبير عند سان لوكار . وكان يتمتع بميزة الإبحار من الصيف فى الأطلنطى الشمالى إلى الصيف فى الأطلنطى الجنوبى ، ولكن الشتاء أدركه فى مارس ١٥٢٠ ، فألقت المراكب مراسيها ، وأنفق الملاحون خمسة شهور مملة فى بتاجونيا . أما الوطنيون العمالقة الذين زاد طول الواحد منهم فى المتوسط على ستة أقدام فقد أبدوا نحو الأسبان القصار القامة بالقياس لهم وداً فيه تلطف وتنازل ، ولكن كثرة المشاق واستمرارها حملا بحارة ثلاث من السفن الخمس على التمرد ، وأكره ماجلان على مقاتلة رجاله ليجبرهم على المضى فى هذه المغامرة . على أن سفينة منها تسللت عائدة إلى أسبانيا ، وتحطمت أخرى على حاجز صخرى . وفى أغسطس ١٥٢٠ استؤنفت الرحلة ، وكان ماجلان يستطلع كل خليج يمر به عسى أن يكون مصباً لطريق مائى وراء المحيط . وفى ٢٨ نوفمبر تكلل البحث بالنجاح ، ودخل الأسطول الذى تناقص عدد سفنه المضايق التى تحمل اسم ماجلان . وهكذا استغرقت رحلة ٣٢٠ ميلا من البحر إلى البحر ثلاثة وثمانين يوماً .

ثم بدأ الأسطول عبوراً كئيباً موحشاً للمحيط الهادى الذى لم تبد له نهاية . ولم يقع نظر الملاحين خلال ثمانية وتسعين يوماً إلا على جزيرتين صغيرتين . وتناقصت المؤن بشكل خطر ، وأصيب الملاحون بالإسكربوط . وفى ٦ مارس ١٥٢١ مست السفن ساحل جوام : ولكن عداء الوطنيين حمل ماجلان ورجاله على مواصلة الإبحار . وفى ٦ أبريل وصلوا إلى الفلبين ، وفى اليوم السابع رسوا على جزيرة

كيبو . ورغبة فى ضمان الحصول على المؤن من الجزيرة اتفق ماجلان مع الحاكم المحلى على أن يساعده فى حربه مع أعدائه المجاورين . فشارك فى حملة على جزيرة ماكتان ، وقتل فى المعركة التى دارت هناك فى ٢٧ أبريل ١٥٢١ . وهكذا لم يدر ماجلان حول الأرض ، ولكنه كان أول من حقق حلم كولومبس فى الوصول إلى آسيا بالإبحار غرباً(٥٢) .

كان عدد الملاحين قد هبط الآن بعد موت من مات منهم بحيث لم يكف إلا لتزويد سفينتين فقط بالرجال . أما إحدى السفينتين فقد قفلت عائدة عبر المحيط الهادى ، ربما سعياً وراء الذهب الأمريكى . ولم يبق من سفن الأسطول غير «فكتوريا» . واضطلع بقيادتها جوان سبستيان ديلكانو ، فقاد السفينة الصغيرة التى لم تزد حمولتها على خمسة وثمانين طناً مخترقاً جزر البهار ، عابراً المحيط الهندى ، دائراً حول رأس الرجاء الصالح ، مصعداً فى ساحل أفريقيا الغربى . وأرسى الملاحون السفينة تجاه إحدى جزر الرأس الأخضر وهم يتحرقون شوقاً للزاد والمئونة ، ولكن البرتغاليين هاجموهم ، وأودع السجن نصفهم . وأفلح الباقون وعددهم اثنان وعشرون فى الهروب . وفى ٨ سبتمبر ١٥٢٢ بلغت السفينة فكتوريا إشبيلية وهى لا تحمل سوى ثمانية عشر رجلا (والباقون من أهل الملايو) هم كل من بقى من ٢٨٠ رجلا أقلعوا من أسبانيا قبل ثلاث سنوات تقريباً . وسجلت يومية السفينة هذا التاريخ باعتباره ٧ سبتمبر . وعلل الكاردينال جاسبارو كونتارينى الفرق باتجاه الرحلة الغربى . لقد كانت المغامرة من أجرأ المغامرات فى التاريخ ، ومن أحفلها بالثمار للجغرافيا .

وبقى على الجغرافيين واجب اللحاق بالرواد . وقد يسر لهم جياميانستا راموزيو — وهو هاكلويت الإيطالى — هذه المهمة بجمعه

خلال ثلاثين عاماً القصص والأخبار التى جلبها الرحالة وغيرهم من المسافرين ، وقد ترجمها وعلق عليها ، ثم نشرت فى ثلاثة مجلدات (١٥٥٠ — ٥٩) بعد موته بثلاثة عشر عاماً . ويظهر التقدم الذى حققه الجغرافيون فى عشر سنوات إذا قارنا بين الكرة الأرضية كما رسمت عام ١٥٢٠ ، المحفوظة بالمتحف القومى الألمانى فى نورمبرج ، والتى تبدو فيها جزر الهند الغربية دون أثر لقارة أمريكية ، ثم تقفز هذه الجزر فوق محيط ضيق إلى آسيا ، وبين ثلاث خرائط رسمها (١٥٢٧ — ٢٩) ديوجو ريبيرو ، وقد ظهرت فيها شواطئ أوربا وأفريقيا وجنوب آسيا مرسومة بدقة عظيمة ، والساحل الشرقى للأمريكتين من نيوفوندلند حتى مضايق ماجلان ، والساحل الغربى من بيرو إلى المكسيك ، ولعل « خريطة راموزيو » (البندقية ١٥٣٤) البديعة للأمريكتين ، المحفوظة بمكتبة نيويورك العامة ، منقولة عن ريبيرو هذا . وفى نفس « الكلية الأم » خريطة قديمة خاطئة رسمها جرهادوس مركاتور (١٥٣٨) أطلق فيها على أمريكا الشمالية والجنوبية اسمهما هذا لأول مرة . (أما « خريطة نركاتور البارزة » فترجع إلى عام ١٥٦٩) . وأضاف بيتر أبيان (١٥٢٤) إلى علم الجغرافيا بمحاولته إخضاع المسافات الجغرافية لمقاييس مضبوطة .

وقد ظهرت آثار هذه الارتيادات فى كل منحى من مناحى الحياة الأوربية . فرحلات ١٤٢٠ — ١٥٦٠ زادت وجه الكرة المعروفة للبشر أربعة أضعاف تقريباً . وكان للجديد من الحيوان والنبات ، والأحجار الكريمة والمعادن ، والأطعمة والعقاقير ، الفضل فى إثراء نبات أوربا وحيوانها وجيولوجيتها وموائدها وعقاقيرها . وتساءل الناس كيف وجد ممثلو الأنواع الجديدة كلها مكاناً فى فلك

نوح : وتغير الأدب ، فأخلت قصص الفروسية القديمة مكانها لقصص الأسفار أو المغامرات فى الأقطار النائية ، وحل البحث عن الذهب محل البحث عن الكأس المقدسة فى رمزية لاشعورية للمزاج الجديد . وفتحت أعظم ثورة تجارية فى التاريخ (قبل أن تبلغ الطائرة مرحلة النضج) المحيط الأطلنطى وغيره من المحيطات للتجارة الأوروبية ، وخلفت البحر المتوسط فى حالة ركود تجارى ، ومن ثم ركود ثقافى تبعه بعد قليل . وانتقلت النهضة من إيطاليا إلى دول الأطلنطى . وراحت أوربا ، التى كانت تملك سفناً ومدافع أفضل وسكاناً أصلب وأشد رغبة فى التملك والمغامرة ، راحت تفتح — وأحياناً تستعمر — البلد تلو البلد من الأقطار المكتشفة . وأكره السكان الوطنيون على العمل المتصل الشاق الذى لم يتعودوه لإنتاج السلع لأوربا ، وأصبح الرق نظاماً راسخاً .وغدت أصغر القارات تقريباً أعظمها ثراء . وبدأت حركة صبغ الكرة الأرضية بالطابع الأوربى ، وهى الحركة التى قلبت قلباً حاداً فى عصرنا .ووجد عقل الرجل الغربى حافزاً قوياً فى بعد الشقة بينه وبين الأقطار الجديدة وفى ضخامتها وتنوعها . وربما كان لبعض تشكك مونتينى جذور فى سحر الدخيل المجلوب من العادات والعقائد. واتخذت العوائد والأخلاق نسبية جغرافية أوهنت القديم من العقائد القطعية واليقينية . وكان لزاماً أن ينظر إلى المسيحية ذاتها فى منظور جديد بوصفها دين قارة صغيرة تقوم وسط عالم من العقائد المنافسة ؛ وكما أن المذهب الإنسانى كشف عالماً قبل المسيح ، وكما أن كوبرنيق أماط اللثام عن ضآلة الأرض الفلكية ، كذلك كشف ارتياد الأراضى الجديدة وما تلاه من تجارة عن أقطار شاسعة تقوم وراء المسيحية دون اكتراث لوجودها .وتزعزعت مكانة أرسطو وغيره من اليونان حين ظهرت قلة ما عرفوا عن هذا الكوكب . واضمحل

إعجاب النهضة الأعمى باليونان ، واستعد الإنسان ، التياه بكشوفه الجديدة تيه أهل النهضة ، لنسيان حجمه الفلكى المتناقص أمام اتساع معارفه وتجارته . وظهر العلم والفلسفة العصريان ، واضطلعا بمهمة خطيرة ، مهمة تصور العالم من جديد .

٤ — بعث علم الأحيـــاء

بعثت الآن من جديد علوم الأحياء التى لم تكد تحرز أى تقدم منذ عصر الإغريق . فكافح علم النبات ليتحرر من قبضة الصيدلة ويقف على قدميه ، ونجح فى هذا الكفاح ، ولكن لم يكن بد من أن يظل المهيمنون عليه من رجال الطب . وبدأ الحركة أوتو برونفيلز ، الطبيب المدنى فى برن ، بكتاب « صور حية للنبات » (١٥٣٠ — ٣٦) ، وقد سرق معظم نصه من ثيوفراستوس ، وديوسقوريدس ، وغيرهما من السلف ، ولكنه أضاف أيضاً وصفاً للنباتات الألمانية الموطن ، وكانت رسومه المحفورة على الخشب وعددها ١٣٥ نماذج فى الأمانة . وأنشأ يوريكيوس كوردوس ، طبيب مدينة بريمن ، أول حديقة نباتية (١٥٣٠) شمال جبال الألب ، وحاول كتابة خلاصة مستقلة لعلم النبات الوليد فى كتابه **Botanilogicon** (١٥٣٤) ثم عاد إلى مجال الطب فى كتابه **Liber de urinis** . وقام ابنه فالريوس كوردوس بجولات مستهترة فى سبيل درس النبات ، وقد لقى حتفه أثناءها وهو فى التاسعة والعشرين (١٥٤٤) ، ولكنه ترك من بعده للنشر كتابه « تاريخ النبات » ، وفيه وصف حى دقيق لخمسمائة نوع من النبات . وقد بدأ ليونارد فوكس ، أستاذ الطب بتوبنجن ، بدراسة النبات سبيلا إلى الاقرباذين ، ثم انتهى بدراسته لذاته ولما فيه من متعة . وكان كتابه **Historia stirpium**

(١٥٤٢) مثالا للتفانى فى العلم ، وقد حوى ٣٤٣ فصلا حللت ٣٤٣ جنساً وشرحتها فى ٥١٥ رسماً محفوراً على الخشب يشغل كل منها صفحة كبيرة كاملة . وأعد للطبع كتاباً أشمل حتى من سابقه ، وبه ١,٥٠٠ لوحة ، ولكن أحداً من أصحاب المطابع لم يقبل أن يتكفل بنفقات نشره . أما أثره الحى الباقى فهو جنس « الفوشيا » .

وربما كانت أهم فكرة مفردة أُسهم بها فى علم الأحياء فى هذه الفترة هى شرح بيير بيلون فى كتابه Histoire .... des oyseaux (١٥٥٥) لذلك التقابل المدهش بين عظام الإنسان والطير . ولكن أعظم أبطال « العلم الطبيعى » فى هذا العصر هو كونراد جسنر ، الذى شمل إنتاجه وعلمه ميداناً بلغ من الاتساع مبلغاً حمل كوفييه على أن يطلق عليه اسم بلينى ألمانيا ، بل كان يحق له أن يسميه ارسطو ألمانيا أيضاً . وقد ولد فى أسرة فقيرة بزيورخ (١٥١٦) ، وأبدى من الاستعداد والدأب على الدرس ما جعل المدينة تتعاون مع رعاته الخاصين على تمويل تعليمه العالى فى ستراسبورج وبورج وباريس وبال . وقد وضع أو جمع ١,٥٠٠ رسم توضيحى لكتابه « تاريخ النبات » ، ولكن تبين أن تكاليف طبع الكتاب ستكون باهظة ، فظل مخطوطاً ولم يطبع إلا عام ١٧٥١ ، وقد تأخر نشر تصنيفه البارع لأجناس النبات حسب بنياتها التناسلية بحيث لم يستطع ليناوس الاستعانة به . وقد نشر فى حياته أربعة مجلدات (١٥٥١ — ٥٨) ، وخلف مجلداً خامساً ، من كتاب ضخم فى « تاريخ الحيوان » أورد فيه كل نوع من أنواع الحيوان تحت اسمه اللاتينى ، ووصف شكله ، وأصله ، وموطنه ، وعاداته ، وأمراضه ، وصفاته العقلية والعاطفية ، وفوائده الطبيعية والمنزلية ، ومكانه فى الأدب ، وكان التصنيف أبجدياً لا علمياً ، ولكن تكديسه الموسوعى للمعلومات أعان علم

الأحياء على أن يتخذ له شكلا محدداً . على أن هذه الجهود لم تُنضب معين جسنر ، فبدأ موسوعته «المكتبة العالمية» فى واحد وعشرين مجلداً عكف فيها على وضع فهارس بجميع الكتابات اليونانية واللاتينية والعبرية المعروفة ، وأكمل منها عشرين مجلداً ، واستحق بذلك لقب « أبى الببليوغرافيا » . وفى قسم جانبى يسمى « متريداتيس» (١٥٥٥) حاول تصنيف ١٣٠ لغة من لغات العالم . ويبدو أن كتابه Descriptio Montis Pilati (١٥٤١) كان أول دراسة منشورة للجبال بوصفها إحدى صور الجمال ، وعرفت سويسرة الآن أنها بلد جليل رائع . وكل هذه المؤلفات أنجزت بين عامى ١٥٤١ و ١٥٦٥ . وفى هذه السنة مات كونراد جسنر ، روح الدراسة المتجســـد .

وفى غضون ذلك كان لكتاب جوان ڤيف De anima et vita (١٥٣٨) معظم الفضل فى خلق علم النفس التجريبى الحديث . وكأن ڤيف أراد أن يتحاشى التشكك ، الذى كان هيوم مزمعاً أن يبسطه بعد قرنين ، حول وجود «عقل» بالإضافة إلى العمليات العقلية ، فنصح الطالب ألا يسأل ما هو العقل أو ما هى النفس ، لأننا (كما أحس) لن نعرف هذا أبداً ، إنما يجب أن نسأل ماذا « يفعل » العقل ، وعلى السيكولوجيا ألا تكون غيبيات نظرية ، وأن تصبح علماً مبنياً على مشاهدات محددة ومتجمعة ، فى هذا سبق فيف فرانسس بيكون بقرن من الزمان فى توكيده للاستقراء . ودرس بالتفصيل ترابط الأفكار ، وعمل الذاكرة وتحسينها ، وعملية المعرفة ، ودور الشعور والعاطفة . ونحن نشهد فى كتابه هذا علم النفس منبعثاً فى ألم ، انبعاث كثير من العلوم قبله ، من بطن أم واحدة للجميع ، هى الفلسفة .

٥ — فيســـاليوس

فى عام ١٥٤٣ نشر أندرياس فيساليوس كتاباً قال عنه السر وليم أوسلر إنه أعظم ما كتب فى الطب قاطبة(٥٣) . كان أبوه أندرياس فيسل صيدلياً غنياً فى بروكسل ، وجده طبيباً لمارى البرجندية ثم لزوجها مكسمليان الأول ، أما جده الأكبر — وكان طبيباً — فقد كتب تعليقاً على كتاب ابن سينا « القانون » . هنا نجد حالة من الوراثة الاجتماعية تفوق حالة أسرة باخ . وما لبث فيساليوس أن أغرم بالتشريح بعد أن درب عليه منذ نعومة أظفاره . « فلم ينج من مبضعه حيوان . فهو يشرح الكلاب والقطط والجرذان والفيران والخلدان تشريحاً غاية فى الدقة(٥٤) » غير أنه لم يهمل الدراسات الأخرى. ففى الثانية والعشرين من عمره حاضر فى اللاتينية ، وكان يقرأ اليونانية فى يسر . ثم درس التشريح فى باريس (١٥٣٣ — ٣٦) على جاك دوبوا الذى أطلق على كثير من العضلات والأوعية الدموية أسماءها التى ما زالت تحملها إلى اليوم . وظل فيساليوس طويلا ، كأساتذته ، يؤمن بجالينوس إنجيلا له ، ولم يفقد احترامه له قط ، ولكنه كان يحترم سلطان المشاهدة والمناقشة أكثر كثيراً . وقام هو وبعض زملائه الطلبة برحلات كثيرة إلى مستودعات جثث الموتى حيث جمعت العظام المستخرجة من جبانة الأطفال ، وهناك ألفوا منظر أجزاء الهيكل البشرى ألفة أتاحت لهم كما روى « أن نجرؤ أحياناً ، حتى ونحن معصوبو الأعين ، على مراهنة رفاقنا ، وخلال نصف ساعة لم تكن تقدم لنا عظمة . . . إلا وعرفناها باللمس(٥٥) » . وحدث غير مرة فى محاضرات دوبوا أن كان المشرح الشاب الجرىء يزيح « الحلاقين الصحيين » الذين كان الأستاذ الطبيب يكل إليهم عادة مهمة التشريح الفعلى ، ويقوم هو بعرض الأعضاء موضوع المحاضرة عرض خبير(٥٦) .

واعتكف فيساليوس في لوفان حين غزا مليكه شارل الخامس فرنسا عام ١٥٣٦. وقد عطل نشاطه هناك نقص الجثث. فخطف جثة من الهواء هو وصديق له يدعى جما فريزيوس (الذى اشتهر فيما بعد رياضياً) . وتكشف روايته للحادث عن ولعه بالتشريح . يقول :

« بينما كنا نتمشى ونبحث عن عظام فى المكان الذى يوضع فيه عادة من أعدموا ، على الطريق الريفية . وقعت على جثة متيبسة . . . وكانت العظام مجردة من اللحم كلية ولا يمسكها غير الأربطة . وتسلقت الخازوق بمساعدة جما وجذبت عظم الفخذ . وأتبعته العظم الكتفى والذراعين واليدين . . . وبعد أن حملت الساقين والذراعين إلى البيت خفية وفى رحلات متتالية . . . تركت نفسى حبيساً خارج المدينة فى المساء حتى آتى بالصدر . وكان مربوطاً ربطاً وثيقاً بسلسلة ، وكنت أتحرق شوقاً إلى إتمام مهمتى . . . وفى الغد نقلت العظام جزءاً فجزءاً خلال بوابة أخرى من بوابات المدينة ».(٥٧)

وأدرك عمدة المدينة الأمر ، ومن بعدها كان يعطى فصول التشريح ما أمكن الإفراج عنه من الجثث . يقول فيساليوس « وكان هو نفسه يحضر بانتظام كلما قمت بالتشريح(٥٨)»

وما كان فى استطاعة رجل كهذا « يتحرق شوقاً » أن يحتفظ بطبعه هادئاً . فما لبث أن اشتبك فى نزاع حاد مع مدرس حول طرائق شق الوريد . ورحل عن لوفان (١٥٣٧) وركب هابطاً الرين عابراً جبال الألب إلى إيطاليا . وكان قد بلغ من الكفاية مبلغاً أتاح له الحصول قبل نهاية تلك السنة على درجة الطب فى بادوا « بأقصى خفض » فى الرسوم ، لأنه كلما علا تقدير الطالب انخفضت رسوم تخرجه. وفى اليوم التالى نفسه (٦ ديسمبر ١٥٣٧) عينه مجلس شيوخ البندقية أستاذاً للجراحة والتشريح بجامعة بادوا ، وكان يومها فى الثالثة والعشرين .

وقام فى الأعوام الستة التالية بالتدريس فى بادوا وبولونيا وبيزا، وشرح مئات الجثث بيديه،وأصدر بعض الكتب الصغيرة . وقد رسم تلميذ لتيشان يدعى جان ستيفان فان كالكار ، تحت إشرافه ، ست لوحات نشرت عام ١٥٣٨ بعنوان **Tabulae anatomicae sex** وبعد عام أيد فيساليوس فى رسالته عن «شق الأوردة »بيير بريسو الباريسى فى طرق الفصد . وفى معرض مناقشته للموضوع كشف عن بعض نتائج تشريحه للجهاز الوريدى ، وقد أعانت ملاحظاته هذه على كشف الدورة الدموية . وفى ١٥٤١— ٤٢ اشترك مع علماء آخرين فى نشر طبعة جديدة من النص اليونانى لجالينوس . وقد أدهشته أخطاء ندت عن جالينوس وكانت خليقة بأن يدحضها أبسط تشريح لجسم الإنسان كقوله مثلا : إن الفك السفلى قسمان ، وإن القص سبع عظام متميزة ، والكبد عدة فصوص . وما كان ممكناً تعليل هذه الأخطاء واغتفارها إلا على فرض أن جالينوس لم يشرح قط آدميين بل حيوانات . وشعر فيساليوس أنه قد حان الوقت لمراجعة علم تشريح الإنسان بتشريح الآدميين . وهكذا أعد أعظم كتبه .

وحين طبع يوهان أوبورينوس عام ١٥٤٣ بمدينة بازل كتابه هذا المسمى « بنية جسم الإنسان » فى ٦٦٣ صفحة من القطع الكبير ، لا بد أن الشيء الذى أدهش القارىء لتوه كان صفحة الغلاف — وكانت حفراً جديراً بالفنان دورو ، يمثل فيساليوس يشرح تشريح ذراع مفتوحة ، ومن حوله خمسون طالباً يرقبونه . ثم الرسوم التوضيحية : ٢٧٧ رسماً مطبوعاً من كليشيهات خشبية ذات دقة تشريحية لم يسبق لها نظير وبراعة فنية عظيمة ، معظمها من صنع فان كالكار ، وخلف الأشكال مناظر لا تتصل علمياً بالموضوع ولكنها جذابة من الناحية الفنية — فترى مثلا هيكلا عظمياً عند مقعد للقراءة . وكانت هذه الرسوم المطبوعة من الجمال بحيث خالها بعضهم مصممة فى مرسم تيشان

ربما باشرافه ؛ ولا بد أن نضيف إلى هذا أن فيساليوس رسم عدة رسوم منها بيده . وقد رافق الكليشيهات الخشبية ساهراً على سلامتها فى الرحلة على ظهر بغل من البندقية إلى بال عبر جبال الألب . وحين تم طبع الكتاب حفظت الكليشيهات بعناية . وفى تاريخ لاحق اشتريت ، ثم تبودلت ، ثم فقدت ، وفى عام ١٨٩١ عثر عليها مخبأة فى مكتبة جامعة ميونيخ ، وقد دمرتها القنابل فى الحرب العالمية الثانية.

أما الذى كان ينبغى أن يثير فى النفس دهشة أعظم مما أثارته هذه الرسوم فهو أن النص — وهو نصر طباعى ولكنه إلى ذلك ثورة علمية — كان من صنع فتى لم يتجاوز التاسعة والعشرين . وهو ثورة لأنه أنهى سلطان جالينوس على التشريح ، وراجع العلم كله بلغة التشريح ، وبهذا أرسى دعائم الأساس الفزيائى للطب الحديث ، الذى يبدأ بهذا الكتاب . فهنا وصف لأول مرة سير الأوردة الصحيح وتشريح القلب ؛ وهنا ورد ذلك القول الخطير . وهو أن التشريح البالغ الدقة لم يظهر أياً من تلك المسام التى افترض جالينوس أن الدم يمر عن طريقها من بطين إلى آخر ؛ وبهذا أصبح الطريق معبداً لسرفيتوس وكولومبو وهارفى . وقد صححت أخطاء جالينوس المرة بعد المرة — فيما يتصل بالكبد ، والقنوات المرارية ، والفكين ، والرحم . وقد ارتكب فيساليوس هو أيضاً أخطاء ، حتى فى المشاهدة ، وأخفق فى أن يقفز القفزة الكبرى من تشريح القلب إلى دورة الدم . ولكن هنا أوصاف صادقة لعشرات من الأعضاء لم تحظ قط بمثل هذا الوصف الدقيق من قبل ، وفتح كل جزء من أجزاء الجسم للعلم بيد واثقة قديرة .

على أن فيساليوس عانى من عيوب فضائله . ذلك أن الكبرياء التى سندته طوال دراسته الموفقة جعلته سريع الغضب ، بطيئاً فى

الاعتراف بمنجزات سابقيه وتقدير حساسية منافسيه : وبلغ ولعه بذلك « الإنجيل الصادق . . . ألا وهو جسم الإنسان وطبيعة الإنسان »[٩] مبلغا جعله يؤذى شعور عدد كبير من أقطاب اللاهوتيين : وكان يشير فى تهكم إلى رجال الكنيسة الذين يشتد إقبالهم على غرفة محاضراته حين يكون موضوع الدرس والعرض هو الأعضاء التناسلية[٦٠]. وقد أثار عداء الكثيرين : ومع أن جسنر وفالوبيو رحبا بكتابه ، فان أكثر الأساتذة القدامى ، ومنهم أستاذه السابق دوبوا ، نددوا بالمؤلف بوصفه محدثاً وقحاً ، وجدوا فى تسقط العيوب فى كتابه . وقال دوبوا إن جالينوس لم يخطئ ، ولكن جسم الإنسان عراه تغير منذ عهد جالينوس ، وعلى ذلك فعظام الفخذين الواضحة الاستقامة ،والتى ليست مقوسة كما وصفها جالينوس ، إنما هى فى رأيه نتيجة لارتداء أوربيى عصر النهضة سراويل ضيقة[٦١] .

وفى عاصفة من خيبة الأمل فى موقف هؤلاء الرجال أحرق فيساليوس مجلداً ضخماً من كتاب « التعليقات » **Annotationes** وتفسيراً للأجزاء العشرة التى يتألف منها كتاب الرازى « كتاب المنصورى » — وهو موسوعة فى الطب[٦٢]. وفى عام ١٥٤٤ رحل عن إيطاليا ليصبح طبيباً ثانياً بين أطباء شارل الخامس الذى سبق أن أهداه فى حصافة كتابه « فابريكا » : **Fabrica** : ومات أبوه فى نفس العام تاركاً له ثروة طيبة . فتزوج وبنى بيتاً جميلا فى بروكسل . وصدرت طبعة ثانية لكتابه « فابريكا » عام ١٥٥٥ ، مزيدة ومنقحة . وقد بين الكتاب أن التنفس الصناعى تمكن أن يبقى على حياة الحيوان رغم شق صدره ؛ وأن القلب الذى توقف نبضه يمكن أحياناً رد الحياة إليه باستعمال منفاخ . بعد هذا لم يضف فيساليوس جديداً إلى التشريح. فقد استغرق فى العناية بمرضاه من أسرة الإمبراطور ومن دونهم ، وفى ممارسة

الجراحة ودراستها . وأصبح فيساليوس طبيباً ثانياً لفيليب الثانى بعد أن اعتزل شارل الملك . وفى يوليو ١٥٥٩ أوفده الملك ليساعد أمبرواز باريه فى محاولة لإنقاذ حياة هنرى الثانى الجريح ، ولجأ فيساليوس إلى اختبارات إكلينيكية أظهرت استحالة شفائه ، وفى تاريخ لاحق من هذه السنة رافق هو وأسرته فيليب إلى إسبانيا ؛

فى غضون ذلك أضاف آخرون جديداً إلى التشريح . فلاحظ جيامباتستا كانو صمامات الأوردة (١٥٤٧) ، وشرح سرفيتوس دورة الدم فى الرئتين (١٥٥٣) ، ووصل ريالدو كولومبو إلى هذا الكشف ذاته (١٥٥٨) ، وأثبته باجراء تجربة على القلب الحى . ولكن سبعين سنة أخرى انقضت قبل أن يأتى هارفى بوصفه الخطير لسير الدم من القلب إلى الرئتين ، فالى القلب ، فالى الشرايين ، فالى الأوردة ، ثم إلى القلب . وكان الطبيب العربى ابن النفيس قد سبق سرفيتوس عام ١٢٨٥[٦٣] ، وربما انحدرت الرواية المتواترة بنظريته إلى أسبانيا فى شباب سرفيتوس .

وبقيت لفيساليوس بضع مغامرات . من ذلك أن الأطباء الوطنيين فى البلاط الأسبانى كانوا يصرّون على إهمال تشخيصه باعتبار هذا موقفاً يحتمه الشرف . فلما شكا ابن فيليب الوحيد ، الدون كارلوس ، من ارتجاج فى المخ إثر سقطة (١٥٦٢) ، أشار فيساليوس باجراء تربنة له . ولكن النصيحة رفضت ، وأشرف الفتى على الهلاك . ووضعت على الجرح التمائم وآثار القديسين ، وجلد الأتقياء أنفسهم توسلا إلى السماء أن تشفيه بمعجزة ؛ ولكن هذا كله لم يجد فتيلا . وأخير أصر فيساليوس على فتح الجمجمة ، ففتحت ، وسحبت منها كمية كبيرة من الصديد ؛ وما لبث الأمير أن تماثل للشفاء ، وبعد إجراء العملية بثمانية أيام سار فيليب فى موكب مهيب لتقديم الشكر لله .[٦٤]

وبعد عامين رحل فيساليوس عن أسبانيا لأسباب ما زالت محل خلاف . وقد روى أمبرواز باريه قصة مشرح أثار عليه غضب أسبانيا بأسرها لأنه فتح بطن امرأة كان الظن أنها ماتت من « اختناق الرحم » ، قال باريه أن ضربة أخرى من مبضع الجراح ردت المرأة فجأة إلى الحياة ، « الأمر الذى بعث فى قلوب جميع أصدقائها من الإعجاب والرعب . . . ما جعلهم ينظرون إلى الطبيب — الذى كان من قبل واسع الشهرة طيب السمعة — نظرتهم إلى رجل مجرم بغيض »[٦٥] ، ولا عجب فالأقرباء لا يقدرون دائماً مثل هذا الشفاء غير المتوقع. وواصل الجراح الهيجونوتى روايته فقال « لذلك لم ير سبيلا أمامه إلا مغادرة البلاد إن ابتغى لنفسه السلامة». وروى هيجونوتى آخر يدعى أوبير لانجيه قصة كهذه (حوالى ١٥٧٩) ، وذكر أن الطبيب هو فيساليوس ، وزعم أن فيساليوس وقع تحت طائلة محكمة التفتيش لأنه شرح شخصاً حياً ، وقد نجا من المحاكمة حين أخذ على نفسه عهداً بالحج إلى فلسطين تكفيراً عن خطيئته . والحادثة لم ترد فى أى مصدر معاصر ، والمؤرخون الكاثوليك يرفضونها لأنها فى رأيهم قصة خرافية[٦٦] . ولعل السبب لا يعدو أن فيساليوس مل البقاء فى أسبانيا .

وعاد إلى إيطاليا ، وأبحر من البندقية (ابريل ١٥٦٤) ، ويبدو أنه بلغ أورشليم . وفى رحلة العودة تحطمت سفينته ، ومات من التعرض للجو ، نائياً عن أصدقائه ، على جزيرة زنطة تجاه ساحل اليونان الغربى (١٥ أكتوبر ١٥٦٤) ، وكان يومها فى عامه الخمسين . وفى هذا العام ذاته مات ميكلانجلو ، وولد شكسبير. لقد كان البهاء الذى سطعت شمسه قرناً فى سماء إيطاليا ينتقل إلى الشمال .

٦ — نهضـــة الجراحة

ظل علم الطب وفنه يسيران فى ركاب أئمة الطب من اليونان والعرب ، على الرغم مما أحرزه التشريح من تقدم . ولم يكن لشهادة الحواس كبير وزن أمام كلمة جالينوس أو ابن سينا ، لا بل إن فيساليوس نفسه قال حين ناقض تشريحه رأى جالينوس « لم أكد أصدق عينى » . وكانت طبعات أو ترجمات جالينوس أو أبقراط تنشر المعلومات القديمة وتثبط القيام بالتجارب الجديدة — بالضبط كما كانت الجهود التى بذلها بترارك ورونسار لكتابة ملاحم فرجيلية تؤذى نبوغهما الفطرى وتحرف مجراه. وحين أسس ليناكر كلية الطب التى أطلق عليها فيما بعد كلية الأطباء الملكية (١٥١٨) ، كانت كتبها الرئيسية هى ترجماته لجالينوس .

وقد أفاد علاج الأمراض من العقاقير الجديدة المجلوبة إلى أوربا كالكينا ، وعرق الذهب ، والراوند ، المجلوبة من أمريكا. والزنجبيل ولبان الجاوى من سومطرة ، والقرنفل من جزر ملقا، والصبر من كوتشين الصينية ، والكافور والزنجفر من الصين ، ووسع هذا التطور استعمال النباتات الوطنية . وصنف فالبريوس كوردوس أول فارماكوبيا ألمانية (١٥٤٦) ، وشاع علاج الزهرى بنقيع خشب الغويقم المجلوب من جزر الهند الغربية . حتى أن آل فوجير جمعوا ثروة ثانية بحصولهم على احتكار بيعه فى أملاك شارل الخامس الذى كان مديناً لهم .

على أن فقر جماهير الناس وقذارتهم كانا سبباً فى تخلف الدواء عن المرض دائماً . وكانت أكوام القمامة أو روث البهائم تسمم الهواء ، وتنتشر هنا وهناك فى الشوارع أحياناً . وكان لباريس شبكة مجار أراد هنرى الثانى إفراغها فى نهر السين لولا أن ثناه

رجال البلدية عن هذه الفعلة بتبصيره بأن النهر هو مورد مياه الشرب الوحيد لنصف السكان(٦٧) . وأنشئت فى انجلترا لجان للمجارى فى عام ١٥٣٢ ، ولكن لم يكن فيها حتى عام ١٨٤٤ سوى مدينتين اثنتين تنقل فيهما القمامة من الأحياء الفقيرة على حساب الدولة .

أما الأوبئة فكانت أقل فتكاً منها فى العصور الوسطى ، ولكنها كفت — هى ووفيات النفساوات والأطفال — لتثبيت السكان عند حد لا يكادون يتجاوزونه. وقد اكتسحت الطواعين ألمانيا وفرنسا المرة تلو المرة بين عامى ١٥٠٠ و ١٥٦٨ . وانتشرت حمى التيفوس فى انجلترة فى أعوام ١٤٢٢ ، و ١٥٧٧ و ١٥٨٦ نتيجة لهجرات القمل . واجتاح انجلترة « المرض المعرق » — ولعله ضرب من الأنفلونزة — فى أعوام ١٥٢٨ و ١٥٢٩ و ١٥٥١ و ١٥٧٨ ؛ وألمانيا فى ١٥٤٣ — ٤٥ ، وفرنسا فى ١٥٥٠ — ٥١ . وقيل إن هذا المرض فتك بألف شخص فى بضعة أيام فى كل من هامبورج وآخن(٦٨). وكان الناس يعزون الأنفلونزه إلى « تأثيرات » سماوية ، ومنها اشتقت اسمها influences: . وعاد الطاعون الدبلى إلى الظهور فى ألمانيا فى عام ١٥٦٢ ، ففتك بتسعة آلاف من بين سكان نورمبرج البالغ عددهم أربعين ألفاً(٦٩) — وإن جاز لنا أن نفترض المبالغة فى جميع الإحصاءات الخاصة بالطاعون . أما جوانب الصورة الأكثر إشراقاً فهى تضاؤل الإصابة بالجذام وبعض الاضطرابات العقلية كرقصة سانت فيتوس :

وكان سير التطبيب أبطأ من سير المعرفة الطبية . فما زال دجاجلة الطب يملأون الأرض ؛ وكان من اليسير الاشتغال بالطب دون الحصول على درجة جامعية برغم القوانين المقيدة . وكان أكثر الأطفال يخرجون إلى النور على أيدى القابلات . أما التخصص فلم

يكد يبدأ . فطب الأسنان مثلا لايفصل عن الطب أو الجراحة ، وكان الحلاقون الصحيون يخلعون الأسنان ويستبدلون بها أسناناً من العاج . وترك جميع الأطباء تقريباً — وفيساليوس أحد القلائل الذين شذوا — مهمة الجراحة للحلاقين الصحيين ، الذين يجب على أى حال ألا ننظر إليهم على أنهم حلاقون ، لأن كثيراً منهم كانوا رجالا ذوى دربة ومهارة :

فأمبرواز باريه بدأ حياته صبياً لحلاق ، ثم ارتقى حتى أصبح جراحاً للملوك : وقد ولد فى بورج-إرسان فى سنة (١٥١٧) ، ثم شق طريقه إلى باريس ، وفتح كشك حلاقته فى ميدان سان ميشيل . وخلال حرب ١٥٤٦ اشتغل جراحاً لفرقة من فرق الجيش .وكان فى علاجه للجنود يسلم بالنظرية السائدة التى زعمت أن جروح الرصاص سامة ، ودرج (كما درج فيساليوس) على كيها بزيت البلسان المغلى ، فكان الكى يحيل الألم عذاباً . وذات ليلة فرغ الزيت ، فضمد باريه الجروح بمرهم من مح البيض ، وزيت الورد ، والتربنتينا : وفى الغد كتب يقول :

« أرقنى بالأمس طول التفكير فى المصابين الذين لم أستطع كى جروحهم . وتوقعت أن أجدهم جميعهم أمواتاً فى الصباح. وبهذه الفكرة قمت مبكراً لأتفقدهم ، فما راعنى إلا أن أجدمن عالجتهم بالمرهم لا يشكون غير ألم بسيط جداً فى جروحهم دون أى التهاب : : . وقد قضوا ليلتهم فى نوم مريح. أما الباقون الذين عولجت جروحهم بزيت البلسان المغلى فقد ارتفعت حرارتهم والتهبت جروحهم : : : وآلمتهم ألماً حاداً . وعلى ذلك صممت على ألا أعود ثانية إلى كى هؤلاء التعساء بمثل هذه الطريقة القاسية»(٧٠) :

ولم يحظ باريه بتعليم يذكر ، ولم ينشر كتيبه عن «طريقة

علاج الجروح » — وهو اليوم كتاب مشهور فى عالم الطب — إلا فى عام ١٥٤٥ : وفى حرب ١٥٥٢ أثبت أن ربط الشريان أجدى من الكى فى وقف النزف الذى تسببه عمليات البتر : وقد وفق بفضل عملياته الجراحية فى حمل العدو على الإفراج عنه بعد أسره. ولما عاد إلى باريس عين كبيراً للجراحين بكلية سان كوم ، الأمر الذى أثار فزع السوربون التى تنظر إلى أستاذ جاهل باللاتينية كأنه هولة بيولوجية . وعلى الرغم من هذا أصبح جراحاً للملك هنرى الثانى ، ثم لفرانسوا الثانى ، ثم لشارل التاسع ، ومع أنه كان يجهر ببروتستنتيته ، فقد أبقى أمر ملكى على حياته فى مذبحة سان بارتلميو . ولم يضف مؤلفه « كتابان فى الجراحة » (١٥٧٣) لنظرية الجراحة إلا قليلا ، ولكنه أضاف الكثير للتطبيق . فقد اخترع أدوات جديدة ، وأدخل الأطراف الصناعية ، وأشاع استعمال الحزام فى الفتق ، وحسن من تعديل وضع الجنين فى الولادة ، وأجرى أول إعادة لمفصل الكوع ، ووصف التسمم بأول أوكسيد الكربون ، وقرر أن الذباب حامل للمرض . ومن الأقوال المشهورة فى حوليات الطب اعتراضه على ما تلقى من تهانىء لنجاحه فى علاج حالة مستعصية ، « أنا عالجته ، والله شفاه ». وقد مات عام ١٥٩٠ بالغاً الثالثة والسبعين بعد أن رفع كثيراً من مكانة الجراحين وكفايتهم ، ومنح فرنسا زعامة فى الجراحة احتفظت بها قروناً من بعده .

٧ — باراسيلسوس والأطباء

فى كل جيل يظهر رجال ينكرون على الأطباء محافظتهم المشوبة بالحيطة ، ويدعون الوصول إلى أنواع ممتازة من العلاج بوسائل خارجة على التقاليد الطبية، ويرمون رجال المهنة بالتخلف الوحشى ، ويأتون بالأعاجيب حيناً ، ثم يتبددون فى ضباب الغلو والعزلة اليائسين . ومن الخير أن يظهر ذباب الخيل هذا بين الحين والحين لينبه الفكر الطبى ، ومن الخير أن يكبح الطب جماح البدع المتعجلة فى تعامله مع الحياة البشرية . فنى هذا الميدان ، كما فى ميدانى السياسة والفلسفة ، يتعاون الشباب المتطرف ، والشيخوخة المحافظة ، على غير إرادتهما ، ليحدثا توازناً بين الاختلاف والوراثة ، ذلك التوازن الذى تتخذه الطبيعة أداة للتطور .

كان فيليبوس ثيوفراستوس بومباستوس فون هوهنهايم يتخذ له اسم أوريولوس رمزاً لنبوغه ، واسم باراسيلسوس — وهو على الأرجح ترجمة لاتينية للقب هوهنهايم[٧١] . وكان أبوه فلهلم بومباست فون هوهنهايم ابناً غير شرعى لنبيل سوابى حاد الطبع . ولما ترك فلهلم ليدبر شئونه بنفسه ، مارس الطب بين فقراء القرويين قرب أينزيدلن فى سويسرة ، وتزوج من إلزا أوخسنر ، وكانت بنت صاحب حانة وممرضة مساعدة ، وقد أصيبت بعد قليل بحالة اكتئاب جنونى . وربما كان تضارب هذا النسب سبباً فى ميل فيليب إلى عدم الاستقرار ، وإلى إحساس ساخط بقدرات لم ترعها بيئته رعاية كافية . وقد ولد فى ١٤٩٣ وشب وسط مرضى أبيه ، وربما فى ألفة بالحانات غير صالحة له ، تلك الحانات التى ظلت حياتها الطليقة تستهويه على الدوام. وتزعم قصة غير مؤكدة أن الصبى خصاه خنزير برى أو جنود مخمورون؛

ولم يعرف أن امرأة ظهرت فى حياته بعد البلوغ . وحين كان فى التاسعة أغرقت أمه نفسها . ولعل هذا هو السبب فى رحيل الوالد والولد إلى فيلاخ بالتيرول . وتقول رواية متواترة أن فلهلم كان يقوم بالتدريس هناك فى مدرسة للمناجم ويشتغل بالكيمياء القديمة على سبيل الهواية . ولا بد أنه كان هناك مناجم بقرب المدينة ومصنع لصهر المعادن ، ومن المحتمل أن يكون فيليب قد تعلم هناك طرفاً من الكيمياء التى سيحدث فيها ثورة فى دنيا العلاج .

ولما بلغ الرابعة عشرة قصد هايدلبرج للدراسة . وتكشف طبعه القلق فى انتقاله السريع من جامعة لأخرى — فرايبورج ، وإنجولشتات ، وكولونيا ، وتوبنجن ، وفينا ، وارفورت ، وأخيراً (١٥١٣ — ١٥) فيرارا — ولو أن هذا التنقل بين دور العلم كان مألوفاً فى العصور الوسطى . وفى عام ١٥١٥ ، التحق فيليب — وقد سمى نفسه الآن باراسيلسوس — حلاقاً صحياً فى جيش شارل الأول ملك أسبانيا ، دون أن يحصل على درجة جامعية . فلما انتهت الحملة عاد إلى حياة الترحل . وهو يزعم أنه مارس الطب فى غرناطة ، ولشبونة ، وإنجلترة ، والدنمرك ، وبروسيا وبولنده ، ولتوانيا ، والمجر ، و « غيرها من الأقطار » [٧٢] وكان فى سالزبورج إبان حرب الفلاحين عام ١٥٢٥ ، وعالج جروحهم وتعاطف مع أهدافهم . وقد ولع حيناً بالاشتراكية . فهو يندد بالمال ، والفائدة ، والتجار . ويدعو للشيوعية فى الأرض والتجارة ، وللمساواة بين الناس فى الأجور[٧٣] . وفى كتابه الأول المسمى « Archidoxa » (أى الحكمة العظمى — ١٥٢٤) رفض اللاهوت وامتدح التجربة العلمية[٧٤] . ولما قبض

عليه بعد إخفاق ثورة الفلاحين ، أنقذته من حبل المشنقة شهادة بأنه لم يحمل سلاحاً قط ، ولكنه نفى من سالزبورج ، فغادرها على عجل .

وفى عام ١٥٢٧ كان فى ستراسبورج يمارس الجراحة ويحاضر الحلاقين الصحيين ، وكان تعليمه لهم مزيجاً مهوشاً من المعقول وغير المعقول ، ومن السحر والطب — ولو أن الله وحده يعلم كيف سيصف المستقبل بقينياتنا الحاضرة : وقد رفض التنجيم ، ثم سلم به ، وكان يأبى أن يحقن مريضاً بحقنة شرجية ما لم يكن القمر فى تربيعه الصحيح . وكان يسخر من عصا الكهانة ، ولكنه زعم أنه أحال المعادن ذهباً (٧٥) . وإذ كان — كأجريبا فى شبابه — يحدوه تعطش للمعرفة فقد بحث فى شوق عن « حجر الفلاسفة » — أى عن صيغة عامة تفسر الكون. وكتب فى سذاجة المصدق عن الأقزام الخرافية ، وسلامندر الأسبستوس ، و « الإرشادات » ، وهى علاج الأعضاء المريضة بعقاقير شبيهة بها لوناً وشكلا . ولم يستنكف من استخدام التعاويذ والتمائم السحرية علاجاً (٧٦) — ربما بوصفها طباً إيحائياً .

ولكن هذا الرجل نفسه، الذى ينضح بأوهام جيله ، أدخل تحسينات جريئة على استخدام الكيمياء فى الطب . وكان يتحدث أحياناً حديث الماديين « إن الإنسان مشتق من المادة ، والمادة هى الكون كله » (٧٧) . والإنسان بالنسبة للكون كالعالم الصغير (الميكروكوزم) بالنسبة للعالم الكبير (الماكروكوزم) » وكلاهما من نفس العناصر — وأساسها الأملاح ، والكبريت ، والزئبق ؛ والمعادن والأملاح المعدنية التى تبدو عديمة الحياة هى فى الواقع مفعمة بالحياة(٧٨) . والعلاج الكيماوى هو استخدام العالم الكبير

لشفاء العالم الصغير . والإنسان من حيث بدنه مركب كيميائى ، والمرض تنافر ، لا فى « الأمزجة » كما زعم جالينوس ، بل فى مكونات البدن الكيميائية ؛ وهذه أول نظرية حديثة للأيض أو التمثيل الغذائى : وكان العلاج فى ذلك العهد يعتمد فى عقاقيره إلى حد كبير على عالم النبات والحيوان ، أما باراسيلسوس ، الغارق فى كيميائه القديمة ، فقد أكد ما للمواد غير العضوية من قدرات علاجية . وجعل الزئبق ، والرصاص ، والكبريت ، والحديد ، والزرنيخ ، وكبريتات النحاس ، وكبريتات البوتاسيوم ، أجزاء من أقرباذينه ، وأشاع استعمال الصبغات والخلاصات الكيميائية ، وكان أول من صنع « صبغة الأفيون » التى نسميها اللودنوم : وقد شجع استعمال الحمامات المعدنية ، وشرح خواصها وآثارها المتنوعة .

ولاحظ باراسيلسوس العوامل المهنية والجغرافية المؤثرة فى المرض ، ودرس السل الرئوى المتليف فى المعدنين ، وكان من أول من ربط بين القماءة والغوطر المتوطن : وأدخل تحسينات على فهم الصرع ، وعزا الشلل واضطرابات النطق إلى إصابات الرأس . ومع أن الفكرة المسلم بها عموماً فى ذلك العصر عن النقرس والتهاب المفاصل هى أنهما رفيقان للشيخوخة لا شفاء منهما ، فان باراسيلسوس رأى أنهما قابلان للشفاء إذا شخصا على على أنهما نتيجة لاحماض تكونها بقايا الطعام التى استقرت طويلا فى القولون . قال « كل الأمراض يمكن ردها إلى تخثر المادة غير المهضومة فى الأمعاء »[٧٩] . وقد أطلق على هذه الأحماض الناشئة عن التعفن المعوى اسم « الطرطير » لأن رواسبها فى المفاصل ، والعضلات ، والكلى ، والمثانة « تحرق كالجحيم ، وطرطروس

هى الجحيم » [٨٠] : « إن الأطباء يفاخرون بمعرفتهم بالتشريح ، ولكنهم عاجزون عن رؤية « الطرطير » اللاصق بأسنانهم » . [٨١] وعلق هذا المعنى بالكلمة الجديدة . واقترح وقف تكون هذه الرواسب فى الجسم بالغذاء الصحى ، والمقويات ، وتحسين الإخراج ، وحاول « تليين » الرواسب باستعمال زيت الغار ومركبات الراتنج ، أما الحالات الشديدة فقد دعا فيها إلى الجراحة حتى يسمح للرواسب الملتصقة بالهروب أو تتاح إزالتها . وقد زعم أنه شفى كثيراً من حالات النقرس بهذه الوسائل ، ويعتقد بعض الأطباء فى عصرنا هذا أنهم شفوا مرضى باتباع تشخيص باراسيلسوس .

ووصلت إلى بال أنباء طرق العلاج التى توصل إليها باراسيلسوس فى ستراسبورج . وكان المصور الشهير فروبن يشكو هناك ألماً حاداً فى قدمه اليمنى ، فأشار الأطباء ببتر القدم . ودعا فروبن باراسيلسوس إلى بال ليشخص الحالة . وجاء باراسيلسوس ، ووفق فى علاجها دون الالتجاء إلى السلاح . واستشار إرزمس باراسيلسوس ، وكان يومها يعيش مع فروبن ويشكو أوجاعاً كثيرة ، فوصف له علاجاً لا ندرى مدى توفيقه فيه . على أية حال أضاف هؤلاء المرضى المشهورون شهرة جديدة إلى شهرة الطبيب الشاب ، وقربه خليط غريب من الظروف من منصب الأستاذ الجامعى الذى كانت تهفو إليه نفسه .

كان البروتستنت فى تلك الحقبة أغلبية فى مجلس مدينة بال ، ففصلوا الدكتور فونيكر طبيب المدينة على الرغم من اعتراضات إرزمس والأقلية الكاثوليكية ، بحجة أنه « تفوه بمز بعبارات جديدة ضد الإصلاح البروتستنتى » [٨٢] وعينوا باراسيلسوس مكانه .

وافترض المجلس وباراسيلسوس أن هذا التعيين يتضمن حقه فى التدريس فى الجامعة ، ولكن الكلية استنكرت التعيين واقترحت عقد امتحان علنى لباراسيلسوس فى التشريح وهى على بينة من ضعفه فيه . فتهرب من الاختبار ، وبدأ يمارس مهنته طبيباً بالمدينة ، ويحاضر فى قاعة خاصة دون موافقة الجامعة (١٥٢٧) ؛ وقد جمع إليه الطلاب بدعوة مميزة لخلقه هذا نصها : —

« من ثيوفراستوس بومباست فون هوهنهايم ، الدكتور فى فرعى الطب ، والأستاذ ، تحيات لطلبة الطب . إن الطب وحده دون جميع العلوم . . . هو المعترف به صناعة مقدسة . ومع ذلك فان قلة من الأطباء يمارسونه اليوم بنجاح ، ومن ثم فقد حان الوقت لرده إلى مكانه المرموق السابق ، ولتنقيته من خميرة الهمج ، وتطهيره من أخطائهم . وسنقوم بهذه المهمة ، لا بالتزام قواعد الأقدمين ؛ بل بشىء واحد دون سواه هو دراسة الطبيعة واستخدام الخبرة التى اكتسبناها خلال سنوات طويلة من الاشتغال بالطب . ومن ذا الذى يجهل أن معظم الأطباء المعاصرين يفشلون لأنهم استعبدوا أنفسهم لتعاليم ابن سينا وجالينوس وأبقراط ؟ . . . وقد يفضى بهم هذا الطريق إلى ألقاب فخمة ، ولكنه لا يكوّن طبيباً بمعنى الكلمة . . . فليس الطبيب فى حاجة إلى الفصاحة أو الالمام باللغة أو الكتب . . . . بل إلى المعرفة العميقة بالطبيعة وأعمـــالها . . .

ولقد اعتزمت ، بفضل المنحة السخية التى قدمها سادة بال لهذا الغرض ، أن أشرح الكتب الدراسية التى ألفتها فى الجراحة وعلم الأمراض ، مخصصاً لذلك ساعتين فى كل يوم ، على سبيل التمهيد لطرق الشفاء التى أمارسها . وأنا لا أصنف هذه الكتب

من مختارات أنقلها عن أبقراط أو جالينوس . ولكننى بطول الكد والكدح خلقتها من جديد على أسس من الخبرة ، التى هى أسمى معلم لجميع الأشياء . فاذا شئت إثبات شىء ما لم أفعل هذا بالنقل عن هؤلاء القدامى . بل بالتجربة والتفكير المبنى عليها . فان شعرت أيها القارىء العزيز بدافع يدفعك إلى استكناه هذه الخفايا المقدسة ، وإن شئت أن تسبر أغوار الطب فى زمن وجيز ، فأقبل إلى فى بال . . . بال فى ٥ يونيو ١٥٢٧ »(٨٣) .

وسجل ثلاثون طالباً أسماءهم فى هذه الدراسة . وفى يوم الافتتاح طلع باراسيلسوس فى الرداء الجامعى المألوف ، ولكنه خلعه عنه لتوه ، ووقف فى ثوب الكيميائى الخشن ومئزرته الجلدية المتسخة بالسناج . وقد ألقى محاضرته فى الطب مكتوبة بلاتينية أعدها له سكرتيره أوبورينوس (الذى طبع فى تاريخ لاحق كتاب فيساليوس « فابريكا ») ، أما محاضرات الجراحة فألقاها بالألمانية . وكانت هذه صدمة جديدة للأطباء التقليديين ، ولكنها لم تزعجهم بقدر ما أزعجهم رأى أبداه باراسيليسوس وهو « أنه يجب ألا يؤدى الصيدلى عمله متواطئاً مع أى طبيب »(٨٤) . وكأنه أراد أن يعلن على الملأ ازدراءه للطب التقليدى ، فقذف فى النار وهو مبتهج بنص طبى حديث لعله Summa Jacobii — وكان الطلاب قد أوقدوا النار احتفالا بعيد القديس يوحنا (٢٤ يونيو ١٥٢٧) ، ثم قال « لقد ألقيت فى نار القديس يوحنا « بخلاصة » الكتب ، حتى تصعد جميع المحن والبلايا فى الهواء مع الدخان . وهكذا طهرت مملكة الطب من أدرانها » . وقارن الناس بين هذه الحركة وبين إحراق لوثر لمرسوم أصدره البابا .

أما حياة باراسيلسوس فى بال فكانت خارجة على العرف

خروج محاضراته : يقول أوبورينوس « لقد أنفق العامين اللذين صحبته خلالهما فى السكر والشره ليل نهار . . . وكان متلافاً ، تأتى عليه أوقات لا يجد فى جيبه فيها فلساً . . . وكان فى كل شهر يوصى بصنع سترة جديدة ، ويعطى القديمة لأول قادم ، ولكنها كانت من القذارة بحيث لم أتمن قط سترة منها لنفسى[٨٦] » وقد ترك لنا هنريش بولينجر وصفا لباراسيلسوس مماثلا لهذا ، فهو مدمن للخمر ، « ورجل فى منتهى القذارة[٨٧] » ولكن أوبورينوس يشهد بحالات عجيبة من الشفاء حققها أستاذه ، « فى علاج القرح أتى بما يقرب من المعجزات فى حالات يئس منها غيره »[٨٨] .

أما رجال الطب فقد برئوا منه دجالا عاطلا من الدرجة الجامعية ، مجرباً مستهتراً ، عاجزاً عن تشريح الجثث ، جاهلا بعلم التشريح . أما هو فقد عارض التشريح بحجة أن الأعضاء لا يمكن فهمها إلا وهى تؤدى وظيفتها فى الجسم الحى أداء متحداً طبيعياً. ورد على احتقار الأطباء له بلغة سوقية غاية فى المرح . فسخر من وصفاتهم الوحشية ، وقمصانهم الحريرية ، وخواتمهم ، وقفازاتهم الناعمة ، ومشيتهم المتغطرسة ، وتحداهم أن يخرجوا من حجرات الدرس إلى المعمل الكيميائى ، وأن يرتدوا المآزر ، ويوسخوا أيديهم بالعناصر الكيميائية وينحنوا فوق الأفران ليتعلموا أسرار الطبيعة بالتجربة وعرق الجبين . وقد عوض عن افتقاره إلى الدرجة الجامعة باتخاذ ألقاب مثل « أمير الفلسفة والطب » و « دكتور فى فرعى الطب » (أى طبيب وجراح) ، و « ناشر الفلسفة » ، وداوى جراح غروره بالثقة فى دعاواه . كتب يقول « سيتبعنى الجميع ، وستكون مملكة الطب مملكتى . . . كل الجامعات وكل الكتاب القدامى مجتمعين أقل مواهب من ....ى »[٨٩]. وإذ ألفى نفسه مرفوضاً

من الغير ، فقد اتخذ لنفسه هذه الحكمة شعاراً « لا يملكنك أحد إذا استطعت أن تملك نفسك »[٩٠] . أما التاريخ فقد وبخ تفاخره ، إذ جعل لقب أسرته « بومباست » اسماً نكرة (بمعنى الفشر) .

وحدث أن ظريفاً مجهول الاسم فى بال — متواطئاً مع كلية الجامعة ، أو فى تمرد عفوى من الطلبة على مدرس دجماطى — كتب قصيدة هجائية لاذعة وعرضها فى مكان ظاهر ، والقصيدة باللاتينية الرديئة ، توهم أن جالينوس نفسه هو الذى كتبها من « الجحيم » يرد بها على منتقص قدره ، وقد سماه كاكوفراستوس — خطيب الروث . وهزأت الأبيات هزءاً شديداً بمصطلحات باراسيلسوس الغيبية ، ونعتته بالجنون ، وأشارت عليه بأن يشنق نفسه . وحاول باراسيلسوس أن يعثر على الجانى ففشل ، لذلك طلب إلى مجلس المدينة أن يستجوب الطلاب واحداً واحداً ويعاقب المذنب . ولكن المجلس تجاهل الطلب . وحوالى هذه الفترة عرض قسيس فى كاتدرائية بال أن يدفع مائة « جلدر » لمن يشفيه من مرضه ، وشفاه باراسيلسوس فى ثلاثة أيام ، ودفع له القسيس ستة جلدرات ، وأبى أن يدفع الباقى بحجة أن العلاج لم يستغرق سوى وقت قصير جداً . فقاضاه باراسيلسوس ، ولكنه خسر دعواه ، وخسر معها هدوء طبعه ، فرمى نقاده بأنهم « غشاشون حكاكون للظهور » ، ونشر نبذة غفلا من اسم الكاتب رمى فيها رجال الدين والقضاء بالفساد ؛ وأمر المجلس بالقبض عليه ، ولكنه أجل تنفيذ الأمر حتى الصباح . وهرب باراسيلسوس تحت جنح الظلام (١٥١٨) ، بعد أن قضى فى بال ثمانية شهور .

وفى نورمبرج أعاد باختصار تجربته فى بال . وكل إليه آباء المدينة مستشفى سجن ، فاستخدم ألواناً من العلاج أثارت الأعجاب : ولكنه ندد بحساده من أطباء المدينة لافتقارهم إلى الذمة ، ولثرائهم ، ولبدانة نسائهم . ثم دافع عن الكاثوليكية حين لاحظ

أن أغلب أعضاء المجلس من البروتستنت . وانزعج آل فوجير الذين يبيعون الغويقم حين زعم أن هذا « الخشب المقدس » عديم الجدوى فى علاج الزهرى . وفى عام ١٥٣٠ أغرى طباعاً مغموراً بأن ينشر « ثلاثة فصول عن المرض الفرنسى » عنف فيها الأطباء تعنيفاً أثار عليه عاصفة من المعارضة أكرهته على أن يعود إلى تجواله من جديد . وأراد أن ينشر كتاباً أكبر فى الموضوع ذاته ، ولكن مجلس المدينة منع طبعه. ودافع باراسيلسوس فى خطاب كتبه إلى المجلس عن حرية الطبع بفصاحةلم تغنه فتيلا ، ولم ير الكتاب النور قط فى حياته . وكان يحتوى على أفضل وصف إكلينيكى كتب عن مرض الزهرى ، وقد أشار باستعمال جرعات باطنية من الزئبق دون الاستعمالات الظاهرة له. وأصبح هذا المرض ساحة احتدمت فيها المعركة بين العلاج النباتى والعلاج الكيميائى .

وانتقل باراسيلسوس إلى سان — جال ، وسكن نصف عام منزل أحد مرضاه . وهناك وفى فترة لاحقة ألف كتبه « العمل العجيب جداً » و « معارضة الطبيعة ؟ » و« الجراحة الكبرى » ، وكلها بالألمانية الدارجة . وهى أكوام من الخامات الخشنة التى تعثر أحياناً على حجر كريم فى ثناياها . وفى عام ١٥٤٣ انتكس إلى السحر ، وألف كتابه **Philosophia sagax** وهو خلاصة وافية فى السحر .

ولما مات مريضه فى سان— جال راح يضرب فى الأرض من جديد ، متنقلا بين ربوع ألمانيا ، مستجدياً قوته أحياناً . وكان قد فاه فى شبابه ببعض الهرطقات الدينية— كقوله إن دلالة العماد رمزية لا أكثر ، وإن تناول الأسرار المقدسة نافع للأطفال والمغفلين ،

عديم الفائدة للأذكياء ، وإن الصلوات للقديسين مضيعة للوقت[٩١].
أما الآن (١٥٣٢) ، بعد أن هدّه الفقر والهزيمة ، فقد اختبر « التحول » الديني . فصام ، ووهب متاعه الباقي للفقراء ، وكتب المقالات التعبدية ، وعزى نفسه بآمال الجنة. وفي عام ١٥٤٠ قدم له أسقف سالزبورج الملجأ ، فقبله الرجل شاكراً ، مع أنه هو الذي شجع الثورة هناك قبل خمسة عشر عاماً . وكتب وصيته ، فترك نقوده القليلة لأقاربه ، وأدواته لحلاقي المدينة الصحيين ، وفي ٢٤ سبتمبر ١٥٤١ أسلم جسده للتراب .

لقد كان رجلا قهرته عبقريته ، غنياً في الخبرة المنوعة والأحاسيس الذكية ، ناقصاً في تعليمه المدرسي نقصاً أعجزه عن فصل العلم عن السحر ، مفتقراً إلى ضبط النفس اللازم للسيطرة على حماسته المتأججة ، حاد الخصومة بحيث لم يستطع التأثير في جيله . ولعل حياته وحياة أجريبا أعانتا على تضخيم أسطورة فاوست . وإلى القرن الماضي كان يحج إلى قبره في سالزبورج ضحايا وباء تفشي في النمسا والأمل يراودهم في الشفاء بسحر روحه أو بسحر رفاته[٩٢] .

٨ — الشـكاكون

لم يكن القرن السادس عشر بالزمان الصالح للفلسفة ، فقد استغرق اللاهوت المفكرين الناشطين ، وسير الإيمان العقل في ركابه بعد أن سيطر على كل شيء. ورفض لوثر العقل لأنه ينزع بصاحبه إلى الكفر[٩٣] ، ولكن حالات الكفر كانت نادرة. فقد أحرق قسيس هولندي في لاهاي (١٥١٢) لإنكاره الخليقة والخلود ولاهوت المسيح[٩٤] ، ولكنه لم يكن واضح الكفر . كتب أخباري إنجليزي تحت سنة ١٥٣٩ « مات هذا العام في جامعة باريس

طبيب عظيم أنكر وجود الله ، وكان هذا رأيه الذى ثبت عليه منذ كان فى العشرين ، وقد عمر إلى ما بعد الثمانين ، واحتفظ بضلالته هذه سراً طوال هذه السنين[٩٥] ». وفى عام ١٥٥٢ نشر جيوم بوستل كتابه Contra atheos ولكن كلمة atheist (أى الملحد) قلّ أن ميّز القوم بينها وبين القائل بمذهب الألوهية ، أو القائل بوحدة الوجود ، أو الشكاك .

على أنه وجد من الشكاكين عدد يكفى لنيل صفعة من لوثر ، فقد روى أنه قال « إن مواد قانون الإيمان أسمى من أن يدركها أبناء هذا العالم العميان . فوحدة الأقانيم الثلاثة فى إله واحد ، وتجسد ابن الله الحق ، ووجود طبيعتين للمسيح هما لاهوته وناسوته ، إلخ . . . . . كل هذا يؤذيهم لأنهم يرون فيه حديث خرافة » ؛ ثم أضاف إن بعضهم يتشككون فى أن الله خلق أناساً عرف من قبل أنهم هالكون[٩٦] . وكان فى فرنسا بعض المتشككين فى الخلود[٩٧] . من ذلك أن بونافنتور دسبرييه سخر فى كتابه Cymbalum mundi (١٥٣٧) بالمعجزات ، وبتناقضات الكتاب المقدس ، وباضطهاد أصحاب البدع الدينية . وقد ندد كالفن والسوربون بكتابه هذا ، فأحرقه جلاد الدولة . واضطرت مارجريت إلى إقصائه عن بلاطها فى نيراك ، ولكنها بعثت إليه بالمال لتحفظ عليه حياته فى ليون : وفى عام ١٥٤٤ قتل نفسه ، وترك مخطوطاته لمارجريت « دعامة كل صلاح وحاميته »[٩٨] ؛

وظهرت روح الشك فى ميدان السياسة متخذة صورة هجمات على حق الملوك الإلهى وحصاناتهم ، وكان الشكاك هنا عادة إما من المفكرين البروتستنت الذين ضايقهم الحكام الكاثوليك ، وإما من المفكرين الكاثوليك الذين يدفعون الثمن غالياً إذا انتصرت الدولة.

وقد نشر الأسقف جون بونيت– وكان ساخطاً على مارى تيودور – فى عام ١٥٥٨ « بحثاً موجزاً فى السلطة السياسية » . قال فيه « إن الأمثلة الكثيرة والمتصلة ، التى وجدت بين الحين والحين ، لخلع الملوك وقتل الطغاة تؤكد على وجه اليقين أن من أحق الحق والعدل والتمشى مع قضاء الله . . . القول بأن سلطان الملوك والأمراء والحكام مصدره الشعب . . . وإن للناس أن يستردوا تفويضهم . . . حين يشاءون »[٩٩] . كذلك كان من رأى أستاذ اسكتلندى يدعى جون ميجر ، (وكان له بعض الفضل فى تكوين عقل جون نوكس) ، أنه ما دام كل سلطان زمنى مشتقاً من إرادة الجماعة ، فان من الجائز خلع الملك الطالح وإعدامه ، شريطة اتخاذ الإجراء القانونى الواجب .

أما أطرف خصوم الحكم الملكى المطلق فهو كاثوليكى شاب حقق قدراً متواضعاً من الخلود بموته بين ذراعى مونتينى . يقول كاتب المقالة الفذ « إن إتيين دلا بويتى كان فيما أعلم أعظم رجل فى عصرنا[١٠٠] » . وقد ولد إتيين هذا لموظف كبير فى بيريجور ، ودرس القانون فى أورليان ، ثم عين مستشاراً فى « برلمان » بوردو قبل بلوغه السن القانونية . وحوالى عام ١٥٤٩ ، يوم كان فتى فى التاسعة عشرة ألهمته الأفكار الجمهورية دراسته للأدب اليونانى والرومانى ، كتب هجوماً عنيفاً على الحكم المطلق – ولكنه لم ينشره قط – وسمى كتابه « مقال عن العبودية الاختيارية Discours lus la servitude volontaire » . ولكن بما أن الكتاب ندد بدكتاتورية فرد واحد يتحكم فى الكثيرين ، فقد سمى Contr' un (أى خصم الواحد) . فليسمع القارئ نداءه :

« أى عار وأى خزى فى أن يطيع عدد لا يحصى من الرجال طاغية عن رضى واختيار ، بل بروح العبيد ! طاغية لا يدع لهم حقوقاً فى عقار أو أبوين أو زوجة أو والد ، ولا حتى فى حياتهم ذاتها — فأى نوع من الرجال هذا الطاغية ؟ ما هو بهرقول ولا بشمشون ؛ بل كثيراً ما يكون قزماً ، وكثيراً ما يكون أشد الجبناء تخنثاً فى الشعب كله — فليست قوة بدنه هى التى تضفى عليه النفوذ والسلطة ، وكثيراً ما يكون عبداً لأحط المومسات . ليت شعرى ما أشقى رعاياه وأحقرهم ؛ إن كان اثنان ، أو ثلاثة. أو أربعة ، لا يثورون على واحد ، فذلك معناه الواضح أن الشجاعة تعوزهم. أما إذا كان المئات والألوف لا يخلعون عنهم نير فرد ، فما الذى يبقى من الإرادة الفردية والكرامة الإنسانية ؟ . . . إن حصول الفرد على حريته لا يقتضى بالضرورة استعمال القوة ضد الطاغية . إنه يسقط حالما تمل البلاد وجوده . ولا حاجة بالشعب الذى أذله واستعبده أن يحرمه أى حق له . فالتحرر لا يتطلب شيئاً أكثر من الإرادة الصادقة لخلع النير . . . فاعزموا عزماً صادقاً على ألا تكونوا عبيداً بعد اليوم — وإذا أنتم أحرار ! أمسكوا عن الطاغية المعونة يسقط ويتحطم كأنه تمثال عملاق سحبت قاعدته من تحت قدميه(١٠١) .

ومضى لابويثى يشكل بآرائه فكر روسو وتوم بين من بعده . فهو يقول إن الإنسان يتوق بطبعه إلى الحرية ، ومفارقات الحظ هى بنت الصدفة ، وهى تحمّل المحظوظين الالتزام بخدمة إخوتهم فى الإنسانية ، وكل الناس إخوان « صنعوا من طينة واحدة » ، وصانعهم إله واحد. والعجيب أن قراءة هذا الرأى المتطرف هى التى جذبت مونتينى — على ما طبع عليه من اتزان وحيطة — إلى لابويثى ، وأفضت (١٥٥٧) إلى صداقة من أشهر الصداقات

فى التاريخ . وكان مونتينى يومها فى الرابعة والعشرين ، ولإتيين فى السابعة والعشرين، ولعل مونتينى كان آنئذ من الحداثة بحيث يستطيع تقبل العواطف المتطرفة . على أن صداقتهما سرعان ما ختمت بموت لابويتى ولما يجاوز الثانية والثلاثين (١٥٦٣) . ووصف مونتينى أيامه الأخيرة وكأنه يتذكر وصف أفلاطون لموت سقراط . وبلغت حدة إحساسه بفقد ذلك الفتى المشبوب العاطفة مبلغاً جعله يذكر موته — بعد أن انقضت عليه سبعة عشر عاماً — بشعور أشد عمقاً من ذكره لأى تجربة أخرى جاز بها فى حياته . ولم يكن راضياً عن طبع كتاب صديقه (Discours)وحزن حين نشره راعى كنيسة فى جنيف (١٥٧٦) . وقد علل تأليف الكتاب بروح الشباب السمحة ، وأرجع كتابته إلى سن أسبق هى السادسة عشرة. لقد أوشك هذا الصوت أن يكون صوت الثورة الفرنسية .

٩ — راموس والفلاسفة

كانت حياة بتروس راموس—بيير دلاراميه — لا تقل شاعرية عن حياة لابويتى ، وموته أشد عنفاً . لقد آلى على نفسه أن يخلع نير أرسطو . ، إذ رأى فيه حكم رجل واحد دام نيفاً وثلاثة قرون ، لا على أمة واحدة فحسب بل على أمم كثيرة ، لا على الجسد بل على العقل ، بل كاد يبسط سلطانه على الروح . أو لم ينصب هذا المفكر الوثنى فيلسوفاً رسمياً للكنيسة ؟ لقد فكر إنسانيو النهضة فى إحلال أفلاطون محله ، ولكن حركة الإصلاح البروتستنتى — أو الخشية من الحركة — أخذت تخنق الحركة الإنسانية ، وظلت الكلامية الأرسطاطالية ، سواء فى ألمانيا

البروتستنتية او فى فرنسا الكاثوليكية ، متربعة على العرش حين مات لوثر (١٥٤٦) الذى لعنها ؛ وبدا خلع هذا المقدونى عن عرشه فى نظر الشاب المفكر أحل صورة من صور قتل الطغاة . فلما تقدم راموس لدرجة الأستاذية من جامعة باريس عام ١٥٣٦ ، وكان يومها فى عامه الواحد والعشرين، اتخذ موضوعاً لرسالته هذه الدعوى القاطعة التى كان عليه أن يدافع عنها يوماً بطوله أمام من تجدوه من الكلية وخارجها : « كل ما قاله أرسطو باطل » .

كانت حياة راموس أشبه بنشيد يتغنى بالتعليم . فقد ولد قرب مدينة كالفن « نوايون » فى إقليم بيكاردى ، وحاول مرتين السفر إلى باريس على قدميه يحدوه تعطش إلى كلياتها ، ولكنه أخفق فى المرتين وقفل إلى قريته مهزوماً . ثم حالفه التوفيق فى عام ١٥٢٨ ، حين بلغ الثانية عشرة ، إذ التحق بخدمة طالب غنى يحضر للجامعة فى كلية نافار — وهى نفس الكلية التى سرقها فيون . وشق بيير طريقه فى منهج كلية الآداب العسير طوال سنوات ثمان ، يخدم نهاراً ويذاكر ليلا . وكاد يفقد بصره خلال ذلك ، ولكنه عثر على أفلاطون . يقول :

« حين جئت باريس وقعت فريسة لتدقيقات السفسطائيين ، فعلمونى الآداب الحرة بالأسئلة والمجادلات ، دون أن يدلونى على أية فائدة أو منفعة أخرى . فلما تخرجت . . . . انتهيت إلى أن هذه المجادلات لم تكن سوى مضيعة لوقتى . ولما أفزعتنى هذه الفكرة ، وهدانى ملك كريم ، وقعت على زينوفون ثم على أفلاطون ، ووصلت إلى معرفة فلسفة سقراط »[١٠٢] .

ما أكثر من وصلوا منا فى عهد الشباب إلى هذا الكشف المبهج ، وسعدوا يوم التقوا فى أفلاطون بفيلسوف سرت الخمر والشعر فى عروقه ، وسمع صوت الفلسفة فى هواء أثينا نفسه ، وأمسك بها وهى محلقة ، وأسلمها

إلى الأجيال التالية وهى لا تزال تحمل نسمة الحياة ، وأصوات بسقراط وتلاميذه لا تزال تجلجل بقوة النقاش ونشوة الجدل حول أشد المسائل إثارة فى العالم ! يا لها من راحة يستمتع بها المرء بعد صفحات أرسطو المملة ، بعد الإسهاب فى حديث « توسط الطريق » ، « والوسط غير الأمثل » ! بالطبع كنا — وكان راموس — غير منصفين لأرسطو ، إذ نقارن مذكرات محاضراته المحكمة بمحاورات أستاذه الميسرة ، ولا يستطيع تقدير الفيلسوف المقدونى سوى الراسخين فى العلم . فلقد كان أرسطو الذى عرفه راموس هو أولا منطيق « الأورجانون » ، أرسطو المدارس ، الذى لا يكاد يثبت لمحنة الترجمة إلى لاتينية الكلاميين ، ومحنة التحويل السحرى إلى أكوينية تقليدية مسيحية طيبة . ويقول راموس إنه أنفق ثلاث سنين فى دراسة منطق أرسطو دون أن يبصره أحد بفائدة واحدة أو تطبيق واحد له فى العلم أو الحياة(١٠٢) .

وأنها لمفخرة لكلية باريس ، ولعلم راموس وحذقه وشجاعته ، أن يمنح درجة الأستاذية التى تقدم لنيلها ؛ ولعل الأساتذة أيضاً كانوا قد سئموا المنطق والاعتدال . ولكن بعضهم صدموا وأحسوا أن بضاعتهم لحقها ضرر من نقاش ذلك اليوم . وبدأت عداوات لم تفتأ تلاحق راموس حتى مماته .

وخولت له درجة الأستاذية الاشتغال بالتدريس ، فبدأ لفوره فى الجامعة سلسلة من المحاضرات مزج فيها الفلسفة بأدب اليونان والرومان . وكثر تلاميذه ، وتضاعف كسبه ، واستطاع أن يرد لأمه الأرملة ما بذلته من مدخراتها لتدفع رسوم تخرجه . وبعد سبعة أعوام من التحضير أصدر سنة ١٥٤٣ (وهى نفس « سنة العجائب » التى صدرت فيها كتب كوبرنيق وفيساليوس) ، كتابين واصلا حملته لإسقاط منطق أرسطو . وكان أحدهما ، وهو : « Aristotelicae animadversiones » هجوماً مباشراً صاغه أحياناً

فى عبارات من القدح لا هوادة فيها ، أما الآخر عن أقسام المنطق فقد قدم نسقاً جديداً يحل محل القديم . فأعاد تعريف المنطق باعتباره فن الحديث ، وجمع بين المنطق والأدب والخطابة فى طريقة إقناع فنية واحدة . وتوجس المهيمنون على الجامعة — ولهم العذر فى توجسهم — مما قد يجر إليه هذا المأخذ من أخطار . يضاف إلى هذا ارتيابهم فى بعض قضايا راموس التى شموا منها رائحة الهرطقة ، كقوله مثلا : « إن عدم التصديق بداية المعرفة »(١٠٤) — وهذا تشكك ديكارتى سابق لديكارت ، أو طلبه مزيداً من دراسة الكتب المقدسة بدلا من دراسة مجلدات الفلاسفة الكلاميين — وكان لهذا الطلب رنين بروتستنتى ، أو تعريفه اللاهوت بأنه doctrina bene vivendi وهو تعريف هدد باحالة الدين أخلاقاً . ثم هناك طرق راموس المثيرة للغيظ ، وكبرياؤه ومشاكسته ، وأساوبه الجدلى العنيف ، وترفعه القاطع على القطع بالعقيدة .

وما إن نشر الكتابان حتى دعا مدير الجامعة راموس للمثول أمام رئيس بلدية باريس بوصفه عدواً للدين ، ومكدراً للسلام العام ، ومفسداً للشباب بالبدع الخطرة . وعقدت المحاكمة أمام لجنة ملكية من خمسة أعضاء — اثنان عينهما راموس ، واثنان متهموه ، وخامس فرانسوا الأول . ولم يرض راموس عن إجراءات المحاكمة ، فسحب مندوبيه . وأصدر الثلاثة الباقون حكمهم ضده (١٥٤٤) ، فمنع بأمر ملكى من المحاضرة ، أو النشر ، أو المزيد من مهاجمة أرسطو . وعلقت صورة الحكم فى أرجاء عديدة من المدينة ، وأرسلت إلى الجامعات الأخرى . وأخرج الطلاب هرليات كموا فيها براموس ، وسخر رابليه من هذا الشجار باشراك الآلهة فيه .

ولزم راموس الصمت فترة ، ثم بدأ سلسلة من المحاضرات فى كلية آفى ماريا ، ولكنه اقتصر على تدريس البلاغة والرياضيات ، وأغضت الحكومة عن المخالفة . وفى عام ١٥٤٥ أصبح المدير المساعد لكلية بريسل ،

ولما لبثت قاعة محاضراته أن ازدحمت بالطلاب . فلما تولى هنرى الثانى العرش بعد فرانسوا الأول ألغى الحكم الصادر على راموس وتركه « حر اللسان والقلم » ، وبعد عام عينه فى كرسى بالكلية حيث يعنى من أشراف الجامعة .

أما وقد بلغ راموس قصاراه إذ غدا أشهر معلم فى باريس ، فانه خصص الكثير من وقته وجهده لإصلاح الطرق التربوية . وإذا كان قد اتكأ على « البلاغة » — وكانت آنئذ تعنى الأدب — فلم يكن هذا لتنشيط الفلسفة بالشعر فحسب ، بل لبث إنسانية نابضة بالحياة فى مناهج صيرتها التجريدات والقواعد الكلامية جافة عسيرة . وفى خمس مقالات عن النحو طبق المنطق على اللغة ، ورجا أن يصبح الهجاء الفرنسى صوتياً ، ولكن هذا الهجاء واصل سيره المترنح ، على أنه نجح فى أن يدخل فى الأبجدية الفرنسية حرفى j و v ليحلا محل الحرفين الساكنين i و u . ثم شجع تقرير المنح الدراسية لفقراء الطلبة ، ذاكراً كفاحه وهو مملق فى سبيل التعليم ، وندد بالرسوم الباهظة التى تتقاضاها الجامعات عن التخرج ، وناضل فى الوقت نفسه لرفع رواتب المدرسين .

وفى عام ١٥٥٥ نشر كتابه Dialectique ، وهو أول كتاب فى المنطق بالفرنسية . وكان يحاج الآن لا عن الإقناع بالجدل والمنطق فحسب ، بل دفاعاً عن العقل . كان بفطرته عدواً للنزعة التقليدية ولمجرد الاستشهاد بالثقات ، وقد رأى فى العقل المرجع الوحيد الذى يحتكم إليه ، وآمن فى حماسة رجال النهضة أن العقل سيبلغ بالعلوم جميعها مرتبة تقرب من الكمال فى قرن واحد لو أطلق له العنان[١٠٥] . كتب يقول : «كان شغلى الشاغل أن أزيح من طريق الآداب الحرة . . . كل العقبات والمعوقات الفكرية ، وأن أعبد هذا الطريق وأقومه ، لا تيسيراً للتفكير فحسب ، بل لممارسة الآداب الحرة واستخدامها[١٠٦] » .

وأغراه خلقه وفلسفته بالتعاطف مع الثورة البروتستنتينية . فلما حصل الهيجونوت حيناً على التسامح من الحكومة ، بل وعلى الاشتراك فيها ، أعلن راموس اتباعه المذهب الإصلاحي الجديد (١٥٦١) . وفى بواكير عام ١٥٦٢ مزق بعض تلاميذه الصور الدينية المعلقة فى كنيسة كلية بريسل . وواصلت الحكومة دفع راتبه ، ولكن مركزه كان يزداد حرجاً . فلما نشبت الحرب الأهلية (١٥٦٢) غادر باريس بترخيص مرور من كاترين دى مديتشى ، ثم عاد بعد عام حين وقعت معاهدة الصلح . وقد رفض فى أدب دعوة وجهت إليه ليشغل كرسياً فى جامعة بولونيا ، معتذراً بأن فرنسا طوقت عنقه بدين لا يسمح له بالرحيل عنها .

أما المعركة التى أفضت إلى موته فقد أصبحت علنية حين أفلح ألد أعدائه المدعو جاك شاربنتييه ، فى أن يشترى بالمال كرسى الرياضيات بالكلية الملكية (١٥٦٥)[١٠٧] ، على الرغم من اعترافه صراحة بجهله فى العلوم الرياضية . وندد راموس بهذا التعيين ، فهدده شاربنتييه ، ولجأ راموس إلى المحاكم لتحميه ، فأودع شاربنتييه السجن ، ولكن أفرج عنه بعد قليل ، وحاول بعضهم اغتيال راموس مرتين ، فلما استؤنفت الحرب الأهلية بين الكاثوليك والبروتستنت (١٥٦٧) غادر باريس ثانية . وقضت الحكومة الآن بألا يقوم بالتدريس فى الجامعة أو الكلية الملكية غير الكاثوليك . فلما عاد راموس إلى باريس اعتزل الحياة العامة ، ولكن كاترين واصلت دفع راتبه وضاعفته ، وأصبح حراً فى أن يفرغ للدرس والتأليف .

وفى يوليو ١٥٧٢ دعاه مونلوك أسقف فالانس للانضمام إلى بعثة موفدة لبولنده ، ولعل الأسقف توقع حدوث مذبحة القديس بارتولوميو ، وفكر فى حماية الفيلسوف الشيخ . ولكن راموس رفض ، إذ لم يرقه مشروع تنصيب الأمير هنرى أنجو على عرش بولندة . وسافر مونلوك فى ١٧ أغسطس ،

وبدأت المذبحة يوم ٢٤ . وفى اليوم السادس والعشرين اقتحم رجلان مسلحان كلية بريسل وصعدا إلى الطابق الخامس حيث مكتب راموس . ووجداه يصلى فرماه أحدهما برصاصة فى رأسه ، وطعنه الآخر بسلاحه ؛ ثم قذفه الاثنان معاً من النافذة . وجر الطلبة أو الرعاع الجسد الذى مازال ينبض بالحياة إلى نهر السين وألقوه فيه ، وأخرجه نفر آخر منهم وقطعوه إرباً[١٠٨] . أما من الذى استأجر القتلة فعلمه عندالله ، ويبدو أنها ليست الحكومة ؛ فالظاهر أن شارل التاسع وكاترين ظلا راضيين عن راموس إلى النهاية[١٠٩] ؛ واغتبط شاربنتييه بالمذبحة وبقتل خصمه : « هذه الشمس الساطعة التى أضاءت فرنسا خلال شهر أغسطس . . . لقد زال الهراء بزوال صاحبه . وكل الناس الطيبين يفيضون بشراً[١١٠] » . وبعد عامين مات شاربنتييه نفسه ؛ بتأنيب الضمير كما يقول بعضهم ، ولكن ربما كان هذا شرفاً لا يستحقه .

لقد بدا راموس مهزوماً سواء فى الحياة أو التأثير . فأعداؤه انتصروا عليه ، ومع أن بعض « الراموسيين » سمعت أصواتهم فى الجيل التالى فى فرنسا وهولندة وألمانيا ، فان الفلسفة الكلامية التى حاربها استعادت تفوقها ، ونكست الفلسفة الفرنسية رأسها حتى جاء ديكارت . ولكن إذا كانت الفلسفة لم تحرز فى هذه الحقبة إلا كسباً ضئيلا ، فان الخطوات التى خطاها العلم كانت خطيرة ؛ لقد بدأ العلم الحديث بكوبرنيق وفيساليوس . وتضاعفت المساحة المعروفة من الدنيا ، وتغير منظر العالم كما لم يتغير قط من قبل فى التاريخ المدون . وأخذت المعرفة تنمو سريعاً من حيث المجال والانتشار ، وراح استعمال اللغات الوطنية فى العلم والفلسفة — على نحو ما فعل باريه وباراسيلسوس فى الطب ، وراموس فى الفلسفة — يتسع فيشمل تعليم الطبقات الوسطى وأفكارها التى اقتصرت من قبل على المتخصصين من العلماء والقساوسة . وتحطمت « كعكة التقاليد » ، وانكسر قالب العقيدة ؛ وتهاوت قبضة الاستناد إلى السلف . وحل الإيمان من مراسيه فتدفق بحرية جديدة متخذاً أشكالا لا حصر لها .

كان كل شيء يجرى متدفقاً إلا الكنيسة . ووقفت حيناً وسط هذه الثورة حائرة مشدوهة ، لا تكاد أول الأمر تدرك خطورة الأحداث ؛ ثم تصدت فى عزيمة وتصميم لذلك السؤال الخطير الذى واجهها : أمن واجبها أن تكيف تعاليمها وفق مناخ الأفكار وسيولتها الجديدين ، أم تقف جامدة وسط كل التقلبات ، وتنتظر حتى يرد بندول الفكر والعاطفة الناس ، فى تواضع وتعطش ، إلى تعزياتها وسلطانها ؟ وكان جوابها عن هذا السؤال هو الفيصل فى تاريخها الحديث .

الكتاب الخامس

معارضة الإصلاح البروتستنتي

١٥١٧ — ٦٥

الفصل الثامن والثلاثون

الكنيسة والإصلاح

١٥١٧ – ٦٥

١ – المصلحون البروتستنت الإيطاليون

ما كان المرء ليتوقع أن يجد فى إيطاليا الوثنية مناخاً ، المشركة بنية ، المحبذة لإيمان لطيف فنان ، الآهلة بالقديسين الخالدين تتنقل صورهم – سواء المرهبة منها والمحبوبة – كل سنة بين الشوارع ، المثرية بفضل الذهب الذى يبعث به إلى الكنيسة العديد من الدول التابعة – نقول إن المرء ما كان ليتوقع أن يجد فى بلد كهذا رجالا ونساء آلوا على أنفسهم أن يغيروا هذا الإيمان الجميل المقدس – ولو لقوا دون هذا حتفهم أحياناً – بعقيدة كابية سندها السياسى هو كره أمم الشمال أن تسمن إيطاليا بعائدات تدينها . ومع ذلك فقد ظهر فى كل مكان بإيطاليا أناس شعروا بالمفاسد التى حطت من قدر الكنيسة شعوراً أحد وأصدق حتى من شعور الألمان أو السويسريين أو الإنجليز . وكانت الطبقات المتعلمة تطالب فى إيطاليا أكثر منها فى أى بلد آخر بتحرير العقل من الولاء للأساطير التى سحرت الجماهير وسيطرت عليها حتى ولو كان هذا الولاء ظاهرياً ، هذا مع أن هذه الطبقات المتعلمة كانت تتمتع فعلا بقسط من حرية التعليم والتفكير .

ظهرت بعض كتابات لوثر فى أكشاك الكتب بميلانو فى عام ١٥١٩ ، وبالبندقية فى عام ١٥٢٠ . واجترأ راهب فى كاتدرائية القديس مرقس نفسها (بالبندقية) على التبشير بتعاليم لوثر . وكتب الكردينال كارافا إلى البابا كلمنت السابع (١٥٣٢) يقول إن الدين هبطت أسهمه

فى البندقية ، وإن القليلين جداً من البنادقة يراعون الأصوام أو يجلسون على كرسى الاعتراف . وإن كتب الهرطقة رائجة هناك . ووصف كلمنت نفسه البدعة اللوثرية بأنها واسعة الانتشار بين صفوف الكهنة والعلمانيين فى إيطاليا . وفى عام ١٥٣٥ زعم المصلحون الدينيون الألمان بأن لهم ثلاثين ألفاً من الأتباع فى موطن الكنيسة الكاثوليكية(١) .

كانت أرفع السيدات مقاماً فى فرارا بروتستنتية غيوراً . فقد تشربت رينيه ابنة لويس الثانى عشر الأفكار الجديدة من مارجريت النافارية من جهة ، ومن مربيتها مدام سوبيز من جهة أخرى . وجاءت الأميرة بهذه السيدة معها حين تزوجت (١٥٢٨) من إركولى دستى ، الذى أصبح (١٥٣٤) ثانى دوق بهذا الاسم يحكم فرارا . وزارها كالفن هناك (١٥٣٦) وزاد معتقداتها البروتستنتية قوة وحدة . ووفد عليها كليمان مارو ، ثم أوبير لانجيه الفقيه الهيجونوتى . وتلقاهم إركولى جميعاً بأسلوب النهضة المهذب إلى أن صاح أحدهم خلال عبادة الصليب فى يوم السبت المقدس (١٥٣٦) « idolatria ! » (أى عبادة أوثان !) ، وهنا سمح إركولى لمحكمة التفتيش باستجوابهم . فهرب كالفن ومارو ، أما الباقون فيلوح أنهم نجوا بعد أن أكدوا سلامة عقيدتهم . ولكن رينيه جمعت بعد عام ١٥٤٠ حاشية بروتستنتية جديدة وانقطعت عن حضور الصلوات الكاثوليكية . وهدأ إركولى ثائرة البابا بنفيها إلى فيلا الدوق فى كونساندولو على نهر بو ، ولكنها أحاطت نفسها هناك أيضاً بالبروتستنت ، ونشأت بناتها على المذهب الإصلاحى الجديد . ولما خشى إركولى أن تصبح بناته البروتستيت بباذق عديمة القيمة فى شطرنج الزيجات السياسية نقلهن إلى دير للراهبات . وأخيراً سمح لمحكمة التفتيش بتوجيه الاتهام إلى رينيه وأربعة وعشرين شخصاً من بيتها . فدينت بالهرطقة وحكم عليها بالسجن المؤبد (١٥٥٤) . وهنا أعلنت إنكارها للهرطقة ، وتناولت القربان المقدس ، وأعيدت إلى حظيرة الدين

والسياسة[٢] ، ولكن آراءها الحقيقية وجدت تعبيراً صامتاً فى تلك العزلة الحزينة التى أنفقت فيها سنى عمرها الأخيرة . وبعد موت إركولى (١٥٥٩) عادت إلى فرنسا ، حيث جعلت من بيتها فى مونتارجى ملاذاً يحتمى به الهيجونوت .

كذلك مرت مودينا بلحظة بروتستنتية مثيرة ، وكانت هى أيضاً تحت حكم إركولى . وذلك أن أكاديمية العلماء والفلاسفة فيها سمحت بقسط كبير من حرية النقاش ، واشتبه فى هرطقة بعض رجالها ومنهم جابرييلى فاللوبيو تلميذ فيساليوس وخليفته . وكان راهب سابق يدعى باولو ريتشى يندد بالبابوية صراحة فى عظاته . وراح الناس يناقشون الأفكار اللوثرية فى الحوانيت والميادين والكنائس . وقبض على ريتشى وآخرين . وبسط الكردينال سادوليتو حمايته على الأكاديميين بحجة أنهم موالون للكنيسة وأن من الواجب إطلاق البحث لهم بوصفهم علماء[٣] . وقنع البابا بولس الثالث بتوقيعاتهم على اعتراف بالإيمان ، ولكن إركولى فض الأكاديمية (١٥٤٦) ، وأعدم لوثرى عنيد فى فرارا (١٥٥٠) ؛ وفى عام ١٥٦٧ ، حين عنفت الرجعية الكاثوليكية ، أحرق ثلاثة عشر رجلا وامرأة واحدة بتهمة الهرطقة فى مودينا .

وفى لوتشا أنشأ بييترو مارتيرى فرميلى ، رئيس دير الكهنة الأغسطينيين ، أكاديمية رفيعة المستوى ، وجلب لها أفذاذ المعلمين ، وشجع حرية المناقشة ، وقال لجمهوره الكبير من المصلين إن لهم أن ينظروا إلى سر القربان لا على أنه تحول معجز بل تذكر ورع لآلام المسيح ، وكان فى هذا لوثرياً أكثر من لوثر . فلما استدعى للمثول بين يدى مجلس رهبنته فى جنوة لاستجوابه هرب من إيطاليا ، وندد بأخطاء الكاثوليكية ، ومفاسدها ، وقبل وظيفة أستاذ للاهوت فى أكسفورد (١٥٤٨) . وقد شارك فى صياغة كتاب « الصلوات العامة » (١٥٥٢) بقسط مختلف

فيه ، وغادر إنجلتره حين استعادت الكاثوليكية سلطانها فيها ، ومات أستاذاً للعبرية بزيوريخ عام ١٥٦٢ . وقد حذا ثمانية عشر كاهناً من ديره فى لوتشا حذوه ، فهجروا رهبنتهم ورحلوا عن إيطاليا .

كان الفضل فى توجيه فرميلي وسورانو أسقف برجامو وكثيرين غير هذين إلى الأفكار الجديدة لرجل يدعى جوان دى فالديس . ولعله هو وشقيقه ألفونسو ، وهما من أسرة قشتالية عريقة ، ألمع التوائم مواهب فى التاريخ . أما ألفونسو ، تلميذ إرزمس الوفى ، فقد أصبح سكرتيراً لاتينيا لشارل الخامس ، وكتب **Dialogo de Lactano** (١٥٢٩) ، وفى هذا الحوار دافع عن « نهب روما » ، وقال إن لوثر ما كان ليترك الكنيسة قط لو أنها أصلحت المفاسد التى ندد بها عن حق بدلا من أن تحكم بادانته . وأما جوان فقد شارك فى هذا الكتاب ذاته بحوار سماه **Dialogo de Mercurio y caron** ، كانت هرطقاته سياسية ، من ذلك قوله إن من الواجب إلزام الأغنياء بكسب قوتهم ، وإن ثروة الأمير ملك للشعب ، وينبغى ألا تبدد فى حروب أمبريالية أو دينية[4] . وآثر كلمنت السابع جوان بطبيعة الحال ، فعينه أميناً بالقصر البابوى حين كان فى الثلاثين من عمره . على أن جوان رحل إلى نابولى حيث انقطع للتأليف والتدريس ، وظل على ولائه للكنيسة ، ولكنه حبذ عقيدة لوثر فى التبرير بالإيمان ، ورأى للتصوف المخلص قدراً يسمو فوق أى طقس خارجى من طقوس العبادة . والتف حوله جماعة ممتازة من الرجال والنساء وارتضوا زعامته : كفرميلى ، وأوكينو ، والشاعر ماركانطونيو فلامينيو ، وبيترو كارنيزيكى ، وفيتوريا كولونا ، وكوستانزا دافالوس دوقة أمالفى ، وإيزابللا مانريكيز أخت رئيس محكمة التفتيش الأسبانية ، وجوليا جونزاجا التى عرفنا ما كانت تتمتع به من جمال رائع . وبعد أن مات جوان فالديس (١٥٤١) تفرق تلاميذه فى أرجاء

أوربا . وظل بعضهم وفياً للكنيسة كفتوريا كولونا ، وطور آخرون تعاليمه فبلغوا بها الهرطقة السافرة . وقطعت رءوس ثلاثة من صغار تلاميذه وأحرقوا فى نابلى عام ١٥٦٤ ، وكذلك كانت نهاية كارنيزيكى بروما فى عام ١٥٦٧ . أما جوليا جونزاجا فقد أنقذها موت البابا بولس الرابع ، وكان رجلا قاسياً لا يرحم، ودخلت ديراً للراهبات (١٥٦٦) وهكذا انتهت جماعة الإصلاح النابولية .

أما برناردينو أوكينو فقد جاز بكل مراحل التطور الدينى . عاش فى مدينة سيينا بقرب مسقط رأس القديسة كاترين ، حياة تضارع حياتها تقوى وورعاً . وانضم إلى رهبان الفرنسسكان ولكنه وجد نظامهم أكثر رخاوة مما يلائم مزاجه ، فانتقل إلى رهبنة الكبوشيين الأكثر صرامة . وقد عجب الرهبان من نكرانه النسكى لذاته ، وإذلاله العنيف لجسده ، ولما نصبوه وكيلا عاماً لهم أحسوا أنهم اختاروا قديساً . وترددت مواعظه فى أرجاء إيطاليا – فى سيينا ، وفلورنسة ، والبندقية ، ونابلى ، وروما ؛ إذ لم تسمع البلاد نظيرها حرارة أو بلاغة منذ عهد سافونارولا قبل ذلك بقرن . وذهب شارل الخامس ليسمعه ، وتأثرت فتوريا كولونا به أعمق التأثر ، أما بيترو أريتينو ، الذى جرب كل الخطايا تقريباً ، فقد حركه الاستماع إليه فانقلب مفرطاً فى تقواه . وضاقت كل الكنائس بسامعيه على رحابتها ، ولم يخطر ببال أحد أن هذا الرجل سيموت مهرطقاً .

ولكنه التقى بفالديس فى نابلى ، وبفضله ألم بمؤلفات لوثر وكالفن . ووافقت عقيدة التبرير بالإيمان روحه ، فبدأ يلمح لها فى عظاته . وفى عام ١٥٤٢ دعى للمثول أمام السفير البابوى فى البندقية ومنع من الوعظ . وما لبث البابا بولس الثالث أن دعاه إلى روما ليناقش معه الآراء الدينية لبعض الرهبان الكبوشيين . ولعل أوكينو كان يثق بالبابا المستنير ، ولكنه خاف ذراع محكمة التفتيش الطويلة ، وحذره الكردينال كونتاريني من

الخطر المحدق به . وفجأة قرر قديس إيطاليا ومعبودها هذا ، بعد أن التقى ببيتر فرميلى فى فلورنسة ، أن يحذو حذوه ويعبر جبال الألب إلى بلد بروتستنتى ، وأعطاه أخ لفتوريا كولونا جواداً ، وفى فرارا أعطته رينيه ثياباً . ومضى مخترقاً إقليم جريزون إلى زيوريخ ومنها إلى جنيف . وقد أبدى استحسانه للنظام البيورتانى الذى كان كالفن يرسى أسسه هناك ، ولما كانت ألمانيته أقوى من فرنسيته فقد انتقل إلى بازل ثم إلى ستراسبورج ثم إلى أوجزبورج ، محاولا كسب قوته بلسانه أو قلمه . وفى عام ١٥٤٧ دخل شارل الخامس أوجزبورج سيداً على ألمانيا بعد ان سحق البروتستنت فى مولبرج . ونمى إليه أن الراهب الكبوشى الذى سمعه فى نابلى يعيش هناك رجلا متزوجاً ، فأمر القضاة بالقبض عليه ، ولكنهم تستروا على فرار أوكينو ، الذى هرب إلى زيوريخ وبازل . ولما أوشك زاده على النفاد ، تلقى دعوة من رئيس الأساقفة كرامر للذهاب إلى إنجلترة . وهناك عكف على العمل بوصفه كاهناً فخرياً يتقاضى معاش تقاعد فى كنتربرى ست سنوات (١٥٤٧ — ٥٣) ، وقد ألف كتاباً كان له أثر قوى فى قصيدة ملتن « الفردوس المفقود » . ولكنه عجل بالعودة إلى سويسرة حين اعتلت مارى تيودور العرش .

وحصل على وظيفة راع للكنيسة فى زيوريخ . ولكن الشعب استاء من آرائه التوحيديه ، وطرد حين نشر حواراً بدا فيه المدافع عن تعدد الزوجات أقوى حجة من نصير الزواج الواحد . ومع أن ذلك كان فى شهر ديسمبر (١٥٦٣) ، فقد أمر بمغادرة المدينة خلال ثلاثة أسابيع . ورفضت بازل الإذن له بالإقامة فيها . وسمح له بالمكث فترة وجيزة فى نورمبرج ، وما لبث أن خرج بأسرته قاصداً بولندة . وكانت يومها بالقياس إلى غيرها ملاذاً للمريبين من المفكرين . واشتغل بالوعظ فى كركاو زمناً ولكنه طرد حين نفى الملك جميع الأجانب غير الكاثوليك (١٥٦٤) . وفى الطريق من بولندة إلى مورافيا قضى الطاعون على ثلاثة من أبنائه الأربعة . ولم

يعش بعدهم سوى شهرين ، ومات فى شاكاو فى ديسمبر ١٥٦٤ وكانت آخر كلماته تقريباً « لست أريد أن أكون بولنجرياً ولا كالفينا ولا بابوياً ، بل مسيحياً فقط » (٥) . ولم يكن هناك أشد من هذا خطراً .

أما أن تتحول إيطاليا إلى البروتستنتية فكان بالطبع ضرباً من المحال .. فقد كان عامة الشعب هناك برغم عدائهم للاكليروس متعلقين بالدين وإن لم يؤموا الكنائس . كانوا يحبون الاحتفالات والمراسيم التى قدسها مرور الزمن ، ويحبون القديسين المعينين أو المعزين ، ويحبون العقيدة التى ندر تشككهم فيها ، والتى رفعت حياتهم من فقر بيوتهم إلى سمو أعظم الدرامات التى تصورها عقل الإنسان — وهى افتداء الإنسان الساقط بموت إلهه . وأعان خضوع إيطاليا السياسى لأسبانيا المغالية فى التدين على إبقاء شبهى الجزيرة كاثوليكيتين . وكانت ثروة البابوية ميراثاً إيطالياً ومصلحة ايطالية راسخة ، وأى إيطالى يرى القضاء على هذه المنظمة الجابية للجزية كان يبدو فى نظر معظم الإيطاليين مشرفاً على الجنون . وقد اختلفت الطبقات العليا مع البابوية باعتبارها قوة سياسية تتسلط على وسط إيطاليا ، ولكنها اعتزت بالكاثوليكية عوناً لا غنى عنه للنظام الاجتماعى والحكومة الحافظة للسلام ، وأدركت أن عظمة الفن الإيطالى مرتبطة بالكنيسة بفضل إلهام أساطيرها ومعونة ذهبها . لقد أصبحت الكاثوليكية ذاتها فناً ؛ وطغت عناصرها الحسية على عناصرها النسكية واللاهوتية ؛ فالزجاج المعشق ، والبخور ، والموسيقى ، والعمارة ، والنحت ، والتصوير ، وحتى الدراما — هذه كلها كانت فى الكنيسة ومن الكنيسة ، وبدت فى مجموعها المعجز جزءاً لا ينفصل عنها . ولم يكن بفنانى إيطاليا وعلمائها حاجة إلى التحول عن الكاثوليكية ، لأنهم حولوا الكاثوليكية إلى العلم والفن . وكان المئات بل الألوف من العلماء والفنانين يتمتعون بمعونة الأساقفة والكرادلة والبابوات ، وارتقى الكثير من الإنسانيين ، وبعض الشكاكين المؤدبين ،

إلى مكانة مرموقة فى الكنيسة . وأحبت إيطاليا الجمال القريب المنال حباً جماً لم يسمح لها أن تسلب نفسها فى سبيل الحقيقة البعيدة المنال . وهل وجد الحقيقة هؤلاء التيوتون المتعصبون ، أو ذلك البابا المصغر ، المتجهم ، الحاكم بجنيف ، أو ذلك الغول القاسى المتربع على عرش إنجلترا ؟ وأى هراء محزن يتصايح به هؤلاء المصلحون — فى الوقت الذى نسيت فيه الطبقات المثقفة فى إيطاليا الجحيم والهلاك كل النسيان ! كان فى وسع المرء أن يفهم الرفض الصامت المستتر للاهوت المسيحى إيثاراً لربوبية غامضة لطيفة ، أما تغيير سر التحول (تحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه) ليحل محله هول جبرية محتومة فذلك أشبه بالانتقال من رمزية مبهجة إلى سخافة انتحارية . وفى هذا الوقت بالذات ، بعد أن بسطت الكنيسة جناحيها الغافرين على نزعات الإيطاليين الوثنية ، كان كالفن يطالب الدنيا بأن تكبل نفسها بأغلال بيورتانية تهدد بتجريد الحياة من كل فرح وتلقائية . وأنى للبهجة والفن الإيطاليين أن يدوما إذا كف هؤلاء التيوتون والإنجليز الهمج عن إرسال نقودهم أو جلبها إلى إيطاليا ؟ .

٢ — المصلحون الكاثوليك الإيطاليون

ونتيجة لهذا كله اتجه الإجماع فى إيطاليا إلى ضرورة الإصلاح داخل الكنيسة . والحق أن رجال الكنيسة المخلصين ظلوا قروناً يسلمون بالحاجة إلى الإصلاح الكنسى بل ويطالبون به . ولكن تفجر حركة الإصلاح البروتستنتى وتقدمها أضافا إلحاحاً جديداً على الحاجة والمطالبة « وانصب على رأس الإكليروس سيل غامر من الشتائم فى المئات والألوف من النبذ والصور الساخرة »(٦) . ومس« نهب روما » ضمير الكرادلة وجماهير الشعب المرتاعين كما مس دخولهم . وأعلن عشرات من القساوسة أن هذه الكارثة نذير من الله . وفى عظة للأسقف ستافيليو أمام الروتا (وهو فرع قضائى

من الإدارة البابوية) عام ١٥٢٨ علل ضرب الله لعاصمة العالم المسيحى بعبارات أشبه ما تكون بلغة البروتستنت فقال « لأن البشر كلهم فسدوا ؛ إننا لسنا مواطنى مدينة روما المقدسة ، بل مواطنى بابل ، مدينة الفساد »(٧) . وهو ما قاله اوثر .

قبيل عام ١٥١٧ ، فى تاريخ غير مؤكد ، أسس جوفانى بيترو كارافا والكونت جاتانو داتينى « مصلى الحب الإلهى » فى روما للصلاة وإصلاح الذات . واختلف إلى المصلى خمسون من الرجال التابهين ، منهم إياكوبو سادوليتو ، وجاناتيو جيبرتى ، وجوليانو داتى . وفى عام ١٥٢٤ أسس جاتانو طريقة للاكليريكيين النظاميين ، وهم قساوسة علمانيون يخضعون نفسهم للنذور الديرية . وفض المصلى بعد « نهب روما » ، والتحق كارفا وآخرون بالطريقة الجديدة التى اتخذت لها اسماً هو التياتية ، نسبة إلى تياتى أوتشييتى ، مقر أسقفية كارافا . وقبل فى الطريقة رجال مرموقون مثل : بيترو بيميو ، وماركانطونيو فلامينيو ، ولويجى بريولى ، وجاسبارو كونتارينى ، وريجنالد بولى . . . وكلهم نذروا أنفسهم للفقر ، والعناية بالمرضى ، وحياة الفضيلة الصارمة ، وكان هدفهم كما قال أول مؤرخ لهم : « تعويض ما فى الإكليروس من نقص ، بعد أن أفسدت رجاله الرذيلة والجهل مما أفضى إلى خراب الشعب »(٥) . وانتشر أعضاء الطريقة فى شتى أنحاء إيطاليا ، وأسهم المثل الذى ضربوه كما أسهمت الإصلاحات البابوية والمجمعية ، والمثل الذى ضربه الكبوشيون والجزويت ، فى إصلاح خلق الإكليروس الكاثوليكى والبابوات . وضرب كارافا المثل بالتخلى عن كل وظائفه الكنسية ذات الموارد ، وتوزيع ثروته الكبيرة على الفقراء .

وكان جيبرتى فى شخصه وسيرته صورة للاصلاح الكاثوليكى . فهو فى بلاط ليو العاشر من أئمة الإنسانيين ، وفى عهد كامنت السابع أمين أول للادارة البابوية . وإذ هزته كارثة عام ١٥٢٧ ، اعتكف فى

أسقفيته بفيرونا ، وعاش عيشة الراهب المتقشف وهو بدير أسقفيته . وأزعجه انحلال الدين هناك — فالكنائس متهدمة ، والوعظ نادر ، والقساوسة يجهلون اللاتينية التي يتلون بها القداس ، والشعب لا يجلس إلى كرسي الاعتراف إلا نادراً . واستطاع بالقدوة الحسنة والمبدأ القويم وانتظام الحازم أن يصلح أكليروسه . يقول مؤرخ كاثوليكي « وسرعان ما ملئت السجون بالقساوسة ذوى الخليلات »[٩] وأعاد جيبرتي إنشاء أخوة البر Confraternita della Cartta التي أسسها الكردينال جوليانو دى مديتشي عام ١٥١٩ ، وبنى ملاجىء للأيتام ، وفتح مصارف الشعب لإنقاذ المقترضين من براثن المرابين . وقام بمثل هذه الإصلاحات الكردينال إركولى جونزاجا (ابن إيزابللا دستى) فى مانتوا ، وماركو فيدا فى ألبا ، وفابيو فيجيلى فى سبوليتو ، وكثير غيرهم من الأساقفة الذين أدركوا أن على الكنيسة أن تصلح ذاتها أو تموت .

وسلكت الكنيسة فى تاريخ لاحق العديدين من أبطال الإصلاح الكاثوليكي ، الذين عاونوا على إنقاذها ، فى عداد قديسيها . ومن هؤلاء القديس فيليب نيرى ، وهو نبيل فلورنسى شاب ، أسس فى روما (حوالى عام ١٥٤٠) جماعة غريبة تدعى Trinita de Pellegrini ويقضى نظام هذه الجماعة أن يحضر اثنا عشر علمانياً قداس الأحد ، ثم يحجون إلى إحدى الباسلقات ، أو إلى أحد المروج الريفية ، وهناك يلقون أو يسمعون أحاديث التقوى والورع ، ويترنمون بالموسيقى الدينية . وقد أصبح كثير من أعضاء الجماعة قساوسة ، وسموا أنفسهم « آباء المصلى » ، ومن ميولهم الموسيقية أضافت كلمة oratorio — التى تعنى فى الأصل مكان الصلاة — معنى جديداً إلى معناها القديم ، وهو الترنيمة الكورالية . ومنهم القديس شارل بوروميو — ابن أخى البابا بيوس الرابع — الذى استقال من وظيفة الكردينال الرفيعة فى روما ليطهر الحياة الدينية فى ميلانو .

فأقر النظام بين رجال الإكليروس بوصفه رئيساً للاساقفة هناك ، وكان يلهم فى تقشفه وتعبده الأسوة الحسنة . وقد لقى فى سبيل الإصلاح بعض المقاومة ، ذلك أن طريقة دينية تدعى « أوميلياتى » ، كانت من قبل تفخر بتواضعها ، انحدرت إلى درك الراحة والدعة بل الاباحية . وأمر الكردينال رهبانها أن يطيعوا قانون رهبنتهم ، فأطلق أحدهم النار عليه وهو يصلى فى الكنيسة . وكانت نتيجة هذه الفعلة أن تحولت رهبة الشعب إلى إجلال لهذا الرجل الذى رأى فى الإصلاح خير رد على حركة الإصلاح البروتستنتى . وبفضل جهوده إبان حياته وفى أرجاء أبرشيته أصبح الخلق المهذب القاعدة الفاشية بين الإكليروس والعلمانيين على حد سواء . وأحس الناس بتأثيره فى جميع أنحاء إيطاليا ، وقد أسهم هذا التأثير فى تحويل الكرادلة من نبلاء متعلقين بنعيم الدنيا إلى كهنة أتقياء .

وبدأ البابوات يوجهون اهتمامهم الصادق إلى الإصلاح الكنسى بعد أن حفزهم أمثال هؤلاء . ففى بواكير عهد البابا بولس الثالث قدم له الفقيه الشهير جوفان باتيستا كاتشيا بحثا فى إصلاح الكنيسة قال فى ديباجته « أرى أن الكنيسة أمنا المقدسة : . . قد اعتراها من التغير الكبير ما تبدو معه وقد تجردت من سمات طابعها التبشيرى ؛ وليس فيها أثر للتواضع وضبط النفس والتعفف والقوة الرسولية »[١٠] . وأظهر البابا بولس ميله بقبوله إهداء الكتاب إليه . وفى ٢٠ نوفمبر ١٥٣٤ عهد إلى الكرادلة بيكولوميني ، وسانسفيرينو ، وتشيزى ، أن يضعوا برنامج تجديد خلقى للكنيسة ، وفى ١٥ يناير ١٥٣٥ أمر بتنفيذ مراسيم الإصلاح التى أصدرها البابا ليو العاشر عام ١٥١٣ تنفيذاً دقيقاً . على أنه أجل الإصلاح الإيجابى بعد أن وقع فى شراك السياسة البابوية والإمبراطورية ، وأحدق به خطر زحف العثمانيين ، وكره وسط هذه الأزمات أن يهز بنيان الإدارة البابوية أو أداءها لوظيفتها بتغييرات جذرية ؛ ولكن الرجال

الذين رفعهم إلى مرتبة الكردينالية كانوا كلهم تقريباً معروفين بالنزاهة والتقوى . وفى يوليو عام ١٥٣٦ قرر عقد مؤتمر إصلاحى فى روما دعا إليه كونتارينى ، وكارافا ، وسادوليتو ، وكورتيزى ، وألياندر ، وبولى ، وتومازو باديا ، وفيديريجو فريجوزى أسقف جوبيو ، وكلهم رجال ملتزمون بالإصلاح ، وأمرهم أن يكتبوا تقريراً عن الرذائل الفاشية فى الكنيسة ، والوسائل التى يشيرون بها للتخفيف منها . وافتتح سادوليتو المؤتمر بأن قرر فى جرأة أن البابوات أنفسهم كانوا أهم سبب فى تدهور الكنيسة بخطاياهم وجرائمهم وشرههم للمال(١١) . وظل المؤتمر يجتمع يومياً على مدى ثلاثة شهور . أما روحه الكبير ، وهو جاسبارو كونتارينى ، فكان ألمع رجال الإصلاح الكاثوليكى . ولد فى البندقية (١٤٨٣) من أسرة شريفة ، وتلقى علومه فى بادوا المتحررة ، وما لبث أن تقلد منصباً مرموقاً فى حكومة البندقية . وقد أوفد سفيراً لدى شارل الخامس فى ألمانيا ، وصحبه إلى إنجلتره وأسبانيا ، ثم مثل مجلس الشيوخ فى البلاط البابوى (١٥٢٧ — ٣٠) . واعتزل السياسة وانقطع للدرس ، وجعل من بيته ملتقى لخيرة رجال الدولة والكنيسة والفلاسفة والانسانيين فى البندقية . ومع أنه كان علمانياً فانه كان يطيل التفكير فى الإصلاح الكنسى ، وتعاون تعاوناً نشيطاً مع كارافا . وجيبرتى ، وكورتيزى ، وبولى . وعرفته إيطاليا كلها مزيجاً نادراً من الذكاء والخلق ، وفى عام ١٥٣٥ ، ودون أى التماس منه ، عينه بولس الثالث كردينالا مع أنه لم يلتق به قط(١٢) .

وفى مارس ١٥٣٧ قدمت اللجنة للبابا « نصيحة الكرادلة المعينين لإصلاح الكنيسة » . وقد فضحت هذه النصيحة الاجتماعية ، بحرية مذهلة ، مفاسد الحكم البابوى ، وعزتها بشجاعة أولا « إلى مغالاة الفقهاء الكنسيين عديمى الضمير فى سلطة البابا مغالاة مستهترة » . ورأى التقرير « أن بعض

البابوات ادعوا الحق فى بيع الوظائف الكنسية ، وقد أفشت هذه المتاجرة بالرتب الكهنوتية الرشوة والفساد فى الكنيسة على نطاق واسع بحيث أشرفت هذه المنظمة العظمى على الخراب بسبب انعدام الثقة فى نزاهتها . وحث التقرير على فرض رقابة صارمة على كل نشاط تقوم به الإدارة البابوية ، وعلى فرض رقابة على الإعفاءات الكنسية ، وعلى وقف دفع المال لنيلها ، وعلى مستوى أعلى فى جميع الوظائف وفى شروط اختيار الكرادلة والقساوسة ، وحظر الجمع بين عدة وظائف كنسية ذات دخل أو الانتفاع بهذه الوظائف غيابياً . وأضاف التقرير « لقد هجر معظم الرعاة قطعانهم فى العالم كله ووكلوها إلى الأجراء » . أما الطرق الديرية فيجب تجديدها ، وأما أديار الراهبات فيجب إخضاعها للرقابة الأسقفية ، لأن زيارة الرهبان لها أفضت إلى الفضائح وتدنيس المقدسات . وأما صكوك الغفران فيجب الإعلان عنها مرة واحدة فى العام فقط . واختتم التقرير بهذا النداء الحار للبابا .

« لقد أرضينا ضمائرنا ، ولنا وطيد الأمل فى أن نرى كنيسة الله وقد صلحت حالها تحت رياستكم . . . . لقد تسميتم باسم بولس ، فلعلكم تحاكونه فى محبته . لقد اختير أداة لحمل اسم المسيح إلى الوثنيين ، وأملنا أن تكونوا قد اخترتم لتحيوا فى قلوبنا وأعمالنا ذلك الاسم الذى نسى منذ أمد بعيد بين الوثنيين ومنا نحن الإكليروس ، ولتشفوا علتنا ، وتجمعوا خراف المسيح من جديد فى حظيرة واحدة ، ولتصرفوا عنا غضب الله وانتقامه الذى يتهددنا »(١٣) .

وتقبل بولس بروح طيبة هذه « النصيحة الذهبية » كما سماها الكثيرون ، وأرسل صورة منها لكل كردينال . أما لوثر فقد ترجمها إلى الألمانية ، ونشرها تبريراً كاملا لاختصامه روما ، على أنه حكم على كاتبى الوثيقة بأنهم « كذابون . . . وأوغاد يائسون ، يصلحون الكنيسة بالتملق »(١٤) . وفى

٢٠ أبريل ١٥٣٧ عين بولس أربعة كرادلة — كونتاريني ، وكارافا ، وسيمونيتا ، وجينوتشي — لإصلاح قسم الوثائق ، وهو ذلك القسم من الإدارة البابوية الذى استشرت فيه الرشوة فى منح تلك الإعفاءات ، والإنعامات ، والامتيازات ، والترخيصات ، والوظائف ذات الدخل ، المحجوزة لتصرف السلطة البابوية . وكانت المهمة تتطلب الشجاعة ، لأن قسم الوثائق كان يسلم البابا كل سنة ٥٠,٠٠٠ دوكاتية (١,٢٥٠,٠٠٠ دولار ؟)— وهى نصف دخله تقريباً(١٥) . وللفور تعالت صرخة ألم من موظفى القسم ومن يلوذ بهم ، فشكوا من غلاء المعيشة فى روما ، وزعموا أن أسرهم سيحل بها العوز سريعاً لو أنهم أكرهوا على مراعاة حرفية القانون . ومضى بولس فى حذر ، ومع ذلك كان « عمل الإصلاح يسير بهمة » كما كتب الباندر إلى مورونى (٢٧ أبريل ١٥٤٠) . وفى ١٣ ديسمبر دعا بولس ثمانين من رؤساء الأساقفة والأساقفة المقيمين بروما ، وأمرهم بالعودة إلى كراسيهم . وهنا ارتفعت مئات الاعتراضات مرة أخرى . وحذر موروني البابا من أن العجلة فى تنفيذ هذا الأمر قد تحمل بعض الأساقفة على الانضمام إلى اللوثريين إذ يعودون إلى مناطق غلب عليها الآن المذهب البروتستنتى ، وهذا ما حدث فعلا فى عدة حالات . وسرعان ما تاه بولس فى بيداء السياسة الإمبراطورية ، وترك الإصلاح لخلفائه من بعده .

وانتصرت الحركة المطالبة بالإصلاح الداخلى حين ارتقى زعيمها كارافا كرسى البابوية (١٥٥٥) باسم بولس الرابع . وصدر الأمر إلى الرهبان الغائبين عن أديارهم دون موافقة رسمية وضرورة واضحة بالعودة إليها فوراً . وفى ليلة ٢٢ أغسطس ١٥٥٨ أمر البابا باغلاق جميع أبواب روما والقبض على جميع الرهبان الآبقين . واتبعت إجراءات مماثلة فى جميع الولايات البابوية ، وأرسل بعض المذنبين للعمل فى سفن تشغيل الأسرى .

وأبطل الاحتفاظ برياسة الأديار لإعالة الموظفين الغائبين بدخولها . وطلب إلى الأساقفة ورؤساء الأديار الذين لا يخدمون الإدارة البابوية فعلا فى وظيفة ثابتة أن يعودوا إلى وظائفهم وألا حرموا من دخلهم . وحظر الانتفاع بالدخول الكنسية المتعددة . وأمرت كل أقسام الإدارة البابوية بخفض رواتبها ، وإبعاد كل شبهة اتجار فى التعيين للوظائف الكهنوتية ، وبعد أن خفض البابا بولس موارده على هذا النحو ، بذل تضحية أخرى فوقف دفع رسم التثبيت الذى كان يؤديه من يرقون رؤساء أساقفة . وصدرت عدة مراسيم بابوية ضد المرابين ، والممثلين ، والبغايا ؛ أما القوادون فتقرر إعدامهم . وطلب إلى دانييلى دا فولتيرا أن يغطى بطريقة العضلات الخياطية أكثر الملامح التشريحية افتضاحاً فى لوحة ميكلانجلو « الدينونة الأخيرة » ؛ ويجب التسليم بأن ذلك المجزر الرهيب ، مجزر الأجساد الهالكة أو المخلصة ، لم يجد له من قبل مكاناً مناسباً فوق مذبح البابوات . واتخذت روما الآن مظهراً من التقوى والفضيلة الخارجية لا يلائم طبيعتها . وأصلحت الكنيسة أكليروسها وأخلاقها فى إيطاليا ، ووراء إيطاليا بصورة أقل وضوحاً ، تاركة عقائدها سليمة فى كبرياء . لقد تأخر الإصلاح طويلا، ولكنه حين أتى كان مخلصاً وباهراً .

٣ — القديسة تريزا والإصلاح الديرى

وكان التجديد الخلقى يجرى فى الوقت ذاته فى الطرق الديرية . وفى وسعنا أن نتصور سمعة هذه الطرق من ملحوظة أبداها ميكلانجلو التقى السليم العقيدة ، ذلك أنه حين نمى إليه أن سباستيان ديل بيومبو سيرسم صورة راهب فى كنيسة سان بيترو بمونتوريو نصحه بألا يفعل ، لأنه إذا كان الرهبان قد أفسدوا الدنيا على ما بها من سعة ، فلا غرابة أن يفسد

راهب الكنيسة وهى بهذا الصغر[١٦] . وصمم جريجوريو كورتيزى أن يصلح الرهبنة البندكتية فى بادوا فى صبر وأناة ، وجيرولامو سريباندو الكهنة الأوغسطينيين ، وإجيديو كانيزيو النساك الأوغسطينيين ، وباولو جوستنبانى الكامالدوليين .

وقامت طرق ديرية جديدة شددت على الإصلاح . فأسس أنطونيو ماريا لاكاريا كهنة القديس بولس النظاميين فى ميلانو (١٥٣٣) ، وهم جماعة من القساوسة ينذرون حياة الفقر الديرية . وكانوا أول الأمر يلتقون فى كنيسة القديس برنابا ، ومن هنا تسميتهم بالبرنابيين . وفى عام ١٥٣٥ وضعت القديسة أنجيلا نظام الراهبات الأورسوليات ليقمن بتعليم الفتيات ورعاية المرضى أو الفقراء ، وفى عام ١٥٤٠ أسس القديس يوحنا الإلهى جماعة « إخوان الرحمة » فى غرناطة للخدمة فى المستشفيات . وفى عام ١٥٢٣ اعتزم ماتيو دى باسى ، مدفوعاً بالرغبة الحارة فى الاقتداء بالقديس فرنسيس الأسيسى ، أن يتبع حرفياً نظام الرهبنة الأخير الذى خلفه مؤسس الطريقة الفرنسسكانية لرهبانها . وانضم إليه غيره من الرهبان ، وما وافى عام ١٥٢٥ حتى شجع تكاثرهم ماتيو على أن يلتمس من البابا اعتماد فرع جديد من الفرنسسكان ملتزم بأشد قواعد الرهبنة صرامة . واستطاع الرئيس الإقليمى للطريقة أن يستصدر أمراً بإيداعه السجن لعصيانه ، ولكن سرعان ما أطلق سراح ماتيو ، وفى عام ١٥٢٨ ثبت البابا كلمنت السابع طريقة الرهبان الكبوشيين الجديدة . وقد أطلق عليها هذا الاسم لأن رهبانها كانوا يلبسون نوع القلنسوة cappuccio التى لبسها فرنسيس . وكانوا يرتدون أخشن الثياب ، ويعيشون على الخبز والخضر والفاكهة والماء ، ويصومون أصواماً قاسية . ويسكنون قلالى ضيقة فى أكواخ حقيرة ، ولا يسافرون إلا مشاة ، ويمشون حفاة طوال العام . وقد اكتسبوا مكانة مرموقة بفضل رعايتهم المضحية لمرضى وباء

١٥٢٨ — ٢٩ . وكان ورعهم عاملا فى إبقاء فتوريا كولونا ونفر آخر ممن اعتنقوا البروتستنتية حديثاً فى حظيرة كنيسة ما زالت قادرة على إنجاب أمثال هؤلاء المسيحيين الغيورين .

أما أكثر الأشخاص إثارة للاهتمام فى عصر الإصلاح الديرى الذى نحن بصدده فرئيسة دير أسبانى رقيقة البدن شديدة السيطرة ، هى تريزا دى تشيبدا . كانت ابنة فارس قشتالى من آبلة ، فخور باستقامته المتطرفة وولائه للكنيسة . وقد درج على أن يقرأ على أسرته جانباً من حياة القديسين[١٧] . أما الأم ، المصابة بعلة مزمنة ، فكانت تطرد السأم عنها بقراءة روايات الفروسية ، وتشارك من فراش مرضها فى مغامرات أماديس الغالى . وتذبذب خيال تريزا فى طفولتها بين الحب الشاعرى والاستشهاد الطاهر المقدس . وحين بلغت العاشرة نذرت على نفسها حياة الرهبنة . ولكنها لم تلبث بعد سنوات أربع أن تفتح صباها عن حسناء تطفر بفرحة الحياة ، وتنسى ثوب الدير أمام الأثواب البهية التى ضاعفت من مفاتنها . وتوافد عليها المعجبون ، ووقعت فى حب أحدهم على تهيب ووجل ، فدعاها إلى موعد لقاء . وفى اللحظة الحاسمة أحست بالخوف ، واعترفت لوالدها بالمؤامرة الرهيبة . ولما كانت أمها قد ماتت ، فان الدون ألونزو دى تشيبدا أودع الفتاة الحساسة ديراً للراهبات الأوغسطينيات فى آبلة .

وكرهت تريزا حياة الدير ونظامه الكئيبين . ورفضت أن تقسم يمين الرهبنة ، وتطلعت فى صبر نافد إلى عيد ميلادها السادس عشر حين يسمح لها بمغادرة الدير . ولكن ما إن دنا هذا الهدف حتى مرضت مرضاً خطيراً وأشرفت على الموت . ثم تماثلت للشفاء ، ولكن مرح الشباب ولى . ويبدو أن ضرباً من الصرع الهستيرى أصابها ، ربما نتيجة للتمرد المكبوت على قيود غريبة عن غرائزها . وكانت النوبات تعلودها ثم تتركها

خائرة القوى . ونقلها أبوها من الدير وأرسلها لتعيش مع أخت لها غير شقيقة فى الريف . وفى طريقها أعطاها أحد أعمامها كتاباً من تأليف القديس جيروم . وقد وصفت الرسائل الحية التى احتواها الكتاب أهوال الجحيم ، وصورت مغازلات الجنسين كأنها الطريق المزدحم المفضى إلى الهلاك الأبدى . وقرأت تريزا الرسائل بشغف . وبعد نوبة شديدة أخرى طلقت كل فكرة فى السعادة الدنيوية ، وعزمت على الوفاء بنذر طفولتها . فعادت إلى آبلة ودخلت دير التجسد الكرملى (١٥٣٤) .

وسعدت حيناً وسط روتين الدير المهدىء ، روتين القداديس ، والصلوات والاعترافات المطهرة ، ولما تناولت القربان شعرت بالخبز كأنه المسيح حقاً على لسانها وفى دمها . ولكن نظام الدير الرخو أقلقها . فالراهبات لا يسكن القلالى بل الحجرات المريحة ، ويأكلن الطعام الفاخر برغم الأصوام الأسبوعية ، ويتزين بالقلائد والأساور والخواتم ، ويستقبلن الزوار فى قاعة الاستقبال ، ويتمتعن بالأجازات الطويلة خارج أسوار الدير . وأحست تريزا أن هذه الظروف لا توفر لها الحماية الكافية من مغريات الجسد وأحلامه . ولعل هذه المغريات والأحلام ، بالإضافة إلى سخطها المتزايد ، جعلت نوباتها أكثر حدوثاً وأشد ألماً . وهنا أرسلها أبوها ثانية إلى أختها ، وأعطاها عمها ثانية كتاباً دينياً اسمه « الأبجدية الثالثة » لفرانسسكو دى أوزونا . وكان أبجدية فى الصلاة الصوفية ، الصلاة دون كلام ، لأن « الذين يدنون من الله فى صمت هم وحدهم الذين يمكن أن يسمعهم ويعطيهم جواباً » على حد قول المؤلف(١٨) . وفى عزلتها الريفية مارست تريزا هذه الصلاة الصامتة المتأملة التى الاءمت كل الملاءمة ما أحدثته بها النوبات من حالة شبيهة بالوجد .

وحاول طبيب يعالج بالأعشاب أن يداويها ، ولكن مستحضراته كادت تقتلها . ولما عادت إلى صومعتها فى آبلة (١٥٣٧) كانت مشرقة

على الموت ، تواقة إليه . ثم أصابتها أشد نوباتها عنفاً ، وراحت فى غيبوبة خالها الراهبات غيبوبة الموت ، وظلت يومين باردة لا حراك بها ، تبدو مقطوعة النفس ؛ وحفر الراهبات لها قبراً . ثم أفاقت ، ولكنها ظلت ضعيفة جداً بحيث لم تستطع أن تهضم طعاماً جامداً أو تحتمل أية لمسة . ورقدت ثمانية أشهر فى مستشفى الدير فيما يقرب من الشلل الكلى . وتحسنت حالها فأصبح شللها جزئياً ، ولكن « الفترات التى لم ترهقنى فيها الآلام المبرحة كانت فى الحق نادرة [19] » . وأقلعت عن كل أنواع العلاج الطبى ، وصممت على أن تعتمد كلية على الصلاة . وظلت ثلاث سنوات تتعذب وتصلى . وفجأة ، فى صباح يوم من أيام سنة ١٥٤٠ ، استيقظت العليلة طريحة الفراش ، التى بدت ميئوساً من شفائها ، لتجد أطرافها وقد فارقها الشلل . فقامت ومشت . ويوماً بعد يوم أخذت تشارك بنصيب أنشط فى أعمال الدير . وهلل الناس لشفائها باعتباره معجزة ، وكذلك كان اعتقادها فيه . ولعل الصلاة قد هدأت من ثائرة جهاز عصبى أرهقته الرغبات المصطرعة ، والشعور بالإثم ، وخوف الجحيم ؛ ومنحت أعصابها التى هدأت ، وبعد الأطباء عنها ، جسدها سلاماً لم تعهده من قبل .

وذاع صيت دير التجسد باعتباره المكان الذى حدث فيه شفاء معجز . وتوافد الناس من المدن المحيطة ليروا الراهبة التى شفاها الله ، وتركوا نقوداً وعطايا للدير المقدس . وشجعت رئيسة الدير هذه الزيارات ، وأمرت تريزا بالظهور أمام الزوار . وأزعج تريزا أن تجد أنها تستشعر لذة فى هذه الزيارات ، وفى هذه الشهرة ، وفى وجود رجال وسيمى الوجوه . وعادوها شعور بالإثم . وذات يوم (١٥٤٢) بينما كانت تتحدث فى قاعة الاستقبال إلى رجل استهواها بصفة خاصة ، خيل إليها أنها ترى المسيح واقفاً إلى جوار الزائر . وراحت فى غيبوبة ، واقتضى الأمر حملها إلى قلايتها على نقالة .

وظلت ترى هذه الرؤى طوال الستة عشر عاماً التالية ، وأصبحت عندها أكثر واقعية من الحياة . وفى عام ١٥٥٨ فيما هى غارقة فى صلاتها أحست بنفسها تخرج من جسدها وتصعد إلى السماء حيث رأت المسيح وسمعته . ولم تعد هذه الرؤى تضنيها ، بل على العكس من ذلك تنعشها . كتبت تقول :

« إن النفس التى كثيراً ما تضنيها وترهقها الآلام الرهيبة قبل حالة الوجد تخرج منها ممتلئة عافية مقبلة على العمل بشكل يدعو إلى الإعجاب . . . كأن الله شاء أن يشارك الجسد ذاته فى سعادة النفس بعد أن أطاع رغباتها . . . والنفس بعد هذه المنحة يملؤها قدر من الشجاعة عظيم إلى حد يجعل الجسد لا يشعر إلا بأوفر راحة إن لو مزق فى تلك اللحظة إرباً فى سبيل الله »(٢٠) .

وفى مناسبة أخرى خيل إليها أن « ملاكاً رائع الحسن » قذف « سهماً طويلا من الذهب » فى رأسه نار « مخترقاً قلبى عدة مرات ، حتى وصل إلى صميم أحشائى » .

« كان الألم حقيقياً بحيث اضطرنى إلى الأنين بصوت عال ، ومع ذلك كان عذباً إلى حد مدهش لم أتمن معه الخلاص منه . ليس فى مباهج الحياة ما يستطيع أن يهب رضى أكثر من هذا . وحين سحب الملاك السهم تركنى وقد اضطرمت كلى بحب عظيم لله(*) »(٢١) .

هذه الفقرات وأشباهها مما كتبته القديسة تريزا تقبل بسهولة تفسيرات التحليل النفسى ، ولكن أحداً لا يستطيع التشكك فى إخلاص القديسة الشديد . فقد أيقنت كما أيقن اجناتيوس بأنها رأت الله ، وأن أعوص المشكلات كانت تحل لها فى هذه الرؤى .

« ذات يوم وأنا أصلى وهب لى أن أدرك فى لحظة واحدة كيف أن

(*) يحتفل أتقياء الأسبان بذكرى رؤيا الطعن هذه فى عيد مقدس يقع فى ٢٧ أغسطس من كل عام .

الله يرى ويحتوى كل الأشياء . . . وهذه من أبرز النعم التى منحنى الله إياها . . . فقد جعلنى الرب أفهم كيف أن إلهاً واحداً يمكن أن يكون فى ثلاثة أقانيم . وجعلنى أرى هذا فى وضوح شديد بحيث أخذنى عجب شديد كما غمرتنى سكينة عظمى . . . والآن حين أفكر فى الثالوث الأقدس . . . أشعر بسعادة لا ينطق بها »(٢٢) .

أما الراهبات أخوات تريزاً فقد عللن رؤاها بأنها ليست سوى أوهام ونوبات مرضية(٢٣) ، وإلى هذا الرأى كان يميل آباء اعترافها ، فقد قالوا لها فى جفاء « لقد خدع الشيطان حواسك » . وخال أهل المدينة لن الشياطين مستها ، وطالبوا محكمة التفتيش بفحصها ، واقترحوا أن يطرد قسيس شياطينها بالتعزيم . ونصحتها صديقة بأن تبعث للمحكمة بقصة حياتها ورؤاها ، فكتبت سيرتها فى كتابها المشهور « Vida » ، ففحصه رجال المحكمة ، وحكموا بأنه وثيقة مقدسة خليقة بأن تشدد إيمان كل من يقرؤها .

فلما أن دعم هذا الحكم مركز تريزا ، صممت — وقد بلغت الآن السابعة والخمسين — أن تصلح طريقة الراهبات الكرمليات . وبدلا من محاولة إعادة نظام النسك القديم فى دير التجسد ، قررت افتتاح دير منفصل دعت إليه من الراهبات وطالبات الرهبنة كل من تقبل عيشة الفقر المطلق . لقد كان الكرمليات القدامى يلبسن الخيش الخشن ، ويمشين حافيات ، ويقتصدن فى الطعام ويصمن أصواماً كثيرة . واشترطت تريزاً على راهباتها الكرمليات الحافيات نظاماً أقرب ما يكون إلى هذا النظام الصارم ، لا بوصفه غاية فى ذاته ، بل رمزاً للتواضع ولنبذ هذه الحياة الدنيا بما فيها من مغريات . وقامت فى طريقها مئات العقبات ؛ فندد أهل آبلة بالخطة لأنها تهدد بقطع كل اتصال بين الراهبات وأقاربهن . ورفض رئيس الطريقة الإقليمى الإذن لها بفتح دير جديد ، فلجأت تريزا إلى البابا بيوس

الخامس ، وظفرت بموافقته . ووجدت أربع راهبات قبلن الانضمام إليها ، وكرس دير القديس يوسف الجديد فى عام ١٥٦٢ فى شارع ضيق من شوارع آبلة . وكانت راهباته يلبسن صنادل من الحبال ، وينمن على القش ويصمن عن اللحم ، ويلتزمن ديرهن لزوماً دقيقاً .

ولم يرق راهبات الدير الأقدم — وعددهن ١٨٠ — هذا الفضح البسيط لأساليب حياتهن المتهاونة. وأمرت رئيسة الدير تريزا بأن تستأنف ارتداء ثوبها الأبيض السابق ، ولبس حذائها ، وأن تعودْ إلى دير التجسد ، زاعمة أنها التزمت قبلها بنذر الطاعة . وأطاعت تريزا . ودينت بخطيئة الكبرياء ، وحبست فى صومعتها . وقرر مجلس المدينة إغلاق دير القديس يوسف ، وأوفد أربعة رجال أشداء لإجلاء الراهبات اللائى لم يعد لهن الآن رئيسة . ولكن العذارى لابسات الصنادل قلن « إن الله يريدنا أن نمكث هاهنا ، فنحن إذن ماكثات » . ولم يجروْ الموظفون القانونيون القساة على إكراههن على الجلاء . أما تريزا فقد قذفت الرعب فى قلب الرئيس الكرملى الإقليمى حين أومأت إلى أنه إنما يسىء إلى الروح القدس بوضعه العراقيل فى طريق خططها ؛ فأمر بالإفراج عنها . وغادرت الدير معها أربع راهبات ، وسارت النسوة الخمس إلى دارهن الجديدة وسط الثلوج ؛ وحيا الراهبات الأربع القدامى تريزا « Madre أما » لهن وهن سعيدات ، وأصبحت الآن معروفة فى أسبانيا كلها تقريباً باسم تريزا يسوع ، صديقة الله الحميمة .

وكان نظام رهبنتها يتسم بالمحبة والبهجة والحزم . فالبيت موصد فى وجه العالم ، لا يسمح للزوار بدخوله ، والنوافذ مكسوة بالقماش ، والأرض المبلطة هى الأسرة والموائد والمقاعد . وبنى فى الجدار قرص دائر ، وأى طعام يضعه الناس على نصفه الخارجى يقبله الدير بشكر ، ولكن ليس للراهبات أن يستجدين . وكن يكملن ما نقص من قوتهن

بالغزل وأشغال الإبرة ، وتوضع منتجاتهن خارج باب الدير ، ولأى مشتر أن يأخذ منها ما شاء ويترك مقابله ما شاء . وأقبلت راهبات جديدات على الرغم من هذا التقشف كله ، ومن بينهن امرأة كانت أجمل نساء آيلة وأشدهن فتنة للرجال . ولما زار الرئيس العام للأديار الكرملية هذا الدير الصغير بلغ به التأثر أشده ، فطلب إلى تريزا أن تؤسس بيوتاً مماثلة له فى سائر أرجاء أسبانيا . وفى عام ١٥٦٧ استصحبت بضع راهبات ، وسافرن فى عربة حقيرة قطعت سبعين ميلا على طرق رديئة لتؤسس ديراً للراهبات الكرمليات الحافيات فى مدينا ديل كامبو . وكان البيت الوحيد الذى عرض عليها بناء مهجوراً متهدماً تداعت جدرانه ورشح سقفه ؛ ولكن حين رأى أهل المدينة الراهبات يحاولن العيش فيه ، توافد النجارون والمباطون لإصلاح الدار وصنع أثاث بسيط له دون أن يدعوهم لذلك أحد أو يتقاضوا على عملهم أجراً .

وجاء إلى تريزا رئيس دير الرهبان الكرمليين فى مدينا طالباً إليها قواعد رهبنتها رغبة منه فى إصلاح رهبانه المتراخين . وكان الرجل فارع القوام ، ولكن جاء فى صحبته شاب قصير هزيل جداً حتى أن تريزا قالت بعد رحيلهما فى دعابتها التى كانت تضفى الإشراق على نسكها « تبارك الله ، فان عندى الآن راهباً ونصفاً لتأسيس ديرى الجديد(٢٤) » . أما هذا الرويهب ، واسمه جوان دى أيبس ألفاريز ، فقد كتب له أن يصبح سان جوان دى لاكروز ، أى القديس يوحنا الصليبى ، روح الرهبان الكرمليين الحفاة وفخرهم .

ولم تنته مصاعب تريزا . ذلك أن الرئيس الإقليمى للأديار الكرملية عينها رئيسة على دير التجسد ، ربما اختباراً لحكمها وشجاعتها . وكان راهبات هذا الدير يكرهنها ، وقد خشين أن تذيقهن الآن ألوان الذل والهوان انتقاماً منهن . ولكنها عاملتهن بكثير من التواضع والرقة حتى

كسبتهن الواحدة بعد الأخرى ، وما لبث النظام الجديد الأكثر صرامة أن حل شيئاً فشيئاً محل التراخى القديم . ومن هذا الانتصار تقدمت تريزا لإنشاء دير جديد فى إشبيلية .

وصمم رهبان الطريقة التى تراخى نظامها على وقف امتداد الإصلاح . فهرّب بعضهم عميلة تنكرت فى زى راهبة حافية إلى دير إشبيلية . وما لبثت هذه المرأة أن أعلنت على الملأ فى أسبانيا أن تريزا تجلد راهباتها وتتلقى الاعترافات كأنها كاهن . وطلب إلى محكمة التفتيش التحقيق معها ثانية . ودعيت للمثول أمام المحكمة الرهيبة ، واستمعت المحكمة إلى شهادتها وأصدرت هذا الحكم « لقد برئت من كل التهم . . . فاذهبى وواصلى عملك (٢٥)». ولكن أعداءها كسبوا سفيراً بابوياً إلى صفوفهم . فندد بتريزا « امرأة عاصية متمردة ، تنشر التعاليم المؤذية تحت قناع التقوى ، تركت ديرها مخالفة بذلك أوامر رؤسائها ؛ امرأة طماعة ، تعلم اللاهوت كأنها من فقهاء الكنيسة ، محتقرة بذلك القديس بولس الذى منع النساء من أن يعلّمن » . ثم أمرها بأن تعتكف حبيسة فى دير للراهبات بطليطلة (١٥٧٥) .

وحارت تريزا إلى من تلجأ فى هذا التغير الجديد ، فكتبت إلى الملك . وكان فيليب الثانى قد قرأ « حياتها » . وأحب الكتاب . فأرسل مبعوثاً خاصاً من بلاطه يدعوها لمقابلة الملك ، واستمع إليها ، واقتنع بورعها . وسحب السفير البابوى أمره السابق بفرض القيود على تريزا بعد أن وبخه الملك ، وأعلن أنه زود بمعلومات كاذبة .

وفى وسط أسفارها وشدائدها كتبت كتيبات تعبدية صوفية شهيرة مثل « طريق الكمال ١٥٦٧ » و « الحصن الداخلى ١٥٧٧ » . وقد كشفت فى هذا الكتيب عن عودة آلامها الجسدية فقالت « يخيل إلى أن أنهاراً مفعمة بالمياه تتدافع داخل رأسى فوق منحدر سحيق ، ثم اعود فأسمع الطيور فى غنائها وصفيرها بعد أن طغى عليها ضجيج المياه . وأنا أرهق ذهنى وأزيد صداعى» (٣٦) ، وعاودتها النوبات القلبية ، وكان عسيراً على

معدتها أن تحتفظ بالطعام ، وراحت على الرغم من هذا تتنقل فى ألم من دير إلى دير من تلك الأديار الكثيرة التى أسستها ، فاحصة ، مصلحة ، ملهمة . وفى ملقا أصابتها نوبة شلل . ثم شفيت ، ومضت إلى طليطلة ، فنزلت بها نوبة أخرى . ثم شفيت ، ومضت إلى سقوبية وبلد الوليد ، وبلنسيه ، وبرغش وإلبه ، وهناك اضطرها نزف فى رئتيها أن تتوقف . واستقبلت الموت ببشاشة ، واثقة أنها إنما ترحل عن عالم من الألم والشر إلى صحبة المسيح الخالدة .

ودفنت فى مسقط رأسها بعد منافسة معيبه بين ألبة وآبلة وخطف جسدها المرة بعد المرة . وزعم المصلون الأتقياء أن جسدها لم يفسد قط ، وروى حدوث العجائب الكثيرة عند قبرها . وفى عام ١٥٩٣ تلقت طريقة الراهبات الكرملبات الحافيات اعتماد البابا . واشترك نفر من أشهر الأسبان مثل سرفانتس ولوبى دى فيجا فى توجيه نداء إلى البابا يلتمسون فيه على الأقل تطويبها . وهذا ما حدث (١٦١٤) ، وبعد ثمانى سنوات تقرر أن تكون تريزا إحدى اثنين من قديسى أسبانيا الحامين ، أما الثانى فهو الرسول يعقوب .

فى غضون هذا خرج من أسبانيا من هو أعظم من تريزا ليصلح الكنيسة ويهز الدنيا .

٤ — إجناتيوس لويولا

ولد الدون إينيجو دى أونيز اللويولى فى قلعة لويولا باقليم جويبوزكوا ، وهو من أقاليم الباسك ، فى عام ١٤٩١ . وكان أحد ثمانية أبناء وخمس بنات للدون بلتران دى أونيز اللويولى ، الذى ينتمى إلى طبقة النبلاء الأسبان العظام . وقد ربى الصبى ليكون جندياً ؛ لذلك لم يتلق من التعليم المدرسى إلا القليل ، ولم يبد ميلا إلى الدين . واقتصرت قراءاته على قصة « أماديس

الغالى » وأشباهها من روايات الفروسية . ولما بلغ السابعة أرسل ليكون تابعاً للدون جوان فيلاسكويز دى كويالار ، وبفضله أتيح له بعض الاتصال بالبلاط الملكى . وحين بلغ الرابعة عشرة أحب جرمين دفوا . الملكة الجديدة لفرديناند الكاثوليكى ، ولما حان وقت تقليده رتبة الفروسية اختارها مليكة له ، ولبس شعارها ، وحلم بالفوز بمنديل مخرم من يدها جزاء انتصاره فى مباراة للفروسية (٢٧). على أن هذا لم يمنعه من الدخول فى الغراميات والمشاجرات العارضة التى كانت نصف حياة الجندى . ولم يحاول إخفاء هذه الأعمال الطائشة الطبيعية فى سيرته الذاتية ، البسيطة الأمينة ، التى أملاها فى ١٥٥٣ — ٥٦ .

ثم انتهى شبابه الحلى حين عين للخدمة العسكرية العاملة فى بانبلونة عاصمة نافار . وهناك أنفق أربع سنوات يحلم بالمجد ولا يفتح عينيه إلا على حياة رتيبة . وواتته الفرصة لكى يثبت كفايته ، فقد هاجم الفرنسيون بانبلونة ، وشدت بسالة إينيجو أزر المدافعين ، ولكن العدو استولى على القلعة ، وأصيبت ساق إينيجو اليمنى بكسر من قذيفة مدفع (٢٠ مايو ١٥٢١) . وترفق المنتصرون به ، وجبروا عظامه ، وأرسلوه على نقالة إلى حصن أسلافه . ولكن العظام أخطئ جبرها ، فاقتضى الأمر كسرها وجبرها من جديد . ثم تبين أن العملية الثانية أسوأ من سابقتها ، لأن جدعة من العظم برزت من الساق . واستقامت العظام بعد عملية ثالثه ، ولكن الساق أصبحت الآن أقصر مما ينبغى . وظل إينيجو الأسابيع يعانى عذاب جبيرة جعلته ضعيفاً عاجزاً يشكو ألماً لا يبرحه .

وخلال أشهر النقاهة الطويلة المملة طاب كتباً ، لا سيما قصة مثيرة عن الفروسية والأميرات اللاتى يتهددهن الخطر . ولكن مكتبة القلعة لم يكن بها سوى كتابين لا ثالث لهما : أولهما « حياة المسيح » بقلم لودلفوس ، أما الثانى فيحكى سير القديسين . Flos sanctorum ، وضاق الجندى ذرعاً بالكتابين أول الأمر ، ثم تسلطت عليه صورتا المسيح ومريم ،

وتبين له أن أساطير القديسين لا تقل عجباً عن ملاحم الحب النبيل والحرب ، ففرسان المسيح هؤلاء هم من كل الوجوه أبطال كفرسان قشتالة . وتكونت فى عقله شيئاً فشيئاً فكرة مؤداها أن أنبل الحروب هى حرب المسيحية مع الإسلام . وجعلت جدة الايمان الأسبانى الدين عنده ، كما جعلته عند دومنيك من قبل ، لا تعبداً هادئاً كتعبد الراهب الألمانى توماس أكيبيس ، ولكن رغبة مشبوبة فى الصراع ، بل حرباً مقدسة . وصمم على الذهاب إلى بيت المقدس وتحرير الأماكن المقدسة من سيطرة غير المسيحيين . وذات ليلة ظهرت له العذراء وابنها فى رؤيا ، وبعدها (كما أخبر الأب جونزاليز فيما بعد) لم يهاجمه قط أى إغراء جنسى[٢٨] . ونهض من فراشه ، وجثا على ركبتيه ، وأقسم أن يكون جندياً للمسيح ومريم حتى الموت .

وكان قد قرأ أن الكأس المقدسة خبئت مرة فى قلعة بمونتسرات فى إقليم برشلونه . هنالك ، كما ورد فى أشهر الروايات قاطبة ، قضى أماديس ليلة بطولها ساهراً أمام صورة العذراء تأهباً للفروسية . وما إن وجد إينيجو فى نفسه القدرة على السفر حتى امتطى بغلا وانطلق إلى ذلك المزار البعيد . وظل حيناً يرى فى نفسه جندياً مرتدياً شكة النزال . ولكن القديسين الذين قرأ أخبارهم لم يحملوا سلاحاً ولا درعاً ، إنما كانت عدتهم أفقر الثياب وأرسخ الإيمان . فلما بلغ مونتسرات طهر روحه بالاعتراف والتكفير ثلاثة أيام ، ثم خلع ثيابه الغالية على شحاذ ، وارتدى عباءة حاج من قماش خشن . وقضى طوال ليلة ٢٤ — ٢٥ مارس ١٥٢٢ وحيداً فى كنيسة صغيرة بدير بندكتى ، راكعاً أو واقفاً أمام مذبح العذراء . وأخذ على نفسه العهد بحياة العفة والفقر الدائمين . وفى صباح الغد تناول القربان ، وأعطى بغله للرهبان ، ثم انطلق إلى أورشليم وهو يعرج على قدمه .

كانت أقرب الموانى إليه برشلونه ، وفى طريقه إليها توقف عند قرية مانريزا . ودلته عجوز على مغارة يأوى إليها . فجعلها مسكنه أياماً ، وإذ كان حريصاً على أن يبز القديسين فى نسكهم ، فقد مارس هناك من التقشف الصارم ضروباً كادت تقضى عليه . وفى ندمه على ما أسلف من خيلاء بمظهره ، كف عن تنظيف شعره أو قصه أو تمشيطه — فسقط بعد قليل . وأبى أن يقص أظافره أو يستحم أو يغسل يديه أو وجهه أو قدميه[٢٩] ، وعاش على ما وسعه استجداؤه من طعام ، إلا أن يكون لحماً ؛ وكان يصوم أياماً بطولها ، ويسوط نفسه ثلاث مرات فى اليوم ، وينفق الساعات فى الصلاة كل يوم . وأمرت امرأة تقية بنقله إلى بيتها مخافة أن يودى هذا التقشف الصارم بحياته ، وهناك مرضته حتى استعاد عافيته . ولكنه عاود جلد نفسه حين نقل إلى قلاية فى دير دومنيكى بمانريزا . لقد أرعبته ذكرى ذنوبه الماضية ، فشن الحرب على جسده باعتباره الأداة لذنوبه ، وصمم على أن ينتزع بالجلد كل فكرة خطيئة من جسده . وبدا الصراع أحياناً ميئوساً منه ؛ ففكر فى الانتحار . وهنا جاءته الرؤى التى شددته ، واعتقد وهو يتناول القربان مرة أنه لا يرى قربانة بل المسيح الحى ، وفى مرة أخرى ظهر له المسيح وأمه ، ومرة رأى الثالوث ، وفهم — بومضة من بصيرته يقصر دونها اللفظ أو الفكر — سر الأقانيم الثلاثة فى الإله الواحد ، وفى « مرة أخرى » كما يروى « أذن له الله أن يفهم كيف خلق العالم »[٣٠] . وأبرأت هذه الرؤى الصراع الروحى الذى ابتعثها ، فطرح وراء ظهره كل قلق بسبب حماقات شبابه ، وخفف من غلواء نسكه ، وإذ قهر جسده فقد استطاع الآن أن يطهره دون غرور . ومن خبرة هذا الصراع الذى امتد قرابة عام وضع « الرياضات الروحية » التى تمكن أن يخضع فيها الجسد الوثنى للإرادة المسيحية . ورأى أن فى وسعه الآن أن يمثل أمام المزارات المقدسة فى أورشليم .

وأبحر من برشلونة فى فبراير ١٥٢٣ . وفى طريقه تخلف أسبوعين فى روما ، ثم لاذ بالفرار قبل أن تثنيه روحها الوثنية عن طريق القداسة . وفى ١٤ يوليو استقل سفينة من البندقية إلى يافا . وأصابته خطوب كثيرة قبل أن يبلغ فلسطين ، ولكن رؤاه المتصلة شدت من أزره . وكانت أورشليم نفسها إحدى المحن ، فالترك الذين يسيطرون عليها يسمحون للزوار المسيحيين بدخولها ، ولكنهم يمنعون التبشير فيها ، وحين اقترح إينيجو تحويل المسلمين إلى المسيحية برغم هذا الحظر ، أصدر الرئيس الفرنسسكانى المحلى ، الذى وكل إليه البابا حفظ السلام هناك ، أمراً للقديس بالعودة إلى أوربا . وفى مارس ١٥٢٤ عاد إلى برشلونة .

ولعله أحس الآن أنه وإن كان سيداً على جسده فانه عبد لأوهامه . فصمم على تهذيب عقله بالتعليم . واشترك مع تلاميذ المدارس فى تعلم اللاتينية مع أنه كان فى الثالثة والثلاثين . ولكن شهوة التعليم كانت فيه أقوى من إرادة التعلم . وسرعان ما بدأ إجناتيوس — وهو اسمه المدرسى — فى تبشير لفيف من النساء التقيات الفاتنات . وندد به عشاقهن مفسداً لمتعتهم وضربوه ضرباً وحشياً . فانتقل إلى القلعة (١٥٢٦) ، وعكف على دراسة الفلسفة واللاهوت . وهنا أيضاً راح يعلم جماعة خاصة صغيرة جلها من فقيرات النساء ، فيهن نفر من البغايا المتعطشات إلى الخلاص . وحاول أن ينتزع منهن ميولهن الخاطئة بالرياضة الروحية ، ولكن بعض تلميذاته أصابتهن نوبات أو غشيات ، فاستدعته محكمة التفتيش للمثول أمامها . وأودع السجن شهرين[٣١]، ولكنه فى النهاية أقنع المفتشين بسلامة عقيدته ، فأفرج عنه ، غير أنه منع من التعليم . ومضى إلى سلمنقه (١٥١٧) ، وجاز تجربة مماثلة انتقل فيها من مرحلة التعليم إلى المحاكمة أمام محكمة التفتيش ، إلى السجن ، إلى الإفراج ثم إلى الكف عن التعليم . فلما خاب ظنه فى أسبانيا ، يمم شطر باريس ، دائماً سيراً على الأقدام فى رداء الحاج ، سائقاً أمامه الآن حماراً يحمل أسفاراً .

وفى باريس عاش فى ملجأ الفقراء . وكان يستجدى فى الشوارع طعامه ونفقة تعليمه . ودخل كلية مونتيجى . حيث كان بوجهه الشاحب المهزول ، وبدنه الأعجف ، ولحيته المهوشة . وثيابه العتيقة ، محط الأنظار غير العطوفة ، ولكنه واصل السعى إلى أهدافه فى حرص ملك عليه حواسه حتى أن بعض الطلبة بدأوا ينزلونه منزلة القديس . فمارسوا بارشاده ألوان الرياضة الروحية من صلاة وتكفير وتأمل . وفى عام ١٥٢٩ انتقل إلى كلية سانت — بارب . وهناك أيضاً التف حوله نفر من التلاميذ . وانتهى مساكناه بطريقتين مختلفتين إلى الإيمان بقداسته . فأما بيير فافر . الذى كان من قبل راعياً فى إقليم السافوا الألپى ، فكان يتعذب عذاباً مبرحاً من مخاوف وهمية أو واقعية . وبتأثيرها نذر حياة العفة الدائمة . وكان يخفى الآن وهو فى العشرين تحت طباعه المهذبة روحاً تكافح مغريات الجسد كفاحاً محموماً ، ومع أن إجناتيوس لم يدع لنفسه توقد الذكاء . فقد كان يملك القدرة على الإحساس بحياة الآخرين الداخلية بفضل شفافية حياته . وعلى ذلك فقد حدس مشكلة صديقه الشاب . وأكد له أن نزعات الجسد يمكن السيطرة عليها بالإرادة المدربة . وكيف تدرب الارادة ؟ أجاب إجناتيوس ، بالرياضة الروحية . وراحا يمارسان هذه الرياضة معاً .

وأما نزيل غرفته الآخر ، واسمه فرانسوا زافير . فكان أصله من بنبلونة حيث مارس لويولا الجندية . وسليل عدد كبير من الأسلاف النابهين ، وسيما ، غنياً ، فخوراً ، فتى مستهتراً . مرحاً . عليماً بحانات باريس وبناتها [٣٢]. وسخر الفتى من صاحبيه الزاهدين وراح يباهى بما أصاب من توفيق مع النساء . على أنه كان ذكياً فى دراساته[٣٢] . حصل من قبل على درجة الأستاذية . وهو يحضر الآن للدكتوراة . وذات يوم رأى رجلا نقر الزهرى وجهه . فأوقفه المنظر ملياً . وبينما كان مرة يفيض فى الحديث عما يجيش فى صدره من طموح للشهرة والمجد . ذكر له إجناتيوس فى هدوء هذه الآية من الإنجيل : « ماذا ينتفع الإنسان لو ربح

العالم كله وخسر نفسه ؟ » ، وساء السؤال زافير ، ولكنه لم يستطع نسيانه . فبدأ ينضم إلى لويولا وفابر فى رياضتهما الروحية ، ولعل كبرياءه دفعته إلى مباراة زميليه فى القدرة على احتمال الحرمان والبرد والألم . وراحوا يجلدون أنفسهم ، ويصومون ، وينامون فى قمص رقيقة على أرض حجرية غير مدفأة ، ويقفون حفاة عراة تقريباً على الثلوج ليخشنوا أجسادهم وليخضعوها فى الوقت ذاته ، وبلغت التدريبات الروحية التى بدأت فى مانريزا شكلا أكثر تحدداً . وصاغها إجناتيوس فى كتيب على غرار « رياضة الحياة الروحية » (١٥٠٠) الذى وضعه الدون جارسيا دى كزنيروس ، رئيس دير مونتسرات البندكتى[٣٣] ، ولكنه سكب فى هذا القالب من حرارة العاطفة والخيال ما جعل كتيبه قوة محركة فى التاريخ الحديث . وكانت نقطة البداية التى انطلق منها لويولا هى عصمة الكتاب المقدس والكنيسة ، فهو يرى أن الحكم الفردى فى الدين إنما هو ادعاء باطل مولد للفوضى تدعيه عقول ضعيفة متكبرة . « علينا دائماً أن نكون على استعداد للإيمان بأن ما يبدو لنا أبيض إنما هو أسود إذا عرفته كذلك الكنيسة ذات الكهنوت المسلسل[٣٤] » وعلينا إن أردنا تجنب الهلاك الأبدى أن ندرب ذواتنا على أن نكون خداماً ممتثلين لله ، وللكنيسة التى استخلفها الله على الأرض .

أما أول تدريب روحى فهو تذكر خطايانا الكثيرة ، والتفكر فى مقدار العقوبة الذى تستحقه . لقد حكم على الشيطان بالجحيم لخطيئة واحدة ، أفليست كل خطية نقارفها تمرداً على الله كتمرد الشيطان ؟ فلنحتفظ بحساب يومى لذنوبنا بعلامات على سطور تمثل الأيام ، ولنحاول كل يوم أن ننقص عدد هذه العلامات . وفيما نحن راكعون فى حجرتنا أو صومعتنا بعد إظلامها ، لنتخيل الجحيم بأجلى ما نستطيع ؛ يجب أن نستحضر كل فظائع هذه النار التى لا تموت ، يجب أن نتصور عذاب

الهالكين ، ونسمع صرخات الألم وصيحات اليأس المنبعثة منهم ؛ يجب أن نشم الأبخرة المنتنة التى تتصاعد من الكبريت واللحم المحترقين ؛ يجب أن نحاول الإحساس بألسنة اللهب تلك وهى تلذع أجسادنا ؛ ثم يجب أن نسأل أنفسنا ، كيف السبيل إلى النجاة من هذا العذاب الأبدى ؟ لا سبيل إلا تضحية الفداء التى قدمها الله نفسه فى المسيح على الصليب(*) . فلنتأمل إذن حياة المسيح ، فى كل دقائقها ، علينا أن نكون حضوراً بالخيال فى تلك الأحداث التى هى أعمق الأحداث فى تاريخ العالم . يجب أن نجثو فى الخيال أمام الأشخاص المقدسين فى تلك الملحمة الإلهية ، وإن نلثم هدب أثوابهم . وبعد أن ننفق أسبوعين فى مثل هذه التأملات يجب أن نصحب المسيح فى كل خطوة من خطوات آلامه ، فى كل مرحلة من مراحل الصليب ؛ نصلى معه فى جثسيمانى ، ونشعر بأننا نجلد معه ، ويبصق علينا ، ونسمر على الصليب ، يجب أن نقاسى كل لحظة من لحظات عذابه ، أن نموت معه ، وأن نقبر معه . وفى الأسبوع الرابع يجب أن نتخيل أنفسنا وقد قمنا منتصرين من القبر ، وصعدنا أخيراً معه إلى السماء . وإذ تشددنا هذه الرؤيا المباركة ، فستكون على أهبة الانخراط جنوداً مكرسين فى المعركة لهزيمة الشيطان وربح النفوس للمسيح ؛ وفى تلك الحرب المقدسة سنحتمل باغتباط كل ما نلقى من شدائد وننفق حياتنا فى بهجة وفرح .

ووجدت هذه الدعوة للتعبد الممتد طوال الحياة تسعة طلاب فى باريس على استعداد لقبولها . ولعل هؤلاء الشبان الجادين ، الذين شعروا لأول مرة بما فى العالم من غموض محير ، وتاقت نفوسهم لمرساة من الإيمان والأمل وسط خضم من الشكوك والمخاوف — نقول لعلهم دفعوا بثقل المطالب

(*) لاحظ أن لوثر جاز بمثل هذه المخاوف من الجحيم ، وبمثل ضروب الكشف التكفيرية هذه ، وبمثل هذا التحرر بفضل الإيمان بتضحية المسيح الفادية ، الذى كان المحرك لحياة اجناتيوس .

الملقاة على كواهلهم إلى المشاركة بمصيرهم وحياتهم وخلاصهم فى خطة لويولا . فاقترح أن يذهبوا معاً فى الوقت المناسب إلى فلسطين . ويحيوا هناك حياة أقرب ما تكون إلى حياة المسيح . وفى ١٥ أغسطس ١٥٣٤ اجتمع لويولا ، وفافر ، وزافير . ودييجو لاينيز ، وألونسو سالبرون ، ونيكولا بوباديللا ، وسيمون رودريجيز ، وكاود لوجى . وجان كودير ، وباشاس برويه — اجتمع هؤلاء العشرة فى كنيسة صغيرة بمونمارتر ، ونذروا حياة العفة والفقر ، وأخذوا العهد على أنفسهم بالذهاب إلى الأراضى المقدسة والعيش فيها بعد قضاء عامين آخرين فى الدرس . ولم يكن لديهم إلى الآن فكرة واضحة عن مكافحة البروتستنتية ، وبدا الإسلام لهم تحدياً أعظم . ولم يكن بهم ميل إلى المجالادت اللاهوتية . فهدفهم إنما هو حياة القداسة ، وحركتهم تمد جذورها فى تربة الصوفية الأسبانية لا صراعات العصر الفكرية . وخير حجة يقدمونها هى التقى والورع .

وفى شتاء ١٥٣٦ — ٣٧ اخترقوا فرنسا سيراً على الأقدام ، وعبروا الألب ، ثم إيطاليا إلى البندقية حيث كانوا يأملون العثور على سفينة تحملهم إلى يافا . ولكن البندقية كانت تخوض حرباً مع الترك . فاستحال عليهم السفر . وخلال فترة التخلف التى إجناتيوس بكارافا ، وانضم حيناً إلى التياتين . وكان لخبرته مع هؤلاء القساوسة الأتقياء بعض الأثر فى تغيير خطته من العيش فى فلسطين إلى خدمة الكنيسة فى أوربا . واتفق هو وتلاميذه على أن يتقدموا للبابا طالبين أداء أى خدمة يكلها إليهم ، إذا انقضت عليهم فى هذا الانتظار سنة دون أن ينفتح أمامهم الطريق إلى فلسطين . وحصل فافر على إذن لهم جميعاً برسامتهم قساوسة .

كان لويولا قد بلغ إذ ذاك السادسة والأربعين ، أصلع الرأس به عرج خفيف لم يفارقه إثر جرحه . وما كان له بقامته التى لم تزد على

خمسة أقدام وبوصتين أن يقع من نفوس ناظريه أى موقع لولا رهافة أرستقراطية فى قسمات وجهه ، وتدبب فى أنفه وذقنه ، ولولا ما فى عينيه من سواد ونفاذ وعمق واكتئاب ، وما فى طلعته من رزانة وعزم ؛ وكان قد غدا القديس المستغرق فى تأملاته ، العازف عن الفكاهة . لم يكن مضطهداً لخصوم الدين ، ومع أنه وافق على وجود محكمة التفتيش(٣٥) فقد كان ضحيتها أكثر منه عميلها . كان صارماً فى عطف ، يخدم المرضى عن طيب خاطر فى المستشفيات وإبان تفشى الطاعون ، حلمه أن يربح نفوساً إلى الإيمان لا بالنار أو السيف بل بالسيطرة على الخلق فى الشباب الطيع وتشكيله تشكيلا ثابتاً فى الإيمان . ولم يكن هذا المؤسس لأنجح نظم التربية فى التاريخ شديد التأكيد على العلم أو الذكاء . لم يكن لاهوتياً ، ولم يشترك فى مجادلات الكلاميين أو تدقيقاتهم ؛ وقد آثر الإدراك الحسّى المباشر على الفهم العقلى . ولم ير ضرورة للجدل حول وجود الله ، ومريم والقديسين ، فقد كان مقتنعاً بأنه رآهم ، وأحس بهم أقرب إليه من أى شىء أو شخص فى محيطه ، وكان على طريقته رجلا ثملا بمعرفة الله ومحبته . ومع ذلك فان تجاربه الصوفية لم تجعل منه رجلا غير عملى . لقد كان فى وسعه أن يجمع بين مرونة الوسائل وصلابة الغايات ، يأبى تبرير أى وسيلة لغاية يراها حسنة ، ولكن فى مقدوره أن يتريث تحيناً للفرصة . ويعتدل فى آماله ومطالبه ، ويلائم بين أساليبه والأشخاص والأحوال ، ويستعمل الدبلوماسية إذا اقتضى الأمر استعمالها ، ويرى الرأى الثاقب فى الرجال ، ويحسن اختيار مساعديه وعماله ، ويسوس الرجال كأنه قائد يقود فرقة عسكرية — وهو ما كان يراه فى نفسه فعلا . وقد أطلق على فرقته الصغيرة اسماً حربياً « فرقة يسوع » ، ولا عجب ، فهم جند تطوعوا مدى الحياة لمحاربة الإلحاد وانحلال الكنيسة . أما هم فقد قبلوا النظام العسكرى للعمل المنسق تحت قيادة مطلقة ، باعتبار هذا القبول مراً طبيعياً وضرورياً .

وفى خريف ١٥٣٧ خرج لويولا وفافر ولاينيز من البندقية قاصدين روما ليلتمسوا موافقة البابا على خططهم . وقطعوا الطريق كله سيراً ، يستجدون طعامهم ويعيشون أكثر الوقت على الخبز والماء . ولكنهم كانوا يترنمون بالمزامير فى سعادة وهم ماضون فى رحلتهم ، وكأنهم عليمون بأن فئتهم هذه الصغيرة ستنبثق منها منظمة قوية رائعة .

٥ — اليسوعيون

فلما أن بلغوا روما لم يلتمسوا المثول بين يدى البابا من فورهم ، لأن بولس الثالث كان غارقاً فى الدبلوماسية الحرجة . لذلك تطوعوا بالخدمة فى المستشفى الأسبانى ، وعنوا بالمرضى ، وعلموا الصغار . وفى مطلع عام ١٥٣٨ استقبلهم بولس ، وأثرت فيه رغبتهم فى الذهاب إلى فلسطين والعيش فيها رهباناً مثاليين . وأسهم هو وبعض الكرادلة بمبلغ ٢١٠ كراونا (٥ — ٢٥٠ دولاراً ؟) فى نفقات رحلة الفرقة . ولما اضطر النساك إلى التخلى عن الفكرة لاستحالة تنفيذها ردوا المال إلى واهبيه[٣٦] . واستدعى من ظل من الأعضاء فى الشمال إلى روما ، فبلغ عدد الجماعة الآن أحد عشر عضواً . وعين البابا بولس فافر ولاينيز أستاذين فى السابينزا (جامعة روما) . فى حين انقطع إجناتيوس والباقون لأعمال البر والتعليم . ونظم ليولا بعثة خاصة لهداية المومسات ، وأسس بتبرعات مؤيديه « بيت مرثا » لاستقبال هؤلاء النسوة ، وقد أثار عداء الكثيرين له فى روما بمواعظه الحماسية التى هاجم فيها الخطايا الجنسية .

وأصبح من المرغوب فيه تحديد مبادىء الفرقة وقانونها نظراً إلى انضمام أعضاء جدد إليها . وأضيف نذر الطاعة إلى نذرى العفة والفقر ، واشترط طاعة « القائد » الذى يختارونه طاعة ليس فوقها إلا الطاعة للبابا فقط . ثم نذر رابع « بخدمة بابا روما باعتباره خليفة الله على الأرض ، و « بالتنفيذ

الفورى الذى لا تردد فيه ولا اعتذار لكل ما يأمرهم به البابا الحاكم أو خلفاؤه لفائدة النفوس أو لنشر الإيمان » فى أى مكان فى العالم . وفى عام ١٥٣٩ طلب لويولا إلى الكردينال كونتاريني أن يرفع إلى البابا بولس الثالث مواد التنظيم هذه ، وأن يلتمس تثبيته للفرقة باعتبارها طريقة دينية جديدة . وكان البابا ميالا إلى الموافقة ، وخالفه بعض الكرادلة لأنهم رأوا فى الجماعة نفراً من الغلاة الذين تستعصى سياستهم ، ولكن بولس تغلب على اعتراضاتهم ، وبمقتضى المرسوم البابوى المسمى « لأجل تنظيم الكنيسة المجاهدة » أنشأ رسمياً ما سماه المرسوم « جماعة يسوع » (٢٧ سبتمبر ١٥٤٠) . وسمى أعضاؤها اسماً مناسباً هو « الاكليريكيون النظاميون فى جماعة يسوع » . ولم يظهر اسم « الجزويت » إلا عام ١٥٤٤ ، وكان آنئذ لفظ هجو قبل كل شيء ، استعمله كالفن وغيره من النقاد[٣٧] ، ولم يستعمله قط إجناتيوس نفسه . وبعد موته استل نجاح الطريقة الدينية الجديدة من اللفظ حمته القديمة ، فأصبح فى القرن السادس عشر شارة شرف .

وفى ١٧ أبريل ١٥٤١ انتخب إجناتيوس قائداً . وظل عدة أيام بعد انتخابه يغسل الأطباق ويؤدى أحقر الأعمال[٣٨] . وقد جعل مقامه روما فيما بقى من عمره (وكان الآن فى الخمسين) ، وأصبحت المدينة المقر الدائم للجماعة . وبعد طول التفكير والتجربة ، وضع « دساتير » الجماعة بين عامى ١٥٤٧ و ١٥٥٢ ، وهى بتغييرات طفيفة قانون الجزويت اليوم . وقد نص على أن توضع سلطة الطريقة النهائية فى أيدى الأعضاء « المنذورين » نذراً كاملا . ويختار هؤلاء مندوبين من كل إقليم ، وهؤلاء المندوبون — هم والرؤساء الإقليميون ، والقائد ، ومعاونوه — يؤلفون « المجمع العام » . وينتخب هذا المجمع قائدا جديداً إذا لزم الأمر ، ثم يفوض إليه سلطته ما لم يقترف ذنباً خطيراً . وقد أعطى « ناصحاً » ، وأربعة مساعدين . يراقبون كل أعماله ، ويحذرونه من أى خطأ جسيم ، ويدعون لمجمع العام لخلعه إذا اقتضى الأمر .

ويتعين على طالبى عضوية الجماعة أن يقضوا فترة اختبار من عامين ، يدربون خلالهما على هدف الجماعة ونظامها ، ويمارسون الرياضة الروحية ، ويؤدون الأشغال الحقيرة ، ويخضعون للرؤساء فى « طاعة مقدسة » مطلقة . وعليهم أن يتخلوا عن إرادتهم الفردية ، ويرتضوا أن يؤمروا كما يؤمر الجند ، وينقلوا « كأنهم الجثث »[٣٩] ، وعليهم أن يتعلموا الإحساس بأنهم بطاعتهم رؤساءهم إنما يطيعون الله . ويجب أن يوافقوا على إبلاغ رؤسائهم أخطاء زملائهم ، وعلى ألا يستشعروا أى غضاضة فى أن تبلغ أخطاؤهم لرؤسائهم[٤٠] . لقد كان هذا النظام صارماً ولكن فيه تمييزاً ومرونة ، وقل أن حطم الإرادة أو قضى على المبادرة . والظاهر أن الاستعداد للطاعة هو أول خطوة فى تعلم الأمر ، لأن هذا التدريب أخرج العدد الكبير من الرجال الأكفاء المغامرين .

والذين يطيقون فترة الاختبار القاسية هذه يأخذون على أنفسهم عهوداً « بسيطة » — أى قابلة للسحب — بالفقر والعفة والطاعة ، ويدخلون « الطبقة الثانية » . وبعض هؤلاء يمكثون على هذا الوضع إخوة علمانيين ، وبعضهم « مدرسين مؤهلين » يبتغون القسوسية ، ويدرسون الرياضيات والآداب القديمة والفلسفة واللاهوت ، ويعلمون فى المدارس والكليات . أما الذين يجوزون مزيداً من الاختبارات فيدخلون الطبقة الثالثة ، طبقة « المساعدين المؤهلين » ، وبعض هؤلاء قد يرقون إلى الطبقة الرابعة — طبقة « المنذورين » — وكلهم قساوسة يتعهدون خصيصاً بالاضطلاع بأى عمل أو بعثة يكلها إليهم البابا . وكان هؤلاء « المنذورون » عادة قلة صغيرة — لا تتجاوز أحياناً العُشر — بين أعضاء الجماعة كلها[٤١] . وعلى الطبقات الأربع أن تعيش عيشة مشتركة كالرهبان ، ولكن نظراً إلى واجباتهم الإدارية والتربوية الكثيرة فقد أعفوا من الالتزام الديرى بتلاوة صلوات العبادة اليومية السبع ولم يطلب إليهم أى ممارسات نسكية ، وإن جاز

إسداء النصح لهم إذا اقتضى الأمر . ونص على الاعتدال فى الطعام والشراب ؛ دون صوم متشدد ، ويجب أن يحفظ الجسم والعقل جميعاً صالحين لأداء جميع الأعمال . وللعضو أن يحتفظ بحقه فى أى أملاك يمتلكها حين دخوله الطريقة ، ولكن كل دخل يأتيه منها يجب أن يعطى للجماعة ، التى تأمل أن تكون الوريثة النهائية . وكل المقتنيات والأنشطة الجزويتية يجب أن تكرس لمجد أعظم ، مجد الله .

لقد ندر أن حملت مؤسسة ما بصمات شخصية واحدة على هذا النحو القاطع . وامتد أجل لويولا سنين أتاحت له تنقيح دساتيره ليصوغ منها نظام رهبنة يعمل بنجاح . وراح من حجرته العارية الصغيرة يقود بسلطان صارم وحذق عظيم حركات جيشه الصغير فى كل أرجاء أوربا وفى كثير من أنحاء العالم الأخرى . وكانت مهمة حكم الجماعة ، وإنشاء وإدارة كليتين وعدة مؤسسات خيرية فى روما ، أثقل من أن يحتملها طبعه كلما تقدم به العمر ، فأصبح غاية فى الجفاء مع أقرب مرءوسيه ، وإن ظل عطوفاً على الضعفاء[٤٢] . على أنه كان أقسى ما يكون على نفسه . وكثيراً ما كانت وجباته حفنة من البندق وكسرة من الخبز وكأساً من الماء . وكثيراً ما كانت ساعات نومه لا تزيد على أربعة فى اليوم ، بل إنه اختزل إلى نصف ساعة فى اليوم تلك الفترة التى يخصصها للرؤى والاستنارة السماوية[٤٣] ، ولما مات (١٥٥٦) شعر الكثير من أهل روما أن ريحاً حادة قد توقفت عن الهبوب ؛ ولعل بعض أتباعه امتزجت مشاعر الحزن عندهم باحساس الراحة . ولم يستطع الناس أن يدركوا بهذه السرعة أن هذا الأسبانى الذى لا يقهر سيثبت أنه من أعظم الرجال تأثيراً فى التاريخ الحديث .

كانت الجماعة تضم عند موته قرابة ألف عضو ، منهم نحو خمسة وثلاثين عضواً « منذوراً »[٤٤] . وبعد خلافات أظهرت قدراً كبيراً من إردة القوة لدى هؤلاء اليسوعيين الذين خالهم الناس محطمى الإرادة ، اختير

دييجو لاينيز قائداً (١٥٥٨) ، وقد اعترض بعض النبلاء الأسبان ممن كان لهم شيء من النفوذ فى الطريقة على اختياره لأن أسلافه منذ أربعة أجيال كانو يهوداً . وخاف البابا بولس الرابع أن ينهى الأمر بمنصب قائد الجزويت إلى منافسة البابوية ، لأنه يتولاه مدى الحياة . فأمر بمراجعة دساتير الجماعة لقصر رياسة القائد على ثلاث سنوات . ولكن بيوس الرابع ألغى الأمر ، وأصبح القائد «البابا الأسود» (كما لقبته الأجيال التالية نسبة إلى رداء الكاهن الأسود) . وما لبثت الطريقة أن ازدادت حجماً وقوة بعد أن انضم إليها فرانسيس بورجيا ، دوق جانديا ، ووهبها ثروته . ويوم أصبح هذا الرجل قائدها الثالث (١٥٦٥) كانت تضم ٣,٥٠٠ عضو يعيشون فى ١٣٠ بيتاً فى ثمانية عشر إقليماً أو دولة .

ولم تكن أوربا سوى قطاع صغير فى نشاطها . فقد أوفدت مبعوثيها إلى الهند والصين واليابان والدنيا الجديدة . وكانوا فى أمريكا الشمالية رواداً مغامرين لا تثنيهم المثبطات ، يحتملون كل الكروب والخطوب على أنها عطية من الله . أما فى أمريكا الجنوبية فقد جاهدوا كما لم تجاهد أى جماعة أخرى لتطوير التعليم والزراعة العلمية . وفى عام ١٥٤١ غادر القديس فرنسيس زافير لشبونة على سفينة برتغالية ، وبعد عام من الرحلة والمعاناة بلغ جوا . وهناك أخذ يمشى فى الشوارع رائحاً غادياً وهو يقرع ناقوساً يدعو الناس للاستماع إليه . فلما التفوا حوله بسط لهم العقيدة المسيحية بكل إخلاص وبلاغة ، ثم أوضح الخلق المسيحى عملياً بمشاركته فى عيشه أفقر المستمعين إليه مشاركة مغتبطة ، حتى استطاع أن يحول إلى المسيحية آلاف الهندوس والمسلمين ، بل إنه أقنع بالإيمان بعض المسيحيين البرتغاليين المغتربين الذين قست الشدائد قلوبهم . ولعل إبراءه المرضى راجع إلى الثقة التى بثها فيهم أو إلى معرفته العارضة بالطب ، وقد نسبت إليه المعجزات فيما بعد . ولكنه لم يدع لنفسه واحدة منها . أما المرسوم

البابوى الذى سلكه فى زمرة القديسين (١٦٢٢) : فقد نسب إليه « موهبة الألسن » — أى القدرة على التحدث بأى لغة عند الحاجة ، ولكن الحقيقة أن هذا القديس البطل كان لغوياً ضعيفاً ينفق الساعات الطويلة فى حفظ المواعظ بالتاملية أو الملاوية أو اليابانية ، وكان إيمانه أحياناً أشد من أن تسايره إنسانيته ، فقد حث يوحنا الثالث ملك البرتغال على إنشاء محكمة للتفتيش فى جوا [٤٦]، وأوصى بألا يرسم للقسوسية أى هندوسى ما لم ينحدر من أجيال عدة من الأسلاف المسيحيين ، ولم يكن يطيق فكرة اعتراف برتغالى لقسيس وطنى[٤٧] . وأخيراً غادر جوا لأنها بلد تتعدد فيه اللغات تعدداً لا يعينه على تحقيق أهدافه . قال « أريد أن أكون حيث لا يوجد مسلمون ولا يهود . أعطونى وثنيين خلصاً »[٤٨] — فلقد أحس أن الوثنيين أطوع إيماناً لأنهم أقل رسوخاً فى دين آخر . وفى عام ١٥٤٩ قصد اليابان ، ودرس اليابانية فى طريقه إليها . ولما رسا فى كاجوشيما ، راح هو وزملاؤه يبشرون فى الشوارع والناس يستمعون إليهم فى أدب . وبعد عامين عاد إلى جوا ، وقوم خللا ظهر بين المسيحيين هناك ، ثم أبحر ليبشر الصين (١٥٥٢) . وبعد عناء شديد نزل جزيرة تشانج — تشوين ، أسفل مصب نهر كانتون . وكان إمبراطور الصين قد قرر اعتبار دخول أوربى للصين جريمة كبرى ، ومع ذلك ما كان هذا ليثنى عزم زافير لو أنه وجد وسيلة للانتقال . وخلال انتظاره مرض ، ثم فارق الحياة فى ٢ ديسمبر ١٥٥٢ وهو يبكى قائلا « فيك يا رب رجائى ، فلا تجعلنى ملعوناً إلى الأبد[٤٩] » . وكان إذ ذاك فى السادسة والأربعين .

وقد تفانى اليسوعيون فى عملهم فى أوربا تفانيهم فى البعثات الأجنبية . فلزموا أماكنهم وعنوا بالمرضى فى فترات تفشى الطاعون[٤٨] . وبشروا كل الطبقات ، وكيفوا لغتهم وفق كل موقف . وجعلهم تعليمهم الممتاز وطباعهم المهذبة آباء الاعتراف المفضلين عند النساء والنبلاء ، ثم عند

الملوك . وشاركوا فى شئون الدنيا بنشاط ولكن بحكمة ولباقة ، وقد نصحهم إجناتيوس بأن قسطاً أكبر من الحكمة وأقل من التقوى خير من قدر أكبر من التقوى وأقل من الحكمة(٥١) . وكانوا عادة رجالا على خلق عظيم ، أما الأخطاء التى رموا بها فى فترة لاحقة فلم تكد تظهر فى العصر الذى نحن بصدده(٥٢) . ومع أنهم وافقوا جماعةً على محكمة التفتيش(٥٣)، فانهم وقفوا على مبعدة منها ، مؤثرين أداء رسالتهم عن طريق التعليم . وقد اضطرتهم قلة عددهم إلى ترك تعليم الأطفال لغيرهم ، أما هم فركزوا جهودهم على التعليم الثانوى ، وإذ وجدوا أن الجامعات قد سبقتهم فى الهيمنة عليها طرق دينية أخرى أو السلطة الزمنية أو رجال الدين البروتستنت ، فقد نظموا لهم كليات خاصة ، وحاولوا تدريب شبان مثقفين ليكونوا مراكز للتأثير فى الجيل التالى . وهكذا أصبحوا أعظم المربين فى زمانهم .

لقد أنشأوا فى نقط هامة فى أوربا معاهد دنيا — تقابل الجمنازيوم الألمانى والليسيه الفرنسية — وكليات عليا . واستطاعوا أحياناً أن يتسلموا جامعات موجودة فعلا كما حدث فى كوامبرا ولوفان . وروعوا منافسيهم بتعليمهم التلاميذ مجاناً . وأكبر الظن أن منهج الدراسة الذى وضعوه يدين بالفضل للمدارس التى أنشأها فى هولنده وألمانيا «إخوان الحياة المشتركة» ، وللجمنازيوم شتورم فى ستراسبورج ، ولأكاديميات ألمانيا وإيطاليا الإنسانية . وكان هذا المنهج يقوم على الآداب القديمة ويدرس باللاتينية ، أما استعمال اللغة القومية فمحظور على الطلبة إلا فى العطلات(٥٤) . وأعيدت دراسة الفلسفة الكلامية فى الفرق العليا . وزيد الاهتمام بتربية الخلق — أى الفضائل والعادات — وربط من جديد بين هذه التربية وبين العقيدة الدينية ، وغرس الإيمان التقليدى فى التلاميذ ، فأشربهم نظام من الصلاة ، والتأمل ، والاعتراف ، والتناول ، والقداس ، واللاهوت ، سلامة فى العقيدة قل معها من انحرف منهم فى القرن السادس عشر عن هذا السبيل

المطروق . وردت الدراسات الإنسانية من الوثنية إلى المسيحية . على أن هذا النظام كانت فيه مآخذ خطيرة ، فهو مفرط فى الاعتماد على الذاكرة ، مثبط للأصالة ، ناقص فى العلوم كغيره من مناهج ذلك العهد ، وقد نقى التاريخ تحقيقاً للهيمنة على الحاضر . ومع ذلك فاننا نجد مفكراً ذا نزعة استقلالية قوية مثل فرانسس بيكن يبادر إلى القول فى مدارس اليسوعيين ، « وددت لو كانت هذه المدارس مدارسنا ولو بوضعها الراهن »(٥٥). وسنرى فى القرنين التاليين أن خريجيها سيبرزون فى كل مناحى الحياة تقريباً عدا البحث العلمى .

وقبيل وفاة لويولا كان هناك مائة كلية يسوعية . وبفضل التعليم والدبلوماسية والتفانى فى العمل ، وبفضل الحماسة التى يضبطها النظام ، وبفضل التنسيق بين الأهداف والتوزيع البارع فى الوسائل ، أفلح الجزويت فى صد المد البروتستنتى ، واستردوا للكنيسة جانباً كبيراً من ألمانيا ، ومعظم المجر وبوهيميا ، وكل بولنده المسيحية . وندر أن حققت جماعة بمثل هذا الحجم الصغير ، مثل هذا النجاح الكبير ، بمثل هذه السرعة الفائقة . ومضت سمعتها ونفوذها ينموان العام بعد العام ، إلى أن اعترف بعد عشرين عاماً من تأسيسها الرسمى بأنها أروع نتاج للاصلاح الكاثوليكى . ويوم اجترأت الكنيسة فى نهاية المطاف على دعوة ذلك المجمع العام الذى طال ارتقاب أوربا له ليهدىء صراعها اللاهوتى ويبرئ جراحها الدينية ، كانت حفنة من الجزويت — بثقافتهم ، وولائهم ، وحصافتهم ، وسعة حيلتهم ، وبلاغتهم — هى التى ناط بها البابوات مهمة الدفاع عن سلطتهم المتحداه ، والمحافظة على الإيمان القديم كاملا غير منقوص .

الفصل التاسع والثلاثون

البابوات والمجمع

١٥١٧ – ٦٥

---

١ – البابوات يكرهون على الدفـــاع

لقد أرجأنا إلى آخر هذا المجلد هذه المهمة الشاقة على كاتب غير كاثوليكي ، مهمة فهم رد فعل البابوات للتحدى الذى واجههم به الإصلاح البروتستنتى ، ثم وصفه فى غير ميل ولا تحيز .

لقد كان رد الفعل أول الأمر دهشة متألمة . ولا عجب ، فبابوات فترة الإصلاح البروتستنتى ، ربما باستثناء واحد ، كانوا رجالا طيبين ، على قدر ما يتاح لرجال دولة أن يكونوا ، لا مجردين من حب الذات أو خالين من الخطايا ، بل فى جوهرهم مهذبين رحماء أذكياء ، مقتنعين فى إخلاص بأن الكنيسة مؤسسة ليست رائعة فى إنجازاتها فحسب ، ولكنها ما زالت ضرورة لا غنى عنها لصحة الإنسان الأوربى الخلقية وسلامه النفسى . وإذا سلمنا بأن خدام الكنيسة البشريين قد سقطوا فى رذائل خطيرة ، أفلا نجد عيوباً كهذه أو شراً منها فى كل إدارة علمانية ؟ وإذا كنا نحجم عن الإطاحة بالحكومة المدنية عقاباً لها على جشع أمرائها واختلاسات موظفيها ، فهل يكون إحجامنا أقل عن هدم كنيسة ظلت ألف سنة الأم التى غذت الحضارة الأوربية بالدين والتعليم والأدب والفلسفة والفن ؟ . وأى ضير فى أن تبدو بعض العقائد التى رؤى أنها معوان على النهوض بالفضيلة والنظام عسيرة الهضم على المؤرخ أو الفيلسوف – وهل

التعاليم التى يقترحها البروتستنت أكثر منطقاً أو أسهل تصديقاً إلى الحد الذى يبرر أن تقلب أوربا رأساً على عقب بسبب هذا الخلاف ؟ . إن التعاليم الدينية على أية حال لا يحددها منطق القلة بل حاجات الكثرة ، إنها إطار للعقيدة يمكن فى نطاقه تنشئة الإنسان العادى الميال بطبيعته إلى ارتكاب عشرات الأفعال غير الاجتماعية . ليكون مخلوقاً يملك من الدربة وضبط النفس ما يكفى لجعل المجتمع والحضارة أمراً ممكناً . ولو أن هذا الإطار حطم ، لكان لزاماً بناء إطار آخر ، ربما بعد قرون من الفوضى الخلقية والمادية.. أليس دعاة الإصلاح البروتستنتى متفقين مع الكنيسة على أنه لا جدوى من الدستور الخلقى ما لم يعززه الإيمان الدينى ؟ أما الطبقات المفكرة فهل تراها حققت أى مزيد من الحرية أو السعادة تحت إمرة الأمراء البروتستنت عنها تحت إمرة البابوات الكاثوليك(*) ؟ ألم يزدهر الفن تحت زعامة الكنيسة، وألا يذوى تحت خصومة المصلحين البروتستنت الذين أرادوا أن ينتزعوا من الناس تلك الصور التى تغذو ما فى حياتهم من شعر وأمل ؟ وأى مبررات قاهرة تدعو فى رأى العقول الناضجة إلى تفتيت العالم المسيحى إلى مذاهب لا تحصى ، متنابذة، مبطل بعضها للبعض ، عاجزة بمفردها أمام غرائز البشر ؟ .

إننا لا نستطيع أن نعرف هل كانت هذه مشاعر البابوات المعاصرين لحركة الإصلاح البروتستنتى ، لأن القادة النشطين قلما يذيعون على الناس فلسفاتهم . ولكن لنا أن نتصور الموقف النفسى للبابا ليو العاشر (١٥١٣ — ٢١) على هذا النحو ، إذ وجد البابوية تهتز تحت قدمية بمجرد أن دعى للاستمتاع بها . كان رجلا يشبه الكثيرين منا — مذنب بالخطيئة وبالإهمال

(*) يقول ناقد من أقوى وأعلم نقاد الكنيسة « قبل أن تنشب ثورة لوثر كانت كل أرجاء أوربا الكاثوليكية تتمتع بقدر كبير من حرية الفكر والكلام » . هنرى لى ، تاريخ محكمة التفتيش فى أسبانيا ، ص ٤١١ الجزء الثالث .

الإجرامى ، ولكنه فى جملته جدير بالصفح عنه . كان عادة ألطف الناس وأكثرهم عطفاً ، عليه رزق نصف شعراء روما ، ومع ذلك فقد لاحق مهرطقى بريشا حتى الموت ، وحاول أن يؤمن بأن الأفكار الممزقة للكنيسة يمكن أن تنتزع من البشر بحرق أصحابها . وقد أظهر من الحلم مع لوثر قصارى ما ننتظر من بابا ومن عضو فى أسرة مديتشى ، ولنتصور أن الوضع انعكس ، وكيف كان البابا مارتن يمحق المتمرد ليو محقاً ! لقد حسب ليو حركة الإصلاح البروتستنتى نزاعاً غير مهذب بين رهبان أجلاف . ومع ذلك ففى بواكير عام ١٥١٧ ، وفى بداية رياسته البابوية ، ألقى جيانفرانشسكو بيكو ديللا ميراندولا (ابن أخى بيكو الأشهر منه) أمام البابا والكرادلة خطابا يسترعى الاهتمام «يرسم فيه بأحلك الألوان ذلك الفساد الذى تسلل إلى الكنيسة» ويتنبأ بأنه «لو أن ليو . . . أبى إبراء الجراح ، فانه يخشى أن الله نفسه لن يستعمل بعد اليوم علاجاً بطيئاً ، بل سيبتر ويبيد الأعضاء المريضة بالنار والسيف»[١] . ولكن ليو انصرف على الرغم من هذا الإنذار إلى الاحتفاظ بتوازن للقوى بين فرنسا والإمبراطورية حماية للولايات البابوية . يقول مؤرخ كاثوليكى : «لم يفكر قط فى إصلاح على النطاق الواسع الذى أصبح ضرورياً . . . وظلت الإدارة البابوية فى روما دنيوية شأنها فى أى وقت مضى[٢]» .

وخير برهان على أنه لم يعد سبيل إلى الإصلاح إلا أن يأتى بضربة من الخارج هو إخفاق أدريان السادس (١٥٢٢ — ٢٣) . ذلك أنه سلم بهذه المفاسد واضطلع باصلاحها فى القمة ، ولكن أهل روما سخروا منه وسبوه لأنه يهدد مواردهم من ذهب الأقطار الواقعة وراء الألب . وبعد عامين من النضال ضد هذه الأنانية الجاهلة مات أدريان قهراً .

بيد أن العاصفة المتجمعة تفجرت على رأس كلمنت السابع (١٥٢٣ — ٣٤) . لقد كان من خيرة البابوات فكراً وخلقاً ، رحيماً كريماً ، دافع عن اليهود المطاردين ، ولم يشارك فى الانحلال الجنسى أو المالى المحيط به ،

وواصل إلى نهاية حياته المضطربة تغذية الفن والأدب الإيطاليين برعايته الذكية المميزة . ولعل ما حظى به من تعليم رفيع حال بينه وبين أن يكون إدارياً ناجحاً ، وكان فى ذكائه من الحدة ما أتاح له رؤية المبررات الحسنة لكل مسلك فى كل أزمة . وأوهن علمه من شجاعته ، وأغضبت ذبذباته الدولة تلو الدولة . على أننا لا نملك إلا التعاطف مع رجل توافر له حسن النية الشديد ، رجل رأى روما تنهب تحت بصره ، ورأى نفسه سجين غوغاء وإمبراطور : رجل منعه ذلك الإمبراطور من محاولة الوصول إلى صلح معقول مع هنرى الثامن ؛ رجل أكره على أن يختار بين أمرين أحلاهما مر ، أن يخسر إما هنرى وإنجلترة ، وإما شارل وألمانيا ؛ رجل قيل له حين احتج على تحالف فرنسوا مع العثمانيين ، والقائل هو ذلك الملك . « المسيحى جداً » ، إنه إذا بدر منه مزيد من الاحتجاج فان فرنسا ستطلق البابوية . إن أحداً من البابوات لم يتجرع مثله كأس المنصب حتى هذه الثمالة المرة .

وكانت أخطاؤه وبيلة . فهو حين أساء تقدير خلق شارل وموارده ، وبهذا شجع على « نهب روما » أصاب البابوية بلطمة شجعت شمال ألمانيا على نبذ الولاء لروما . وحين توج الرجل الذى أذن بذلك الهجوم فقد احترام العالم ، حتى العالم الكاثوليكى . وقد أذعن لشارل من جهة لافتقاره إلى القوة المادية اللازمة للمقاومة ، ومن جهة أخرى لخشيته من أن إمبراطوراً أقصاه البابا عن وده قد يدعو مجمعاً عاماً من العلمانيين ومن رجال الدين ، ويمسك بزمام السلطتين الكنسية والزمنية جميعاً . ويتم إخضاع الكنيسة للدولة المتمردة ، بل ربما يخلعه باعتباره ابناً غير شرعى[٣] . ولو أتيحت لكلمنت الشجاعة التى أبداها عمه لورنزو مديتشى فى نابلى عام ١٤٧٩ ، لبادر بدعوة مجمع قد يوفق تحت قيادته المتحررة فى إصلاح أخلاقيات الكنيسة وتعاليمها ، وفى إنقاذ وحدة العالم المسيحى الغربى .

أما خليفته فقد بدا لأول وهلة حائزاً على جميع شروط الذكاء والخلق . وأقر الجميع بأن أليساندرو فارنيزى ، الذى اتخذ اسم بولس الثالث ، هو الرجل الصالح لأرفع منصب فى العالم المسيحى ، فقد ولد فى أسرة غنية مثقفة ، وتعلم الآداب القديمة على يد بومبونيوس لايتوس ، ونضج أديباً إنسانياً وسط أسرة مديتشى بفلورنسة ، وقربه بابا أوقعته أخته من قبل فى شباك شعرها الذهبى ، ورسم كردينالا فى الخامسة والعشرين (١٤٩٣) ، وأثبت كفايته فى مهام دبلوماسية عسيرة ، وارتقى إلى مقام مرموق وغير منازع فى مجمع الكرادلة ، ثم انتخب للبابوية بالإجماع فى عام ١٥٣٤ . ولم ينل من قدره كثيراً إنجابه أربعة أبناء قبل أن يرسم قسيساً فى عام ١٥١٩ ، ومع ذلك فقد ظهر فى خلقه ، كما ظهر فى مجرى حياته العملية ، تقلب وتناقضات ، وبعض هذا راجع لأنه وقف كعمود مهزوز بين النهضة التى أحبها وبين حركة إصلاح بروتستنتى لم يستطع فهمها أو اغتفارها . ومع أنه كان رقيق البدن ، فقد سلخ خمسة عشر عاماً من الزعازع السياسية والداخلية . ومع أنه تزود بكل ثقافة عصره ، فانه كان يلجأ بانتظام إلى المنجمين ليحددوا له أكثر الساعات مواتاة لرحلاته أو قراراته بل ومقابلاته[٤] . ومع أنه كان رجلا شديد الحساسية ، ميالا بين الحين والحين إلى نوبات الغضب ، فقد كان معروفاً بضبطه لنفسه . وقد وصفه تشلليني — الذى اضطر لإيداعه السجن — بأنه رجل « لا إيمان له بالله ولا بغيره »[٥] . وهذا يبدو غلواً فى الحكم عليه ، فما من شك فى أن بولس كان يؤمن بنفسه ، إلى أن أضعف مسلك ذريته فى سنوات عمره الأخيرة إرادة الحياة فيه . وقد عوقب حيث أثم ، فقد أعاد محاباة الأقرباء التى كانت طابع بابوية عصر النهضة ، وأعطى بياتشنزا وبارما لولده بيرلويجى ، وكاميرينو لحفيده أوتافيو ، وخلع القبعة الحمراء على ابنى أخيه البالغين من العمر أربعة عشر وسبعة عشر عاماً ورقاهما على الرغم

مما ذاع عنهما من فساد خلق . لقد كان يملك شخصية بلا خلق ، وذكاء بلا حكمة .

وقد اعترف بعدالة النقد الذى وجهه دعاة الإصلاح البروتستنتى إلى إدارة الكنيسة ، ولو كان الإصلاح الكنسى هو العقبة الوحيدة فى سبيل المصالحة لجاز أن ينهى حركة الإصلاح هذه . فى عام ١٥٥٣ أوفد بيرباولو فرجيريو ليسبر القادة البروتستنت حول حضورهم مجمعاً عاماً ، ولكنه أبى أن يعد بالسماح بأى تغيير جوهرى فى العقيدة المعرفة أو فى سلطة البابوات . وعاد فرجيريو من ألمانيا بخفى حنين ، فقد أبلغ البابا أن الكاثوليك هناك انضموا إلى البروتستنت فى التشكك فى إخلاص البابا فى اقتراح عقد المجمع [٦]، وأن الأرشيدوق فرديناند شكا من أنه لا يستطيع العثور على أب اعتراف لم يكن زانياً أو سكيراً أو جهولا[٧] . وكرر بولس المحاولة فى عام ١٥٣٦ ، وكلف بيتر فان درفورست أن يتفق مع اللوثريين على شروط عقد مجمع ، ولكن ناخب سكسونيا صد بيتر فلم يظفر بشىء . وأخيراً بذل بولس قصارى جهد الكنيسة فى الوصول إلى تفاهم مع ناقديها ، فأرسل إلى مؤتمر براتسبون الكردينال جاسبارو كونتارينى ، وكان رجلا لا يتطرق الشك إلى إخلاصه فى الحركة الكاثوليكية الداعية للأصلاح .

ونحن لا نملك غير العطف على الكردينال الشيخ الذى اقتحم ثلوج الأبنين والألب فى فبراير ومارس ١٥٤١ وهو يتوق لتتويج حياته بتنظيم السلام الدينى . وقد تأثر كل من كان فى راتسبون بتواضعه ، وبساطته ، وحسن نيته . وقد توسط فى صبر القديسين بين الكاثوليك إيك وفلوج وجروبر ، والبروتستنت ملانكتون وبوكر وبيستوريوس . وأمكن التوصل إلى اتفاق حول الخطية الأصلية ، والإرادة الحرة ، والعماد ، والتثبيت ، والرسامة . وفى ٣ مايو كتب كونتارينى إلى الكردينال فارنيزى مغتبطاً

« حمداً لله ؛ بالأمس وصل اللاهوتيون الكاثولوليك والبروتستنت إلى اتفاق حول عقيدة التبرير » ، ولكن لم يتيسر الوصول إلى حل وسط مقبول حول سر القربان ، فقد أبى البروتستنت الاعتراف بأن فى استطاعة قسيس أن يحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه ، وشعر الكاثوليك أن التخلى عن عقيدة التحول هذه معناه التخلى عن صميم القداس وطقوس كنيسة روما . وقفل كونتاريني عائداً إلى روما وقد أضناه الإخفاق والحزن ، ليدمغه أتباع الكردينال كارافا المتزمتين فى الكثلكة التقليدية بتهمة اللوثرية . ولم يفصح بولس نفسه عن استطاعته قبول الصيغ التى وقع عليها كونتاريني ، على أنه استقبله استقبالا ودياً وعينه ممثلا للبابا فى بولونيا . وهناك مات بعد وصوله بخمسة أشهر .

وأصبحت سياسة الدين أشد اكفهراراً واختلاطاً . وتساءل بولس ألا يظفر الإمبراطور شارل الخامس من وراء تصالح البروتستنت مع الكنيسة بدولة ألمانية موحدة ، يسود السلام ربوعها ، بحيث تطلق يده فى أن يولى وجهه صوب الجنوب ، ويربط أملاكه فى شمالى وجنوبى إيطاليا بالاستيلاء على الولايات البابوية والقضاء على سلطة البابوات الزمنية ؟ أما فرنسوا الأول فانه لخشيته أيضاً من تهدئة ألمانيا اتهم كونتاريني بالاستسلام المخزى للمهرطقين ، وتعهد بتأييد بولس تأييداً كاملا إن هو رفض فى حزم مصالحة اللوثريين[٨] — الذين كان فرنسوا يسعى إلى التحالف معهم : ويبدو أن رأى بولس استقر على أن التفاهم الدينى سيكون مجلبة خراب سياسى . وفى عام ١٥٣٨ استطاع بالدبلوماسية البارعة أن يقنع شارل وفرنسوا بتوقيع هدنة فى نيس ، ولما أمن شر شارل فى الغرب على لذا النحو حرضه على الهجوم على اللوثريين . وحين قارب شارل الانتصار ١٥٤٦ سحب بولس الفرقة البابوية التى كان قد أرسلها إليه ، لأنه هناصاً أى ارتعد فرقاً من أن يكون فى خلاص الإمبراطور من وجود

مشكلة بروتستنتية فى مؤخرته ما يغريه باخضاع إيطاليا كلها لسلطانه وأصبح البابا بروتستنتياً مؤقتاً، ونظر إلى اللوثرية كأنها حامية للبابوية — تماماً كما كان سليمان القانونى حامياً للوثرية . وفى هذه الأثناء كان فرنسوا الأول — درعه الثانى ضد شارل — يحالف العثمانيين الذين هددوا المرة بعد المرة بغزو إيطاليا والهجوم على روما . ولعلنا نغتفر بعض هذا التذبذب لبابا أرهقه الخصوم وأحدقت به المشكلات على هذا النحو ، وما من عدة لديه غير حفنة من الجند ، ولا دفاع غير إيمان لا يعمر فيما يبدو إلا قلوب الضعفاء . وفى وسعنا أن ندرك ضآلة الدور الذى لعبه الدين فى هذه الصراعات على القوة حين نسمع تعليق شارل للسفير البابوى إذ علم أن بولس حول وجهه شطر فرنسا : قال الإمبراطور إن البابا أصابته فى شيخوخته عدوى مرض يصيب الناس عادة فى شبابهم ، هو المرض الفرنسى(٩) .

ولم يصد بولس البروتستنتية ولا أدخل أى إصلاحات جوهرية ، ولكنه نفخ الحياة فى البابوية ورد لها عظمتها ونفوذها ، وظل إلى النهاية واحداً من بابوات النهضة . فقد شجع جهود ميكلانجلو وغيره من الفنانين وأمدهم بالمال ، وجمل روما المبانى الجديدة ، وزين الفاتيكان بـ « الصالا ريجيا » و« الكابيلا باولينا » ، وشارك فى حفلات الاستقبال الفخمة ، ورحب بالجميلات من النساء على مائدته ، واستقبل الموسيقين والمهرجين والمغنيات والراقصات فى بلاطه(١٠) ، وحتى فى ثمانيناته لم يكن سليل فارنيزى هذا ليفسد اللعبة على لاعبيه . وقد نقله لنا تيشان فى سلسلة من اللوحات القوية : وفى أفضل هذه اللوحات (المحفوظة بمتحف نابلى) يبدو هذا الحبر الأعظم ، الذى سلخ من عمره خمسة وسبعين عاماً ، محتفظاً بقوته ، على وجهه أخاديد حفرتها مشكلات الدولة والأسرة ، ولكن رأسه لم ينحن بعد للزمن . وبعد ثلاث سنوات رسم تيشان لوحة لبولس وابنى أخيه أوتافيو

والسندرو (محفوظة هى الأخرى بنابلى) كادت تتنبأ بمصيره ، فالبابا الذى انحنى الآن ظهره ونال منه الأعياء . يبدو فيها وكأنه يستجوب أوتافيو مستريباً فى أمره . ذلك أن بيرلويجى - بن بولس ، اغتيل عام ١٥٤٧ ، وفى عام ١٥٤٨ تمرد أوتافيو على أبيه ، ودخل فى اتفاق مع أعداء بولس ليجعل بارما ولاية إمبراطورية . وأسلم البابا العجوز نفسه للموت (١٥٤٩) بعد أن هزمه حتى أبناؤه .

وقد أخطأ خليفته فى تسمية نفسه بيوليوس الثالث (١٥٥٠٠ — ٥٥)، إذ لم يكن فيه شىء من فحولة يوليوس الثانى ولا قوته ولا أهدافه الطموحة . بل إنه استأنف أساليب ليو العاشر السهلة الهينة ، واستمتع بالبابوية فى إسراف لطيف ، وكأن حركة الإصلاح البروتستنتى ماتت بموت لوثر . فخرج للصيد ، واحتفظ بندماء البلاط ، وقامر بمبالغ كبيرة ، ورعى مصارعات الثيران ، ورقى لمنصب الكردينالية تابعاً له يعنى بنسناسه ، وأعطى روما على الجملة آخر رشفة رشفتها من وثنية النهضة سواء فى الأخلاق والفن[11] . وقد كلف فينولا وغيره بأن يشيدوا له خارج « البورتا ديل بوبولو » بيتا جميلا « فيللا دى بابا جوليو » (١٥٥٣) جعله مركزاً للفنانين والشعراء والاحتفالات . ثم كيف نفسه فى هدوء وفق سياسات شارل الخامس . وشكا النقرس فى غير أوانه ، فحاول علاجه بالصوم . ويبدو أن هذا البابا الأبيقورى مات من الزهد فى الطعام [12]، وقيل من الانغماس فى اللذات[13] .

وجاء البابا مارتشيللوس الثانى ، وكان أقرب إلى القديسين . فحياته الخلقية بلا لوم ، وتقواه عميقة ، واختياره لشاغلى المناصب مثالى ، وجهوده لإصلاح الكنيسة مخلصة ، ولكنه مات فى اليوم الثانى والعشرين من تقلده منصب البابوية (٥ مايو ١٥٥٥) .

وكأن الكرادلة أرادوا أن يعلنوا على الملأ أن معارضة الإصلاح

البروتستنتي قد وصلت إلى البابوية ، فقلدوها رجلا كان روح حركة الإصلاح فى الكنيسة وصوتها ، وهو الناسك جوفانى بييترو كارافا ، الذى سمى نفسه بولس الرابع (١٥٥٥ — ٥٩) . وكان وقد بلغ التاسعة والسبعين ثابتاً على آرائه لا يحيد عنها قيد أنملة ، مكرساً نفسه لتنفيذها برسوخ فى الإرادة وحدة فى العاطفة لا يكادان يناسبان رجلا فى سنه . كتب السفير الفلورنسي يقول : « إن البابا رجل قد من حديد ، بل إن الأحجار التى يمشى فوقها تنفث الشرر »[١٤] . كان مولده فى بينيفنتو ، لذلك حمل حرارة جنوبى إيطاليا فى دمه ، وبدت النار دائمة التوقد فى مقلتيه الغائرتين. وكان فى طبعه فورة البركان ، ولم يجرؤ على معارضته سوى السفير الأسبانى تدعمه فرق الدوق ألفا . وقد كره بولس الرابع أسبانيا لأنها سيطرت على إيطاليا ، وكما حلم يوليوس الثانى وليو العاشر بطرد الفرنسيين ، كذلك كان أول أهداف هذا الثمانينى النشيط تحرير إيطاليا والبابوية من السيادة الأسبانية — الإمبراطورية . فاتهم شارل الخامس بأنه ملحد مقنّع[١٥] ، وابن مجنون لأم مجنونة ، وشخص « كسيح جسداً وروحاً »[١٦] ، ودمغ الشعب الأسبانى بأنه حثالة من الساميين[١٧] ، وأقسم أنه لن يعترف بفيليب واليا على ميلان . وفى ديسمبر ١٥٥٥ عقد معاهدة مع هنرى الثانى ملك فرنسا وإيركولى الثانى أمير فرارة لطرد جميع القوات الأسبانية أو الإمبراطورية من إيطاليا ، فاذا تم للحلفاء النصر أخذت البابوية سيينا ، والفرنسيون ميلان ، وحكموا نابلى بوصفها ولاية بابوية ، ووجب عزل شارل وفرديناند لقبولهما شروط البروتستنت فى أوجزبورج[١٨] .

وبمهزلة من هذه المهازل التى يمكننا رؤيتها ، ونحن على بعد كاف ، فى مآسى التاريخ ، وجد فيليب الثانى نفسه فى حرب مع البابوية وهو أشد أنصار الكنيسة غيرة وتحمساً . فأمر الدوق ألفا على مضض بأن يزحف بجيش نابولى على الولايات البابوية . ولم تمض أسابيع حتى هزم الدوق

بجنوده المتمرسين بالقتال ، البالغ عددهم ١٠,٠٠٠ ، قوات البابا الضعيفة ، واستولى على المدينة تلو المدينة ، ونهب أنانبي ، واستولى على أوستيا ، وهدد روما (نوفمبر ١٥٥٦) . وبارك بولس معاهدة بين فرنسا والعثمانيين ، ولجأ وزير خارجيته ، الكردينال كارلو كارافا ، إلى سليمان القانونى ليهاجم نابلى وصقلية[١٩] . وأرسل هنرى الثانى جيشاً إلى إيطاليا يقوده فرنسوا دوق جيز ، فاستعاد أوستيا ، وهلل البابا ، ولكن هزيمة الفرنسيين فى سان — كنتان أكرهت جيز على العودة برجاله سريعاً إلى فرنسا ، وزحف ألفا على أبواب روما دون مقاومة . وولول أهل روما فرقاً ، وودوا لو أن حبرهم الدينى الطائش كان نزيل قبره[٢٠] ، ورأى بولس أن المزيد من القتال قد يعيد « نهب روما » الرهيب ، بل قد يحمل أسبانيا على الانفصال عن كنيسة روما . لذلك وقع فى ١٢ سبتمبر ١٥٥٧ معاهدة صلح مع ألفا ، الذى عرض شروطا سخية ، واعتذر عن انتصاره ، ولثم قدم البابا المغلوب[٢١] . وردت إلى البابا جميع أراضيه التى سبق الاستيلاء عليها ، ولكن السيادة الأسبانية على نابلى وميلان والبابوية تأكدت . وبلغ انتصار الدولة على الكنيسة منتهاه ، حتى أن الأمراء الناخبين هم الذين توجوا فرديناند حين تسلم لقب الإمبراطور من شارل الخامس (١٥٥٨) ، ولم يسمح لأى ممثل للبابا بالقيام بأى دور فى مراسيم الاحتفال . وهكذا كانت نهاية تتويج البابوات لأباطرة الدولة الرومانية المقدسة ، وتحقق آخر المطاف انتصار شارلمان فى خلافه مع ليو الثالث .

والآن وقد تخفف بولس الرابع طوعاً أوكرها من أعباء الحرب ، فانه فرغ فيما بقى له من فترة بابويته للاصلاحات الكنسية والأخلاقية التى ذكرناها من قبل . وقد توجها بطرد وزيره الإباحى الكردينال كارلو كارافا ، وإن جاء هذا الطرد متأخراً ، وبنفى ابنى أخ آخرين من روما ، وكانا قد شوها سمعة بابويته . وأجليت عن الفاتيكان أخيراً سبة محاباة الأقرباء التى استشرت فيه قرنا من الزمان .

٢ ــ الرقابة ومحكمة التفتيش

وهذا البابا الحديدى هو الذى بلغت رقابة المطبوعات فى عهده غاية الصرامة واتساع المدى ، وأصبحت محكمة التفتيش ضرباً من الإرهاب كادت تبلغ وحشيته فى روما ما بلغته فى أسبانيا . ولعل بولس الرابع شعر بأن رقابة المطبوعات وقمع الهرطقة واجبان لا مندوحة عنهما لكنيسة أجمع الرأى البروتستنتى والكاثوليكى على أن مؤسسها هو ابن الله . لأنه إذا كانت الكنيسة من الله ، فخصومها إذن لا بد عملاء للشيطان ، والحرب الدائمة على هؤلاء الشياطين التزام دينى قبل إله مهان .

والرقابة قديمة قدم الكنيسة نفسها تقريباً . فالمسيحيون فى أفسس أحرقوا فى عصر الرسل كتباً فى « فنون غريبة » قيل إن قيمتها بلغت « ٥٠,٠٠٠ قطعة من الفضة [٢٢] » ، وحرم مجمع أفسس (١٥٠) تداول « أعمال بولس » [٢٣] غير القانونية . وفى فترات مختلفة أمر البابوات بحرق التلمود أو غيره من كتب اليهود . وحظرت ترجمة ويكليف وما تلاها من الترجمات البروتستنتية للكتاب المقدس لاحتوائها مقدمات وهوامش وتصحيحات معارضة للكاثوليكية. وزاد اختراع الطباعة من حرص الكنيسة على ألا تفسد أبناءها التعاليم الباطلة . فأمر مجمع اللاتيران الخامس (١٥١٦) بألا تطبع بعده كتب دون أن تفحصها الكنيسة وتوافق عليها . وأصدرت السلطات الزمنية بيانات بمحظوراتها من المطبوعات غير المرخصة : مجلس شيوخ البندقية فى ١٥٠٨ ، ومجلس نواب فورمز ومراسيم شارل الخامس وفرنسوا الأول فى ١٥٢١ ، وبرلمان باريس فى ١٥٤٢ . وفى ١٥٤٣ وسع شارل الرقابة الكنسية على المطبوعات فشملت أمريكا الأسبانية . وفى عام ١٥٤٤ نشرت السوربون أول فهرس عام بالكتب المحرمة ، ونشرت محكمة التفتيش أول قائمة إيطالية فى عام ١٥٤٥ .

وفى عام ١٥٥٩ نشر بولس الرابع أول فهرس بابوى بالكتب المحظورة ، وقد ورد فيه ثمان وأربعون طبعة مهرطقة للكتاب المقدس ، وأوقع الحرم على واحد وستين طابعاً وناشراً (٢٤) . وقد فرض على كل كاثولكى الامتناع عن قراءة أى كتاب نشر منذ سنة ١٥١٩ دون أن يحمل اسمى المؤلف والطابع ومكان النشر وتاريخه ، وحرمت قراءة أى كتاب بعد ذلك لم يحصل على إذن كنسى "imprimatur" بطبعه .وشكا باعة الكتب وطلاب العلم من أن هذه الإجراءات معطلة لهم أو قاضية عليهم ، ولكن بولس أصر على الطاعة التامة . وأحرقت آلاف الكتب فى روما وبولونيا ونابلى وميلان وفلورنسه والبندقية — ١٠٫٠٠٠ فى البندقية فى يوم واحد(٢٥) .

وبعد موت بولس انتقد نفر من قادة الكنيسة إجراءاته لما فيها من مغالاة فى العنف وعدم التمييز ، ورفض مجمع ترنت فهرسه ، وأصدر تحريماً أكثر تنظيماً ، هو « الفهرس الثلاثى » (١٥٦٤) . وشكلت لجنة خاصة للفهرس فى ١٥٧١ لمراجعة القائمة وإعادة نشرها بصفة دورية .

ومن العسير الحكم على أثر هذه الرقابة . وعند باولو ساربى ، وكان راهباً سابقاً ، ومعارضاً للإكليروس ، أن الفهرس « هو أبدع سر كشف إلى الآن . . . لفرض البلاهة على الناس(٢٦) » . ولعله شارك فى احداث اضمحلال إيطاليا الفكرى بعد عام ١٦٠٠ ، واضمحلال أسبانيا بعد عام ١٧٠٠ ، ولكن العوامل الاقتصادية والسياسية كانت أهم . والفكر الحر ، كما يقول أقوى مؤرخ إنجليزى له ، عاش فى الدول الكاثوليكية خيراً مما عاش فى الدول البروتستنتية ، وتبين حتى عام ١٧٥٠ أن الحكم المطلق للكتب المقدسة الذى فرضه اللاهوتيون البروتستنت أشد إيذاء للبحث والتفكير المستقلين من فهارس الكنيسة ومحكمة تفتيشها(٢٧). أياً كان الأمر فان الحركة الانسانية ذبلت ، فى الدول الكاثوليكية والبروتستنتية على السواء . وخف التأكيد على الحياة فى الأدب ، واضمحلت دراسة اليونانية ومحبة الآداب

الوثنية ، ورمى اللاهوتيون المتصرون الإنسانيين الإيطاليين (ولهم بعض العذر فى هذا) بأنهم كفرة متغطرسون فاسقون .

ونفذت الرقابة على الكتب فى تراخ حتى وكلها بولس الرابع إلى محكمة التفتيش (١٥٥٥) . وكانت هذه المؤسسة التى أنشئت أولا عام ١٢١٧ قد انتكست سلطتها وسمعتها نتيجة لتساهل بابوات النهضة . ولكن حين أخفقت آخر محاولة للمصالحة مع البروتستنت فى راتسبون ، وظهرت التعاليم البروتستنتية فى إيطاليا ذاتها ، حتى بين رجال االإكليروس ، وخيف أن تتحول مدن بأسرها مثل لوكا ومودينا إلى البروتستنتية[٢٨] اشترك الكردينا ل جوفانى كارافا ، وإجناتيوس لويولا ، وشارل الخامس فى الإلحاح على إعادة محكمة التفتيش . وأذعن بولس الثالث (١٥٤٢) ، وعين كارافا وخمسة كرادلة آخرين لإعادة تنظيم المؤسسة ، وخول لهم سلطة تفويض كنسيين خاصين فى أرجاء العالم المسيحى ، وشرع كارافا فى التنفيذ بما عهد فيه من صرامة ، وأنشأ مقرا للمحكمة وسجنا ، ووضع هذه القواعد لمرءوسيه :

١ — حين يكون الإيمان موضع شك يجب ألا يكون هناك أى تأجيل ، ولا بد من اتخاذ الإجراءات الصارمة بكل سرعة إذا قامت أقل شبهة .

٢ — يجب ألا يكون هناك أى اعتبار لأى أمير أو حبر مهما علا منصبه .

٣ — الصرامة المتناهية أولى أن تستعمل مع أولئك الذين يحاولون الاحتماء بأى حاكم . ولا يعامل بالرفق والعطف الأبوى إلا من اعترف اعترافاً كاملا .

٤ — يجب ألا يحط إنسان من قدره بابداء التسامح نحو المهرطقين أياً كان نوعهم ، ونحو الكالفنيين على الأخص[٢٩] .

فأما بولس الثالث ومارتشيللوس الثانى فقد قيدا حماسة كارافا ، واحتفظا بحق العفو عند الاستئناف . وأما يوليوس الثالث فكان أوهن من أن يتدخل فى عمل كارافا ، فأحرق فى عهده نفر من المهرطقين فى روما .

وفى عام ١٥٥٠ أمرت محكمة التفتيش الجديدة بمحاكمة أى كاهن كاثوليكى لا يعظ ضد البروتستنتية . فلما ارتقى كارافا نفسه عرش البابوية باسم بولس الرابع ، انطلقت المؤسسة إلى العمل بكل طاقتها . «واكتسبت المحكمة بفضل صرامته الخارقة سمعة واسعة ، بحيث لم يكن هناك كرسى قضاء آخر فى الأرض يتوقع الناس منه إصدار أحكام أشد بشاعة وإرهاباً» على حد قول الكردينال سريباندو[٣٠] . ووسع اختصاص محكمة التفتيش حتى شمل التجديف والمتاجرة بالرتب الكهوتية (السيمونية) ، واللواط ، والزواج المتعدد ، وهتك العرض ، والقوادة ، وانتهاك نظم الكنيسة فى الصوم ، وغير هذه من الذنوب التى لا تمت للهرطقة بسبب . ونحن نسوق أيضاً هذه الفقرة من كلام مؤرخ كاثوليكى عظيم :

«كان البابا العجول السريع التصديق يعير أذناً صاغية لكل اتهام ولو كان شديد السخف . . . وكان رجال محكمة التفتيش الذين لم يفتر البابا عن حضهم يشمون الهرطقة فى حالات كثيرة ما كان المراقب الهادئ الحذر ليكشف فيها أثراً لهرطقة . . . وحرض الحاسدون والمفترون على بذل الجهد فى تسقط الكلمات المريبة من شفاه رجال كانوا عمداً راسخة للكنيسة ضد المبتدعين ، وعلى تلفيق تهم الهرطقة لهم . . . وبدأ عصر إرهاب فعلى ملأ روما كلها بالخوف»[٣١] .

وفى قمة هذا العنف (٣١ مايو ١٥٥٧) أمر بولس بالقبض على الكردينال جوفانى مورونى ، أسقف مودينا ، وفى ١٤ يونيو أمر الكردينال بولى بأن يتخلى عن سلطة الممثل البابوى فى إنجلترا ويحضر إلى روما ليواجه محاكمته بتهمة الهرطقة . وقال البابا إن مجمع الكرادلة نفسه سرت إليه دعوى الهرطقة . أما بولى فقد بسطت عليه الملكة مارى حمايتها ومنعت تسليم الاستدعاء البابوى له . وأما مورونى فقد اتهم بأنه وقع اتفاق راتسبون حول عقيدة التبرير بالإيمان ، وبأنه تهاون مع المهرطقين الداخلين فى

نطاق سلطته ، وبأنه كان صديقاً لبولى ، وفتوريا كولونا ، وفلاميذيو ، وغيرهم من الشخصيات الخطرة ، وبعد أن قضى ثمانية عشر يوماً سجيناً فى قلعة سانت أنجيلو أصدر قضاة التفتيش حكمهم ببراءته ، وأمروا بالإفراج عنه ، ولكنه أبى أن يبرح زنزانته حتى يقر بولس ببراءته . ولكن بولس رفض ، فظل مورونى سجيناً حتى أطلقه موت البابا . وأما فلامينيو فقد فوت على محكمة التفتيش غرضها بموته ، « ولكننا أحرقنا أخاه شيزارى فى الميدان المواجه لكنيسة المينرفا »(٣٢) ، كما قال بولس ؛ وراح الحبر المجنون يطارد أقرباءه هو بشبهات الهرطقة فى عناد لا يعرف التحيز . قال « لو أن أبى ذاته كان مهرطقاً لجمعت الحطب لحرقه »(٣٣) .

كان بولس لحسن الحظ بشرا نهايته الموت ، فمضى لحسابه . بعد أربع سنوات من الحكم . واحتفلت روما بموته بأربعة أيام من الشغب المرح ، حطمت خلالها الجماهير تمثاله ، وجرته فى الشوارع ، ثم أغرقته فى نهر تيبر ، وأحرقت مبانى محكمة التفتيش ، وأطلقت سجناءها ، وأتلفت وثائقها(٣٤) . ولعل البابا كان يرد على هذا بأنه ما كان فى استطاعة رجل أن يصلح أخلاق روما ومفاسد الكنيسة إلا إذا أوتى صرامته وشجاعته اللتين لا هوادة فيهما ، وأنه وفق فى هذه المغامرة بينما أخفق أسلافه . ومن أسف أنه فى محاولته إصلاح الكنيسة تذكر توركويمادا ونسى المسيح .

وتنفس غرب أوربا كله الصعداء حين اختار مجمع الكرادلة سنة ١٥٥٩ جوفانى أنجيلو دى مديتشى حبرا أعظم باسم البابا بيوس الرابع . لم يكن مليونيراً مديتشيا ، بل ابن جاب للضرائب ميلانى ، اشتغل بالمحاماة ليكسب قوته ، وظفر باعجاب بولس الثالث وثقته ، فعين كردينالا ، واشتهر بالذكاء والميل إلى أعمال البر ، فلما ارتقى عرش البابوية ابتعد عن الحرب ووبخ أولئك الذين كانوا يشيرون بالسياسات العدوانية ، ولم يقض على محكمة التفتيش ، ولكنه أشعر قضاتها بأنهم

« يسرونه أكثر لو ياشروا عملهم بلطف السادة المهذبين لا بجلافة الرهبان»[٣٥].
وأراد اغتياله متعصب حسبه مفرطاً فى اللين ، ولكنه شلّ رهبةً حين مر به البابا هادئاً مجردا من أسباب الدفاع . وقد برهن على ما أوتى من روح المصالحة إذ سمح لأساقفة ألمانيا الكاثوليك بمناولة سر القربان بالخبز والخمر كليهما. وأعاد عقد مجمع ترنت ، وقاده إلى خاتمة اتسمت بالنظام ، ثم فارق الحياة عام ١٥٦٥ بعد رياسة دعمت فى هدوء حركة المعارضة للإصلاح البروتستنتى .

٣ — مجمع ترنت (١٥٤٥ — ٦٣)

قبل أن يأتى لوثر بزمن طويل ارتفعت مئات الأصوات مطالبة بعقد مجمع يصلح الكنيسة . وطالب لوثر بعرض نزاعه مع البابا على مجمع عام حر ، وطالب شارل الخامس بعقد مجمع كهذا بأمل نفض يده من المشكلة البروتستنتية ، وربما بأمل تأديب البابا كلمنت السابع ، واستطاع ذلك البابا الذى أنهكته الهجمات المتكررة أن يجد مائة عذر لتأجيل مثل هذا المجمع حتى يصبح بعيداً عن متناوله . فقد تذكر ما حدث للسلطة البابوية فى مجمعى كونستانس وبازل ، وما كان ليسمح لأساقفة معادين له ، أو لمندوبى الإمبراطور ، بدس أنوفهم فى سياساته أو مصاعبه الداخلية أو مولده . ثم كيف يستطيع مجمع أن ينقذ الموقف ؟ ألم يرفض لوثر الاعتراف بالمجامع كما رفض الاعتراف بالبابوات ؟ ولو قبل البروتستنت فى مجمع وسمح لهم بحرية الكلام فان النزاع الذى سيسفر عنه هذا القبول سيوسع الانشقاق ويزيده مرارة ويزعج أوربا بأسرها ؛ ولو حيل بينهم وبينه لأثاروا غضب التمرد والعصيان . وأراد شارل أن يعقد المجمع على أرض ألمانية ، ولكن فرنسوا أبى السماح للإكليروس الفرنسى بحضور اجتماع خاضع لسيادة الإمبراطور . يضاف إلى هذا

رغبة فرنسوا فى الإبقاء على النيران البروتستنتية مشتعلة فى المؤخرة الإمبراطورية . لقد كان الموقف مختلطاً أشد الاختلاط .

فلما جاء بولس الثالث ساورته كل مخاوف كلمنت ، ولكنه كان أشجع منه . ففى عام ١٥٣٦ أصدر دعوة لمجمع عام يجتمع فى مانتوا فى ٢٣ مايو ١٥٣٧ ، ودعا البروتستنت لحضوره . وافترض أن جميع الأطراف التى ستحضره ستقبل النتائج التى يخلص إليها المجمع ؛ ولكن ما كان للبروتستنت وهم أقلية فى مؤتمر كهذا أن يقبلوا مثل هذا الالتزام . وأشار لوثر بعدم الحضور ، ورد مؤتمر البروتستنت المنعقد فى شمالكالدين دعوة البابا دون أن يفتحها . وواصل الإمبراطور إصراره على عقد المجمع فى أرض ألمانية ، وكانت حجته أنه لو عقد فى أرض إيطالية لازدحم بالأساقفة الإيطاليين ولأصبح لعبة فى يد البابا . وبعد الكثير من المفاوضات والتأجيلات وافق بولس على عقد المجمع فى ترنت ، وكانت تقع فى أرض إمبراطورية وتخضع لشارل على الرغم من غلبة الإيطاليين على سكانها . ودعى المجمع للانعقاد فيها فى أول نوفبر ١٥٤٢ .

ولكن ملك فرنسا رفض أن يلعب دوره . وأبى نشر دعوة البابا فى أرجاء ملكه ، وهدد بالقبض على أى فرد من الإكليروس الفرنسى يحاول حضور مجمع منعقد على أرض عدوه ، فلما افتتح المجمع لم يكن حاضراً سوى بضعة أساقفة كلهم إيطاليون ، وأجل بولس الاجتماع حيناً حتى يسمح شارل وفرنسوا بانعقاد المجمع بكامل عدده . وبدا أن صلح كريبى قد أزاح العقبات من الطريق ، ودعا بولس إلى عودة انعقاد المجمع فى ١٤ مارس ١٥٤٥ . ولكن تجدد الخطر على الإمبراطور من العثمانيين أكرهه ثانية على مصالحة البروتستنت ، فطلب تأجيل المجمع مرة أخرى ، ولم يبدأ « المجمع المسكونى التاسع عشر للكنيسة المسيحية » دوراته النشيطة إلا فى ١٣ ديسمبر ١٥٤٥ .

ولكن حتى هذه البداية لم يحالفها التوفيق ، ولم تبلغ قط مبلغ « نصف العمل » . ذلك أن البابا الذى قارب الثمانين ظل فى روما ، يرأس المجمع « غيابياً » ، ولكنه ندب عنه ثلاثة كرادلة يمثلونه : ديل مونتى ، وتشرفينى ، وبولى . وكان قوام المجمع كردينال ترنت مادروزو ، وأربعة رؤساء أساقفة ، وعشرين أسقفاً ، وخمسة من قادة الطرق الديرية ، وبعض رؤساء الأديار ، وبضعة لاهوتيين ؛ ولم يكن فى وسع المجمع حتى ذلك الحين الزعم بأنه « مسكونى » — أى عالمى[٣٦]. وبينما كان حق التصويت فى مجمعى كونستانس وبازل متاحاً للقساوسة ، والأمراء ، وبعض العلمانيين ، كما كان متاحاً للأساقفة ، وكان التصويت بالمجموعات القومية ، فان هذا الحق قصر هنا على الكرادلة والأساقفة والقواد ورؤساء الأديار ، وكان التصويت بالأفراد ، ومن ثم فان الأساقفة الإيطاليين — وأكثرهم مدين للبابوية أو موال لها لأسباب أخرى — سيطروا على المجمع بأغلبيتهم العددية . وحضرت اللجان المجتمعة فى روما باشراف البابا المسائل التى لا يمكن عرض غيرها للمناقشة[٣٧] . وقد لاحظ مندوب فرنسى أنه ما دام المجمع يزعم بأنه يعمل بارشاد الروح القدس ، فان الأقنوم الثالث كان يأتى إلى ترنت بانتظام فى حقيبة البريد القادمة من روما[٣٨] .

ودارت أولى المناقشات حول الإجراءات : أمن الواجب البدء بتعريف الإيمان ثم البحث فى الإصلاحات ، أم العكس ؟ فأما البابا ومؤيدوه الإيطاليون فأرادوا البدء بتعريف العقائد . وأما الإمبراطور ومؤيدوه فأرادوا البدء بالإصلاح ، أملا من شارل فى تهدئة البروتستنت أو إضعافهم أو إحداث مزيد من الانقسام فى صفوفهم ، وأملا من الأحبار الألمان والأسبان أن تقلل الإصلاحات من سلطة البابا على الأساقفة والمجامع . وقد أمكن الوصول إلى حل وسط ، فاتفق على أن تحضر لجان متزامنة القرارات حول العقيدة والإصلاح ، وتعرض هذه القرارات على المجمع بالتناوب .

وفى مايو ١٥٤٦ أوفد بولس اثنين من اليسوعيين هما لاينيز وسالميرون ليساعدا مندوبيه فى الشئون اللاهوتية وفى الدفاع عن البابا ؛ ثم انضم إليهما بيتر كانيزيوس وكلود لوجى . وما لبث تفقّه اليسوعيين الذى لم يضارعهم فيه أحد أن أكسبهم نفوذاً طاغياً فى المناقشات ، وقاد إصرارهم على سلامة العقيدة المجمع إلى إعلان الحرب على أفكار الإصلاح البروتستنتى بدلا من التماس التوفيق أو الوحدة . وكان حكم الأغلبية فيما يبدو أن أى تنازلات للبروتستنت لن ترأب الصدع ؛ وأن الملل البروتستنتية تعددت وتنوعت بحيث لا يمكن لأى حل وسط أن يرضى بعضها دون أن يغضب البعض الآخر ، وأن أى تغيير جوهرى فى العقائد التقليدية من شأنه أن يضعف بنيان الكاثوليكية العقائدى واستقرارها كله ؛ وأن السماح للعلمانيين بالسلطات الكهنوتية سيقوض السلطة الأدبية للكهنوت والكنيسة ، وأن هذه السلطة لا غنى عنها للنظام الاجتماعى ؛ وأن لاهوتاً يرتكز بصراحة على الإيمان سيحبط نفسه إذا خضع لأهواء التفكير الفردى . وبناء عليه فان دورة المجمع الرابعة (أبريل ١٥٤٦) أكدت من جديد كل فقرة من فقرات العقيدة النقوية ، وادعت سلطانا متساوياً لتقليد الكنيسة وللكتاب المقدس ، وأعطت الكنيسة الحق دون غيرها فى شرح الكتاب وتفسيره ، وأعلنت أن ترجمة جيروم اللاتينية هى الترجمة والنص النهائيان للكتاب ؛ وتقرر أن القديس توما الأكوينى هو الشارح العمدة للاهوت النقى من الشوائب ، ورفع كتابه « خلاصة اللاهوت » إلى مقام لا يعلوه فيه إلا الكتاب المقدس والمراسيم البابوية[٣٩] . وهكذا نرى أن الكاثوليكية بوصفها ديناً ذا سلطان معصوم بدأت عملياً من مجمع ترنت ؛ وتبلورت على هيئة استجابة عنيدة لذلك التحدى الذى واجهتها به البروتستنتية ، والعقلانية ، والرأى الفردى . وانتهى بذلك « اتفاق الجنتلمان » بين كنيسة النهضة والطبقات المفكرة .

ولكن إذا كان الإيمان حيوياً إلى هذا الحد . فهل كان أيضاً كافياً فى ذاته لاستحقاق الخلاص كما زعم لوثر ؟ لقد ارتفعت فى الدورة الخامسة (يونيو ١٥٤٦) مناقشات عنيفة حول هذه النقطة ، وأمسك أحد الأساقفة بلحية آخر وانتزع منها حفنه من الشعر الأبيض ، ولما سمع الأمبرطور بما وقع أرسل إلى المجمع يقول إنه إن لم يهدأ فسيأمر بالقاء نفر من الأساقفة فى نهر أديج ليهدىء ثائرتهم(٤٠) . ودافع ريجينالد بولى عن رأى قريب قرباً خطراً من رأى لوثر ، حتى أن الكردينال كارافا (الذى أصبح بولس الرابع فيما بعد) دمغه بالهرطقة ، وانسحب بولى من المعركة قاصداً بادوا ، واعتذر بالمرض عن التخلف عن حضور المجمع(٤١) . ودافع الكردينال سريباندو عن الصيغة التوفيقية التى عرضها فى راتسبون الكردينال كنونتاريني ، وكان قد مات ، ولكن لاينيز أقنع المجمع بأن يشدد على أهمية الأعمال الصالحة وحرية الإرادة ، معارضاً بذلك لوثر معارضة كاملة .

أما إجراءات الإصلاح الكنسى فكانت حركتها أقل نشاطاً من تعريفات العقيدة . كان أسقف كاتدرائية القديس مرقس قد افتتح دورة ٦ يناير ١٥٤٦ برسمه صورة قاتمة للفساد الذى استشرى فى العالم ، والذى لن يفوقه فى ظنه فساد الأجيال القادمة إطلاقاً ، وقد عزا هذا الفساد « إلى شر الرعاة دون سواه » . وقال إن هرطقة لوثر سببها الرئيسى خطايا الإكليروس ، وإن إصلاح الإكليروس خير سبيل لقمع هذا التمرد(٤٢) . ولكن الإصلاح الجوهرى الوحيد الذى تحقق فى هذه الدورات الأولى كان ذلك الذى حرم على الأساقفة الإقامة بعيداً عن أسقفياتهم ، أو شغل أكثر من أسقفية . واقترح المجمع على البابا أن ينقل إصلاح قسم الوثائق من التوصيات النظرية إلى الأوامر الفعلية ، ولكن بولس كان يريد أن تترك شئون الإصلاح للبابوية ، فلما أصر الإمبراطور على مزيد من السرعة فى مناقشات الإصلاح فى المجمع ، أمر البابا مندوبيه بأن يقترحوا نقل

المجمع إلى بولونيا — التى تسمح لروما بأن تشرف على أعمال المجمع إشرافاً أسرع لأنها واقعة فى الولايات البابوية . ووافق الأساقفة الإيطاليون ، أما الأساقفة الإسبان والإمبراطوريون فاحتجوا ، وظهر فى ترنت طاعون غير ذى بال فى الوقت المناسب فقضى على أحد الأساقفة ، وانتقلت الأغلبية الإيطالية إلى بولونيا ، أما الباقون فظلوا فى ترنت . ورفض شارل الاعتراف بدورات بولونيا . وهدد بعقد مجمع منفصل فى ألمانيا . وبعد عامين من الجدل والمناورة خضع بولس وعطل مجمع بولونيا (سبتمبر ١٥٤٩) .

وخف توتر الموقف بموت بولس . ووصل يوليوس الثالث إلى تفاهم مع الإمبراطور ، فدعا المجمع للانعقاد مرة أخرى فى ترنت فى مايو ١٥٥١ لقاء وعد من شارل بالامتناع عن تأييد أى إجراء من شأنه اختزال سلطة البابا ، ووافق البابا على إعطاء اللوثريين فرصة الإدلاء بأقوالهم . ولكن هنرى الثانى ملك فرنسا رفض الاعتراف بالمجمع لأنه كره هذا التقارب بين البابا والإمبراطور . فلما اجتمع كان عدد الحاضرين ضئيلا فاضطر إلى تأجيل اجتماعاته . ثم عاد إلى الاجتماع فى أول سبتمبر بحضور ثمانية من رؤساء الأساقفة ، وستة وثلاثين أسقفاً ، وثلاثة رؤساء أديار ، وخمسة قادة ، وثمانية وأربعين لاهوتياً . ويواكيم الثانى ناخب براندنبورج ، وسفراء يمثلون شارل وفرديناند .

وأكدت الدورة الثالثة عشرة للمجمع (أكتوبر ١٥٥١) من جديد عقيدة التحول الكاثوليكية ، فالكاهن بتقديسه الخبز والخمر فى سر القربان يحولهما فعلا إلى جسد المسيح ودمه . بعد هذا لم يعد هناك جدوى من الاستماع إلى البروتستنت ، ولكن شارل أصر على هذا . واختار دوق فورتمبرج ، وموريس ناخب سكسونيا ، وبعض مدن جنوبى ألمانيا — اختار هؤلاء أعضاء وفد بروتستنتى ، ووضع ملانكتون بياناً بالعقيدة اللوثرية لرفعه .

إلى المجمع . وضمن شارل للمندوبين سلامة المرور ، ولكنهم إذ تذكروا كونستانس وهس طلبوا أيضاً ضماناً بسلامة المرور من المجمع ذاته . وبعد نقاش طويل منحهم المجمع الضمان . ولكن راهباً دومنيكياً ذكر فى عظة تدور حول مثل الزوان ، ألقاها فى ذات الكاتدرائية التى انعقدت فيها دورات المجمع ، أن زوان المهرطقين قد يمهلون إلى أجل ، ولكن لا بد فى النهاية من حرقهم(٤٣) .

وفى ١٤ يناير ١٥٥٢ ألقى المندوبون البروتستنت كلمتهم فى المجمع : فاقترحوا تأكيد المراسيم التى أصدرها مجمعا كونستانس وبازل بشأن تخويل المجامع سلطاناً أعلى على البابوات ، وأن يحل أعضاء المجمع الحاضر من عهود الولاء للبابا يوليوس الثالث ، وأن جميع القرارات التى وصل إليها المجمع حتى ذلك التاريخ يجب إلغاؤها ، وأنه يجب أن يعيد مجمع موسع يمثل فيه البروتستنت تمثيلا كافياً مناقشة الموضوعات من جديد(٤٤) . ومنع يوليوس الثالث بحث هذه المقترحات . وقرر المجمع تأجيل البت فيها إلى ١٩ مارس ، وهو التاريخ الذى يتوقع فيه وصول مزيد من المندوبين البروتستنت .

وفى أثناء هذه العطلة طرأت على اللاهوت تطورات حربية على نحو غير متوقع . ففى يناير ١٥٥٢ وقع ملك فرنسا حلفاً مع البروتستنت الألمان ، وفى مارس زحف موريس أمير سكسونيا على إنزيروك ، وفر شارل ، وما كان لأية قوة أن تمنع موريس إن شاء من الاستيلاء على ترنت والإطاحة بالمجمع . واختفى الأساقفة واحداً بعد الآخر ، وفى ٢٨ أبريل عطل المجمع رسمياً . ونزل فرديناند بمقتضى معاهدة باساو (٢ أغسطس) عن الحرية الدينية للبروتستنت المنتصرين حربياً ، فلم يعد المجمع يهمم فى شىء بعد هذا .

ورأى بولس الرابع أن من الحكمة أن يدع المجمع يسبت خلال

رياسته . فلما جاء البابا بيوس الرابع ، وكان شيخاً دمث الخلق ، راودته فكرة مؤداها أن منح سر القربان بالخبز والخمر قد يهدىء البروتستنت كما هدأ البوهيميين من قبل . فطلب إلى المجمع أن ينعقد من جديد فى ترنت فى ٦ أبريل ١٥٦١ ، ودعا إليه جميع الأمراء المسيحيين سواء الكاثوليك أو البروتستنت . وقد جلب المندوبون الفرنسيون إلى هذه الدورة الجديدة قائمة رهيبة بالاصلاحات التى ينشدونها : القداس باللغة القومية ، والتناول بالخبز والخمر ، وزواج القسس ، وإخضاع البابوية للمجامع العامة ، وإنهاء نظام الاعفاءات البابوية(٤٥) ، ويبدو أن مزاج الحكومة الفرنسية كان فى تلك اللحظة شبه هيجونوتى . وأيد فرديناند الأول هذه المقترحات ، وكان الآن إمبراطوراً ، وأضاف أن « البابا يجب أن يتواضع ، ويخضع لإصلاح شخصه ودولته وإدارته » ، أما أساطير القديسين فينبغى أن تنقى من السخافات . وأما الأديار فينبغى إصلاحها حتى « لا تعود ثروتها الطائلة تنفق بمثل هذا السفه »(٤٦) . وأنذر الموقف بالخطر على بيوس ، وترقب مندوبوه افتتاح الدورة فى شىء من الذعر .

وبعد تأجيلات كان دافعها الروية أو الاستراتيجية التأم شمل الدورة السابعة عشرة للمجمع فى ٢٨ يناير ١٥٦٢ ، بحضور خمسة كرادلة ، وثلاثة بطارقة ، وأحد عشر رئيس أساقفة ، وتسعين أسقفاً ، وأربعة قادة ، وأربعة رؤساء أديار ، ومختلف الممثلين العلمانيين للأمراء الكاثوليك . واستجابة لطلب من فرديناند عرض ضمان بسلامة المرور لأى مندوب بروتستانتى قد يرغب فى الحضور ، ولكن أحداً لم يحضر . وتزعم رئيس أساقفة غرناطة وشارل كردينال اللورين حركة ترمى إلى الحد من امتيازات البابا ، فأكدا أن الأساقفة لا يستمدون سلطانهم عن طريقه بل بـ « الحق الإلهى » المباشر ، وردد أسقف سقوبية هرطقة من هرطقات لوثر ،

إذ أنكر أنه كان للبابا سيادة على غيره من الأساقفة فى الكنيسة الأولى(٤٧) . على أن هذا التمرد الأسقفى أطفأته البراعة البرلمانية التى أبداها مندوبو البابا ، وولاء الأساقفة الإيطاليين والبولنديين للبابا ، وبعض المجاملات البابوية التى وجهت فى الوقت المناسب إلى كردينال اللورين . وانتهى الأمر بتوسيع سلطة البابا لا بالحد منها ، واشترط على كل أسقف أن يقسم يمين الطاعة الكاملة للبابا . وأمكن تهدئة فرديناند بوعده بأن البابا سيسمح فى ختام المجمع بأن يعطى القربان بالخبز والخمر كليهما .

أما وقد فرغ المجمع من أهم نزاع واجهه ، فقد انتهى بسرعة من أعماله الباقية . فحرم زواج الإكليروس ، وقرر توقيع عقوبات صارمة على تسرى القساوسة . وشرع الكثير من الاصلاحات الصغيرة للنهوض بأخلاق رجال الإكليروس ونظامهم . وقرر إنشاء كليات لاهوتية يدرب فيها الراغبون فى القسوسية على عادات التقشف والتقوى . أما سلطات الإدارة البابوية فقد اختزلت . ووضعت قواعد لإصلاح الموسيقى والفن الكنسيين ، وتقرر تغطية صور العرايا بما يكفى لمنع إثارتها للخيال الحسى . ووضح الفارق بين عبادة الصور وعبادة الأشخاص الذين تمثلهم الصور . وتأيد استعمال الصور الدينية بالمعنى الثانى . أما المطهر والغفرانات والتوسل إلى القديسين فقد دوفع عنها وأعيد تعريفها . وهنا اعترف المجمع فى صراحة بالمفاسد التى انبعثت عن شررها نار التمرد اللوثرى . وقد نص أحد القرارات على ما يأتى : —

« إن المجمع يقرر بصدد منح الغفرانات . . . أنه يجب القضاء كلية على كل كسب إجرامى متصل بها ، باعتباره مصدراً لفساد محزن بين الشعب المسيحى ؛ أما عن غير ذلك من ضروب الخلل والفوضى الناجمة عن الخرافة أو الجهل أو الاستهانة بالمقدسات أو أى سبب كائناً ما كان — فبما أن هذه كلها لا يمكن القضاء عليها بالتحريمات الخاصة نظراً إلى

انتشار الفساد على نطاق واسع ، فان المجمع يلقى على عاتق كل أسقف واجب التعرف على ما يوجد فى أسقفيته من مفاسد ، وعرضها على المجمع الإقليمى التالى ، وإبلاغها إلى الحبر الأعظم فى روما بعد موافقة الأساقفة الآخرين(٤٨) .

وأجمع البابا والإمبراطور على أن المجمع قد بلغ الآن نهاية نفعه ، وفى ٤ ديسمبر ١٥٦٣ فض نهائياً وسط ابتهاج المندوبين المرهقين . بعد أن حدد طريق الكنيسة لقرون قادمة .

لقد نجحت معارضة الإصلاح البروتستنتى فى أهدافها الأساسية : صحيح أن الرجال — سواء فى الأقطار الكاثوليكية أو البروتستنتية — ظلوا يكذبون ويسرقون ، يغوون العذارى ويبيعون الوظائف . يقتلون ويشنون الحرب(٤٩) . ولكن أخلاق الإكليروس تحسنت ، وروضت الحرية الجامحة التى اندفعت فيها إيطالية النهضة فتكيفت تكيفاً مهذباً وفق مزاعم البشر . فالبغاء الذى كان صناعة كبرى فى روما والبندقية أيام النهضة أخفى الآن رأسه ، وأصبحت العفة طابع العصر . وتقرر اعتبار تأليف الكتب القذرة أو نشرها جريمة كبيرة فى إيطاليا . وهكذا شنق نيكولو فرانكو ، سكرتير أريتينو وعدوه ، بأمر من البابا بيوس الخامس عقاباً على تأليفه كتاب Priapeia (٥٠) . أما أثر القيود الجديدة على الفن والأدب فلم يكن مؤذياً أذى مطلقاً لا خلاف عليه ؛ مثال ذلك أن فن الباروك انبعث على استحياء من مكانه المغمور ؛ كذلك إذا نظرنا من زاوية أدبية خالصة فاننا لا نجد تاسو ، وجوارينى ، وجولدونى ، يهبطون هبوطاً عنيفاً عن مرتبة بوياردو ، وأريوستو ، ومكافيللى المسرحى ؛ وقد أقبل أعظم عصور أسبانيا الأدبية والفنية فى ملء « الرجعية الكاثوليكية » . ولكن الفرحة التى كانت طابع إيطالية النهضة انطفأت ، وفقدت النساء الإيطاليات بعض ذلك السحر والابتهاج الذى أتاهن من حريتهن السابقة لحركة الإصلاح البروتستنتى . وساد إيطاليا عصر أقرب ما يكون إلى

البيورتانية نتيجة لقيام أخلاقية قائمة واعية . وانتعشت الديرية . وكانت خسارة للنوع الإنسانى ، من وجهة نظر العقل الحر ، أن تقضى الرقابة الكنسية والسياسية على حرية الفكر النسبية التى سادت أيام النهضة ، وكانت مأساة أن تعاد محكمة التفتيش فى إيطاليا وغيرها من البلاد فى الوقت الذى أخذ العلم ينبثق فيه محطماً قشرته الوسيطة . وضحت الكنيسة عن عمد بالطبقات المفكرة فى سبيل الأكثرية المتدينة التى صفقت لقمع أفكار قد تذيب إيمانها المعزى .

كانت الإصلاحات الكنسية حقيقية ودائمة . وإذ كانت الملكية البابوية قد رفع مقامها فوق الارستقراطية الأسقفية للمجامع ، فان هذا كان يساير روح العصر ، حين كانت الارستقراطيات فى كل بلد ، عدا ألمانيا ، تفقد سلطانها ليتقلده الملوك . وأصبح البابوات الآن أرقى من الأساقفة خلقياً ، وأمكن تنفيذ النظام الذى تطلبه الاصلاح الكنسى على يد ساطة ممركزة خيراً من سلطة مقسمة ، وأنهى البابوات محاباتهم لأقربائهم . وشفوا الإدارة البابوية من تسويفاتها الباهظة الثمن ورشوتها المفضوحة . وأصبحت إدارة الكنيسة بشهادة من فحصوا هذا الأمر من غير الكاثوليك نموذجاً للكفاية والنزاهة(٥١) . وأدخل استعمال مقصورة الاعتراف المظلمة (١٥٤٧) وجعل إجبارياً (١٦١٤) ، ولم يعد القسيس عرضة لأن يفتنه جمال بعض المعترفات . أما باعة صكوك الغفران الجائلون فقد اختفوا ، وأما الصكوك فقد خصصت فى معظم الحالات للعبادات الورعة ولأعمال البر لا للتبرعات المالية ، وبدلا من أن يتقهقر رجال الإكليروس الكاثوليك أمام زحف البروتستنت أو الفكر الحر . انطلقوا ليعيدوا اقتناص فكر الشباب وولاء السلطان . وأصبحت روح اليسوعيين ، تلك الروح الواثقة ، الإيجابية ، النشيطة ، المدربة على النظام ، هى روح الكنيسة المجاهدة .

لقد كان شفاء الكنيسة فى جملته شفاء مذهلا ، وثمرة من أروع الثمرات التى جادت بها حركة الإصلاح البروتستنتى .

كلمة ختامية

النهضة ، والإصلاح البروتستنتى ، والتنوير

إن النهضة والإصلاح البروتستنتى هما ينبوعا التاريخ الحديث ، والمصدران المتنافسان للتجديد الفكرى والخلقى الذى طرأ على الحياة الحديثة . وقد ينقسم الناس حسب ميولهم وانتسابهم هنا ، حسب دينهم الواعى الذى يدينون به للنهضة التى أطلقت العقل من عقاله وأضفت الجمال على الحياة ، أو حسب عرفانهم بصنيع الإصلاح البروتستنتى الذى شحذ الإيمان الدينى والحس الخلقى . والخلاف بين إرزمس ولوثر متصل ، وسوف يتصل ، لأن الحقيقة التى قد يصل إليها الناس فى هذه الأمور الكبيرة هى ثمرة الجمع بين الأضداد ، وستشعر هذه الحقيقة دائماً بأبوتها المزدوجة .

ويمكن القول إن الخلاف من بعض النواحى سلالى وجغرافى ، خلاف بين اللاتين والتيوتون ، بين الجنوب الحسى الطلق والشمال الجلد المعتم ، بين شعوب هزمت على يد روما وتلقت منها التراث الكلاسيكى ، وشعوب قاومت روما — وبعضها هزم روما — وأحبت جذورها وأرضها أكثر كثيراً من اليونان جالبى المواهب أو الرومان حاملى القوانين . لقد قسمت إيطاليا وألمانيا فيا بينهما تشكيل النفس الحديثة ، إيطاليا بالرجوع إلى الأدب والفلسفة والفنون الكلاسيكية ، وألمانيا بالرجوع إلى الإيمان والشعائر المسيحية الأولى . وكانت إيطاليا على وشك النجاح فى محاولتها الثانية لغزو ألمانيا — بالعشور والمذهب الإنسانى هذه المرة ؛ ولكن ألمانيا قاومت ثانية ، وطردت الكنيسة وأسكتت الإنسانيين . وأنكرت حركة الإصلاح البروتستنتى النهضة واهتمامها بالشئون والمباهج الدنيوية ، وعادت إلى تلك الناحية (وهى ناحية واحدة فقط !) من نواحى العصور الوسطى التى عدت إنجازات البشر ومباهجهم تافهة باطلة ، ووصفت الحياة بأنها واد

للدموع ، ودعت الخطاة إلى الأيمان والتوبة والصلاة . فأما إيطاليو النهضة الذين قرأوا مكيافللى وأريتينو ، فقد رأوا فى هذا انتكاساً إلى العصور الوسطى ، وعوداً إلى عصر الإيمان فى مرحلة المراهقة المناضلة التى يمر بها عصر العقل . وقد ابتسم الإيطالى الذى استمع إلى يومبوناتزى ، وعاش تحت حكم بابوات النهضة الهين اللين ، حين وجد لوثر وكالفن وهنرى الثامن يحتفظون بكل العقائد الخارقة التى اتسم بها الإيمان الوسيط — كتاب مقدس من إملاء الله ، وإله مثلث الأقانيم ، وإيمان بالقضاء والقدر ، وخليقة خلقت بأمر إلهى ، وخطيئة أصلية ، وتجسد ، وولادة من عذراء ، وتكفير ، ودينونة أخيرة ، وجنة ونار — ثم يرفضون بالضبط عناصر المسيحية الوسيطة — كعبادة العذراء ، والإيمان بإله ملؤه المحبة والرحمة ، و توسل إلى القديسين الشفعاء ، والطقوس التى تزدان بكل الفنون — تلك عناصر التى أضفت على ذلك الإيمان رقة وعزاء وجمالا يبرر التغاضى عن الأساطير تغاضياً سمح بالاستمتاع بالفنون .

كان الكاثوليكى الصادق الإيمان حجته ضد حركة الإصلاح البروتستنتى . فهو أيضاً يكره العشور ، ولكنه لا يستطيع أن يتصور القضاء على الكنيسة . لقد كان عليماً بأن الرهبان أخذ يفلت زمامهم ، ولكنه شعر بأنه ينبغى أن يفسح فى الدنيا مكان ومؤسسات لرجال انقطعوا للتأمل والدرس والصلاة ، وكان يقبل كل كلمة من الكتاب المقدس بشرطين : أن ناموس المسيح أبطل ناموس موسى ، وأن للكنيسة سلطاناً مساوياً لسلطان الكتاب لأن مؤسسها هو ابن الله ، ويجب أن يكون لها الحق النهائى فى تفسير الكتاب والملاءمة بينه وبين حاجات العيش المتغيرة . وماذا تكون النتيجة لو أن فقرات من الكتاب ملتبسة متناقضة فى ظاهرها تركت ليفسرها كل فرد تفسيراً حراً ويحكم عليها كما يشاء ؟ أفلا تمزق مئات العقول الكتاب إرباً ، وألا تتحطم المسيحية وتتبدد شيعاً مقتتلة لا حصر لها ؟ .

ويواصل الكاثوليكى العصرى الحجة مروراً بكل ناحية من نواحى الحياة العصرية فيقول « لقد كان إصراركم على الإيما دون الأعمال مدمراً ، فأفضى إلى دين توارت برودة القلب فيه خلف ورع العبارة ، وكاد البر أن يموت طوال مائة عام فى مراكز انتصاركم . ولقد قضيتم على سر الاعتراف وخلفتم مئات التوترات فى نفوس البشر الذين تتنازعهم الغريزة والحضارة ، وهأنتم أولاء تعيدون متأخرين ذلك النظام الشافى تحت أشكال مريبة . ولقد دمرتم جل المدارس التى أنشأناها ، وأضعفتم الجامعات التى أسستها الكنيسة وطورتها حتى أشرفتم بها على الموت . إن قادتكم يسلمون بأن تمزيقكم الإيمان أدى إلى تدهور خلقى خطر فى ألمانيا وانجلترا . فلقد أطلقتم على الناس فوضى من الفردية فى الأخلاق والفلسفة والصناعة والحكم . ولقد انتزعتم من الدين كل بهجته وجماله ، وملأتموه بدراسة الشياطين وبالرعب ؛ وحكمتم على الجماهير الكبيرة من الناس باللعنة الأبدية لأنهم « مرفوضون » ؛ وعزيتم قلة وقحة بفخر « الاختيار » والخلاص . لقد خنقتم نمو الفن ؛ وحيثما انتصرتم ذبلت الدراسات القديمة . لقد صادرتم أملاك الكنيسة لتعطوها للدولة والأغنياء ، ولكنكم تركتم الفقراء أفقر مما كانوا ، وأضفتم الاحتقار إلى فقرهم وتعاستهم . لقد تغاضيتم عن الربا والرأسمالية ، ولكنكم حرمتم العمال أيام الراحة المقدسة التى منحتهم إياها كنيسة رحيمة . لقد رفضتم البابوية لا لشىء إلا لتمجدوا الدولة ، وأعطيتم الأمراء الانانيين حق تقرير ديانة رعاياهم ؛ واستخدام الدين سنداً لحروبهم . لقد فرقتم بين الأمة والأمة ، وقسمتم كثيراً من الأمم والمدن على ذواتها ؛ لقد حطمتم الضوابط الأدبية الدولية على القوى القومية ، وخلفتم فوضى من القوميات المقتتلة . لقد أنكرتم سلطان كنيسة أسسها ابن الله باعترافكم ، ولكنكم أقررتم الملكية المطلقة ، ومجدتم حق الملوك الإلهى . ودمرتم وأنتم لا تدرون

قوة « الكلمة » ، وهى البديل الوحيد لقوة المال أو السيف . وادعيتم حق الحكم الشخصى ، ولكنكم أنكرتموه على غيركم حالما أمكنكم هذا ، وكان رفضكم التسامح مع المنشقين أقل وضوحاً للأفهام من رفضنا ، لأننا لم ندافع قط عن التسامح ، فليس فى وسع إنسان أن يتسامح إلا فى الأشياء التى لا يبالى بها : ثم انظروا ما أفضى إليه حكمكم الشخصى هذا . فكل رجل يصبح بابا ، ويحكم على تعاليم الدين قبل أن يبلغ من العمر ما يتيح له فهم وظائف الدين فى المجتمع والأخلاق ، وحاجة الناس إلى إيمان دينى . وإن ضرباً من جنون التمزيق والتفريق لا تكبحه أى سلطة مجمعة موحدة يلقى باتباعكم فى منازعات بلغ من سخفها وعنفها أن الناس راحوا يتشككون فى الدين كله ، وكادت المسيحية ذاتها تصبح فى خطر الانحلال ، وكاد الناس يتركون فى عرى روحى أمام الموت ، لولا وقوف الكنيسة صامدة وسط كل تقلبات الرأى والجدل ، وكل مستحدثات العلم والفلسفة ، ولولا أنها تحفظ قطيعها الذى التأم شمله ، منتظرة ذلك الوقت الذى يخضع فيه المتفهمون منكم ، والمسيحيون الحقيقيون ، كبرياء الفردية والعقل لحاجات البشر الدينية ، ويعودون إلى الحظيرة الوحيدة القادرة على صون الدين برغم الايديولوحيات المجدفة التى راجت فى هذا العصر الشقى » .

ترى أيستطيع البروتستنت الرد على هذا الاتهام ؟ « يجب ألا ننسى السبب فى انشقاقنا : فلقد فسدت كنيستكم الكاثوليكية سواء فى ممارساتها أو فى أشخاصها ، وكف قساوستكم عن أداء وظائفهم ، وكان أساقفتكم متعلقين بنعيم الدنيا ، وبابواتكم معرة العالم المسيحى ؛ ألا يعترف مؤرخوكم بهذا ؟ لقد طالبكم رجال أمناء بأن تصلحوا ما فسد ، محتفظين بولائهم للكنيسة ؛ فوعدتم وتظاهرتم بالإصلاح ، ولكنكم لم تفعلوا ، بل إنكم على العكس من ذلك أحرقتم بالنار رجالا من أمثال هس وجيروم البراغى لأنهم رفعوا عقائرهم مطالبين بالإصلاح . لقد بذلت مئات الجهو د

لإصلاح الكنيسة من الداخل ، ولكنها أخفقت ، إلى أن أكرهتكم حركة إصلاحنا البروتستنتى على العمل ؛ وحتى بعد ثورتنا أصبح البابا الذى حاول تطهير الكنيسة مثار هزء روما وسخريتها .

« إنكم تتباهون بأنكم خلقتم النهضة ، ولكن الكل مجمعون على أن النهضة كانت تنبعث وسط فساد خلقى ، وعنف ، وخيانة ، لم تعرفها أوربا منذ عهد نيرون ؛ أفلم نكن محقين فى الاحتجاج على هذه الوثنية ، التى تختال عجباً حتى فى الفاتيكان ؟ وإذا سلمنا أن الأخلاق انحدرت حيناً بعد أن بدأت حركة إصلاحنا ، فان إعادة بناء حياة خلقية بليت أسسها وخدماتها الدينية استغرق بعض الوقت ، وأخيراً أصبحت أخلاقيات البلاد البروتستنتية أسمى بكثير من أخلاقيات فرنسا وإيطاليا الكاثوليكيتين . قد ندين بيقظتنا الذهنية للنهضة ، ولكننا ندين بشفائنا الخلقى لحركة الإصلاح البروتستنتى ، فقد أضافت دعم الخلق إلى تحرير العقل ، ثم إن نهضتكم اقتصرت على الارستقراطية والمفكرين ، لقد احتقرت الشعب ، وأغمضت عن خداع باعة صكوك الغفران لأفراده ، وعن غش مستغلى الخرافات من المتظاهرين بالنسك . أو لم يكن خيراً تحدى هذا الاستغلال المالى الصارخ لآمال البشر ومخاوفهم ؟ لقد رفضنا الصور والتماثيل التى يثتموها فى كنائسكم ، لأنكم كنتم تسمحون للناس أن يعبدوا الصور ذاتها ، كما كان يحدث حين فرضتم عليهم الركوع أمام الدمى المقدسة المحمولة فى مواكب تخترق الشوارع . أما نحن فقد جرؤنا على إرساء ديانتنا فوق إيمان قوى نشيط ، بدلا من محاولة تخدير عقول الناس بالطقوس ؟

« وقد اعترفنا بأن السلطة الزمنية من عند الله — كما اعترف لاهوتيوكم من قبلنا — لأن النظام الاجتماعى يتطلب حكومة محترمة . ولم نرفض سلطة البابوات الدولية إلا بعد أن استعملوها استعمالا فاضحاً ، لا للحكم بالعدل بين الأمم بل لخدمة مآربهم المادية . وعجزُ بابواتكم الأنانيين عن توحيد

أوربا فى حملة صليبية ضد العثمانيين يدل على أن خيانة البابوية حطمت وحدة العالم المسيحى قبل حركة الإصلاح البروتستنتى بزمن طويل . ومع أننا أيدنا حق الملوك الإلهى ، فاننا أيضاً شجعنا نمو الديمقراطية فى أنجلترا واسكتلندة وسويسرة وأمريكا ، فى حين كان قساوستكم فى فرنسا وإيطاليا وأسبانيا يخضعون للملوك ؛ وقد حطم تمردنا على سلطة كنيستكم تعويذة الحكم المطلق ، وهيأ أوربا لمساءلة كل ألوان الاستبداد دينية كانت أو علمانية . إنكم تعتقدون أننا جعلنا الفقراء أفقر مما كانوا . ولكن هذه أيضاً كانت مرحلة عابرة ، فالرأسمالية ذاتها التى استغلت فقر الفقراء حيناً تعلمت أن تغنى الرجل المتوسط كما لم يغن من قبل ؛ وما من ريب فى أن مستوى المعيشة فى إنجلترا وألمانيا وأمريكا البروتستنتية أعلى منه فى إيطاليا وأسبانيا وفرنسا الكاثوليكية .

« وإذا كنتم اليوم أقوى مما كنتم بالأمس ، فانما الفضل فى هذه القوة لنا . فماذا كان يحدث لو لم تكرهكم حركة الإصلاح البروتستنتى على إصلاح الإدارة البابوية ، وإنقاذ إكليروسكم من التسرى ، وتنصيب رجال مؤمنين على كرسى البابوية بدلا من الوثنيين ؟ ولمن تدينون بالفضل فيما يتمتع به إكليروسكم اليوم من سمعة النزاهة ؟ ألمجمع ترنت ؟ ولكن لمن تدينون بالفضل فى مجتمع ترنت إن لم يكن لحركة الإصلاح البروتستنتى ؟ فلولا ذلك الضابط لواصلت كنيستكم انحدارها من المسيحية إلى الوثنية حتى ينتهى الأمر بتتويج بابواتكم على عالم لاأدرى أبيقورى . وحتى مع هذا التجديد الذى فرضناه على كنيستكم ، فان الشعوب التى تقبل عقيدتكم أشد إهمالا للدين ، وتشككاً فى المسيحية ، من الشعوب التى اعتنقت الإصلاح البروتستنتى ؛ ويكفى أن تقارنوا بين فرنسا وانجلترا :

« ولقد تعلمنا أن نوفق بين تديننا وبين حرية العقل ، وأقطارنا البروتستنتية هى التى شهدت أعظم ازدهار للعلم والفلسفة . ونحن نأمل

أن نلائم بين مسيحيتنا وبين تقدم المعرفة — ولكن أنى يتيسر هذا لكنيسة ترفض كل علم القرون الأربعة الماضية ؟ » .

وهنا يتدخل الإنسانى فى المناقشة ، فيهدم البيتين جميعاً على رأسه . هذا فخر البروتستنتية وضعفها ، فهى تستهوى العقل ، الذى لا يفتأ يتغير ، أما قوة الكاثوليكية ففى رفضها أن تكيف نفسها وفق نظريات العلم ، التى ثبت من الخبرة التاريخية أنها قلما تعيش بعد القرن الذى ولدت فيه . إن الكاثوليكية تستهدف إشباع مطالب الناس الروحية ، الناس الذين قلما سمعوا بكوبرنيق وداروين ، ولم يسمعوا قط بسبينوزا وكانط ؛ وهؤلاء الناس كثيرون خصيبون ، ولكن أنى لدين يتحدث إلى العقل ، ويتمركز حول العظة ، أن يكيف نفسه وفق كون آخذ فى الاتساع ، كون أصبح فيه الكوكب الذى ادعى أنه تلقى ابن الله نقطة عابرة فى الفضاء ، وليس النوع الذى مات من أجله سوى لحظة فى مشهد الحياة الدائم التغيير ؟ وما الذى يحدث للبروتستنتية إذا أخضع الكتاب الذى اتخذته أساسها الوحيد والمعصوم للنقد « الأعلى » الذى يحيله من كلمة الله إلى أدب العبرانيين وإلى تحول المسيح فى لاهوت بولس الصوفى ؟ .

« ليست المشكلة الحقيقية التى تواجه العقل الحديث ذلك الخلاف بين الكاثوليكية والبروتستنتية ، ولا بين الإصلاح البروتستنتى والنهضة ؛ إنها بين المسيحية والتنوير — هذه الحقبة التى ليس من اليسير تحديد تاريخها ، والتى بدأت بفرانسس بيكن ، وعقدت آمالها على العقل والعلم والفلسفة ؛ وكما كان الفن ركيزة النهضة ، والدين روح الإصلاح البروتستنتى ، فكذلك أصبح العلم والفلسفة إلهى التنوير . ومن وجهة النظر هذه كانت النهضة تسير فى الخط المباشر للتطور العقلى الأوربى ، وأفضت إلى الاستنارة ، أما حركة الإصلاح البروتستنتى فكانت انحرافاً عن ذلك الخط ، ورفضاً للعقل ، وتأكيداً جديداً للإيمان الوسيط .

« ومع ذلك فان حركة الإصلاح البروتستنتى برغم تعصبها فى أول عهدها أسدت صنيعين لحركة التنوير ، فقد حطمت سلطان العقيدة ، وبعثت عشرات الملل والنحل التى لو وجدت قبلها لماتت حرقاً ، وسمحت بأن يقوم فيما بينها جدل كان من القوة بحيث اعترف فى النهاية بأن العقل هو المحكمة التى يتعين على جميع المذاهب أن تترافع أمامها عن قضاياها ما لم تكن مسلحة بقوة مادية لا تقاوم . وفى تلك المرافعة ، فى ذلك الهجوم والدفاع ، تضعضعت كل المذاهب والعقائد ، ولم ينقض قرن على تمجيد لوثر للإيمان حتى أعلن فرانسيس بيكن أن المعرفة قوة . وفى ذلك القرن السابع عشر بعينه قدم المفكرون من أمثال ديكارت وهويز وسبينوزا ولوك الفلسفة بديلا للدين أو أساساً له . وفى القرن الثامن عشر جهر هلفتيوس وهولباك ولامترى بالإلحاد ، ونعت فولتير بالتعصب لأنه آمن بالله . هذا هذا هو التحدى الذى واجهته المسيحية ، فى أزمة أعمق كثيراً من الجدل بين الترجمة الكاثوليكية والبروتستنتية لعقيدة العصر الوسيط . والجهد الذى بذلته المسيحية للبقاء برغم كوبرنيق وداروين هو المسرحية الأساسية للقرون الثلاثة الأخيرة . فليت شعرى أى قيمة لصراعات الدول والطبقات بالقياس إلى تلك المعركة الفاصلة الكبرى ، هرمجدون النفس الإنسانية ؟ » .

الآن إذ نلقى إلى الوراء بنظرة على هذه القصة المتعرجة التى روتها هذه الصفحات الألف ، ندرك أننا نستطيع التعاطف مع جميع الأطراف المقاتلة . نستطيع أن نفهم غضب لوثر على فساد روما وتسلطها ، وكره الأمراء الألمان أن يروا العطايا الألمانية تسمن إيطاليا ، وعزم كالفن ونوكس على بناء جماعات خلقية مثالية ، ورغبة هنرى الثامن فى أن يكون لملكه وريث ، وأن يكون له على مملكته سلطان . ولكنا نستطيع أن نفهم أيضاً آمال إرزمس فى إصلاح لا يسمم العالم المسيحى بالحقد ، ونستطيع أن نشعر بفزع الأتقياء من أساقفة روما مثل كونتاريني مما يحتمل من تمزيق

كنيسة ظلت القرون حاضنة وحارسة للحضارة الغربية ، وما زالت أمنع حصن ضد فساد الخلق والفوضى واليأس .

إن شيئاً من هذه الجهود لم يضع سدى . فالفرد يستسلم للموت ، ولكنه لا يموت إذا خلف للبشرية شيئاً . لقد عاونت البروتستنتية فى الوقت المناسب على تجديد حياة أوربا الخلقية ، وطهرت الكنيسة نفسها فغدت منظمة أضعف سياسياً وأقوى خلقياً مما كانت . وثمة درس واحد ينبعث ويعلو فوق دخان المعركة . وهو أن الدين يكون فى أفضل حالاته إذا اضطر للعيش فى ظروف المنافسة ؛ وهو ينزع إلى التعصب متى وحيثما افتقر إلى التحدى وغدا السيد الأعلى . وأعظم ما جادت به حركة الإصلاح البروتستنتى هو تزويدها أوربا وأمريكا بتلك المنافسة الدينية التى تشحذ همة كل مذهب ، وتنبه إلى التسامح ، وتهب عقولنا المشة لذة الحرية وامتحانها .

تشجع أيها القارئ ! فلقد قاربنا النهاية .

المراجـــع

CHAPTER XXXV

1. Putnam. *Books*, II,40 - I,
2. Luther, *Works*, IV, 128.
3. Janssen, III, 355.
4. Ibid., 356.
5. 363.
6. Luther, IV, 156.
7. Richard, *German Civilization*, 289; Janssen, III, 358.
8. Paulsen, *German Education*, 56-7.
9. Lurher, IV, 128.
10. Janssen, XIII,260, 264.
11. *Camb. Mod. Hy*, II, 468 ; Gasquet, *Eve*, 42.
12. Traill, III, 93.
13. Owen, J., *Skeptics of the French Renaissance*, 438.
14. Graves, F., Peter *Ramus* 15.
15. *Camb. Hy of Poland*, I, 274
16. Elyot, *The Governor*, i, 21.
17. Ibid., *i*, 11.
18. Watson, F., *Luis Vives*, 33.
19. *In* Haydn, *Counter- Renaissance*, 242 .
20. Ibid, 199.
21. Sichel, *Women* 47.
22. Marot, Rondeau 13, in Maulde, 165 .
23. France, A., *Rabelais*, 6,
24. Smith, *Erasmus* , 414; France , *Rabelais*, 38.
25. Faguet, 211.
26. Rabelais , *Gargantua*, ed, Cluny, Introd., xxi.
27. Michelet, III, 300.
28. Rabelais, Introd., xxiii.
29. Owen, *Freneh Renaissance*, 619
30. Rabelais, *Works*, bk*ii*, ch. 8,
31. Tilley, *Studies in the French Renaissance*, 85 f.
32. Nock, *Rabelais*, 105,
33. Brunetière, *Manual of French Literature*, 46n.
34. France, *Rabelais*, 216.
35. Smith, *Reformation*, 195n.
36. France, 124.
37. Sichel, *Women*, 239.
38. Sichel, *Catherine' de Medici*, 245.
39. La Tour, *Origines*, IV, 413.
40. Roeder, *Catherinede Medici*, 510.
41. Holzknecht, *Backrounds of Shakespeare*, 270
42. *Camb. Hy of English Literature*, III. 189.
43. Richard, *German Civilization*, 151.
44. Janssen, XIII, 467.
45. In Bainton, *Reformation*, 129
46. En. Brit., IX, 675.
47. Putnam, *Books*, II, 243.
48. Janssen, XI, 317 f.
49. In Friedell, *Cultural Hy of the Modern Age* I, 232.
50. Janssen, XII, 324 f.
51. En Brit., XXXIII, 1192.
52. In Trend, *Civilization of Spain*, 101.
53. Prescott, *Ferdinand*, II, 568n.
54. Ibid., 569n; *Camb. Mod. Hy*, V, 495.

55. Hefele. *Ximenez*, 101; Hume, *The Samish People*, 348.
56. Allen. *Political Thought*, 119.
57. Diaz del Castillo. *True Hy of Comquest of Mexico*, xi.
58. Mendoza, *Lazarillo de Tormes*, Introd., 3.
60. Mendoza, 71.

CHAPTER XXXVI

1. In Coulton, *Art and the Reformation*, 408.
2. Janssen, XI, 56.
3. Calvin, *Institutes*, I, xi 12.
4. Michelet, III. 295.
5. Dimler, *French Painting in the Sixteenth Century*, 51.
6. Tavannes in Sichel, *Catherine*, 294.
7. Vasari, II. 355.
8. Ibid.
9. Blomfield, *Hy of French Architecture*. I, 81.
10. Lacroix, *Arts of the Middle Ages*, 151.
11. Ward, *Architecture of the Renaissance in France*, II, 125.
12. Sichel, *Catherine*, 394.
13. *Réalités* magazine, March, 1954, p. 27.
14. Conway, *The Van Eycks*, 494.
15. Glück, *Pieter Brueghel le Vieux*, 7.
16. Conway, 492.
17. Glück, *Brueghel: Details from His Pictures*, 10 - 11.
18. Craven, *Treasury of Art Masterpieces*, 112.
19. Smith, Lurher, 176.
20. Bond Fr., *Westminster Abbey*, 131.
21. Bacon, Fr.. *Henry, VII*, i *Works*, VI, 245.
22. Blomfield, *Renaissance Architecture in England* 8; Lees Milne, *Tudor Renaissance*, 31
23. Ibid.
24. 45.
25. Blomfield, 11.
26. Ganz., P., *The Paintings o Hans Holbein*, 218.
27. So Stange, *German Painting* ..., but Ganz 223, assigns i to 1528-30.
28. En. Brit., VIII, 679a.
29. Stange, 22.
30. Janssen, XI, 48.
31. Ibid.
32. Ganz, 284.
33. Woltmann, *Holbein and His Time*, 454.
34. Calvert, *Cordova*. 97.
35. Dieulafoy, *Art in Spain and Portugal*, 230.
36. Calvert, *Sculpture in Spain* 125; bur Stirling - Maxwell, *Annals of the Artists of Spain*, I, 126, questions the story.
37. Dieulafoy, 336.

CHAPTER XXXVII

1. Schaff, *Swiss Reformation*, 182.
2. Janssen, XII, 292.
3. Traill, III, 269.
4. Janssen, XII, 307.
5. Thorndike, *Hy of Magic and Experimental Science*, V, 231.
6. Coulton, *Medieval Village*, 268.
7. Janssen. XII, 372.

8. Bainton. *Hunted Heretic* 112.
9. In Kesten, *Copernicus*, 96.
10. Lacroix, *Science and Literature in the Middle Ages*, 211, Thorndike, V, 175. 255-9.
11. Bainton, *Huntea Heretic*. 112.
12. Smith, *Luther*, 310.
13. Roeder. *Catherine de' Medici*. 368.
14. Lecky, *Rationalism*, II. 3.
15. Lacroix, *Military, and Religious Life*, 444; Smith, *Reformation*, 656.
16. Friedell. I, 283.
17. Lea' *Studies im Church Hy*, 588.
18. Lea, *Inquisition in Spain*, IV. 220.
19. Lecky, *Hy of European Morals*, II, 54.
20. Traill, III, 326; Froude, *Henry VIII*, III, 191.
21. Lea, IV, 212-25.
22. Janssen, XII, 355.
23. Spence, *Cornelius Agrippa*, 84.
24. Ibid.
25. Thromdicke, V, 136-7.
26. Spence, 79.
27. Owen, *Evenings with the Skeptics*, II. 495-6.
28. Kesten, 196; Thorndike, V, 178 f.:
29. Cath. En., IV. 352.
30. Leonardo, Notebooks, I, 310 298.
31. Gassendi in Kesten, 109.
32. Kesten, 132.
33. Ibid. 153.
34. *Commentariolus*, in Rosen, *Three Copernican Treatises*, 58.
35. Trattner, *Architects of Ideas*' 28.
36. Luther. *Table Talk*, 69. in Fosdick, *Great Voices of the Reformation*, xviii.
37. In Russell, B., *Hy of Westerm Philosophy*, 528.
38. Kesten 233.
39. Ibid. 382.
40. 309.
41 295 6.
42. Rosen, 30.
43. Kesten, 297-8.
44. E. g., Kesten. 299; Trattner' 31.
45. *Prefaces and Prologues*, in Harvard Classics XXXIX, 52, f.
46. Copernicus, *De revolutionibus*, *I*. 5.
47. Ibid, I. 10.
48. Josiah Royce in Fletcher, J. B., *Damte*, 236.
49. In White *Warfare of Science with Theology*, I, 212.
50. In Agricola *De re metallica*, 595.
51. Penrose *Travel aud Discovery*, 306.
52. R. I. Mantiri of Indonesia has argued unconvincingly that Magellan was not killed on Mactan, but chose to remain behind and to found a kingdom in the Celebes.
53. Castiglioni *Hy of Medicine*' 421.
54. Sigerist *The Great Doctors*' 125.
55. In Saunders & O'Malley. *The Illustrations from the Works of Andreas Vesalius* 14.
56. Locy, *Biology and Its Makers*, 28.

57. Saunders, 14; italics mine.
58. Ibid., 15.
59. In Haydn, *Counter- Renaissance*, 198,
60. Vesalius, *De humani corporis fabrica v*, 15, in Thorndike. V, 526.
61. Locy, 35.
62. Letter ef Vesalius June 13. 1546. in Thorndike, V, 529.
63. Sarton, III·1, 267.
4. Saunders, 37.
65. Ibid, 39.
66, Walsh *Popes and Science*. 117
67. *Speculum*, April, 1928, P.193,
68. Castiglioni, 466.
69. Janssen XIV, 68.
70. Sigerist, 131.
71. Ibid, 111. The usual interpretation. of *Paracelsus* as meaning "Beyond Celsus" is stultified by the very minor rank of Celsus (ist cy A. D) in the history of medicine.
72. Pachter, *Magic into Science: the Story of Paracelsus*, 92.
73. Ibid., 105 6
74. Cf. Passage in Robinson. D. S, *Anthology of Modern, Philosophy*. 13-14.
75. Pachter, 67, 112 116.
76. Thorndike, V, 628.
77. *Opus Poramirum*, in Pachter, 129.
78. Thorndike, V, 665.
79. In Pachter, 210.
80, Ibid., 211.
81. Ibid,
82. 147.
83. 152-3
84. 163.
85. 158.
85. 155.
87. 168.
88. 187.
98, 167.
90. Inscription on engraving of Paracelsus in Vienna State Library.
91. Pachter 108, 229.
92. Ibid, 4.
93. Commentary on Galatians, iii, 6, in Janssen XIV, 121.
94. Robertson, *Freethought*, I, 399.
95. Ibid, 389.
96. *Table Talk*, 66.
97. La Tour, IV, 417.
98. Sichel, *Women*, 225.
99. In Hallam, *Introd to the Literature of Europe*, II, 140,
100 Montaigne Letter to M. de Mesmes in Sichel, *Montaigne*, 21.
101 In Rocker, R., *Nationalism and Culture*, 134.
102 In Taylor, *Thought and Expression in the 16 th Cy*, I,381.
103. *Speculum*, Oct, 1933 P. 431.
104. Owen J., *Skepties of the French Renaissamce*, 505.
105 Ibid., 539.
106 Graves, *Peter Ramus*, 108. *Italics mine*.
107 Owen, 529.
108. Ibid., 534 5 ; Michelet, III, 474; Graves, 106-7.
109. Ibid., 106.
110 Micheler, III, 474.

CHAPTER XXXVIII

1. Pastor, X, 310; XII, 494; Robertson, *Freethought*, I; 408.
2. Noyes, *Ferrara* 203-19.
3. *Camb. Mod. Hy*, II, 386.
4. Trend, *Civilizaion oj Spain*, 123.
5. Schaff, *Swiss Reformation*, 651.
6. Pastor, XI, 3.
7. Ibid., X, 444.
8. Carpacciolus in Ranke, H y *of the Popes*, I, 131.
9. Janelle, *Catholic Reformation* 64.
10. Pastor, XI, 134.
11. Ibid.., 155 f.
12. Ranke, *Popes*, I, 117.
13. In Pastor, XI, 164 f.
14 Ibid., 192.
15. McCabe, *Crises in the History of the Papacy*, 319.
16. Voltaire, Selected Works, ed. McCabe, IV, 216.
17. Fülöp-Miller, *Saints That Moved the World*, 333.
18. Ibid.'350.
19. 354.
20. James, *Varieties of Religious Experience*, 414.
21. Fülöp-Miller, 375.
22. James, 411.
23. Fülöp Miller, 367.
24. Ibid, 396.
25. 405.
26. 419.
27. 274.
28. Ignatius, St., *Autobiograpby*, 28.
29. Ibid., 40.
30. 54,
31. Cath. En., VII, 640
32. Fülöp-Miller' 302.
33. *Camb. Mod. Hy*, II, 657; McCabe, *Candid Hy of the Jesuits*, 8; Ranke, *Popes*, I, 173n.
34. Longridge, *The Spirirual Exercises of St. Ignatius Loyola*, 119.
35. Sedgkick, *Ignatius Loyolo*, 350; McCabe, *Candid H y* 40 .
36. Sedgwick, 182.
37. Bileoc, 228-234.
38. McCabe, 32.
39. Sedgwick, 221.
40. Ibid., 215.
41. Symonds, *The Catholic Reaction*, I, 215.
42. Report of Father. Gonzalez in Sedgwick. 344.
43. Fülöp-Miller, 319-20
44 Cath En., VII, 643.
45. Sedgwick, 111.
46. Penrose, *Travel and Discovery*, 69.
47. Campbell,Thos., *Jesuits*,77-8
48. Ibid.,78.
49. 84.
50, McCabe.84.
51, Actno, *Lectures*, 115.
52. Robertson, *Charles V*,II,78.
53. Pastor, XIII, 222.
54. Graves, *Hy of Education during the Middle Ages*, 4 2
55. Smith *Reformation*, 666.

CHAPTER XXXIX

1. Pastor,VII, 6.
2. Ibid., 5.

3. Pastor, X. 385.
4. XI, 40.
5. Cellini, *Autobiography*, i, 123.
6. Pastor, XI, 50.
7. *Camb. Mod. Hy*, II, 233.
8. Ranke, *Popes*, I, 125.
9 Froude, *Council of Trent*, 313.
10. Pastor, XI, 356.
11 XII, 61 f.
12. Ibid, 154.
13. Robertson, *Charles V*, II, 401
14. Pastor, XIV, 72
15. Armstrong, *Charles V* II. 361.
16. Pastor, XIV, 126.
17 Ranke, *Popes*, I, 218.
18. Pator, XIV, 345.
19 Ibid., 142-3.
20 Ranke, I, 226.
21. Ibid., 227.
22. Acts, XIX, 19.
23. Putnam, *Censorship of the Church of Rome*, I, 1.
24 Draper, *Hy of Intellectual Development*, II, 214.
25. Pastor, XIV, 277 f.
26. Sarpi, *Isioria del Concilio Tridentino*, II, 91, in Symonds, *Catholic Reaction*. I, 154.
27. Robertson, *Freethought* I, 456-7.
28, Pastor, XII, 503.
29. Ranke, I, 159.
30. Pastor, XII, 508.
31. XIV, 286.
3 ibid., 300.
33. Ibid.
34. 414f.; Ranke, I, 235.
35. Ibid., 245n.
36. Admitted by Janelle. 78.
37. Ibid., 71.
38. *Camb. Mod. Hy*, II, 664,678.
39. Sarton, II-2, 916.
40. Ranke, I, 153; *Camb. Mod. Hy*, II, 667; Froude, *Edward VI*, 9 f.
41. Ranke, I, 155; *Comb. Mod. Hy*. II, 668.
42. Lea, *Sacerdotal Celibacy*. 518
43. Froude, *Council of Trent*, 283
44. Pastor, XIII, 116.
45. *Camb. Mod. Hy*. II, 675; Ranke, I, 252.
46. Ibid., 251.
47. *Camb. Mod. Hy*. II, 680.
48. Session XXV; Cath. En.; VII, 787.
49. For Italy cf. Symonds, *Catholic Reaction*, I, 234, 333; for Spain, Lea, *Auricular Confession*, II, 426.
50. Lacroix, *Prostitution*, II, 1156
51. Figgis, *From Gerson to Grotius*, 43; Robertson, *Charles V*, II, 515-6; Tain, *Italy: Rome and Naples* 240.

تصويب الاخطاء الطباعية

نورد الصواب وحده فيما يلى :

صفحة	سطر	
٨	٤	الريح
١١	٤	توماس
١٥	١٧	فحص
١٦	١٢	كنابليون
١٧	١٦	المنظم
٢٤	٢١	قيل إن
٢٥	٥	الطبيب
٢٦	١٤	وتسامحهم
٢٩	١٥	ويقترح
٤١	٤	يستند
	٨	Pléiade
٤٢	١٦	وجلّل
٥٠	١٣	بجيله
٥١	١٧، ١٨	فى كتاباته
٥٣	١٠	وقد ظل
٥٤	٢	ماراندا
٥٥	٢٠	Diana
٦٠	٨	ألا ن
٦٧	٢٠	كانت
٦٨	١٦	العربية
٧٠	٤	شانتيّى
٧٢	١٤	وقد دمرت
٧٤	١، ٢	مكانه قصراً يليق
	١٤	أروقة تعتمد
٧٥	٦	فيليبير
	٨	وقومها
٨٣، ٨٤	٢٤	رالمياه والسماء
٨٧	٨	غداءهم
٨٨	١	واهتمامه بالحشود
	١٦	وجوههم
٨٩	٨	الكلسى
	٢١	دوق
٩٥	١٥	وُصِفت
٩٩	٦	لإعالة قلة
١٠٠	١٣	زوجته
١٠١	١	فروبن
١٠٣	٣	مكتئباً
	٧	لفروبن
١٠٥	٩	هولبين
	١٩	أظهر
١٠٦	٨	ضحاياه
١٠٨	١٨	المتزاحمة
١١٠	١٧	وميكلانجلو
١١١	٣	لمؤسسه
١٣٨	٢٤	الكوكب
١٤٥	١٣	المكتبة الأم
١٥٠	٢٢	دوبوا

صفحة	سطر	
١٥٤	١١	أورُبيّ
١٦٥	١٣	فروبن
	٢٣	تفوه بعبارات
١٦٦	٤	طبيباً
١٦٧	١٥	باراسيلوس
١٧٣	٢١	Discours sur
١٧٤	٤	بهرقول
١٧٨	٢١	هزليات تهكموا
١٨٥	١٤	والتفكير
١٨٦	٢٠	البروتستنت بياذق
١٨٧	١٧	لوكنّا
١٨٨	٣	» »
	٨	Lactanico
١٨٩	٤	أما جوليا
	١٦	تقريبا
١٩٣	٥	بييترو
	١١	كارافا
	١٤	وريجينالد
١٩٤	٧	Carlta
١٩٥	١٣	وسط
١٩٨	٤	والترخيصات
	١١	الياندر
	١٤	مورونى
	٢٤	جميع
٢٠٢	٢١	التى لاءمت
	٢٤	آية ... مشرفة
٢٠٣	٢٣	حماها
٢٠٤	٢٤	فى عيد

صفحة	سطر	
٢٠٩	٥	وألبه
	١٩	أونيز
٢١١	٦	أكمبيس
٢١٤	٩	الألبى
	١٣	بحياة
٢١٦	٨	وأن
٢١٧	٦	وباسكاز
٢١٨	٢٥	أمراً
٢٢٠	١٢	قط إجناتيوس
	١٦	مقامه فى
	٢٥	المجمع
٢٢٢	٢٣	إرادة
٢٢٣	١٩	بمشاركته
٢٢٤	٢٢	وبشروا
٢٢٧	٩	إنجازاتها
٢٣٣	٢١	على هذا
	٢٤	هنا أيضا
٢٣٤	١٦	بالمبانى
	٢٠	لاعبيها
٢٤٠	٧	الإكليروس
٢٤٦	١٣	خضع
٢٥٢	١٧	تأليفه
٢٥٣	٨	وإذا
٢٥٥	٤	بومبوناتزى
	١١	والتوسّل
	١٢	المناصر
	١٤	للكاثوليكى
	٢٤	تتحطم
٢٥٦	٢	الإيمان

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

بداية عصر العقل

ترجمة
محمد علي أبو درة

مراجعة
علي أدهم

الجزء الأول من المجلد السابع

(٢٨)



تونس



بيروت

فهرس

الجزء الأول من المجلد السابع

من قصة الحضارة

الكتاب الاول

ابتهاج غامر فى انجلترا

١٥٥٨ — ١٦٤٨

الفصل الاول

الملكة العظيمة

١٥٥٨ — ١٦٠٣

الفصل الثانى

انجلترا المرحة

١٥٥٨ — ١٦٢٥

الفصل الثالث

على سفوح بارناسوس

١٥٥٨ — ١٦٠٣

الفصل الرابع

وليم شكسبير

١٥٦٤ — ١٦١٦

الفصل الخامس

مارى ملكة اسكتلنده

١٥٤٢ — ١٥٨٧

الفصل السادس

جيمس السادس والأول

١٥٦٧ — ١٦٢٥

الفصل السابع

الدعوة إلى العقل

١٥٥٨ — ١٦٤٩

الفصل الثامن

الثورة الكبرى

١٦٢٥ – ١٦٤٩

الكتاب الأول

ابتهاج غامر فى إنجلترا

١٥٥٨ — ١٦٤٨

الفصل الأول

الملكة العظيمة

١٥٥٨ — ١٦٠٣

---

١ — مزايا المحنة

فى السابع عشر من نوفمبر ١٥٥٨ ، ركض أحد الرسل إلى فناء القصر الملكى فى هاتفيلد — على مسافة ٣٦ ميلا إلى الشمال من لندن — وأعلن إلى اليزابث تيودور أنها أصبحت ملكة على إنجلترا . ان أختها غير الشقيقة ، الملكة مارى ذات السمعة التى يرثى لها ، قد وافاها الأجل المحتوم فى غسق الصبح فى ذاك اليوم . وفى لندن عند ما تلقى البرلمان هذا النبأ هتف : « حفظ الله الملكة اليزابث ! فايطل أمد حكمها علينا ! » — ولم يكن يدور بخلده أو يحلم بأن حكمها سوف يمتد إلى خمسة وأربعين عاما. وعلى الرغم من أن الكنائس كانت توجس خيفة فإن صليل نواقيسها هز أجواز الفضاء . ومد الناس فى إنجلترا موائد الأفراح فى الشوارع ، كما فعلوا من أجل مارى من قبل ، وصبغوا السماء فى ذاك المساء بأضواء المشاعل التى تشف عن الأمل الخالد .

وفى يوم السبت التاسع عشر من نوفمبر ، احتشد كبار اللوردات والسيدات وأعضاء مجلس العموم من جميع أنحاء المملكة فى قصر هاتفيلد ، ليقسموا يمين الولاء للملكة ، ويلتمسوا فى هذه المناسبة غنما ، وفى اليوم العشرين خطبت فيهم اليزابث فى أسلوب ملكى حقا ، قائلة :

أيها اللوردات : أن قوانين الطبيعة لتثير فى نفسى لواعج الأسى والحزن على أختى ، وإن العبء الذى ألقى على كاهلى ليذهلنى . ولكنى بوصفى من عباد الله ، يتعين

علىّ الامتثال لاختياره إياى لهذا المنصب . انى فوق ذلك سوف أخضع لمشيئته ، تحدونى الرغبة من أعماق قلبى ، فى أن يهبنى العون ، بفضله وكرمه : على تنفيذ إرادته سبحانه وتعالى فى المهمة التى وكلت اليوم إلى ، وما أنا ، من الناحية المادية إلا بشر ، ولكنى بإذنه تعالى بشر سياسى عليه أن يحكم . فهل لى أيها اللوردات ، وخاصة النبلاء منكم ، كل على قدر مرتبته وسلطته — هل لى أن أطمع فى أن تكونوا عونا لى ، حتى أستطيع أنا بحكمى وأنتم بخدماتكم ، أن نقدم لله سبحانه وتعالى عملا مقبولا ، ونترك لأعقابنا على الأرض شيئا من الرفاهية والراحة(١) . »

وفى اليوم الثامن والعشرين من نوفمبر ، اخترقت اليزابث ، مرتدية ثوبا من القطيفة القرمزية ، شوارع لندن فى موكب عام ، إلى نفس « برج لندن » التى كانت سجينة فيه منذ أربعة أعوام ؛ تنتظر الموت . وفى طريقها ، أخذ الأهالى اليوم يهللون ويهتفون لها والمنشدون يتغنون بمجدها وعظمتها ، والأطفال يتلون عليها ، وهم يرتعدون ، ما حفظوه من عبارات الولاء والإجلال ، ورحبت طلقات المدافع والبنادق التى لم يسمع لها نظير من قبل ، بحكم قدر له أن يكون أزهى وأحفل بالرجال والعقول من أى حكم سبقه فى إنجلترا .

وكانت خمس وعشرون سنة من المحاكمات قد هيأت اليزابث لتسيطر وتتفوق . وفى ١٥٣٣ بدا أن من حسن طالعها أن يكون هنرى الثامن أبا لها ، ولكن كان خطرا عليها أن تكون أمها آن بولين . إن العار الذى لحق بأمها ثم إعدامها ، وقعا فى وقت لم تكن الطفلة فيه تعى أو تذكر شيئا (١٥٣٦) ، ولكن مرارة هذا التراث الكريه لازمتها وما انجابت عنها طيلة شبابها ، ولم تبرأ منها إلا بفضل بلسم الملك : ونص قرار أصدره البرلمان فى ١٥٣٦ على أن زواج آن باطل ، ومن ثم صارت اليزابث ابنة غير شرعية ، ولاكت الألسنة موضوع أبوة البنت ، واختلفت الأقوال فيه بشكل قاس ، وكانت فى نظر معظم الإنجليز ، على أية حال ، ابنة زنى . ولم تعد الشرعية إليها قط بحكم القانون ، ولكن قرارا آخر من البرلمان (١٥٤٤) ثبت حقها فى تولى العرش ، بعد ادوارد أخيها من أبيها ، ومارى أختها لأبيها . وفى أثناء حكم ادوارد (١٥٤٧ — ١٥٥٣) تمسكت اليزابث بالبروتستانتية ولكن عندما أعتلت

ماری الكاثوليكية العرش ، آثرت اليزابث الحياة على التمسك بمذهبها ، فتحولت إلى الطقوس الرومانية الكاثوليكية . ولما اخفقت ثورة ويات Wyatt (١٥٥٤) فى خلع مارى ، اتهمت اليزابث بالاشتراك فى المؤامرة ، وأرسلت إلى برج لندن (السجن). ولكن مارى قررت بأن التهمة غير ثابتة على اليزابث ، وأفرجت عنها لتعيش فى وودستوك Woodstock تحت المراقبة . وأقرت مارى قبل وفاتها أن تخلفها أختها على العرش ، وأرسلت إليها مجوهرات التاج . وإنا لنعزو حكم اليزابث إلى شفقة مارى « السفاحة » .

وكان التعليم الأكثر منهجية لا ليزابث واسعا ، وكان معلمها الخاص المشهور — روجر أسكام — يتيه فخرا « بأنها تتحدث بالفرنسية والإيطالية بمثل ما تتحدث بالإنجليزية ، وأنها كثيرا ما تحدثت معى فى يسر وطلاقة باللاتينية ، وإلى حد ما باليونانية[٢] » ، وكانت تتلقى فى كل يوم لمحة من اللاهوت ، وتضلعت فى العقيدة البروتستانتية ، ولكن يبدو أن معلميها الإيطاليين نقلوا إليها شيئا من مذهب الشك الذى رضعوه وتأثروا به من بومبوناتزى ومكيافللى ورومه فى عصر النهضة .

ولم تكن اليزابث مطمئنة على تاجها وعرشها قط . وأكد البرلمان من جديد فى ١٥٥٣ عدم شرعية زواج أمها من أبيها ، واتفقت الحكومة والكنيسة على أنها ابنة زنى ، واستبعد القانون الإنجليزى — متجاهلا وليم الفاتح — كل أولاد الزنى ، من ولاية العرش ؛ واعتقد العالم الكاثوليكى — وكانت إنجلترا لا تزال كاثوليكية إلى حد كبير — أن الوريثة الشرعية للتاج الإنجليزى هى مارى استيوارت ، ابنة حفيدة هنرى السابع ؛ وقد أشير على اليزابث بأنها لو سالمت الكنيسة ، لمحا عنها البابا وصمة بنوة الزنى واعترف بحقها فى الحكم . ولم يكن بها ميل شديد إلى هـذا . فإن آلافا من الإنجليز كانوا قد وضعوا أيديهم على أملاك انتزعها البرلمان من الكنيسة فى عهد هنرى الثامن وادوارد السادس . وكان هؤلاء الملاك ذوو النفوذ يخشون العودة إلى الكاثوليكية ، ومن ثم تفرض الكنيسة استعادة أملاكها . ولذلك كانوا على استعداد للنضال من أجل ملكة بروتستانتية . كما أن الكاثوليك فى إنجلترا آثروا الملكة البروتستانتية على الحرب الأهلية . وفى ١٥ يناير ١٥٥٩ ، وسط هتافات لندن

البروتستانتية ، توجت اليزابث فى كنيسة وستمنستر « ملكة على إنجلترا وفرنسا وإيرلنده ، وحامية للعقيدة » . ذلك أن ملوك إنجلترا منذ عهد ادوارد الثامن طالبوا ، بانتظام ، بحقهم فى عرش فرنسا ، إنهم لم يقصروا فى شىء يثقل كاهل الملكة بالمتاعب .

إن اليزابث الآن فى سن الخامسة والعشرين ، وفيها كل الفتنة التى تقترن بنضج الأنوثة . وكانت متوسطة الطول ، حسنة المظهر ، مليحة القسمات ، ذات بشرة تميل إلى السمرة ، وعينين وضاءتين ، وشعر أسمر يضرب إلى الحمرة ، ويدين جميلتين عرفت كيف تظهرهما للعيان(٣) . ويدا ضربا من المستحيل أن تتمكن مثل هذه الفتاة من أن تواجه بنجاح الفوضى التى تحيط بها ، فقد مزقت المذاهب الدينية المتصارعة أوصال البلاد ، جريا وراء السلطة ، مستخدمة السلاح ، وكان الفقر المدقع داء متوطنا ، وكان التشرد قد بقى على حاله بعد العقوبات الرهيبة التى فرضها عليه هنرى الثامن . وعوقت العملة الزائفة سير التجارة الداخلية ، وانتشرت هذه العملة الزائفة لمدة نصف قرن ، وكان لهـذا أثره فى هبوط رصيد الخزانة ، مما جعل الحكومة تدفع ١٤٪ فائدة على القروض ، واستغرقت العقيدة الدينية كل تفكير مارى تيودور ، إلى حد أنها لم تول شئون الدفاع الوطنى أية عناية ، وقبضت يدها عنه ، فأهملت الحصون وبقيت الشواطىء دون حماية ، ولم تعد البحرية صالحة ، وساءت رواتب الجيش وطعامه ، وشغرت الوظائف فيه . وباتت إنجلترا — التى كانت أيام ولزى تحتفظ بميزان القوى فى أوربا — باتت الآن كسيحا سياسيا مشلولا تتقاذفه كل من أسبانيا وفرنسا . ودخلت الجيوش الفرنسية إلى اسكتلندة ، وكانت إيرلنده توجه الدعوة إلى أسبانيا . وكان الحرمان من الكنيسة — حرمانا مطلقا أو جزئيا — سيفا مصلتا على رأس الملكة يهددها به البابا ، كما كان يهددها بغزو الدول الكاثوليكية لبلادها . وبدا الغزو وشيكا قطعا فى ١٥٥٩ . وكان الخوف من القتل يساورها دوما ، ولم ينقذها إلا دبيب الشقاق بين أعدائها ، وحكمة مستشاريها ، وشجاعة روحها . ولقد صعق السفير الأسبانى « بروح المرأة . . . . . أن بين جنبيها شيطانا يتملكها ، ويقودها حيث يريد(٤) » . ولم تكن أوربا تحسب أنها ستجد روح إمبراطور وراء ابتسامات فتاة .

٢ — حكومة اليزابث

برزت قدرة إليزابث على التميز وحسدة ذهنها ، على الفور ، فى اختيار معاونيها . انها مثل أبيها الذى كان يستعد دوما للمعركة . وعلى الرغم من خطابها السياسى فى هاتفيلد ، اختارت رجالا ليسوا من أصل عريق أو محتد كريم ، ذلك أن معظم قدامى النبلاء كانوا من الكاثوليك ، وحسب بعضهم أنهم أصلح منها لتولى العرش . فعينت وليم سيسل سكرتيرا ومستشارا أولا لها ، وهو الذى أصبحت عبقريته فى انتهاج سياسة حكيمة وفى الملاطفة وتدبر الأمور عاملا بارزا فى نجاحها ، إلى حد خيل معه إلى الذين لا يعرفون الملكة ، أنه هو الملك . وكان جده من صغار الأعيان الميسورين ، ثم أصبح سيدا من سادة الريف ، وكان أبوه موظفا فى خزائن الملابس فى قصر هنرى الثامن وهيأ صداق أمه للأسرة ضيعة مناسبة . وترك وليم جامعة كمبردج دون الحصول على درجة جامعية ، ودرس القانون فى Gray's Inn (أحد أجهزة العدل التى تمنح أجازة الاشتغال بالقانون فى لندن) . وقضى شبابه الداعر يعيث فسادا فى مواخير لندن(٥) . ودخل مجلس العموم فى سن الثالثة والعشرين (١٥٤٣) . وتزوج زوجته الثانية ملدرد كوك Mildred Cooke . وقد ساعدته بيوريتانيتها القاسية على التزامه المذهب البروتستانتى والتمسك به . وخدم الوصى « سومرست » ثم غريمه نورثمبرلند . وأيدليدى جين جراى لتخلف ادوارد السابع ، ثم تحول فى اللحظة الحاسمة إلى مارى تيودور ، وأصبح كاثوليكيا مطيعا بناء على اقتراح منها ، وندبته للترحيب بتقدم الكاردينال بول إلى إنجلترا . وكان رجل عمل ومصلحة ، لا يسمح لتقلباته اللاهوتية أن تخل بتوازنه السياسى . وعند ما عينته اليزابث سكرتيرا لها تحدثت ، بفطنتها المألوفة ، إليه قائلة : —

« لقد عهدت إليك بهذه المهمة . وهى أن تكون من بين أعضاء مجلس شورى الملكة . وترتضى أن تبذل أقصى الجهد من أجلى ومن أجل مملكتى . وانى لآنس فيك أنك لن تفسدك أية منحة أو هدية مهما يكن نوعها ؛ وأنك ستكون مخلصا للدولة ، وأنك ستمحضنى ما ترى أنه خير الرأى والنصيحة ، دون اعتبار لإرادتى الخاصة ،

وأنك إذا رأيت أن ثمة شيئا ضروريا يجب إبلاغي إياه سرا فستفضي به إلى وحدى ، وتأكد أنى لن أعجز عن التزام الصمت فى مثل هذه الحالة ، ومن ثم فانى أعهد إليك بهـذه المهمة(٦) » .

واحتفظت به سكرتيرا لمـدة أربعة عشر عاما ، كانت بمثابة امتحان لأمانته وكفايته ، عينته بعدها وزيرا للخزانة لمدة ست وعشرين سنة أخرى ، حتى وفاته . ولقد رأس مجلس شورى المملكة ، وأدار دفة العلاقات الخارجية ، والشئون المالية العامة والدفاع الوطنى ، وقاد خطى اليزابث فى تدعيم المذهب البروتستانتى فى إنجلترا . انه ، مثل ريشيليو ، اعتبر أن سلامة بلاده واستقرارها يتطلبان الحكم الملكى المطلق الذى يعمل على التوحيد ، فى مواجهة النبلاء المتناحرين والتجار الجشعين ، والعقائد التى يحاول بعضها القضاء على بعض ، وكل أولئك يعمل على التفريق والتمزيق . واتبع بعض أساليب مكيافللى ، وقليلا ما كان قاسيا ، ولكنه أخذ المعارضة بلا رحمـة وبلا هوادة(٧) ، وفكر مرة فى قتل ارل وستمورلند(٨) ، وكان ذلك فى لحظة نفد فيها الصبر ، حانت فى نصف قرن من التشبث الصابر والاستقامة الشخصية . وكان له عيون وجواسيس على كل شىء ولكن اليقظة الباطنية هى ثمن السلطة والقوة . وكان مقتصدا مولعا بالكسب ، ولكن اليزابث غفرت له ثراءه لقاء حكمته ، وأحبت فيه لتقتير الذى أعد الوسائل لقهر الأرمادا ، ولولاه لكان من المحتمل أن تضللها المظاهر البراقة والمغرورون المبذرون مثل ليستر وهاتون واسكس . وقال السفير الأسبانى فى تقرير له : « إن ذكاء سيسل يفوق كل ذكاء سائر أعضاء المجلس مجتمعين ، ومن ثم فهو موضع حسد الجميع وكراهيتهم(٩) » . وأصغت اليزابث أحيانا إلى ما يقوله عنه أعداؤه ، فعاملته من حين لآخر فى خشونة وجفوة إلى حد أنه كان يخرج من حضرتها محطما باكيا ، حتى إذا هدأت سورة غضبها أدركت أنه أثبت دعامة لملكها . وفى ١٥٧١ عينته « لورد برجلى Burghley » ، أى زعيم الارستقراطية الجديدة التى وقفت فى وجه النبلاء المعادين . فدعمت عرشها ورفعت من شأن مملكتها .

ويستحق صغار معاونيها أن نلم بهم فى بضعة سطور فى هذه العجالة التاريخية . لأنهم خدموها بكفاية وشجاعة ، ولم يجزوا الجزاء الأوفى ، حتى أفنوا حياتهم فى

خدمتها . منهم سير نيقولا بيكون — والد فرنسيس بيكون — وكان حامل الخاتم الملكى منذ بداية حكم اليزابث حتى وفاته ١٥٧٩ . وسير فرانسيس نولليس **Knollys** الذى كان عضوا فى مجلس شورى الملكة منذ ١٥٥٨ ، ورئيسا للخاصة الملكية حتى وفاته (١٥٩٦) ، كما كان سير نيقولا ثروكمورتون **Throckmorton** سفيرها البارع فى فرنسا ، وتوماس رندولف سفيرها فى اسكتلنده وروسيا وألمانيا ، وكان فى المرتبة الثانية ، بعد سيسل ، من حيث الاخلاص والدهاء ، وسير فرنسيس ولسنهام الذى تولى منصب الوزارة من ١٥٧٣ حتى وافته المنية (١٥٩٠) ، وكان رجلا دمثا مرهف الحس ، قال عنه سبنسر « إنه ماسيناس(*) العظيم فى عصره » ، روعته المؤامرات المتكررة على حياة الملكة حتى أنه أقام لحمايتها شبكة من الجاسوسية ، امتدت من ادنبره إلى القسطنطينية ، وأوقعت فى شراكها ملكة اسكتلنده المنكوبة الحظ . وقلما حظى حاكم بمعاونين على مثل هذا القدر من الكفاية والقدرة والولاء ، مع هذا القدر من الرواتب الضئيلة التى كانوا يتقاضونها .

وكانت الحكومة الإنجليزية نفسها فقيرة . وزادت الثروات الخاصة على الاعتمادات العامة . وبلغ مجموع الدخل ٥٠٠,٠٠٠(١٠) جنيه فى ١٦٠٠ ، وهو ما يعادل المبلغ التافه ٢٥ مليون دولار . وقلما فرضت اليزابث ضرائب مباشرة ، ولم تحصل من الرسوم الجمركية إلا على ٣٦,٠٠٠ جنيه ، واعتمدت عادة على دخل ممتلكات التاج ، وعلى منح من الكنيسة الإنجليزية ، وعلى قروض من الأغنياء ، كانت من الوجهة العملية إجبارية ، ولكنها كانت تسدد بانتظام(١١). وأقرت الديون التى خلفها أبوها وأخوها وأختها ، وتمتعت بسمعة طيبة فى الوفاء بالدين إلى حد أنها استطاعت أن تحصل على القروض من أنتورب بفائدة قدرها ٥٪ على حين أن فيليب الثانى ملك أسبانيا لم يستطع فى بعض الأحيان أن يقترض قط ، وكانت الملكة مسرفة ، على أية حال ، فى الانفاق على ملابسها وحليها ، وفى المزايا الاقتصادية التى تغدقها على ذوى الحظوة لديها .

(*) **Moeceuas** أحد رجال الدولة الرومان ، فى القرن الأول ق . م . كان صديقا لهوراس وفرجيل ، وكان كريما راعيا للآداب .

وقل أن دعت اليزابث البرلمان ، وعلى مضض منها ، لمساعدتها من الناحية المالية ، لأنها لم تكن تطيق المعارضة أو النقد أو المراقبة ، ولم تؤمن قط بنظريات سيادة الشعب أو البرلمان . وآمنت مع هوميروس وشكسبير بأن رأسا واحدا هو الذى يجب أن يتولى الحكم — ولم لا يكون رأسها هى ، الذى جرى فيه دم هنرى الثامن وتألقت كبرياؤه ؟ وتمسكت بحقوق الملوك والملكات الآلهية . وأودعت بعض الأفراد السجون بمحض إرادتها هى دون محاكمة ، أو سبب واضح ، وكان مجلس الشورى الذى ينعقد على هيئة محكمة عليا لمحاكمة المجرمين السياسيين ، يعطل ، دون استئناف ، حقوقهم فى المعارضة وفى قانونية حبسهم ، أو فى محاكمتهم أمام المحلفين[١٢] . وعاقبت أعضاء البرلمان الذين اعترضوا سبيلها فى تحقيق أهدافها . وأوحت إلى الأقطاب المحليين الذين يديرون شئون الانتخابات النيابية ويؤثرون فيها ، أنه مما ييسر الأمور أن يختاروا مرشحين ليس لديهم نزعات صبيانية فى حرية الكلام ، إنها طمعت فى الحصول على المال دون أن يناقشها أحد الحساب ! واستسلمت برلماناتها الأولى إلى هذا الوضع بلباقة ، وخضعت البرلمانات غاضبة فى أواسط عهدها ، أما بعد ذلك فقد قاربت البرلمانات أن تثور .

وتغلبت إرادتها لأن الأمة آثرت حكمها المطلق الحكيم على عنف الأحزاب التى تتنافس على السلطة ، ولم يفكر أحد فى أن يدع الشعب يحكم ، وكانت السياسة — وهى كذلك دائما — صراعا بين الأقليات ، على أيها يحكم الأغلبية . واستاء نصف إنجلترا من سياسة اليزابث الدينية ، واغتاظت كل إنجلترا تقريبا من عزوبتها ، ولكن الناس فى جملتهم ، وهم يحمدون الضرائب المنخفضة والتجارة المزدهرة ، والنظام فى الداخل ، والسلام الذى طال أمده ، بادلوا الملكة حبا بحب . لقد أقامت لهم المهرجانات ، وقامت بجولات ملكية بينهم ، واستمعت إليهم دون أن يظهر عليها أى امتعاض ، وشاركتهم ألعابهم العامة . وبمائة أسلوب آخر تصيدت قلوب الناس[١٣] » . وكتب السفير الأسبانى ، وهو يذوب حسرة على اعتناقها البروتستانتية ، إلى الملك فيليب يقول : « انها أشد التصاقا بالأهالى ، وهى على ثقة من أنهم جميعا إلى جانبها ، وهذا هو الحق بعينه[١٤] » . وزادت المحاولات

التى بذلت القضاء على حياتها من شعبيتها وسلطانها ، حتى أن البيوريتانيين الذين اضطهدتهم دعوا لها بالسلامة ، وأصبحت الذكرى السنوية لارتقائها العرش عيدا قوميا للشكر وإقامة الاحتفالات .

وهل كانت اليزابث هى الحاكم الفعلى ، أو مجرد واجهة محبوبة للطبقة الدنيا من النبلاء فى إنجلترا ، والأقلية التجارية فى لندن ؟ وكثيرا . ما صحح معاونوها أخطاء سياستها ، على الرغم من خوفهم من انفعالها ، ولكنها بدورها ، كثيرا ما صححت أخطاءهم كذلك . لقد أبلغوها حقائق مرة ، وزودوها بنصائحهم المعارضة لرأيها ، وامتثلوا لقراراتها ، انهم حكموا ولكنها ملكت . وقال السفير الأسبانى : « إنها تصدر الأوامر ، وتفعل ما تريد ، تماما كما كان يفعل أبوها(١٥) » . وقلما أدرك سيسل نفسه ماذا اعتزمت أن تفعل ، واضطرب واغتاظ من رفضها المتكرر لمشورته التى وصل إليها بعد جهد شاق وتمحيص دقيق وعندما حثها على عدم التفاوض مع فرنسا ، والاعتماد فقط على تأييد البروتستانت ، انتهرته فى قسوة وحدة « أيها السكرتير ، أفهم أنى انتهيت من هذا الموضوع . ولسوف استمع إلى مقترحات ملك فرنسا ، ولن أكون بعد اليوم مربوطة إليك وإلى اخوتك فى المسيحية ١٦) » .

ودفعت تصرفاتها فى شئون الدولة الأصدقاء والأعداء إلى البكاء ، على حد سواء . فقد كانت متأنية مترددة إلى حد مثير ، فى البت فى الأمور ، ولكن ترددها عاد بالفائدة فى أحوال كثيرة ، لقد عرفت كيف تتحالف مع الزمن الذى يحل من المشاكل أكثر مما يحل الرجال ، وكم هيأ تسويفها فى البت ، للعوامل المعقدة فى موقف ما ، أن تستقر وتتركز وتتضح . لقــد أعجبت بالفيلسوف الأسطورى الذى ألحوا عليه فى طلب الجواب ، فتلا حروف الهجاء فى صمت قبل الادلاء به . واتخذت شعارا لها : « انى أرى وأنا صامت » . واكتشفت أنه فى السياسة كما فى الحب ، من لم يتردد يضيع نفسه . وإذا تذبذبت سياستها فى غالب الأحيان ، فهــذا هو شأن الحقائق والقوى التى يعمل حسابها . ولما كانت محاطة بالأخطار والدسائس ، فانها تحسست طريقها فى حذر موسوم بالتسامح والصفح ، محاولة آ نا سبيلا آخر ، فهى لا تدعى الثبات فى عالم مائع . وتعثر ترددها فى بعض أخطاء جسيمة ، ولكنها

احتفظت بانجلترا فى سلام حتى بلغت من القوة ما تستطيع معه أن تحارب . ولما كانت قد ورثت أمة تشيع فيها الفوضى من الناحية السياسية ، منهارة من الناحيــة العسكرية ، فقد كانت السياسة الوحيدة التى يمكن انتهاجها هى الحيلولة دون اتحاد أعدائها ضدها ، وتشجيع ثورة الهيجونوت ضد ملك فرنسا ، وثورة الأراضى الوطنية ضد أسبانيا ، وثورة البروتستانت ضد ملكة اسكتلنده الوثيقة الصلة بفرنسا . لقد كانت هذه سياسة مجردة من المبادئ الأخلاقية ، ولكن اليزابث آمنت مع مكيافللى بأن الوساوس لا تلتئم مع الحكام المسئولين عن الدول . ومهما يكن من أمر فان ضعفها الموسوم بالحذق والدهاء يشــير إلى أنها حافظت على بلادها من السيطرة الأجنبية ، وحافظت على السلام لمدة ثلاثين عاما — باستثناء فترات قصيرة ، وتركت إنجلترا أغنى مما كانت عليه فى أى وقت مضى ، ماديا وفكريا .

واستطاعت اليزابث الدبلوماسية ، أن تلقن وزراء الخارجية فى زمانها ، دروسا فى الإعلام النشيط السريع والوسائل اللبقة الماكرة والخطوات الكثيرة التى لا يمكن التنبؤ بها . وكانت أقدر أهل زمانها على الكذب . ومن بين النساء الأربع — مارى تيودور ، مارى ستيوارت ، كاترين دى مديتشى واليزابث — اللائى ضرب‍هن نوكس Knox مثلا على « حكم النساء الرهيب » فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، تفوقت اليزابث عليهن بلا منازع فى الفطنة السياسية والبراعة الدبلوماسية . وذهب سيسل إلى أنها « أعقل امرأة وجدت ، لأنها فهمت ميول كل أمــير فى زمانها وما يولع به وما يستهويه . وكانت على علم تام بمملكتها إلى حد أن أيا من مستشاريها لم يكن لينبئها بشىء لم تكن تعرفه من قبل[١٧] . وهذا بطبيعة الحال يتطلب الرقية من الحسد ببعض حصوات من الملح ، وتمتعت الملكة بميزة التباحث مباشرة مع السفراء بالفرنسية أو الإيطالية أو اللاتينية ، ومن ثم كانت فى غنى عن الاعتماد على المترجمين والوسطاء . ويقول السفير الأسبانى : « ان هذه المرأة يتملكها مائة ألف شيطان ، ولكنها مع ذلك تزعم لى أنها تحب أن تكون راهبة ، تعيش فى صــومعة تتلو تسابيحها وصلواتها من الصباح إلى الليل[١٨] » ، لقد أدانتها كل حكومة فى قارة أوربا ، وفى نفس الوقت أعجبت بها وقال عنها البابا سكستس السادس : « لو لم تكن زنديقة لكانت تساوى عالما بأسره[١٩] » .

٣ — العذراء العاشقة

كانت عذرية اليزابث هي السلاح الخفى فى دبلوماسيتها . وهــذا بطبيعة الحال تفصيل ثانوى عويص يجدر بالمؤرخين ألا يزعموا التيقن منه ، أو لنــكن نزاعين إلى الثقة ، مثل ســير والترراليى حين يطلق الاسم على مستعمرة ويعينها بذاتها . ولقد ساورت سيسل بعض شكوك عابرة عندما لاحظ عبث اليزابث الطويل الأمد مع لستر ومغازلتهما . ولـكن سفيرين أسبانيين لا يتورعان ولا يجدان حرجا فى تشويه سمعة الملكة ، انتهيا إلى أنها شريفة[٢٠] . وذكرت الاشاعات التى انتشرت فى البلاط — كما رواها بن جونسون لدروموند هوثورندن — « أن فيها غشاء يجعلها غير أهل لمعاشرة الرجال ، ولو أنها حاولت مع كثير منهم لمجرد اللهو والمرح . . . . » وأخذ جراح فرنسى على عاتقه أن يستأصلة ، ولـكن الخوف منعها من ذلك[٢١] . وكتب كاندن فى حولياته ١٦١٥ : « صب الناس اللعنات على هويك Huic طبيب الملكة لأنه ثبط همتها فى الزواج بسبب عائق وعاهة فيها[٢٢] » . غير أن البرلمان الذى توسل إليها مرارا لتتزوج ، افترض قدرتها على الحمل ، ولقد منى معظم ملوك آل تيودور بالاخفاق فى هذه الناحية : فيحتمل أن تكون مصائب كاترين أوف أراجون فى الولادة ترجع إلى داء الزهرى الذى أصيب به هنرى الثامن ، ومات ابنه ادوارد فى سن الشباب نتيجة علة كريهة الوصف . وحاولت ابنته مارى محاولة شديدة أن يكون لها طفل ، وكل ما حدث أنها ظنت خطأ أن داء الاستسقاء حمــل ، وعبثت اليزابث ما شاءت ، ولـكنها لم تجرؤ على الزواج ، وقالت : « لقد كنت أنفر منه دائما » . وأعلنت منذ ١٥٥٩ عزمها على أن تبقى عذراء[٢٣] . وفى ١٥٦٦ وعدت البرلمان : « سوف أتزوج حالما أرى الوقت مناسبا . . . . وآمل أن يكون لى أطفال[٢٤] » . ولـكن فى نفس العام ، عندما أنبأها سيسل أن مارى ستيوارت أنجبت طفلا ، كادت اليزابث تذرف الدمع وقالت : « ان ملكة الاسكتلنديين أم لابن جميل ، أما أنا فلست إلا أرضا مجدبة[٢٥] » . وهنا ولفترة وجيزة ، كشفت عن حزنها المقيم — لأنها لم تستطع أن تحقق أنوثتها .

وزادت التورطات السياسية فى عمق المأساة . وأعتقد كثير من رعاياها الكاثوليك أن عقمها ليس إلا عقابا وفاقا على خطايا والدها ، ووعد بأن مارى الكاثوليكية سوف ترث العرش . ولكن البرلمان وسائر إنجلترا البروتستانتية كانوا يوجسون خيفة من هذه التوقعات ، وألحوا عليها فى أن تجد لها زوجا . ولقد حاولت ، ولكنها بدأت بأن شغفت حبا برجل متزوج ، هو لورد روبرت ددلى وهو رجل مديد القامة وسيم كيس مصقول شجاع ، وهو ابن دوق نورثمبرلند الذى كان قد لقى حتفه على حبل المشنقة لمحاولته ابعاد مارى تيودور عن وراثة العرش لتجلس عليه جين جراى . وتزوج ددلى من آمى روبسار Amy Robsart ولكنه لم يكن يقيم معها . وراجت الإشاعات بأنه عابث خليع لاخلاق له . وكان بمعية اليزابث فى وندسور ، عند ما سقطت زوجته من على درج السلم فى Cumnor Hall فدق عنقها وقضت نحبها (١٥٦٠) . وحامت الشبهات عند السفير الأسبانى وآخرين غيره بأن ددلى والملكة دبرا هذه الميتة الشنيعة . وكانت الريب ظالمة[٢٦] . ولكنها قضت ، لبعض الوقت ، على آمال ددلى فى أن يصبح زوجا لاليزابث . ولما ذهب بها الظن إلى أنها ستقضى نحبها (١٥٦٢) توسلت أن يعين ددلى وصيا على المملكة ، واعترفت بأنها أحبته منذ زمن طويل ، ولكنها أشهدت الله : على أنهما لم يرتكبا عملا غير لائق[٢٧] . وبعد عامين قدمته إلى ملكة اسكتلنده ، وخلعت عليه لقب « ارل لستر » ، لتزيد من مفاتنه ، ولكن مارى كرهت أن يشاركها عشيق غريمتها فراشها فواسته اليزابث وهدأت من روعه بما أغدقت عليه من احتكارات ، وكان موضع عطفها ورعايتها حتى مات (١٥٨٨) .

واحتمل سيسل هذه الإشاعة فى اشمئزاز وقور ، وفكر لبعض الوقت فى الاستقالة من منصبه احتجاجا ، فقد اتجه تفكيره الخاص إلى زواج يعمل على تقوية إنجلترا ، بعقد أواصر الصداقة مع دولة قوية . ولمدة ربع قرن من الزمان حوم حول الملكة نفر عديد من الأجانب يطلبون يدها . وكتب أحد السفراء : « هناك اثنى عشر سفيرا ينافس بعضهم بعضا فى طلب يد جلالتها ، ولسوف يأتى بعد ذلك دوق هولشتين ليطلب يدها لملك الدنمرك . وهنا دوق فنلنده الذى جاء رسولا عن أخيه ملك السويد ،

وهو يهدد بتتل مبعوث الإمبراطور ، ولشد ما تخشى الملكة أن يقطع كل منهم رقبة الآخر فى حضرتها(٢٨) . ولا بد أنها أحست بشىء من الرضا حين قدم لها فيليب الثانى ، وهو أعظم عاهل فى العالم المسيحى يده المحنكة (١٥٥٩) ، ولكنها رفضت هذه الحيلة لتحويل إنجلترا إلى ولاية كاثوليكية تابعة لأسبانيا . وتمهلت طويلا فى الرد على اقتراح من شارل التاسع ملك فرنسا ،

كانت آنذاك تسلك سلوكا محمودا . وشكا السفير الفرنسى « من أن الدنيا خلقت فى ستة أيام ، وأن الملكة قضت حتى الآن ثمانين يوما ، ولا تزال مترددة » . فأجابت هى جوابا بارعا ماكرا بأن الدنيا « خلقها من هو أعظم منها(٢٩) » . وبعد عامين أوعزت لوكلاء إنجلترا أن يقترحوا زواجها من شارل أرشيدوق النمسا ، ولكنها بتحريض من ليستر تخلت عن هذه الفكرة . ولما كان الموقف الدولى يقتضى مسايرة فرنسا (١٥٧٠) ، فقد تشجع دوق ألنسون (ابن هنرى الثانى من كترين دى مديتشى) على التفكير فى أن يصبح زوجا فى السادسة والعشرين لملكة فى السابعة والثلاثين ، ولكن المفاوضات توقفت بسبب ثلاث عقبات — مذهبه الكاثوليكى ، وشبابه غير الناضج وندوب فى أنفه . وانقضت خمس سنوات ذللت فيها إحدى هذه العقبات ، واتجه التفكير مرة أخرى إلى ألنسون الذى أصبح الآن دوق أنجو ، ودعى إلى لندن ، ولمدة خمس سنوات أخرى غررت اليزابث به وبفرنسا ، وعقب فترة أخيرة (١٥٨١) تلاشت هذه المغازلة المرحة ، وانسحب دوق أنجو من الميدان ، وهو يلوح برباط لجورب الملكة تذكارا لهذه الواقعة ، وكانت الملكة فى نفس الوقت قد منعته من الزواج من ابنة ملك أسبانيا ، ومن ثم حالت دون تحالف عدوتيها فرنسا وأسبانيا . وقل أن غنمت امرأة مثل هذا الغنم من عقمها ، أو نعمت بمثل هذا اللهو والسرور من عذريتها .

٤ — اليزابث وحاشيتها

وجدت الملكة فى تودد هذه الزمرة من رجال عصرها النشيطين المكتملين رجولة وقوة إليها وملاطفتهم إياها — نقول وجدت ارتياحا ورضا أكثر مما هو فى

مضاجعة شاب مريض بالزهرى مثلا . وان المغازلة لتبقى ما لم يقض عليها الزواج ، ومن ثم تلذذت اليزابث بالزلفى والملق والتودد طوال الوقت واستطابت ذلك كله فى نهم لا يشبع . وجر اللوردات الخراب على أنفسهم فى سبيل الاحتفاء بها وتسليتها ، وعبروا بالمواكب والمهرجانات ومظاهر الأبهة والمسرحيات التنكرية عن عظمة الملكة ومجدها ، وأغرقها الشعراء بقصائدهم واهداءاتهم ، وداعب الموسيقيون أوتار آلاتهم شدوا بمديحها . ولقد تغنت قصيدة غزلية بعينها على أنهما كرتان ملكيتان تأسران الناظر إليهما وتقهرانه ، وصدرها على أنه « أكمة جميلة تكمن فيها الفضيلة والبراعة القدسية[٣٠]» وقال لها رالى إنها تحكى فى مشيتها فينوس ، وفى صيدها ديانا ، وفى ركوبها الخيل الأسكندر ، وفى غنائها ملاكا ، وفى لعبها أورفيوس[٣١] . وكادت اليزابث تصدق هذا . وكانت مزهوة ، وكأن كل مزايا إنجلترا وفضائلها لم تكن إلا الثمار المباركة لأمومتها ، وهذا حق إلى درجة ما . ولما كانت ترتاب فى مفاتن جسمها ، فقد لجأت إلى ارتداء أثمن الثياب التى تغيرها كل يوم تقريبا ، حتى لقد تركت عند موتها ألفى ثوب . وقد تحلت بالجوهرات فى شعرها وذراعيها ومعصميها وأذنيها وأثوابها ، وإذا ما استنكر أحد الأساقفة حبها للمجوهرات ، بعثت إليه بمن ينذره بألا يطرق هذا الموضوع ثانية ، وإلا لقى ربه قبل الأوان[٣٢] .

وقد يكون سلوكها وعاداتها مفزعة . فقد صفعت رجال حاشيتها أو لاطفتهم وداعبتهم ، بل حتى المبعوثين الأجانب . ولقد وخزت رقبة ددلى من الخلف حين انحنى ليتسلم براءة لقب ارل(*) ، وبصقت أنى شاءت — وذات مرة على معطف ثمين . وكانت عادة أليفة يسهل الوصول إليها . ولكنها تحدثت بلسان ذرب ، وربما غدت سليطة لا يمكن الرد عليها ، وأقسمت كما يقسم القرصان (وكانت كذلك بالوكالة) وكان من أخف الأيمان التى تقسم بها « بحق وفاة الرب » . وكان فى مقدورها أن تكون قاسية ، كما هو الحال فى لعبة القط والفأر ، التى لعبتها مع مارى ستيوارت ،

(*) يروى أوبرى قصة سمجة : « ان ادوارد دى فر de Vere ارل أكسفورد ، وهو ينحنى اجلالا للملكة اليزابث خرجت منه ريح فخجل وشعر بالعار . وغادر البلاد لمدة سبع سنين دأبا ، فلما عاد رحبت الملكة بعودته إلى الوطن وقالت سيدى اللورد ، لقد نسيت الريح[٣٣] .

أو فى ترك ليدى كاترين جراى تذبل وتهن حتى الموت فى « برج لندن » . ولكنها كانت أساسا عطوفة رحيمة ، وخلطت بين رقتها وضرباتها . وكثيرا ما ثارت وفقدت صوابها ، ولكن سرعان ما استعادت ضبط النفس والسيطرة على الأعصاب . وكانت تنفجر ضاحكة إذا تسلت ، وكثيرا ما حدث ذلك . وأولعت بالرقص فرقصت على قدم واحدة حتى بلغت التاسعة والستين وكانت تثب وتغامر وتصطاد . كما أحبت المسرحيات والحفلات التنكرية ، واحتفظت بروح معنوية عالية حتى حين هبطت مواردها .

وكانت غاية فى الشجاعة والذكاء عند مواجهة الخطر . وكانت معتدلة فى طعامها وشرابها ، شرهة فى المال والمجوهرات ، وكانت تجد لذة كبيرة فى مصادرة ممتلكات العصاة الأثرياء ، ودبرت أن تحصل على مجوهرات التاج فى اسكتلنده وبرجندى والبرتغال وتقتنيها ، بالإضافة إلى ذخيرة من الجواهر والأحجار الكريمة أهداها إليها اللوردات المرتقبون نفعا أو المرشحون للمناصب ، ولم تشتهر بعرفان الجميل ولا بالسخاء ، وحاولت فى بعض الأحيان أن تدفع أجور العاملين لديها كلمات حلوة بدلا من النقود ، وقد كان ثمة شىء من حب الوطن فى تقتيرها وكبريائها على السواء . وعند ما تولت العرش ، لم تكد توجد أمة بلغت من الفقر حدا تنظر معه إلى إنجلترا بعين الاجلال والتقدير ، أما عند مماتها فقد كانت لإنجلترا السيادة على البحار . كما كانت تتحدى سيطرة إيطاليا وفرنسا فى مجال الفكر والعقل .

وأى نوع من العقل كان لهذه المرأة ؟ لقد حصلت من التعلم على القدر الذى يمكن أن تحصل عليه ملكة دون عناء ، وقد استمرت أثناء حكمها فى دراسة اللغات . وتبادلت الرسائل بالفرنسية مع مارى ستيوارت ، وتحدثت بالإيطالية مع أحد سفراء البندقية ، ووبخت مبعوثا بولنديا بلغة لاتينية قوية . وترجمت سالوست **Sallust** وبوثيوس Boethius ، وألمت بقدر من اليونانية يكفى لقراءة سوفوكليس ولترجمة إحدى مسرحيات يوريبيدس . وزعمت أنها قرأت من الكتب عدد ما قرأ أى أمير فى العالم المسيحى ، والأرجح أن يكون الأمر كذلك . ودرست التاريخ كل يوم تقريبا ، ونظمت الشعر وألفت الموسيقى ، وعزفت ، مع شىء من التسامح ، على العود والعذراوية (آلة موسيقية تشبه البيان الصغير بدون قوائم) ، ولكن كان

عندها من الادراك ما تسخر به من منجزاتها ، وتميز به بين التعليم والذكاء . وإذا ما أطرى سفير معرفتها باللغات ردت عليه قائلة : « ليس غريبا أن تعلم امرأة أن تتكلم ، بل الأصعب منه كثيرا أن تعلمها كيف تكف عن الكلام[٣٤] . » وكان ذهنها حادا قدر حدة كلامها وكان ذكاؤها يجارى الزمن ولا يتخلف عنه . وقال فرنسيس بيكون : « إنه كان من عادتها أن تقول عن توجيهاتها لكبار موظفيها إنها مثل الثياب ، تكون محكمة محبوكة لأول مرة يلبسها الإنسان ، ولكنها تصبح يوما بعد يوم فضفاضة[٣٥] » وكانت رسائلها وخطبها بلغة إنجليزية من إنشائها وحدها : معقـدة ملتوية متكلفة ، ولكنها زاخرة بالصيغ الغريبة ، ساحرة فى فصاحتها وأسلوبها .

وتحلت اليزابث بالذكاء أكثر منها بسداد الرأى . قال عنها ولسنهام : « انها غير صالحة لمعالجة أى موضوع له وزنه[٣٦] » . ولكنه ربما تحدث فى مرارة التفانى الذى لم يلق جزاءه . لقد كمنت براعتها فى الرقة الأنثوية ودقة الادراك الحسى ، لا فى المنطق المرهق . وفى بعض الأحيان كشفت نتيجة هذا كله عن حكمة أكبر فى تصرفاتها الماكرة منها فى تعليلها لها ، انها روحها التى يتعذر تحديدها أو تعريفها هى التى يعتد بها ، وهى التى حيرت أوربا وسحرت إنجلترا ، وأمدت بلادها بالقوة والقـدرة على الازدهار والنمو . وأعادت اليزابث بناء الاصلاح الدينى من جديد ، ولكنها مثلت عصر النهضة — التلهف على أن يحيا الإنسان هذه الحياة الدنيا إلى أبعد مدى ، ينعم بها ويزينها كل يوم . ولم تكن نموذجا للفضيلة ، ولكن كانت مثالا للحيوية والنشاط . ان سيرجون هايوارد الذى كانت قد زجت به فى السجن لتزويده اسكس الأصغر ببعض الأفكار الثورية ، غفر لها ذلك فكتب عنها : بعد تسع سنوات من مكافأتها إياه (بالادراج عنه) — كتب يقول : —

إذا كان ثمة إنسان أوتى من الموهبة أو الأسلوب ما يستطيع أن يكسب به قلوب الناس ، فهو هذه الملكة . وإذا أظهرت شيئا مثل هذا يوما ، فقد ظهر فى أنها تجمع بين اللطف والجلال كما كانت تفعل . وفى تواضعها الموسوم بالفخامة حتى مع أقل الناس شأنا . وكانت كل قدراتها فى حركة دائبة ، وبدت وكأن كل حركة بمثابة

عمل موجه أحسن توجيه . فقد تكون عيناها عالقتين بشخص ما ، على حين أرهفت أذنيها لآخر وأصدرت أمرا لشخص ثالث ، ووجهت حديثها لرابع ، وكأنما روحها تحوم فى كل مكان ، ومع ذلك تبدو منطوية على نفسها وكأنها غير موجودة فى أى مكان آخر . وكانت ترثى لبعض الناس ، وتطرى آخرين ، وتقدم الشكر لغيرهم ، وتداعب فريقا آخر فى سرور وسخرية ، دون أن تزدرى أحداً ، أو تغفل واجبا ، وكانت توزع ابتساماتها ونظراتها ولفتاتها بقدر من الدهاء والفطنة يضاعف معه الناس من مظاهر اغتباطهم وابتهاجهم(٢٧) .

وتطبعت حاشيتها بطباعها — يحبون ما تحب ، ويقوون من ميلها إلى الموسيقى والروايات والعبارات المشرقة ، ويرقون به إلى نشوة القصيد والغزليات والتمثيليات وحفلات الرقص ، والنثر الذى لم تشهد إنجلترا مثيلا له فيما بعد . وفى قصورها — هويتهول ، وند سور ، جرينتش ، رتشموند ، هامبتون كورت ، تنقل الوردات والسيدات والفرسان والسفراء والمغنون والخدم والحشم بين ألوان عدة من المراسم الملكية والمرح الأنيق . وكان ثمـة دائرة خاصة تعـد ألوان التسلية إبتداء بالاحاجى والنرد إلى حلبات الرقص الصاخبة وروايات شـكسبير ، وأقيمت الاحتفالات بانتظام فى عيد الصعود وعيد الميلاد وعيد رأس السنة والليلة الثانية عشرة ، وكاندلماس (عيد العذراء) ، وشروفتيد (عيد قبل الصوم الكبير) ، وزخرت بألوان الملاهى والتسلية ، والمباريات الرياضية ، والمقارعة بالسيوف ، والتمثيل التنكرى والمسرحيات وحفلات الرقص . وكانت الحفلات التنكرية شيئاً من الأشياء الكثيرة التى استوردت من إيطاليا إلى إنجلترا فى عهـد اليزابث ، وكانت خليطا براقا من المهرجانات والشـعر ، والموسيقى والقصص الرمزى والتهريج والباليه ، ضمها بعضها إلى بعض الروائيون والفنانون ، وكانت تقدم فى البلاط أوفى ضباع الأثرياء ، بأجهزة ووسائل وحركات معقدة ، تؤديها سيدات ورجال متنكرون يرتدون أغلى الثياب فى تصميم بسيط ، وكانت اليزابث مولعة بالتمثيليات ، وبخاصة الهزلية منها . ومن يدرى كم من روايات شكسبير كان يصل إلى المسرح أو إلى الأعقاب والأجيال القادمة ، لو لم تقف الملكة وليستر إلى جانب

المسرح وتدعمانه ضد كل الهجمات التى شنها عليه البيوريتانز .

ولم تقنع اليزابث بقصورها الخمسة ، فانطلقت كل صيف تقريبا فى جولات تجوب البلاد ، لترى الناس ويروها وتراقب اللوردات التابعين وتستمتع بما يبذلون لها من اجلال وتكريم كارهين . وكان يتبعها بعض رجال البلاط ، فرحين بالتغيير ، متذمرين لعدم توفر وسائل الراحة والبيرة . وارتدى أهالى المدن ثيابا من القطيفة والحرير ليرحبوا بها بالخطب والهدايا ، وكم أفلس النبلاء فى سبيل الاحتفاء بها ، وابتهل اللوردات المعسرون إلى الله ألا تعرج عليهم . وامتطت الملكة فى جولاتها صهوة جواد أو تنقلت فى محفة مكشوفة ، تحيى فى فرح وسرور الجموع التى احتشدت على الطريق . وابتهج الناس لرؤية مليكتهم التى لا تقهر ، وافتتنوا بتحياتها الكريمة وسعادتها التى انتقلت إليهم فغمرتهم ودفعتهم إلى تجديد الولاء لها .

وانتهجت الحاشية نهجها فى مرحها وحريتها فى السلوك ، وترفها فى الثياب . وولعها بالمراسم ، ومثلها الأعلى فى الكياسة ، فقد أحبت أن تسمع خشخشة المجوهرات ونافس الرجال المحيطون بها النساء فى تشكيل ما يحصلون عليه من منتجات الشرق على طرز إيطالية . وكان السرور واللهو يشكلان البرنامج المعتاد ولكن على المرء أن يكون على أهبة الاستعداد فى أية لحظة لأية مغامرات عسكرية فيما وراء البحار . وينبغى على من يقدم على اغواء الفتيات أن يكون على أشد الحذر ، لأن اليزابث كانت تحس بأنها مسئولة أمام آباء وصيفات الشرف اللائى يعملن لديها عن شرفهن . ومن ثم أبعدت ارل بمبروك عن البلاط لأن مارى فتون حملت منه سفاحا(٢٨) . وفى بلاطها — مثل أى بلاط آخر ، حيكت الدسائس مثل نسيج العنكبوت ، وتنافس النساء على الرجال ، وتنافس الرجال على النساء ، دون وازع من ضمير أو خلق ، وكل ذلك ارضاء للملكة وكسبا لعطفها ، وللمنح التى تغدقها نتيجة لذلك . ان هؤلاء السادة الذين رفعوا ، شعرا ، من شأن نقاوة الحب والأخلاق ، تلهفوا نثرا على المناصب الكبيرة التى تدر ربحا بلا عمل ، وقدموا الرشاوى أو أخذوها ، وعضوا بالنواجذ على الاحتكارات ؛ وشاركوا فى أسلاب القرصنة ، ونظرت الملكة الشرهة بعين التسامح إلى الرشوة التى تزيد من الأجر

الضئيل الذى يحصل عليه خدمها . وبفضل هباتها أو باذن منها أصبح ليستر أغنى لوردات إنجلترا ، واستولى سير فيليب سدنى على أراض شاسعة فى أمريكا ، وأخذ رالى أربعين ألف فدان فى إيرلنده ، ونعم ارل اسكس الثانى باحتكار استيراد النبيذ الحلو ، وارتفع سيركرستوفر هاتون من مجرد « كلب مدلل » لدى الملكة إلى أكبر منصب فى الدولة وحامل خاتم الملكة . ولم تعد اليزابث تحس بالعقول الجبارة قدر احساسها بالسيقان الرشيقة — لأن عمد المجتمع هؤلاء لم يكونوا قد غطوا سيقانهم بالبنطلونات بعد ، وعلى الرغم من كل أخطاء الملكة ، فانها اتخذت خطوة وشقت الطريق بغية ابراز الطاقات المختزنة فى رجال إنجلترا الأفذاذ ، واستثارت هممهم وشجاعتهم للقيام بالمشروعات الضخمة ، وعقولهم إلى التفكير الحرى ، وسلوكهم نحو الكياسة والفطنة ، وإلى نظم الشعر والدراما والفن . وحول هذه الحاشية ، وهذه المرأة تكاد تكون قد تجمعت كل عبقرية إنجلترا فى أزهى عصورها .

٥ — اليزابث والدين

احتدمت معركة الاصلاح الدينى المريرة داخل البلاط الملكى والأمة ، وأثارت مشكلة اتجه تفكير كثير من الناس إلى أنها ستربك المملكة وتدمرها ، فقد كان ثلثا إنجلترا : وربما ثلاثة أرباعها من الكاثوليك[٣٩]. وكان معظم القضاة والحكام وكل رجال الدين من الكاثوليك . وكان البروتستانت محصورين فى الثغور الجنوبية والمدن الصناعية ، وكانت لهم الغلبة فى لنـدن حيث تضخم عـددهم بسبب اللاجئين إليها من وجه الظلم فى القارة . أما فى المقاطعات الشمالية والغربية — وكلها زراعية تقريبا — فكان عددهم لا يكاد يذكر[٤٠] . وكانت روح البروتستانت على أية حال ، أشد حماسا وغيرة من الكاثوليك بشكل لا يقاس . وفى ١٥٥٩ نشر جون فوكس كتابا يصف فيه ، فى غضب شديد ، معاناة البروتستانت فى العهد السابق ، وترجمت مجلدات الكتاب فى ١٥٦٣ تحت اسم Aclesand Monuments (الأعمال والآثار) ، وكانت معروفة بين الناس باسم « كتاب الشهداء » وكان لها أثر مثير فى نفوس البروتستانت الإنجليز لأكثر من قرن من الزمان . وكان للبرتستانتية

فى القرن السادس عشر الطاقة المحمومة لفـكرة جديدة تناضل من أجل المستقبل ، على حـين كان للـكاثوليكية قوة المعتقدات والأساليب التقليدية المتأصـلة فى أعماق الماضى .

وفى الأقلية الآخذة فى الانتشار زاد الاضطراب الدينى من نزعة الشك ، بل حتى الالحاد ، هنا وهناك . وباتت العقول العملية الواقعية شكاكة فى كل النظريات اللاهوتية ، بسـبب الصراع بين المذاهب ، والنقد المتبادل بينها ، وتعصبها الدامى والتناقض بين الإيمان الذى يجهر به المسيحيون وبين سلوكهم . وإليك ما قال روجر أسكام فى « المعلم » ١٥٦٣ :

ان الإيطالى الذى ابتدع لأول مرة المثل الإيطالى ضد رجالنا الإنجليز الذين تشبهوا بالإيطاليين ، لم يعد يقصد زهوهم وخيلاءهم فى حياتهم أكثر مما يقصد رأيهم القبيح فى الدين . وإنهم لأشد اعتدادا بعظات شيشرون منهم برسائل القـديس بولص ، وبقصة من بوكاشيو منهم بقصص الـكتاب المقدس ، وانهم ليعتبرون أسرار الديانة المسيحية من قبيل الأساطير الخرافية ، ويجعلون المسيح وانجيله فى خدمة السياسة المدنية ، ثم إن المذهبين كليهما (البروتستانتية والـكاثوليكية) لا يأتيان خطأ إليهم . وفى الوقت المناسب يرفعون من شأنهما علانية ، وبين الجدران يسخرون منهما سرا . . . . وانى استطاعوا سبيلا ، ومع رفاقهم ، يضحكون أو يزدرون البروتستانتية والبابوية . ولا يلقون بالا إلى الـكتب المقدسة ، وانهم ليهزأون بالبابا ، ويشكون مر الشكوى ، وبألفاظ جارحة ، لوثر . . . . . ان المعبود الذى يرتضون ليس إلا مسرتهم الشخصية ونفعهم الخاص . ومن ثم فانهم يعلنون فى وضوح أنهم يتبعون فى حياتهم مدرسة الأبيقوريين ، وأنهم من الناحية النظرية ملحدون[٤١] .

وشكا سيسل (١٥٦٩) من « أن الساخرين من الدين والأبيقوريين والملحدين موجودون فى كل مكان[٤٢] » . وفى ١٥٧١ صرح جون ستريب Strype « هناك كثيرون تخلوا عن الـكنيسة تماما ، ولم يعودوا يحضرون لآداء واجباتهم الدينية[٤٣] » وذهب جون ليلى Lyly (١٥٧٩) إلى أنه « لم يكن بين الوثنيين الهمجيين مثل هذه

الفرق الدينية ، ولا مثل هذه المعتقدات الخاطئة بين الكفار ، مثل ما هو حادث الآن بين العلماء[٤٤] » . وألف علماء اللاهوت وغيرهم كتبا كثيرة ضد « الالحاد » وهو يعنى على أية حال الإيمان بالله ، وعدم الإيمان بألوهية المسيح . وفى ١٥٧٩ ، ١٥٨٣ ، ١٥٨٩ أحرق بعض الأفراد لانكارهم ألوهية المسيح[٤٥] : واشتهر عدد من الروائيين — جرين ، كد Kyd ومارلو — بأنهم ملحدون . إن الدراما فى عصر اليزابث — وهى فيما عدا ذلك تصور الحياة تصويرا شاملا — تتضمن أقل القليل عن صراع المعتقدات ، ولكنها تعرض الأساطير الوثنية أكبر عوض .

وفى رواية شكسبير Love's Labour's Lost هناك بيتان غامضان :

أى تناقض هذا ؟ السواد شارة الجحيم ،
ولون السجن و مدرسة الليل .

وفسر كثيرون[٤٦] العبارة الأخيرة على أنها تشـــير إلى الاجتماعات التى كان يعقدها والتر رالى ، والعالم الفلكى توماس هاريوت ، والعالم لورنس كيمس ، وربما الشاعران مارلو وتشابمان ، وغيرهم ، فى دار رالى الريفية فى شربورن ، لدراسة الفلك والجغرافيا والكيمياء والفلسـفة واللاهوت . وقال أنتونى رود عالم الآثار عن هاريوت — ومن الواضح أنه الزعيم الفخرى لهذه الجماعة — « إنه كانت لديه أفكار غريبة عن الكتب المقدسة . وكان دائما يحط من قدر القصة القديمة عن الخلق (التكوين) . . . . . وألف لاهوتا نبذ فيه التوراة » . لقد آمن بالله ، ولكنه أنكر الوحى وألوهية المسيح[٤٧] » وكتب روبرت بارسونز — وهو من الجزويت — فى ١٥٠٢ عن « مدرسة والتر رالى للالحاد . . . . . حيث كانت السخرية من موسى وعيسى المخلص ، والتوراة والإنجيل على حد سواء ، ولقن التلاميذ أن يطرحوا الرب وراء ظهورهم[٤٨] » واتهم رالى بأنه استمع إلى بحث قرأه مارلو عن » الالحاد » . وفى مارس ١٥٩٤ أجتمعت لجنـــة حكومية فى Cerne Abbes فى دورست ، للتحقيق فى شائعات راجت عن مجموعة من الملحدين فى الأماكن المجاورة ، ومن بينها موطن رالى . ولم يؤد التحقيق إلى إجراء معروف لدينا اليوم . ولكن تهمة الالحاد وجهت إلى رالى أثناء محاكمته (١٦٠٣)[٤٩] . وفى

مقدمة كتابه « تاريخ العـالم » أشار إلى إيمانه بالرب ، على أنه نقطة يتناولها بالتفصيل فيما بعد .

وحامت الشبهات فى حرية الفكر حول اليزابث نفسها . ويقول جون ريتشارد جرين « لم توجد قط امرأة مثلها مجردة تجردا تاما من أية عاطفة نحو الدين(٥٠) » . ويقرر المؤرخ الإنجليزى فرود « أن اليزابث لم يكن لديها اقتناع عاطفى واضح . . وأنها ، وهى التى كان إيمانها بصـدق المذهب البروتستانتى والمذهب الكاثوليكى ضعيفا على حد سواء ، كانت تنظر باحتقار موسـوم بالتسامح إلى كل الأفكار والنظريات اللاهوتية(٥١) » . لقد دعت الله بأغلظ الأيمان التى أزعجت وزراءها . أن يدمرها إذا هى نقضت عهدها بالزواج من ألنسون ، على حين أنها فيما بينها وبين نفسها سخرت من مزاعمه بطلب يدها(٥٢) . وصرحت الملكة لمبعوث أسبانى بأن الفرق بين المذاهب المسيحية المتناحرة لم يكن سوى « شىء تافه » ، ومن ثم استخلص أنها ملحدة(٥٣) .

وعلى الرغم من كل شىء ، فانها ، مثل كل الحكومات تقريبا قبل ١٧٨٩ ، اعتبرت كقضية مسلم بها ، أن شيئا من الدين وشيئا من مصدر القوة الخارقة وشيئا من الوازع الأخلاقى ، كل أولئك أمور لا يمكن الاستغناء عنها من أجل النظام الاجتماعى والاستقرار فى الدولة . ولفترة من الوقت ، حتى دعمت مركزها ، بدا أنها تتردد ، وتلاعبت على آمال زعماء الكاثوليك فى احتمال أن يكسبوها فى مذهبهم العام ، لقد أحبت الطقوس الكاثوليكية وعزوبة رجال الدين الكاثوليك ، ودراما القداس ، ولربما كان من المحتمل أن تعقد أواصر السلام مع الكنيسة ، لولا أن هذا كان يحمـل فى طياته الخضوع للبابا . وارتابت فى الكاثوليكية على أنها قوة أجنبية يمكن أن تؤدى بالإنجليز إلى وضع اخلاصهم للكنيسة فوق ولائهم للملكة . ولقد ترعرعت فى أحضان بروتستانتية والدها ، وهى تعنى الكاثوليكية بغـير البابوية ؛ وهذا ، أساسا ، هو ما عقدت العزم على إقراره من جديد فى إنجلترا . وراودها الأمل فى أن تهدئ الطقوس شبه الكاثوليكية فى كنيستها الإنجليزية من روع الكاثوليك فى الريف ، على حين يرضى نبذ البابوية البروتستانت فى المدن ، وتشكل

الرقابة الحكومية على التعليم الجيل وفى هذه التسوية التى دبرتها اليزابث ، فيهدأ هذا الصراع الدينى الذى يمزق البلاد ، ويستتب السلام . انها اتخذت من ترددها فى موضوع الدين ، مثل ترددها فى أمر الزواج ، وسيلة لخدمة أغراضها السياسية ، وأبقت على أعدائها الأقوياء مذهولين ممزقين حتى أصبح فى مقدورها أن تواجههم بحقيقة بارعة كاملة .

وحرضتها قوى كثيرة على استكمال الاصلاح الدينى . وكتب إليها المصلحون الدينيون فى أنحاء القارة شاكرين لها سلفا اعادة العبادة الجديدة . وأثرت فيها رسائلهم. وكان الذين استولوا على الأراضى التى كانت ملكا للكنيسة من قبل ، يرجون تسوية بروتستانتية . وأغرى سيسل اليزابث بأن تجعل من نفسها زعيمة لأوربا البروتستانتية . وأبدى البروتستانت فى لندن مشاعرهم بتحطيم تمثال للقديس توماس والقائه فى عرض الطريق . وكان أول برلمان فى عهدها — ٢٣ يناير — ٨ مايو ١٥٥٩) بروتستانتيا بأغلبية ساحقة ، وتمت الموافقة على الاعتمادات التى طلبتها دون تحفظ أو ابطاء . ومن أجل توفيرها فرضت ضريبة على كل الأفراد ، دينيين أو علمانيين . وصدر قانون التنسيق الجديد Act of Uniformity (١٨ أبريل ١٥٥٩) وبمقتضاه أصبح « كتاب كرامر للصلوات العامة » ، بعد مراجعته ، هو قانون الطقوس الانجليزية ، وحرم كل ما عداه من الطقوس الدينية ، وألغى القداس ، وطلب إلى كل الانجليز حضور صلوات يوم الأحد فى الكنيسة الأنجليكانية ، أو دفع غرامة قدرها شلن لمعونة الفقراء . وفى ٢٩ أبريل صدر « قانون السيادة » الجديد الذى نص على أن تكون اليزابث الحاكم الأعلى لانجلترا فى المسائل الروحية والزمنية على السواء . ووضع « قسم السيادة » يعترف بالسيادة الدينية للملكة ، وكان من المحتم أن يؤدى هذا القسم كل رجال الدين والمحامين والمعلمين ، والمتخرجين فى الجامعات والحكام والقضاة وكل موظفى الكنيسة والتاج ، وعهد إلى محكمة كنسية ذات سلطة عليا ، تختار الحكومة أعضاءها ، باجراء التعيينات الكبرى فى الكنسية واتخاذ القرارات الكنسية . وأى دفاع عن سلطة البابا على انجلترا كان عقابه السجن مدى الحياة لأول مخالفة والموت للثانية (١٥٦٣) . ولم تأت سنة ١٥٩٠ حتى كانت

كل الكنائس الانجليزية بروتستانتية .

وزعمت اليزابث أنها لم تضطهد حرية الرأى . فقالت ان لكل إنسان أن يتمتع بحرية الفكر وحرية العقيدة كما يشاء . شريطة أن يطيع القانون ؛ وان كل ما تتطلبه هو الانسجام الخارجى : حرصا على وحدة الأمة . وأكد لها سيسل : « أن هذه الدولة لن تستشعر الأمان والاطمئنان ، ما دام فيها تسامح نحو عقيدتين(٥٤) » — ولو أن هـذا لم يمنعها من طلب التسامح مع البروتستانت الفرنسيين فى فرنسا الكاثوليكية (٥٥) . ولم يكن لديها اعتراض على الرياء المسالم ، على ألا تكون حرية الرأى هى حرية الكلام . ومن ثم فان الوعاظ الذين لم يشاركوها وجهات نظرها فى أى موضوع هام كان مصيرهم أن تخرس ألسنتهم أو يطردوا (٥٦) . وحددت من جديد قوانين الهرطقة وطبقت . وحرم من حماية القانون طائفة الموحدين (الذين يقولون بالتوحيد لا التثليث) والقائلين باعادة تعميد البالغين(٥٧) . وأعدم أثناء حكم الملكة خمسة من المهرطقين ، وهذا رقم متواضع فى ذاك الزمان .

وحدد مجمع من رجال اللاهوت فى ١٥٦٣ المذهب الجديد . واتفق رأى الجميع على « القضاء والقدر » . فان الله بمحض مشيئته ، قبل خلق الدنيا . ودون اعتبار لمزايا الإنسان أو مثالبه . كان قد اصطفى أفرادا ليكونوا من الصفوة التى كتب لها الخلاص ، على حين ترك بقية البشر من الهالكين الملعونين . وتقبلوا فكرة لوثر عن الخلاص بالإيمان بنعمة الله ، ودم المسيح المخلص ، على أنهم فسروا « القربان المقدس » بالمعنى الذى ذهب إليه كلفن ، أى أنه اتصال روحى أكثر منه مادى بالمسيح . وبمقتضى قرار من البرلمان (١٥٦٦) انتظمت المواد التسع ، والثلاثون العقيدة الجديدة . وأصبحت اجبارية على كل رجال الدين فى إنجلترا ، ولا تزال تعبر عن المذهب الانجليكانى الرسمى .

وكذلك كانت الطقوس الجديدة حلا وسطا . فالغى القداس ، ولكن مما أزعج البيوريتانز أن صدرت التعليمات إلى رجال الدين بارتداء الملابس الكهنوتية البيضاء عند تلاوة الصلوات وعند تقديم القربان المقدس . وكان يجب تناول القربان ركوعا — فى شكلى الخبز والنبيذ . واستبدل بالتوسل بالقديسين الاحتفال سنويا بذكرى أبطال

البروتستانتية ، واستبقى تثبيت العماد ورسامة الكهنة على أنهما طقوس مقدسة ، ولكن لا يعتبران من الأسرار المقدسة التى عينها السيد المسيح ، وشجع الاعتراف للكاهن فى حالة دنو الأجل فقط . واحتفظ كثير من الصلوات بصيغته الكاثوليكية الرومانية ، ولكنها اكتست بالرداء الانجليزى ، وأضبحت جزءا بارزا عظيما من آداب الأمة . ولمدة أربعمائة سنة ، نفخت هذه الصلوات والتراتيل التى تتلوها الفرق أو الكاهن فى الكاتدرائيات الفسيحة الفخمة ، أو فى كنيسة الأبرشية البسيطة — نقول نفخت فى روح الاسرات الانجليزية وحياتها ، وزودتها بالسلوى والتهذيب الخلقى والهدوء العقلى .

٦ — اليزابث والكاثوليك

والآن جاء دور الكاثوليك ليعانوا من الاضطهاد . فقد كان محرما عليهم — ولو انهم كانوا لا يزالون يشكلون الأغلبية — أن يقيموا الصلوات الكاثوليكية ، أو يكون لهم أدب كاثوليكى . وحطمت الصور المقدسة فى الكنائس بأمر الحكومة ، كما أزيلت المذابح . وأرسل ستة من طلبة اكسفورد إلى « البرج » لمقاومتهم إزالة صليب يمثل صلب المسيح من كنيسة كليتهم[٥٨]، وخضع معظم الكاثوليك للتعليمات الجديدة فى حزن وأسى ، ولكن عددا كبيرا منهم آثر دفع الغرامة على حضور الطقوس الانجليكانية . وجمع المجلس الملكى نحو خمسين ألفا من هؤلاء « العصاة المتمردين » فى إنجلترا (١٥٨٠)[٥٩] . وشكا الأساقفة الانجليكانيون إلى الحكومة من أن القداس كان يقام فى بيوت خاصة ، وأن الكاثوليكية بدأت تكون عبادة عامة ، وأنه كان من الخطر فى بعض الجهات المتحمسة أن يكون المرء بروتستانتيا[٦٠]. ووبخت اليزابث رئيس الأساقفة باركر على تراخيه (١٥٦٥) ، ومن ثم طبقت القوانين بشكل أشد صرامة . وأودع السجن الكاثوليك الذين حضروا القداس فى كنيسة سفير أسبانيا ، وفتشت البيوت فى لندن — وأمر الأجانب الذين وجدوا فيها بالادلاء ببيان عن ديانتهم ، وطلب إلى الحكام أن يعاقبوا كل من يوجد فى حوزته كتب المذهب الرومانى الكاثوليكى (١٥٦٧)[٦١] .

ويجدر بنا ألا نحكم على هذا التشريع على أساس التسامح الديني النسبي الذى أكسبنا اياه الفلاسفة والثورات فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، فان المعتقدات آنذاك كانت تحارب بعضها بعضا ، وكانت متشابكة بالسياسة ؛ وفى هـذا المجال كان التسامح محدودا . فقد اتفقت كل الأحزاب والحكومات فى القرن السادس عشر على أن الانشقاق الدينى كان شكلا من التمرد السياسى . وأصبح الصراع الدينى — عندما أصدر البابا بيوس الخامس — بعد احساسه بأنه تأخر تأخيرا طويلا مملا — مرسوما (١٥٧٠) ، لم يحرم اليزابث من الكنيسة فحسب ، بل أحل رعاياها من الولاء لها كذلك ، وحرم عليهم الامتثال لتنبيهاتها وأوامرها وقوانينها » . ومتع انتشار المرسوم فى أسبانيا وفرنسا اللتين كانتا تخطيان ود إنجلترا آنذاك ، ولكن نسخة منه وضعت بطريقة سرية على باب مقر الأسقف البروتستانتى فى لندن وسرعان ماكشف المحرم وأعدم ، وعندما ووجه وزراء الملكة بهذا الإعلان للحرب ، طلبوا إلى البرلمان سن قوانين أشد صرامة ضد الكاثوليك ، وصدرت تشريعات تنص على أنه يعتبر من الجرائم التى يعاقب مرتكبوها بالاعدام : قذف الملكة بأنها هرطيقة أو منشقة أو مغتصبة . أو طاغية ؛ أو ادخال مرسوم بابوى إلى إنجلترا ، أو تحويل بروتستانتى إلى الكنيسة الرومانية[٦٢] . وفوضت المحكمة العليا فى اختبار آراء أى فرد مشتبه فيه ، وأن تعاقبه على أية مخالفة لأى قانون ، لم يعاقب عليهما من قبل ، بما فى ذلك الفسق أو الزنى[٦٣] .

ولم يجد ملوك أوربا الكاثوليك لديهم من الجرأة ما يحتجون به على هـذه الاجراءات الظالمة التى شابهت إجراءاتهم إلى حد كبير ، واستمر معظم كاثوليك إنجلترا على الخضوع فى سلام ، وأملت حكومة اليزابث فى أن تؤدى العادة إلى القبول والرضا ، ثم الايمان فى الوقت المناسب ؛ ولكن حال دون هذا أن وليم ألن Allen المهاجر الانجليزى أسس فى دوى Douai (مدينة فى شمال فرنسا) ثم فى الأراضى الوطيئة الأسبانية ، كلية ومعهدا لاهوتيا لتدريب المبعوثين الانجليز الكاثوليك لارسالهم إلى إنجلترا . وأفصح عن غرضه فى حماسة قائلا :

إن دراستنا فى المقام الأول . . . تقوم على أن نثير فى عقول الكاثوليك الحماسة

والازدراء المبنى على الحق بالهراطقة . وإنا لنفعل هذا بأن نضع أمام أعين الطلاب الجـلال الفريد الذى تتميز به طقوس الكنيسة الكاثوليكية فى المكان الذى نعيش فيه . . . وفى نفس الوقت نعيد إلى الذاكرة النقيض المحزن الذى يحدث فى وطننا ، ألا وهو الدمار الشامل الذى حل بكل الأشياء المقدسة هناك . . . وأصدقائنا وأقربائنا ، وأعزائنا ، إلى جانب الأرواح التى لا تحصى ، ممن هلكوا فى الانشقاق والكفر ، وفى الأبراج المحصنة والسجون المكتظة عن آخرها ، لا باللصوص والأشرار ، بل بكهنة المسيح وخدامه ، بل كذلك بآبائنا وأنسبائنا وعشيرتنا . ومن ثم فليس هناك شىء يجدر بنا ألا نكابده ، أكثر من أن نتعهد بعلاج ما تعانيه أمتنا من علل(٦٤) .

وعملت الكلية فى دوى حتى ١٥٧٨ ، حين استولى الكلفنيون على المدينة ، ثم فى ريمس ؛ ثم فى دوى ثانية (١٥٩٣) . وأخرج إنجيل دوى — وهو ترجمة إنجليزية عن الأصل اللاتينى الذى وضعه جيروم — فى ريمس ودوى (١٥٨٢ — ١٦١٠) وكان معدا للنشر قبل طبعة الملك جيمس بسنة واحدة . وفيما بين عامى ١٥٧٤ و ١٥٨٥ رسمت الكلية ٢٧٥ كاهنا من المتخرجين فيها ، وأرسلت ٢٦٨ منهم للعمل فى إنجلترا . واستدعى ألن إلى رومه وعين كاردينالا . ولكن العمل فى الكلية استمر ، وأرسلت ١٧٠ كاهنا آخر إلى إنجلترا قبل وفاة اليزابث (١٦٠٣) . ومن مجموع هؤلاء المبعوثين (٤٣٨) عوقب ٩٨ بالاعدام .

وانتقلت رياسة هذه الارساليات إلى رجل من الجزويت . هو روبرت بارسونز Parsons ، وهو رجل يتقد حماسة وجرأة وشجاعة ، قوى الحجة شديد المراس فى المناظرة والجدل ، بارع فى النثر الانجليزى . وأعلن بصراحة أن مرسوم خلع اليزابث يبرر قتلها . وصعق كثير من الكاثوليك الانجليز لدى سماع هذا التصريح ، ولكن تولوميو جالى ، أحد مستشارى البابا جريجورى الثالث عشر السياسيين أبدى موافقته على هذه الفكرة(٦٥) (*). وحرض بارسونز الدول الكاثوليكية على غزو

(*) يضيف مؤرخ كاثوليكى إلى ذلك قوله : « إذا كان مستشار البابا أقر قتل اليزابث فان هذا يتفق مع القانون الذى كان نافذا آنذاك . كما أن جريجورى أيضا — ولا بد أن مستشاره كان قد عرض عليه الأمر قبل ارسال كتابه . وافق على هذه الفكرة (٦٦)

إنجلترا . ولكن السفير الأسبانى فى إنجلترا استنكر هـــذه الخطة على أنها « حماقة إجرامية » ، وحرم افرار مركوريان Everard Mercurian رئيس طائفة الجزوبث — على بارسونز التدخل فى السياسة(٦٧) . ولم يرتدع ، وعقد العزم على أن يغزو إنجلترا شخصيا . وتنكر فى زى ضابط إنجليزى عائد من الخدمة فى الأراضى الوطيئة . وهيأت له عصاه العسكرية وسترته الموشاة بالخيوط الذهبية وقبعته ذات الريش ، الوصول إلى موظفى الحدود (١٥٨٠) ، بل انه كذلك مهد الطريق لرجل آخر من الجزوبت ، ادموند كامبيون ، ليتبعه فى زى تاجر مجوهرات ، وأقاما سرا فى قلب لندن .

وزار الرجلان الكاثوليك المسجونين ، ووجدا أنهم يعاملون معاملة حســنة . وقد جندا معاونين علمانيين وروحانيين ، وشرعا فى العمـــل ، يحثـــان ويشجعان الكاثوليك على أن يبقوا مخلصين للكنيسة ، ويردان البروتستانت الحديثين إلى مذهبهم الأول . ولكن القساوسة المدنيين المختفين فى إنجلترا ، الذين روعتهم جرأة الرجلين ، أنذروهما بأنهما لا بد أن يكشف أمرهما ويقبض عليهما سريعا ، وان اكتشافهما سوف يسىء أكثر إلى الكاثوليك ، وتوسلوا إليهما أن يعودا إلى القارة . ولكن بارسونز وكامبيون تمسكا بموقفهما . وانتقلا من بلد إلى بلد ، يعقدان الاجتماعات ســـرا ويسمعان الاعترافات ، ويقيمان القداس ، ويمنحان البركات للمصـــلين الهامسين الذين نظرا إليهما على أنهما رسولان من عند الله . وقيل إنهما فى بحر سنة من قدومهما حولا عشرين ألف مرتد(٦٨) ، وانشأا مطبعة ونشرا الدعاية ، ولقد وجدت فى شوارع لندن نشرات جاء فيها أنه ما دامت اليزابث قد حرمت من الكنيسة ، فانها لم تعد الملكة الشرعية لإنجلترا(٦٩) . وأرسل رجل جزويتى ثالث إلى ادنبره ليحرض الاسكتلنديين الكاثوليك على غزو إنجلترا من الشمال . ولبى ارل وستمورلاند نداء من الفاتيكان ، وأحضر معه من رومه إلى الفلاندرز مجموعة من السبائك الذهبية لتمويل الغزو من الأراضى الوطيئة . وفى صيف ١٥٨١ اعتقد كثير من الكاثوليك أن قوات دوق ألفا الأسبانية سوف تعبر البحر إلى إنجلترا(٧٠) .

وتلقت الحكومة الإنجليزية تحذيرات من جواسيسها ، فضاعفت جهودها للقبض

على الجزويت . أما بارسونز فقد شق طريقه عبر القنال الإنجليزى ، ولكن قبض على كامبيون فى يولية ١٥٨١ . ونقل إلى « برج لندن » عبر القرى المتعاطفة ولندن المعادية . وارسلت اليزابث فى طلبه وحاولت انقاذه . وسألته : هل يعتبرها عاهله الشرعى ؟ فرد بالإيجاب . وكان سؤالها الثانى هل يستطيع البابا قانونا أن يحرمها من الكنيسة ؟ فأجاب بأنه لا يستطيع أن يبت فى مسألة اختلف عليها أولو العلم . فأعادته إلى البرج ، مع توجيهات بحسن معاملته ، ولكن سيسل أصدر أوامره بتعذيبه حتى يعترف بأسماء رفاقه المتآمرين . وبعد يومين من الكرب والألم المبرح استسلم وأدلى ببضعة أسماء ، فألقى القبض على عدد آخر من الأفراد . فلما استعاد جرأته تحدى رجال الدين البروتستانت أن يشهدوا معه حوارا عاما . وعقد الحوار فى كنيسة برج لندن ، باذن من مجلس شورى الملكة ، وسمح لرجال البلاط والمسجونين والجمهور بحضوره ، ووقف الجزويتى على ساقيه الواهنتين عدة ساعات يدافع عن المذهب الكاثوليكى . ولم يقنع أحد الطرفين الآخر . ولكن عند ما قدم كامبيون إلى المحاكمة لم يتهم بالزندقة ، بل وجهت إليه تهمة التآمر على قلب الحكومة عن طريق التخريب الداخلى والغزو الخارجى . وأدين كامبيون وأربعة عشر شخصا معه ، وشنقوا فى أول ديسمبر ١٥٨١ .

إن أولئك الكاثوليك الذين تنبأوا بأن بعثة الجزويت سوف تغضب الحكومة وتؤدى بها إلى مزيد من الاضطهاد ، اثبتوا أنهم كانوا على حق . وأصدرت اليزابث نداء إلى رعاياها ، ليفصلوا بينها وبين أولئك الذين ابتغوا سبيلا إلى عرشها أو حياتها واصدر البرلمان (٥٨١) قانونا ينص على أن الارتداد إلى الكاثوليكية سوف يعاقب بتهمة الخيانة العظمى ، وأن أى قسيس يقيم قداسا يعاقب بغرامة قدرها مائتا مارك مع السجن لمدة عام ، وأن من يمتنع عن حضور الصلوات الأنجليكانية يعاقب بدفع عشرين جنيها فى الشهر[٧١] ، وهذا يكفى لافلاس الناس اللهم إلا أثرياء الكاثوليك . وكان العجز عن دفع الغرامة يستتبع الاعتقال ومصادرة الأملاك . وسرعان ما امتلأت السجون بالكاثوليك إلى حد أن القلاع القديمة استعملت بمثابة سجون[٧٢] . وساد التوتر كل الجوانب ، وزاد من حدته ماكان مرتقبا من إعدام مارى ستيوارت ،

والصراع المتزايد مع أسبانيا وروما . وفى يونية ١٥٨٣ قدم أحد سفراء البابا إلى جريجورى الثالث عشر خطة تفصيلية لغزو إنجلترا بثلاثة جيوش فى وقت واحد ، من إيرلنده وفرنسا وأسبانيا وأبدى البابا تقديره وتأييده لمشروع غزو إنجلترا ، واتخذت الإجراءات اللازمة له[٧٣] . ولكن الجواسيس الإنجليز تنسموا أخبار هذه التدابير ، واتخذت إنجلترا ترتيبات مضادة ، وأجل الغزو .

وثأر البرلمان بمزيد من تشريعات القمع . فكل القساوسة الذين رسموا منذ يونية ١٥٥٩ وظلوا على امتناعهم عن أداء « قسم السيادة » ، طلب إليهم أن يغادروا البلاد فى بحر أربعين يوما ، وإلا أعدموا بتهمة التآمر الموسوم بالخيانة العظمى ، وشنق كل من آووهم أو أخفوهم[٧٠] . وبمقتضى هذا القانون وغيره من القوانين أعدم فى عهد اليزابث ١٢٣ قسيسا و٦٠ من العلمانيين ، وربما قضى مائتان آخرون نحبهم فى السجن[٧٥] . واحتج بعض البروتستانت على قساوة هذا التشريع ، وارتد بعضهم إلى الكاثوليكية . وفر وليم ، حفيد سيسل إلى رومه (١٥٨٥) واقسم يمين الطاعة للبابا[٧٦] .

وكان معظم الكاثوليك الإنجليز يعارضون أى إجراء عنيف ضد الحكومة . وفى ١٥٨٥ وجهت زمرة منهم إلى الملكة اليزابث نداء أكدوا فيه ولاءهم ، والتمسوا « النظر بعين العطف والرحمة إلى ما يعانون من شقاء » . ولكن — وكأنما كان يؤيد ما زعمته الحكومة من أن إجراءاتها إنما تبررها الحرب — أصدر الكاردينال ألن (١٥٨٨) منشورا قصد به شحذ همم الإنجليز الكاثوليك لمساندة هجوم أسبانيا الوشيك على إنجلترا . ودمغ الملكة بأنها « ابنة زنى حمل بها وولدت فى الخطيئة لأم سيئة السمعة من محظيات البلاط » واتهمها « بأنها باعت جسدها ولوثته مع ليستر وكثيرين غيره ، . . . مما يندى الجبين لذكره ، وبما لا يصدق من ألوان الشهوة والفسق » ، وأهاب بالكاثوليك فى إنجلترا أن يهبوا فى وجه هذه الهرطيقة الفاسقة اللعينة المحرومة من الكنيسة » ، « ووعد بأكبر التسامح والغفران كل من يعاون فى خلع « رأس الخطيئة والمقت فى هذا العصر[٧٧] » فما كان جواب الكاثوليك فى إنجلترا إلا أن قاتلوا بمثل البسالة التى قاتل بها البروتستانت ضد الأسطول الأسبانى « الأرمادا » .

واستمر الاضطهاد بعد هذا الانتصار، كجزء من الحرب المستمرة ، وشنق ٦١ قسيسا و ٤٩ علمانيا فيما بين عامى ١٥٨٨ — ١٦٠٣ . واقتلع كثير من هؤلاء من المشنقة وسحبوا ونزعت أحشاؤهم وقطعوا اربا — وهم أحياء[٧٨] . وفى خطاب شهير قدم إلى الملكة فى عام وفاتها ، التمس ١٣ قسيسا الترخيص لهم بالبقاء فى إنجلترا . وتبرأوا من كل عدوان على حقها ، وانكروا أى سلطان للبابا فى خلعها ، ولكنهم لم يستطيعوا ، فى ضمائرهم ، أن يعترفوا بغير البابا على رأس الكنيسة المسيحية[٧٩] . ووصلت هذه الوثيقة إلى الملكة قبل وفاتها بأيام قلائل ، ولم يرد ذكر شىء عن نتيجتها ، ولكنها ، عن غير عمد ، ولمدة قرنين من الزمان ، رسمت المبادئ التى يمكن على أساسها حل المشكلة . ووافى الملكة أجلها منتصرة فى أعظم صراع شهده عهد لم يلطخ بشىء أسوأ من هذا الانتصار .

٧ — البزابث والبيوريتانيون (المتطهرون)

لم تنتصر البزابث على العدو الذى كان من الواضح أنه أشد ضعفاً ، وهم حفنة من البيوريتان . وكانوا رجالا أحسوا تأثير كلفن . وكان بعضهم قد زار جنيف فى أيامه بوصفهم لاجئين مريمين ، وقرأ كثيرون الانجيل الذى ترجمه وزوده بالملاحظات والتعليقات جماعة من أتباع كلفن بجنيف ، وكان بعضهم قد سمع أو قرأ عن نفخات بوق جون نوكس (واعظ ومصلح دينى بروتستانتى اسكتلندى فى القرن / ١٦) ، وربما كان بعضهم قد سمع أصداء حركة ويكلف وأتباعه « القساوسة الفقراء » . وقد اتخذوا من الانجيل دليلا لا يخطئ ، فلم يجدوا فيه شيئا عن الدرجات الأسقفية والملابس الكهنوتية التى نقلتها البزابث عن الكنيسة الرومانية إلى الكنيسة الأنجليكانية ، بل إنهم على النقيض من ذلك وجدوا كثيرا عن المشايخ (الكهنة) الذين لم يكن لهم سيد أو ملك غير المسيح وأقروا بأن البزابث رأس الكنيسة فى إنجلترا ، لا لشىء إلا لغل يد البابا ، ولكنهم فى أعماق قلوبهم ، رفضوا أية رقابة من الدولة على الكنيسة ، وتمنوا أن تكون لديانتهم الرقابة على الدولة . وبدئ حوالى ١٥٦٤ بتسميتهم « البيوريتانز » (المتطهرون) وهو لفظ أسئ استخدامه ، لأنهم طالبوا بتطهير المذهب البروتستانتى الإنجليزى من كل الطقوس والعبادات غير الوارة

فى العهد الجديد — الانجيل . واستمسكوا كل الاستمساك بنظريات القضاء والقدر ، والاصطفاء ، واللعنة الأبدية ، وأحسوا أنه لا مهرب من الجحيم إلا باخضاع كل ناحية من نواحى الحياة للدين والأخلاق . وكلما قرأوا الانجيل فى أيام الأحد المقدسة المهيبة فى بيوتهم ، كاد أن يتوارى شكل المسيح أمام الرب الحقود المحب للانتقام « يهوه » الوارد ذكره فى التوراة (اشارة إلى تشددهم وقسوتهم) .

وبدأت حملة البيوريتانز على اليزابث فى الظهور (١٥٦٩) عندما ألحت محاضرات توماس كارتريت أستاذ اللاهوت فى كمبردج ، على أوجه التناقض بين نظام المشيخية فى الكنيسة المسيحية القديمة والكيان الأسقفى فى الكنيسة الرسمية الانجليكانية . وأيد كثيرون فى الكلية كارتريت ، ولكن جون وتجفت Whitgift رئيس كلية ترنتى ، أبلغ الملكة بما كان من أمر كارتريت ووشى به لديها ، وحصل على موافقتها ، على فصله من هيئه التدريس (١٥٧٠) . وهاجر كارتريت إلى جنيف حيث نهل — تحت رياسة تيودور دى بيز de Bèze — أصول التيوقراطية الكلفنية فى أقوى صورها . ولدى عودته إلى إنجلترا ، أسهم مع والتر ترافرس وآخرين فى صياغة فكرة البيوريتانز عن الكنيسة . ومن رأيهم أن السيد المسيح كان قد استن أن يعهد بالسلطة الكنسية إلى الكهنة وكبار السن من العلمانيين . كل أولئك تنتخبهم كل أبرشية ومديرية ودولة . وتقرر الهيئة المشكلة على هـذا النحو ، المذهب والطقوس والقانون الأخلاقى ، بما يتسق مع ما جاء فى الكتاب المقدس . وكان ينبغى أن يكون لهم حق الدخول إلى كل بيت ، والسلطة التى يفرضون بها الالتزام « بالحياة الربانية أو بأوامر الرب ونواهيه » ، من حيث المظهر الخارجى على الأقل ، كما يكون لهم الحق فى حرمان المتمردين من الكنيسة ، و لحكم بإعدام الهراطقة . وكان على القضاة المدنيين أن ينفذوا هذه المراسيم التنظيمية ، على ألا يكون للدولة أى سلطان قضائى روحى بأى شكل من الأشكال(٨٠) .

وأسست أول أبرشية إنجليزية على هـذه المبادئ فى واند زورث Wandsworth فى ١٥٧٢ ، وقامت كنائس (مشيخيات) مماثلة فى المقاطعات الشرقية والوسطى . وفى هذا الوقت كانت أغلبية البروتستانت فى لندن وفى مجلس العمـوم من البيوريتانز

واستحسن الحرفيون فى لندن ، الذين تسربت إليهم بقوة مبادئ كلفن ، عن طريق اللاجئين الكلفنيين من فرنسا والأراضى الوطيئة — نقول استحسن هؤلاء الحرفيون ، هجوم البيوريتانز على النظام الأسقفى وعلى الطقوس : ونظر رجال الأعمال فى العاصمة إلى البيوريتانية على أنها حصن منيع للبروتستانتية ضد الكاثوليكية التى لا تنظر بعين الرضا بصفة تقليدية إلى « الربا » وإلى الطبقة المتوسطة . وكان كلفن « صارما » بعض الشىء فى نظرهم ولكنه كان قد أقر « الفائدة » واعترف بمزايا الصناعة والادخار ، وحتى المقربون إلى الملكة وجدوا بعض الخير لهم فى البيوريتانية ، بل أن سيسل ولستر ، وولسنجهام ونوللیس راودهم الأمل فى أن يستخدموها سيفا يشهرونه فى وجه الكاثوليكية إذا وصلت مارى ستيوارت إلى عرش إنجلترا (٨١) .

ولكن اليزابث أحست بأن الحركة البيوريتانية تهدد كل التسوية التى دبرتها لتهدئة الصراع الدينى ، وارتأت أن الكلفنية شبيهة بنظرية جون نوكس الذى لم تغفر له الملكة قط احتقاره لحكم النساء . واحتقرت النظريات البيوريتانية المتشددة من كل قلبها ، وربما إلى حد أكبر من كراهيتها للكاثوليكية ، وكان لها ولع قديم بصورة المسيح المصلوب ، وغيرها من الصور الدينية ، وعندما دمرت الثورة ضد الصور المقدسة اللوحات والتماثيل والزجاج الملون فى أوائل حكمها (٨٢) ، قدمت التعويضات إلى ضحايا الثورة ، وحظرت اقتراف مثل هذا العمل فى المستقبل (٨٣) . ولم تكن تهتم بالتفاصيل الدقيقة فى كلامها ، ولكنها استاءت من الوصف الذى نعت به أحد البيوريتانيين « كتاب الصلوات بأنه نفاية مأخوذة من الاقذار البابوية : كتاب القداس » ، وما نعت به محكمة اللجنة العليا من أنها « خندق بغيض صغير (٨٤) » . كما رأت الملكة فى الانتخاب العام للكهنة وفى حكومة الكنيسة عن طريق المشايخ والمجالس الكنسية المستقلة عن الحكومة ، شيئا من النظام الجمهورى الذى يهدد الملكية . ورأت أن سلطتها الملكية فحسب هى التى يمكن أن تبقى على البروتستانتية فى إنجلترا ، أما الاقتراع الشعبى فيؤدى إلى عودة الكاثوليكية .

وشجعت الأساقفة على التنكيل بمثيرى الفتنة ، فأوقف رئيس الأساقفة باركر مطبوعاتهم ، وأخرس ألسنتهم فى الكنائس ، ومنع اجتماعاتهم . وكان رجال الدين

البيوريتانز ينظمون اجتماعات للمناقشة العامة فى نصوص الكتب المقدسة ، فأصدرت اليزابث أمرها إلى باركر بوضع حد لهذه « المواعظ » ففعل . وحاول خلفه ادموند جرندال أن يحمى البيوريتانز ، ولكن اليزابث أوقفته عن العمل . ولما مات (١٥٨٣) عينت فى منصب رئيس أساقفة كنتربرى ، قسيسها الجديد ، جون وتجفت Whitgift الذى نذر نفسه لاخراس ألسنة البيوريتانز . وطلب إلى جميع رجال الدين الانجليز أن يؤدوا قسما بقبول « المواد التسع والثلاثين » ، وكتاب الصلوات ، والسيادة الدينية للملكة ، واستدعى كل المعارضين للمثول أمام محكمة اللجنة العليا ، وهنا تعرضوا لتحقيق تفصيلى ملح عن سلوكهم ومعتقداتهم ، إلى حد أن سيسل وازن بين هـــذا الاجراء وبين محاكم التفتيش(٨٥) .

وازدادت حدة الثورة البيوريتانية ، وانشقت أقلية ذات عزم أكيد عن حظيرة الكنيسة الأنجليكانية ، وعقدت مجامع مستقلة لانتخاب الكهنة الخاصين بها ، ولم تعترف بأية رقابة أو سيادة أسقفية . وفى ١٥٨١ أقلع إلى هولنده روبرت براون — وكان تلميذ كارتريت (ثم أصبح عدوا له فيما بعد) ، وأول لسان ناطق باسم هؤلاء « المستقلين » أو « الانفصاليين » أو « الأبرشانيين » (الذين يقولون بالاستقلال الذاتى لكل أبرشية) ، وهناك نشر كراستين صاغ فيهما دستورا ديموقراطيا للمسيحية نص فيه على أنه يجب أن يكون لأية جماعة مسيحية الحق فى أن تنظم عبادتها ، وتشكل عقيدتها على أساس الكتاب المقدس ، وتختار رؤساءها وقادتها وتحيا حياتها الدينية متحررة من أى تدخل أجنبى ، ولا تعترف إلا بحكم الكتاب المقدس، وسلطان المسيح ، وقبض فى إنجلترا على اثنين من أتباع براون واتهما بالطعن فى السيادة الدينية للملكة ، وشنقا (١٥٨٣) .

وفى الحملات الانتخابية لبرلمان ١٥٨٦ شن البيوريتانز حربا خطابية على كل مرشح غير متعاطف مع مبادئهم . ودمغ مثل هذا الشخص بأنه « مقامر ، مدمن على الخمر ، كما وصم آخر بأنه « أقرب إلى البابوية أو الكثلكة ، قلما يأتى إلى كنيسته وانه داعر خليل للبغايا » وتلك كانت أيام الكلام القوى الحاسم . وعندما اجتمع البرلمان قدم جون بنرى التماسا لاصلاح الكنيسة ، واتهم الأساقفة بالمسئولية عن مفاسد رجال

الدين وعن الوثنية الشائعة . وأمر وتجفت باعتقاله ، ولكن سرعان ما أفرج عنه . وتقدم أنطونى كوب Cobe بمشروع قانون بإلغاء الكنيسة الرسمية الأسقفية برمتها واعادة تنظيم المسيحية الانجليزية على أساس الخطة المشيخية (على أساس الانتخاب) . وأصدرت اليزابث أمرها إلى البرلمان بعـدم عرض مشروع القانون هذا للمناقشة . وأثار بيتر ونتورث موضوع الحرية البرلمانية ، وأيده أربعة آخرون من الأعضاء . فما كان من اليزابث إلا أن زجت بالخمسة جميعا فى السجن فى برج لندن .

ولما خاب فأل البيوريتانز فى البرلمان ، انصرف بنرى وآخرون إلى المنشورات ، وتخلصا من رقابة وتجفت الشديدة على المطبوعات ، وأغرقوا إنجلترا (١٥٨٨ — ١٥٨٩) ، بوابل من الكراسات المطبوعة سرا ، وكلها ممهورة بتوقيـع « Martin Marprelate Gentleman » هاجموا فيها سلطة الأساقفة وخلقهم الشخصى فى نقد لاذع بذئ ممتلىء بالسباب . وبث وتجفت واللجنة العليا كل أجهزة التجسس للكشف عن المؤلفين والطابعين . ولكن هؤلاء كانوا ينتقلون من بلد إلى آخر ، وساعدهم تعاطف الجمهور معهم على الافلات من أيدى الجواسيس حتى أبريل ١٥٨٩ . واستخدم الكتاب المحترفون — مثل جون ليلى ، وتوماس ناش — فى الرد على مارتن (صاحب التوقيع) ونافسوه أيما منافسة فى البذاءة . وأخيرا ، وعندما نفدت لغة السوقة ، خفت حدة الشتائم والتراشق ، ورثى الرجال المعتدلون لامتهان المسيحية على هذا النحو والانحدار بها إلى فن للمهارة والقدح .

وآلمت هذه النشرات الملكة أشـد الايلام فأطلقت يد وتجفت فى كبح جماح البيوريتانز . وقد عثر على من تولوا طبع Marprelate ، وزاد عدد المقبوض عليهم ، وتلا ذلك تنفيذ الاعدام ، وصدر الحكم بإعدام كرتريت ، ولكن الملكة أصدرت عفوا عنه . وفى ١٥٩٣ شنق أثنان من زعماء « حركة براون » ، هما جون جرينلند وهنرى بارو ، وسرعان ما لحق بهما جون بنرى . وأصدر البرلمان (١٥٩٣) قانونا ينص على أن كل من يعترض على السيادة الدينية للملكة ، أو يتغيب عمدا عن الصلوات فى الكنيسة الأنجليكانية ، أو يشهد « اجتماعات أو صلوات سرية غير مشروعة أو لقاءات تحت ستار ممارسة العقيدة أو ادعاء لمارستها » يعاقب بالسجن

— فإذا لم يتعهد بالتزام العقيدة الرسمية ، عليه أن يغادر إنجلترا دون رجعة ، وإلا كان جزاءه الموت[٨٦] .

وعند هذا الحد ، وسط هذا العنف البالغ والاضطراب الشديد ، ارتفع قس متواضع بموضوع النزاع إلى مستوى الفلسفة والتقوى والنثر الرائع . وكان ريتشارد أحد اثنين من رجال الدين عهد إليهما باقامة الصلوات فى معبد لندن ، أما الثانى فهو والتر ترافرس ، صديق كارتريت . وفى موعظة الصباح دافع هوكر عن سيادة البزابث الدينية ، وفى المساء انتقد ترافرس حكومة الكنيسة من وجهة نظر البيوريتانز ، ووسع كل منهما عظته حتى صارت كتاباً . ولما كان هوكر يكتب أدبا كما يكتب اللاهوت ، فقد توسل إلى أسقفه أن ينقله إلى بيت ريفى هادئ . ومن ثم فإنه فى بسكوم Boscombe فى ولتشير أكمل الأجزاء الأربعة الأولى من مؤلفه « قوانين الدولة الكنسية » (١٥٩٤) ، وبعد ذلك بثلاثة أعوام ، فى Bishopsbourne أرسل الكتاب الخامس إلى المطبعة ، وهناك فى سنة ١٦٠٠ قضى نحبه ، وهو فى سن السابعة والأربعين .

ولقد أدهشت إنجلترا « قوانينه » بالوقار الهادئ غير المتحيز الذى اتسمت به مناقشته وحججه ، والعظمة الرنانة التى تميز بها أسلوب كتبه الذى كاد أن يكون لاتينيا . وامتدحه الأسقف ألن بأنه خير كتاب أخرجته إنجلترا . وأثنى عليه البابا كليمنت الثامن لفصاحته وغزارة علمه . وقرأته البزابث شاكرة ممتنة على أنه دفاع مجيد عن حكومتها الدينية . وسكن روع البيوريتانز لما رأوا من الوضوح المهذب فى لهجته . وتلقته الأجيال بوصفه مجاملة نبيلة للتوفيق بين الدين والعقل ، وأدهش هوكر معاصريه بتسليمه بأن البابا نفسه يمكن تخليصه . وأذهل هوكر رجال اللاهوت بتصريحه بأن « توكيد ما نؤمن به بكلمة الرب ليس مقدرا لنا قدر الاقتناع بما ندركه بالعقل[٨٧] » وأن موهبة التعليل والتعقل ، ان هى إلا هبة وإلهام من عند الله .

بنى هوكر نظريته فى « القانون » على فلسفة العصور الوسطى التى صاغها توماس الأكوينى ، وسبق نظرية « العقد الاجتماعى » التى جاء بها هوبز ولوك . وبعد أن أبرز ضرورة التنظيم الاجتماعى ونعمته ، جادل فى أن الاشتراك الاختيارى

فى مجتمع يتضمن قبول الحكم بقوانينه ، ولكن المنبع الأساسى للقوانين هو الجماعة نفسها . وقد يصدر الملك أو البرلمان القوانين بوصفه مفوضا أو ممثلا للجماعة فحسب. « ان القانون يصنع الملك ؛ وان أية منحة أو منة من الملك تتعارض مع القانون عقيمة لا قيمة لها . . . . ومن أجل الرضا السلمى من جانب الطرفين ، تبــدو موافقة المحكومين ضرورية . . . وليست القوانين هى تلك التى لم يجعــل منها الاستحسان العام قوانين[٨٨] » . وأضاف هوكر نبذة ربما أزعجت شارل الأول :

ان برلمان إنجلترا ، مع المجمع الكنسى الذى انضم إليه : هو الأساس الذى تعتمد عليه كل حكومة فى هذه المملكة . بل انه جسم المملكة بأسرها ؛ انه ينتظم الملك وكل رعاياه على هذه الأرض ؛ لأنهم موجودون جميعا هناك بأشخاصهم . أو انهم فوضوه مختارين[٨٩] .

وبدا الدين فى نظر هوكر جزءا لا يتجزأ من الدولة ، لأن النظام الاجتماعى ، ومن ثم الازدهار المادى نفسه ، يعتمدان على التنظيم الاخلاقى الذى ينهار إذا لم يغرسه الدين ويدعمه . ولذلك ينبغى على كل دولة أن توفر التعليم الدينى لشعبها . وقد يشوب الكنيسة الأنجليكانية بعض الشوائب . ولكن هــذا هو ما ينتظر من أية نظم يقيمها بنو آدم أو يعملون بها . « ان هذا الذى يجوب الآفاق ليقنع الناس بأنهم ليسوا كما ينبغى أن يكونوا عليه ، من أوضاع مرضية ، لن يعوزه من ينصتون إليه ويتعاطفون معه ، لأنهم يعرفون النقائص البشرية التى تتعرض لها أية حكومة أيا كان نوعها . أما العوائق والصعاب الخفية التى لا تحصى والتى لا يمكن تفاديها فى مجريات الأمور العامة ، فليس من المألوف أن يكون لأى الناس من التمييز والعقل ما يمكنهم من النظر إليها وتقديرها[٩٠] » .

وكان منطق هوكر غير مباشر بدرجة كان معها غير مقنع كما كان علمه تقليديا قديما بحيث لم يواجه قضايا عصره ، كما كان يلتزم الحذر والتحفظ إلى حد شكر معه النظام وامتدحه فلم يدرك اللهفة على الحرية . وأقر البيوريتانز بفصاحته ، ولكنهم ساروا فى طريقهم واضطروا إلى الخيار بين وطنهم وعقيدتهم ، فهاجر كثير منهم ، مؤلبين الحركة البروتستانتية فى القارة على إنجلترا ، ورحبت هولنده بهم وقامت

المجامع الإنجليزية فى مدلبرج وليدن وامستردام ، وهناك عمل المنفيون وذرياتهم بجد وعلموا ووعظوا وكتبوا ، وبذلك مهدوا الطريق فى شغف هادئ لانتصاراتهم فى إنجلترا وتوفيقهم فى أمريكا .

٨ — اليزابث وايرلنده

غزا الإنجليز أيرلنده بين عامى ١١٦٩ — ١١٧١ ، ووضعوا أيديهم عليها منذ ذلك الوقت ، على أساس أنها ، بغير ذلك ، سوف تستخدمها فرنسا وأسبانيا كقاعدة لشن الهجمات على إنجلترا . وعند اعتلاء اليزابث العرش كان الحـكم الإنجليزى المباشر فى أيرلنده مقصورا على الساحل الشرقى ، حول دبلن وفى جنوبها «The Pale». أما باقى الجزيرة فكان يحكمه شـيوخ القبائل الايرلنديون الذين اعترفوا لإنجلترا بالسيادة الاسمية فقط . وعوق الصراع الدائم مع الانجليز الادارة القبلية التى كانت قد جلبت لايرلنده الفوضى والعنف ، ولكنها كذلك هيأت لهـا الشعراء والعلماء والقديسين ؛ وكانت الغابات والمستنقعات تغطى معظم الأرض ، وكان النقـل والمواصلات بمثابة مغامرات بطولية ، وعاش السكان الأصليون الكلتيون وعددهم نحو ٨٠٠,٠٠٠ نسمة ، فى بؤس على حافة الهمجية لا يكاد يسود فيهم قانون . وكاد الانجليز فى إقليم « البال » أن يكونوا على مثل هذه الحال من الفقر ، وازدادت مشكلة اليزابث سوءا بفسوقهم واختلاساتهم وجرائمهم ، ودأبوا على اغتصاب أموال حكومة لندن ، مثل دأبهم على سلب الفلاحين الايرلنديين . وأثناء حكم اليزابث أخرج المستوطنون الانجليز ملاك الأراضى والمستأجرين عن أراضيهم عن طريق « بيوع التصفية » ، وناضل من انتزعت أملاكهم إلى حد ارتكاب جريمة القتل ، وأصبحت حياة الغالبين والمغلوبين ، على حد سـواء ، جحيما لا يطاق من العنف والكراهية . وذهب سيسل نفسه إلى حد القول بأن « الفلمنكيين لم يكن لديهم ما يحملهم على الثورة على ظلم الأسبان ، مثل ما كان لدى الايرلنديين للثورة ضـد الحكم الانجليزى[٩١] » .

وقامت سياسة اليزابث فى أيرلنده على اقتناعها بأن أيرلنده الكاثوليكية سوف

تكون خطرا يهدد إنجلترا البروتستانتية ، فأمرت بفرض البروتستانتية فرضا كاملا فى أنحاء الجزيرة . وحرم القداس ، وأغلقت الأديرة وتوقفت الصلوات العامة خارج اقليم « البال » الضيق . وظل القساوسة مختفين عن الأنظار ، وأدوا الأسرار المقدسة لقليل من الناس خفية . وكادت الأخلاق أن تختفى بعد الحرمان من الدين والسلام ، وانتشر القتل والسرقة والزنى والاغتصاب والسلب ، وغير الرجال زوجاتهم دون تذمر أو وخز من الضمير ، واستصرخ الزعماء الايرلنديون البابا وملك أسبانيا لحمايتهم أو نجدتهم . وخشى فيليب الثانى أن يغزو أيرلنده حتى لا يغزو الانجليز الأراضى الوطيئة ويساعدوا ثوارها ، ولكنه أسس مراكز وكليات للاجئين الايرلنديين فى أسبانيا . وبعث بيوس الرابع إلى أيرلنده بجزويتى أيرلندى (١٥٦٠) هو دافيد ولف الذى جمع بين الشجاعة والاخلاص اللذين تميز بهما النظام الجزويتى . وأسس ولف بعثات سرية ، واستقدم أفرادا آخرين من الجزويت متنكرين واستعاد للكاثوليكية تقواها وآمالها ، وتحمس شيوخ القبائل وثاروا ، الواحد بعد الآخر ، ضد الحكم الانجليزى .

وكان أقوى الشيوخ هو شين (أى جون) أونل أوف تيرون . وكان رجلا يمكن أن تتغنى به الأساطير ويقاتل الأيرلنديون من أجله . ولقد دافع بضراوة عن لقبه (أونل) ضد أخ مغتصب . وتجاهل كل « الوصايا » وعبد الكنيسة ، وأحبط كل جهود الانجليز لإخضاعه . وغامر برأسه ليزور لندن ويكسب التحالف مع اليزابث وتأييدها له ، وعاد ظافرا ليحكم ألستر كما كان يحكم نيرون ، واشتبك فى حروب ضروس مع عشيرة « أودونل » المنافسة ، وأخيرا هزم أمامها (١٥٦٧) ، عندما التجأ إلى آل مكدونل ، وهم المهاجرون الاسكتلنديون الذين سبق له أن هاجم مستوطنتهم فى أنتريم .

وكان تاريخ أيرلنده بعد موته عرضا من الثورات والمذابح والمندوبين السامين (ممثلى الملكة) . وخدم سير هنرى سدنى (والد فيليب) اليزابث فى هذا المنصب الجحود تسع سنين . واشترك فى هزيمة أونل ، وتعقب رورى أو مور حتى الموت ، واستدعى فى ١٥٧٨ لأن انتصاراته كانت باهظة التكاليف . وفى عامين من تولى

والتر دفريه — وكان ارل اسكس من قبل — هذا المنصب ، اشتهر اسمه بمذبحة فى جزيرة راتلين بعيدا عن شاطىء انتريم . وكان الثوار هناك — وهم آل مكدونل السابق ذكرهم ، قد أبعدوا زوجاتهم وأطفالهم وشيوخهم ومرضاهم ، حرصا على سلامتهم ، مع حرس يحميهم . وأرسل اسكس قوة للاستيلاء على الجزيرة . وعرضت الحامية الاستسلام إذا سمح لها بالابحار إلى اسكتلنده . ورفض هـذا العرض ، واستسلمت الحامية . فأعمل السيف فيهم وفى النساء والأطفال والشيوخ والمرضى . وكان عددهم نحو ستمائة شخص (١٥٧٥)[٩٢]

أما الثورة العظمى التى قامت فى أثناء حكم الملكة فى أيرلنده فهى ثورة عشيرة جيرالدين فى مونستر Munster فان جيمس فتزموريس فتزجرالد وقع فى الأسر وهرب مرات كثيرة ، استطاع بعدها أن يعبر إلى القارة ، حيث شكل فرقة من الأسبان والايطاليين والبرتغاليين والفلمنكيين والانجليز الكاثوليك المهاجرين ، ونزل بهم على ساحل كرى Kerry (١٥٧٩) ، وكل الذى حدث أنه لقى حتفه فى قتال طارئ نشب بينه وبين عشيرة أخرى . وقاد الثورة من بعـده ابن عمه جيرالد فتزجيرالد — الارل الخامس عشر لدسموند Desmond ، ولكن عشيرة بتلر المجاورة بزعامة ارل أورمند البروتستانتى انحازت إلى إنجلترا . ونظم الكاثوليك فى اقليم البال جيشا وهزموا قوات نائب الملكة الجديد ، آرثر لورد جراى (١٥٨٠) . ولكنه بعد أن وصـلته الامدادات حاصر قوات دسموند الرئيسية برا وبحرا من نتوء جبلى فى خليج سمروك Smerwick . ولما وجد الثوار الباقون على قيد الحياة وعددهم نحو ٦٠٠ ، أنهم عاجزون عن الدفاع عن أنفسهم ضد مدفعية جراى ، استسلموا والتمسوا العطف والرحمة ؛ ولكن كان مصيرهم القتل ، رجالا ونساء ، اللهم إلا بعض الضباط الذين يمكن أن يعـدوا بدفع فدية كبيرة[٩٣] . وخربت مونستر الحرب بين الانجليز والايرلنديين . وبين العشائر بعضها البعض ، إلى درجة قال عنها كاتب حوليات أيرلندى : « لم يسـمع خوار بقرة أوصوت رجل يحرث الأرض طوال هذه السنة من دنجل إلى صخرة كاشل » . وكتب أحـد الانجليز (١٥٨٢) : « أودت المجاعة بحياة ٣٠ ألفا فى مونستر فى أقل من نصف عام ، غير

الذين شنقوا وقتلوا[٩٤] ، وكتب مؤرخ إنجليزى كبير « إن قتل أيرلندى من أهالى هذه المنطقة لم يكن ينظر إليه إلا على أنه قتل كلب مسعور[٩٥] » . وكادت مونستر أن تخلى من الايرلنديين وقســمت إلى مستعمرات ومزارع للمستوطنين الانجليز (١٥٨٦) ، ومنهم ادموند سبنسر الذى أكمل هناك رواية The Faerie Queen .

وثار الأيرلنديون اليائسون مرة أخرى فى ١٥٩٣ ، وانضمت قوات هيو أودونل إلى قوات هيو أونل ارل تيرون الثانى . ووعدت أسبانيا بالمساعدة ، حيث كانت آنذاك فى حرب مكشوفة مع إنجلترا . وفى فترة خلا فيها منصب نائب الملكة هزم أونل جيشا إنجليزيا هزيمة منكرة فى أرماغ ، واستولى على بلاكووتر ، وهو معقل إنجليزى فى الشمال (١٥٩٨) ، وأرسل قوة تعمل على اشعال نار الثورة من جديد فى مونستر ، ولاذ المستعمرون الانجليز بالفرار تاركين مزارعهم ، وعم الأمل والفرح أيرلنده ، بل إن الانجليز أنفسهم توقعوا أن تسقط دبلن نفسها .

تلك هى الأزمة التى عينت فيها اليزابث الشاب روبرت ديفريه ارل اسكس الثانى نائبا للملكة فى أيرلنده (مارس ١٥٩٩) . وزودته بجيش قوامه ٥٠٠ر١٧ رجل ، وهو أكبر جيش أرسلته إنجلترا إلى الجزيرة . وأمرته بمهاجمة أونل فى تيرون ، وألا يعقد صلحا إلا بعد استشارتها ، وألا يعود إلا بترخيص منها . وضيع ديفريه الوقت سدى أثناء الربيع ، وقام بمناوشات قليلة ، وفنى جيشه بسبب الأمراض ، ووقع مع أونل هدنة لم يكن لديه السلطة لإبرامها ، وعاد إلى إنجلترا فى سبتمبر ١٥٩٩ ، ليفسر للملكة أسباب اخفاقه . وسرعان ما خلفه فى منصبه شارل بلونت ، لورد مونتجوى الذى واجه فى بسالة وبراعة تكتل أونل الداهية مع أود ونل غير الهياب ، وأسطولا راسيا فى كنسال Kinsale يحمل جنوداً وأسلحة من أسبانيا . وغفرانا من البابا كليمنت الثامن لكل من يدافع عن أيرلنده وعن العقيدة . وأسرع مونتجوى إلى الجنوب ليقابل الأسبان ، فهزمهم فى معركة فاصلة إلى حد أن أونل استسلم ، وانهارت الثورة وصدر عفو عام أدى إلى سلام مزعزع (١٦٠٣) وفى تلك الأثناء كانت اليزابث قدماتت .

وانتقص سجل تاريخ اليزابث فى أيرلنده من مجــدها وعظمتها . لقد أساءت تقدير صعوبة الغزو فى بلد تكاد تنعدم فيه الطرق ، وسط شعب لا يربطه بالحياة

وبالوقار إلا حبه لبلده ولعقيدته . وألحت باللائمة على نوابها لاخفاقهم الذى كان من أسبابه تقتيرها هى ، حيث عجزوا عن دفع رواتب الجند الذين وجدوا أنه من الأربح لهم أن يسلبوا الإيرلنديين من أن يحاربوهم . وتذبذبت بين المهادنة والإرهاب ، ولم تلتزم قط سياسة واحدة إلى نقطة حاسمة . وأسست كلية ترنتى وجامعة دبلن (١٥٩١) ولكنها تركت الإيرلنديين أميين كما كانوا من قبل . وبعد انفاق عشرة ملايين من الجنيهات ، تمخض السلام الذى أمكن الوصول إليه عن بيداء قاحلة غطت نصف الجزيرة الجميلة ، وعن روح كراهية لا توصف سادت الجزيرة بأسرها ، تنتظر الفرصة الملائمة لتستأنف القتل والتخريب من جديد .

٩ — البزابث وأسبانيا

كانت المليكة فى خير حال لدى تدبير الأمر مع أسبانيا ، لقد مدت للملك فيليب حبل الأمل فى أن تكون زوجا له أو لابنه ، وحبل الأمل فى الظفر بانجلترا مقابل خاتم العرس . وتذرع فيليب بالصبر حتى نفر منه أصدقاؤه وابتعدوا عنه ، وقويت البزابث ، فلربما رجاه البابا والإمبراطور وملكة اسكتلندة المنكودة الطالع أن يغزو إنجلترا ، ولكنه كان شديد الارتياب فى فرنسا ، وكان يلاقى أشد المتاعب فى الأراضى الوطيئة ، إلى حد لا يجرؤ معه على أن يوجه ضربة لا يمكن التنبؤ بنتائجها فى لعبة السياسة . ولم يكن يضمن ألا تنقض فرنسا على الأراضى الوطيئة الأسبانية فى اللحظة التى يتورط فيها مع إنجلترا . وكان يتردد فى تشجيع الثورة فى أى بلد ، أو على طريقته فى التباطؤ الثقيل ، وثق بأن البزابث قد تجد فى الوقت المناسب مخرجاً أو آخر من المخارج التى وهبتها إيانا الطبيعة الحاذقة فى حياتنا ، ومع ذلك لم يتعجل تسليم عرش إنجلترا إلى فتاة اسكتلندية وقعت فى غرام فرنسا . ومنع لعدة سنوات ، البابا من إعلان قرار حرمان البزابث من الكنيسة . واحتمل فى صمت كئيب معاملتها للكاثوليك فى إنجلترا ، واحتجاجاتها على معاملة الانجليز البروتستانت فى أسبانيا ، وحافظ ، قرابة ثلاثين عاما ، على السلام ، بينما شن القراصنة الإنجليز ، بأمر من الحكومة ، الحرب على مستعمرات أسبانيا وتجارتها .

إن طبيعة الإنسان لتكشف عن نفسها فى سلوك الدول ، لأن هذه الدول ليست إلا أشخاصاً فى جملتها ، وهى تتصرف على نفس النسق الذى يحتمل أن الإنسان كان يتصرف عليه قبل أن يفرض الدين والقوة أخلاقاً وقوانين . وإن الضمير ليسير وراء رجل الشرطة ، ولكن لم يكن ثمة رجال شرطة من أجــل الدول . ولم يكن ثمة « وصايا عشر » على البحار ، وإنما قامت التجارة بإذن من القراصنة ، واستخدمت مراكب القرصنة الصغيرة مداخل الشاطىء الإنجليزى مخابئ لها ، ومنها انطلقت لتستولى على كل ما يمكن أن تستولى علية — وإذا كان الضحايا من الأسبان كان للإنجليز أن ينعموا بالحماسة الدينية التى يجدونها فى سلب ونهب رجل ينتمى إلى البابا . ودرب رجال جسورون من أمثال جون هوكنز وفرانسيس دريك عدداً كبيراً من القراصنة وكأن البحار ملك لهم . وتبرأت اليزابث منهم وأنكرتهم ، ولكنها لم تعكر صفوهم أو تزعجهم ، لأنها رأت فى القراصنة نواة أسطول لها ، وفى هؤلاء المغامرين أمراء البحر لها فى المستقبل : وصار ثغر الهيجونوت « لا روشــيل » مكانا أثيراً للقاء بين قوارب الإنجليز والهولنديين والهيجونوت ، « تنقض منه على تجارة الكاثوليك أياً كان العلم الذى ترفعه (٩٦) » ، وعلى تجارة البروتستانت أيضاً ، عند الحاجة

ومن هــذه القرصنة عبر هؤلاء المغامرون إلى تجارة الرقيق الرائجة التى كانت قد بدأها البرتغاليون قبل ذلك بقرن من الزمان . وكان المواطنون فى المستعمرات الأسبانية فى أمريكا يموتون تحت تأثير الكدح المضنى الذى لايتناسب مع بيئتهم أو مع المناخ الذى يعيشون فيه . واقتضى الأمر المطالبة بسلالة من العمال أشــد وأقوى . واقترح المدافع عن المواطنين : لاس كاساس ، نفسه ، على شارل الأول ملك أسبانيا أن زنوج أفريقية أقوى من هنود البحر الكاريبى ، ويجب نقلهم إلى أمريكا لينهضوا بالعمل الشاق من أجل الاسبانيين هناك(٩٧) . ووافق شارل ، ولكن فيليب استنكر هذه التجارة ، وأمر الحكام الأسبــان فى أمريكا أن يمنعوا استيراد العبيد إلا بترخيص من الإدارة المحلية فى أسبانيا (٩٨) — وهذا أمر عسير وباهظ التكاليف . وقاد هوكنز وهو يعلم أن بعض الحكام الأسبان يراوغون فى هذه القيود — ثلاث سفن إلى أفريقية (١٥٦٢) وقبض على ٣٠٠ من الزنوج ، وأخذهم إلى جزر الهند الغربية ، وباعهم

إلى المستوطنين الأسبان ، مقابل السكر والتوابل والعقاقير . ولما عاد إلى إنجلترا أغرى لورد بمبروك وآخرين غيره ، بأن يسهموا بأموالهم فى مغامرة ثانية ، وحرض اليزابث على أن تضع سفينة من أحسن سفنها تحت تصرفه ، وفى ١٥٩٤ انطلق جنوباً بأربع سفن ، وأمسك بأربعمائة من زنوج أفريقية ، وأبحر إلى جزر الهند الغربية ، وباع العبيد إلى الأسبان ، تحت التهديد بضربهم بمدافعه إذا هم رفضوا الشراء . وعاد إلى إنجلترا حيث رحبوا به بوصفه بطلا ، واقتسم الغنائم بينه وبين أنصاره وبين الملكة التى حصلت على ٦٠ ٪ نظير استثماراتها (٩٩) . وفى ١٥٦٧ أعارته سفينتها « يسوع » . وأبحر بها مع أربع سفن أخرى إلى أفريقية ، ووضع يده على كل ما أمكنه من العبيد، وباعهم فى أمريكا الاسبانية بمائة وستين جنيها للواحد ، وفى طريق عودته ، ومعه غنمية تقدر قيمتها بنحو مائة ألف جنيه ، اعترضه أسطول أسبانى بعيداً عن شاطىء المكسيك : عند سان جوان دى ألوا ، ودمر أسطوله فيما عدا مركبين صغيرين عاد فيهما هوكنز إلى إنجلترا صفر اليدين (١٥٦٩) ، بعد أن لاقى آلاف الأهوال والأخطار .

وكان ممن بقوا على قيد الحياة بعد هذه الرحلة ، أحد أقرباء هوكنز الصغار ، وهو فرنسيس دريك . ولما كان قد تربى على نفقة هوكنز ، فقد قيل عنه إنه من سكان البحر . وفى سن الثانية والعشرين تولى إمرة سفينة فى رحلة هوكنز الفاشلة . وفى سن الثالثة والعشرين ، بعد أن فقد كل شىء إلا اشتهاره بالبسالة ، أقسم أن ينتقم من الأسبان ، وفى سن الخامسة والعشرين حصل من اليزابث على براءة بالقرصنة . وفى ١٥٧١ ، وهو فى سن الثامنة والعشرين ، أسر قافلة من السفن الإسبانية محملة بسبائك الفضة قرب شاطىء بنما . وعاد إلى إنجلترا ثريا منتقما من أسبانيا ، وأخفاه مستشارو اليزابث عن الأنظار لمدة ثلاث سنوات ، على حين كانت أسبانيا تطالب برأسه . ثم جهز له لستر وولسنهام وهاتون أربع سفن صغيرة يبلغ مجموع حمولتها ٣٧٥ طناً ، أبحر بها من بليموث فى ١٥ نوفمبر ١٥٧٧ ، فيما صار فيما بعد ثانى طواف حول الكرة الأرضية . ولما خرج أسطوله من مضايق ماجلان إلى المحيط الهادى واجهته عاصفة هوجاء . أطاحت بالسفن بعيداً بعضها عن بعض : ولم يلتئم شملها ثانية قط ، وسار

دريك وحده بالسفينة « بليكان » على الساحل الغربى للأمريكتين إلى سان فرنسيسكو مهاجما كل السفن الأسبانية فى طريقه ، ثم انعطف غرباً فى جرأة وبسالة ، إلى الفلبين وأبحر من جزر ملقاً إلى جاوه ، وعبر المحيط الهندى إلى أفريقية ، وحول رأس الرجاء الصالح صعداً فى المحيط الأطلسى ، ليصل بليموث فى ١٦ سبتمبر ١٥٨٠ ، أى بعـــد مغادرتها بأربعة وثلاثين شهراً . ومعه من الأرباح ٦٠٠,٠٠٠ جنيه ســلم الملكة منها ٢٧٥,٠٠٠ (١٠٠) ، وحيته إنجلترا على أنه أعظم ملاح وقرصان فى عصره وتناولت اليزابث العشاء على ظهر سفينته ، ومنحته لقب فارس .

ومن الوجهة الفنية ، كانت انجلترا طوال هذا الوقت فى سلام مع أسبانيا . وكم قدم فيليب إلى الملكة من احتجاجات ، فقدمت هى الاعتذارات ، وتشبثت بغنائمها ، وأشارت إلى أن الملك نفسه كان هو أيضاً يخرق « القانون » الدولى بإرساله المساعدات إلى الثوار فى أيرلنده . ولما هدد السفير الأسبانى بالحرب ، هددت هى بالزواج من ألنسون وبالتحالف مع فرنسا . ولما كان فيليب مشغولا بغزو البرتغال ، فقد أصدر أمره إلى سفيره بالإبقاء على السلام . وكما هى العادة ، انضم حسن حظ الملكة إلى عبقريتها الموسومة بالتردد ، فماذا كان عساه يحدث لها لو لم تشـــطر الحرب الأهلية فرنسا الكاثوليكية إلى شطرين ، ولو لم يرهق الأتراك بغاراتهم المتكررة الإمبراطور والنمسا الكاثوليكية ، ولو لم تكن أسبانيا متورطة مع البرتغال وفرنسا والبابا ورعاياها الثائرين فى الأراضى الوطيئة ؟

ولعدة سنوات كانت اليزابث تناور وتداور فى مكر وخداع فى الأراضى الوطيئة ، وتغير سياستها وفق الظروف المائعة . ولم تكن أية اتهامات بالتردد أو الخيانة تجعلها تسير فى طريق مستقيم واحد لا تحيد عنه . ولم تكن تحب الكلفنية فى الأراضى الوطيئة أكثر من حبها للبيوريتانية فى إنجلترا ، كما لم تكن تحب التحريض على الثورة أكثر من حب فيليب له . وأدركت أهمية التجارة المنتظمة مع الأراضى الوطيئة للاقتصاد الإنجليزى ، فعملت على تأمين الثورة ومساعدتها هناك بشكل يحفظها من الاستسلام لأسبانيا أو الارتماء فى أحضان فرنساء ، وما دامت الثورة قائمة ، انشغلت أسبانيا بها بعيداً عن إنجلترا .

وحانت لحظة مباركة ابتسم فيها الحظ السعيد للملكة ، فهيأ لها الفرصة لمساعدة الثوار مقابل كسب مغر يدخل إلى خزائنها . ذلك أن القراصنة الإنجليز ساقوا فى ديسمبر ١٥٨٨ إلى موانى القنال الإنجليزى عدة سفن أسبانية كانت تحمل ١٥٠,٠٠٠ جنيه لدفع رواتب جنود دوق ألفا فى الأراضى الوطيئة ، ورأت اليزابث — وكانت قد ترامت إليها لتوها أنباء الكارثة التى وقعت لهوكنز فى سان جوان دى ألوا — رأت أن العناية الإلهية هيأت لها هذه الفرصة لتعويض إنجلترا عما فقدته بسبب تلك الهزيمة . وسألت الأسقف جول Jewel : هل لها حق فى الأموال الأسبانية ؟ فحكم بأن الرب ، وهو بروتستانتى قطعاً ، يسره أن يرى البابويين يسلبون . وفوق ذلك ، علمت الملكة أن فيليب كان قد اقترض هذا المبلغ من مصارف جنوه ، ورفض الاعتراف بملكيته حتى يصل سالماً إلى أنتورب . ونقل المال إلى خزائن الملكة ، وجأر فيليب بالشكوى وقبض دوق ألفا على كل ما وصلت إليه يداه من رعايا إنجليز وبضائع إنجليزية فى الأراضى الوطيئة ، واعتقلت اليزابث كل الأسبان فى إنجلترا . ولكن مقتضيات التجارة أعادت بالتدريج العلاقات الطبيعية بين الطرفين . وأبى دوق ألفا أن يستحث اليزابث على التحالف مع الثوار ، والتزم فيليب الهدوء والصبر ، واحتفظت اليزابث بالمال .

واستمر السلم المزعزع يجرر أذياله ، إلى أن ورطت الحملات الإنجليزية المتكررة على السفن الأسبانية وصرخات أصدقاء مارى ستيوارت المسجونين ، نقول ورطت هذه وتلك فيليب فى مؤامرة لقتل الملكة(١٠١) ، وكانت اليزابث مقتنعة باشتراكه فيها ، فطردت السفير الأسبانى (١٥٨٤) وساعدت الثوار علانية . ودخلت الجيوش الإنجليزية فلشنج ، بريل ، أوستند ، سليس Sluys ، وأرسل لستر ليتولى قيادتها . ولكن الأسبان هزموهم فى زوتفين Zutphen (١٥٨٦) . ولكن الآن ، على الأقل بلغ السيل الزبى ، وحانت ساعة الفصل . فقد استعد فيليب واليزابث بكل ما أوتيا من قوة للحرب التى قد تحدد لأيهما تكون السيادة على البحار ، كما تحدد ديانة إنجلترا ، وربما ديانة أوربا ، وربما ديانة الدنيا الجديدة .

وأثرت أسبانيا ثراء واسعاً بفضل كولمبس والبابا اسكندر السادس وقرارات التحكيم التى أصدرها (١٤٩٣) والتى منحت وطنه أسبانيا كل الأمريكتين تقريباً :

وبهذه الرحلات والمراسيم لم يعد البحر المتوسط مركز حضارة الرجل الأبيض وقوته، وبدأ عصر الأطلنطى . ومن بين دول أوربا العظمى الثلاث المطلة على المحيط ، كانت فرنسا مغلولة اليدين بسبب الحرب الأهلية فلم تشارك فى الصراع الدائر حول السيادة على المحيطات أما إنجلترا وأسبانيا فقد استمر الصراع بينهما ، وصارت كل منهما تمتد نحو الأرض الموعودة مثل الصخرة الناتئة فى البحر . وبدا من العسير زحزحة أسبانيا عن مكان الصدارة والغلبة فى أمريكا ، فما وافت ١٥٨٠ حتى كان لها فيها مئات المستعمرات ، على حين لم يكن لإنجلترا شىء قط . وتدفقت الثروات الهائلة من مناجم المكسيك وبيرو إلى أسبانيا ، وبدا قدراً محتوماً أن تحكم أسبانيا نصف الكرة الغربى ، وتدخل الأمريكيتين فى نطاق كيانها السياسى والدينى .

ولم يكن دريك راضياً عن هذا المشهد الذى توقعه ، أو قانعاً به . وكانت الحرب من أجل السيطرة على العالم ، لفترة من الوقت ، محصورة بينه وبين أسبانيا . وفى ١٥٨٥ أمده أصدقاؤه والملكة بالمال اللازم ، فجهز ثلاثين سفينة انقض بها على الإمبراطورية الأسبانية . ودخل مصب نهر فيجو فى شمال غرب أسبانيا ، وأعمل السلب والنهب فى ثغر فيجو ، وعرى تمثالا للعذراء ، وحمل معه المعادن النفيسة والملابس الثمينة من الكنائس . وأبحر إلى جزر الكنارى والرأس الأخضر واجتاح أكبرها ، وعبر إلى الأطلنطى ، وأغار على سان دومنجو ، وقبض ثلاثين ألفاً من الجنيهات ، منحة أو رشوة ، لئلا يدمر مدينة قرطاجنه فى كولمبيا . وسلب وأحرق مدينة سانت أوجستين فى فلوريدا ، وعاد إلى إنجلترا (١٥٨٦) ، لا لشىء إلا أن الحمى الصفراء أودت بثلث بحارته .

تلك كانت حرباً دون أن تحمل اسم الحرب وفى ٨ فبراير ١٥٨٧ ، أعدمت الحكومة الإنجليزية ملكة اسكتلنده ، وهنا أبلغ فيليب البابا سكستس الخامس أنه على استعداد لغزو إنجلترا وخلع اليزابث . وطلب إليه الإسهام بمليونى كراون ذهباً . وعرض سكستس ستمائة ألف لا تدفع لأسبانيا إلا إذا وقع الغزو فعلا . وأصدر فيليب أمره إلى خير قواده ، أمير البحر مركيز سانتا كروز . بإعداد أكبر أسطول عرف فى التاريخ حتى ذاك الوقت ، وتجمعت السفن أو بنيت فى لشبونه وأعدت المخازن والمستودعات فى قادس .

وألح دريك على اليزابث لتزوده بأسطول يدمر الأرمادا قبل أن يتخذ وضعا تتعذر معه مقاومته ، فوافقت ، وفى الثانى من أبريل ١٥٨٧ انطلق مسرعا من بليموث ومعه ثلاثون سفينة ، قبل أن تغير الملكة رأيها . وهذا ما حدث فعلا ، ولكن بعد فوات الأوان ، فلم تدركه . وفى ١٦ أبريل أسرع بأسطوله إلى ميناء قادس ، وأجرى مناورة بعيدا عن سرمى مدفعية الشاطىء ، وأغرق بارجة أسبانية ، وهاجم سفن النقل والتموين ، واستولى على حمولتها ، وأشعل النار فى كل سفن العدو ، وارتحل دون أن يمسه أذى . وألقى مراسيه بالقرب من لشبونة وتحدى سانتا كروز أن يخرج لملاقاته . فأبى المركيز أن يفعل ، لأن سفنه لم تكن قد زودت بالسلاح بعد ، فسار دريك شمالا إلى لاكورونا واستولى على مؤن وذخائر كثيرة كدست هناك ، ثم إلى جـــزر الآزور حيث استولى على سفينة أسبانية ضخمة (غليون) ، وعاد بها إلى إنجلترا بين سفنه . وعجب الأسبان أنفسهم لجرأته ومهارته البحرية وقالوا « لو لم يكن لوثريا ، بروتستانيا ، لما كان له نظير فى العالم[١٠٢] » .

وأعاد فيليب بناء أسطوله ، فى صبر ، ومات المركيز سانتا كروز فى يناير ١٥٨٨ ، فعين مكانه دوق مدينا — سيدونيا ، وهو نبيل يتميز بكرم المحتد أكثر منه بالكفاية والقدرة . ولما اكتمل الأرمادا آخر الأمر ، كانت عدة سفنه ١٥٠ سفينة حمولة كل منها فى المتوسط ٤٤٥ طنا ، وكان نصفها من سفن البضائع ، ونصفها الآخر من البوارج الحربية ، مزودة بثمانية آلاف وخمسين بحارا ، وأبحر عليها تسعة عشر ألف جندى . وفكر فيليب وقواده فى اتباع الطريقة القديمة فى الحروب البحرية — وهى القفز فوق ظهر سفن العدو . ومصارعة الرجل للرجل ، على حين كانت خطة الإنجليز أن يغرقوا سفن العدو بمن احتشد عليها من بحارة ، واطلاق النيران عليها دفعة واحدة من الجوانب ، وأصدر فيليب تعليماته إلى الأسطول بألا يجد فى طلب السفن الإنجليزية ويهاجمها ، بل لا بد من الاستيلاء على رأس جسر ساحلى فى إنجلترا ، والعبور إلى الفلاندرز ، لينقل إلى المراكب الثلاثون ألف جندى الذين كانوا قد أعدهم هناك دوق بارما ، والسير إلى لندن بعد الحصول على هذا المدد . وفى نفس الوقت هرب إلى إنجلترا (أبريل ١٥٨٨) رسالة دبجها كاردينال ألن

يأمر فيها الكاثوليك بالانضمام إلى الأسبان لخلع مليكتهم « المغتصبة المرطيقة البغى[١٠٣] » . ورافق الأرمادا للمعاونة فى إعادة الكاثوليكية إلى إنجلترا مئات من الرهبان تحت رياسة النائب الأسقفى العام لحاكم التفتيش[١٠٤] . وهزت روح دينيــة مخلصة مشاعر البحارة الأسبان وسادتهم ، وآمنوا إيمانا عميقا مخلصا بأنهم كانوا يؤدون مهمة مقدسة ، فأبعدوا البغايا ، وانقطع التجديف والدنس ، وامتنع القمار ، وفى صباح اليوم التاسع والعشرين من مايو ١٥٨٨ ، حين أقلع الأسطول من لشبونه ، تناول القربان المقدس كل من كان على ظهر السفن ، وأقامت كل أسبانيا الصلوات .

وواتت الريح البزابث ، على حين واجه الأرمادا عاصفة مدمرة ، فالتجأ إلى ميناء لاكورونا ، حيث ضمد جراحه ، وأقلع ثانية (١٢ يوليه) . وانتظرته إنجلترا فى مزيج محموم من الآراء المنقسمة والاستعدادات المتعجلة والعزيمة اليائسة ، والآن حانت الساعة لتنفق البزابث الأموال التى كانت قد كنزتها فى ثلاثين عاما من التقتير والتهور والشرور ، وهب شعبها فى شجاعة وتصميم ، كاثوليك وبروتستانت على السواء ، لنجدتها ، وتدرب الحرس الوطنى المتطوع فى المدن ، وأمد تجار لندن الفرق بالمال اللازم ، وطلب إليهم أن يجهزوا خمس عشرة سفينة ، فأمدوها بثلاثين . وكان قد مضى على هوكنز عشر سنوات وهو يبنى السفن لبحرية المملكة . وأصبح دريك الآن نائبا لأمير البحر ، وأتى قراصنة البحر بسفنهم فى انتظار اللقاء الحاسم . وفى أوائل يولية ١٥٨٨ احتشد فى بليموث للقاء العدو القادم ، اثنتان وثمانون سفينة كاملة العدة ، تحت امرة شارل ، لورد هوارد افنجهام ، أمير البحر العــام فى إنجلترا .

وفى ١٩ يولية(*) شوهدت طلائع الأرمادا عند مدخل القنال الإنجليزى . وأقلع الأسطول المدافع من بليموث ، وفى اليوم الحادى والعشرين بدأ العمل . وانتظر الأسبان حتى يقترب الإنجليز منهم إلى حد يكفى ليناوش الواحد منهم الآخر ، ولكن

(*) التقويم القديم ، وهو أسبق بعشرة أيام من الجريجورى الذى اقتبس فى أسبانيا ١٥٨٢ ، ولكن لم يؤخذ به فى إنجلترا إلا فى ١٧٥١ .

على العكس من ذلك ، فإن السفن الإنجليزية الخفيفة المبنية خصيصا للمياه الضحلة والمسالك الضيقة ، انطلقت مسرعة حول البوارج الأسبانية الثقيلة ، تمطرها بوابل من النيران من كل جانب ، وكانت سطوح المراكب الأسبانية عالية ، وكانت مدافعها تطلق قذائفها على بعد مرتفع فوق السفن الإنجليزية محدثة بها أقل الأضرار ، وجرت السفن الإنجليزية تحت النيران ، وتركت قدرتها على المناورة وسرعتها ، الأسبان عاجزين حيارى مضطربين . وعندما جن الليل هرب الأسبان فى اتجــاه الريح ، تاركين احدى سفنهم ليأخذها دريك ، وأخرى نسفها أحد رجال المدفعية الألمان المتمردين ، ووقع حطامها فى أيدى الإنجليز . ولحسن الحظ كانت كلتاهما تحمل مؤنا وذخائر سرعان ما نقلت إلى أسطول الملكة . وجاء مزيد من المؤن والذخائر . ولـكن الانجليز لم يكن لديهم منها حتى الآن إلا ما يكفى لقتال يوم واحد فقط . وفى الخامس والعشرين ، وبالقرب من جزيرة وايت ، قاد هوارد هجوما ، وسارت سفينة قيادته إلى قلب الأرمادا ، وتبادلت النار مع كل بارجة مرت بها ، وحطم تفوق النار الانجليزية الروح المعنوية لدى الأسبان . وكتب مدينا سيدونيا فى تلك الليلة إلى دوق بارما : « ان العدو يطاردنى . إنهم يرموننى بالنيران من الاصباح إلى المساء ، ولـكن السفن لن تلقى مراسيها . . . وليس ثمة من علاج ، فهم سريعو الحركة ونحن بطيئون[١٠٥] » . وتوسل إلى بارما أن يرسل إليه ذخيرة ومددا ، ولـكن ثغور دوق بارما كانت تحاصرها وتعترض سبيلها السفن الهولندية .

وفى اليوم السابع والعشرين ألقى الأرمادا مراسيه فى مداخل كاليه . وفى الثامن والعشرين أشعل دريك النار فى ثمان سفن صغيرة غير ضرورية يمكن الاستغناء عنها ، ووضعها فى مهب الريح لتسير وسط الأسطول الأسبانى . وتوجس مدينا سيدونيا شرا ، فأمر سفنه بالخروج إلى عرض البحر . وفى اليوم التاسع والعشرين هاجمها دريك فى جرافلين ، بعيدا عن الشاطىء الفرنسى ، فى حرب حقيقية . وقاتل الأسبان فى بسالة ، ولـكن كان يعوزهم المدفعية والبراعة فى فن الملاحة . وظهر أسطول هوارد وصب الأسطول الإنجليزى بكامل عدده من النيران على الأرمادا ما أعجز بعض سفنه عن العمل وأغرق بعضها الآخر . واخترقت طلقات الإنجليز أبدان سفن

الأرمادا على الرغم من أن سمكها يبلغ ثلاثة أقدام ، وقتل آلاف من الأسبان ، وشوهدت الدماء تسيل من ظهور السفن إلى البحر . وما أن غربت شمس ذلك النهار حتى كان قد فقد من الأسبان أربعة آلاف رجل وجرح أربعة آلاف آخرون ، وأمكن بصعوبة الاحتفاظ بالسفن الأسبانية الباقية عائمة على سطـــح الماء . ولما رأى مدينا سيدونيـــا أن بحارته لا يستطيعون احتمال شيء بعد ما حدث ، أصدر أوامره بالانسحاب . وفى اليوم الثلاثين من يولية حملت الريح حطام الأرمادا إلى بحر الشمال . وتبعه الإنجليز شمالا إلى مصب نهر فورث ؛ وكانت تعوزهم الأغذية والذخيرة فعادوا إلى مراسيهم ، وكانوا قد فقدوا ستين رجلا ، ولم يفقـــدوا سفينة واحدة .

أما بالنسبة لبقايا الأرمادا ، فلم يكن ملاذ أقرب من أسبانيا نفسها . فقد كانت اسكتلنده معادية ، وثغور أيرلنده فى أيدى القوات الإنجليزية . واستماتت السفن المصابة والرجال الذين يتضورون جوعا فى شق طريقهم حول الجزر البريطانية ، وكانت المياه هائجة والريح عاصفة ، فتحطمت الصوارى وتمزقت الأشرعة ، وما كان يمر يوم حتى يغرق مركب أو يغادره ملاحوه ، وألقيت جثث ألوف فى البحر . وتحطمت سبع عشرة سفينة على شواطئ أيرلنده الوعرة . وفى سليجو Sligo وحدها ظهر على شاطئها الرملى جثث ١١٠٠ من الغرقى الأسبان . ونزل بعض البحارة إلى البر فى أيرلنده يلتمسون بعض الطعام والشراب ، فلم يصيبوا شيئاً ، وبلغ المئات منهم من الهزال حدا لم يستطيعوا معه القتال ، فكان مصيرهم الذبح بأيدى أشباه المتوحشين من سكان السواحل من كل جنس . ومن المائة والثلاثين سفينة التى كانت قد غادرت أسبانيا أول الأمر ، عاد ٥٤ فقط ، ومن السبعة والعشرين ألفا من الرجال عاد عشرة آلاف معظمهم جريح أو مريض . ولما كان فيليب يحاط علما بأنباء هذه الكارثة الطويلة الأمد يوما بيوم ، فقد حبس نفسه فى صومعة فى الاسكوريال ، ولم يكن أحد يجرؤ على التحدث إليه . أما البابا سكستس الخامس فقد دفع بأنه ما دام لم يحدث غزو على إنجلترا قط ، فإنه لن يرسل إلى أسبانيا المفلسة بدوكات واحد .

وكانت اليزابث حريصة على المال قدر حرص البابا عليه . وكانت يقظة إلى أية اختلاسات فى البحرية ، وطالبت بحساب عن كل شلن انفقته البحرية والجيش قبل المعركة وفى اثنائها وبعدها . وعوض كل من هوارد وهوكنز من جيبه الخاص عن أى تناقض أو تضارب لم يستطيعا له تفسيرا [١٠٦] . وكانت اليزابث تتوقع حربا طويلة الأمد ، ومن ثم كانت تصرف للملاحين والجنود مؤنا قليلة ورواتب ضئيلة ، وانتشر الآن مرض فتاك ، أشبه بالتيفود ، بين الرجال العائدين ، قضى فى بعض المراكب على نصف من فيها من الملاحين أو أقعدهم عن العمل ، حتى تعجب هوكنز قائلا : ماذا كان عساه أن يكون مصير إنجلترا لو أن الوباء سبق العدو ؟

واستمرت الحرب البحرية حتى موت فيليب ١٥٩٨ . وسار دريك بأسطول وخمسة عشر ألفا من الرجال لمساعدة البرتغاليين فى ثورتهم ضد الأسبان (١٥٨٩) ولكن البرتغاليين أحسوا ببغض أكثر للبروتستانت منه للأسبان . وأفرط الإنجليز فى احتساء النبيذ الذى استولوا عليه إلى حد الثمل ، وباءت الحملة بالفشل والعار . وقاد لورد توماس هوارد أسطولا إلى جزر الآزور ليعترض طريق الأسطول الأسبانى الذى يحمل الفضة والذهب إلى أسبانيا ، ولكن أسطول فيليب الجديد أرغم السفن الإنجليزية على الفرار ، فيما عدا السفينة « ريفنج » **Reverige** التى أمسكوا بها تتسكع خلف سائر السفن ، فقاتلت قتالا بطوليا حتى تغلب عليها الأسبان (١٥٩١) . وقام دريك وهوكنز بحملة أخرى على جزر الهند الغربية (١٥٩٥) ولكنهما تنازعا وماتا فى الطريق . وفى ١٥٩٦ أرسلت اليزابث أسطولا آخر لتدمير السفن فى الثغور الأسبانية مثل قادس ، فوجد هناك ١٩ بارجة حربية و ٣٦ سفينة تجارية ، ولكنها جميعا هربت إلى عرض البحر ، على حين أعمل اسكس السلب والنهب فى المدينة . وأخفقت هذه الحملة كذلك ولكنها أظهرت من جديد سيادة إنجلترا على الأطلنطى .

وكان لهزيمة الأرمادا أثرها على كل شىء تقريبا فى مدنية أوربا الحديثة . فكانت بداية تغيير حاسم فى تكتيك البحرية ، وأخلى القفز إلى سفن العدو ومصارعة الرجل الرجل مكانيهما للتراشق بالمدافع من جوانب السفينة وظهرها . وساعد

إضعاف أسبانيا الهولنديين على نيل استقلالهم ، وارتقى بهنرى الرابع إلى عرش فرنسا ، وفتح أمريكا الشمالية أمام المستعمرات الإنجليزية . وبقيت البروتستانتية وقويت . وتضاءل شأن الكثلكة . وكف جيمس السادس ملك اسكتلنده عن مصادقة البابوات ومجاملتهم . ولو أن الأرمادا بنى بطريقة أحكم ، وسارت قيادته على وجه أكمل ، فلربما كانت الكاثوليكية قد استعادت إنجلترا ، وسادت أسرة جيز فى فرنسا . وخضعت هولنده ، ولم يظهر قط شكسبير وبيكون وهما رمزان لإنجلترا الظافرة وثمرتان من نتاجها ، ولربما كان على النشوة الغامرة فى عهد اليزابث أن تواجه محكمة التفتيش الأسبانية . وهكذا تحدد الحروب مصير اللاهوت والفلسفة ، كما أن القدرة على القتل والتدمير شرط أساسى للحصول على الترخيص بالحياة والبناء .

١٠ — رالى واسكس

على الرغم من أن سيسل وولسنهام ودريك وهوكنز كانوا الأدوات المباشرة للمجد والنصر ، إلا أن اليزابث هى التى تجسدت فيها إنجلترا الظافرة المنتصرة ، وكانت وهى فى سن الستين فى ذروة الشهرة والقوة والسلطان ، وتجعد وجهها قليلا ، وتساقط شعرها ، وفقدت بعض أسنانها ، وأسود البعض الآخر ، ولكنها فى مجوهراتها التى تبعث الرهبة فى النفوس ، من غطاء الرأس المخرم وطوق الرقبة المكشكش المهفهف ، والأكمام المحشوة ، والتنورة المطوقة وكلها تتألق بالجواهر واللآلئ ، وقفت مزهوة رافعة الرأس ، ملكة بلا منازع . وتذمر البرلمان من أساليبها الملكية ولكنه خضع واستسلم ، وقدم المستشارون القدامى نصائحهم فى رعدة الشباب الغض الذى يطلب يد المرأة ، ولكن الطلاب الشبان الذين انطلقت ألسنتهم بالتمجيد والتسبيح أحاطوا بالعرش . وقضى لستر وولسنهام نحبهما ، وسرعان ما يبتلع البحر دريك وهوكنز ، وقد ظننا أنهما سيحكمانه . أما سيسل الذى أطلق عليه بيكون(١٠٧) « نصف الإله الذى يحمل السماء على كتفيه Atlas فى هذه الدولة » ، فقد كبرت الآن سنه ، وكان يئن ويذبل بداء النقرس ، وكان على اليزابث الآن أن تتولى تمريضه فى مرضه الأخير وتطعمه لقيماته الأخيرة بيدها(١٠٨) واعتراها الحزن لفقدان

هؤلاء الرجال ، ولكنها لم تدع هذا كله يشوه فخامة جلالتها أو يقلل من حيوية بلاطها ومرحه ونشاطه .

وتألقت حولها وجوه جديدة ، جلبوا إليها شبابا بديلا . وكان كرستوفر هاتون رشيقا لدرجة أنها عينته مستشارا (١٥٨٧) . وظلت مترددة تسع سنوات فى قبول نصيحة برجلى فى تعيين ابنه الحصيف الأحدب روبرت سيسل وزيرا لها . وكانت أكثر استساغة لقسمات والتر رالى الجميلة وقعقعة سيفه ، ولم تعبأ بشكوكه الدينية الخاصة ، فقد كانت لها هى الأخرى شكوكها الخاصة كذلك .

ويكاد رالى أن يكون رجل عصر اليزابث الكامل : سيد مهذب ، جندى ، ملاح ، مغامر ، شاعر ، فيلسوف ، خطيب ، مؤرخ ، شهيد ، فكان « الرجل العالمى » الذى صورته أحلام النهضة الأوربية ، والذى جمع العبقرية من أطرافها ، ولكنه لم يدع الجزء قط ليكون كلا . ولد رالى فى ديفونشير فى ١٥٥٢ ، والتحق بجامعة اكسفورد فى ١٥٦٨ ، ولكنه فر من الكتب إلى الحياة ، وانضم إلى مجموعة شهمة من المتطوعين ذوى الأصل الكريم ، عبروا البحر إلى فرنسا ليناضلوا فى صفوف الهيجونوت . وربما كانت الأعوام الستة التى قضاها فى تلك الحروب قد علمته شيئاً من العنف المجرد من المبادئ الخلقية فى العمل والجرأة غير المكترثة فى الحديث مما شكل مصيره فى مستقبل أيامه ، وعاد إلى إنجلترا ١٥٧٥ وألزم نفسه بدراسة القانون ، ولكنه غادر البلاد ثانية فى ١٥٧٨ متطوعا لمساعدة الهولنديين ضد الأسبان . وبعد ذلك بعامين كان فى أيرلنده رئيسا فى الجيش الذى أخمد ثورة دسموند ، ولعب دورا فعالا فى مذبحة سمروك Smerwick . وكافأته اليزابث باثنى عشر ألف فدان فى أيرلنده ، وبضمه إلى بلاطها . ولابتهاجها بقوامه ومديحه لها وتملقه إياها(*) وذكائه . أصغت إليه فى شك أقل ما اعتادت أن تنظر أو تسمع به إلى الناس ، عندما اقترح عليها إنشاء مستعمرات إنجليزية فى أمريكا ، ومنحته امتيازا بذلك ، وفى ١٥٨٤ أرسل — ولكنه لم يصحب — أول حملة من عدة حملات ، حاولت

(*) أن قصة سجوده تحت قدميها ومعطفه ممرغ فى الوحل ، قصة خيالية .

تأسيس مستعمرة فى فرجينيا ، ولكنها أخفقت ، وبقى الاسم تذكارا خالدا لعدم وصول الملكة إلى مبتغاها ، وأثبتت اليزابث تركمورتون Throckmon tor — وهى وصيفة شرف فى البلاط — أنها أقرب منالا ، وارتضت رالى عشيقا لها ، وتزوجت منه سرا (١٥٩٣) . ولما كان محظورا على أى عضو فى البلاط أن يتزوج دون موافقة الملكة ، فان العروسين المتيمين قضيا شهر عسل غير متوقع فى برج لندن (السجن) . وظفر رالى باطلاق سراحه — مع اقصائه عن البلاط — بارساله كتابا إلى برجلى يصف فيه الملكة بأنها مزيج من كل ألوان الكمال والقداسة فى التاريخ .

وآوى رالى إلى ضيعته فى شربورن ، ونظم رحلات واكتشافات ، وتلاعب بالإلحاد ، ونظم شعرا كان لكل بيت فيه رنين متميز ولذع خاص . ولكن عامين من الهدوء والدعة استنفدا ثباته واستقراره ، وبفضل مساعدة أمير البحر هوارد وروبرت سيسل جهز خمس سفن وأقلع بها إلى أمريكا الجنوبية بحثا عن ألدرادو — وهى أرض أسطورية فيها قصور من ذهب ، وأنهار يجرى فيها الذهب ، ونساء محاربات (أمازونات) لا تذبل مفاتنهن . وسار مائة ميل صعدا فى نهر أورينوكو ، ولكنه لم يعثر على نساء محاربات ولا على ذهب ، ولقد حيرته وعوقته مساقط المياه وسرعة جريانها فعاد إلى إنجلترا صفر اليدين ، ولكنه روى كيف أن السكان الأمريكيين دهشوا وأعجبوا بجمال الملكة حين أراهم صورتها . وسرعان ما أعيد إلى البلاط . وأكد بيانه الفصيح عن « امبراطورية جويانا الشاسعة الغنية الجميلة » نقول أكد من جديد إيمانه بأن الشمس لا تشرق على أية ثروات فى أى جزء فى العالم » . أكثر منها فى إقليم الأورينوكو » . وألح دون كلل أو ملل فى اثارة الرغبة فى انتزاع ثروات أمريكا من أيدى الأسبان إلى أيدى الإنجليز ، وشرح نظرية سيادة البحار أكمل شرح ، « أن من يسيطر على البحار يسيطر على التجارة ، ومن يسيطر على تجارة العالم يسيطر على ثرواته ، ومن ثم يسيطر على العالم نفسه[١٠٩] » .

وفى ١٥٩٦ انضم إلى الحملة على قادس . وقاتل ببسالة — كما قال ، وأصيب بجرح فى رجله . وعاملته الملكة يومئذ « معاملة كريمة » وعينته قائدا للحرس . وفى ١٥٩٧ قاد قسما من الأسطول الذى كان تحت امرة اسكس إلى جزر الآزور ، وفصلت

العاصفة بينهما . ولكن أسطول رالى التحم مع العدو وهزمه ، ولكن اسكس لم يغفر له قط انتزاع قصب السبق منه .

وفاق روبرت دفريه ارل اسكس الثانى ، حتى رالى نفسه ، فتنة وسحرا . وكان له طموح رالى وحيويته وزهوه ، ويزيد عنه حدة فى الطبع ، ويقل عنه ذكاء ، ويفوقه كثيرا فى الكرم والنبل . وكان رجل عمل مفتونا بالذكاء والفطنة ، خالفه النصر فى المقارعة بالسيف وفى ميدان الألعاب الرياضية ، يتميز بالبسالة والجرأة فى الحرب ، إلى جانب أنه كان مع ذلك صديقا نافعا للشعراء والفلاسفة مقدرا لهم . ولما أصبحت أمه الزوجة الثانية لارل لستر ، رفع مكانته فى البلاط ليتكافأ مع ما تميز به رالى من فتنة سارة مداهنة . ووقعت الملكة ، وهى فى سن الثالثة والخمسين ، فى حب الأمومة مع ابن العشرين الوسيم الشديد الحساسية (١٥٨٧) ، فهنا ولد يعزيها عن عدم انجابها أولادا ، وتجاذبا أطراف الحديث واستمعا إلى الموسيقى ، ولعبا الورق معا ، وانتشر القيل والقال : « إن سيدى اللورد لا يعود إلى مسكنه قبل صياح الديكة عند الفجر[١١٠] » . وتوجع قلبها المرم حين تزوج سرا من أرملة فيليب سدنى ، ولكن سرعان ما اغتفرت له هذا . وفى ١٥٩٣ صار عضوا فى مجلس شورى الملكة ، ومهما يكن من أمر فانه كان قليل الصلاحية لحياة البلاط وعمل رجل الدولة . وقال عنه خادمه كوف : « ان وجهه نم دوما بوضوح عما يكنه من حب وبغض ، ولم يعرف قط كيف يخفى هذا أو ذاك[١١١] » . وجلب عداوة رالى ، ووليم سيسل وروبرت سيسل ، وأخيرا عداوة بيكون العاق والملكة المستاءة الكارهة .

أما فرانسيس بيكون الذى قدر له أن يكون أكبر أثرا على الفكر الأوربى من أى شخص عداه من رجال عصر اليزابث . فقـــد ولد فى ١٥٦١ فى قلب البلاط الملكى ، فى يورك هاوس ، المقر الرسمى للورد حامل خاتم الملكة ، وهو أبوه ، سير نيقولا ، وأطلقت اليزابث على الابن « حامل خاتم الملكة الصغير » وقد صرفه ضعف بنيته عن الألعاب الرياضية إلى الدراسة . وساعده ذكاؤه المتقد على التقاط العلم والمعرفة فى نهم . وسرعان ما باتت سعة اطلاعه إحدى عجائب تلك « الأزمنة

المترفة » . وبعد سنوات ثلاث قضاها فى كمبردج أرسل إلى فرنسا مع السفير الإنجليزى ليتيح له الفرصة ليتعلم فنون السياسة والحكم . وفى أثناء وجوده هناك مات أبوه فجأة (١٥٧٩) قبل أن يشترى الضيعة التى كان قد قصد شراءها لابنه فرانسيس ، وكان من أصغر أولاده . وفجأة ضعفت موارد فرانسيس فعاد إلى إنجلترا ليدرس القانون فى Gray,s Inn . ولما كان ابنا لأخت وليم سيسل ، فقد توسل إليه أن يعينه فى منصب سياسى ، وبعد أربع سنوات من الانتظار أرسل إليه كتابا غريبا يذكره فيه بموضوعه جاء فيه « أن الاعتراض على سنى سوف يزول مع طول سترتى[١١٢] » . وبطريقة ما انتخب فى تلك السنة (١٥٨٤) عضوا فى البرلمان ، ولو أنه كان فى سن الثالثة والعشرين . واشتهر بتأييده لمزيد من التسامح مع البيوريتانز (وكانت أمه منهم) وتجاهلت الملكة حججه ، ولكنه أعاد اثباتها فى شجاعة ، فى منشور وزع سرا ، مس فيه تناقضات كنيسة إنجلترا (١٥٨٩) واقترح فيه ألا يضار إنسان بسبب عقيدته الدينية إذا تعهد بالدفاع عن إنجلترا ضد أية سلطة أجنبية — بما فى ذلك البابوية — تهدد سيادة إنجلترا أو حريتها الكاملتين . ورأت الملكة وسيسل أن الفيلسوف الشاب قد تقدم قليلا . والحق أنه كان سابقا لزمانه .

واطمأن اسكس إلى حدة ذهن بيكون وطلب مشورته . وأشار الحكيم الصغير على النبيل الصغير أن يتظاهر بالتواضع ، أن لم يستطعه ، ويخفض من انفاقه ، ويلتمس وظيفه مدنية أكثر منها حربية ، حيث أن التخلص من آثار النكسات السياسية والتعويض عنها ، ميسوران أكثر منهما فى الهزائم العسكرية . كما أشار عليه بأن يعتبر أن كب حب الناس خطر عليه لدى الملكة[١١٣] . وكان بيكون يراوده الأمل فى أن ينضج اسكس فيصبح من رجال الدولة ويهيئ لناصحه المخلص أو معلمه الخاص فرصة للارتقاء والظهور .

وفى ١٥٩٢ ناشد سيسل مرة ثانية فى سطور مشهورة قال فيها : —

لقد أصبحت الآن أكبر سنا إلى حد ما . وان إحدى وثلاثين سنة ليست بالشىء اليسير فى عمر الإنسان . . . . وإن صغر ضيعتى يقلقنى بعض الشىء . واعترف أن عندى من الغايات التأملية الفكرية الواسعة قدر ما عندى من الغايات الدنيوية المتواضعة

أو المعتدلة ، أى أن ما عندى من التطلع إلى العلم والمعرفة يفوق كثيرا تطلعى إلى أى جاه مادى . لأنى اعتبرت العلم والمعرفة هما دنياى أو مجالى الخاص . وإذا كان هذا فضولا ، أو عظمة جوفاء ، أو طبيعة فىّ ، فهو راسخ فى ذهنى ، ولا يمكن محوه[١١٤] .

وعند ما ألح اسكس على وليم سيسل وروبرت سيسل والملكة لتعيين بيكون فى وظيفة المدعى العام الشاغرة ، ذهبت توسلاته أدراج الرياح ، واختير بدلا منه ادوارد كوك Coke وهو أكبر منه سنا وأكثر صلاحية من الناحية الفنية . وتحمل اسكس اللوم فى رقة وكياسة ؛ وأقطع بيكون ضيعة فى توكنهام تدر ١٨٠٠ جنيه[١١٥] . وقبل أن يستطيع بيكون الإفادة من هذه المنحة عانى من سجن قصير الأمد بسيط من أجل الديون[١١٦] . وفى ١٥٩٧ عين فى « المجلس العلمى » الذى يضم المحامين الذين كانوا يقدمون المشورة إلى مجلس شورى الملكة[١١٧] .

وعلى الرغم من نصيحة بيكون انضم اسكس إلى جماعة الحرب ، ودبر أن يكون على رأس الجيش . وهيأت له بسالته المندفعة فى قادس شعبية بالغة لدى المجلس ، ولكن اخفاقه فى الآزور ، وكبرياءه لم تتضاءل قط ، وتبذيره ، ولسانه السليط ، كل أولئك نفر منه المجلس واهاج ثائرة الملكة . ولما رفضت صراحة توصيته بتعيين سير جورج كارو فى إحدى الوظائف فى أيرلنده ، أدار لها ظهره ، بإيماءة تنم على الاحتقار والزراية . فاستشاطت غيظا ولكمته على أذنيه صارخة : « اذهب إلى الشيطان » . فأمسك بسيفه وصاح فيها « هذه اساءة لن أصبر عليها ، وما كنت لأحتملها من يدى أبيك » . واندفع غاضبا من الغرفة ، وتوقع كل رجال البلاط أن يعجل بزجه فى السجن فى برج لندن (١٥٩٨)[١١٨] . ولكن البزابث لم تفعل شيئا . بل على النقيض من ذلك ، وربما لتتخلص منه ، عينته بعد عدة أشهر من هذا الحادث ، نائبا للملكة ، فى أيرلنده .

وكان بيكون قد حذر اسكس من اللجوء إلى هذا العمل البغيض ، ألا وهو مقاومة العقيدة بالقوة . ولكنه طلب جيشا : وفى ٢٧ مارس ١٥٩٩ ارتحل إلى

دبلن ؛ وسط تهليل الجماهير ، وهواجس أصدقائه وريبهم ، وارتياح أعدائه ورضاهم . وأخفق فى مهمته ، وبعد ستة أشهر عاد مسرعا إلى لندن دون إذن من الملكة ، واندفع ، دون أن يعلن عن قدومه ، إلى غرفة ملابسها ، وحاول أن يفسر أعماله فى أيرلنده ، فأصغت إليه فى غضب مكظوم ، ثم أمرت بنقله إلى سجن قصر حامل الأختام فى يورك هاوس حتى يمكن الاستماع إلى التهم الموجهة إليه .

وتذمر الناس فى لندن لأنهم كانوا يجهلون اخفاقه ويذكرون انتصاراته . وأمر مجلس شورى الملكة ، بمحاكمة شبه علنية ، وفوض بيكون بوصفه عضوا فى مجلس العلماء ومحاميا تعهد بالدفاع عن الملكة ، فى أن يعد قرار الاتهام ، وطلب بيكون اعفاءه ، ولكنهم ألحوا فقبل . وكان الاتهام الذى أعده معتدلا ، أقر اسكس بصحته ، وعرض خضوعه المتواضع وقد جرد من جميع وظائفه ، وأبلغ أن يلزم داره حتى تتفضل الملكة باطلاق سراحه (٥ يونيه ١٦٠٠) ودافع بيكون عنه ، فأعيدت إليه حريته فى ٢٦ أغسطس .

والآن وهو فى قصر اسكس ظل يواصل السعى وراء السلطة . فأرسل صديقا حميما له ، حامى شكسبير وراعيه هنرى ريوتسلى Wriothesley ، ارل سوثمبتون — أرسله إلى أيرلنده ليقترح على مونتجوى نائب الملكة هناك ، أن يعود إلى إنجلترا مع الجيش الإنجليزى ، ويعاون اسكس فى تولى حكم أيرلنده . ورفض مونتجوى . وفى أوائل ١٦٠١ كتب اسكس إلى جيمس السادس ملك اسكتلنده طالبا مساعدته مع وعد بتأييده خلفا لاليزابث على عرش إنجلترا . ورد عليه جيمس بكتاب مشجع ، وراجت الاشاعات الفظيعة فى العاصمة المهتاجة بأن روبرت سيسل كان يخطط ليضع ابنة ملك أسبانيا Infanta ملكة على عرش إنجلترا ، ويزج باسكس فى برج لندن ، وأن رالى أقسم ليقتلنه . وحث سيسل الأصغر الملكة على أن تبعث برسالة إلى اسكس تطلب إليه الحضور إلى المجلس ، وربما كان الغرض من ذلك ارغامه على الافصاح عن نياته ، وحذره أصدقاؤه بأن هذا ربما كان خدعة للقبض عليه . وحجز أحد الأصدقاء وهو سير جيللى مرك للمستشار وصحبه مقاعد فى المسرح حيث كانت تمثل ذاك المساء فى سوثوارك Southwark ، رواية شكسبير

« ريتشارد الثانى » ، وهى تظهر كيف أن ملكا خلع عن عرشه عدلا وحقا[١١٩] .

وفى اليوم التالى (٧ فبراير ١٦٠١ احتشد ثلثمائة من أنصار اسكس المتحمسين المسلحين فى فناء داره . وعنــد ما خرج إليهم اللورد حامل الأختام وثلاثة من الشخصيات الكبيرة ليسألوهم عن سبب هذا التجمع غير المشروع أغلق عليهم الحشد الأبواب وساقوا الارل الحائر معهم إلى لندن وإلى الثورة ، وكان يراوده الأمل فى أن يهب الناس لمساعدته ، ولكن الخطباء أمروهم بالتزام بيوتهم فامتثلوا . وكانت قوات الحكومة لهم بالمرصاد ، فتعقبوا المتمردين ، وقبض على اسكس وزج به فى برج لندن .

وسرعان ما قدم للمحاكمة بتهمة الخيانة . وأمر المجلس بيكون بمساعدة كوك فى إعداد قرار الحكومة . وربما كان رفضه يؤدى إلى تدمير حياته السياسية ، وقبوله إلى انهيار سمعته التى واتته بعد وفاة أبيه ، فلما تلعثم كوك فى عرض التهمة نهض بيكون وعرض المسألة فى وضوح مقنع يدين المتهم ، واعترف اسكس بجرمه ، وذكر أسماء شركائه[١٢٠] . وقبض على خمسة من هؤلاء وقطعت رؤوسهم ، وحكم على سوثمبتون بالسجن مدى الحياة ، وأفرج عنه جيمس الأول فيما بعد ، وتروى أسطورة أن اسكس بعث إلى الملكة بخاتم كانت قد أعطته إياه يوما مع الوعد بأن تهب لنجدته إذا أعاده إليها فى ساعة العسرة . ولكن الخاتم لم يصل إليها ، ولو كان قد أرسل[١٢١] . ففى الخامس والعشرين من فبراير ١٦٠١ ، وهو فى الخامسة والثلاثين ، ذهب اسكس فى بسالة إلى المصير الذى كان طابع شخصيته . وبكى عدوه رالى عند ما هوت الضربة على عنقه ، وعرض برج لندن ، لمدة عام ، الرأس المفصول عن جسده ، والذى أصابه الانحلال والعفن .

١١ — السحر يذوى ويذبل ١٦٠٠ — ١٦٠٣

إن منظر رأس اسكس ، أو ادراك اليزابث أن الرأس كان يحدق النظر إليها ليل نهار ، لا بد أن يكون قد شارك فى الكآبة التى خيمت على الملكة فى سنواتها الأخيرة . فكانت تقضى الساعات الطوال جالسة وحيدة فى صمت ، حزينة تطيل

التفكير ، وأبقت على ملاهى حاشيتها ، وتظاهرت أحيانا ، تظاهرا جريئا بالمرح ، ولكن اعتلت صحتها ومات قلبها . ولم تعد إنجلترا تحبها ، حيث أحست بأنها عمرت أكثر مما ينبغى لهـا ، وأنه يجدر بها أن تخلى الطريق للملكية فتية . وثار آخر البرلمانات فى عهدها ثورة اتسمت بعنف أكثر من ذى قبل ، ضد انتهاكها لحرية البرلمان واضطهادها للبيوريتانية ، وطلباتها المتزايدة للاعتمادات ، واغداقهـا احتكارات التجارة على ذوى الحظوة لديها . ودهش الجميع حين استسلمت الملكة فى آخر لحظة ، ووعدت بوضع حد لهذا الخلل . وذهب كل أعضاء مجلس العموم ليقدموا لها الشكر ، وجثوا بين يديها حين وجهت إليهم الخطاب . وكان آخر خطاب لها (٢٠ نوفمبر ١٦٠١) ، وهو « خطابها الذهبى » الحزين ، قالت :

ليس ثمة جوهرة ، ارتفعت قيمتها بشكل لم يسبق له مثيل من قبل ، أوثرها على حبكم . . . ان تقديرى له ليفوق تقديرى لأى كنز . . . . ولقد رفعنا الله إلى أعلى عليين ، ولكنى أحسب أن عظمة عرشى هى أنى حكمت بفضـل حبكم لى[١٢٢] .

وطلبت إليهم أن ينهضوا ثم استطردت فى الحديث قائلة :

لأن يكون الإنسان ملكا ويلبس التاج شىء سار لمن يراه ، أكثر مما هو سار لمن يحمله . . . . ومن ناحيتى أنا ، إذا لم يكن ارضاء لضميرى أن أنهض بالواجب الذى فرضه الله على ، وأن أحافظ على « مجده » وأوفر لكم الأمن والسلامة ، لوددت ، استجابة لطبيعتى ، أن أترك هذا المكان لغيرى ، وسعدت بالتحرر من هذه العظمة التى تقتضى جهودا مضنية ، لأنى لست راغبة فى أن أحيا أو أحكم أطول من عمرى ، وسيكون الحكم من أجل خيركم . وعلى الرغم من أنه قد حكمكم من قبل ، ولسوف يحكمكم من بعد ، ملوك أقوى وأعقل منى . من فوق هذا العرش ، فانكم لم تشهدوا ، ولن تشهدوا من هو أعظم حبا لكم منى[١٢٣] .

وكانت اليزابث تؤجل ما وسعها الجهد موضوع وراثة العرش ، فما دامت مارى ملكة اسكتلنده باقية على قيد الحياة ، ووريثة شرعية لعرش إنجلترا . فان

اليزابث لم يهدأ لها بال ، خشية أن تفسد مارى التنوية التى انتهت هى إليها مع البروتستانت ، أما الآن وقد ماتت مارى ، وكان جيمس السادس ملك اسكتلنده هو صاحب الحق الذى لا ينازع فى وراثة العرش ، فقد اطمأنت اليزابث إلى ذلك ، لعلمها بأن جيمس ، مهما كان مترددا أو مراوغا ، فهو بروتستانتى . ووصل إلى علمها أن روبرت سيسل وآخرين من رجال البلاط كانوا يتفاوضون سرا مع جيمس لتيسير ارتقائه العرش ، وليصيبوا المغانم المرتقبة فى هذه المناسبة ، وأنهم كانوا يعدون الأيام الباقية على موتها .

وانتشرت الاشاعات فى كل أنحاء أوربا أن السرطان سيقضى عليها . ولكنها كانت تموت من امتداد حياتها إلى أكثر مما ينبغى ، وما كان جسمها ليحتمل مزيدا من الأفراح والأتراح ، أو من أعباء وضربات السنين القاسية التى لا ترحم ، وعندما حاول ابنها بالمعمودية سيرجون هارنجتون ، أن يسرى عنها بأشعاره الفكهة الظريفة أخرجته من حضرتها وقالت « إذا أنت أحسست بالوقت يزحف زحفا نحو بابك ، أى بدنو الأجل ، قل ابتهاجك بمثل هــذه الحماقات(١٢٤) » . وفى مارس ١٦٠٣ ، وكانت قد عرضت نفسها فى جرأة لبرد الشتاء ، انتابتها حمى انهكتها لمدة ثلاثة أسابيع ؛ وقضت معظم الوقت جالسة على كرسى أو مستندة إلى الوسائد ، ولم ترتض أن يعودها طبيب ، ولكنها رغبت فى الاستماع إلى الموسيقى ، فجاء بعض العازفين أخيرا . واقتنعت بالتزام الفراش ، وتمنى لها رئيس الأساقفة وتجفت أن تطول حياتها فانتهرته ، وسجد إلى جانب سريرها وصلى ، وظن أنه أدى قدرا كافيا من الصلوات وحاول أن ينهض ، ولكنها أمرته أن يتابع الصلاة . ومرة ثانية « تعبت ركبتا الرجل العجوز » . فأشارت إليه أن يؤدى مزيدا من الصلوات . ولم ينقذه إلا أن غلبها النعاس فى ساعة متأخرة من الليل ، ولم تصح من رقدتها هذه قط ، وفى اليوم التالى (٢٤ مارس) كتب جونماننجهام فى مفكرته : « فى نحو الساعة الثالثة من صباح اليوم فارقت جلالتها الحياة ، فى وداعة مثل الحمل ، ويسر مثل قطف التفاحة الناضجه من شجرة(١٢٥) » . وهكذا كان يبدو .

وأحست إنجلترا بهول المصيبة ، على الرغم من أنها كانت قد طال انتظارها

لموتها . وأيقن الكثيرون أن عهدا عظيما قد انقضى ، وأن يدا جبارة قط سقطت عن دفة السفينة . وخشى بعضهم ، مثل شكسبير ، حدوث الفوضى(١٢٦) . أما بيكون فقد قال إنها ملكة عظيمة إلى حد :

إنه لو كان بلوتارك الآن على قيد الحياة ، ليكتب عن سير الحياة بالتناظر ، فقد يجد مشقة فى أن يجد لها شبيها بين النساء . لقد وهبت هذه السيدة معرفة فريدة بين بنات جنسها ، بل حتى نادرة بين الأمراء والرجال . . . .

أما بالنسبة لحكومتها . . . فان هذا الجزء من الجزر البريطانية لم يشهد قط خمسا وأربعين سنة خيرا من هذه ، لا فى هدوء هذه الفترة فحسب ، بل فى الحكمة التى سادت الحكم . فلو نظرنا ، من ناحية . إلى صدق العقيدة التى رسخت قواعدها ، والسلام والأمن الدائمين ، والإدارة الحسنة للعدالة . والتصد والاعتدال فى استخدام الحقوق الملكية . . . . وازدهار المعرفة . . . . ثم لو نظرنا ، من ناحية أخرى ، إلى الخلافات الدينية ، ومتاعب البلاد المجاورة ، وأطماع أسبانيا ، ومعارضة روما ، ثم إلى أنها — أى الملكة — كانت وحيدة ، بنفسها ، أقول لو نظرنا بعين الاعتبار إلى هذه الأشياء كلها ، لما كان فى مقدورى أن أختار مثالا آخر حديثا ومناسبا إلى مثل هذا الحد ، وكذلك أظن أنه ما كان فى مقدورى أن أختار شيئاً أروع أو أبرز . . . . من اقتران المعوقة لدى الأمير بالسعادة التى عاش فى ظلها الشعب(١٢٧) .

والآن ونحن ننظر إلى الوراء ، نتأمل طبيعة أحداث ذاك الزمان بعد وقوعها ، لا بد لنا من أن نظلل الصورة بعض الشيء ، ذاكرين أخطاء الملكة التى لا تضاهيها ملكة ، غافرين لها هــذه الأخطاء . إنها لم تكن قديسة ، أنها لم تؤت الحكمة ، ولكنها سيدة ذات مزاج وذات هوى مفعمة بحب الحياة . ولم تتركز تماما « حقيقة العقيدة » ، ولم يكن كل رعاياها ، كما زعم شكسبير ، « يأكلون فى ظل كرومهم التى زرعوها بأيديهم ، آمنين مطمئنين . وينشدون أغنيات السلام البهيجة(١٢٨) » وإن شيئاً من رشاد حكمها ليعود إلى حكمة معاونيها . وكان تذبذبها فى الرأى

يقترن فى غالب الأمر بحسن الطالع ، وربما كان ذلك بسبب ما يحدث مصادفة من تغيير ، وأدى هذا التذبذب أحيانا إلى ضعف فى السياسة إلى حد أن المتاعب الداخلية لدى أعدائها هى التى ساعدتها على البقاء بعد النكسة . ولكنها استطاعت البقاء ، بل وحققت نجاحا ، بوسائل مشروعة أو ملتوية ، لقد حررت اسكتلنده من ربقة فرنسا وربطتها بإنجلترا ، ومكنت هنرى نافار من إيجاد التوازن بين قداسه فى باريس وبين مقتضيات مرسوم نانت . ولقد وجدت إنجلترا مفلسة محتقرة ، وخلفتها غنية قوية ، وترعرعت ونمت منابع المعرفة والآداب فى ظل الثروة التى كان يرفل فيها شعبها ، وتابعت الحكم الاستبدادى المطلق على عهد أبيها ، ولكنها لطفت من حدته بالإنسانية والفتنة . لقد حرمت الزوج والولد ، وتبنت إنجلترا وجعلت من نفسها أما لها ، وأحبتها حبا خالصا ، وأفنت نفسها فى خدمتها ، فكانت أعظم حاكم عرفته إنجلترا .

الفصل الثاني

إنجلترا المرحة(١)

١٥٥٨ — ١٦٠٣

١ — فى العمل

أى نوع كانت إنجلترا تلك التى أمدت اليزابث بالقوة وهيأت لها النصر . ووهبت شكسبير اللغة والإلهام ؟ وأى صنف من الناس كان هؤلاء الإنجليز فى عصر اليزابث ، أولئك المغامرون فى تهور ، الصرحاء الممتلئون حيوية ونشاطا ؟ كيف عاشوا وعملوا ولبسوا وفكروا ، وأحبوا وشادوا وغنوا ؟

فى ١٥٨١ بلغ عدد السكان نحو خمسة ملايين ، معظمهم مزارعون ، ومعظم هؤلاء يفلحون الأرض لمصلحة المالك نظير جزء من المحصول ، وبعضهم يستأجر الأرض مقابل إيجار محدد يدفعه ، وكان ثمـة عدد متزايد من صغار المزارعين الأحرار الذين يمتلكون الأرض ملكية مطلقة ، وبقيت مساحات من الأرض على المشاع حيث ثبت أن أرض المراعى تدر ربحا أكثر من الأرض المحروثة ، وكاد الرقيق أن ينقرض ، ولكن طرد المستأجرين عن طريق المساحات المشتركة المسورة وعن طريق الضم كان يخلق طبقة بائسة من العمال الذين غامروا ببيع عضلاتهم من مزرعة إلى مزرعة ، ومن حانوت إلى حانوت فى المدن الآخذة فى التوسع (التنقل من أجل الحصول على عمل نظير أجر) .

وباستثناء العاصمة ، كانت المدن لا تزال صغيرة ، على أية حال ، وزاد عدد السكان قليلا عن عشرين ألفا فى كل من نورروك Norwich وبرستول ، وهما أكبر مدينتين بعد لندن . وكان لهذه المسألة جانبها المشرق : ذلك أن سكان المدن كانوا متوادين متحابين ينعمون بحسن الجوار . وحتى فى لندن نفسها ، كان لمعظم البيوت

حدائق ؛ أو أنها كانت قريبة من الحقول المكشوفة ، ومن ثم يمكن جمع مختلف أنواع الأزهار التى ترنم بها شكسبير . وحصلت البيوت على التدفئة بإحراق الخشب ، واستخدمت معظم المصانع الفحم لتوليد الطاقة ، ولكن أسعار خشب التدفئة ارتفعت كثيرا فى القرن السادس عشر ، وحدا ازدياد الطلب على الفحم بملاك الأراضى إلى التنقيب عن الرواسب فى أراضيهم . وجىء بالعمال الألمان لتحسين التعدين وعلم المعادن . وحرمت اليزابث استخدام الفحم فى لنـــدن ، ولكن ثبت أن أوامرها كانت أقل حسما من الضرورة الاقتصادية(٢) . وزادت محلات النسيج واتسعت بعد لجوء النساجين والقصارين إلى إنجلترا هربا من جور دوق ألفا فى الأراضى الوطيئة ، وجلب الهيجونوت من فرنسا مهاراتهم الحرفية والتجارية ، على أن رجلا إنجليزيا هو الكاهن الموقر « وليم لى » هو الذى اخترع (١٥٨٩) « جهاز الجوارب » شبه الآلى للحياكة . وكان صيد السمك أكثر الصناعات ازدهارا ، لأن الحكومة شجعتها بغية تعويد الناس على ركوب البحر والملاحة ، ومن ثم تهيئ احتياطيا للبحرية . ومن ثم انحنت اليزابث إجلالا للكنيسة الكاثوليكية ، وأمرت رعاياها أن يمتنعوا عن أكل اللحم يومين فى الأسبوع ، وأيام الصوم التقليدية فى الصيام الكبير .

وكانت نقابات التجار والصناع قد سلبتها القوة والفعالية قيود العصور الوسطى وتوجيهاتها ، ومن ثم ظلت النقابات تفقد أسواقها فى عصر النزعة الفردية والتجديد . وجمع المتعهدون المهرة رأس المال ، واشتروا المواد الخام ، ووزعوها على المتاجر والأسرات ، واشتروا الإنتاج ، ثم باعوه ، قدر ما تحتمل ظروف التجارة والمقايضة . وبدأت الرأسمالية فى إنجلترا فى البيت ، بعمل الأب والأم والابنة والابن ، للمقاول أو الملتزم . أما وقد نشأ الآن « هذا النظام المنزلى » فقد سار حتى أواخر القرن الثامن عشر . وكان كل بيت تقريبا ، بمثابة مصنع مصغر ينسج فيه النســاء ، ويغزلن الكتان والصوف ، ويحكن ويطرزن ، ويقمن بتحضير الأدوية من الأعشاب وتقطير المشروبات ، ونجحن إلى حد كبير فى النهوض بفن الطبخ ، فى إنجلترا .

وسنت حكومة اليزابث القوانين للاقتصاد بمثل ما سنت به للعقيدة ، من غيرة

وحماس . وأدركت أن القيود البلدية على الصناعة والتجارة ، تعوق النشاط التجارى والصناعى ، فاستبدلت بأنظمة الوحدات الإدارية نظاما قوميا واحدا . وقرر تشريع « التلمذة الصناعية » المشهور (١٥٦٣) مجموعة قواعد ومبـادئ هامة للرقابة والإلزام الحكوميين ، وقد ظل قانون إنجلترا حتى ١٨١٥ . ومذ كان القانون يهدف إلى القضاء على الخمول والتعطل ، فانه تطلب من كل شاب قوى الجسم قادر على العمل أن يخدم كتلميذ لمدة سبع سنوات ، لأن الرجل « حتى يبلغ الثالثة والعشرين ، يكون فى أغلب الأحوال ، وليس دائما ، متهورا طائشا لا يحسن التمييز ، لم يؤت من التجربة والخبرة ما يستطيع معه أن يحكم نفسه[٣] » . وكل متعطل عن عمد قبل الثلاثين من العمر ، ليس له دخل سنوى مقداره أربعون شلنا ، يمكن إجباره على العمل ، وفقا لتوجيه السلطات المحلية . وكل الأصحاء الذين لم يبلغوا الستين فى الريف يمكن إلزامهم بالعمل فى جمع المحاصيل . ويجب تأجير العمال بعقود سنوية نظير نوع من أجر سنوى مضمون . وخول قضاة الصلح سلطة تحديد الحد الأقصى والحد الأدنى لمكافأة كل عمل فى المنطقة التى يعمل بها كل منهم . وحدد أجر العامل فى لندن بتسعة بنسات يوميا . وفرضت غرامة قدرها أربعون شلنا على أصحاب العمل الذين يفصلون العمال بشكل تعسفى . أما المستخدمون الذين يتركون أعمالهم بغير سبب مشروع فكان يزج بهم فى السجن . وكان محظورا على أى مستخدم أن يترك مدينته أو أبرشيته دون إذن من رب العمل أو الحاكم المحلى . وحددت ساعات العمل باثنتا عشرة ساعة يوميا فى الصيف ، وبساعات ضوء النهار فى الشتاء . وكان الاضراب أيا كان نوعه محظورا ، وكانت عقوبته السـجن أو الغرامة الثقيلة[٤] .

وعموما كان لهذا التشريع مفعوله فى حماية أرباب العمل ضد من يستخدمون من العمال ، والزراعة ضد الصناعة ، والدولة ضد الثورة الاجتماعية . وكتبت نقابة البنائين بالأجر فى مدينة هل فى صدر قانونها المحلى هذه العبـارة : « كل الناس متساوون بالطبيعة ، خلقهم خالق واحـد من طينة واحدة » . ولكن لم يؤمن بهذا أحد ، وفى أقل القليل سيسل والبزابث ، ويحتمل أن يكون سيسل هو الذى

وجه التشريع الاقتصادى فى ١٥٦٣ ومن نتائجه بالنسبة للطبقات العاملة أنه جعل الفقر أمرا إجباريا . واقترح إعادة تحديد الأجور بصفة دورية وفقا لأسعار المواد الغذائية الأساسية ، ولكن الحكام المكلفين بهذا العمل كانوا ينتسبون إلى طبقة المستخدمين (أرباب العمل) . وارتفعت الأجور ، ولكن بمعدل أبطأ كثيرا من الأسعار . وفيما بين عامى ١٥٨٠ و ١٦٤٠ ارتفعت الأسعار بنسبة ١٠٠ ٪ ، على حين ارتفعت الأجور فى نفس الفترة ٢٠ ٪ فقط(٦) .

وفى خلال القرن من الزمان الذى يمتد من ١٥٥٠ إلى ١٦٥٠ كانت أحوال المهنيين والعمال تزداد سوءا يوما بعد يوم(٧) . وامتلأت ضواحى لنــدن « بطبقة فقيرة نسبيا ، شريرة غالبا ، تقطن فى أحقر المساكن(٨) » ، تعيش فى بعض الأماكن على السرقة والتسول ، وفى جنازة ارل شروزبرى (١٥٩١) جاء نحو عشرين ألفا من المتسولين يلتمسون الصدقات(٩) .

وشنت الحكومة حملات على هذه الرذائل بمجموعة من القوانين الصارمة ضد التسول والاستجداء ، وبمجموعة إنسانية نسبيا من « قوانين الفقراء » (١٥٦٣ — ١٦٠١) التى اعترفت بمسئولية الدولة عن حماية رعاياها من الموت جوعا . وفى كل وحدة إقليمية جمعت ضريبة لرعاية الفقراء غير القادرين على العمل ، وتشغيل القادرين على العمل فى مصانع تديرها الدولة .

وتبين أن ارتفاع الأسعار كان حافزا للصناعة والتجارة قدر ما كان مأساة وكارثة على الفقراء . والأسباب الرئيسية فى هذا هو استخراج الفضة فى أوربا ، واستيراد المعادن النفيسة من أمريكا ، وغش الحكومات للعملة (تخفيض قيمتها بزيادة ما تحتويه من معدن خسيس) وفيما بين سنتى (١٥٠١ — ١٥٤٤ كانت جملة مقادير الفضة المستوردة أو المستخرجة فى أوربا تساوى نحو ١٥٠ مليونا من الدولارات بمعدلات ١٩٥٧ ، وفيما بين عامى ١٥٤٥ — ١٦٠٠ نحو ٩٠٠ مليون(١٠) . وكافحت اليزابث بشرف غش النقد الإنجليزى ، وتقبلت نصيحة مستشارها البعيد النظر ، سيرتوماس جريشام ، الذى حذرها (١٥٦٠) فى عبارة أصبحت « قانون جريشام » ، وهى

أن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة ، وأن العملة التى تحتوى على النسبة الصحيحة من المعدن النفيس قد تختزن أو ترسل إلى الخارج ، على حين أن العملة التى لاتحتوى على النسبة المقررة الصحيحة من المعدن النفيس تستعمل لسائر الأغراض الأخرى ، وبخاصة فى تسديد الضرائب أى « أن يدفع للحكومة النقد الذى سكته هى (وغشته) » ، وأصلحت اليزابث وسيسل النقد الذى كان قد غشه أبوها وأخوها ، وأعادت إلى العملة الإنجليزية النسبة الصحيحة من الذهب أو الفضة . وارتفعت الأسعار على الرغم من هذا ، لأن تدفق الذهب والفضة أو إنتاجهما ، وتداول العملة : فاقا سرعة إنتاج السلع .

وأسهمت الاحتكارات فى رفع الأسعار . ورخصت اليزابث فى احتكار صناعة أو بيع الحديد والزيت والخل والفحم والرصاص ونترات البوتاسيوم أو الصودبوم (الملح الصخرى) والنشا والخيوط والجلد ، والجلود المدبوغة والزجاج . ولقد مكنت هذه التراخيص ، من جهة لتشجيع رأس المال على تحسين الإنتاج ، وإقامة صناعات جديدة ، ومن جهة أخرى كتعويض أو مكافأة للوظائف والخدمات التى لا تحصل بدونها (أى تراخيص الاحتكار) على أجر كاف . ولما ارتفعت الشكوى من هذه الاحتكارات إلى حد أن البرلمان كاد أن يثور ، وافقت اليزابث على وقفها حتى يتم التحقيق فيها والتصديق عليها (١٦٠١) ، ومن ثم كان الاحتفاظ ببعضها .

ونتيجة لهذا التعويق نمت التجارة الداخلية بخطى أبطأ من تقدم التجارة الخارجية . وفيما عدا أيام المناسبات والأعياد ، لم يكن يسمح لأى إنسان أن يبيع السلع فى أية مدينة لا يكون هو من سكانها ، وكانت هذه المناسبات دورية فى كثير من المراكز ، وبلغت أكثر من مائة يوم فى السنة . وكان أكثرها شيوعا ، « يوم القديس برثلميو » الذى يقام فى شهر أغسطس من كل عام بالقرب من لندن ، مع « سيرك » يجذب الناس إلى السلع ، وكان انتقال البضائع على الماء أكثر منه بالبر ، وكانت الأنهار تعج بالحركة ، وكانت الطرق رديئة ، ولكنها آخذة فى التحسن . ويمكن السير فيها ركوبا لمسافة مائة ميل فى اليوم ، وقطع الرسول الذى حمل إلى ادنبره نبأ وفاة اليزابث

١٦٢ ميلا فى يومه الأول . وكانت الخدمات البريدية التى انشئت فى ١٥١٧ مقصورة على الحكومة وحدها . أما البريد الخاص فكان يرسل مع الأصدقاء أو الرسل أو السعاة أو أى مسافرين آخرين . وكان معظم السفر بالبر على ظهور الخيل ، أما المركبات فأدخلت حوالى ١٥٦٤ ، وظلت حتى ١٦٠٠ لونا من الترف لدى قلة من الناس ، وما جاءت سنة ١٦٣٤ حتى كثر عددها إلى حد إصدار بلاغ بتحريم استخدام الأفراد لها استخداما خاصا ، بسبب ازدحام حركة المرور[١١] . وكانت الأنزال (الفنادق) حسنة ، كذلك كانت النادلات فيها ، اللهم إلا عند الدفع . لكن كان ينبغى على عابر السبيل أن يحرص على كيس نقوده ، وأن يخفى وجهته[١٢] . لقد كان على المرء فى إنجلترا على عهد اليزابث أن يكون نشيطا حذرا مستعدا .

ونمت التجارة الخارجية بتقدم الصناعة . وكان تصدير المنتجات الكاملة الصنع هو الوسيلة المفضلة لتسديد ثمن ما يستورد من المواد الخام ومواد الترف الشرقية . وتوسعت السوق من الوحدة الإقليمية إلى الأمة بأسرها ، ثم إلى أوربا ، بل حتى إلى آسيا وأمريكا . واتسعت مجالات الحكومات الوطنية وأهدافها وسلطانها مع اتساع مدى التجارة ومشاكلها ، وقد رغبت إنجلترا — مثلما رغبت أسبانيا وفرنسا — فى تصدير السلع واستيراد الذهب . لأن « النظرية التجارية(*) » التى سادت آنذاك ، كانت تقيس ثروة الأمة بمقدار ما لديها من المعادن النفيسة . وواضح أن فرانسس بيكون كان أول من تحدث عن « ميزان تجارى[١٣] » مرض ، قصد به زيادة الصادرات على الواردات ومن ثم امتصاص الفضة أو الذهب ، أو تسريبهما إلى داخل البلاد . وأعلن سيسل عن هدفه بقوله : « يجب ، بكل الوسائل ، أن نقصر استخدامنا للسلع الأجنبية على ما هو ضرورى لنا[١٤] » ولقد أدرك أن الفضة والذهب لا يؤكلان ولا يلبسان ، ولكنهما كانا نقدا دوليا ، يمكن أن يشترى به عند الضرورة

(*) **Mercantilism** وهو النظام الاقتصادى الذى نشأ فى أوربا خلال تفسخ الاقطاع لتعزيز ثروة الدولة عن طريق تنظيم حكومى صارم للاقتصاد الوطنى فى جميع نواحيه ، وانتهاج سياسة تهدف إلى تطوير الزراعة والصناعة وإنشاء الاحتكارات التجارية الخارجية . (المترجم نقلا عن قاموس المورد ، بيروت ١٩٧١) .

أى شىء تقريبا ، حتى الأعداء ، وتجب حماية الصناعة الوطنية زمن السلم ، حتى لا تعتمد الأمة على المنتجات الأجنبية زمن الحرب ، ومن ثم عوقت الحكومات الاستيراد عن طريق الرسوم الجمركية ، وشجعت التصدير عن طريق الاعانات ، وتكونت « شركات التجارة » لبيع المنتجات الإنجليزية فى الخارج وهيأ « التجار المغامرون » . الإنجليز منفذا للصادرات فى همبرج . ورأس أنطونى جنكنسون بعثة تجارية إلى روسيا (١٥٥٧) وأخرى إلى إيران (١٥٦٢) ، وذهبت بعثة أخرى إلى الهند (١٥٨٣ — ١٥٩١) . وأنشئت لجنة إنجليزية تركية (١٥٨١) . وأسست الشركة المسكوفية فى ١٥٩٥ ، وشركة الهند الشرقية الشهيرة فى التاريخ فى ٣١ ديسمبر ١٦٠٠ ، وكان المسرح ممهدا لهستنجز وكليف . وقام عشاق البحر أو المال بمغامرات عبر المحيطات بحثا عن طرق جديدة للتجارة . وكان علم الجغرافيا ـ من بعض النواحى ، نتيجة غير مقصودة لحماستهم . وقامت حركة ضخمة لبناء السفن ، بحثا عن الأسواق والمستعمرات . وتحولت أخشاب غابات إنجلترا إلى سفن وصوار . وشرعت بريطانيا تتحكم فى الأمواج وتحكم البحار . وولدت الامبراطورية البريطانية قولا وعملا .

ولما انتشرت التجارة واتسع مجالها ، تطورت النظم المالية لتيسير عملياتها وتعجيلها . وتضاعف عدد المصارف . وفى ١٥٥٣ أنشأ « التجار المغامرون » شركة مساهمة مشتركة للتجارة مع روسيا ، أصدرت ٢٤٠ سهما قيمة كل منها ٢٥ جنيها ، وكانت الأرباح توزع بعد كل جولة ، ويعاد رأس المال المستثمر[١٥] . ومولت شركة الهند الشرقية رحلاتها بمثل هذه الطريقة . وأدت الأرباح التى بلغت ٨٧ ½ ٪ فى أول رحلة إلى اندفاع المساهمين إلى الاشتراك فى المشروع أو المغامرة الثانية — ومنهم رجال البلاط ، والقضاة ، ورجال الدين ، والفرسان ، والأرامل ، والعوانس ، والحرفيون . وأحب الرجال والنساء آنذاك المال حبا جما ، كما هو الحال اليوم تماما . وكان البرلمان قد حرم الفوائد على القروض حتى ١٥٥٢ ، بوصمها « رذيلة ما أقبحها[١٦] » ، ولكن القوة المتزايدة لرجال الأعمال فى مجلس العموم ، أدت إلى صدور « قانون الربا » فى ١٥٧١ ، وقد ميز هذا القانون بين الفائدة والربا ،

وأجاز نسبة ١٠ ٪ سعرا للفائدة . ولما ازداد التعامل فى الأسهم أنشئت سوق الأوراق المالية (البورصة) لتبادل ملكية الأسهم والبضائع . وسلك مزيد من النقود المتداولة ليتسنى شراء السلع وبيعها . وفى ١٥٦٦ أسس جريشام « البورصة الملكية » لتقوم بمثل هذه العمليات التجارية والمالية . وفى ١٥٨٣ أصدرت أقدم « بوليصة » تأمين على الحياة(١٧) .

ونمت الروح التجارية مذ أصبحت لنـــدن واحدة من أسواق ومراكز العالم المزدهرة . وتألقت الشوارع غير المضاءة بما تكدس فيها من بضائع . وحكم جواب آفاق طاف بأقطار كثيرة ، بأن منشآت الصياغ فى لندن أفخم مثيلاتها فى أى مكان آخر فى العالم(١٨) . وجن جنون أصحاب الأعمال للحصول على دور لهم ، واستعمل بعضهم صحن كاتدرائية سانت بول مقرا مؤقتا لمكاتبهم ، وكلهم ثقة بأن « المسيح » كان قد غير رأيه منذ ظهر كلفن ، وهناك تعامل المحامون مع عملائهم ، وأحصى الناس المـال فوق المقابر ، وفى الفناء باع الباعة المتجولون الخبز واللحم والسمك والفاكهة والجعة والبيرة ، وتدافعت حشود المشاة والباعة المتجولون والمركبات وعربات النقل فى الشوارع الضيقة الموحلة . واستخدم نهر التاميز كطريق رئيسى تمر به مراكب نقل البضائع والمعديات ومراكب النزهة ، وكاد يوجد فى كل نقطة فيه مجدف أو معدّ معه قارب ، مستعد لنقل البضائع أو الركاب عبر النهر ، ضـــد التيار ، أو مع التيار . ومن ثم كانت صيحاتهم العالية (نداءاتهم للركاب) : « شرقا » أو « غربا » ، التى أخذت عنها عنوانات « روايات جاكوب » . وكان النهر ، إذا زالت عنه رائحته — نعمة كبرى للتجارة والنزهة والعشاق ، وخلفية للمشاهد المسرحية الفخمة والمساكن الفاخرة . وكان جسر لندن الذى بنى فى ١٢٠٩ مفخرة المدينة ، والطريق الوحيد بين طرفيها الشمالى والجنوبى . وتخصص الجنوب فى الحانات والمسارح والمواخير والسجون . أما الشمالى فكان المركز الرئيسى للأعمال . وهنا كان التاجر هو السيد ، وكان اللورد صاحب اللقب يدخل بعد السماح له بالدخول . وكانت الشخصيات الملكية والنبلاء يقطن معظمهم فى قصور خارج لنـــدن . وكان حى وستمنستر ، مقر البرلمان آنذاك ، مدينة منفصلة . وهناك أيضا أجبرهم رجل الأعمال

على سماع صوته ،وما وافت سنة ١٦٠٠ حتى بات فى مقدوره أن يزعج الملكة ، وبعد نصف قرن تقريبا (حوالى ١٦٥٠) قطع رأس الملك .

٢ — فى المدارس

لم يكن عصر شكسبير متوفرا على التعليم . فتعلم العصـــر قليلا من اللاتينية ، وأقل منه من اليونانية ، مع قدر أكبر من الإيطالية والفرنسية ، وقرأ الكتب بنهم . ولكن بسرعة ، واندفع يحكم عليها بالتجربة والاختبار ، وتعلم من مدرسة الحياة ، وأجاب معلمه بوقاحة لم يسمع بمثلها .

ولم تكن اللغة التى استعملها هذا العصر هى لغة المدارس ، ولكنها كل لغـــة الحديث الموروثة عن عهود الكلت والرومان والسكسون والنورمنديين فى إنجلترا ، مزيدة بالغنائم اللغوية من فرنسا وإيطاليا ، كما انتزعت بعض الألفاظ العامية من شوارع لندن ، ومن اللهجات فى المقاطعات ، ولكن لغة العصر لم تقنع بهـــذا ، فجعلت الكلمات تلد كلمات ، وجعلت الخيال الواسع يتخبط فى الكلام الخلاق . وهل كان ثمة لغة حية قوية مرنة غنية مثلها ؟ ولم تتوقف لتضع لهجائها القواعد ، وقبل ١٥٧٠ لم توجد قواميس للارشاد إلى ضبط الهجاء والإملاء ، ولم يحدد شكسبير يوما كيف يتهجى اسمه . واستخدم الاختزال ، ولكنه لم يهدئ من روع أصحاب الأعمال المهتاجين ، ولم يسعف الشعر .

وقضى هنرى الثامن على تعليم البنات المنظم حين حل أديار الراهبات . أما التعليم الإبتدائى فكان ميسورا مجانا لأى ولد يمكنه الوصول إلى إحدى المدن . وفتحت اليزابث مائة مدرسة متوسطة مجانية Grammar School ، وأضاف إليها جيمس الأول وشارل الأول ٢٨٨ مدرسة أخرى . أما الأولاد (البنين) من ذوى الأصل العريق فقد كانت قد أسست لهم بالفعل مدارس خاصة Public School (مدارس ثانوية داخلية) فى ونشستر ، وايتون ، وسانت بول ، وشروزبرى ، وأضيف إليها الآن رجبى (١٥٦٧) ، وهارو (١٥٧١) ، ومدرسةMerchant Taylor's (١٥٨١) حيث لمع الاسم التربوى العظيم ريتشارد مولكاستر . وكان المنهج تقليديا ،

بالإضافة إلى الضرب ، وكان تعليم المذهب الأنجليكانى إجباريا فى جميع المدارس . وفى وستمنستر كانت الدراسة تبدأ فى السابعة وتنتهى فى السادسة ، مع فترات فيها شىء من الشفقة : لطعام الأفطار فى الثامنة ، ولسنة من النوم والحلوة بعد الظهر . وكان الآباء يصرون على أن تنهض المدرسة على أكمل وجه ، بإحدى مهامها الرئيسية ، ألا وهى تخليصهم من أبنائهم .

وظلت اكسفورد وكمبردج تحتكران التعليم الجامعى . وكانتا قد فقدتا هيبتهما والثقة بهما فى أثناء الاصلاح الدينى وما اقترن به من هياج وشغب ، كما انصرف عنهما آلاف الطلاب ، ولكنهما كانتا تستردان مكانتهما ، وفى ١٥٨٦ كانت كل جامعة منهما تضم نحو ١٥٠٠ طالب . وفى جامعة كمبردج تبرع سير والتر ميلدماى Mildmay بكلية عمانويل فى ١٥٨٤ ، وأسست فرانسس، كونتيسة سسكس وعمة فيليب سدنى ، كلية سيدنى سسكس فى ١٥٨٨ . وفى اكسفورد أسست كلية يسوع بأموال حكومية وغير حكومية ١٥٧١ ، وأضيفت كليتا وادهام (١٦١٠) وبمبروك (١٦٢٤) فى عهد جيمس الأول . وشرفت كمبردج فى ١٥٦٤ بزيارة الملكة التى استمعت فى وقار وتواضع إلى خطاب رسمى باللاتينية فى مدحها ، وفى كلية ترنتى ردت باليونانية على خطاب باليونانية ، وفى الطرقات تبادلت الحديث مع الطلبة باللاتينية ، وفى نهاية الزيارة وجهت خطابا باللاتينية أعربت فيه عن أملها فى أن تفعل شيئا من أجل التعليم . وبعد ذلك بعامين زارت اكسفود مبتهجة مفاخرة بقاعاتها وملاعبها ، وعند مغادرتها الجامعة صاحت فى حماس : «وداعا رعاياى الأفاضل ، وداعا أبنائى الطلبة الأعزاء ، وفقكم الله فى دراستكم[١٩]» . لقد عرفت كيف تكون ملكة .

ونافست نساء إنجليزيات أخريات اليزابث فى مجال العلم والمعرفة . فاشتهرت بنات سير أنطونى كوك بعلمهن . واتخذت مارى سدنى كونتيسة بمبروك من بيتها، فى ولتن منتدى للشعراء ورجال السياسة والفنانين الذين تبينوا فيها عقلا ناضجا يمكنها من تقدير أحسن ما يملكون أو يقدمون . وتلقى مثل هؤلاء السيدات معظم تعليمهن

على أيدى معلمين خاصين فى البيت . وكانت المدارس المتوسطة مفتوحة للجميع ، أما الثانوية الخاصة والجامعات فكانت قصرا على الذكور فقط .

وكان من أبرز سمات العصر أن أقدر الماليين فى عهد اليزابث أسس فى لنـــدن (١٥٧٩) « كلية جريشام » للقانون والطب والهندسة وعلوم البلاغة وغيرها من الدراسات النافعة لطبقة أصحاب الأعمال ، وحدد أن تكون المحاضرات بالإنجليزية واللاتينية على حد سواء ، طالما أن التجار وغيرهم من المواطنين سيلتحقون بها[٢٠] . وأخيرا كان تعليم طبقة ذوى اليسار أو ذوى الألقاب يكمل بالسياحة والرحلات . وقصد الطلبة إلى إيطاليا لاستكمال تدريبهم الطبى والجنسى ، وللتعرف على آداب الإيطاليين وفنونهم ، وتعلم كثيرون أن يعرجوا على فرنسا فى الطريق . ولم تكن اللغة عائقا آنذاك ، لأن كل متعلم فى غرب أوربا ووسطها كان يعرف اللاتينية . وعلى الرغم من ذلك فان المســافرين العائدين أتوا معهم إلى الوطن بأثارة من الإيطالية والفرنسية ، كما جاءوا بولع شديد بالأخلاقيات الهينة اللينة التى سادت إيطاليا فى عصر النهضة .

٣ — الفضيلة والرذيلة

إن كل تلميذ ليعرف تنديد روجر أسكام فى ١٥٦٣ بالرجل الإنجليزى الذى يتشبه بالإيطاليين ، حيث يقول : —

أنى لأعتقد أن الذهاب إلى هناك « إلى إيطاليا » . . . . خطر ، أى خطر . . . لقد جعلت الفضيلة يوما من هذه البلاد سيدة على العالم . ولكن الرذيلة جعلت منها الآن عبدا لمن كانوا من قبل يلذ لهم أن يخدموها . . . . انى على العكس من ذلك ، أعرف رجالا غادروا إنجلترا ممن عرفوا فيها بالحياة البريئة والمعرفة الواسعة عادوا من إيطاليا وقد رغبت نفوسهم عن الاستقامة فى الحياة وانصرفوا عن العلم ، ولم يعودوا إلى ما كانوا عليه قبل سفرهم إلى الخارج . وإذا ذهب بك الظن إلى أننا لا نقرر الحقيقة . فاستمع إلى ما يقوله الإيطاليون . . . « ان الإنجليزى الذى يتشبه بالإيطاليين ليحمل بين جنبيه شيطانا متجسدا فيه » . . . . وكنت أنا نفسى ذات مرة

فى إيطاليا ، وأحمد الله انى لم أمكث فيها إلا تسعة أيام فقط . ومع ذلك رأيت فى هذا الوقت القصير ، فى مدينة واحدة ، من الاباحية والمجون والإثم مالا أكاد أذكره عن مدينتنا الفاضلة لندن فى تسع سنوات[٢١] .

ولم يكن معلم الزابث هو الوحيد الذى ضرب على هذه النغمة . فقد كتب ستيفن جسون Gosson فى كتابه « مدرسة الفساد » (١٥٧٩) « لقد سلبنا إيطاليا دعارتها ، انك إذا قارنت بين لندن وروما ، وبين إنجلترا وإيطاليا لوجدت أن مسارح الواحدة منهما ومفاسد الأخرى منتشرة انتشارا واسعا بيننا » . ونصح سيسل ابنه ألا يسمح لأولاده أن يعبروا جبال الألب . « لأنهم لن يتعلموا هناك شيئا سوى الغرور وعدم احترام المقدسات والإلحاد[٢٢] » . وفى كتابه « تشريح المفاسد » ، وصم فيليب ستبز Stubbs — وهو بيوريتانى — الإنجليز فى عصر اليزابث — بأنهم أشرار مترفون مزهوون ، يفاخرون بخطاياهم . ونعى الأسقف جول Jewel فى موعظة ألقاها أمام الملكة — نعى على الناس فى لندن أنهم فى سلوكهم وأخلاقهم « يهزأون بكتاب الله المقدس ، الإنجيل ، ومن ثم يصبحون أكثر فسقا وأكثر شهوانية وحبا للدنيا وأكثر دعارة ، مما كانوا عليه فى أى وقت مضى ... وإذا كانت حياتنا تشهد بعقيدتنا وتنم عن ديننا ، فانها تنادى بأعلى صوت ..... ليس هناك إله[٢٣](*) .

إن مثار الضجة والنعى على الأخلاق يرجع فى كثير منه إلى أساتذة الأخلاق

(*) يروى أوبرى قصة تؤيد أسكام ، يقول « كان والتر رالى مدعواً إلى العشاء مع شخصية كبيرة . وكان ابنه يجلس إلى جواره ، محتشما غاية الاحتشام ، على الأقل طيلة نصف فترة العشاء . ثم قال : هذا الصباح ، ولم تكن خشية الله ماثلة أمام عينى ، قصدت إلى واحدة من بنات الهوى كنت شديد الهيام بها ، وأردت أن استمتع بها . ولكنها دفعتنى عنها وأقسمت ألا أقربها ، قائلة إن أباك كان يضاجعنى منذ ساعة فقط » فما كان من والتر ، وقد فوجىء مفاجأة مذهلة ، وخاصة فى مثل هذه المأدبة العظيمة ، إلا أن لطم ابنه لطمة شديدة على وجهه . ولكن الابن ، رغم فظاظته وغلظته ، لم يضرب أباه ، بل لطم الرجل الذى كان يجلس إلى جواره ، وقال : لكمة هنا وهناك ستصيب أبى حالا . . » (موجز سير الحياة Brief Lives — ص ٢٥٦) .

الذين نددوا أشـــد التنديد بالنساء والرجال الذين لم يعودوا يلقون بالا إلى أهوال الجحيم أو يؤمنون بها . ويحتمل ألا يكون الناس فى مجموعهم شرا أو خيرا عما كانوا عليه من قبل ، ولكن ، كما تشددت الأقلية البيوريتانية فى أخلاقها وقترت فى أموالها واقتصدت فى بنات شفاهها ، كذلك اتفقت أقلية وثنية مع الإيطاليين على أن التمتع بالحياة ، أفضل من إرهاق أنفسنا بالتفكير فى الموت دون جدوى .

ويمكن أن تكون الأنبذة الإيطالية ، التى كان الناس يقبلون عليها فى إنجلترا ، قد ساعدت على الإباحية فى الأخلاق ، وبالمثل على توسيع الشرايين ، وكان ذلك أبقى أثرا . وربما جاء من إيطاليا ومن فرنسا ومن الآداب القديمة ، معنى أصرح احساسا بالجمال . ولو أن هذا المعنى جلل بشىء من الحزن نتيجة شعور أقوى بقصر عمر الجمال . وحتى جمال الشاب النضير كان يثير الناس فى عصر اليزابث أشد إثارة . وأجرى مارلو (فى روايته دكتورفاوست) على لسان ميفستوفيلس . امتداحه لفاوست على أنه أجمل من السموات . وتأرجحت قصائد شكسبير (Sonnet تتألف من ١٤ بيتا) بين عشق المرء لأفراد جنسه وعشقه لأفراد الجنس الآخر . ولم يعد جمال المرأة مجرد خيال شعرى ، ولكنه نمل سرى فى الدم وفى الآداب وفى البلاط ، وحول القراصنة إلى شعراء . وجمع نساء البلاط الظرف وخفــة الدم إلى التجميل والتطرية فسحرن ألباب الرجال كما أسرن قلوبهم . وكان فى التواضـــع إغراء بالاقتناص ومضاعفة لسلطان الجمال . وضاعت الابتهالات إلى مريم العذراء وسط استنكار العذرية والانتقاص من قدرها . وتفجر الحب الرومانتيكى فى الأغانى مع حرارة الرغبة المتمنعة . وابتهج النساء إذ رأين الرجال يقتتلون من أجلهن ، وأسلمن أنفسهن ، بالزواج أو بغيره ، لمن تكون له الغلبة . وكان من سمات اضمحلال سلطان العقيدة أن موافقة الكنيسة أو مراسمها لم تعد الآن مطلوبة لصحة الزواج ، ولو أن الاعتراف به كان يعتبر إساءة للناموس العام ، تمييزا له عن القانون . وكانت معظم الزيجات تدبر عن طريق الوالدين ، بعد إطراء متبادل لمزايا الطرفين ، ومن ثم تصبح معبودة الساعة المشدوهة ، ربة بيت متحرره من الأوهام ، منصرفة بكليتها إلى أولادها ومهامها الشاقة ، هكذا يعمر الجنس البشرى .

وثمة انحلال خلقى أسوأ دمغت به الحياة العامة ، فقد تفشى فى الوظائف الرسمية ابتزاز الأموال ، قلت أو كثرت ، وتغاضت عنه اليزابث ، كعذر لها عن عدم زيادة الرواتب(٢٥) . وكان أمين صندوق الحرب يحصل على ١٦٫٠٠٠ جنيه سنويا علاوة على راتبه . وبالاحتيال القديم قدم الأزل ، كانوا يحتفظون بأسماء الجنود الموتى فى قوائم الجيش ويضعون مخصصاتهم فى جيوبهم ويبيعون الملابس المخصصة لهم(٢٦) . وكان الجندى يساوى وهو ميت أكثر منه وهو حى ، وقبض ذوو المناصب الكبيرة مبالغ ضخمة من فيليب الثانى ليوجهوا سياسة إنجلترا نحو أهداف أسبانيا(٢٧) . ومارس أمراء البحر القرصنة وباعوا الرقيق . وباع رجال الدين رواتب الكنيسة(٢٨) ، وكان يمكن إغراء الصيادلة بتسميم الأدوية والأطباء بوصفها للناس . وغش التجار فى البضائع ، ووصل الأمر إلى فضيحة عالمية ، ففى ١٥٨٥ حدث من الغش فى الأقمشة الصوفية وغيرها فى إنجلترا أكثر مما حدث منه فى أوربا بأسرها (٣٠) ، وكانت الأخلاق العسكرية بدائية ساذجة . وكم من مرة حدث الاستسلام بلا قيد ولا شرط ، فكان جزاؤه إعمال الذبح فى الجنود وفى غير المحاربين على حد سواء . وكان السحرة والعرافون يحرقون . كما كان الجزويت يؤخذون من فوق المشنقة ليقطعوا اربا(٣١) . لقد جرت ينابيع الرحمة الإنسانية مستأنية فى عهد الملكة الفاضلة اليزابث .

٤ — العدالة والقانون

مازالت طبيعة الإنسان تنفر من المدنية ، على رغم القرون العديدة التى سادت فيها الديانات وقامت الحكومات ، وظلت تعبر عن الاستياء والاعتراض فى سلسلة طويلة من الخطايا والجرائم ، لم تفلح القوانين والأساطير والعقوبات فى وقف سيلها . وكان فى قلب مدينة لندن أربع مدارس للقانون هى The Inner Temple, The Middle Temple Gray,s Inn Lincoln,s Inn، تعرف فى جملتها باسم دور القضاء وأقام الطلبة فيها كما كانوا يقيمون فى قاعات كليات أكسفورد وكمبردج . ولم يسمح بالالتحاق بها إلا لذوى المحتد الكريم ، وكان كل المتخرجين فيها يقسمون اليمين على خدمة التاج . وكان البارزون منهم أو الذين يسهل قيادهم يصبحون قضاة فى

محاكم الملكة . وارتدى القضاة والمحامون فى أثناء تأدية عملهم أردية تدل على الهيبة والوقار ، وكأن عظمة القانون وجلاله يكمنان فى خياطة الثياب .

وكانت المحاكم ، بالاجماع ، فاسدة . وعرف أحد أعضاء البرلمان قاضى الصلح بأنه : « حيوان يمكنه أن يستغنى بست دجاجات عن اثنا عشر قانونا(٣٢) » . وطلب فرنسيس بيكون مغريات أكبر . وفى رواية شكسبير قال الملك لير الذى روعه الحزن : « اكسوا الخطيئة بالذهب ، يتكسر سيف العدالة القاطع دون أن يؤذى أحدا(٣٣) » ، ولما كان القضاة يعزلون وفق مشيئة الملكة فانهم حسبوا لهذا حسابه فى أحكامهم ، وقبض ذوو الحظوة لديها الرشوة ليغروها بالتدخل فى قرارات المحاكم(٣٤) ، وظل نظام المحلفين معمولا به ، إلا فى تهمة الخيانة العظمى ، ولكن غالبا ما كان القضاة أو موظفو التاج يخوفون المحلفين ويكرهونهم على قضاء مآربهم بالتهديد(٣٥) ة وكان هناك توسع فى تعريف تهمة الخيانة العظمى لتشمل كل عمل يهدد حياة صاحب العرش أو جلاله . وكان نظر مثل هذه القضايا أمام محكمة قاعة النجم (The Star Chamber) — وهو مجلس شورى الملكة منعقدا على هيئة محكمة ليمارس سلطاته القضائية ، وهناك كان المتهم محروما من تحقيق المحلفين لقضيته أو المعارضة فى أمر حبسه ، أو من محام للدفاع عنه ، بل كان عرضة للاستجواب المرهق أو التعذيب ، وكان يحكم عليه عادة بالسجن أو الإعدام .

وقام قانون العقوبات على العوائق أكثر منه على المراقبة والكشف عن الحقيقة . ولما كانت القوانين ضعيفة فقد باتت العقوبات صارمة . وكان الإعدام هو العقوبة القانونية لأية واحدة من مائتى جريمة . منها الابتزاز بالتهديد ، وقطع الأشجار الصغيرة ، وسرقة أكثر من شلن واحد . وبلغ متوسط من شنقوا بسبب الجريمة ، سنويا ، فى إنجلترا المبتهجة ، فى عهد اليزابث ، ٨٠٠ شخص(٣٦) . أما الجرائم الصغرى فكان عقابها التعذيب بالمشهرة والخلعة والجلد بالسياط ، وإحراق ثقب فى الأذن أو اللسان ، وقطع اللسان أو إحدى الأذنين أو اليدين(٣٧) . ولما كتب جون ستبز ، وهو محام بيوريتانى ، نشرة يستنكر فيها اقتراح زواج اليزابث من ألنسون ،

باعتبار هذا الزواج خضوعا أو استسلاما للكاثوليكية ، قطعت يده اليمنى بأمر القاضى ، فرفع جون الجدعة الدامية ، ورفع بيده اليسرى قبعته ، ثم هتف « لتحى الملكة[٣٨] » وقدم فيليب سدنى إلى الملكة احتجاجا على هذه الوحشية . واستشعر سيسل العار والخجل فعينه فى منصب حكومى ذى راتب كبير وجهد يسير . وكان التعذيب غير مشروع ، ولكن محكمة قاعة النجم استخدمته ، وإنا لنلاحظ أنه برغم أن آداب العصر كانت عميقة قوية ، فإن المستوى العام لمدنية العصر لم يبلغ مستوى المدنية فى إيطاليا أو أفنيون فى عهد بترارك ، وأقل كثيرا منه فى رومه على عهد أغسطس .

٥ — فى البيت

بدأت الحياة الإنجليزية بمحاولة التغلب على مشكلة وفيات الأطفال ، وكانت نسبتها عالية ، وكان سير توماس براون من أعلام الطب ، ومع ذلك مات ستة من أولاده العشرة فى سن الطفولة[٣٩] . ثم كانت الأوبئة ، مثل « مرض العرق » ١٥٥٠ ، والطاعون الذى حل بالبلاد ١٥٦٣ ، ١٥٩٢ — ١٥٩٤ ، ١٦٠٣ . ولا بد أن متوسط الأعمار كان منخفضا ، قدرته بعض الاحصاءات بثمان سنوات ونصف سنة[٤٠] . وكبر الناس وأدركهم الهرم بأسرع مما هو حادث الآن . أما الذين عمروا فهم الشجعان ذوو القدرة على الاحتمال الذين صلبت أعوادهم وقويت أعصابهم بمقارعة الموت ، من أجل الخدع الحربية والأسلاب .

وكانت الرعاية الصحية آخذة فى التحسن . وبدأ الصابون يكون ضروريا بعد أن كان ترفا . وحوالى ١٥٩٦ ابتدع سيرجون هارنجتون مرحاضا فيه ماء جار . وكانت الحمامات الخاصة قليلة . واستخدمت معظم الأسرات حوضا خشبيا موضوعا أمام نار مكشوفة . وكان فى كثير من المدن حمامات عامة . وهيأ **Bath and Buxton** للطبقة العليا منشآت أنيقة للاستحمام . وقدمت « الدفيئات » (**Hot Houses**) حمام البخار ، وقدمت التسهيلات للأكلات واللقاءات الغرامية غير المشروعة ، وزودت بيوت الموسرين دون غيرهم بموارد مياه خاصة بهم فى منازلهم ، أما معظم الأسرات فكانت تلتمس الماء من قنوات عامة مفتوحة على ينابيع مزخرفة .

وبنيت البيوت فى القرى والمدن من الآجر والجص ، تحت سقوف من القش ، ولا يزال كوخ آن هاثاواى بالقرب من ستراتفورد — أون — أفون ، محتفظا به فى حالة جيدة ، كنموذج لهذه المساكن . أما فى المدن الكبرى فكانت البيوت متلاصقة عادة ، واستخدم فى بنائها قدر أكبر من الآجر والحجر ، وكان لها سقوف من القرميد ، وكانت المشربيات المقسمة بأعمدة من الحجر والأدوار العليا الناتئة تلفت أنظار الذين لم يألفوا رؤيتها . وكانت البيوت من الداخل مزدانة بالنقوش والأعمدة . وكانت المدفأة تضفى على الغرفة الرئيسية أو القاعة الكبرى جلالا وتزودها بالدفء ، كما كان السقف — من الخشب أو الجص — يقسم إلى رسوم متماثلة أو غريبة . وكانت هناك المداخن التى تنفث الدخان إلى الخارج ، وكان من قبل يلتمس له منفذا من ثقب فى السقف . وكانت المواقد تساعد على تدفئة البيت . وكانت النوافذ الزجاجية شائعة آنذاك . ولكن ظلت الاضاءة فى الليل بالمشاعل أو الشموع . وغطيت أرضية البيوت بالأسل والأعشاب ذات الرائحة الزكية عندما تكون طازجة ؛ ولكنها لا تلبث أن تصبح كريهة الرائحة ، وتؤوى الحشرات . وجاء السجاد بعد ذلك بخمسة وأربعين عاما . وكانت الجدران تزدان بالأقمشة المزركشة بالصور والرسوم ، مما مهد الطريق لرسم اللوحات ، فى عهد شارل الأول . واستخدم معظم الناس المقاعد الطويلة لشخصين أو أكثر والكراسى ذوات الأرجل الثلاث ، أما الكرسى ذو الظهر فكان ترفا اختص به الضيف الكريم أو رب البيت أو ربته ، ومن هنا جاء التعبير « يأخذ الكرسى ذا الظهر » بمعنى « يترأس المجلس » ، وفيما عدا هـــذا كان الأثاث متينا رائعا . فكانت ، صواوين المائدة (البوفيه) والمنضدة وخزائن النفائس (دولاب الفضية) والصناديق الثمينة والأسرة ذوات القوائم العالية تصنع وتحفر من خشب الجوز أو البلوط ، لتعمر قرونا طويلة . وكان السرير المزود بحشايا سميكة من الريش ، وبأغطية مطرزة ، وظلة حريرية (ناموسية) ، يتكلف ألفا من الجنيهات ، ويعتبر شيئا ثمينا يزهو به أهل البيت ويتوارثونه جيلا بعد جيل . وخلف البيت أو حوله ، فى كل الطبقات تقريبا ، كانت توجد حديقة زاخرة بالأشجار والشجيرات ، تهيئ لهم الظل ، وتمدهم بالأزهار التى اعتاد النساء أن

يستعملنها فى تزيين بيوتهن وشعورهن ، واعتاد شكسبير أن يعطر بهـا شعره — زهرة الربيع ، الزنبق ، صريمة الجدى (شجيرة أزهارها غنية بالرحيق) وزهر العايق الجميل ، والقرنفل الملتحى ، والادريون (القطيفة) ، وزهرة كيوبيد وزنبقة الوادى ، وغيرها كثير ، بالإضافة إلى الورود البيضاء أو الحمراء . . . . ويقول بيكون : « ان الله سبحانه وتعالى غرس حديقة ، لولاها لكانت الأبنية والقصور التى شيدها الإنسان فظة غير مقبولة[٤١] » .

وغالبا ما تكلفت زينة المرء أكثر كثيرا من زخرفة بيته ولم يبز أى عصر من العصور عصر اليزابث فى فخامة الثياب . وكان من بين نصائح بولونيوس قوله : « إن ثمن الثياب مرهون بما تستطيع أن تدفع » . وعند الطبقات الموسرة اجتمعت كل الأزياء من فرنسا وإيطاليا وأسبانيا ، لتعوض الإنسان عما سلبته إياه الشهوة والزمن . وسخرت بورشيا من الشاب فالكنبردج قائلة : « أظنه اشترى صداره من إيطاليا وسرواله القصير من فرنسا ، وقلنسوته من ألمانيا وسلوكه من كل مكان[٤٢] » . وضربت اليزابث مثلا ونموذجا للتزين ، إلى درجة أنه فى عصرها تغيرت الأزياء مرارا وتكرارا ، لأن محاكاة الناس لها بشكل عام ، كادت تمحو الفروق الطبقية . وتبدى شخصية من شخصيات « أسمع جعجعة ولا أرى طحنا Much ado adout Nothing » « الحزن والأسف على أن » تغير الأزياء يفنى من الثياب أكثر مما يفنيه الإنسان[٤٣] . وحاولت قوانين الانفاق أن تضع حداً لهذا الاضطراب والفوضى فى حياكة الملابس ، نصدر قانون ١٥٧٤ ليعالج « التبذير والضياع عند عدد كبير من الشبان « الذين يلبسون ما يملكون من أرض فوق ظهورهم » . وحرم هذا القانون على غير الأسرة المالكة ، والدوق والمركيز والارل ، لبس اللون الأرجوانى ، أو الحرير أو القماش الموشى بالذهب ، أو فراء السمور ، كما حرم على غير البارونات وذويهم لبس الفراء والمخمل القرمزى . أو الأصواف المستوردة ، والملابس المطرزة بالذهب أو الفضة أو اللؤلؤ[٤٤] ، ولكن سرعان ما أمكن التهرب من هذه القوانين ، لأن البرجوازية الطامعة استنكرتها لا لأنها مثيرة للاستياء والغضب فحسب ، بل لأنها كذلك تعوق التجارة . فألغيت فى ١٦٠٤ .

واتخذت القبعات على أى شكل ومن أى لون ، من القطيفة أو الصوف أو الحرير أو الشعر الناعم الرقيق ، ووضع الناس قبعاتهم على رءوسهم دائما تقريباً ، خارج البيت أو البلاط ، وحتى فى الكنيسة كان الرجال يرفعون قبعاتهم — تمسكا بالمراسم — عند الالتقاء بالسيدات . ولكنهم يلبسونها فورا . واحتفظ الرجال بشعورهم الطويلة قدر ما احتفظت النساء بها . وأرخوا اللحى غزيرة . ووضع الجنسان كلاهما حول الرقبة طوقا مكشكشا وياقة من الكتان و « الكمبريكى Cambric » (قماش من القطن أو الكتان أبيض ناعم) موضوعة على اطار من الورق المقوى والأسلاك ، تيبست فى ثنيات أو طيات عريضة حادة ، « بمادة سائلة سموها النشا[٤٥] » ظهرت فى إنجلترا آنذاك لأول مرة . وكانت كترين دى مديتشى أدخلت هذه البدعة إلى فرنسا ١٥٣٣ بوصفها شيئا للتزين والزخرف . ولكن الزى السائد (موضة العصر) توسع فيها حتى جعل منها آلة تعذيب تصل إلى الأذنين .

وجعلت الملابس من النساء لغزاً لا يمكن النفاذ إلى كنهه إلى حين . ولا بد أن نصف يومهم كان يستغرق فى اللبس والخلع . ويتم تجهيز السفينة وتزويدها بكل ما يلزمها بأسرع مما تتزين المرأة[٤٦] . حتى الشعر كان يمكن أن يلبس أو يخلع . لأن اليزابث رسمت لهم نموذجا فى لبس اللامة أو الشعر المستعار المصبوغ بلون خصلاتها الذهبية أيام شبابها . وكان الشعر المستعار شائعا لأن النساء الفقيرات — كما قال شكسبير — كن يبعن خصلات شعرهن « بالميزان[٤٧] » . وبدلا من القبعات آثر معظم النساء قلنسوة بالغة الصغر أو شبكة شفافة تسمح بابراز فتنة شعرهن . وكانت أدوات التجميل تصبغ الوجوه وتزجج الحواجب ، والأقراط تتدلى من الآذان ، والمجوهرات تتألق فى كل مكان . وكان الطوق المكشكش للنساء ، مثل ما هو للرجال ، ولكن كان صدر المرأة فى بعض الأحيان عاريا إلى حد ما[٤٨] . ولما كانت اليزابث ضامرة الصدر مستطيلة البطن ، فقد ابتدعت زيا تطول فيه السترة على شكل مثلث إلى رأس دقيق تحت الخصر المشدود . وكانت التنورة تمتد من الأوراك بواسطة الطوق الموسع . وكانت العباءة المصنوعة من قماش هفهاف بشكل محكم ، تغطى الأرجل ، وابتدعت الملكة الجوارب الحريرية . وكانت التنورات تتدلى

حتى تمس الأرض ، والأكمام منتفخة ، والقفازات مطرزة معطرة . وكانت السيدة تستطيع فى الصيف أن تتحدث بالمروحة المزدانة بالجواهر ، ومن ثم تأتى بأفكار فيها من الرقة مالا تعبر عنه الكلمات .

ولكن الحياة فى البيت نادرا ما كانت بملابس كاملة . وكان تناول الأفطار فى الساعة السابعة والغذاء فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة ، والعشاء فى الخامسة أو السادسة . وهكذا ينقضى النهار . وكانت الوجبة الرئيسية يتناولونها قرب الظهر ، وكانت وجبة زاخرة بألوان الطعام . وقال أحد الفرنسيين « إن الإنجليز يملأون بطونهم(٤٩) » . وظلت الأصابع تقوم مقام الشوكة التى بدأ استعمالها فى عهد جيمس الأول . وكانت الأطباق الفضية تزين البيوت الموسرة . وكان اختزانها بالفعل وقاء ضد التضخم . أما الطبقات الوسطى الدنيا فانها استخدمت أوانى من القصدير (البيوتر) ، واستخدم الفقراء أطباقا من الخشب وملاعق من مادة قرنية (من القرون) . وكان اللحم والسمك والخبز هى الأطعمة الرئيسية ، وكان كل من يداوم عليها تقريبا يعانى من داء النقرس . وكانت منتجات الألبان شائعة مألوفة فى الريف لأن وسائل التبريد كانت لا تزال غير متوفرة فى المدن . وكان الفقراء فقط يستخدمون الخضروات بكثرة لأنهم كانوا يزرعونها فى أراضى حدائقهم . وكان البطاطس الذى جاء به والتر رالى أثناء رحلاته فى أمريكا ، من إنتاج الحدائق ؛ لأنه لم يكن قد أصبح من محاصيل الحقول . واشتهر الإنجليز « بالبودنج » (نوع من الحلوى) يستطيبون أكله فوق الفاكهة التى يختمون بها طعامهم . وكان الإنجليز يقبلون على الحلوى ، قدر اقبالهم عليها اليوم . ولهذا كانت أسنان اليزابث سوداء .

وتطلبت هذه الأكلات الشهية بعض السوائل المزلقة : الجعة ، البيرة ، النبيذ أو عصير الفاكهة . ولم يكن الشاى والقهوة قد أصبحتا مشروبات إنجليزية . وشاع شرب الويسكى فى أنحاء أوربا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر (وكان يسمى ماء الحياة) . وكان تقطيره من الحبوب فى الشمال ، ومن النبيذ فى الجنوب . وكان شرب الخمر بمثابة احتجاج على المناخ الرطب . وتوحى عبارة « ثمل كأنه لورد » بأن هذ العلاج كان يتمشى مع السلم الاجتماعى . وأدخل التبغ إلى إنجلترا على يد

جون هوكنز (١٥٦٤) ودريك ، وسير رالف لين ، وجعل رالي من التدخين عادة مألوفة فى البلاط ، وأخذ منه نفثة أو نفثتين قبل ذهابه إلى المشنقة ، وكان التبغ في أيام اليزابث غالى الثمن إلى درجة حالت دون انتشار التدخين ، وفى بعض التجمعات التى تسودها الألفة والبهجة ، كانوا يعمدون إلى تمرير غليون واحد على كل الضيوف حتى يستمتع كل منهم بنصيبه من التدخين وفى ١٦٠٤ شن الملك جيمس « هجوما عنيفا على التبغ » ، ناعيا ادخاله إلى إنجلترا محذرا من « سم معين » فيه . يقول : —

" أليس من أشد الحمق والقذارة أنه على المائدة ، وهى محل الاحترام والنظافة والتواضع . لا يخجل الناس من أن يتقاذفوا الغلايين وينفثوا الدخان ، الواحـــد منهم فى وجه الآخر . فينبعث الدخان القذر والرائحة الكريهة على الأطباق . ويلوث الهواء ؟ .

لقد انتشر استعماله فى كل زمان وفى كل مكان بين الناس على اختلافهم . . . لأنهم ، على الأقل ، اضطروا إلى تناوله ، على كره منهم ، خجلا من أن يرموا بالشذوذ . . . وفوق ذلك ، وهذا اثم كبير ، فإن الزوج لا يخجل من أن يكره زوجته الرقيقة الصحيحة الجسم النظيفة البشرة على هذا الخطر العظيم — التدخين — فتفسد بذلك أنفاسها الزكية ، أو توطن النفس على أن تظل دوما فى عذاب الثمل . . . انها عادة ضارة بالعينين ، كريهة للأنف ، مؤذية للمخ ، خطرة على الرئتين . إن هذا الدخان الأسود الكريه أقرب الشبه بنار جهنم التى لا قرار لها(٥٠) ".

وبرغم هذا ، وبرغم الضرائب الباهظة ، كان فى لندن سبعة آلاف حانوت لبيع التبغ . ولم يحل اشعال الغليون ونفث الدخان محل الحديث والمناقشة ، فقد تحدث أفراد الجنسين بصراحة فى موضوعات يقتصر فيها الحديث الآن على قاعات التدخين وملتقى الشوارع ، أو على رجال العلم . وتنافس النساء مع الرجال فى حلف الأيمان التى تقارب الكفر والتجديف على الله . وفى الدراما فى عهـــد اليزابث يلتصق العهرات بالأبطال . وترقش التورية « المأساة » العنيفة . وكانت آداب السلوك

متكلفة أكثر منها مهذبة . وغالبا ما تدرجت الكلمات إلى لطمات . وجاءت آداب كما جاءت الأخلاق ، من إيطاليا وفرنسا ، كما جاءت الكتيبات التي عالجت قواعد السلوك واللياقة ، وحاولت أن تجعل من الأرستقراطيين سادة أفاضل ، ومن الملكات سيدات فضليات . وكانت أساليب التحية مسرفة فى التعبير ، واقترنت بالتقبيل غالبا . وكانت البيوت بما فيها من الأضواء وحفلات الابتهاج الصاخبة ، أكثر مرحا عن ذى قبل ، أيام الارهاب فى العصور الوسطى ، وفيما بعد أيام البيوريتانية وما سادها من كآبة . وكانت الأعياد والمهرجانات كثيرة ، فأى شيء يمكن أن يبرر إقامة احتفال أو عرض ، فالزفاف ، أو الولادة ، بل حتى الجنازة ، قد تهيئ مناسبة للاحتفال ، أو على الأقل للولائم . ومارسوا الألعاب على اختلاف أنواعها فى البيوت والملاعب ، وعلى نهر التاميز . وقد ذكر شكسبير « البلياردو » ، وتحدث فلوريو عن « الكركت » وسخر الناس من القوانين الزرقاء وأيام الأحد الزرقاء (قوانين متشددة سنها البيوريتانز يحرمون بها الرقص والألعاب والمهرجانات يوم الأحد . . .) وإذا كانت الملكة قد خطت الخطوة الحميدة السارة : فلم لا يترسم الناس خطاها ويحذون حذوها ؟ لقد رقص كل الناس تقريبا : بما فيهم كما قال بيرتون « عجائز النساء والرجال الذين كان لهم من أصابع القدمين أكثر مما فى الأفواه من أسنان » . وكان كل الإنجليز يغنون .

٦ — الموسيقى الإنجليزية ١٥٥٨ — ١٦٤٩

إن الذين لا يعرفون من إنجلترا إلا الفترة التى أعقبت البيوريتانية ، لا يمكنهم أن يحسوا بالدور البهيج الذى لعبته الموسيقى أيام اليزابث . فمن البيت والمدرسة والكنيسة والشارع والمسرح ونهر التاميز ارتفعت ألحان الموسيقى المقدسة أو الماجنة — القداسات ، الموسيقى الطباقية المتعددة النغمات ، القصائد الغزلية ، الأغانى الشعبية ، وأغانى الحب الرقيقة القصيرة . مثل تلك التى وجدت لها مجالا فى روايات عهد اليزابث . وكانت الموسيقى برنامجا أساسيا فى مناهج التعليم ، وخصص لها فى مدرسة وستمنستر ساعتان فى الأسبوع ، وكان فى أكسفورد كرسى للموسيقى (١٦٢٧) وكان مفروضا أن يقرأ كل رجل مهذب الموسيقى ويعزف على كل بعض الآلات .

وفى كتاب توماس مورلى : « مقدمة واضحة ميسرة عن الموسيقى العملية » جاء ذكر رجل إنجليزى خيالى ساذج غير مثقف ، يعترف بخجله وعاره ، فيقول :

« بعد العشاء جيء بكتب الموسيقى ، كما كانت العادة ، وقدمت إلى سيدة البيت شيئا منها ، وطلبت فى رفق أن أغنى ، فاعتذرت كثيرا ، وامتنعت ، وقلت وأنا صادق فيما أقول ، انى لا أعرف ، فتعجب كل الحاضرين ، وتهامسوا متسائلين : كيف نشأ هذا الرجل ؟ (٥١) »

وكانت حوانيت الحلاقين تقدم للزبائن المنتظرين آلات موسيقية ليعزفوا عليها .

وكانت الموسيقى فى عهد اليزابث ، فى معظمها ، علمانية ، وبقى بعض الملحنين ، من أمثال طاليس وبيرد وبل ، على مذهبهم الكاثوليكى برغم القوانين ، وألفوا الموسيقى للطقوس الرومانية ، ولو أن تلك التآليف لم تكن تعزف علنا . واعترض كثير من البيوريتانيين على موسيقى الكنيسة باعتبار أنها تشتت أذهان المصلين وتصرفهم عن التقوى . وأنقذت اليزابث والأساقفة موسيقى الكنيسة فى إنجلترا ، كما أنقذها بالسترينا ومجلس ترنت فى إيطاليا . وساندت الملكة بعزيمتها المعهودة رؤساء المنشدين الذين نظموا الفرق الموسيقية الكبيرة والموسيقى الرسمية للكنيسة الملكية والكاتدرائيات . وأصبح كتاب الصلوات العامة ، مرجع النصوص الموسيقية الهائل للملحنين الإنجليز ، وكانت الصلوات الأنجليكانية تنافس الصلوات الكاثوليكية فى القارة فى فخامة فن تعدد الألحان ووقاره . وحتى البيوريتانيون أنفسهم ، منتهجين نهج كلفن ، أقروا انشاد جماعات المصلين للترانيم . وسخرت اليزابث منهم قائلة : « ان جنيف ترقص ، أما هؤلاء فقد ارتقوا إلى مستوى التراتيل والتسابيح الكريمة » .

ولما كانت الملكة تحمل بين جنبيها روحا دنيوية دنسة ، مولعة بالغزل والملق والملاطفة والتودد ، فقد كان من المعقول أن تكون القصيدة الغزلية هى مفخرة الموسيقى فى عهدها — أغنية حب فى طباق موسيقى — وهى جزء من أغنية لا تصاحبها الآلات الموسيقية . ووصلت القصيدة الغزلية من إيطاليا ١٥٥٣ ، ففتحت الطريق .

وحاول مورلى أن يسهم فى هذا المجال ، وشرحها فى حواره السهل الرشيق ، ودعا إلى تقليدها ، وثمة قصيدة غزلية لخمسة مغنين ، وضعها جون دلباى ، توحى بالأفكار الرئيسية فى هذه الأغانى .

واحسرتاه . أية حياة تعسة ، وأى موت هذا ،
حيث المحبوب الظلوم يسيطر ويتحكم !
ان نضارة أيامى تذبل وأنا فى ربيع العمر ،
وتلاشت أحلامى الجميلة تماما ، وحياتى تنصرم .
وتولت أفراحى الواحد بعد الآخر
وتركت أعانى سكرات الموت
من أجل تلك التى تحتقر آهاتى وأناتى .
آه ، انها لتهجرنى ، وتكبت حبى
وهى التى من أجلها ، واحسرتاه ، أموت شاكيا ، وهى متحجرة القلب[٥٢].

وكان وليم بيرد شكسبير الموسيقى فى عهد اليزابث ، اشتهر بالقداسات والقصائد الغزلية الملفوظة أو المعزوفة على الآلات ، والألحان على حد سواء . وكرمه معاصروه على أنه « رجل عظيم جدير بالذكر » . وقال عنه مورلى « انه حظى من الاجلال والاحترام ما يستحق معه أن يخلد اسمه بين الموسيقيين[٥٣] » وكان فى مثل مكانته العالية وتعدد براعاته وجوانبه أورلندوجيبون وجون بل Bull ، وهما عازفان على الأرغن فى الكنيسة الملكية . واشترك هذان مع بيرد ١٦١١ فى وضع أول كتاب عن لوحة المفاتيح للموسيقى فى إنجلترا ، وهو كتاب Parthenia ، أو باكورة أول موسيقى طبعت فى إنجلترا للعذراوية » (وهى آلة موسيقية شبيهة ببيان صغير بدون قوائم .) وفى نفس الوقت أكد الإنجليز شهرتهم فى تلحين الأغنية المنفردة (مع آلة واحدة أو مغن واحد) ، ذات العذوبة الجميلة المعبقة بعبير الريف الإنجليزى ، وحظى جون دولند الذى اشتهر بالعزف على العود ، بالمدح والثناء من أجل أغانيه ، ونافسه توماس كامبيون منافسة شديدة . ومن ذا الذى لا يعرف مقطوعة كامبيون : « الكرز الناضج — Cherry Ripe ؟ [٥٤] »

وكان الموسيقيون ينتظمهم اتحاد قوى ، انفصمت عراه بسبب الصراع الداخلى أيام شارل الأول(٥٥) ، وكادت الآلات تتنوع ، كما هى اليوم : العود ، القيثار ، الأرغن ، العذراوية ، أو البيان الصغير ، موترة المفاتيح (آلة موسيقية وترية مزودة بلوحة مفاتيح) أو البيـــان القيثارى ، الفلوت (آلة نفخ موسيقية) ، الصافرة ، المزمار ، البوق ، المترددة ، النفير ، الطبول ، وأشكال كثيرة من الفيول ، حل محلها الكمان الحالى . وكان العود مفضلا فى العزف . وفى مصاحبة الغناء ، أما العذراوية ، وهى الأم المتواضعة للبيان ، فكانت محبوبة شائعة لدى السيدات الصغيرات ، وعلى الأقل قبل الزواج ، وألفت الموسيقى الآلية أساسا للعذراوية والفيول والعود . ولحن نوع من الموسيقى الحجرية (موسيقى الحجرة : يعزفها بضعة موسيقيين أمام نفر قليل من الناس .) للعزف على عدة فيولات تختلف فى الحجم والطبقة . وفى مسرحية تنكرية للملكة آن زوجة جيمس الأول ، استخدم كامبيون فرقة من عازفى العود وموترة المفاتيح والبوق مع تسعة فيولات . (١٦٠٥) وقد انحدر إلينا كثير من الموسيقى الآلية التى وضعها بيرد ومورلى ودولند وغيرهم . وهى مؤسسة إلى حد بعيد على أشكال الرقص ، كما تتبع النماذج الإيطالية ، وتتفوق فى الجمال الرقيق المرهف أكثر منها فى القوة والطبقة . وتطورت الفوجة وفن مزج الألحان ، ولكن دون تنوع فى الأفكار الرئيسية أو الموضوع ، أو براعة فى تغيير طبقة الصوت والانتقال من نغمة إلى أخرى ، أو نشاز مقصود أو تناغم لونى . ومع ذلك فاننا عندما ترهق أعصابنا بمشاق حياتنا الحديثـــة ، نجد فى موسيقى عصر اليزابث ما يخفف عنا ويريح أعصابنا ، فليس فيها كلام طنان منمق ، ولا تنافر مزعج ، ولا خواتيم راعدة ، انك لا تسمع فيها إلا صوت شاب إنجليزى أو شابة إنجليزية تغنى فى حزن أو ابتهاج ، انشودة الحب السرمدى الذى تعترض العوائق سبيله .

٧ — الفن الإنجليزى ١٥٥٨ — ١٦٤٩

لم يكن للفن فى هـــذا العصر شأن يذكر . وأنتج بعض صناع المعادن بعض

المشغولات الفضية الجميلة ، مثل مملحة موشين للمائدة ، والنوافذ المصبغة الفاخرة مثل الموجودة فى كنيسة سان جورج فى وندسور . ودخلت صناعة زجاج الزينـــة الفنيسى حوالى ١٥٦٠ . وفاقت قيمة الأوانى المصنوعة من هذا الزجاج قيمة مثيلاتها من الذهب أو الفضة . ولم يكن النحت وصناعة الخزف مشهورتين . وافتتح نيقولا هليارد مدرسة لرسم المنمنمات ، ومنحته اليزابث احتكار اخراج رسوم لها بهـــذا الأسلوب . أما رسامو الأشخاص فقد استقدموا من الخارج . فجاء فدريجو زوتشارو من إيطاليا ، وماركوس جيرار وابنه الذى يحمل نفس الاسم من الأراضى الوطيئة . وخلف لنا الابن صورة مهيبة لوليم سيسل فى ثياب متألقة فضفاضة فخمة ، وهى التى يرتديها الفرسان الذين يحملون وسام ربطة الساق(٥٦) . وفيما عدا هذا لا توجد فى إنجلترا لوحات أو رسوم عظيمة فيما بين هولبين ، وفانديك :

ولكن العمارة كانت فنا عظيما فى إنجلترا فى عهد اليزابث وجيمس . وتكاد تكون علمانية تماما . وبينما كانت أوربا تناضل من أجل المذاهب الدينية ، أهمل الفن الدين كما أهمله السلوك . وفى القرون الوسطى ، حين تأصلت جذور أعمق للشعر والفن فى السماء ، توفرت العمارة على بناء الكنائس ؛ وجعلت من الدور شكلا من أشكال سجون الحياة . وفى إنجلترا على عهد أسرة التيودور ، هجر الدين الحياة إلى السياسة ، وذهبت أموال الكنيسة إلى أيد دنيوية ، وتحولت إلى صروح مدنية وقصور باذخة ، وتبعا لذلك تغير الطراز . وفى ١٥٦٣ عاد جون شوت **Shute** من إيطاليا وفرنسا مسرعا مع (أفكار) فتروفيوس وبالاديو ، وسرليو . ونشر على الفور « الأسس الأولى والهامة للعمارة » يمجد الطرز الكلاسيكية القديمة . ومن ثم انتقل إلى إنجلترا احتقار إيطاليا للفن القوطى ، وكافحت الأعمدة الرأسية القوطية لتجد لها متنفسا وسط أفقيات النهضة التى تطوقها .

إن هذا العصر يستطيع أن يفاخر ببعض المنجزات الجميلة فى العمارة المدنية : بوابة الشرف فى كلية كايوس ، والساحة الرباعية الزوايا بكلية كلار ، فى كمبردج ، ومكتبة بودليان فى أكسفورد ، وسوق الأوراق المالية فى لندن ، واحدى دور القضاء المسماة **Middle Temple** . ولما كان المحامون منذ أيام ولزى ، قد حلوا

محل الأساقفة فى إدارة البلاد فى إنجلترا ؛ فقد كان من اللائق أن تكون تحفة النهضة المعمارية فى عهد اليزابث هى القاعة الكبرى فى مدرسة الحقوق التى كملت فى الدار سابقة الذكر ١٥٧٢ . ولم يكن فى إنجلترا كلها أشغال خشب أجمل من الحاجز المصنوع من خشب البلوط فى الطرف الداخلى لهذه القاعة . وقد دمرته القنابل فى الحرب العالمية الثانية .

وحالما تهيأت الأسباب لأقطاب عصر اليزابث ، شادوا قصورا نافسوا بها قصور الاقطاع الفرنسى على نهر اللوار . فشاد سيرجون ثين Thynne قصر لونجليت ، واليزابث كونتيسة شروزبرى قاعة Hardwick ، وبنى تومارس ارل سفوك Suffolk قصر Audley End الذى بلغت تكاليفه ١٩٠ ألف جنيه « حصل عليها أساسا من الرشا الأسبانية(٥٧) » . وشيد سير ادوارد فيلبس قصر مونتاكوت على طراز عصر النهضة البسيط غير المبالغ فى زخرفته ، كما بنى سير فرانسيس Willoughby قاعة Wollaton . كما أنفق وليم سيسل بعض ما جمع من مال فى ابتناء قصر ضخم بالقرب من ستامفورد ، وانفق ابنه روبرت ما يقارب هذا القدر على تشييد قصر هاتفيلد ، الذى يعتبر بهوه الطويل القائم على أعمدة ، أضخم الأجزاء الداخلية فى العمارة فى ذاك العصر . ومثل هذه الأبهاء الطويلة المقامة على أعمدة عالية ، حلت فى قصور عهد اليزابث محل القاعة الخشبية العظيمة فى قصر مالك الأرض . ان المداخن الكبيرة والأثاث الضخم المصنوع من خشب الجوز أو خشب البلوط ، والمدرج الفخم والدرابزين المنقوش ، والسقوف الخشبية — نقول إن هذه كلها ، هيأت لغرف هذه القصور من الدفء والعظمة ما كان ينقص الغرف الأكثر تألقا فى القصور الفرنسية ؛ ومبلغ علمنا أن مصممى هذه القصور كانوا أول من حصلوا على لقب مهندس معمارى . ان اللوحة المنقوشة على ضريح روبرت سميثسون Smythhshon ، الذى أنشأ قاعة وللاتون ، تسميه « البناء البارع » . أما الآن ، وأخيرا ، فقد وجدت المهنة العظيمة اسمها الحديث (الهندسة المعمارية) .

كذلك أصبح الفن الإنجليزى فى تلك الأيام فنا شخصيا ، حيث طبع الرجل عمله بطابع شخصيته وإرادته . ولد انيجو جونز فى سميثفيلد ١٥٧٣ ، وأظهر فى شبابه

ميلا إلى التصميم حدا بأحد النبلاء (ارل) أن يبعث به إلى إيطاليا (١٦٠٠) ليدرس عمارة عصر النهضة . ولما عاد إلى إنجلترا ١٦٠٥ أعد مناظر كثير من المسرحيات التنكرية للملك جيمس الأول وزوجته الدنمركية ، وزار إيطاليا ثانية (١٦١٢ — ١٦١٤) وعاد متحمسا للقواعد المعمارية القديمة التي سبقت له دراستها في ترجمتها الانجليزية للمهندس المعماري الروماني فتروفيوس (القرن الأول قبل الميلاد) ، والتي وجد خير مثال لها في أبنية بللاديو ، وبيروتزي ، وسان ميشيلي ، وسانسوفينو في فينيسيا وفيشنزا . ونبذ هذا الخليط الشاذ من الأشكال الجرمانية والفلمنكية والفرنسية والإيطالية التي كانت قد سيطرت على العمارة في عصر اليزابث . واقترح طرازا خالصا ، يمكن فيه الاحتفاظ بالنظم الدورية والآيونية والكورنثية متفرقة أو مجتمعة في تتابع ووحدة متجانستين .

وفي ١٦١٥ عهد إليه بكل الإنشاءات الملكية بوصفه مشرفا عاما على الأعمال . ولما احترقت قائمة الولائم في قصر هويتهول ودمرت ١٦١٩ ، عهد إلى جونز بتشييد قاعة جديدة للملك . فوضع تصميم مجموعة ضخمة من المنشآت — ١١٥٢ × ٨٧٤ قدما في جملتها — ولو اكتمل بناؤها لهيأت لعاهل بريطانيا قصرا أوسع بكثير من اللوفر أو التويلري أو الاسكوريال أوفرساي . ولكن جيمس آثر أن يعيش يومه عن أن يبني للقرون . واقتصر الانفاق على قاعة الولائم الجديدة ، التي لم يتوفر لها ما قصد من أبهة ، فباتت مظهرا كاذبا غير جذاب للخطوط القديمة وخطوط عصر النهضة . ولما طلب رئيس الأساقفة لود من جيمس الأول اصلاح كاتدرائية سانت بول القديمة ، ارتكب المهندس جريمة تغطية صحن الكنيسة القوطي الطراز بمظهر خارجي من طراز عصر النهضة ، ولحسن الحظ دمر الحريق الكبير الذي حدث ١٦٦٦ هذا المبنى . وحلت واجهات جونز المأخوذ تصميمها عن بللاديو . محل الطراز التيودوري . وسادت في إنجلترا حتى أواسط القرن الثامن عشر .

ولم يخدم جونز الملك شارل الأول بوصفه كبير مهندسيه فحسب ، بل انه تعلم كيف يحب هذا الرجل المنكود ، بشكل واضح ، إلى حد أنه عند ما نشبت الحرب الأهلية دفن مدخراته في **Lambeth marshes** وهرب إلى هامبشير (١٦٤٣) .

وقبض عليه جنود كرومول هناك ، ولكنهم أبقوا على حياته مقابل ١٠٤٥ جنيها[٥٨]. وفى أثناء تغيبه عن لندن وضع تصميم قصر ريفى فى ولتشير من أجل ارل بمبروك ، كانت واجهته من طراز عصر النهضة البسيط ، أما الداخل فكان آية فى الفخامة والأناقة ، فان القاعة « المزدوجة التكعيب » — ٦٠ × ٣٠ × ٣٠ قدما ، قيل بأنها أجمل قاعة فى إنجلترا [٥٩] . ومذ استنفذت الجيوش الملكية ثروات الأرستقراطية ، فقد جونز الرعاية والحب والألفة ، وانزوى وأفل نجمه ، ومات فقيرا ١٦٥١ . لقد غلب النعاس على الفن ، على حين أعادت الحرب تشكيل الحكومة الجديدة فى إنجلترا .

٨ — الرجل فى عهد اليزابث

كيف نفهم الرجل الإنجليزى على عهد اليزابث من المواطن البريطانى المزعوم أنه رزين صامت ، والذى عهدناه فى شبابنا ، وهل يمكن أن يكون الخلق القومى من صنع الزمان والمكان والتغير ؟ لقد اعترضت البيوريتانية والميثودية (المنهجية — حركة اصلاح الكنيسة الانجليزية فى النصف الأول من القرن الثامن عشر) بين العصرين والنمطين : قرون سادت فيها مدارس ايتون ، وهارو ، ورجبى ، وعهود الغزاة الطائشين الذين يخمدون أنفاس الناس حين يسيطرون .

لقد كان الرجل الانجليزى فى عهد اليزابث سليل النهضة تماما . وفى ألمانيا قهر الاصلاح الدينى النهضة ، وفى فرنسا نبذت النهضة الاصلاح الدينى . وفى إنجلترا اندمجت الحركتان كلتاهما . فقد انتصر الاصلاح الدينى فى حكم اليزابث ، وانتصرت النهضة فى شخصها هى . وكان ثمة بعض البيوريتانيين من ذوى الحس المتبلد ، ولو لم يكونوا صامتين ، ولكنهم لم يطرقوا الباب . ولكن كان الرجل المهيمن فى ذاك العصر شعلة من نشاط ، متحررا من المبادئ والتعاليم والعوائق العتيقة ، ولو لم يكن مرتبطا بشىء جديد بعد ، ولم يكن ثمة حدود لطموحه وأطماعه ، وكان متطلعا إلى تنمية قدراته ، لا يقعده شىء عن المرح ، يتذوق الآداب إذا كانت تنبض بالحياة ، ميالا إلى العنف فى العمل وفى الحديث ، ولكنه ، وسط

كلامه المنمق الطنان ورذائله وقساوته ، يجاهد ليكون سيدا مهذبا . وتأرجح مثله الأعلى بين صفات الكياسة والمجاملة واللطف المحببـــة إلى النفوس والتى ذكرها كاستليونى فى كتابه « رجل البلاط » وبين ما جاء به ماكيافللى فى كتابه « الأمير » من لاأخلاقيات لا تعرف الرحمة إليها سبيلا . لقد أعجب بسدنى ، ولكنه تاق إلى أن يكون مثل دريك .

وشقت الفلسفة طريقها فى شرخ العقيدة الدينية المتهاوية . وكانت أحسن العقول فى ذاك الزمان هى أشدها ارتباكا وحيرة . وكانت هناك نفوس محافظة سليمة العقيدة ، ونفوس وديعة مجبولة على الجبن ، وفى وسط هذا التدفق الذى لا يتوقف كان ثمة رجال أفاضل مثل روجر أسكام . ولكن تلاميذهم كانوا فى لجة المغامرة ؛ وإليك ما يقوله جبرابيل هارفى عن كمبردج :

تعلموا الإنجيل ، ولم يعوه أو يحفظوه ، والمبدأ المسيحى فاتر ضعيف ، وليس ثمة شيء حسن إلا بنسبته إلى شخص ما . وباختصار ألغى قانون الطقوس الرسمى ، وأبطل قانون القضاء تماما من الوجهة العملية ، وتخلى الناس عن القانونى الأخلاقى ، وألح الجميع فى طلب الجديد ، من الكتب والأزياء والقوانين ، وألح بعضهم فى طلب سموات جديدة ، وجهنم جديدة أيضا ، وفى كل يوم تظهر آراء جديدة مشكلة حديثا ، فى الهرطقة واللاهوت والفلسفة والإنسانية والسلوك .. ولم يكن الشيطان مكروها قدر كراهية الناس للبابا(٦٠) .

وكان كوبرنيكس قد قلب العالم ، وأطلق الأرض مندفعة هائمة فى الفضاء ، وجاء جيوردانو برونو إلى أكسفورد ١٥٨٣ وتحدث عن الفلك الحديث وعن العوالم اللانهائية ، وعن الشمس التى تفنى بفعل حرارتها ، وعن الكواكب السيارة التى تتلاشى فى ضباب ذرى . وأحس شعراء مثل جون دون ، ان الأرض تنساب من تحت أقدامهم .

وفى ١٥٩٥ شرع فلوريو فى نشر ترجمته لمونتانى . ولم يكن ثمة شيء يقينى بعد ذلك . وامتلأ الناس بالشك ، وكما أن مارلو هو مكيافللى ، فان شكسبير هو

مونتانى . وعلى حين شك الرجال العقلاء ، كان الشبان الصغار يخططون . وإذا بدا أن السماء ضاعت فى سحابة فلسفية ، فيمكن الشباب أن يعقدوا العزم على امتصاص الحياة جافة ، ويختبروا كل الحقيقة مهما تكن مميتة . وكل الجمال مهما يكن سريع الزوال ، وكل القوة مهما تكن سامة ، وهكذا رأى مارلو فى فاوست وتامبورلين .

إن انتزاع الأفكار القديمة . وتحرير العقل ليعبران تعبيرا جبارا عن الآمال والأحلام الجديدة ، وهما اللذان خلدا عهد اليزابث فى إنجلترا . وماذا كان يهمنا من أمر منافساتها السياسية ، ونزعاتها الدينية وانتصاراتها الحربية ، إذا انحصر أدب عصرها فى تلك الأشياء العابرة ، ولم يعبر عن تطلعات النفوس المفكرة فى كل عصر . وحيرتها ونياتها . ان كل تأثيرات هذا العصر المثير انتهت إلى نشوة إنجلترا على أيام اليزابث . فان رحلات الغزو والكشف التى وسعت الكرة الأرضية والسوق والعقل ، وثراء الطبقة المتوسطة الذى وسع مجال المشروعات وأهدافها ، والكشف عن الآداب والفنون الوثنية ، وجيشان الإصلاح الدينى ، ونبذ النفوذ البابوى فى إنجلترا . والحوار اللاهوتى ، تلك التى ساقت الناس عن غير عمد ، من العقيدة إلى العقل ، والتعليم ، والاقبال المتزايد على الكتب والمسرحيات ، والسلم الطويل المفيد ، ومن ثم التحدى المثير والنصر الباهر على أسبانيا ، والتصعيد العظيم فى الثقة فى قوة الإنسان وفكره ، تلك كلها كانت الحوافز التى استحقت صعود إنجلترا فى مراقى العظمة والمجد ، وتلك هى الأصول التى نبت منها شكسبير . فالآن ، وبعد انقضاء نحو قرنين من الزمان منذ عهد تشوسر ، اندفعت إنجلترا فى لجة من النثر والشعر والدراما والفلسفة ، وتحدثت جهرا فى شجاعة إلى العالم بأسره .

الفصل الثالث

على سفوح بارناسوس

١٥٥٨ — ١٦٠٣

١ — الكتب

كانت الكتب يتزايد عددها بشكل رهيب ، حتى قال برنابى رتش فى ١٦٠٠ « ان من الأمراض الفظيعة فى هذا العصر هو هذا السيل الضخم من الكتب التى تثقل كاهل العالم غير القادر على هضم هذا القدر الكبير من المادة التافهة التى تخرج إليه كل يوم » كذلك كتب روبرت بيرتون (١٦٢٨) : إننا مهددون بفوضى وتشويش لا حد لهما من الكتب التى ترهقنا ، فتصاب أعيننا بسبب القراءة ، وتتألم أصابعنا بسبب تقليب الصفحات(١) » . وهذان الشاكيان كلاهما من مؤلفى الكتب .

إن النبلاء ، بعد أن تعلموا القراءة ، أجزلوا العطاء وبسطوا رعايتهم على هؤلاء المؤلفين الذين كانوا قد كرموهم وتملقوهم بأهداء مؤلفاتهم إليهم . وكان سيسل ؛ وليستر ، وسدنى ، ورالى ، واسكس ، وسوثمبتون ، وارل ودوقة بمبروك ؛ كان هؤلاء جميعا رعاة وحماة أفاضل أقاموا بين النبلاء الإنجليز وبين المؤلفين علاقة استمرت حتى بعد أن انتهر جونسون راعيه لورد تشستر فيلد ، وكان الناشرون ينقدون المؤلفين نحو ٤٠ شلنا عن كل كراسة ، ونحو خمسة جنيهات عن الكتاب ، وسعى بعض المؤلفين إلى أن يعيشوا على أقلامهم . وظهرت فى إنجلترا هذه الصناعة البائسة ألا وهى « صناعة الأدب » وكانت المكتبات الخاصة كثيرة لدى الأغنياء . ولكن المكتبات العامة كانت نادرة . وفى طريق العودة إلى الوطن من قادس ١٥٩٦ ، توقف اسكس فى فارو بالبرتغال ، واستولى على مكتبة الأسقف جيروم أوزوريوس ، وأهداها إلى سيرتوماس بودلى الذى ضمها إلى مكتبة بودلى التى وهبها لجامعة أكسفورد ١٥٩٨ .

وكانت حياة الناشرين أنفسهم قلقة مضطربة ، خاضعة لقوانين الدولة وهوى الجمهور أو نزواته . وكان منهم فى إنجلترا أيام اليزابث ٢٥٠ ، حيث كان النشر وبيع الكتب حرفة واحدة . وقام معظمهم بعملية الطباعة لأنفسهم ، لأن الفصل بين الطباعة والنشر بدأ حوالى نهاية عصر اليزابث . واتحد الناشرون والطابعون وباعة الكتب ١٥٥٧ فى « شركة القرطاسية » ، وأنشأ تسجيل المطبوعات فى هــذه النقابة « حق الطبع » ، على أن هذا لم يحم المؤلف بل الناشر فقط . وطبيعى أن هذه الشركة لم تسجل من الكتب إلا ما حصل على ترخيص قانونى بطبعه . فقد كان يعتبر جريمة كتابة أو طبع أو بيع أو اقتناء أية مادة تسئ إلى سمعة الملكة أو الحكومة ، كذلك نشر أو استيراد كتب الإلحاد أو المراسيم والرسائل البابوية ، أو اقتناء أية كتب تؤيد سيادة البابا على الكنيسة الإنجليزية[٣] . وكان ثمة جملة معاذير لحرق هذه المراسيم . وفوضت « شركة القرطاسية » هذه فى تفتيش كل دور الطباعة وإحراق أية مطبوعات غير مرخص بها ، وسجن ناشريها[٤] . وكانت الرقابة على المطبوعات فى عهد اليزابث أقسى منها فى أى وقت قبل الاصلاح الدينى . ولكن الأدب ازدهر ، كما شحذت العقول فى فرنسا فى القرن الثامن عشر ، بفضل مخاطر الطباعة .

وكان العلماء قليلين ، وكان عصر خلق وابداع أكثر من أن يكون عصر نقد ، وكان تيار الحركة الإنسانية (التوكيد على قيمة الإنسان وقدرته على تحقيق الذات عن طريق العقل) قد جف معينه فى تلك السنين التى حفلت بالاهتمام باللاهوت . وظل معظم المؤرخين من كتاب الحوليات ، يقسمون مدوناتهم حسب السنين . ولكن ريتشارد نولز Knolles أدهش برجلى ببراعته النسبية فى كتاب « التاريخ العام للأتراك » ١٦٠٣ . وأضفت « حوليات » رافائيل هولنشد على صاحبها مزيدا من الشهرة لم يبذل فيه جهدا ، ذلك أن هذه الحوليات أمدت شكسبير بسير ملوك إنجلترا . واصطبغت « حوليات إنجلترا » (١٥٨٠) لجون ستو Stow « بظلال من الحكمة ، ودعوات إلى الفضيلة وتنفير من الحقائق المرذولة[٥] » ، ولكن طابعها العلمى يرثى له ، وأسلوبها قوى مؤثر . وكان كتابه « استعراض لندن » ١٥٨٠ أدق بحثا وأوسع علما ، ولكنه لم يدر عليه ربحا ، وكان حريا به فى سنى شيخوخته أن يمنح رخصة

للتسول[٦] . وفى لغة لاتينية جيدة سجل وليم كامدن « جغرافية إنجلترا ومناظرها وآثارها » فى كتابه « بريطانيا » ١٥٨٢ . وفى كتابه « حوليات تاريخ إنجلترا فى عهد اليزابث » (١٥ — ١٦٢٧) الذى بنيت قصته على دراسة واعية للوثائق ، مجد كامدن الملكة العظيمة دون حساب ، وامتدح سبنسر وأثنى على روجر أسكام ، ولكنه حزن لموت مثل هذا العالم الجليل فقيرا معدما بسبب حبه للعب النرد ومصارعة الديكة[٧] .

وترك أسكام عند موته ١٥٦٨ بوصف أنه كان سكرتيرا لمارى اللعينة ومعلما خاصا لاليزابث ، أشهر الرسائل الانجليزية فى التعليم ، وهى « المعلم » (١٥٧٠) وموضوعها الأصلى تعليم اللاتينية ، ولكنها تضمنت فى لغة إنجليزية قوية بسيطة ، دعوة إلى احلال الرحمة المسيحية محل صرامة كلية ايتون فى التعلم . وروى أسكام كيف أنه كان يتناول الغداء يوما مع بعض عظماء الرجال فى حكومة اليزابث ، وتطرقت المناقشة إلى موضوع التعليم فى نقد لاذع ، وكيف أن سيسل آثر الوسائل الرقيقة ، وكيف أن سير ريتشارد ساكفيل اعترف سرا لأسكام « بأن معلما أحمق صرفه عن حب التعلم بأسره ، خوفا من الضرب[٨] » .

إن أكبر وأنفع مهمة يضطلع بها العلماء الانجليز كانت إخصاب العقل الانجليزى بالفكر الأجنبى . وفى النصف الثانى من القرن السادس عشر اكتسحت البلاد موجة من الترجمة ، من اليونان وروما وإيطاليا وفرنسا . وكان على هوميروس أن ينتظر حتى ١٦١١ لجورج ، تشابمان وربما أسهم عدم وجود الترجمات الانجليزية للروايات اليونانية فى صبغ دراما عصر اليزابث بالرومانتيكية أكثر منه بالشكل التقليدى القديم ، ولكن كانت هناك ترجمات لكتاب تيوكريتس « القصائد الرعوية »، وملحمة موزائيس Hero and Leander وكتاب ابكتيتس Enchiridion ، ولكتابى الأخلاق والسياسة لأرسطو ، وكتابى زينوفون Cyropaedia, Oeconomicus . وخطب ديموستين وايزوقراط ، ومؤلفات هيرودوت وبوليبيوس وتيودور الصقلى وجوزيفس وأبيان فى التاريخ ، وقصص هليودوروس ولونجوس ، كما كان هناك ترجمة عن الفرنسية

قام بها سير توماس فورت لكتاب بلوتارك « السير » . وعن اللاتينية نقلت كتب فرجيل وهوراس وأوفيد ومارشال ولوكان ، وروايات بلوتوس وتيرنس وسنكا . ومؤلفات ليفى وسالوست وتاسيتس وسوتونيس فى التاريخ . وعن الإيطالية نقلت قصائد بترارك (Sonnets) وFilocopo and Fiammetta لبوكاشيو (ولكن لم يترجم ديكامرون حتى ١٦٢٠) ، ومؤلفات جوتشياردينى ومكيافللى فى التاريخ - وأشعار بويارد وواريوستو ، وكتاب كاستليونى « آداب السلوك » ، وكتاب تاسو عن تحرير أورشليم ، وكتاب جوارينى « Pastor fido » ومجموعة قصص خرافية لباندللو وآخرين دونت فى مجموعات مثل كتاب وليم بينتر Palace of Pleasure (١٥٦٦) ؛ ولم ينقل كتاب مكيافللى « الأمير » حتى ١٦٤٠ ، ولكن مادته كانت معروفة لرجال عصر اليزابث . ويذكر جبرابيل هارفى أن جامعة كمبردج نبذت دونز سكوتس وتومان الأكوينى وغيرهما من رعيل العلماء » واستبدلت بهم مكيافللى وجان بودان(٩) . وترجم عن الاسبانية واحدة من أطول القصص الغرامية الخيالية Amadis de Gaula ، وواحدة من أقدم القصص الأسبانية Lazarillo de Tormes وواحدة من الروايات الرعوية القديمة The Diana of Montemayor . وكان ما أخذ عن الفرنسية قصائد البلياد Pleiades (بنات أطلس السبع اللائى وضعهن زيوس بين النجوم) ومقالات مونتانى التى ترجمها جون فلوريو إلى لغة إنجليزية رائعة (١٦٠٣) .

وكان أثر هذه الترجمات على الأدب فى عصر اليزابث عظيما جدا ، وبدأت التلميحات القديمة — وظلت لمدة قرنين من الزمان — ترهق الشعر والنثر الانجليزيين . وكانت اللغة الفرنسية معروفة لدى معظم المؤلفين الجديرين بالذكر فى عهد اليزابث ، ومن ثم كان يمكن الاستغناء عن الترجمات . ولقد سحرت إيطاليا إنجلترا ، واتجه الشعر الرعوى الانجليزى بأفكاره إلى سانا زارو وتاسو وجوارينى . والقصائد الانجليزية المشهورة بالسونيت إلى بترارك ؛ والأدب القصصى إلى بوكاشيو والقصص ، وهذه الأخيرة هى التى أمدت مارلو وشكسبير ووبستر وماسنجر وفورد بالفكر الرئيسية فى رواياتهم . كما زودت الروايات فى عهد اليزابث بمواقع إيطالية . إن

إيطاليا التى نبذت الاصلاح الدينى ، كانت قد ذهبت بعيدا عنه لتحطم اللاهوت القديم ، حتى الأخلاق المسيحية ، وعلى حين أن العقيدة فى عهد اليزابث نازعت الكاثوليكية والبروتستانتية ، نجد أدب ذاك العصر ، وقد تجاهل هذا الصراع ، عاد إلى روح النهضة وحيويتها . ولما أصابت ايطاليا النكسة لبعض الوقت ، بسبب تحول طرق التجارة ، أسلمت مشعل الميلاد الجديد لأسبانيا وفرنسا وإنجلترا .

٢ — حرب الأدباء

وفى وسط هذه الوفرة والحيوية فى عصر اليزابث ، كان ثمة فيضان جارف من الشعر والنثر كليهما . وإنا لنعرف أسماء مائتين من الشعراء فى عهد اليزابث ، ولكن النثر كان هو الذى يجذب انتباه الناس ويطرق أسماعهم بقوة فى هذا العصر فى إنجلترا ، حتى أخرج سبنسر « فيرى كوين The Faerie Queen» (١٥٩٠) .

وكان جون ليلى أول من عمد إلى هذا اللون فى قصته الخيالية يوفيس **Eupheus** أو « تشريح الذكاء » فى ١٥٧٩ . وعرض ليلى أن يظهر كيف أن العقل السليم والخلق الكريم يمكن تكوينهما عن طريق التعليم والتجربة والأسفار والنصح الحكيم . ويوفيس (الكلام الطيب) شاب آثينى تقدم مغامراته مسرحا لمحادثات مسهبة عن التعليم والسلوك والصداقة والحب والالحاد — ومما جعل هذا الكتاب أكثر الكتب رواجا فى عصره ، هو أسلوبه — فيض من الجناس والطباق والتشبيه والتورية ، والجمل المتوازنة والاشارات القديمة والأفكار ، مما هاج حاشية اليزابث ، وأصبح الأسلوب السائد لمدة جيل ، مثال ذلك :

إن هذا الشاب الأنيق الذى يتحلى بالذكاء أكثر مما يملك مالا ، بل يملك من المال أكثر ما لديه من الحكمة ، ومذ يرى أنه لا يقل عن غيره من حيث الأفكار الجميلة ، فقد حسب أنه يفوق الجميع فى التصرفات الأمينة . إلى حد حسب معه نفسه صالحا لكل شىء ، ومن ثم لم يتوفر على شىء قط[١٠] .

ولا يعرف على وجه التحديد من أين أصاب ليلى هذا المرض ، من مارينى الإيطالى ، أو من جيفارا الأسبانى أو من « بلاغة » الفلاندرز ، فهذا محل مناقشة ، ورحب ليلى على أية حال بهذه السموم العقلية ونقلها إلى كثير من رجال اليزابث . فأفسدت كوميديات (ملهاوات) شكسبير الأولى ، وتركت مسحة منها على أعمال بيكون ، وأثرت فى اللغة .

لقد كان العصر يعنى باللفظ . وبذل جبرائيل هارفى — من آساتذة كمبردج — كل نفوذه ليحول الشعر الإنجليزى من النبرات والقوافى إلى الأوزان القديمة المبنية على التفاعيل أو المقاطع . وبتحريض منه أسس سدنى وسبنسر فى لندن ناديا أدبيا الآريوباجوس areopagus ، كافح لبعض الوقت ليحول النشاط والطاقة الحيوية فى عصر اليزابث إلى أشكال فرچيل وصيغه . وقلد توماس ناش ، هازئا ، أوزان هارفى السداسية التفاعيل « التى تشبه فى وقعها الوثب على قدم واحدة » ، وسخر منها واعتبرها غير جديرة بالنظر والاهتمام فعلا . ولما جمع هارفى بين الشتائم والسباب والحذلقة فى التنديد بأخلاقيات جرين صديق ناش ، أصبح الهدف الرئيسى لحرب الكتيبات التى جلبت إلى إنجلترا كل ما عرف فى عصر النهضة من تراشق وذم وقدح .

إن حياة روبرت جرين لتمثل ألفا من سير الحياة الأدبية البوهيمية التى لا تقيم وزنا للأعراف والقيم ، إبتداء من فيللون Villon (شاعر فرنسى غنائى فى القرن الخامس عشر) إلى فرلين Verlaine (شاعر رمزى فرنسى فى القرن التاسع عشر ، وكان رفيق دراسة لهارفى ومارلو فى كمبردج) ، وسط « أوغاد لا يقلون عنه دعارة وفجورا » ، « أفنى معهم زهرة شبابه » :

كان يملؤنى الزهو والتيه والغرور . كانت الدعارة رياضتى اليومية ، وادمان الشراب ملذتى الوحيدة . . . وكنت أبعد ما يكون عن أن أرجع إلى الله ، وقليلا ما كنت أذكره . ولكنى كنت أجد لذة كبيرة فى الحلف والتجديف على الله . وإذا حققت رغبتى وأنا على قيد الحياة ، فانى راض قانع ؛ فلآخذ طريقى إلى الموت

بأية حال ، انى لم أخش قضاة المحـــكمة أكثر مما أخشى حساب الله(١١) .

وجال جرين فى إيطاليا وأسبانيا ، ويقص علينا أنه هناك « رأى ومارس من أعمال الخسة والجرائم ما يندى الجبين لذكره . » فلما عاد أصبح شصخية بارزة فى حانات لندن ، بشعره الأحمر ولحيته المحددة وجواربه الحريرية وبطانته الخاصة . وتزوج وكتب كتابة رقيقة عن الاخلاص فى الزواج ونعمته . ثم هجر زوجته من أجل سيدة أنفق عليها كل ثروة الزوجة . ومن معرفته الخاصة المباشرة وصف أقانين حيـــاة الرذيلة والاجرام فى كتاب ANotable Discovery of Cozenape (١٥٩١) كشف فيه الغطاء عن الدجالين والمحتالين ، وحذر فيـــه زوار لندن القرويين من أحابيل المخادعين والغشاشين فى ورق اللعب ، والنشالين والقوادين والعاهرات . مما حدا بهؤلاء أن يحاولوا قتله . وإنه لمـــا يبعث على الدهشة أن جرين ، مع انغماسه فى حياة الرذيلة إلى هذا الحد ، وجد وقتا ليكتب فى سرعة صحفية ونشاط وحيوية ، اثنتا عشرة قصة (بأسلوب يوفيس) وخمسة وثلاثين كتيبا ، وكثيرا من الروايات الناجحة . وعندما فتر نشاطه وقل دخله وجد للفضيلة بعض المعنى ، وندم ندما شديدا قدر ما كان يأثم اثما فاحشا ، وعبر عن ندمه واثمه أبلغ تعبير . ونشر فى ١٥٩١ كتابه « وداعا أيتها الحماقة » . وفى ١٥٩٢ نشر كتيبين لهما بعض الأهمية ، أحدهما : « ملحوظة ساخرة لرجل البلاط الناشىء » حمل فيه على جبرائيل هارفى ، أما الثانى « ما يساوى بضعة بنسات من ذكاء جرين يشترى بمليون من التوبة والندم » . وفيه هاجم شكسبير وأهاب برفاقه فى الفسق والفجور — وواضح أنه يقصد مارلو وبيل وناش — أن يقلعوا عن الآثام والخطايا وينصرفوا معه إلى التقوى والندم . وفى ٢ سبتمبر ١٥٩٢ أرسل إلى زوجته التى هجرها يتوسل إليها أن تدفع عشرة جنيهات إلى صانع أحذية لولا صدقته واحسانه « لكنت مت جوعا فى الطرقات » وفى اليوم التالى ، وفى دار صانع الأحذية هذا ، مات جرين — كما يقول هارفى — بسبب « تخمة أصابته من الافراط فى أكل سمك الرنجه المخلل وشرب نبيذ الراين » . وتجاوزت صاحبة الفندق عن ديونه من أجل أشعاره ، وتوجته بأكليل من الغار ، ودفعت نفقات جنازته(١٢) .

وكان توم ناش صديق جرين أشد مؤلفى الكتيبات فى عصر اليزابث سلاطة لسان وأكثرهم قراءً . وكان ابنا لمساعد قسيس ، وضاق ذرعا بالحشمة والوقار ، وما أن تخرج فى أكسفورد حتى أخذ يسرح ويمرح فى لنـــدن ، ويكسب قوته بنفثات قلمه ، وتعلم كيف يكتب بسرعة « قدر ما تسعفه يده » . وألف فى إنجلترا قصص المتشردين بادئا بقصته « السائح المنكود الحظ » — أو حياة جاك ولتون (١٥٩٤) . ولما مات جرين ، وهاجم هارفى بعنف جرين وناش فى كتيبه « أربع رسائل » ثأر ناش بسلسلة من الكتيبات بلغت الذروة فى كتيب « خذ معك إلى سافرن والدن Saffron Walden مسقط رأس هارفى فى ١٥٩٦ :

«ابتهجوا أيها القراء ، فلن أدخر وسعا فى أن أدخل عليكم السرور والبهجة . . . إن هذا لن يكلفنى إلا إنحرافا عن الطريق المستقيم ، ولكنه سيطرد من الجامعة مدحورا . . . قبل أن أكف عنه . . . ماذا تمنحوننى لو أنى أتيت به إلى المسرح فى أهم الكليات فى كمبردج(١٤)» .

وعمر هارفى بعد هذه المحنة ، وعمر بعد هؤلاء البوهيميين ومات فى ١٦٣٠ عن خمسة وثمانين عاما . وأكمل ناش رواية صديقه مارلو « Dido » واشترك مع بن جونسون فى « جزيرة الكلاب » ١٥٩٧ ، واتهم بالتحريض على الفتنة ، وانزوى فى غمرة من الحرص والحذر ، وتوج حياة العجلة بموت مبكر .

٣ — فيليب سدنى ١٥٥٤ — ١٥٨٥

بعيدا عن هذا الحشد المخبول شق سدنى طريقه فى هدوء إلى نهاية أقرب ، وانا لتطالعنا صورته حتى اليوم فى « قاعة الصور الوطنية » فى لندن ، حيث يبـــدو رقيقا أكثر مما ينبغى للرجل أن يكون ، نحيل الوجه ، ذا شعر أسمر يضرب إلى الحمرة ، وكما يقول لانجيه « ليس فيه شىء من أمارات التمتع بصحة جيدة(١٥) » ، وقال أوبرى « كان آية فى الجمال ، لم تكتمل سمات الرجولة فيه كما ينبغى ، ولكن يتميز بشجاعة عظيمة(١٦) » . وذهب بعض المتذمرين إلى أنه يداخله بعض الغرور(١٧) ، وأنه بالغ فى الكمال والدقة إلى حد التطرف ، ولكن نهايته البطولية هى وحدها التى غفرت له فضائله .

ولكن من ذا الذى لا يتيه عجبا بأن أمه هى ليدى مارى ددلى إبنة دوق نورثمبرلند الذى حكم إنجلترا أيام إدوارد السادس ، وأن أباه هو سير هنرى سدنى رئيس ويلز ، ونائب الملك فى أيرلنده ثلاث مرات ، وأنه أخذ اسمه المسيحى عن فيليب الثانى ملك أسبانيا بوصفه أبا له فى التعميد . وقضى بعضا من عمر الزهر الذى عاشه فى قصر بنزهيرست الرحيب الذى تعد سقوفه المصنوعة من خشب البلوط ، والرسوم على جدرانه ، وثرياته البللورية من أجمل مخلفات ذلك العصر . وعين وهو فى سن التاسعة رئيساً علمانيا لاقطاعة كنسية تدر عليه ستين جنيها فى السنة . والتحق فى سن العاشرة بمدرسة شروزبرى التى لم تبعد كثيراً عن حصن لدلو Ludlow مقر والده بوصفه رئيسا لويلز . وكتب سير هنرى لولده وهو فى الحادية عشرة من عمره كلمات حب وإعزاز تشع منها الحكمة (١٨).

ووعى فيليب هذه الدروس جيداً . وأصبح أثيرا لدى خاله ايستر ، وصديق والده وليم سيسل . وبعد سنوات ثلاث قضاها فى أكسفورد أرسل إلى باريس فى منصب ثانوى فى بعثة إنجليزية . واستقبل فى بلاط شارل التاسع وشهد مذبحة سانت برثلميو . وجال على مهل فى فرنسا والأراضى الوطيئة وألمانيا وبوهيميا و والنمسا والمجر والنمسا وإيطاليا . وفى فرنكفورت نشأت بينه وبين هيوبرت لانجيه صداقة العمر ، وهو أحد قادة الفكر لدى الهيجونوت . وفى فينسيا رسم له باولو فيرونيز صورته ، وفى بادوا رضع تقاليد قصائد بترارك من نوع السونيت . فلما عاد إلى إنجلترا رحب به البلاط ، وظل لمدة عامين تقريباً فى معية الملكة . ولكنه خسر عطفها لبعض الوقت . لمعارضته مشروع زواجها من دوق ألنسون . وكان يتحلى بكل صفات الفروسية — الاعتداد بقدرته على الاحتمال ، المهارة والبسالة فى المبارزة ، آداب اللياقة والسلوك فى البلاط ، الشرف فى كل المعاملات والفصاحة فى الحب ودرس كتاب كستليونى " رجل البلاط " وحاول أن يضبط سلوكه على المثل الأعلى للرجل المهذب الذى وضعه الفيلسوف الأديب ، وحاول آخرون أن يحاكوا سدنى . وأطلق عليه سبنسر اسم " ملك النبل والفروسية " .

وكان من مميزات هذا العصر أن الأرستقراطية التى كانت يوما تحتقر معرفة

القراءة والكتابة ، نظمت الآن الشعر ، وأذنت للشعراء فى التردد عليهم . وأصبح سدنى ، ولو لم يكن ثريا ، أعظم حماة لأدب فى جيله . ومد يد المساعدة إلى كمدن وهاكلوت وناش وهارفى ودون ، ودانيل وجونسون ، وفوق كل شئ سبنسر الذى أزجى إليه آيات الشكر بوصفه " أمل العلماء جميعهم ، وحامى عروس الشعر الصغيرة عندى " (١٩) . ولم يكن يتفق مع طبيعة الأشياء أن يكون إهداء كتاب ستيفن جوسون " مدرسة الهجاء " موجها إلى سدنى (١٥٧٩) ، وقد ورد فى تقديم هذا الكتاب أنه " هجوم لطيف على الشعراء والزمارين والمغامزين والمهرجين ، وأمثالهم من توافه الرجال السلابين فى البلاد " . وقبل سدنى التحدى وكتب أول الروائع الأدبية فى عهد أليزابيث " دفاع عن الشعر " واقتداء بأرسطو والنقاد الإيطاليين ، عرف سدنى الشعر بأنه " فن المحاكاة " فهو يمثل أو يزيف أو يجسد صورة ناطقة . " قصد بها أن تعلم وتدخل البهجة (٢٠) " . وسما بالأخلاق كثيرا فوق الفن ، فبرر الفن على أنه معلم للأخلاق عن طريق النماذج المصورة يقول :

"إن الفيلسوف ... والمؤرخ ... قد يصلان إلى الهدف ، أولهما بالتعليم الأخلاقى ، والثانى بضرب المثل ، ولكن كلاهما لايملكهما معا . ومن ثم يتعثر كلاهما . فإن الفيلسوف ، وهو يقرر الحقيقة المجردة للأخلاق ، عن طريق الحجج الشائكة ، قد يصعب عليه التعبير ، ويغلب عليه الغموض فيدق على المرء فهمه إلى حد أن الإنسان الذى لايتيسر له مرشد غيره يخوض معه حتى يدركه الهرم قبل أن يجد مبررا كافيا لأن يكون أمينا . ذلك أن علمه يقوم على التجريد والتعميم ، حتى ليكون سعيدا من يستطيع أن يفهمه . أما المؤرخ من جهة أخرى ، فإنه ، وهو يعوزه القاعدة أو المبدأ الأخلاقى ، مرتبط ، لا بما يجب أن يكون ، بل بما هو كائن ... ومن ثم فإن المثل الذى ضربه يستتبع نتائج غير ضرورية ، ولذلك يكون نظرية أقل جدوى .

أما الشاعر الفذ فانه يؤدى الاثنين معاً ، لأنه يرسم صورة دقيقة لمن يظن أنه قام بما قال الفيلسوف بوجوب عمله . وهو بذلك يكمل الفكرة العامة بالمثال المحدد . وأقول بأنها صورة كاملة متقنة لأنه لايقدم إلى قوى العقل صورة لم يقدم عنها

الفيلسوف إلا وصفا كلاميا لايستوقف النظر ولا ينفذ إلى الأعماق ولايتسم بالرؤية الروحية قدر ما للصورة من هذا كله(٢١) .

وعلى هذا فان الشعر ، فى نظر سدنى ، يشمل كل الأدب التخيلى التصويرى : الدراما ، النظم ، النثر التصويرى . « ليست القوافى والأوزان هى التى تصنع الشعر . وقد يكون ثمة شاعر بلا أوزان ، وقد يكون ثمة ناظم دون أن يكون شاعراً » .

لقد جمع سدنى بين التعليم الأخلاقى والنموذج . وفى نفس العام الذى أخرج فيه « الدفاع عن الشعر » شرع فى كتابه « جنة كونتيس بمبروك » . وكانت أخته هذه من أكثر سيدات هذا القرن جمالا وجاذبية . ولدت ١٥٦١ ، أى أنها تصغر فيليب بنحو سبع سنوات . وتلقت من التعليم قدر ما احتملت ، بما فى ذلك اللاتينية واليونانية والعبرية ، ولكن فتنتها لم تذبل . وأصبحت عضوا فى آل بيت اليزابث ورافقتها فى رحلتها الملكية . وأسهم خالها ليستر فى المهر الذى مكنها من الزواج من هنرى ارل بمبروك . وكما يقول أوبرى « كانت داعرة شديدة الشهوة للرجال فاتخذت بعضا من الخلان أو العشاق لتسكمل زوجها » ، ولكن هذا لم يمنع فيليب من تقديسها ، وكتابة « الجنة » بناء على طلبها .

واتخذ فيليب من « جنة » سانازارو (١٥٠٤) مثلا يحتذيه ، فتخيل فى تفصيل شديد وفى يسر ، عالما من الأمراء الشجعان والأميرات الرفيعات التهذيب ، ومعارك الفروسية والأقنعة المحيرة والمناظر الطبيعية الساحرة . « إن جمال افروديت (يورانيا) هو أعظم شىء يمكن أن يعرضه العالم ، ولكنه أقل ما يمتدح فيها(٢٢) » وكان بللاديوس يتمتع ببصيرة نافذة مجردة من التباهى والتفاخر ، وأفكار عالية تتسم باللياقة وحسن الأدب ، وكانت الكلمات تخرج من فيه فى فصاحة عذبة ولكنها لاتسعفه فى التعبير . كما كان يتحلى بسلوك نبيل إلى حد أنه أضفى جلالا على المحنة(٢٣) .

" ومن الواضح أن سدنى قرأ يوفيس ، فالقصة متاهة غزلية ، لقد تنكر بيروكليز فى زى امرأة ليكون قريبا من فيلوكايا الجميلة ، ولكنها تخيب أمله بحبها إياه على أنه أخت لها ، ويقع أبوها فى غرامه حين حسب أنه سيدة ، وتقع أمها أيضا فى غرامه حين أدركت أنه رجل ، ومهما يكن من أمر فان كل شىء ينتهى طبقا لما

أمرت به الوصايا العشر . ولم يأخذ سدنى الحكاية مأخذ الجد كثيرا . ولم يصحح قط الأوراق التى سلمها لأخته . وأمر باحراقها وهو على فراش الموت ، ولكن احتفظ بها وطبعت ونشرت (١٥٩٠) وظلت لعقد من السنين أعظم ما يعجب به الناس من النثر فى عهد اليزابث .

وبينما كان سدنى يكتب هذه القصة الرومانتيكية و " الدفاع عن الشعر "، ووسط حياته الدبلوماسية والعسكرية نظم مجموعة قصائد من السونيت (١٤ بيتا) مهدت الطريق أمام قصائد شكسبير التى من هذا النوع . وكان فى حاجة إلى شيء من الحب الفاشل ، فعثر عليه فى بناوب دفريه **Penelope Devereu** ابنة ارل اسكس الأول ، ورحبت بآهاته وأشعاره على أنها لهو مشروع ، ولكنها تزوجت من بارون رتش (١٥٨١) . واستمر سدنى يوجه قصائده إليها ، حتى بعد زواجه هو من فرانسس ولسنهام . ولم يصعق من رجال عصر اليزابث لهذا الفجور الشعرى إلا نفر قليل ، ولم يتوقع أحد أن يكتب رجل شعرا حتى ازوجته هو ، التى أخذ كرمها شاعريته ، ونشرت المجموعة ١٥٩١ ، بعد وفاة سدنى ، تحت عنوان **Astrophel and Stella** — (عاشق النجم والنجم) وقد نهجت نهج بترارك الذى استبقت محبوبته لورا بشكل عجيب عينى يلوب وشعرها وحاجبيها وخديها وبشرتها وشفتيها . وكان سدنى يدرك تماما أن هواه ليس إلا تمنية أو عماية شعرية . وكان هو نفسه قد كتب : " لو كنت أنا نفسى محظيه لما استطاع الشعراء كتاب السونيت أن يقنعونى بأنهم يحبوننى (٢٤) " وما أن قبلت قصائد السونيت على أنها لهو برىء حتى باتت أحسن شيء من نوعها قبل سونيتات شكسبير . وحتى القمر كان مريضا بالحب :

بأية خطى حزينة تصعد إلى السموات أيها القمر ، وفى
أى صمت ، وبأى وجه شاحب ؟
ماذا ، هل حتى فى السموات .
يحاول رامى السهام النشيط أن يجرب سهامه الحادة .
حتما ، لو أن هذه العيون التى خبرت الحب طويلا

تستطيع أن تحكم على الحب . أشعرت بغضبة حبيب ،
لقد قرأتها فى نظراتك وفى جمالك الذى يذبل .
إن حالاتك لتكشف لى عن بعد ، أنا الذى أحس بمثل
ما تحس به. إذن ، حتى يحق الزمالة أيها القمر خبرنى .
أيعتبر الحب الدائم هناك نقصا فى العقل ، وهل
ذوات الجمال هناك مزهوات كما هن هنا ، هل
يحظين بما هو فوق الحب ، ومع ذلك يحتقرن المحبين
الذين يأسرهم الحب .
وهل يسمون الفضيلة هناك ضربا من الجحود(٢٥) ؟

وفى ١٥٨٥ أرسلت اليزابث فيليب سدنى لمساعدة ثوار الأراضى الوطيئة ضد أسبانيا ، وعين حاكما على فاشنج ، ولو لم يبلغ الحادية والثلاثين من العمر ، وأغضب الملكة المقترة يطلب مزيد من المؤن والأجور لجنوده الذين كانوا يتقاضونها عملة مزيفة مخفضة القيمة(٢٦) . وقاد جنوده إلى الاستيلاء على آكسل بالقرب من فلشنج (٦ يوليه ١٥٨٦) ، وحارب فى المقدمة . ولكنه فى معركة زوتفين (٢٢ سبتمبر) أتى من ضروب البسالة أكثر مما ينبغى ، فقد قتل جواده فى الهجوم ، وقفز سدنى إلى جواد آخر ، وشق طريقه فى صفوف العدو ، فنفذت طلقة بندقية إلى فخذه ، وضرب جواده جافلا إلى معسكر ليستر(*) . ومن ثم أخذ سدنى إلى دار خاصة فى آرنهم ، ولمدة خمسة وعشرين يوما عانى من عجز الجراحين وجهلهم وسرى التسمم ، وفى ١٧ اكتوبر استقبل عجيبة زماننا الموت بصدر رحب (كما رثاه سبنسر) وقال فى يومه الأخير " لن استبدل بابتهاجى امبراطورية العالم(٢٨) " ونقل جثمانه إلى لندن ، وأودع مقره الأخير فى جنازة لم تشهد لها انجلترا مثيلا قبل وفاة نلسون .

(*) تروى قصة لم تتأكد صحتها ، أنه عندما قدم إلى سدنى الجريح زجاجة من الماء ، ناولها إلى جندى كان يعانى سكرات الموت بالقرب منه قائلا : إن حاجتك إليها أشد من حاجتى (Fulke Greville حياة مشاهير الرجال — سير فيليب سدنى) (٢٧)

٤ — إدموند سبنسر ١٥٥٢ ١٥٩٩

وكتب سبنسر « مات سدنى ، مات صديقى بهجة الدنيا وزينتها(٢٩) » إن سيدنى هو الذى أمد سبنسر بالشجاعة لينظم القريض . نشأ إدموند ابناً لايبشر بحسن المستقبل لصانع ملابس باليومية ، وكان ينتمى من بعيد لآل سبنسر الاستقراطيين ، مما لم يتح للصبى أية فرصة للظهور . ومكنته أموال البر والصدقات من الحاق بمدرسة Merchant Taylors ثم كلية بمبروك فى كمبردج حيث عمل ليكسب أجر إقامته بالقسم الداخلى بها . وما أن بلغ سن السابعة عشرة حتى كان يكتب ، بل حتى ينشر ، شعراً . وحاول هارفى أن يوجهه إلى القوالب والموضوعات الكلاسيكية القديمة . وحاول سبنسر فى تواضع أن يرضيه ، ولكن سرعان ما تمرد على القيود التى فرضتها الأوزان البغيضة على عروس الشعر عنده . وفى ١٥٧٩ عرض على هارفى القسم الأول من ملحمته « الفيرى كوين » ، ولم يتذوق هارفى محتواها المجازى الذى يشبه أسلوب العصور الوسطى ، ولم يقدر وزنها الشعرى الرقيق ، ونصح للشاعر أن يتخلى عن مشروعه ، ولكن سبنسر تابع العمل .

إن هارفى ، النكد المتجهم المشاكس ، هو الذى هيأ لسبنسر مكانا فى خدمة إرل ليستر . وهناك التقى الشاعر بسدنى وأحبه وأهدى إليه « تقويم الراعى » (١٥٧٩) قلد فيها من حيث الشكل تيوكريتس ، ولكنه اتبع فيها خطة التقاويم الشعبية المألوفة التى تحدد أعمال الرعاة تبعاً لفصول لسنة . وقامت فكرتها الرئيسية على حب غير مرغوب فيه من جانب الراعى كولين كلوت لروزيلاند القاسية . وليست مما يوصى أحد بقراءتها ، ولكن أطراء سدنى لها أكسب سبنسر شيئاً من الإقبال عليها أو التهليل لها . وارتضى الشاعر ، رغبة منه فى كسب العيش ، منصب سكرتير آرثر لوردجراى نائب الملكة الجديد فى إيرلنده (١٥٧٩) ، ورافقه إلى ساحة القتال . وشهد وأقر ما عمد إليه آرثر من ذبح من استسلموا من الإيرلنديين فى سمروك . وبعد سبع سنوات من الخدمة الكتابية للحكومة الأنجليزية فى إيرلنده ، منح من الأملاك المصادرة من الثوار الإيرلنديين ، قصر كالكولمان Kilcolman على الطريق بين مالو وليمرك ، بالإضافة إلى ٣٠٠٠ فدان .

وهناك أخلد سبنسر إلى حياة الزراعة الهادئة وانصرف إلى الشعر الرقيق . وخلد ذكرى موت سدنى بمرثية بليغة ولكنها مطولة عنوانها « أسترو فيل » (١٥٨٦) ، ثم صقل وطول فى ملحمته « فيرى كوين » وعبر البحر ، وهو ممتلىء حماسة إلى انجلترا ، وقدمه رالى إلى الملكة ، فكتب لها إهداء "الأجزاء" الثلاثة الأولى ، "لتبقى فى ظل خلود شهرتها . " وليضمن الترحيب بالقصيدة صدرها ببضعة أبيات فى المديح موجهة إلى كونتيس بمبروك ، وليدى كارو ، وسير كرستوفر هاتون ، ورالى ، وبرجلى ، ووالسنهام ، واللوردات هنزدن وبكهيرست وجراى وهوارد افنجهام ، وارل إسكس ونورثمبرلند وأكسفورد وأورمند وكمبرلند . ولما كان بيرجلى يناصب ليستر العداء ويحمل له الاضغان ، فانه قال عن سبنسر إنه شاعر خامل ، ولكن كثيرا من الناس هللوا له بوصفه أعظم شاعر منذ عهد تشوسر . وتلطفت الملكة فمنحته معاشا سنوياً قدره خمسون جنيها ، وتلكأ بيرجلى ، بوصفه وزير الخزانة ، فى دفعه . وكان سبنسر يأمل فى شىء أكثر سخاء . فلما خاب أمله عاد أدراجه إلى قصره فى إيرلنده ليتابع ملحمته المثالية ، وسط الهمجية والكراهية والخوف .

وكانت خطته أن تكون القصيدة فى إثنى عشر جزءاً ، نشر الثلاثة الأولى منها فى ١٥٩٠ ، وثلاثة أجزاء أخر فى ١٥٩٦ . ولم يذهب إلى أبعد من هذا . ومع هذا فإن الفيرى كوين ضعف الإلياذة وثلاثة أمثال " الفردوس المفقود " . وقدم كل جزء على أنه قصة رمزية — للقداسة والاعتدال وضبط النفس والعفة والصداقة والعدالة واللياقة والكياسة ، وقصد الأجزاء جميعها " أن تصوغ أو تشكل سيدا ماجدا " أو إنسانا نبيلا ذا خلق فاضل وديع[٣٠] ، بتزويده بالأمثلة التى تعين على تشكيله ، وكل هذا يتفق مع فكرة سدنى فى أن الشعر عبارة عن تعاليم أخلاقية تنقلها نماذج متخيلة . وإذ التزم سبنسر جانب الحشمة والوقار ، فانه لم يجز لنفسه إلا بضع قطع قليلة شهوانية أو حسية . فهو يلقى نظرة عجلى على " صدر عاجى عار للانقضاض عليه غنيمة باردة[٣١] " ، ولكنه لايذهب إلى أبعد من هذا . وإنه فى ستة من الأقسام الرئيسية فى قصيدته ليشدو بأعلى أنغام حب الفروسية والشهامة ، باعتباره خدمة خالية من الأثرة للسيدات الجميلات .

أما نحن الذين نسينا الفروسية والشهامة ، فإننا نضيق ذرعاً بالفرسان وتربكنا المجازات

والاستعارات والقصص الرمزية ، فان ملحمة الفيرى كوين ، تكون لنا فى أول الأمر بهيجة سارة بشكل غريب ، ولكنها أخيرا شئ لايحتمل . إن تلميحاتها السياسية التى فرح بها أواستاء لها المعاصرون،فقدت قيمتها لدينا، وإن المعارك اللاهوتية التى تشير إليها هى الارهاصات الراسبة فى صبانا ، وإن قصصها هو فى أحسن الأحوال ، أصداء شجية لفرجيل وآريستو وتاسو ، وليس ثمة قصيدة فى الأدب العالمى تفوق " الفيرى كوين " فى أفكارها المتكلفة ، وتغييراتها الكئيبة فى الأوضاع السوية للكلمات والاسلوب ، وألفاظها المهجورة وتعبيراتها الجديدة الطنانة ، ومبالغتها الرومانتيكية الحمقاء التى لم تلطفها ابتسامة آريستو . ومع ذلك فان كيتس وشللى أحبا سبنسر وجعلاه " شاعر الشعراء " فلماذا ؟ ألان شيئاً من الجمال الحسى للشكل عوض عن سخف العصور الوسطى وأسلوبها ،أم لأن فخامة الوصف زركشت شيئاًزائفاًغير واقعى ؟ وكان المقطع الجديد ذو الأبيات التسعة صعبا من ناحية التعبير الفنى ، وكثيراً ما يروعنا سبنسر باتقانه الكامل وسهولته الدافقة . ولكنه ، كم من مرة أفسد منطقه من أجل قافية !

وانقطع عن ملحمة " فيرى كوين " لينظم قصائد موجزة ربما كانت تبرر شهرته؛ من ذلك قصيدته " حبى الصغير " ، على شكل السونيت، التى كانت تشبه هوى بترارك ونزواته وخيالاته . أوأنها ربما كانت تعكس أيام خطبته التى دامت عاما لاليزابيث بويل . وقد تزوجها فى ١٥٩٤ ، وشدا بأفراح الزفاف فى أرق قصائده Epithalamium . وإنه ليقتسم معنا مفاتن العروس ، دون أثرة أو أنانية .
يقول :

أنبئونى يا بنات التجار هل رأيتم
مخلوقا جميلا مثل هذا فى بلدكم من قبل
بمثل هذه الملاحة والوسامة والرقة مثلها .
تزينها نعمة الجمال وكنز الفضائل
وعيناها الواسعتان وكأنهما لؤلؤتان تشعان نورا ،
وجبهتها الناصعة البياض كالعاج

ووجنتاها وكأنهما تفاحتان كستهما الشمس بحمرة الورد ،
وشفتاها كثمرتين من الكريز تسحران الرجال ليقضموهما .
وصدرها الذى يشبه وعاء من قشدة لم تتخثر بعد ،
وثدياها أشبه بزنبقتين تفتحتا
وعنقها الناصع البياض مثل عمود من المرمر ،
وجسمها بأسره وكأنه قصر جميل ...
ولما انتهى الحفل والولائم أمر مدعويه أن ينصرفوا دون إبطاء ، قائلا
هيا ، الآن اكففن أيتها الآنسات ، لقد انتهت مسراتكن ،
كفى ، ان النهار كله كان لكن
والآن ولى النهار ، والليل يرخى سدوله .
فأحضرن العروس إلى منزل العريس . . .
وضعنها فى مخدعها
وأحطنها بالزنبق والبنفسج
وضعن الأستار الحريرية فوقها ،
مع الملاءات المعطرة والأغطية المزركشة .
وليكن الليل هادئا ساكنا
دون زوابع عاصفة أو شجارات صاخبة محزنة .
كما رقد جوبيتر مع ألكمينا . . .
ولتكف الآنسات والشبان عن الغناء ،
ولا تدعن الغابات يجبنهم أو يرجعن أصداءهم .
فهل ثمة عذراء زفت بمثل هذه العذوبة والحلاوة ؟

ودعم سبنسر هذا التحليق ، وهذه الانطلاقة « بأربع ترانيم » (١٥٩٦) يمجد فيها الحب الدنيوى والجمال الدنيوى ، والحب الإلهى والجمال الإلهى . ونهج نهج أفلاطون وفيسينو ، وكاستايونى ، ومهد الطريق للشاعر كيتس ، فأقر بما اقترف من « أعمال شريرة كثيرة » ، فقرر فى نفسه أن ينفذ إلى أعماق الجمال الطبيعى

ليجد ويشعر بالجمال الإلهى الذى يكمن بدرجات متفاوتة فى كل ماهو على الأرض.

ولما كان سبنسر يعيش على بركان من الشقاء فى إيرلنده ، فانه كان من الموت قاب قوسين أو أدنى ، فى كل يوم . وقبل أن ينفجر بركان الثورة ثانية ، كتب فى نثر رقيق (لأن الشاعر وحده هو الذى يستطيع أن يكتب نثرا جيدا) « رأيه فى الحالة الراهنة فى إيرلنده » يدافع فيها عن طريقة أفضل لاستخدام الأموال وترتيب الجنود الانجليز لإخضاع الجزيرة . وفى اكتوبر ١٥٩٨ قام الايرلنديون الذين جردوا من أملاكهم فى مونستر بثورة وحشية ، وطردوا المستوطنين الانجليز وأحرقوا حصن كلكلمان . ونجا سبنسر وزوجته بحياتهما وهربا إلى انجلترا . وبعد شهور ثلاثة ، وقد انتهى رصيد الهوى والمال ، قضى الشاعر نحبه (١٥٩٩) ، ودفع ارل اسكس الأصغر — الذى قدر له أن يلحق بسبنسر بعد فترة وجيزة ، دفع نفقات الجنازة ، التى سار فيها النبلاء والشعراء الذين نثروا الأزهار ، وألقوا المراثى على قبره فى كنيسة وستمنستر .

وسادت انجلترا الآن لهفة جنونية على نظم " السونيت " ، نافست اللاهفة على الدراما ، وكلها تقريبا غاية فى براعة الشكل ، ذات قالب واحد من حيث الموضوع الرئيسى والعبارة ، وكلها تقريبا موجهة إلى العذارى أو الحماة ، تنعى عليهم أنهم يغلون أيديهم إلى أعناقهم أولا يبسطونها إلى الشعراء ، وكانوا يستحثون الجمال على أن يأذن بقطف ثماره قبل أن تذبل على سوقها . وقد تقتحم القصيدة فى بعض الأحيان نغمة مبتكرة ويبشر العاشق سيدته بمولود مكافأة لها على الاقتران السريع . وينقب كل شاعر فيجد فتاة أحلامه — دانيل : دليا ، لودج : فيليس ، كونستابل : ديانا ، فولك جريفيل : ساليا . وكان أشهر ناظمى السونيت هؤلاء ، هو صمويل دانيل ، على أن بن جونسون — الذى كان " قاسيا " أكثر منه " ناقدا " — قال عنه إنه " رجل أمين وليس شاعرا[٣٢] " وحومت قصيدة ميشيل درايتون " Pegasus " حول كل أشكال الشعر ، بما كان له من قدم فى النثر . ولكن إحدى قصائده ضربت على نغمة جديدة ، ونخزت الفتاة ونبهتها إلى مغبة صدودها ، بأن آذنها بالوداع — " إذا لم يكن ثمة رجاء أو عون ، تعالى ، نتبادل القبل ثم نفترق " .

وكان الأدب الإنجليزى فى جملته فى عهد اليزابث — فيماخلا الدراما — متخلفاً جيلا عن الأدب الفرنسى . كان النثر قوياً مرناً ، وفى الغالب معقداً مطنباً إلى حدالضجر ، خيالياً ، ولكنه أحياناً يحرك المشاعر بجلاله الملكى أو ايقاعه الفخم . ولم ينتج النثر الإنجليزى أحداً مثل رابليه أو مونتانى ، وقلد الشعر الأشكال الأجنبية فى حرص وحذر ، باستثناء The Faerie Queen, Epithalamium ولم يجد سبنسر قراء له فى القارة قط ، كما لم يجد رونسار (شاعر فرنسى فى القرن السادس عشر) قراء له فى انجلترا . فان الشعر يخلق من اللغة والعاطفة موسيقى لا يمكن الاستماع إليها خارج حدود الكلام ، لقد اتصلت الأغانى الشعبية البسيطة بالناس ووصلت إليهم ، بشكل أشد وثاقاً مما فعــل شعر القصور والبلاط ، فان الأغانى كانت معلقة على جدران البيوت والحانات ، وكانت تغنى وتباع فى الشوارع ، وما زالت أغنية « لورد راندال » تهز مشاعرنا بلحنها الحزين[٣٣] . وربما كان هذا الشعر الشعبى — لا المحسنات البارعة اللطيفة — فى قصائد السونيت ، هى التى مهدت عقول الناس فى عصر اليزابث ليقدروا شكسبير .

٥ — المسرح

كيف إذن ، صعد الأدب الإنجليزى التافه إلى هذا الحد فى فترة الجفاف الطويل بين تشوسر وسبنسر ، نقــول إذن كيف صعد هذا الأدب إلى شكسبير ؟ لعله بسبب نمو الثروة وانتشارها ، والسلام الطويل المثمر ، وبسبب الحرب المثيرة الظافرة ، والآداب الأجنبية والأسفار التى وسعت عقول الإنجليز . وكان بلوتس وترنس Terence يعلمان انجلترا فن الملهاة كمايعلمها سنكا أساوب معالجة المأساة . ومثل الممثلون الإيطاليرن فى انجلترا (١٥٧٧ وما بعدها) وأجريت آلاف التجارب . وفيما بين عامى ١٥٩٠ و ١٦٤٢ شاهدت انجلترا ٤٣٥ ملهاة تمثل . وتطورت الهزليات والفصول الإضافية إلى الملهاة . وتخلت الأسرار الدينية والتعاليم الأخــلاقية عن مكانها للمسرحيات المأســاوية الدنيوية ، كما فقدت الأساطير المقدســة سلطانها على القصيدة . وفى ١٥٥٣ أخرج نيقولا يودال فى Ralph Roister Doister أول ملهاة

إنجليزية فى شكل كلاسيكى قديم . وفى ١٥٦٢ مثل المحامون فى The Inner Temp e مسرحية Gorboduc وهى أول مأساة فى شكل كلاسيكى .

وبدا لبعض الوقت أن ذلك الشكل ، المنحدر من رومه ، كان محتوما عليه أن يصوغ المسرحية الإنجليزية فى قالبها ، فى عصر اليزابث . ودافع الجامعيون مثل هارفى ، والمحامون الشعراء مثل جورج جاسكوين ، والذين تلقوا تعليما كلاسيكيا مثل سدنى — دافعوا عن ضرورة ملاحظة ثلاث « وحدات » فى الرواية ، أى أنه لابد أن يكون هناك " عمل " (موضوع) ، وأن هذا لابد أن يجرى فى " مكان " واحد ، ويتمثل فى " يوم " واحد لا أكثر . ومبلغ علمنا أن هذه الوحدات صاغها لأول مرة لودوفيكو كاستلفترو (١٥٧٠) فى تعليق على " شعريات " أرسطو . إن أرسطو نفسه لا يتطلب إلا وحدة العمل ، ويوصى بأن تجرى هذا العمل " خلال دورة واحدة للشمس " ويضيف ما يمكن أن نسميه وحدة الحالة النفسية بمعنى أن الملهاة " التى تمثل الطبقة الدنيا من الناس " لا يجوز أن تختلط بالمأساة " وهى تمثل العمل البطولى[٣٤] " . وأخذ سدنى فى كتابه " دفاع عن الشعر " ، نظرية وحدات المسرحية عن كاستلفترو ، وطبقها بدقة ، ولكن فى مرح لطيف ، على الروايات فى عصر اليزابث ، تلك التى كانت الجغرافية طاغية فيها :

فترى فيها آسيا فى ناحية ، وأفريقية فى الناحية الأخرى ، وكذلك ممالك سفلى كثيرة ، حتى أن الممثل حين يدخل ، لابد أن يبدأ بأن يخبرك أين هو . . . . أما عن الزمن فانهم أكثر تحرراً ، وإنه لأمر عادى أن يقع أميران شابان فى شرك الغرام ، وبعد عوائق جمة تحمل العشيقة فى طفل من شاب وسيم . . . ثم ينمو حتى يصبح رجلا يقع فى شراك الغرام ، مستعداً لأن ينجب طفلا آخر . وكل هذا على مدى ساعتين[٣٥] .

واتبعت فرنسا القواعد الكلاسيكية وأنجبت راسين . أما انجلترا فنبذتها وهيأت لمسرحيتها المأساوية حرية رومانتيكية ومجالا يغلب عليه المذهب الطبيعى ، وأنجبت شكسبير . وكان المثل الأعلى لعصر النهضة فى انجلترا فكان الحرية والإرادة

والمرح والحياة . وكان جمهور النظارة فى عصر الزابث يتألف من صغار اللوردات ومن متوسطى الحال ومن محتلى مقاعد الدرجة الثالثة ، وكان ينبغى أن يقدم لهذا الجمهور غذاء دسم متنوع ، حيث كان له قدرة على الضحك ملء أشداقه ، ولم يكن يعبأ بحفارى قبور يتجاذبون أطراف الحديث فى المذاهب الفلسفية مع أمير ،وكان لهذا الجمهور خيال لم يروض بعد ، يمكن أن يقفز من مكان إلى مكان ويعبر قارة بأسرها ، لأية إشارة أو تلميح . وكانت المسرحيـــة فى عهد اليزابث تمثل الإنجليز فى أيامها ، لا الإغريق فى عهد بريكليز ، ولا الفرنسيين فى عهد البوربون ، ومن ثم أصبحت الفن القومى ، على حين أن الفنون التى اتبعت نماذج أجنبيةلم تتغلغل جذورها فى انجلترا .

وكان على المسرحية الإنجليزية أن تخوض معركة أخرى قبل أن تخطو إلى مارلو وشكسبير ، فقد نبذت الحركة البيوريتانية الناشئة مسرح اليزابث على أنه وكر للوثنية والتجديف الدنس، واستنكرت وجود النساء والبغايا بين الجمهور ، واقتراب المواخير من المسارح . وفى ١٥٧٧ نشر نورثبروك نقداً لاذعاً عنيفاً ضد "لعب النرد والرقص والروايات . والفصول الضاحكة ":

إنى مقتنع بأن الشيطان ليس لديه وسيلة أسرع ولا مدرسة أصلح ، لينفذ رغبته ، ويلقنها ، ويوقع الرجال والنساء فى شراك الغواية والفسق والشهوات الدنيئة لدى بنات الهوى الداعرات الشريدات ، من هذه الروايات والمسارح . ومن ثم فانه من الضرورى أن تحظر هذه الأماكن ويمنع هؤلاء الممثلون ، وأن يقضى عليهم ، وأن تهدم المسارح بأمر السلطان ، كما هو الحال بالنسبة للمواخير وبيوت الدعارة(٢٦) .

وكان كتاب ستيفن جوسون " مدرسة لهجاء " معتدلا نسبيا . واعترف بأن ثمة روايات وممثلين ، " لاغبار عليهم " . ولكنه عندما رد عليه لودج ، أقلع جوسون عن أى تمييز . وفى كتابه " "Players Confuted in Five Actions" ، وصف الروايات بأنها " غذاء للخطيئة وللشغب وللزنى " ، والممثلين بأنهم "أساتذة

الرذيلة ومعلم الخلاعة والفجور(٣٧) . " ورأى النقاد فى الملهاة صورا للرذيلة تفسد الأخلاق ، وفى المأساة أمثلة مثيرة للقتل والخيانة(٣٨) والتمرد . وفى السنوات الأولى من حكم اليزابث كان يوم الأحد هو اليوم المخصص للتمثيليات . وكانت الأبواق تعلن عنها ، كما تدعو أجراس الكنائس الناس إلى صلوات المساء . وكم فزع رجال الدين من تسلل جمهور الكنيسة خلسة من صلواتهم ليزحموا المسرح . وتساءل أحد الوعاظ : أليست رواية قذرة تستحث بنفخة من بوق ألفا من الناس للحضور بأسرع مما تحضر دقات الناقوس لمدة ساعة مائة منهم لسماع موعظة(٣٩) ؟ » وذهب نورثبروك إلى أبعد من ذلك فقال : « إذا كنتن تعرفن كيف تخدعن أزواجكن ، أو خداع الأزواج لزوجاتهم ، وكيف تمثلن دور بنات الهوى ، وكيف يكون الملق والمداهنة والكذب والقتل والتجديف على الله ، وترديد لأغانى القذرة ... فهلا تتعلمن كيف تمارسن كل هذا فى مثل هذه الفصول الماجنة ؟(٤٠) »

ورد الكتاب المسرحيون على هذا بنشرات أصدروها ، وبالسخرية من البيوريتانيين فى مسرحياتهم . من ذلك ما أورد مالفوليو فى رواية « الليلة الثانية عشرة » ، حيث يسأل سير توبى بلش لمهرج فى تلك الرواية : " هل تظن أنه لن يكون هناك كعك وجعة لأنك رجل متمسك بأهداب الفضيلة ؟ " فيجيب المهرج " نعم ، وبحق سانت آن ، وسيكون الزنجبيل كذلك ساخنا فى الفم(٤١) . " واستمر هؤلاء الكتاب ، حتى شكسبير نفسه ، يملحون رواياتهم بشىء من أعمال العنف والغضب وسفاح ذوى القربى والزنى والدعارة . وهناك فى رواية شكسبير " بريكليز " مشهد يعرض حجرة فى ماخور يشكو مديره العام من أن : " العاملات عنده بتن من العمل المتواصل ، فى أسوأ حال(٤٢) "

وذهبت سلطات مدينة لندن — وكان بعضهم من البيوريتانيين — إلى أن البيوريتانيين ألزموا معارضيهم الحجة . وفى ١٥٧٤ حرم « المجلس العام » تمثيل الروايات إلا بعد فحصها وإجازتها ، ومن هنا جاء بيت شكسبير " لقد كممت السلطات أفواه الفن (٤٣) . ولكن ، لحسن الحظ ، كانت اليزابث ومجلس شورى الملكة مغرمين بالمسرحيات : وكان لبعض اللوردات فرق من الممثلين . وفى ظل

رقابة متراخية على المصنفات ، أجيزت ست فرق لإخراج الروايات فى المدينة .

وقبل ١٥٧٦ كانت الأعمال المسرحية تجرى أساسا على منصات مؤقتة فى أفنية الفنادق . ولكن فى تلك السنة بنى جيمس بوربدج أول مسرح دائم فى إنجلترا ، وأطلق عليه ببساطة اسم " المسرح " . وللافلات من سلطان الجهات المسئولة فى لندن أقيم المسرح خارج حدود المدينة نفسها ، فى ضاحية شوردتش ، وسرعان ما أقيمت مسارح أخرى : The Black Friars , The Curtain(١٥٧٧؟) (١٥٩٦) The Fortune (١٥٩٩) . وفى تلك السنة الأخيرة هدم ريتشارد وكوثبرت بوربدج مسرح والدهما ، وأقاما المسرح المشهور Globe فى سوثوارك على نهر التاميز تماماً . وكان مثمن الأضلاع فى شكله الخارجى ، ولكن ربما كان مستديرا فى الداخل ، ومن ثم أطلق عليه شكسبير "هذه الدائرة الخشبية " This Wooden O (٤٤) وكانت كل مسارح لندن من الخشب قبل ١٦٢٣ . وكان معظمها عبارة عن مدرجات كبيرة تتسع لنحو ألفين من المتفرجين جالسين فى صفوف من شرفات محيطة ، ويمكن لألف آخرين أن يشاهدوا الرواية وقوفا فى الساحة التى حول المنصة أو خشبة المسرح . وهؤلاء " الألف " هم " جمهور الدرجة الثالثة " الذين وبخهم هملت بأنهم « المشهد الصامت والضجيج (٤٥) » وكان المشاهد الواقف يدفع بنساً واحداً ، أما الجالس فى الشرفات فيدفع بنسين أو ثلاثة ، أما المقعد على المنصة فكان يكلف أكثر من ذلك قليلا . وكانت هذه المنصة عبارة عن منبسط يخرج من أحد الجدران إلى وسط الساحة . وفى المؤخرة كانت غرفة الملابس ، وفيها يرتدى الممثلون ملابسهم ، ويتولى " خازن المسرح " أمر أدوات التمثيل والإخراج المسرحى ، وكانت تشمل قبوراً وحماجم وصناديق أشجار ، وشجيرات الورد ، وعلب مجوهرات وستائر ومراجل ، وسلالم وأسلحة ، وأدوات ، وقوارير دم وبعض رؤوس مفصولة وكان يمكن بواسطة الآلات إنزال الآلهة والالهات من السماء ، أو رفع العفاريت والسحرة من الأرض ، كما يمكن إسقاط المطر بشد حبل ، وتعليق الشمس فى السماء " بحزام مزدوج (٤٦) " . وكان على هذه الأدوات أن تعوض عن جهاز المسرح . وعوقت المنصة المكشوفة غير المحجوبة سرعة تغيير الوضع . وعوضاً عن ذلك كان

التمثيل وسط الجمهور تماماً ، حتى ليكاد يحس بأنه جزء من الحدث .

ولم يكن النظارة يشكلون جزءاً صغيراً من المسرح . وكان متعهدو الحفلات يبيعون التين والتفاح والبندق والكتيبات للمتفرجين ، وفيما بعد ذلك — إذا صدقنا وليم برين البيوريتانى ، — كانت الغلايين تقدم للنساء(٤٧) . وجاءت النساء إلى الروايات أفواجاً ، لايعوقهن عن ذلك تحذيرات المنابر بأن مثل هذا الاختلاط يحرض على الغواية . وفى بعض الأحيان — حين كان الصراع الطبقى يعترض المسرحية ، كان جمهور الدرجة الثالثة يقذفون بمخلفات طعامهم على المتأنقين الجالسين على المنصة؛ ويجدر بنا ، لكى نفهم الرواية فى عصر اليزابث ، أن نذكر هذا الجمهور : العاطفة التى تهلل لقصة حب ، والمرح القلبى الحماسى الذى تلهف على رؤية المهرجين مع الملوك ، والخيلاء التى استساغت البلاغة ، والحيوية الفظة التى استمتعت بمشاهد العنف — كما نتذكر قرب المنصـــة المثلثة الجوانب التى تغرى بالمناجاة والكلام على انفراد .

وكثر الممثلون ، وكاد الممثلون جوابو الآفاق أن يظهروا فى أية مدينة تقريباً فى أيام الأعياد والاحتفالات ، يمثلون فى ميدان القرية ، أو فى فناء الحانة ، أو فى حظيرة للماشية أو فى قصر من القصور ، وفى أيام شكسبير لم يكن هناك ممثلات ، وكان الأولاد يمثلون الأدوار النسائية ، فكان يمكن للمشاهدين فى أيام اليزابث أن يروا ولداً يمثل امرأة متنكرة فى زى فتى أو رجل . وفى المدارس الخاصة الاستقراطية قدم الطلبة مسرحيات كجزء من تدريبهم أو دراستهم . ونافست فرق الممثلين الأولاد هذه فرق الممثلين الكبار ، عن طريق عرض الروايات فى مسارح خاصة للجمهور وللمتفرجين الذين يدفعون أجوراً ، وشكا شكسبير من هذه المنافسة(٤٨) ، وتوقفت بعد ١٦٢٦ .

وحتى يتفادى الممثلون البالغون إدراجهم فى مصاف المتشردين ، نظموا أنفسهم فى فرق تحت رعاية وحماية النبلاء الأثرياء — ليستر ، سسكس ، أكسفورد ، اسكس وكان للورد أمير البحر فرقة ، وكذلك للورد كبير الأمناء ، وكان هؤلاء الرعاة والحماة يدفعون أجور الممثلين عن العروض التى يقدمونها فى قاعات البارونات والنبلاء . وفيما عدا هذا عاش الممثلون مزعزعين غير مستقرين على أنصبتهم فى فرقهم .

ولم تكن الأنصبة توزع توزيعا عادلا ، فكان للمدير الثلث ، واستولى نجوم الممثلين على نصيب الأسد من الباقى . وترك ريتشارد بوريدج — وهوأشهر هؤلاء النجوم — أملاكاً تدر ٣٠٠ جنيه سنوياً ، أما منافسه إدوارد اللين Alleyn فقد شاد وتبرع بكلية دلوتش فى لندن . وكوفىء مشاهير رجال المسرح باعجاب الجمهور الأعمى بهم ، ويتهافت السيدات عليهم يخطبن ودهم .

ويروى لنا جون مانتجهام فى مذكراته عن مارس ١٦٠٢ قصة مشهورة :

ذات مرة ، حين مثل بوريدج " ريتشارد الثالث " ، كانت هناك مواطنة قريبة الشبه به إلى حدبعيد: لدرجة أنها قبل أن تنصرف من الرواية حددت له موعداً ليحضر إليها تلك الليلة باسم ريتشارد الثالث . وكان شكسبير يسترق السمع إلى الحديث ، فسبقه إليها ، ولقى ترحيباً ونفذ خطته قبل حضور بوريدج . ثم جاء رسول يقول إن ريتشـــارد الثالث بالباب ، فرد شكسبير الرسول ليقـــول إن وليم الفاتح سبق ريتشارد الثالث(٤٩) .

٦ — كرستوفر مارلو ١٥٦٤ — ١٥٩٣

لم يجن كتاب المسرح من الربح قدر ما جنى الممثلون . ذلك أنهم باعوا رواياتهم دون تحفظ إلى الفرق المسرحية لقاء مبلغ يتراوح بين ٤ و ٨ جنيهات ، ولم يحتفظوا بحقهم فى المخطوطة أى فى أصل الرواية ، وحظرت الفرقة عادة نشر النص لئلا تستخدمه فرقة منافسة . وسجل كاتب الاختزال الرواية أحياناً فى الوقت الذى تمثل فيه . وربما أصدر صاحب المطبعة من هذا التسجيل طبعة مسروقة محرفة لا يصيب المؤلف منها إلا ضغط الدم الشديد . ولم تحمل مثل هذه الطبعات دوما اسم المؤلف ومن ثم ، فان الروايات مثل Arden of Faversham (١٥٩٢) عمرت عدة قرون دون أن تحمل اسم مؤلفها .

وبعد ١٥٩٠ عاش المسرح الإنجليزى على روايات لها بعض القيمة ، ولو أن عددا قليلا منها فقط هو الذى عمر لأكثر من يوم . وزخرف جون ليلى ملهياته بأغان شعبية ساحرة فقد مهد السحر الرقيق فى روايته Endymion لرواية « حلم منتصف ليلة صيف » .

وربما تبادلت رواية روبرت جرين « Friar Bacon and Friar Bungay »(١٥٨٩) التى عالجت عجائب السحر ، نقول ربما تبادلت الفكرة مع رواية مارلو « دكتور فاوست » (١٥٨٨ ؟ — ١٥٩٢ ؟) . وروت « المأساة الأسبانية » لتوماس كد (١٨٥٩ ؟) قصة قتل دامية كادت لا تبقى على أحد فى النهاية ، وأوحى نجاحها إلى كتاب الرواية فى عصر اليزابث ودفعهم إلى منافسة القواد والأطباء فى سفك الدماء . وهنا ، كما هو الحال فى هملت نجد « شبحا » يطالب بالثأر ، كما نجد رواية داخل رواية .

وعمد كريستوفر مارلو قبل تعميد شكسبير بشهرين اثنين ، وهو ابن صانع أحذية فى كنتربرى ، ومن ثم فاته ماكان ليحظى بالتعليم الجامعى لولا أن رئيس الأساقفة باركر قدم له منحـــة دراسية . وطوال سنى دراسته بالكلية استخدمه سير فرانسيس ولسنهام جاسوسا للتحرى عن أية مؤامرات ضـــد الملكة . ولقد زعزعت دراسته لآداب الإغريق والرومان من عقيدته الدينية ، كما أضفى اطلاعه على آراء مكيافللى على تشككه اتجاها إلى المذهب الكلبى (السخرية) . وانتقل إلى لندن بعد الحصول على درجة الأستاذية (١٥٨٧) ، وأقام فى غرفة مع توماس كد . وانضم إلى حلقة المفكرين الأحرار التى تزعمها رالى وهاريوت . ورفع ريتشارد بارنز — أحد عمال الحكومة — إلى الملكة فى ٣ يونية ١٥٨٩ تقريرا جاء فيه أن مارلو كان قد أعلن أن أول أصل فى الدين لم يكن إلا إبقاء الناس فى رعب وفزع .. وأن المسيح كان ابن زنى . . . وأنه إذا كان ثمة ديانة حقة فهى الكاثوليكية ، لأن عبادة الله عندهم تقوم على مزيد من الطقوس ، وأن جميع البروتستانت حمير مراءون منافقون . . . وأن العهد الجديد (الإنجيل) كله مكتوب بشكل قذر بذىء . ويضيف بارنز « ثم أن مارلو هذا . . . فى كل اجتماع يحضره تقريبا . . . يحرض الناس على الإلحاد ، ويريدهم ألا يخشوا « البع بع » والغيلان ، مزدريا كل الازدراء الرب ورسله[٥٠] . » كما أن بارنز (الذى أعدم شنقا فى ١٥٩٤ لفعلة شائنة) أضاف — ليحكم التدبير — أن مارلو دافع عن اللواط[٥١] . ووصف روبرت جرين فى دعوته أصدقاءه إلى الاصلاح ، وهو على فراش الموت ، نقول « وصف مارلو

بأنه ميـال إلى التجديف والإلحـاد(٥٢) وقرر توماس كد ـ وقد قبض عليه فى ١٢ مايو ١٥٩٣ ـ تحت تأثير التعذيب ، أن مارلوكان مارقا مدمنا للخمر ، قاسى القلب » ، معتـادا على « السخرية من الكتب المقدسة » و « الاستهزاء بالصلوات(٥٣) » .

وقبل أن تصل هذه التقارير إلى الحكومة بوقت طويل ، كان مارلو قد كتب وأخرج للمسرح روايات تشير إلى كفره وشكوكه فى الكتب الدينية . ومن الواضح أنه ألف Tamburlaine The Great فى الكلية وأنه أخرجها فى عام تخرجه ، وإن تمجيدها للمعرفة والعلم والجمال والقوة ليكشف عن مزاج الشاعر المصطبغ بمبادىء فاوست (فيلسوف يبيع نفسه للشيطان مقابل حصوله على العلم والمعرفة).

إن نفوسنا التى تستطيع بما أوتيت من مواهب
أن تدرك عجيب صنع العالم ،
وتقيس مدار كل كوكب سيار ،
ولا تزال تصعد وراء المعرفة اللانهائية ،
وتنتقل دائما مثل الأجرام التى لا يقر لها قرار
تريدنا أن نفنى أنفسنا ، وألا نهدأ ،
حتى نصل إلى أنضج الثمار فى كل شىء(٥٤) .

وكانت الروايتان اللتان كتبهما عن تيمور تنمان عن فجاجتهما ، وكان تصوير الشخصيات مبسطا أكثر مما ينبغى التبسيط ـ فكل شخص يمثل صفة واحدة ، فتامبورلين هو الزهو بالقوة ، ويكاد الزهو أن يكون غرور طالب جامعى منتفخ الأوداج ببدع وأشياء جديدة لم يتمثلها جيدا فى عقله ، لا أن يكون ثقة هادئة بالنفس لدى ملك ظافر . وتجرى القصة على أنهار من الدماء تعترضها السدود أو الاحتمالات البعيدة . والأسلوب ينزع إلى الكلام المنمق الرنان . ماذا إذن أكسب هذه الرواية أعظم النجاح ، إلى هذا الحد ، فى عصر اليزابث ؟ يحتمل أن يكون ذلك راجعا إلى مافيها من عنف وسفك دماء وتنميق ، ولكنا أيضا قد نؤمن بأنه يرجع إلى ما فيها من زندقة وهرطقة وفصاحة ، ففيها أفكار تدوى بجرأة أكثر ،

وصور يحس بها المرء إحساساً أعمق . وعبارات استخدمت بذكاء أكثر مما سمع أو عرف في المسرح الاليزابيثي من قبل . وهنا كانت عشرات من « الأبيات العظيمة » مما حدا بجونسون أن يمتدحها ، وقطع تتسم بجمال شجي ، حتى لقد ذهب سوينبرن إلى أنها فريدة في نوعها .

وأعجل التهليل والهتاف مارلو ، فأسرع الخطى ، وكتب بكل ما أوتي من قوة الروح أعظم أعماله : « التاريخ الفاجع لدكتور فاوست » (١٥٨٨ ؟). إن أخلاق العصور الوسطى التي ربما أقرت « أن بهجة المعرفة بهجة يعروها الحزن والأسى[٥٥]، وأن في المزيد من الحكمة مزيدا من البلية[٥٦] » كانت قد دمغت اللهفة الجامحة على المعرفة بأنها إثم عظيم ، بيد أن طموح العصور الوسطى تحدى هذا الحظر ، حتى إلى حد مناشدة السحر والشيطان بغية الوقوف على أسرار الطبيعة وقواها . وإن مارلو ليمثل فاوست على أنه طبيب ويتبرج العالم الشهير الذي يتميز غيظا من الحدود الضيقة لمعرفته وعلمه ، ويحلم بوسائل سحرية تجعله يحيط بكل شيء علما .

إن كل شيء يتحرك بين القطبين الساكنين
سوف يكون تحت أمري . . .
وهل أجعل الأرواح تأتيني بكل ما أريد ،
وتبدد كل غموض والتباس .
وتقوم بكل مغامرة يائسة أبتغيها ؟
سأجعلها تطير إلى الهند من أجل الذهب
وتنقب في المحيطات وراء لآلىء الشرق
وتفتش في كل أركان الدنيا المكتشفة حديثا
من أجل الفاكهة الشهية وكل ألوان النعيم والترف ،
وسأجعلها تتلو على غرائب الفلسفة .
وتقص على أنباء الملوك الأجانب[٥٧] .

وبناء على نداء منه ، يظهر مفستوفيلس . ويعرض عليه أربعا وعشرين سنة من السعادة والقوة ، شريطة أن يبيع نفسه إلى لوسيفر ويوافق فاوست ويوقع

العقد بدم ذراعه المقطوعة . وكان أول مطلب له هو أن يأتيه بأجمل فتاة فى ألمانيا لتكون زوجة له ، " لأننى شهوانى لعوب داعر " ، ولكن مفستوفيلس يثنيه عن الزواج ، ويقترح بدلا منه مجموعة متعاقبة من الخليلات والمحظيات . ويطالب فاوست بهيلين غادة ترواده ، فتأتى إليه ويغرق هو فى غمرة النشوة والابتهاج :

هل هذا هو الوجه الوحيد الذى هاجم ألف سفينة
وأحرق أبراج ترواده الشاهقة ؟
أيتها الجميلة هيلين امنحينى الخلود بقبلة منك . . .
آه . . . إنك أحلى من نسيم المساء
مكسوة بجمال ألف من النجوم

وعولج المشهد الأخير فى قوة هائلة : التوسل الأخير إلى الله فى شىء من الرحمة ، أو على الأقل فى فترة من اللعنة والعذاب — « فليعش فاوست ألف سنة بل مائة ألف سنة فى الجحيم ، لينجو فى النهاية » — ثم اختفاء فاوست عندما آذنت الساعة بحلول منتصف الليل ، وسط ضجة هائلة من السحب المعتمة المصطدمة بعضها ببعض . وتنشد الفرقة الموسيقية كلمات تخليد ذكراه — وذكرى مارلو :

انقطع الغصن الذى نما وترعرع مستقيما عاليا ،
واحترق فرع الغار الذى يكلل أبوللو

ربما استطاع مارلو ، فى هذه الروايات ، أن يظهر ميوله الخاصة نحو المعرفة والجمال والقوة ، ولكن تطهير العواطف ، أو أثر التنقية والتنظيف — ذلك الذى عزاه أرسطو إلى المسرحية المأساوية ، كان يظهر فى المؤلف أكثر منه فى جمهور المشاهدين . وفى مسرحية « يهودى مالطه » (١٥٨٩ ؟) تأخذ الرغبة فى القوة شكلا متوسطا من جشع المال والثروة ، وتدافع عن نفسها فى الخطبة التى ألقاها مكيافلى :

إنى لأعجب لأولئك الذين يبغضوننى كل البغض .
وعلى الرغم من أن بعضهم يندد علانية بكتبى
فانهم ، سيقرأونها ، ومن ثم يصلون

إلى كرسى بطرس ، وعندما يتخلصون منى
سيكون أعدائى الصاعدون خطراً عليهم
وإنى لأعتبر الدين لعبة أطفال ،
وأعتقد أنه ليس ثمة خطيئة غير الجهل .

ومرة أخرى نجد أن بارباس مقرض النقود صفة واحدة مجسدة ، هى الجشع إلى حد الكراهية لكل من يعوق سبيل مكاسبه فى صورة ساخرة بغيضة عولجت برذائل مهيبة .

لقد تعلمت فى فلورنسة كيف أقبل يدى
وأرفع ذراعى عندما ينادوننى يا كلب ،
وأتوارى ذليلا مثل أى أخ عارى القدمين
أملا فى أن أراهم يموتون جوعاً فى حظيرة(٥٨) .

وإنه ، وهو يدقق التأمل فى مجوهراته ، يهتز طرباً " لثروتهم التى لا حد لها ، فى غرفة صغيرة(٥٩) "وعندما تستعيد ابنته حقائب أمواله المفقودة ، يصيح فى خليط من المشاعر ، سبق بها شيلوك ، " آه يا ابنتى ، ذهبى ، ثروتى ، بهجتى(٦٠) " . وفى هذه الرواية قوة تكاد تكون ضراوة ، وفيها وخز بالألقاب وقوة فى العبارة ، أدت بمارلو ، بين الحين والحين ، إلى الاقتراب كثيراً من شكسبير .

وكان أشد اقتراباً منه فى رواية إدوارد الثانى (١٥٩٢) ، فلما أن توج الملك الصغير أرسل إلى صديقه الأغريقى " جافستون ، وأغدق عليه بسخاء القبلات والمناصب والأموال ، فثار النبلاء الذين أهملهم وخلعوا إدوارد الذى اتجه إلى الفلسفة ، فنادى رفاقه الباقين :

تعال يا سبنسر ، تعال يا بالدوك ، اجلسا إلى جوارى
جربا الآن تلك الفلسفة ،
التى فى بيوت حضانتنا المشهورة للفنون
كنتم ترضعونها من أفلاطون وأرسطو .

إن هذه الرواية (إدوارد الثانى) — بهذا البنيان المحكم ، وبالشعر المفعم بالحساسية والخيال والقوة ، وبهذه الشخصيات التى رسمت فى وضوح وتماسك ، وبهذا الملك الممزوج من اللواط والزهو ، ومع ذلك يمكن الصفح عنه فى بساطة صباه وجماله الغض — نقول إن هذه الرواية بكل ماذكرنا ، كانت قيد خطوة من رواية شكسبير « ريتشارد الثانى » التى أعقبتها بسنة واحدة .

وماذا كان عســـاه ينجز هذا الكاتب المسرحى الذى بلغ من العمر سبعاً وعشرين سنة ،إذا اكتمل نموه . فى مثل تلك السن كان شكسبير يكتب توافه مثل :
Two Gentlemen of Verona, Acomedy of Errors Love,s Labour's Lost
وفى « يهودى مالطة » كان مارلو يعرف كيف يجعل كل منظر يدفع أمامه مكيدة مرتبة ، وفى « إدوارد الثانى » تعلم كيف يعرف الشخصية الواحدة على أنها أكثر من صفة واحدة مجسدة ، وربما تيسر له فى عام أو عامين تطهير رواياته من الكلام المنمق الطنان والأحداث المثيرة ، ولربما سما إلى فلسفة أرحب أفقا ، وإلى تعاطف أعظم مع أساطير بنى الإنسان ونقاط الضعف فيهم . وربما كانت نقيصته المعيبة هى الحاجة إلى الفكاهة ، فليس ثمة ضحك لطيف فى رواياته ، فاللهو العارض — كما هو الحال فى روايات شكسبير ، لا يؤدى مهمته الصحيحة فى المأساة — ألا وهى تهدئة روح المستمع قبل الارتفاغ به إلى ذروة المأساة . وكان يستطيع أن يقدر الجمال الحسى أو المادى فى النساء ، ولا يقدر ضعفهن وقلقهن وكياستهن . وليس فى رواياته شخصية نسوية قوية نشيطة ، حتى فى الروايتين اللتين لم يكملهما « ديدو » و « ملكة قرطاجة » .

ولم يبق أمامنا إلا الشعر . وأحيانا تغلب الخطيب على الشاعر ، فصاح الخطيب « بخطبة عظيمة مدوية[٦١] . ولكن كم من مشهد كان الشعر المشرق ينساب فيه بصور حية وألفاظ متناغمة إلى حد أن الإنسان قد يخطئ بعض السطور فيظنها من فيض خيال شكسبير . وأثبت الشعر المرسل عند مارلو أنه الأداة الصحيحة للمسرحية الإنجليزية ، وقد يكون أحيانا مملا على وتيرة واحدة ، ولكنه عادة متنوع فى أوزانه ، محقق لاتصال وترابط يبدوان طبيعيين .

وأسدل الستار الآن فجأة على « تاريخه الفاجع » الخاص ، ففى ٣٠ مايو ١٥٩٣ ، اجتمع ثلاثة من جواسيس الحكومة — انجرام فريزر ، نيقولا سكيرز ، روبرت بولى — بشاعرنا مارلو — وربما كان هو الآخر لايزال جاسوسا — اجتمع الأربعة للعشاء فى منزل أو حانة فى دتفورد ، على بعد أميال من لندن . وطبقاً لما جاء فى تقرير وليم دانبى — المحقق فى أسباب الوفيات المشتبه فيها — « تراشق فريزر ومارلو بألفاظ نابية قبيحة فى تبيان السبب الذى من أجله لم يتفقا . . على دفع نفقات العشاء . فما كان من مارلو إلا أن استل خنجرا من حزام فريزر وطعنه به فأصابه ببعض جروح سطحية . فأمسك فريزر بيد مارلو وسدد الخنجر إليه فورا ، وأصابه بجرح قاتل عمقه بوصتان فى عينه اليمنى . . . . مات المدعو كرستوفر مورلى متأثرا به فى الحال » ، حيث وصل النصل إلى المخ . وقبض على فريزر فترافع بأنه كان فى حالة دفاع عن النفس . وأفرج عنه بعد شهر . أما مارلو فقد ووري التراب فى أول يونية فى قبر غير معروف الآن [٦٢] . وقد بلغ من العمر تسعة وعشرين ربيعاً .

وبالإضافة إلى Dido ترك مارلو شذرتين غاية فى السمو . أما Hero and Leander فهى قصيدة رومانتيكية ، من المقاطع ذوات البيتين من نوع الملحمة ، عن قصة موزائيس التى حكت فى القرن الخامس عن شاب قطع الدردنيل سبحا ليوفى بموعد لقاء . وإن أنشودة « الراعى المشبوب العاطفة فى الطريق إلى حبيبته » . لهى واحدة من أعظم الأغانى الشعبية فى عهد أليزابث . واعترف شكسبير اعترافاً جميلا بفضل مارلو ، فأجرى فقرات من هذه القصيدة على لسان سير هيو أيفانز فى رواية « الزوجات المرحات فى وندسور » ، كما أشار إليها إشارة رقيقة فى رواية « على هواك As You Like It » :

أيها الراعى الذى قضى نحبه ، إنى أرى الآن قولك المأثور فى القوة
« من ذا الذى أحب . إذا لم يكن أحب لأول نظرة ؟ »

وهذا هو البيت رقم ٧٦ من رواية مارلو Hero and Leander

لقد أنجز مارلو الشئ الكثير فى العمر القصير . ولقد جعل من الشعر المرسل كلاما مرناً قوياً . وأنقذ المسرح على أيام البزابث من دعاة القديم ومن البيوريتانيين وأضفى أشكالهم المحددة الواضحة على مسرحيات الأفكار ومسرحيات التاريخ الإنجليزى. وترك بصماته على شكسبير فى روايتى تاجر البندقية وريتشارد الثانى ، وفى شعر الغزل ،وفى الاسلوب البليغ الفخم . وبظهور مارلو ،وكدKid ؛ ولودج ، وجرين: وبيل Peele ، كانت الطرق قد فتحت ، وكان شكل المسرحية وبنيانها وأسلوبها ومادتهاقد هيئت كلها . فلم يكن شكسبير معجزة ، بل كان منفذا ومنجزا لما بدأ به هؤلاء جميعهم .

الفصل الرابع

وليم شكسبير

١٥٦٤ — ١٦١٦

---

١ — أيام الشباب ١٥٦٤ — ١٥٨٥

فلنلخص الآن ، استكمالا للبحث ، مايعرفه نصف العالم عن شكسبير . واليوم وقد عكف الباحثون المخلصون على فحص مخلفاته ودراستها لثلاثة قرون . فإنه يهمنا أن نقيس مانعرف عنه — وهناك شيء كثير يطرح جانبا لأنه غير جدير بالمناقشة ، وهناك الشكوك التى تثار حول تأليفه لكل الرويات التى نسبت إليه تقريباً .

ومهما يكن من أمر فإننا لسنا على يقين من اسمه . فقد أباحت اليزابث من الحرية فى هجاء الكلمات أكثر مما أباحت فى حرية العقيدة ، ولربما حملت نفس الوثيقة الواحدة عدة طرق لهجاء كلمة واحدة بعينها ، ولربما وقع رجل بعينه اسمه بأشكال مختلفة تبعا لمزاجه وسرعته فى الكتابة . وهكذا كتب المعاصرون مارلو ، مارلين ، مورلى وغيرها ، أما توقيعات شكسبير الستة الباقية فهى كما تقرأ : Willm Shaksp ، Willjam Shakspeare — Willm Shakspere — Wm Shakspe - William Shakespe وهو الهجاء السائد الآن ، وليس له مايؤيده فى مخطوطاته ، والتوقيعات الثلاثه الأخيرة تنبع من نفس الفكرة .

وكانت أمه مارى آردن ، من أسرة قديمة فى ووروكشير . وقد قدمت إلى جون شكسبير ، ابن مستأجر أرض والده ، صداقا ضخما نقداً وأرضاً ، وأنجبت له ثمانية أطفال كان ثالثهم وليم . وأصبح جون من رجال الأعمال الأثرياء الناجحين فى ستراتفورد على نهر الآفون ، واشترى دارين ، وخدم بلده ذائقاً للجعة . ومسئولا عن الأمن ، وعضوا فى مجلس المدينة ، ومساعدا لمأمور التنفيذ ، وأحسن إلى الفقراء

بسخاء وبعد ١٥٧٢ انحطت موارده. وأقيمت عليه دعوى من أجل ثلاثين جنيهاً، وأخفق فى دفع التهمة عنه، وصدر أمر بالقبض عليه . وفى ١٥٨٠، ولأسباب مجهولة، مثل أمام المحكمة ليقدم ضمانا بعدم الإخلال بالأمن . وفى ١٥٩٢ سجل اسمه ضمن الذين « لايحضرون إلى الكنيسة شهريا طبقاً لما نصت عليه قوانين صاحبة الجلالة » . واستنتج بعضهم من هذا أنه كان كاثوليكيا « عاصيا » ، وآخرون أنه كان بيوريتانيا ، كما استنتج غيرهم أنه لم يكن يجرؤ على مواجهة دائنيه. واستعاد وليم فيما بعد مالية أبيه، ولما قضى الوالد نحبه (١٦٠١) بقى فى شارع هنلى منزلان باسم شكسبير .

وسجلت كنيسة الأبرشيه فى ستراتفورد تعميد وليم فى ٢٦ أبريل ١٥٦٤. ودون نيقولا رو — وهو أول من كتب سيرة حياته — فى ١٧٠٩ ، أسطورة ستراتفورد التى يصدقها الجميع الآن ، وهى أن الوالد ربى ابنه . . . لبعض الوقت فى مدرسة مجانية . . . ولكن سوء ظروفه وحاجته إلى مساعدة ابنه له فى موطنه . . . أجبرتاه على سحب ابنه من المدرسة [١] . وفى المرثية التى ظهرت فى مقدمة طبعة فوليو الأولى لروايات شكسبير ، قال بن جونسون يخاطب منافسه الذى مات « لقد تعلمت قليلا من اللاتينية ، وأقل منه من اليونانية » . . ومن الواضح أن الكتاب المسرحيين اليونانيين ظلوا على حالهم يونانيين بالنسبة لشكسبير (لم يطلع عليهم .) ولكنه تعلم من اللاتينية مايكفى لملء رواياته الصغيرة بشذرات لاتينية وتوريات ثنائية اللغة ، ولو أنه تعلم المزيد منها فلربما كان يصبح عالماً آخر ، مجداً نشيطا ، مجهولا ، وتصبح لندن مدرسته .

وثمة أسطورة أخرى سجلها ريتشارد ديفيز حوالى ١٦٨١ وصفت وليم الصغير بأنه « كثيرا ما كان سيىء الحظ فى سرقة الغزلان والأرانب ، وبخاصة من سير توماس لوسى الذى كان غالبا مايجلده بالسوط ، وأحيانا يسجنه [٢] » . وفى ٢٧ نوفمبر ١٥٨٢ عندما كان هذا الوغد المزعوم فى سن الثامنة عشرة ، حصل هو وآن هاثاواى ، وكانت هى فى نحو الخامسة والعشرين ، على إذن بالزواج . وتشير الظروف إلى أن أصدقاء آن أرغموا شكسبير على الزواج منها [٣] . وفى مايو ١٥٨٣ — أى بعد زواجهما بستة أشهر ، ولدت لهما طفلة أسمياها سوزانا ، وأنجبت آن فيما بعد للشاعر

توأمين عمدا تحت اسم هامنت وجوديث فى ٢ فبراير ١٥٨٥ . ويحتمل أنه حوالى نهاية هذا العام هجر شكسبير زوجته وأولاده . وليس لدينا أية معلومات عنه فيما بين عامى ١٥٨٥ — ١٥٩٢ . حين نعثر عليه ممثلا فى لندن .

٢ — تطور الشاعر ١٥٩٢ — ١٥٩٥

أن أول إشارة لشكسبير هنا تحط من قدره . وفى ٣ سبتمبر ١٥٩٢ أصدر روبرت جرين وهو على فراش الموت تحذيراً إلى أصدقائه ، بأنه يزحزحهم عن مكانهم فى مسرح لندن " غراب ناشىء يزدان بريشنا نحن ، وأنه فى جرأة وحشية (له قلب نمر) يرتدى جلد الممثلين ؛ (وفى هذا تهجم لاذع على بيت فى مسرحية هنرى السادس) ، ويظن بذلك أنه قادر على أن يطنطن بالشعر المرسل كأحسن فرد فيكم أنتم . وبمــا أنه مستخدم يؤدى كل المهــام ، ففى تصوره أنه أحسن ممثل فى أى بلد[٤] " . وأعد هذه القطعة للطبع باعتبارها جزءاً من كتاب جرين « مايساوى بضعة بنسات» من ذكاء جرين ـــ أعدها هنرى شاتل ، الذى قدم فى رسالة لاحقة ، اعتذاراً إلى أحد الرجلين (ويحتمل أن يكونا مرلو وشكسبير) اللذين هاجمهما جرين .

إننى لم تكن لى صلة بأى من هذين الرجلين المعتديين ، ولا أعبأ قط بأننى لن تكون لى صلة بأحدهما . أما الآخر ، فانى آسف لأنى رأيت بنفسى أن سلوكه لم يكن أقل لطفاً ، كما لم يكن هو أقل امتيازاً فى المهنة التى يدعيها ، وفوق ذلك فان مختلف العادات تؤكد استقامة تصرفاته ، التى تنم على أمانته وكياسته فى الكتابة التى تؤيد فنه[٥] .

ويبدو أنه ليس ثمة شك فى أن هجوم جرين واعتذار شاتل كانا يشيران إلى شكسبير . وما أن جاءت سنة ١٥٩٢ حتى كان سارق الصيد فى ستراتفورد ممثلا وكاتباً مسرحياً فى العاصمة . ويروى دودال (١٦٩٣) ورو (١٧٠٩) أنه « استقبل فى المسرح كخادم فى مرتبة وضيعة جداً[٦] » ، وهذا أمر محتمل . ولكن صدره كان يجيش بأشد الطموح " يتلهف على فن هذا ومقدرة ذاك ، دون أن ينصرف تفكيره إلى شىء سوى الجلال والعظمة[٧] " وسرعان ما كان يمثل أدواراً صغيرة ، جاعلا من نفسه متعة وبهجة للنظر[٨] . ثم مثل دور " آدم الشفوق " فى رواية

" على هواك " والشبح فى هملت وربما صعد إلى مرتبة أعلى لأن اسمه تصدر قائمة الممثلين فى رواية جونسون Everyman in His Humour أو فى رواية جونسون Sejanus (١٦٠٤) هو ويوريدج بأنهما " الممثلان المأساويان الرئيسيان(٩) " . وفى أواخر ١٥٩٤ أصبح مساهماً فى فرقة تشمبرلين للممثلين . ولم يكسب ثروته من كونه كاتباً مسرحياً ، بل لكونه ممثلا ومساهماً فى فرقة مسرحية .

ومهما يكن من أمر فانه فى ١٥٩١ كان يكتب الروايات . ويبدو أنه بدأ " طبيباً للرواية " (يعالجها ويفحصها) فحرر المخطوطات ونقحها وكيفها للفرقة . وانتقل من مثل هذا العمل إلى الاشتراك فى التأليف . وإن الأجزاء الثلاثة من " هنرى السادس " (١٥٩٢) لتبدو أنها من مثل هذا الإنتاج المشترك . وبعد ذلك كتب روايات بمعدل اثنتين كل عام ، حتى بلغت جملتها ستا وثلاثين أو ثماني وثلاثين رواية . وإن عدة من رواياته الأولى مثل Two Gentlemen of Yenoma, Acomedy of Errors(١٥٩٤) ، Loves Labours Lost (١٥٩٤) — توافه هزلية مليئة بالمزاح المرهق لنا الآن . وإنه لمن الدروس المفيدة أن نعلم أن شكسبير صعد سلم المجد بالعمل الشاق والجهد المضنى . ولكن الصعود كان سريعاً . وأوحت إليه رواية مارلو " إدوارد الثانى " أن يلتمس فى التاريخ الإنجليزى أفكاراً لموضوعات مسرحية كثيرة وضارعت رواية " ريتشارد الثانى " (١٥٩٥) رواية مارلو . أما رواية " ريتشارد الثالث " (١٥٩٢) فكانت بالفعل قد بزتها . ووقع إلى حد ما فى خطأ خلق شخص واحد من صفة واحدة — الملك الأحدب من الطموح الموصوم بالخيانة والقتل ، ولكنه بين الحين والحين ارتفع بالرواية عن مستوى مارلو بعمق التحليل وقوة الإحساس وومضات من العبارة المشرقة . وسرعان ما أصبحت عبارة " جواد! جواد! مملكتى مقابل جواد! " . ذائعة على كل الألسنة فى لندن .

ثم فترت العبقرية فى Titus Andronicus (١٥٩٣) . وغلب التقليد ، وعرض رقصة الموت البغيضة ، فان تيتس يقتل ابنه ، وآخرين صهره أو زوج ابنته ، على المسرح ، وتغتصب عروس وراء الكواليس فتأتى إلى خشبة المسرح ، وقد قطعت يداها ، وقطع لسانها ، والدم ينزف من فمها . ثم يقطع أحد الخونة يد

تيتس بفأس أمام جمهور الدرجة الثالثة الذين تكاد عيونهم تلتهم المشهد . وتعرض رأسا ابنى تيتس المفصولان ، وتقتل إحدى المرضعات على المسرح . وجهد النقاد الذين يجلون شكسبير ليحملوا المشتركين فى التأليف جزءاً من مسئولية هذه المذبحة ، طبقاً للنظرية الخاطئة القائلة بأن شكسبير لايكتب هراء ، ولكنه كتب بالفعل قدرا كبيرا منه .

وألف شكسبير حوالى هذه المرحلة من مراحل تطوره ، شعره القصصى وقصائد السونيت ، وربما كان الطاعون الذى تسبب فى إغلاق كل مسارح لندن بين ١٥٩٢ — ١٥٩٤ ، هو الذى تركه فى فراغ أليم بائس ، ورأى أنه من صواب الرأى أن يوجه شيئا من الشعر المؤمل إلى أحد رعاة الشعر. وفى (١٥٠٣) أهدى فينوس وأدونيس إلى هنرى ريوتسلى أرل سوثمبتون الثالث . وكان لودج قد اقتبسها من قصة أوفيد Metamorphoses ، واقتبسها شكسبير عن لودج . وكان الارل شابا وسيامنغمسا فى الملذات الجنسية والصيد والقنص ، وربما تلمت أوكيفت لتلائم ذوقه . ويبدو كثير منها غذاء تافها عديم القيمة فى هذه السنوات العجاف ، ولكن فى غمرة هذا الإغراء الشديد هناك قطع ذات جمال حسى مثل الأبيات من (٦٧٩ — ٧٠٨) مما قل أن قرأت إنجلترا مثله من قبل . وتشجع شكسبير بما لقيت القصيدة من استحسان عام ، وبهدية من سوثمبتون فأصدر فى ١٥٩٤ The Ravyshement of Lucrece حيث تم الإغراء باقتصاد أكبر فى الشعر . وكانت هذه آخر ما أصدره بمحض اختياره .

وحوالى ١٥٩٣ بدأ يكتب ولكنه حجز عن المطبعة قصائد السونيت التى كانت أول ماثبت مكانته الرفيعة بين شعراء عصره . وهى من الناحية الفنية أدق أعمال شكسبير تقريبا ، وقد نهلت كثيرا من معين بترارك من قصائد السونيت — الجمال العابر للمحبوبة وترددآتها وتقلباتها القاسية ، وتثاقل خطوات الزمن الذى يضيع سدى وغيرة الحبيب وظمؤه القاتل . وتفاخر الشاعر بأن قريضه سوف يخلد جمال الحبيبة وشهرتها إلى الأبد . بل إن هناك عبارات وألقابا ونعوتاً منتحلة من كونستابل ودانيل ، وواطسون — وغيرهم من شعراء السونيت الذين كانوا هم أنفسهم حلقات

فى سلسلة السرقات الأدبية . ولم يفلح أحد فى ترتيب قصائد السونيت فى نظام قصصى ثابت ، وكانت كلها عملا طارئا فى أيام متباعدة . ويجدر بنا ألا نأخذ بكثير من الحد حبكتها الغامضة — حب الشاعر لشاب يافع ، وميله إلى « سيدة سمراء » فى البلاط. وصدودها عنه ، وترحيبها بصديق له ، وظفر شاعر منافس بذاك الصديق ، وسهاد شكسبير اليائس وتفكيره فى التخلص من الحياة . ومن الجائز أن شكسبير ، وهو يمثل فى البلاط ، اختلس النظرات فى لهف بعيد إلى الوصيفات المحيطات بالملكة ، واللائى تضمخن بعطور ذات رائحة مثملة ، وارتدين ثيابا تبهر الأنظار ، ولكن ليس من المرجح أنه تحدث إليهن أو حاول اقتناصهن قط . ولقد أصبحت واحدة منهن ، وهى مارى فتون Fitton خليلة أرل بمبروك ، ويبدو أنها كانت شقراء ، أو أن هذا كان مجرد أصباغ زائلة ، ومهما يكن من أمر فقد كانت غير متزوجة ، فى الوقت الذى خانت فيه زوجة شكسبير « عهد الزوجية » بحب الشاعر و « محبوبه »(١٠) .

وفى ١٦٠٩ نشر توماس ثورب قصائد السونيت ، وواضح أن هذا كان بدون موافقة شكسبير ، لأن المؤلف لم يكتب فيها إهداء ، ولكن ثورب نفسه صدرها بإهداء حير الأجيال : « إلى الوحيد الذى يقدر القصائد التالية ، السيد و . ه . مع كل مابشر به شاعرنا الخالد من سعادة وخلود ، مع أطيب التمنيات للمغامر الذى يبغى الخير ، فيما يعتزم من ترحال . » ويحتمل أن التوقيع ا ت : ث . « توماس ثورب » . ولكن من هو « و . ه . » ؟ ربما كان هذان هما الحرفان الأولان من وليم هربرت أرل بمبروك الثالث الذى أغوى مارى فتون ، والذى قدر له هو وأخوه فيليب أن يتلقيا إهداء الكتاب الذى نشر بعد وفاة مؤلفه ، على أنه أعظم راع لرجال العلم والأدب من أى نبيل فى عصره أومنذ ذلك العصر » . وكان هربرت فى عامه الثالث عشر فقط حين بدأت قصائد السونيت ١٥٩٣ ، ولكن تأليفها امتد حتى ١٥٩٨ ، حين كان بمبروك قد اشتد عوده ونضج للحب ورعاية الأدب والأدباء . ويتحدث الشاعر بحرارة عن حبه « للمحبوب الفتى » . وغالباً ما استخدمت كلمة الحب بمعنى الصداقة . ولكن القصيدة رقم ٢٠ تطلق على الفتى

« سيد — سيدة هيامى وهواى » وتنتهى بتورية تصور الحب الجنسى . والقصيدة ١٢٨ (والظاهر أنها موجهة « للفتى الوسيم » الوارد ذكره فى القصيدة ١٢٦) تتحدث عن نشوة العشق والغرام . وكان بعض الشعراء فى عصر اليزابث أدباء لوطيين قادرين على تهيئة أنفسهم للحب الطروب المبهج ، لأى رجل من ذوى اليسار .

إن أهمية قصائد السونيت لاتكمن فى قصصها بل فى جمالها . فكثير (مثل القصائد التى تحمل أرقام ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٩٧ ، ١٠٦ ، ١١٧) زاخرة بسطور يتجلى فيها عمق التفكير وحرارة الأحاسيس وروعة التصوير وجزالة العبارة ، مما جعل صداها يرن لعدة قرون عبر العالم الذى يتحدث باللغة الانجليزية .

٣ — تفوق الشاعر : ١٥٩٥ — ١٦٠٨

ولكن نظم السونيت وما تطلبه من صنعة وفرضه من قيود ، قصقص أجنحة الخيال ، ولابد أن شكسبير ابتهج بما هيأ له الشعر المرسل من حرية واسعة ، حين أطلق لنفسه العنان ، وهو بعد يافع متحمس ، فى إحدى قصائد الحب العظيمة الباقية على مر الزمان ، لقد جاءت قصة « روميو وجوليت إلى إنجلترا من قصص مازوتشيو وباندللو ، وأعاد آرثر بروك صياغتها (١٥٦٢) فى شعر قصصى . ونقلا عن بروك ، وربما عن رواية أخرى أسبق فى نفس الموضوع ، أخرج شكسبير للمسرح روايته « روميو وجوليت » حوالى ١٥٩٥ . وأسلوبها محشو بأخيلة وأوهام ربما علقت بقلمه من نظم قصائد السونيت ، فجاءت المجازات جافة شاذة ، ورسمت شخصية روميو بشكل ضعيف إلى جانب مركوشيو المنفعل المهتاج . وحل العقدة عبارة عن سلسلة متصلة من السخافات . ولكن من ذا الذى يذكر الشباب ، أو يرسب فى أعماقه حلم ، يستطيع أن يستمع إلى هذه الموسيقى العاطفية الرومانسية الحلوة ، دون أن ينبذ كل معايير الثقة والتصديق ، وينهض لاهثا أو حابسا أنفاسه نحو الشاعر وهو يشق طريقه إلى هذا العالم بما فيه من غيرة جامحة وقلق مرتجف ، وفناء حزين ؟

والآن يسير شكسبير من نصر إلى نصر فى عالم المسرح ، فى كل عام تقريبا : فنى ٧ يونية ١٥٩٤ أعدم ردريجو لوبيز ، طبيب الملكة اليهودى ، بتهمة قبول رشوة ليدس السم للملكة . ولم يكن الدليل قاطعا ، وترددت اليزابث طويلا فى التصديق على حكم الاعدام ، ولكن العامة فى لندن أخذوا جريمته قضية مسلما بها. واستعرت روح العداء للسامية فى الحانات(١١) . ويمكن أن يكون شكسبير قد تأثر إلى حد أن يضرب على هذا الوتر الحساس ، أو أنه كلف بذلك ، فكتب « تاجر البندقية » (١٥٩٦ ؟) ، وشارك إلى حد ما مستمعيه فى مشاعرهم ، فأجاز أن يمثل شيلوك فى شخصية هزلية فى ثياب رثة مع أنف عريض مصطنع ، ونافس مارلو فى إبراز كراهية مقرض النقود وجشعه ، ولكنه أضفى على شيلوك بعض الصفات المحببة التى لا بد أنها جعلت الحمقى يحزنون ، ثم أنه أورد على لسانه عرضا للقضية من أجلى اليهود ، بلغ من الوضوح والجرأة حدا جعل كبار النقاد لايزالون يجادلون فيما إذا كان شيلوك قد صور مفترى عليه أكثر منه آثما مذنبا(١٢) ؟ وهنا ، فوق كلى شىء ، أظهر شكسبير براعته فى أن يؤلف صورة متناسقة الأجزاء من خيوط مختلفة من قصص جاءت من الشرق ومن إيطاليا ، كما جعل جسيكا المرتدة متلقية مثلى هذا الشعر العاطفى الرومانتيكى ، كما لا يمكن أن تتصوره إلا روح ذات حساسية عالية .

وانصرف شكسبير طيلة أعوام خمسة إلى الملهاة بصفة أساسية . وربما أدرك أن الجنس البشرى المنهوك يختص بأسخى جوائزه أولئك الذين يستطيعون إلهاءه بالضحك والخيال . إن رواية « حلم منتصف ليلة صيف » هراء قوى عوض عنه مندلسون. ولم تنقـذ هيلينا رواية « Allls Well That Ends Well » . أما رواية « أسمع جعجعة ولا أرى طحنا » فهى تتفق مع اسمها . ورواية « الليلة الثانية عشرة » محتملة فقط لأن فيولا تمثل فتى وسيما جدا . ورواية « ترويض النمرة » زاخرة بمرح صاخب بشكل لا يصدق، ومن المستحيل ترويض النساء ذوات الألسنة السليطة.

---

(١) قارن Two Gentlemen of Verona : ٢ — ٢ — ٣٠٦ ، و Merry Widows of Windsor ١ — ٢ .

هذه الروايات كلها كانت إنتاجاً لمجرد كسب المال ، وإرضاء جمهور الدرجة الثالثة ، ووسائل لإبقاء القطيع داخل الحظيرة ، وإبقاء الذئب بعيداً عن الباب .

ولكن بجزئى " هنرى الرابع " (١٥٩٧/١٥٩٨) صعد الساحر العظيم ثانية إلى القمة ، وجمع بين المهرجين والأمراء — فولستاف وبستول . هتسبير والأمير هال — فى نجاح كان يمكن أن يجعل سدنى يتردد . واستساغت لندن استخدام تاريخ الملوك على هذا النحو ، مزخرفاً بالأوغاد ، والمومسات . وتابع شكسبير العمل فأخرج " هنرى الخامس " (١٥٩٩) ، يهز بها مشاعر المشاهدين ويسليهم فى وقت معاً ، ثرثرة فولستاف الذى يعانى سكرات الموت : " أيتها المروج الخضر " ، ويثيرهم بجعجعة أجنكورت ، ويبهجهم بمغازلة الملك الذى لا يقهر للأميرة كيت Kate بلغتين . وإذا اعتقدنا فى صحة كلام رو ، فإن الملكة لم تكن ترتضى الراحة لفولستاف وأمرت منشئه (مؤلف الرواية) أن يحييه ويعرضه فى مشهد عشق وغرام[١٣] . ويضيف جون دنيس (١٨٠٢) وهو يروى نفس القصة ، أن اليزابث رغبت فى أن تتم المعجزة فى مدى أسبوعين . وإذا كان كل هذا صحيحاً ، فإن رواية " الزوجات المرحات فى وندسور " كانت عملا مدهشاً من أعمال البراعة والقوة ، لأنها برغم كونها صاخبة لأنها حافلة بالخشونة والعنف متخمة بالتوريات . ففيها فولستاف فى ذروة نشاطه وحيويته ، حتى ألقى به إلى النهر فى سلة غسيل . وقيل لنا إن الملكة كانت مسرورة .

وأنه لشىء مروع أن نجد كاتباً مسرحياً ينتج فى موسم واحد (١٥٩٩ — ١٦٠٠ ؟) مثل هذا الهراء التافه ، ثم ينتج بعده هذه المقطوعة القصصية الرومانتيكية البالغة الرقة " على هواك " وربما كان سبب هذا هو أنها استرشدت بمقطوعة لودج " روزاليند" (١٥٩٠) ، وموسيقى الرواية صافية نقية — لا تزال معوقة بالمزاح والهزل الجاف غير الممتع ، ولكنها ناعمة رقيقة من حيث الإحساس ، مرحة رشيقة من حيث الكلام . فأية صداقة كريمة هنا بين سليا وروزاليند ، وهذا أورلندو يحفر اسم روزاليند فى لحاء الشجر ، معلقاً القصائد الغنائية على أشجار الزعرور البرى ، والمراثى على الأشجار كثيرة الشوك ، وأى رصيد سديد من الفصاحة ينثر عبارات خالدة

على كل صحيفة — وأية أغان رجبت بها ملايين الشفاه : " تحت الشجرة الخضراء هب ، هب يا نسيم الشتاء ، " " فهناك كان عشيق وفتاته " . إن التدفق أو الإنتاج بأسره كان حماقة وعاطفة لذيذتين محببتين ، لا يمكن مباراته فى أى أدب .

ولكن وسط هذه الوفرة من الحلوى يضع مسيو ميلانكولى جاك شيئاً من الفاكهة المرة . معلنا أن " مسرح الحياة الواسع العالمى يعرض مهرجانات وأبهة فارغة أفجع أو أشد حزناً مما يقدم المشهد الذى نمثله " على خشبة المسرح ، وليس ثمة شىء محقق يقينى إلا الموت ، ولكنه عادة يأتى بعد مرحلة من الشيخوخة لا طعم لها ، يفقد المرء فيها أسنانه وبصره :

وهكذا من ساعة إلى ساعة ننمو وننضج ، وبعد ذلك ، من ساعة إلى ساعة نذبل ونذوى ، حتى نصبح حديثاً بعدنا(١٤) .

وهكذا أنذرنا شاعر آفون أن رواية " على هواك " كانت آخر روائع المرح والبهجة ، ومن بعدها ، حتى إشعار آخر ، عرض أن يسبر غور الحياة ليظهرنا على حقيقتها الدامية ، وهو الان يريد أن يفيض علينا من معين " الرويات المأسوية " ، ويجمع بين المرارة وطيب المذاق .

فى ١٥٧٩ عرض كتاب توماس نورث عن بلوتارك ذخيرة نفيسة من المسرحيات ، أخذمنها شكسبير ثلاثاً من " سير الحياة " وصاغها فى مسرحية " يوليوس قيصر " (١٥٩٩ ؟) . ووجد أن ترجمة نورث مفعمة بالحيوية إلى حد أنه أخذ منها عدة قطع بأكملها كلمة كلمة بالنص ، وكل ماعمله هو أنه حول النثر إلى شعر مرسل ، ومهما يكن من أمر فإن خطبة أنتونى أمام جثمان قيصر كانت من ابتداع الشاعر نفسه : جاءت تحفة رائعة فى فن الخطابة والرقة والدقة ، ثم الدفاع الوحيد الذى أجازه لقيصر . وربما أثر فيه إعجابه بدوق سوثمبتون وإرل بمبروك ، وارل إسكس الشاب : فرأى القتل من وجهة نظر النبلاء الأرستقراطيين المتآمرين المهددين بالخطر . ومن ثم يصبح بروتس محورالرواية . ولكنا ، نحن الذى حصلنا على تفاصيل مومسن عن الفساد ذى الرائحة الكريهة فى " الديمقراطية " التى أطاح بها قيصر ، أشد ميلا إلى التعاطف مع قيصر . كما فوجئنا بموت بطل الرواية فى مستهل الفصل الثالث .

وإن الماضى ليقف عاجزا بين يدى الحاضر الذى كثيرا مايعيد تشكيله ليصبح من نزوات الساعة .

وفى كتابة هملت استعان شكسبير برواية سابقة فى نفس الموضوع وتحداها . وكانت هملت قد أخرجت فى لندن قبله بست سنوات فقط . ولسنا ندرى كم أخذ من هذه « المأســاة » المفقــودة ، أو من كتاب بلفورست « التواريخ الفاجعة » (١٥٧٦) ، أو من « تاريخ الدنمرك » (١٥١٤) للمؤرخ الدنمركى ساكسو جراماتيكوس ، كما أننا لا نستطيع القول بأن شكسبير قرأ « أمراض الاكتئاب والحزن » ، وهى ترجمة إنجليزية حديثة لكتاب طبى فرنسى ألفه دى لورنس . وإنا ، ونحن نشك فى غير انفعال أو تذمر ، فى كل محاولة لتحويل الروايات إلى سيرة حياة ذاتية ، ليباح لنا أن نتساءل عما إذا كان شيء من الحزن الشخصى — بالاضافة إلى تأديب الليل والنهار — قد انضم إلى التشاؤم الذى شاع فى هملت ، واشتدت مرارته فيما أعقبها من روايات . وكان يمكن أن يكون هذا تحررا جديدا من وهم الحب ، وهل كان القبض للمرة الأولى على اسكس (٥ يونية ١٦٠٠) ، أو إخفاق ثورة اسكس ، أو اعتقال اسكس وسوثمبتون ، أو إعدام اسكس (٢٥ فبراير ١٦٠١) ؟ ويفترض أن هذه الأحداث كلها هزت مشاعر شاعرنا المرهف الحس ، الذى كان قد امتدح ، فى حرارة بالغة ، اسكس فى مقدمة الفصل الأخير من « هنرى الخامس » ، كما كان فى إهداء « لوكريس » إلى سوثمبتون ، قد عاهده على الولاء له إلى الأبد . ومهما يكن من أمر ، فان أعظم روايات شكسبير كتبت أثناء هذه النكبات أو فيما بعدها . فهى أدق فى حبكة الرواية ، وأعمق فى التفكير ، وأروع فى اللغة من سابقاتها . ولكنها تعبر كذلك عن أمر اللوم والعتاب للحياة فى الأدب بأسره . إن إرادة هملت المذبذبة ، بل « عقله الملكى الممتاز » على الاغلب قد أصابهما بالاعتدال والاضطراب اكتشاف الحقيقة واقتراب الشر ، وتشبعه بفكرة الانتقام ، حتى تملكته هو نفسه قساوة لا ترحم ولا تهدأ ، فأرسل أوفليا ، لا إلى دير للراهبات ، بل إلى الجنون والموت . وفى النهاية تجيء مذبحة عامة . لم يفلت منها إلا هوراشيو ، وقد قارب أن يصاب بلوثة .

وفى الوقت نفسه وجدت البزابث ، هى الأخرى ، البلسم الأخير . وأصبح جيمس السادس ملك اسكتلنده ، ملكا على إنجلترا تحت اسم جيمس الأول . وما أن جلس على العرش حتى ثبت وتوسع فى إمتيازات فرقة شكسبير التى أصبحت « رجل الملك » . ومثلت روايات شكسبير أمام الملك بانتظام ولقيت تشجيعاً ملكيا كبيرا . وصعدت المواسم الثلاثة بين ١٦٠٤ — ١٦٠٧ بالشاعر إلى ذروة عبقريته وأقصى مرارته ، فرواية « عطيل » (١٦٠٤ ؟) قوية بقدر ماهى بعيدة عن التصديق . فقد أثار إخلاص ديدمونا وموتها شفقة المشاهدين ، كما افتتنوا بخبث ياجوالدال على ذكائه : ولكن فى تصوير مثل هذا الشر المحض الذى لا باعث عليه فى الانسان ؛ وقع شكسبير فى خطأ مارلو : ألا وهو الشخصيات القائمة على وحدة كاملة . وحتى عطيل نفسه ، على الرغم من أنه جمع بين البراعة العسكرية والغباء ، كان ينقصه هذا المزيج الفنى من العناصر التى تضفى الروح الإنسانية على هملت ولير وبروتس وأنطونى .

ولا تزال « ماكبث » (١٦٠٥ ؟) تأملا أشد رهبة فى الشر الذى لا تخف حدته . وكان شكسبير يستشهد بهولنشد فى الحقائق المطلقة ، ولكنه زاد فى عتامة القصة وكآبتها بتحرره من الوهم بشكل انفعالى غاضب وانحطت هذه الحالة النفسية إلى الحضيض ، كما بلغ الفن ذروته فى رواية « الملك لير » (١٦٠٦ ؟) وكان جوفرى أوف مموث قد طور القصة ، ثم نقلها هولنشد ، وأخرجها للمسرح مؤخراً كاتب مسرحى مجهول الآن تحت عنوان « التاريخ الصحيح للملك لير » (١٦٠٥) وكانت حبكات الرواية ملكا مشاعا . ونهجت المسرحية القديمة نهج هولنشد فى أنها هيأت للملك لير خاتمة سعيدة ، عن طريق احتمائه بابنتها كورديليا واستعادة العرش ، وواضح أن شكسبير آثم فى جنون الملك وموته بخلعه من العرش كما أنه أضاف الإعماء الدامى الفظيع الذى أصاب جلوستر على المسرح . إن المرارة هى النغمة الأساسية السائدة فى الرواية ، وإن لير ليأمر الفسوق أن ينتشر والزنى أن يزداد « لأنى يعوزنى الجنود (١٥) » وكل الفضيلة ، فى نظرته القاتمة ، ما هى إلا واجهة للفسق والفجور ، وكل الحكومة رشوة ، وكل التاريخ عبارة عن الإنسانية تفترس نفسها أو بنى البشر

يأكل بعضهم بعضا . وهو يصاب بالجنون وهو يرى عمق الشر وانتصاره الواضح . وهو يضع كل إيمانه وثقته « بالعناية الإلهية » التي تشد من أزره وتأخذ بيده .

وتصل رواية « أنطونى وكليوبطره » إلى آفاق وأعماق أقل . وثمة شيء أنبل فى هزيمة أنطونى منه فى سورة غضب لير ، شيء أكثر تصديقاً واحتمالا فى افتتان الرومان بالملكة المصرية منه فى قساوة البريتون البغيضة مع ابنة صريحة صراحة حمقاء ؛ وفى جبن كليوبطره فى الحرب ، وروعتها فى الانتحار . وهنا كانت لدى شكسبير روايات سابقة يعمل على أساس منها ، فتناولها أيضا بالتحسين ، وجدد فى القصة التى طال ترديدها ، وزادها إشراقا وتألقا ، بتحليل أدق للخلق ، وبسحر بيانها المتلألىء الذى لايعرف الكلل . أما التشاؤم فى رواية « تيمون الأثينى » (١٦٠٨؟) فهو تشاؤم تهكمى ، لم يتخلص منه . ويصوب لير سهامه إلى النساء ، ولكنه يحس ببعض الرثاء المتأخر للبشر ، ويحتقر بطل «كوريولانس » الناس على أنهم النتاج المتقلب الذليل الأبله للإهمال والطيش ، ولكن تيمون يذم الجميع رفيعهم ووضيعهم ، ويصب اللعنة على المدنية نفسها على أنها أفسدت أخلاق البشر . وكان بلوتارك فى سيرة أنطونى قد ذكر تيمون على أنه مبغض للبشر مشهور ، وكان لوشيان قد أورده فى حوار ، كما كانت رواية إنجليزية قد ألفت عنه قبل أن يأخذ شكسبير الفكرة مع مساعد مجهول بثمانى سنوات . وكان تيمون ثريا (مليونير) أثينيا يحيط به أصدقاء متملقون متفتحون يسارعون إلى تقبل أفكاره ، وعندما يفقد ماله ، ويرى أصدقاءه يختفون بين عشية وضحاها ، ينفض غبار المدنية عن قدميه ويأوى — جادا صارما — إلى العزلة فى غابة ، حيث يأمل أن « يجد أشد الحيوانات وحشية أكثر رفقا وشفقة من بنى الإنسان [١٦] » وهو يتمنى لو « أن ألسبيادس » كان كلبا « حتى أكن لك شيئاً من الحب [١٧] » ويعيش على جذور الشجر ، وينقب فيجد ذهبا ، وهنا يظهر الأصدقاء من جديد فيطردهم ويحتقرهم ويهجوهم ألذع هجاء . ولكن عندما تأتى العاهرات وبنات الهوى ينفحهن بالذهب ، شريطة أن ينقلن الأمراض التناسلية إلى أكبر عدد ممكن من الرجال :

انشرن الأمراض والعلل .

لتنخر فى عظام الرجال الجوفاء ، واضربن على طنابيبهم

وأفسدن عليهم زيجاتهم ، وأخرسن
صوت المحامى
حتى لا يعود يترافع عن اللقب الزائف
وتدوى مرافعاته عالية رنانة ، وجللن بالمشيب
ذاك الكاهن
الذى يسلق الناس بألسنة حداد من أجل طبيعتهم الشهوانية
وهو لا يصدق نفسه ، حطمن الأنف
حطمنها ، وأكسرن قصبتها تماما ،
ولتدعن دعاة الحرب المتبجحين الذين ليس فيهم أثر لجراح
ينقلوا عنكن الأمراض الموجعة . اصببن العذاب على الجميع
حتى يقهر ويقمع نشاطكن
مصدر كل بناء وتعمير — ثمة مزيد من الذهب .
هل تردن إدانة آخرين ، فلتنصب اللعنة عليكن(١٨)

وفى سورة الكراهية يأمر تيمون الطبيعة أن تكف عن النسل ، ويأمل أن تتكاثر الوحوش الضارية لتستأصل الجنس البشرى ، إن هذا الاسراف فى بغض البشر يجعله يبدو غير حقيقى ، ولا يمكن أن نصدق أن شكسبير قد أحس بهذا التشامخ السخيف على الخطائين ، وبأنه غير مؤهل بمثل هذا الجبن لمتاع الحياة الدنيا . إن مثل هذه المبالغة فى تقدير توافه الأمور لتوحى بأن الداء قد عالج نفسه بنفسه ، وأن شكسبير لابد ستعود إليه الابتسامة سريعاً .

٤ — براعة شكسبير الفنية

كيف تسنى لأمرئ لم يتلق من العلم إلا أقله أن يخرج على الناس بروايات تعددت وتنوعت فيها ألوان المعرفة المكتسبة بالاطلاع والدرس ؟ ولكنها لم تكن [حقا معرفة على هذا النحو . ولم تكن شاملة أو واسعة فى أى من حقولها اللهم إلا فى لم النفس ؛ ولم يكن شكسبير يعرف من الكتاب المقدس إلا ما أتاحت له دراسته فى صباه أن يطالعه ، وكانت مراجعاته واشاراته إلى الكتاب المقدس عادية . وجاء علمه بالآداب القديمة اليونانية واللاتينية

مصادفة عن غير قصد ، ودون اتقان أو تعمق"، وواضح أنه كان مقصورا على المترجمات . وعرف معظم المعبودات الوثنية ، حتى أقلها شأنا وأكثرها خلاعة ، وربما استقى هذه المعرفة من الترجمة الانجليزية لكتاب أوفيد Metamorphoses ووقع فى أخطاء صغيرة ، ما كان بيكون مثلا ليقع فيها ، من ذلك أنه قال عن تيسيوس بأنه « دوق » وجعل هكتور من القرن الحادى عشر قبل الميلاد يشير إلى أرسطو فى القرن الثالث ق . م . [19] وأجاز لأحد أشخاص رواية كوريولانوس[20] (القرن القرن الخامس ق . م . أن يقتبس من كاتو (من القرن الأول) .

وكان على إلمام يسير بالفرنسية ، وأقل منه بالإيطالية ، وله بعض إلمام بالجغرافية ، فزود رواياته ببعض أماكن ومواقع دخيلة من اسكتلنده إلى إفسس ، ولكنه خلع على بوهيميا شاطئا على البحر(*) . وأرسل «اثنين من فيرونا إلى ميلان بحرا[23] . وبروسبيرو من ميلان فى قارب عابر المحيط[24] . وأخذ معظم ما عرف من التاريخ الرومانى عن بلوتارك ، ومعظم ما عرف من التاريخ الانجليزى عن هولنشد وعن روايات قديمة ، ولم يقدر للزلات التاريخية أية أهمية للكاتب المسرحى ، فوضع ساعة الحائط فى رومه على عهد قيصر ، والبليارد فى مصر على عهد كليوبطره . وكتب « الملك جون» دون ذكر للعهد الأعظم (ماجنا كارتا) ، و « هنرى الثامن » دون التعرض للاصلاح الدينى ، ومن ثم نرى من جديد أن الماضى يتغير مع كل حاضر . ومن ناحية الايجاز والعرض العام نجد أن مسرحياته التاريخية لانجليزية صحيحة من وجهة نظرنا السائدة ، أما من حيث التفصيل فهى غير جديرة بالثقة ، وهى تصطبغ ، من وجهة نظرنا ، بصبغة الوطنية — فان جان دارك فى رأى شكسبير ساحرة داعرة . وعلى الرغم من هذا كله ، اعترف بعض الانجليز مثل القائد مارلبورو بأنه استقى معظم معلوماته عن التاريخ الانجليزى من روايات شكسبير .

واستخدم شكسبير — مثل غيره من كتاب المسرح فى عهد اليزابث ، كثيرا

(*) انتقض بن جونسون على هذا فى أحاديثه مع دروموند فى هوثورندل[21] ، ونقله شكسبير عن قصة لروبرت جرين ؛ وهو متخرج فى الجامعة ؛ فتحت حكم أوتوكار الثانى (١٢٥٣ — ٧٨) مات بوهيميا سلطانها إلى شواطىء الأدرياتيك[22] .

من المصطلحات القانونية استخداما غير صحيح أحيانا . وربما كان قد التقطها من دور القضاء — مدارس الحقوق التي أخرجت فيها ثلاث من رواياته — أو من القضايا التي انشغل بها هو ووالده . وكانت لديه ذخيرة كبيرة من المصطلحات الموسيقية ، وواضح جدا أنه كان يتمتع بحس موسيقي مرهف — « أليس غريبا أن أحشاء الغنم تذهب بالأرواح لتحلق بعيدا عن أجسامها[٢٥] » ؟ وإنه ليذكر في رقة وحنان أزهار انجلترا ، وينظمها في عقد في رواية « قصة الشتاء » ، ويكسو بها أوفيليا عندما انتابتها الحمى وأخذت تهذى . وهو يلمح إلى مائة وثمانين نوعا مختلفا من النبات ، وكان ملما بالألعاب الميدانية وبسباق الخيل ، ولكنه لم يهتم إلا قليلا بالعلوم ، التي سرعان ما افتتن بها بيكون . وكما فعل بيكون ، حفظ شكسبير فلك بطلميوس[٢٦] . وبدا في بعض الأحيان (سونيت ١٥) أنه يؤمن بالتنجيم ، فتحدث عن روميو وجوليت بأنهما « عاشقان منحوسان [٢٧] » . ولكن ادموند في « الملك لير » وكاسياس في « يوليوس قيصر » يرفضان التنجيم بشدة . « إن الخطأ ، ياعزيزي بروتس ، ليس في نجومنا (في طالعنا) بل في أنفسنا ، ذلك أننا أتباع أذلاء[٢٨] » .

وجملة القول ، إن كل الدلائل تشير إلى أن شكسبير حصل على المعرفة العارضة التي يتسنى الحصول عليها لرجل الأعمال المشغول أعظم الشغل بالتمثيل والادارة ، الذي عاش لينكب على الكتب . وعرف أفظع آراء مكيافللي ، وأشار إلى رابيليه ، واقتبس من مونتاني . ولكن ليس من المرجح أنه قرأ مؤلفهم . ووصف جونزالو للدولة الديمقراطية[٢٩] مأخوذ من بحث مونتاني « أكلة لحوم البشر » . وربما أراد شكسبير بشخصيته كاليبان (العبد الرقيق الذي كان يمتلكه برسبيرو في رواية العاصفة) — أراد أن يهجو مونتاني لأنه أضفى الصفات المثالية على هنود أمريكا . أما التشكك عند هملت ، وهل ينسب شيء منه إلى شكوك مونتاني اللطيفة ، فهو مسألة لم تحل بعد . فقد نشرت المسرحية في ١٦٠٢ ، أي قبل طبع ترجمة فلوريو بعام واحد ، ولكن شكسبير عرف فلوريو ، وربما اطلع على المخطوطة وربما ساعد نقد مونتاني الدقيق على تعميق فكر شكسبير ، ولكن ليس في كتاب الرجل الفرنسي

ما يماثل مفاجأة هملت ، أو الذم الشديد للحياة فى الملك لير ، كريولانوس ، تيمون، ماكبث ، . إن شكسبير هو شكسبير يسرق الموضوعات والقطع والعبارات والأبيات ، من كل مكان ، ومع ذلك فهو أعظم الكتاب فى كل الأزمان أصالة وامتيازا وخلقا وإبداعا .

وتكمن الأصالة فى اللغة والأسلوب والخيال والفن المسرحى والدعابة وأشخاص الرواية والفلسفة . فلغته أغنى اللغـات فى كل الأدب : فهناك خمسة عشر ألف لفظ ، بما فيها المصطلحات الفنية وشعارات النبلاء ورموزهم ، والموسيقى والألعاب والمهن ، ولهجات المقاطعات : ولهجات رواد الأرصفة فى الشوارع، بالإضافة إلى ألف من الابتكارات المتعجلة أو البطيئة — Occulted, unkenneled, Fumitory, Burner, Spurring . . . لقـد استساغ ألفاظا ، ونقب فى مختلف أركان اللغـة وجوانبها ، وأحب الألفاظ عامة ، فانسابت منه فى حيوية دافقة ، مرحة ، فاذا ذكر اسم زهرة ، فانه لابد يتابع حتى يسمى اثنتى عشرة زهرة ، وإن الألفاظ نفسها ليفوح منها عبير الزهر . وأجرى على ألسنة الأشخاص فى رواياته كلمات متعددة المقاطع يتشدقون بها ويدورون بها حول المعنى . وكان يخرب فى النحو والصرف تخريبا لطيفا ، فيحول الأسماء والصفات ، بل حتى الظروف إلى أفعال ، ويقلب الأفعال إلى صفات ، كذلك الضمائر إلى أسماء ، ويضع فعل الجمع للفاعل المفرد ، أو الفعل المفرد للفـاعل الجمع ، ولكن لم يكن هناك حتى ذاك الوقت استخدام للنحو ولا الصرف فى الانجليزية ولا قواعد لها . ولقد كتب شكسبير على عجل ، ولم يتيسر له وقت فراغ للندم .

وللأسلوب الرائع « الأنيق المتميز الباروكى[٣٠] » (يتسم بالزخرفة والتعقيد والصور الغريبة) نقول إن لهذا الأسلوب أخطاء ثروته غير الخاضعة لقانون: فى عبارات متكلفة أو ملتوية بشكل غريب ، وصور بعيدة الغور ، وتلاعب باللفظ معقد بشكل مرهق ، وتورية وسط المأساة ، ومجازات واستعارات يهبط بعضها فوق بعض فى فوضى وتناقض ، وتكرارات لا حصر لها ، وتفاهات مبتذلة حافلة بالحكم ، وهنا وهناك كلام منمق مملوء بالمرح الصاخب والهراء تتشدق به أبغض الأفواه غير

المرغوب فيها . ولاشك أن التعليم الكلاسيكى ربما هذب وبسط الأسلوب ، وقضى على التورية والغموض ، لكن تدبر ، ماذا عسانا كنا نفقد حينئذ ؟ ولعله كان يفكر فى نفسه حين أورد وصف أوريانو باعتباره رجلا على لسان فرديناند :

إن لديه فى مخه داراً لسك العبارات ،
وإن عباراته لتسلب الألباب
وكأنها الإيقاع الساحر .
ولكنى أحتج ، أحب أن أسمعه يكذب[٣١]

ومن هذه الدار صدرت عملة من العبارات تكاد تكون عالمية : شتاء استيائنا[٣٢] ، تضييع وقت السلم سدى[٣٣] ، أريد أباً للفكر[٣٤] ، قل الحق وأخجل الشيطان[٣٥] ، يسكن الريح فى هذا الركن[٣٦] ؟ لا يستقر قرار للرأس الذى يحمل التاج[٣٧] . يطلى الزنبق[٣٨] ، لمسة واحدة من الطبيعة تجعل العالم كله أسرة واحدة[٣٩] ، أى حمقى هؤلاء البشر المعرضون للفناء[٤٠] . إن الشيطان ليستطيع أن يقتبس من الأسفار المقدسة ما يخدم غرضه[٤١] ، جنون منتصف الصيف[٤٢] طريق الحب الصادق ممتلىء بالأشواك[٤٣] ، ألبس قلبى على كمى (أحمل رأسى فوق كفى)[٤٤] ، فى كل بوصة ملك[٤٥] ، قدر الطاقة[٤٦] ، الإيجاز روح الفطنة[٤٧] ، . . وربما كان هذا تلميحاً لنا للاكتفاء بهذا القدر . هذا إلى جانب ألف مجاز واستعارة قد نفيد منها « قد نرى الأشرعة تحمل وينتفخ بطنها بالريح الفاجرة[٤٨] » . كما أن هناك قطعاً بأكملها تكاد تكون مألوفة بنفس القدر ، مثل العبارات : آنية أزهـار أوفيليا المضطربة ، أنطونى أمام جثة قيصر ، كليوباترا تحتضر ، لورنزو على موسيقى الكون ، كما أن هناك ذخيرة من الأغانى : « من هى سيلفيا[٤٩] » ؟ ، « هارك ! القبرة تغرد على باب السماء[٥٠] » ، أبعدوا ، أبعدوا هذه الشفاه عنى[٥١] » ، وربما حضر جمهور نظارة شكسبير من أجل هذه الزخارف ، ومن أجل القصص معاً .

" إن الخيال ليتمثل المجنون والعاشق والشاعر منضمين فى صورة واحدة[٥٢] » ، واجتمع فى شكسبير اثنان من هؤلاء ، وربما مس الثالث مساً . إنه ليخلق فى كل رواية عالما ، ولا يقنع بهذا ، فيملأ الامبرطورايات والغابات والمروج المتخيلة بسحر

صبيانى ، وجن سريع العدو ، وسحرة مرعبين وأشباح . وإن خياله ليجعل أسلوبه الذى يفكر با صور ، يحول كل الأفكار إلى صور ، وكل التجريدات إلى أشياء محسوسة أو مرئية : فمن غير شكسبير (وبترارك) كان يمكنه أن يجعل روميو ، وقد نفى من فيرونا ، يتميز غيظاً وحقداً ، لأن قططها وكلابها قد تحدق النظر إلى جولييت ، على حين لا يباح له هذا ؟ ومن غير شكسبير (اللهم إلا بليك) كان يستطيع أن يجعل الذوق المطرود فى رواية " على هواك " ، يأسف لأنه لابد أن يعيش على صيد حيوانات هى فى الغالب أجمل من الإنسان ؟ لا عجب أن روحاً قوية بكل معانى الكلمة ، لابد أن تكون قد انفعلت انفعالا شديداً بالقبح والكآبة والجشع والقسوة والشهوة والألم والحزن ، مما بدا فى بعض الأحيان أنه يشيع فى النظرة الشاملة إلى العالم .

ولم يؤت شكسبير من الأصالة فى الفن المسرحى إلا أقلها ، لقد عرف ، بوصفه رجل المسرح ، أفانين مهنته . فبدأ رواياته بمشاهد أو ألفاظ تشد انتباه جمهور المشاهدين الذين يقضمون البندق ويلعبون الورق ويحتسون الجعة ويتبادلون النظرات الغرامية مع النساء . وأفاد أكبر فائدة من " أدوات " المسرح فى عهد اليزابث وآلاته . ودرس رفاقه فى التمثيل وخلق الأدوار الملائمة لخصائصهم الجسمية والذهنية . واستخدم كل حيل التنكر والتعرف ، وكل تغييرات المناظر ، وكل تعقيدات رواية داخل رواية . ولكنه ، مع مهارته الفنية ، لم يتفاد آثار العجلة والتسرع . فإن الحبكة داخل الحبكة قد تشطر القصة إلى اثنتين أحيانا ، فماذا كان شأن كارثة جلوستر بكارثة لير ؟ فكل القصص تقريباً تنقلب إلى مصادفات بعيدة الاحتمال ، وهويات خفية . ورؤى ملائمة إلى حد بعيد ، وقد يطلب منا بحق أن نؤمن بالمسرحية كما نؤمن بالأوبرا ، من أجل القصة أو الأغنية ، ولكن يجدر بالفنان أن يحصر فى أقل الحدود " البناء القائم على غير أساس " لحلمه ، أو اختلاقه دون مبرر . وأقل من هذا أهمية تناقضات الزمن والخلق(٥٣) ، ويحتمل أن شكسبير الذى فكر فى سرعة الإنتاج . لا فى النشر الدقيق ، قدر أن هذه العيوب والأخطاء قد تمر دون أن يلحظها أحد من الجمهور المتأثر ، وإن المعايير القديمة والذوق الحديث لتنكر العنف الذى يصطبغ

به مسرح شكسبير ، وهذا امتياز آخر منح لشاغلى المقاعد الرخيصة ، ومحاولة لمواجهة مدرسة " القتل والذبح " عند المسرحيين فى عهد اليزابث وجيمس الأول .

ولما أخذ شكسبير بأسباب النمو والتطور ، عوض عن العنف بالدعابة والمرح ، وتعلم الفن الشاق ، فن تكثيف المأساة بالترويح الفكاهى . وكانت الروايات الهزلية (الملهيات) القديمة ذكاء وبراعة ودعابة غير مجسمة ، والروايات التاريخية القديمة ثقيلة مملة حيث كان يعوزها المرح والدعابة ، وفى مسرحية هنرى الرابع تعاقبت المأساة والملهاة على التوالى ، ولكنهما لم تتكاملا تكاملا تاما . ولكن التكامل تحقق فى هملت ، وتبدو الدعابة فى بعض الأحيان بذيئة أكثر مما ينبغى ، ولابد أن سوفوكليس وراسين كانا يشمئزان من النكات التى تدور حول غازات بطن الانسان(٥٤) أو تبول الخيل(٥٥) . وإن نكتة جنسية لهى أكثر استساغة لدى الذوق الحديث . ودعابة شكسبير ، بصفة عامة ، بهيجة ودية ، بعكس البغض الوحشى للجنس البشرى عند سويفت ، فقد أحس شكسبير بأن العالم يكون أفضل بوجود مهرج أو اثنين ، واحتمل المهرجين فى صبر وأناة ، وشارك الرب رأيه فى أنه ليس ثمة فرق كبير بينهم وبين الفلاسفة الذين يفسرون العالم .

وإن أعظم مهرجيه لينافس هملت ، وهو أسمى وأروع ما أنجزه شكسبير ، فى خلق أشخاص الرواية — وهذا أشق اختبار يواجهه المؤلف المسرحى . إن ريتشارد الثانى وريتشارد الثالث ، وهوتسبير ، رولزى وجونت وجلوستر وبروتس وأنطونى ليبعثون من زوايا النسيان فى التاريخ إلى حياة ثانية . وليس هناك فى المسرحية اليونانية ، ولا حتى فى بلزاك ، أشخاص خياليون أسبغ عليهم مثل هذه الشخصية المتماسكة والقوة والحيوية . وكانت أصدق الشخصيات التى خلقها هى تلك التى تبدو فقط متناقضة ، بسبب تعقيدها — فالملك لير قاس ثم رقيق رؤوف ، وهملت دائم التفكير متهور ، شجاع . والشخصيات فى بعض الأحيان بسيطة إلى حد كبير — ريتشارد الثالث مجرد خسة ونذالة ، وتيمون مجرد شك وسخرية وتهكم ، وياجو مجرد كراهية . وتبدو بعض النساء فى مسرحيات شكسبير ، وكأنهن اقتطعن من نفس العجينة — بياتريس روزالند ، كورديليا وديدمونة ، ميراندا وهرميون —

ولأنهن يفقدن الحقيقة والواقع ، ثم فى بعض الفترات ، تبعثهن بضع كلمات قليلة إلى الحياة ، من ذلك أن أوفيليا ، حين يبلغها هملت أنه لم يكن يحبها فى يوم من الأيام ، تجيبه دون اتهام مضاد ، ولكن فى بساطة حزينة مؤثرة : « كنت أنا المخدوعة أكثر » . إن الملاحظة والإحساس والتشخيص وتفتح الحواس المدهش ، ونفاذ البصيرة والانتقاء الرشيق للتفاصيل الهامة المميزة ، والذاكرة المتماسكة — كل هذه تأتى جميعها معاً لتعمر المدينة الخية بالأموات أو الأنفس الخيالية . أو فى مسرحية بعد أخرى تنمو هذه الشخصيات إلى الحقيقة والواقع والتعقيد والعمق ، حتى ينضج الشاعر فى هملت ولير إلى فيلسوف . وتصبح مسرحياته أدوات متألقة للفكر .

٥ — فلسفة شكسبير

« ألك أية فلسفة ، أيها الراعى[٥٦] ؟ » هكذا يسأل تتشستون Toutchstone الراعى كورين (فى رواية « على هواك ») ونحن بدورنا نوجه هذا السؤال إلى شكسبير . ويجيب أحد منافسيه المعترف بهم على السؤال بالنفى[٥٧] . وإنا لنقبل هذا الحكم . كما قصده برنارد شو — ليس لدى شكسبير ميتافيزيقا (فيما وراء الطبيعة) ولا فكرة عن الطبيعة النهائية للحقيقة ، ولا نظرية عن الإله . وكان شكسبير أعقل من أن يذهب إلى أن أى مخلوق يستطيع تحليل خالقه ، أو أنه حتى عقله المرتكز على قطعة لحم ، يمكنه أن يدرك الكل . أى هوراشيو ، إن فى السماء والأرض لأشياء أكثر مما تحلم به فى فلسفتك[٥٨] . وإذا راوده خاطر احتفظ به لنفسه ، ومن ثم أثبت به أنه فيلسوف . وهو يتحدث دون اكتراث أو إجلال للفلاسفة المشهود لهم ، ويشك فى أن واحداً منهم احتمل يوماً ألما فى أسنانه صابراً متجلداً[٥٩] . وهو يسخر من المنطق ، ويؤثر عليه نور الخيال ، وهو لا يعرض أن يفك طلاسم الحياة أو العقل ، ولكنه يشعر بها ويبصر بها بقوة تزرى بافتراضاتنا أو تعمقها . وإنه ليقف بعيداً ، ويرقب أصحاب النظريات يدمر بعضهم بعضاً ، أو يتفسخون ويتحللون فى غمرات الزمان . وإنه ليخفى نفسه فى شخصياته ، وليس من اليسير أن تعثر عليه . ويجدر بنا أن نحذر نسبة أى رأى إليه ، إلا إذا عبر عنه فى شيء من التوكيد اثنان على الأقل من مخلوقاته (شخوص مسرحياته) .

وإنه ، لأول وهلة ، عالم نفسانى ، أكثر منه فيلسوف ، ولكنه كذلك ليس نظريا ، بل على الأرجح ، مصور فكرى عقلى ، يضع يده على الأفكار الخفية والأفعال العرضية التى تكشف عن طبيعة الانسان . ومهما يكن من أمر ، فانه ليس واقعيا سطحيا ، فان الأشياء لاتقع ، والناس لا يتكلمون ، فى الحياة ، كما يحدث فى رواياته ، ولكننا فى النهاية نحس من خلال هذه الأشياء البعيدة الاحتمال وهذه المغالاة . أننا نقترب من لب الفطرة الانسانية والفكر الانسانى ، وإن شكسبير ليعلم جيدا ، مثل شوبنهور « أن العقل يقود الارادة[٦٠] وأنه ليعتنق مذهب فرويد اعتناقا كاملا ، حين يورد قصائد الجنس على اللسان العــذرى ، لسان أوفيليا المخبولة التى تتضور جوعا ، ويذهب فيما وراء فرويد إلى دوستوفسكى فى دراسة ماكبث ونصفه « الردىء » (زوجته) .

وإذا فسرنا الفلسفة ، لاعلى أنها علم ما وراء الطبيعة — الميتافيزيقا ، بل على أنها رسم متطور لأحوال الانسان ، أو نظرة تعميمية ، لا للكون والعقل وحدهما ، بل للأخلاق والسياسة والتاريخ والعقيدة كذلك — نقول إذا فسرنا الفلسفة على هذا الأساس ، لكان شكسبير فيلسوفا أعمق من بيكون ، مثلما أن مونتانى أعمق من ديكارت ، فليس الشكل هو الذى يصنع الفلسفة . إنه ليقر النسبية فى الأخلاق « ليس ثمة شىء حسن أو ردىء ، ولكن التفكير هو الذى يجعله كذلك[٦١] » . « وإن فضائلنا لتخضع لتفسير الزمن[٦٢] . وأنه ليحس بلغز مذهب الجبرية (القضاء والقدر) المحير فى أن بعض الناس أشرار بالوراثة « على حين أنهم غير مذنبين ، طالما أن الأخلاق لاتستطيع أن تختار أصلها أو منشأها[٦٣] » . وإنه ليعرف نظرية ثراسياخوس (فيلسوف سفسطائى أغريقى فى القرن الخامس ق . م) فى الأخلاق : فيعتقد ريتشارد الثالث أن « الضمير ليس إلا كلمة يستخدمها الجبناء ابتكرت ، أول ما ابتكرت ، لتلقى الرعب فى قلوب الأقوياء ، فلتكن سواعدنا المفتــولة هى ضميرنا ، ولتكن أسيافنا قانوننا[٦٤] » . أما ريتشارد الثانى فيقرر « أن أجدر الناس بالتملك هم أولئك الذين يعرفون أقوى السبل وأكثرها ضمانا للكسب[٦٥] » . ولكن هذين الشخصين اللذين اتبعا مذهب نتيشه باءا بخاتمة محزنة . ويلحظ شكسبير ،

أيضا خلق الارستقراطية الاقطاعية الذى يتمسك بالشرف ، ويصفه بعبارات عظيمة ، ولكنه يستنكر (كما ورد على لسان المهرج هتسبير) نزوعه إلى الزهو والعنف ، و« سوء السلوك والحاجة إلى ضبط النفس[٦٦] » . أما الأخلاق عنده هو ، فتقوم فى النهاية على اعتدال ارسطو وضبط النفس عند الرواقيين . وكان الاعتدال والتعقل الموضوع الرئيسى فى حديث يوليسيز الذى أنب فيه أجاكس وأشيللس[٦٧] ، ومهما يكن من أمر ، فان العقل وحده لايكفى ، ولا بد أن يدعمه خيط من توجيه الرواقيين :

على المرء أن يحتمل
ذهابه هناك قدر احتماله قدومه هنا
والنضج هو كل شىء[٦٨] .

والموت أمر يمكن التجاوز عنه مادمنا قد حققنا أنفسنا . وشكسبير يؤيد ابيقور كذلك ، ولايسلم بتناقضات فاصلة بين اللذة والحكمة ، ويرد على البيوريتانيين بشدة فيورد على لسان الخادمة ماريا قولها لمالفوليو : " اذهب وهز أذنيك[٦٩] " أى " أنت جحش " . وهو يتسامح ، مثل البابا ، فى خطايا الجسد ، ويجرى على لسان لير المجنون أنشودة مرحة صاخبة للاتصال الجنسى[٧٠] .

أما فلسفته السياسية فتتسم بروح المحافظة . وأدرك آلام الفقراء ، وجعل لير يرددها فى إحساس عميق . ولحظ صياد سمك فى " بركليز " (١٦٠٩ ؟) أن الأسماك تعيش فى البحر :

مثلما يعيش الناس على الأرض — تأكل كبارها صغارها ، ولا يمكن أن أقارن أغنياءنا البخلاء ، مقارنة سليمة ، إلا بالحوت ، يلعب ويلهو ويسوق صغار السمك المسكين أمامه ، وفى النهاية يلتهمه دفعة واحدة ، ولقد سمعت عن مثل هؤلاء الحيتان على الأرض ، لايفتأون يفغرون أفواههم حتى يبتلعوا الأبرشية بأسرها والكنيسة ، والبرج ، والأجراس ، وكل شىء[٧١] » .

ويحلم جنزالو فى " العاصفة " بشيوعية فوضوية " يكون فيها كل ما تنتجه الطبيعة ملكا مشاعا " ، ولايكون فيها قوانين ولاقضاة أو حكام ولا عمال

ولاحرب[٧٢] . ولكن شكسبير يهزأ بهذه « المدينة الفاضلة » — يوتوبيا — لأن طبيعة الانسان تجعل من المستحيل قيامها . ولابد ، فى ظل أى دستور ، من أن تأكل الحيتان السمك .

وماذا كانت ديانة شكسبير ؟ . إن البحث عن فلسفته فى هذا المجال ، بوجه خاص ، شاق عسير . فهو من خلال أشخاص مسرحياته يعبر عن كل المعتقدات ، فى تسامح لابد أنه كان يحمل البيوريتانيين على القول بأنه كافر . وكثيرا ما استشهد بالكتاب المقدس فى إجلال وتقديس ، وجعل هملت ، المفروض أنه متشكك ، يتحدث ، عن إيمان ، عن الله والصلاة والسماء والجحيم[٧٣] . ولقد عمد شكسبير وأبناؤه وفقا للطقوس الانجليكانية[٧٤] . وبعض أبياته تنم على بروتستانتية قوية ويتحدث الملك جون عن « الغفران البابوى » على أنه « شعوذة وسحر » . وكأنه يستبق هنرى الثامن :

. . . لن يفرض قسيس إيطالى
دفع العشور أو يقرع الناقوس فى أرضنا ،
ولكن ، كما أننا نرفع الرأس عاليا تحت السماء ،
فستكون لنا السيادة العظمى فى وجود الله العلى العظيم ،
حيث نملك ونحكم ، ونثبت الملك وحدنا ،
هكذا أنبئوا البابا ، مع كل الاحترام
له ولسلطانه المغتصب[٧٥] .

على أن جون ، بطبيعة الحال ، يكفر عن خطيئته ، آخر الأمر . وثمة رواية بعد هذه ، هى « هنرى الثامن » ، اشترك شكسبير فى جزء منها فقط ، تزودنا بصور مؤيدة لهنرى وكرانمر (أسقف كنتربرى) ، وتنتهى بمديح اليزابث — وكلهم كبار مهندسى الاصلاح الدينى فى انجلترا . وثمة مسحة انحياز للكاثوليكية ، مثلما جاء فى تصوير كترين أراجوان والراهب لورنس ، بشكل فيه تعاطف[٧٦] ، ولكن الشخصية الإخيرة كانت قد جاءت إلى شكسبير ، كما شكلت فى أخبار الكاثوليك الإيطاليين .

وهناك بعض إيمان باق فى الروايات المأساوية . ويظن الملك لير ، من فرط ما يشعر به من مرارة :

إننا بالنسبة للآلهة ، مثل الذباب بالنسبة للأطفال الأشقياء
يقتلونه من أجل اللهو واللعب(٧٧) .

ولكن إدجار الطيب يرد على ذلك بقوله « ولكن الآلهة عـــدول ، وإنهم ليتخذون من رذائلنا السارة أدوات لتعذيبنا(٧٨) » ، كما يؤكد هملت إيمانه « بإله يشكل نهاياتنا ويقطعها دون صقل كيفما نشاء (٧٩) .. » وعلى الرغم من الايمان الذى يصطرع فى النفوس ، بعناية إلهية تتصرف معنا تصرفا عادلا ، هناك فى أعظم روايات شكسبير سحابة من عدم الايمان بالحياة نفسها ، فان جاك (أحد أتباع الدوق المطرود فى رواية على هواك .) لايرى فى « العصور السابقة » للانسان شيئا إلا كان بطىء النمو سريع العطب . ونسمع مثل هذه « اللازمة » فى رواية الملك جون :

الحياة مملة مثل حكاية تروى مرتين
فترهق الأذن الثقيلة لرجل نعسان(٨٠) .

وفى ذم هملت للدنيا .

تبا لها آه ، تبا لها ، إنها حديقة ملأى بالأعشاب الضارة .
التى تنمو وتتكاثر ، وكل شىء يحدث ويكبر فى الطبيعة ،
تمتلكه فحسب (٨١) .

وفى ماكبث :

انطفئى ، انطفئى أيتها الذبالة القصيرة !
ليست الحياة إلا خيالا عابرا ، أو هى أشبه بممثل مسكين يختال ويضيع وقته فوق المسرح ، ثم لايعـود يسمع له صوت ، إنهـا حكاية يرويها معتوه ، تعج بالضجيج والعنف ،
ولكنها لاتعنى شيئا(٨٢) .

وهل ثمة شىء من فكرة الخلود يخفف من حدة هذا التشاؤم ؟ إن لورنزو — بعد أن وصف لجسيكا موسيقى النجوم ، يضيف أن « مثل هذا التناغم أو الانسجام

موجود فى الأنفس الخالدة .(٨٣). وتخيل كلوديو فى رواية **Measure For Measure** حياة آخرة ، ولكن بالشكل القائم فى جحيم دانتى أو فى مثوى الأموات :

آه ولكنا نموت ، ونذهب إلى حيث لاندرى ،
ونرقد فى حفرة باردة بعيدين عن الأنظار ، ونتعفن ،
وتتحول الحركة الدائبة المحسوسة إلى كتلة من طين معجون ،
وتستحم الروح المرحة فى بحار من نار ، أو تسكن
فى صقع متماوج من جليد متراكم تراكما كثيفا
أو تسجن فى الرياح غير المنظورة
التى تهب فى عنف لايهدأ حول
العالم المتدلى . . . . أن هذا شىء بالغ الرهبة(٨٤) .

وتحدث هملت عرضا عن النفس ، على أنها خالدة(٨٥) . ولكن مناجاته لاتؤكد أية عقيدة أو إيمان . وكلماته على فراش الموت فى النسخة القديمة « فلتستقبل السماء نفسى » ، غيرها شكسبير إلى أن الراحة هى السكون (الموت) .

ولسنا نستطيع أن نقول ، على وجه التحقيق ، كم من هذا التشاؤم ، جاء نتيجة لمتطلبات المسرحية المأساوية . وكم منه كان يعبر عن حالة شكسبير النفسية ، ولكن تكراره وتوكيده يوحيان بأنه — أى التشاؤم — عبر عن أحلك مراحل فلسفته . وإنما كان التخفيف الوحيد الذى جاء فى الروايات التى توجت أعماله ، كان اعترافا حائرا متردداً بأنه يوجد هناك وسط رذائل هذه الدنيا نعم وبركات ومباهج ، كما يوجد وسط الأشرار الأوغاد كثير من الأبطال وبعض القديسين ، فهناك إلى جانب ياجو وجدت ديدمونه ، وإلى جانب جونريل وجدت كورديليا ، وإلى جانب ادموند وجد ادجار أوكنت ، وحتى فى هملت ، يهب نسيم عليل من وفاء هوراشيو ، ومن رقة أوفيليا وحنانها الموسومين بالحزن والكآبة . وبعد أن يغادر الممثل والكاتب المسرحى المنهوك لندن بما فيها من فوضى ووحشية برغم الازدحام ، إلى المروج الخضر والسلوى الأبوية فى بيته فى ستراتفورد ، فلسوف يستعيد الحب الشديد للحياة لدى الانسان .

٦ — الرضا والقناعة

ومهما يكن من أمر ، فليس ثمة سبب واضح يدعو شكسبير إلى الشكوى من لندن ، فقد هيأت له النجاح والهتاف باسمه والثروة . وثمة أكثر من مائتي إشارة ومرجع له ، وكلها مؤيدة له وتشيد بذكره ، فى الأدب الباقى من عصره . وفى ١٥٩٩ أورد كتاب فرانسيس ميرز « خزانة المفكرين الموهوبين » ،سدنى ،سبنسر ، دانيل ، درايتون ، وارنر ، شكسبير ، مارلو ، تشابمان ، بهذا الترتيب ، على أنهم أقطاب المؤلفين فى إنجلترا ، ووضع شكسبير على رأس الكتاب المسرحيين[٨٦]. وفى نفس العام أعلن ريتشار بارنفيلد — وهو شاعر منافس — أن أعمال شكسبير (التى لم يكن أفضلها قد ظهر بعد)قد وضعت اسمه فى « سجل الشهرة الخالد[٨٧]» وكان محبوبا مألوفا حتى عند منافسيه . وكان درايتون وجونسون وبوريدج من بين أصدقائه الحميمين . وعلى الرغم من أن جونسون انتقد أسلوبه الطنان ، وتساهله الطائش فى التأليف ، وإغفاله الشنيع للقواعد الكلاسيكية (القديمة) ، فان جونسون نفسه ، فى المقدمة رفع شكسبير فوق كل الكتاب المسرحيين قديمهم وحديثهم ، وقرر أنه « ليس فريدا فى عصر بعينه ، بل فى كل العصور » وفى الأوراق التى خلفها جونسون عند موته ، كتب يقول « لقد أحببت الرجل . . . الشبيه بالصنم الذى يحبه الانسان حبا أعمى[٨٨] » .

وتحدثنا الأخبار بأن جونسون وشكسبير التقيا فى اجتماعات رجال الأدب فى حانة مرميد فى شارع « Bread Street » ، فتعجب فرانسيس بومونت الذى كان يعرف الرجلين كليهما :

ما هذا الذى رأيناه؟
فى مرميد ! سمعنا كلاما يفيض
رقة ، ويتقد حرارة
وكأنما جاء كل إنسان من حيث أتى
قاصدا أن يفرغ كل ذكائه وتفكيره فى نكتة ،

معتزماً أن يقضى ، مهرجاً ، بقية
حياته البليدة[٨٩] .

وقال توماس فولر فى كتابه « الشخصيات البارزة فى انجلترا (١٦٦٢) :

كم كانت الحرب الفكرية سجالا بين شكسبير وجونسون . وإنى لأنظر إليهما ، وكأنهما سفينة شراعية أسبانية ضخمة وبارجة إنجليزية ، ومستر جونسون (وهو كالأولى) ، علا كعبه فى العلم والمعرفة ، وهوراسخ وطيد الأركان ، ولكنه يطىء فى أداء عمله . أما شكسبير . . . فهو أقل فى البنيان ولكنه أخف حين يمخر عباب الماء ، يستطيع أن يتجه حيث يتجه الموج ، ويغير اتجاهه حيث شاء ، ويستفيد من كل ريح ، بفضل سرعة بديهته وابتكاره[٩٠] .

وتابع أو يرى حوالى ١٦٨٠ الأخبار المتواترة التى يسهل تصديقها عن شكسبير و « بديهته الحاضرة اللطيفة المتدفقة » وأضاف أنه كان « رجلا رشيقاً وسيما لطيف المعشر[٩١] » ، والشبيه الوحيد الموجود له الآن هو التمثال النصفى الموضوع على مقبرته فى كنيسة ستراتفورد ، والصورة الموجودة فى « الكتاب الأول » ، وهما يتفقان إلى حد كبير فى إبراز رجل نصف أصلع ، ذى شارب ، و (فى التمثال) ذى لحية ، وأنف حاد ، وعينين متأملتين ، ولكنهما لا تبديان أية إشارة إلى الشرر الذى يتقد فى الروايات . وربما ضللتنا الروايات فيما يتعلق بأخلاقه ، فإنها توحى برجل ذى طاقة عصبية ، شديد الحساسية ، سريع الانفعال ، يتذبذب بين قمتى الفكر والشعر ، وشفيرى الكآبة واليأس ، على حين يصفه معاصروه بأنه مهذب أمين لا تأخذه العزة بالإثم ، « ذو طبيعة صريحة منطلقة[٩٢] » ، يستمتع بالحياة ولا يأبه بالنسل ، تبدو عليه مسحة من الروح العملية التى لا تلائم الشاعر . وسواء كان عن طريق الاقتصاد فى الانفاق أو عن طريق المنح والهبات ، فإنه كان بالفعل فى ١٥٩٨ ثريا إلى حد يسمح له بالمشاركة فى تمويل « مسرح جلوب » . وفى ١٦٠٨ شيد هو وستة آخرون مسرح The Black Friars وزادت أنصبته فى مثل هذه المشروعات من عائداته بوصفه ممثلا وكاتباً مسرحياً ، وعادت عليه بدخل كبير ، اختلف تقديره بين ٢٠٠[٩٣] و ٦٠٠[٩٤] جنيه سنوياً . ويبدو أن الرقم الأخير أصلح لأنه يفسر لنا شراءه للعقارات فى ستراتفورد .

ويقول أوبرى إن شكسبير « تعود أن يزور مسقط رأسه مرة كل عام [٩٥] » . وتوقف أحيانا على الطريق فى أكسفورد ، حيث كان جون دافنانت يدير نزلا ، وكان سير وليم دافنانت (شاعر البلاط ١٦٣٧) يحب أن يوحى بأنه نتيجة غير مقصودة لتخلف شكسبير فى هذا النزل [٩٦] . وفى ١٥٩٧ اشترى الكاتب المسرحى « البيت الجديد » New Place بستين جنيها ، وكان ثانى أكبر بيت فى ستراتفورد ، ومع ذلك ظل يقطن لندن . ومات أبوه فى ١٦٠١ تاركا له منزلين فى شارع هِنلى فى ستراتفورد، وبعد ذلك بعام واحد ، اشترى ١٢٧ فدانا من الأرض بالقرب من المدينة ، بثمن قدره ٣٢٠ جنيها ، ويحتمل أنه أجر هذه الأرض لمستأجرين مزارعين وفى ١٦٠٥ اشترى بمبلغ ٤٤٠ جنيها أسهما فى العشور الكنسية المرتقبة فى ستراتفورد وثلاث دوائر أخرى . وفى إثناء انشغاله بكتابة أعظم رواياته فى لندن ، كان معروفا فى ستراتفورد بأنه رجل أعمال ناجح ، أساسا ، مشغول فى الغالب بالتقاضى من أجل ممتلكاته واستثماراته .

وكان ابنه هامنت قد توفى فى ١٥٩٧. وفى ١٦٠٧ تزوجت ابنته سوزانا من جون هول . وهو طبيب مشهور فى ستراتفورد، وبعد عام واحد جعلت من الشاعر جداً، ومن ثم كانت روابط جديدة تشده إلى مسقط رأسه . وحوالى ١٦١٠ هجر لندن واعتزل المسرح ، وآوى إلى « البيت الجديد » . ومن الواضح أنه كتب هناك «Cymberline» (١٦٠٩ ؟) و« قصة الشتاء (١٦١٠ ؟) و« العاصفة» (١٦١١؟). ولم يكن لاثنتين من هذه الروايات كبير قيمة . ولكن « العاصفة » تظهر أن شكسبير كان لايزال يحتفظ بكل قواه . فهنا ميراندا التى تكشف منذ البدايه عن طبيعتها ، حين تشاهد من الشاطئ غرق سفينة فتصرخ « أوه لقد تألمت مع هؤلاء الذين رأيتهم يتألمون [٩٧] » . وهنا كاليبان الذى يرد به شكسبير على روسو . وفيها أيضاً بوسبيرو الساحر الرقيق الفؤاد الذى يتخلى عن صولجان فنه ويودع دنياه المرحة وداعاً حنونا ، وهناك صدى لاكتئاب الشاعر ، فى الفصاحة التى لم يعتورها أى وهن فى أبيات بروسبيرو :

انتهى الآن مرحنا وصخبنا . إن ممثلينا هؤلاء

كما تنبأت لكم ، كانوا أرواحا ،
ذابت فى الهواء ، فى الهواء الرقيق ،
ومثل كيان هذه الرؤيا الواهن القائم على غير أساس
تكون الأبراج التى يتوجها السحاب والقصور الشامخة
والمعابد الرهيبة ، والأرض الواسعة نفسها ،
نعم ، وكل ماترثه سوف يذوب ويفنى ،
كما ذبلت هذه الأبهة الفارغة المتهافتة ،
لاتتركوا مصدرا للألم وراءكم ، إننا مصنوعون
من نفس المادة التى تصنع منها الأحلام ، وحياتنا القصيرة
يحف بها النوم (٩٨).

ولكن ليست هذه هى الحالة النفسية الغالبة الآن ، بل على النقيض من ذلك فالرواية هى شكسبير يسترخى ويستجم ، ويتحدث عن الغدران والأزهار ، ويشدو بأغنيات عذبة ، « Where the Bee sucks there Suckl., Full fathom five » — وعلى الرغم من كل المعترضين واعتراضاتهم ، فان الشاعر الذى تقدمت به السن هو الذى يتحدث على لسان بروسبيرو وهو يودع الحياة :

. . . إن الأجداث ، بأمر منى
أيقظت النيام ، فيها ، وفتحت أبوابها وأطلقتهم
بفضل فنى الفعال . ولكن هذا السحر الشاق
أعد بأن أتخلى عنه هنا . . . ولسوف أحطم عصاى
وأدفنها بضع أقدام تحت الأرض ،
وفى مكان أعمق من أن ترن فيه رصاصة الفادن(*)
سوف أغرق كتابى (٩٩) .

وربما كان شكسبير أيضا ، الذى ابتهج ببناته وحفيده هو الذى صاح على لسان ميراندا :

(*) الفادن — أداة مؤلفة من خيط فى طرفه قطعة رصاص . يسبر بها غور المياه .

عجباً !
كم من المخلوقات الوسيمة أرى هنا !
ما أجمل بنى الإنسان ! أيتها الدنيا الجديدة الرائعة
التى يعيش فيها مثل هؤلاء الناس(١٠٠) !

وفى ١٠ فبراير ١٦١٦ تزوجت جوديت من توماس كوينى . وفى ٢٥ مارس كتب شكسبير وصيته . فترك ممتلكاته لسوزانا ، و ٣٠٠ جنيه لجوديت ، وأوصى بمبالغ لرفاق التمثيل ، و «بسريره الثانى» لزوجته التى كان قد هجرها ، وربما كان قد رتب مع سوزانا أن ترعى أمها . وعاشت آن هاثاواى سبع سنوات بعده . وذكر جون وارد قسيس كنيسة ستراتفورد (١٦٦٢ — ١٦٨١) ، أن « شكسبير ودرايتون وبن جونسون اجتمعوا فى جلسة مرحة ، ويبدو انهم أسرفوا فى الشراب ، لأن شكسبير مات إثر حمى أصابته بعد ذلك(١٠١)* » . وحم القضاء فى ٢٣ أبريل ١٦١٦ ، ووروى جثمانه التراب تحت الهيكل فى كنيسة ستراتفورد ، وهناك بالقرب من هذا المكان توجد بلاطة الضريح التى لا تحمل اسما ، وقد نقش عليها عبارة تخليد الذكرى ، تنسبها أقوال متواترة محلية إلى شكسبير نفسه :

أيها الصديق الكريم ، بحق يسوع المسيح ، تحمل
أن تحفر التراب الذى يحيط بهذا المكان ،
وليبارك الله الرجل الذى يحافظ على هذه الأحجار ،
ولعنة الله على من ينقل عظامى .

٧ — بعد موت الشاعر

ومبلغ علمنا ، أن شكسبير كان قد اتخذ خطوات لنشر رواياته . وطبعت الروايات الست عشرة التى كثيراً ما ظهرت فى حياته ، وواضح أن هذا دون تعاون منه ، فى قطع الربع عادة ، وعلى درجات متفاوتة من حيث التحريف فى النص .

(*) ليس هناك ما يدعو إلى نبذ هذه الرواية — [illegible] تشمبرز فى كتابه " وليم شكسبير " الجزء الأول ص ٨٩ .

وأثارت هذه القرصنة والانتحالات اثنين من زملائه السابقين : جون همنج وهنرى كوندل ، فأصدرا فى ١٦٢٣ « الكتاب الأول » ، وهو مجلد من القطع الكبير به نحو ٩٠٠ صحيفة على نهرين ، يضم النص الموثوق لست وثلاثين رواية . وجاء فى تصدير الكتاب « إننا لم نفعل إلا أن أدينا خدمة للراقد تحت التراب ، ولم نبغ من وراء ذلك ربحا لنا أو شهرة ، بل نهدف إلى تخليد ذكرى صديق عظيم ماثل بيننا . . . شكسبير » وكان يمكن شراء المجلد آنذاك بجنيه واحد . أما النسخ الباقية حتى الآن ، وعددها مائتان تقريبا ، فتقدر قيمة الواحدة منها بسبعة عشر ألفا من الجنيهات ، أى أغلى قيمة من أى كتاب آخر ، باستثناء انجيل جوتنبرج .

وتأرجحت شهرة شكسبير بشكل عجيب من حين لآخر . ففى ١٦٣٠ امتدحه ملتون وقال « شكسبير الأعز ، ثمرة الذوق والفن » . ولكن على عهد البيوريتانيين ، حين أغلقت المسارح ١٦٤٢ — ١٦٦٠ ، خبت شهرة الشاعر ، وعادت بعودة الملكية . وفى الصورة التى رسمها فان ديك لسيرجون سكلنج (والمحفوظة بقاعة فريك فى نيويورك) ، ترى سكلنج يمسك « بالكتاب الأول » مفتوحا على رواية هملت . ويمتدح دريدن ، معجزة أواخر القرن السابع عشر ، شكسبير على أنه « من بين الشعراء الحديثين ، وربما القدامى أيضا ، أعظم نفس وأوسعها إدراكا.. وكان دوما عظيما إذا عرضت له مناسبة عظيمة » ولكن « كثيرا ما انحط فنه الهزلى (الملهاة) التافه الفاتر إلى فن مرهق قيل تضيق النفوس به ذرعا ، كما انحط تمثيله الجاد إلى مجرد كلام منمق طنان[١٠٢] . . . » وذكر جون افلين فى مفكرته (١٦٦١) « أن الروايات القديمة تثير اشمئزاز هذا العهد المهذب ، حيث أن صاحب الجلالة عاش طويلا فى الخارج » ويقصد بهذا أن شارل الثانى والملكيين العائدين جلبوا معهم إلى انجلترا المعايير المسرحية من فرنسا ، وسرعان ما أخرج المسرح بعد عودة الملكية أشد الروايات دعارة وفجورا فى الأدب الحديث ، وظلت روايات شكسبير تمثل ، ولكن عادة ، بعد تعديلها بمعرفة دريدن أو أتواى Otway أو غيرهما ممن يمثلون ذوق « عودة الملكية » .

وأعاد القرن الثامن عشر روايات شكسبير إليه . فنشر نيقولا رو (١٧٠٩) أول طبعة انتقادية وأول سيرة حياة للشاعر . وأصدر بوب وجونسون طبعات وتعليقات . أما بترتون وجاريك وكمبل، والممثلة ساره سيدونز فقد جعلوا شكسبير معروفا مألوفا محبوبا بشكل لم يسبق مثيل على المسرح . وفى ١٧٧٨ خلد توماس بودلر Bowdler اسمه هو نفسه بنشر . نسخة مهذبة حذف منها « كل ما ينافى الحشمة والفضيلة ، مما لا يمكن قراءته جهرا فى الأسرة » . وفى أوائل القرن التاسع عشر احتضنت الحركة الرومانتيكية شكسبير ، وحولته مبالغات كولردج وهازلت ودى كوينسى وتشارلز لام إلى معبود قبلى :

واعترضت فرنسا — فما جاءت سنة ١٧٠٠ حتى كان رونسار وماليرب وبوالو قد شكلوا معاييرها الأدبية وفق التقاليد اللاتينية ، من حيث الترتيب والشكل المنطقى والذوق المهذب والتحكم العقلانى . وكانت فرنسا قد أقرت ، فى أعمال راسين القواعد الكلاسيكية فى المسرحية . وقد أزعجها وعكر صفوها شكسبير بتلاعبه الفارغ بالألفاظ ، والسيل الجارف من العبارات ، وعواصفه العاطفية ، ومهرجيه الأفظاظ ، وجمعه بين الملهاة والمأساة . وعندما عاد فولتير من انجلترا (١٧٢٩) أتى معه ببعض التقدير لشكسبير ، فهو يقول « أظهرت الفرنسيين لأول مرة على بعض اللآلىء التى عثرت عليها بين الأكداس الهائلة[١٠٣] » . ولكن إذا وضع أحدهم شكسبير فى مرتبة أعلى من راسين ، انبرى فولتير للدفاع عن فرنسا بقوله « إن شكسبير همجى محبوب »[١٠٤] . وفى القاموس الفلسفى (١٧٦٥) أجرى فولتير بعض التعديل « إن لهذا الرجل نفسه قطعا تلهب الخيال وتنفذ إلى القلب . . . . . لقد أدرك هذه المنزلة من الرفعة والسمو دون أن يسعى إليها [١٠٥] » وساعدت مدام دى ستاى (١٨٠٤) وجيزو (١٨٢١) وفيلمين (١٨٢٧) — ساعدوا فرنسا على الاصغاء لشكسبير فى أناة وصبر . وأخيراً فان ترجمة الروايات إلى نثر فرنسى جيد ، تلك الترجمة التى قام بها فرنسوا بن فيكتور هيجو أكسبت شكسبير احترام فرنسا له ، ولو أنه لم يصل إلى مستوى

الاعجاب القلبي المخلص الذى أسبغتــه على راســين .

وكان حظ الشاعر من الطباعة أسعد فى ألمانيا ، حيث لم ينافسه كاتب مسرحى محلى . فإن الكاتب المسرحى الألمــانى العظيم الأول جوتهلد لسنج ، هو الذى أنبأ مواطنيه (١٧٥٩) بأن شكسبير يسمو على كل الشعراء القدامى والمحدثين ، وأيده فى هـــذا هردر . ورفع أوجست فون سكلجل ولودفيج تيك وغيرهما من زعماء المدرسة الرومانتيكية راية شكسبير ، وأسهم جيته بمناقشة حماسية عن هملت فى « قاعة ولهلم » (١٧٩٦)(١٠٦) . وأصبح شكسبير معروفا محبوبا على المسرح الألمانى ، وانتزع العلماء الإلمان من انجلترا مقام الصدارة ، فى دراسة حياة شكسبير ورواياته وتوضيحها .

ويتعذر التقدير الموضوعى أو المقــارنة الموضوعية على هؤلاء الذين شبــوا وترعرعوا وهم ينشقون عبير شكسبير . فان الذى يعرف لغة الإغريق على عهد بريكليز وعقيدتهم وفنهم وفلسفتهم ، هو وحده الذى يحس بالمسرحية المأساوية الديونيسية وسموها الذى لا مثيــل له ، وبساطتها الواضحة ، وبالمنطق القوى فى بنيانها ، وبضبط النفس الباعث على الفخر فى القول والفعـــل ، وبالشرح الذى يهز النفوس فى ترانيم مجموعة المغنين فيها ، وبالمغامرة النبيلة فى مشــاهدة الانسان من زاوية مكانه وقدره فى الكون . كما أن الذى يعرف اللغة الفرنسية والخلق الفرنسى ، وخلفية « القرن الأعظم » (السابع عشر) يمــكنه وحده أن يحس ، فى روايات كورنى وراســين — لا مجرد عظمــة الشعر وموسيقاه فحسب — بل يحس كذلك بالجهد البطولى للعقل فى إثارة العاطفة وبعث الانفعال ، والتمسك الحكيم الرزين بالمعايير الكلاسيكية العسيرة ، وتركيز المسرحية فى بضع ساعات تشــد فيها الأعصاب ، لتلخيص حيــاة الانسان والفصل فيها ، كذلك فان الذى يعرف اللغــة الانجليزية ، فى كمالهــا أيام البزابث ، ويتعمق ويجد اللذة واستمتاعا فى البلاغة والأغانى والتراشق فى عهد البزابث ، ولا يغل المسرح عن أن يعكس صورة الطبعة ويحرر الخيال ، نقول إن هذا وحده هو

الذى يستطيع أن يهيء لروايات شكسبير ما تستحقه من تقدير وترحيب قلبا وقالبا : ولكن مثل هذا الرجل لا بد أن يرقص طربا لروعة لغتها ، ويهتز من الأعماق وهو يتابع ويسبر غور الفكر فيها ، تلك هى الفترات الثلاث التى نعمت بموهبة المسرحية فى العالم . ويجدر بنا ، على الرغم من عجزنا ، أن نرحب بها جميعا من أعماقنا ، شاكرين لتراثنا من الحكمة الاغريقية ، ومن الجمال الفرنسى ، ومن الحياة فى عصر اليزابث .

الفصل الخامس

مارى ملكة اسكتلنده

١٥٤٢ — ١٥٨٧

الملكة الجنية

وسط المسرحية المتشابكة ، مسرحية الإصلاح الدينى فى اسكتلنده مع السياسة فى عصر اليزابث ، جرت مأساه مارى ستيوارت ، بكل مافيها من سحر الجمال والحب المشبوب والصراع الدينى والسياسى ، والقتل والثورة والموت البطولى ، وكاد أسلافها ، أن يؤكدوا لها خاتمة عنيفة. وكانت ابنة ستيوارت الخامس ملك اسكتلنده ومارى أميرة جيز واللورين وفرنسا . وحفيدة مرجريت تيودور ابنة هنرى السابع ملك إنجلترا ، ومن ثم كانت بنت أخت ومن باب التساهل — بنت عمة ، « مارى اللعينة » واليزابث ، وكانت باجماع الآراء الوريثة الشرعيه للتاج الإنجليزى . إذا توفيت اليزابث دون عقب ، وفى رأى هؤلاء الذين اعتبروا اليزابث ابنة زنى ، ومن ثم غير مؤهلة للملك — مثل الكاثوليك (وهنرى الثامن فى وقت ما) ، أنه كان لا بد أن ترتقى عرش إنجلترا ١٥٥٨ ، مارى ستيوارت لا اليزابث . ولتصبح المأساه يقينا ، أباحت مارى، عندما أصبحت ملكة فرنسا (١٥٥٩) — نقول أباحت لأتباعها ولوثائق الدولة أن يلقبوها ملكة إنجلترا . فثمة ادعاء فارغ ساد منذ أمد طويل بأن يكون ملوك فرنسا ملوكاً على إنجلترا أيضا ، كما يكون ملوك إنجلترا بدورهم ملوكاً على فرنسا ، ولكن الادعاء فى هذه الحالة قارب حقاً معترفا به بصفة عامة . وما كان لأليزابث أن تطمئن على تاجها طالما بقيت مارى على قيد الحياه . وما كان ينقذ الموقف إلا النيات الطيبة أو النظرة الصائبة للأمور ، ولكن الملوك قل أن يطأطئوا رءوسهم إلى هذا الحد .

وعرضت الممالك على مارى ، فى مدة سنة من ولادتها . فقد جعلها موت أبيها فى بحر أسبوع من مولدها ، ملكة إسكتلنده ، واقترح هنرى الثامن ، أملا منه فى ضم اسكتلنده كمقاطعة ملحقة بانجلترا — اقترح أن تخطب الطفلة إلى ابنه إدوارد وترسل إلى إنجلترا . وتتربى فيها . مع افتراض أن تكون بروتستانتية ، لتكون ملكة مع ابنه إدوارد . ولكن بدلا من هذا ، قبلت أمها الكاثوليكية عرض هنرى الثانى ملك فرنسا (١٥٤٨) أن تزوجها لأكبر أبنائه (الدوفين) . وحماية لمارى من اختطافها إلى إنجلترا . أسرعوا بها وهى فى سن السادسة إلى فرنسا ، حيث بقيت هناك ثلاثة عشر عاما ، وتلقت العلم مع أولاد الأسرة المالكة . وتأصلت فيها الروح الفرنسية تماما . حيث كانت نصف فرنسية بحكم الدم . ولما نضجت واكتمل شبابها ، تجلت كل مفاتن الأنوثة فى جمال القسمات والقوام ، وحدة الذهن . والكياسة المرحة فى السلوك والحديث ، وغنت غناء عذبا ، وعزفت على العود عزفا جيداً . وتحدثت باللاتينية ، وكتبت شعرا تكلف الشعراء إطراءه ، وخفقت قلوب الحاشية لرؤية وجهها النقى الناصع البياض كالثلج » (برانتوم [١]) « وشعرها المقصوص المضفر » (رونسار [٢]) ، ورشاقة يديها النحيلتين ، وصدرها الممتلىء . وحتى أن لوبيتال الوقور الرزين ذهب إلى أن مثل هذا الجمال لا يمكن إلا أن يكون لأحد الآلهة . [٣] وأصبحت أكثر الشخصيات جاذبية وأعظمها كياسة فى أكثر بلاط أوربا تهذيبا وصقلا . ولما بلغت السادسة عشرة تزوجت ولى عهد فرنسا (الدوفين) فى ٢٤ أبريل ١٥٥٨ . وما أن بلغت السابعة عشرة ، حتى أصبحت ، بارتقائه العرش ، ملكة على فرنسا . ويبدو أن كل آمال حلم خيالى قد أصبحت حقيقة .

ولكن فى ٥ ديسمبر ١٥٦٠ مات فرنسوا الثانى (زوجها) بعد حكم دام سنتين . وفكرت مارى التى باتت أرملة وهى فى سن الثامنة عشرة ، فى أن تأوى إلى ضيعة فى تورين ، لأنها أحبت فرنسا . ولكن اسكتلنده فى تلك الأثناء تحولت إلى البروتستانتية ، وكانت على شفا ضياعها من فرنسا بوصفها حليفة . ورأت الحكومة الفرنسية أن من واجب مارى أن تذهب إلى أدنبره ، وتقود وطنها الأصلى إلى التحالف مع فرنسا . وإلى العقيدة الكاثوليكية من جديد . وارتضت مارى كارهة أن تترك

مباهج المدنية الفرنسية ورفاهيتها ، لتعيش فى اسكتلنده التى تصورتها أرض الهمجية والبرودة . وكتبت إلى زعماء الأشراف مؤكدة إخلاصها لاسكتلندة ، ولكنها لم تذكر لهم أنها فى عقد زواجها ، حولت ملك اسكتلندة إلى ملوك فرنسا إذا توفيت دون عقب . وافتتن بها النبلاء ، البروتستانت منهم والكاثوليك على حد سواء ، ودعاها برلمان اسكتلندة لتتبوأ عرشها . وطلبت إلى اليزابث امتياز المرور بأمان عبر انجلترا ، فرفض طلبها ، فأبحرت مارى من كاليه فى ١٤ أغسطس ١٥٦١ ، مودعة فرنسا بالدموع ، محدقة فى الشاطىء الذى يتراجع من خلفها ، حتى لم يبق أمامها شىء إلا البحر .

وبعد خمسة إيام ألقت السفينة مراسيها فى « ليث » ثغر ادنبره واكتشفت مارى اسكتلندة .

٢ — اسكتلندة ١٥٦٠ — ١٥٦١

كانت أمة ذات أصول عريقة وأساليب عتيقة ، قيدتها الأراضى الجبلية الوعرة فى الشمال بنظام إقطاعى ، يتحكم فيه أمراء مستقلون تقريباً ، يحيون حياة نصف بدائية قوامها الصيد والرعى ، واستئجار الأرض القابلة للزراعة . أما الجنوب فقد تميز بأرض منبسطة خصبة بفضل ماء المطر ، ولكنها مظلمة معتمة بسبب شتائها الطويل والبرد القارس الذى يشل الحركة . فهنا شعب يكافح ليخلق نظاماً أخلاقياً وحضارياً ، من حمأة الأمية واختلاط الأنساب والفساد والتمرد على القانون والعنف ، شعب أعمته الخرافات ، وإرسال السحرة إلى الإعدام حرقاً ، يفتش فى عقيدة دينية متشددة عن حياة أقل قساوة ومشقة . ورغبة فى موازنة قوة البارونات التى مزقت أوصال البلاد ، كان الملوك ساندوا وشجعوا رجال الدين الكاثوليك وأغدقوا عليهم الثروات ، مما جرهم إلى الفساد وقبول الرشوة وعدم المبالاة ومعاشرة الخليلات[٤]. وتحرق النبلاء لهفاً على ثروة الكنيسة ، فانتقصوا من قدر رجال الدين ، بملء الوظائف الكنيسة بأبنائهم الخبراء بشئون الدنيا ، ونادوا بالإصلاح الدينى ، وجعلوا البرلمان الاسكتلندى الذى تحكموا فيه سيداً للكنيسة والدولة على حد سواء .

وكان الخطر الخارجى أقوى حافز على الوحدة الداخلية . ولم تحس انجلترا

بالطمأنينة فى جزيرة يشاركها فيها الإسكتلنديون الذين لم يروضوا بعد . وسعت من حين لآخر ، بالطرق الدبلوماسية أو الزواج أو الحرب ، إلى إخضاع إسكتلنده للحكم البريطانى . وأشار سيسل على اليزابث بمساندة النبلاء البروتستانت ضد مليكتهم الكاثوليكية ، ومن ثم تصبح إسكتلندة ممزقة ، ولا تعود تشكل خطراً على انجلترا أو دعامة لفرنسا . وفوق ذلك يمكن لزعماء البروتستانت ، إذا حالفهم التوفيق ، أن يخلعـوا مارى ، ويتوجوا نبيلا بروتستانتيا ، ويحولوا إسكتلنده كلها إلى البروتستانتية . وراود سيسل بصفة خاصة حلم توحيد إسكتلندة على هذه الصورة مع انجلترا بإغراء اليزابث بالزواج من مثل هذا الملك[٥] . فلما أرسلت فرنسا إلى إسكتلندة قوة لإخماد البروتستانت سارعت اليزابث بإرسال جيش لحمايتهم وطرد الفرنسيين . ولما حاقت الهزيمة بفرنسا فى ميدان القتال ، وقع ممثلوها فى إسكتلندة فى أدنبره (٦ يولية ١٥٦٠) معاهدة مشؤومة لا تنص على خروج الفرنسيين من إسكتلندة فحسب ، بل على عدم مطالبة مارى بأى حق فى عرش انجلترا . كذلك ، ورفضت مارى ، بناء على مشورة زوجها فرنسوا الثانى ، التصديق على المعاهدة . وعلمت اليزابث بذلك .

وكان الوضع الدينى مضطرباً ، بنفس القدر . ذلك أن « برلمان الإصلاح الدينى » الإسكتلندى الذى التأم ١٥٥٠ ، ألغى الكاثوليكيـة رسمياً ، وقرر أن تكون البروتستانتية الكلفنية دين الدولة ، ولكن مارى لم تصدق على هذه القرارات البرلمانية حتى تصبح قوانين نافذة المفعول فى البلاد . وظل القساوسة الكاثوليك يشغلون معظم الوظائف الكنسية ذوات الدخول فى إسكتلندة . وكان نصف النبلاء « بابويين ، وظل جون هاملتون الذى يجرى فى عروقه الدم الملكى ، يذهب إلى البرلمان بوصفه زعيم الكاثوليك فى إسكتلندة . ومهما يكن من أمر فإن نسبة كبيرة من الطبقة المتوسطة فى أدنبره وسانت أندروز وبرث وسترلنج وأبردين ، انحازت إلى الكلفنية ، بفضل الوعاظ المخلصين المتحمسين ، بزعامة جون نوكس Knox .

وفى العام الذى سبق مجىء مارى أخرج نوكس ومعاونوه كتاباً فى قواعد السلوك والانضباط « Discipline » يحدد مذهبهم وأغراضهم ، فالديانة لا تعنى

إلا البروتستانتية ، و « الربانيون والأتقياء » لا يقصد بهم إلا الكلفنيون وحدهم ، أما « الوثنية » فإنها تشمل « القداس ، والتضرع إلى القديسين وعبادة الصور . . . والاحتفاظ بها » ، أما « المتمسكون بهذه الأشياء البغيضة والداعون إليها ، فلا ينبغى أن يفلتوا من عقاب القضاة والحكام المدنيين . « وكل مذهب أو نظرية » تتنافى " مع الإنجيل ، يجب " القضاة عليها قضاءاً تماماً ، على أنها لعينة تحول دون خلاص الإنسان(٦) " . أما القساوسة فينبغى أن ينتخبوا فى المجامع ، وعليهم أن ينشئوا المدارس ويفتحوها لكل أبناء الرب ، مع خضوعها لرقابة الجامعات الإسكتلندية — سانت أندروز ، جلاسجو ، أبردين . ويجب أن تخصص أموال الكنيسة الكاثوليكية والعشور الكنسية المستمرة لحاجيات القساوسة البروتستانت وتعليم الشعب ومعونة الفقراء . وعلى " الكنيسة الإسكتلندية الوطنية " ، الجديدة — لا السلطة المدنية — أن تصدر تشريعات الأخلاق ، وتفرض العقوبات على مخالفاتها — السكر والجشع والتجديف والإسراف فى الثياب ، ظلم الفقراء والفحش والفسق والزنى ، وكل من يعارض المذهب الجديد ، أو يتغيب عمداً عن طقوسه ؛ يحال إلى السلطة المدنية ، مع توصية من الكنيسة الإسكلندية الوطنية بإعدامه(٧) .

على أن اللوردات الذين سيطروا على البرلمان أبوا أن يقروا " قواعد السلوك والانضباط " (يناير ١٥٦١) . ولم يستسيغوا قيام كنيسة وطنية قوية مستقلة . وكانت لهم خططهم الخاصة فى استخدام أموال الكنيسة المنحلة . وظل " كتاب قواعد السلوك " هدفاً ونبراساً يهتدى به فى تطوير الكنيسة الإسكتلندية الوطنية وتنميتها .

ولما أخفق نوكس فى إقامة حكومة لاهوتية يتولاها قساوسة يدعون أن لهم حق الكلام نيابة عن الرب ، بذل جهداً جباراً فى إصرار بالغ ، فى تنظيم الكهنوت الجديد ، وإيجاد الاعتمادات اللازمة لتدعيمهم ، وانتشارهم فى كل أرجاء إسكتلندة ، لمواجهة رجال الدين الكاثوليك الذين ظلوا يؤدون وظائفهم ، وخلقت قوة العقيدة فى مواعظه التى كان يلقيها وحماسة طائفته — نقول خلقت منه قوة فى أدنبره وفى الحكومة . وكان لزاماً على الملكة الكاثوليكية ، مارى ، أن تصفى حسابها معه ، حتى تستطيع تثبيت دعائم ملكها .

٣ — مارى ونوكس ١٥٦١ — ١٥٦٥

اتخذت مارى الترتيبات لتصل إلى إسكتلندة . قبل الموعد المضروب بأسبوعين ، حيث خشيت بعض المقاومة فى دخولها إلى البلاد ، ولكن ما أن انتشر فى العاصمة خبر وصولها إلى ليث حتى اكتظت الشوارع بالأهالى ، الذين عرتهم الدهشة ليروا ملكتهم غادة جميلة مرحة مفعمة بالحيوية ، لم تبلغ بعد التسعة عشر ربيعاً . وحياها معظمهم وهتفوا لها وهى على ظهر جوادها الصغير إلى قصر هوليرود . Holyrood وهناك رحب بها اللوردات : بروتستانت وكاثوليك فخورين بأن يكون لإسكتلندة ملكة فاتنة إلى هذا الحد ، يمكن يوماً ما ، بشخصها أو بشخص ابن لها ، أن تخضع إنجلترا الحكم ملك إسكتلندى .

وإن صورتيها(٨) اللتين وصلتا إلينا لتؤكدان اشتهارها بأنها من أجمل نساء عصرها . ولسنا ندرى إلى أى حد استطاع الرسامان اللذان نجهل الآن اسميهما ، أن يمثلاها ، ولكنا نلحظ فى اللوحتين كلتيهما ، القسمات الوسيمة واليدين الناعمتين والشعر الكستنائى الغزير الذى سلب ألباب البارونات وكتاب السير . ومع ذلك فإن هاتين الصورتين لا تكادان تكشفان لنا عن الجاذبية الحقيقية للملكة الصغيرة — روحها المرحة ، وثغرها الباسم . وحديثها العذب البارع ، وحماسها المتدفق ، وروح الألفة والحنان والمودة فيها ، وتلهفها على الحب . وإعجابها المتهور بالأقوياء من الرجال ، وكانت طامتها الكبرى أنها أرادت أن تكون امرأة وملكة معاً — أى أن تحس بدفء العاطفة ، دون أن تنقص من امتيازات الملك . لقد فكرت فى ذاتها بلغة قصص الفروسية — حسناوات مزهوات ولكنهن وديعات رقيقات ، عفيفات شهوانيات فى وقت معاً ، وأهل للهفة المتقدة والألم الحسى ، والإشفاق الرقيق ، والولاء الذى لا تفسده الرشوة ، والشجاعة التى تظهر عند الشدة . وكانت بارعة فى ركوب الخيل ، تقفز بجوارها فوق الأسوار ، وتتخطى الخنادق فى اندفاع وتهور ، وتستطيع احتمال مشاق الحملات دون كلل ولا شكوى . ولكنها لم تكن من الناحية الجسمية أو العقلية صالحة لأن تكون ملكة . فقد منيت بالاعتلال والضعف فى كل شىء اللهم إلا قوة الأعصاب ، وكانت عرضة لنوبات من الإغماء

تبدو وكأنها صرع . مصابة بعلة لم يتيسر تشخيصها . غالباً ما شلت حركتها وجعلتها تتلوى من شدة الألم[٩]. ولم يكن لها ذكاء الرجال الذى تميزت به اليزابث ،وكانت فى الغالب بارعة حاذقة . ولكن قل أن اتسمت بالحكمة ، وكثيراً ما أطلقت العنان للهوى والعاطفة فأفسدتا الدبلوماسية ، وأظهرت فى بعض الأحيان قدراً كثيراً من ضبط النفس والجلد واللباقة ، ثم عادت فأودت بهذا كله ، نتيجة الانفعال السريع واللسان السليط . لقد كان جمالها نقمة عليها ، ولم توهب المقدرة العقلية . وكان فى أخلاقها قضاء عليها .

وبذلت مارى جهداً مضنياً لتواجه الأخطار المتشعبة فى موقفها ، متأرجحة بين اللوردات الجشعين ، والوعاظ المعادين ، والإكليروس الكاثوليكى المتفسخ الذى لم يرع حرمة عقيدتها التى تدعو إلى الثقة فيهم . واختارت لزعامة مجلس شورى المملكة اثنين من البروتستانت : أخاها غير الشقيق،الابن غير الشرعى ، لورد جيمس ستيوارت (لورد مورى فيما بعد) . وكان فى سن السادسة والعشرين ، ووليم ميتلند لثنجتون ، وكان فى سن السادسة والثلاثين ، وكان فيه من الذكاء أكثر مما تحتمله خلقه ، وقد تحول من جانب إلى جانب . مؤثراً تسوية الأمور والحلول الوسط بين الأطراف المتنازعة ، حتى وفاته . وكان هدف سياسة لثنجتون رائعاً ممتازاً — وهو توحيد انجلترا واسكتلنده لأنه البديل الوحيد للعداء الذى يودى بالبلدين كليهما ، وفى مايو ١٥٦٢ أوفدته مارى إلى انجلترا ليرتب لقاء بينها وبين اليزابث : ووافقت اليزابث ، ولكن مجلس الشورى اعترض ، خشية أن أى تسليم مهما كان غـــير مباشر بحق مارى فى عرش انجلترا ، قد يشجع الكاثوليك على محاولة قتل اليزابث . وتبادلت الملكتان الرسائل فى مودة دبلوماسية ، على حين كانت كل منهما تحاور وتداور وتتحين الفرصة للانقضاض على زميلتها ، أو كانتا تلعبان معاً لعبة القط الفأر .

وفى الأعوام الثلاثة الأولى حالف التوفيق حكم مارى فى كل ناحية ، فيما عدا الدين . وعلى الرغم من أنها لم تستطع قط أن تطيب نفساً بمناخ إسكتلندة أو ثقافتها ، فإنها سعت : بحفلات الرقص والتمثيليات الممتعة والجمال ، أن تجعل من قصر هوليرود " باريس » صغيرة فى منطقة مجاورة للمنطقة المتجمدة الشمالية . وتحرر

معظم اللوردات وأطلقوا لأنفسهم العنان فى ظل مرحها وبهجتها . وتذمر نوكس وزمجر بأنهم سحروا . وفوضت الملكة مورى ولثنجتون فى تدبير شئون المملكة ، فقاما بالمهمة خير قيام . وبدا ، لبعض الوقت ، أنه حتى المشكلة الدينية قد وجدت حلا بفضل تنازلات الملكة . ولما حثها مندوبو البابا على إعادة الكاثوليكية ديناً رسمياً للبلاد ، أجابت بأن هذا مستحيل فى الوقت الراهن ، وإلا تدخلت البزابث بالقوة . ورغبة فى تهدئة خواطر البروتستانت الإسكتلنديين ، أصدرت مارى فى ٢٦ أغسطس ١٥٦١ بياناً يحرم فيه على الكاثوليك محاولة إحداث أية تغييرات فى الديانة القائمة ، ولكنها طلبت أن يرخص لها هى نفسها فى ممارسة الشعائر سراً ، وأن يقام لها القداس فى الكنيسة الملكية الخاصة(١٠) . ويوم الأحد ٢٤ أغسطس أقيم القداس هناك . وتجمع نفر قليل من البروتستانت خارجها وطالبوا « بإعدام القسيس الذى يعبد الأصنام (١١) » ، ولكن مورى حال دون دخولهم الكنيسة ، على حين اقتاد معاونوه القسيس إلى مكان آمن . . وفى يوم الأحد التالى استنكر نوكس سماح اللوردات بالقداس ، وأعلن إلى جماعة المصلين فى كنيسته أن قداسا واحداً كان أكثر إساءة إليه من عشرة آلاف عدو مسلحين(١٢) .

وأرسلت الملكة فى طلبه ؛ تستعطفه وتناشده التسامح . وفى قصرها ، فى ٤ سبتمبر ، ألتقت العقيدتان لقاء تاريخياً ، لم تصل إلينا تفاصيل ما جرى فيه إلا من تقرير نوكس نفسه(١٣) . وانتهرته مارى لإثارته الفتنة ضد سلطة أمها الشرعية ؛ ولكتاباته « هجومه العنيف » ضد " جماعة النسوة الخاطئات " ، الذى أساء إلى كل السيدات اللائى تولين الملك . فأجاب " بأنه إذا كان استنكار الوثنية معناه إثارة الرعايا ضد حكامهم ، فهلا يمكن التماس العذر فيه والصفح عنه ، فإن الله قد ارتضى . . . أن أكون واحداً (من بين الكثيرين) ممن أوصدوا أبواب هذه المملكة ضد باطل العقائد البابوية وضد خداع هذا الرومانى عدو المسيح ، البابا ، وغروره وظلمه . أما الهجوم العنيف . فإنه يا سيدتى قد كتب بصفة أخص ضد المرأة الفاسقة فى انجلترا مارى تيودور . ويستطرد تقرير نوكس :

قالت الملكة : هل تظن أن الرعايا قد يقومون فى وجه حكامهم ؟

فأجاب نوكس : إذا تجاوز الحكام حدودهم ، فلا ريب فى أنهم يلقون المقاومة ، حتى ولو بالقوة .

ونهضت الملكة من مقعدها ، وقد تولتها الدهشة . . ثم قالت فى النهاية : حسنا ، إذن ، أرى أن رعاياى سوف يمتثلون لك وليس لى .

فقال نوكس : إن الله يحرم على أن آخذ على عاتقى أن آمر أحدا بطاعتى ، أو أن أترك الناس أحراراً يفعلون ما يشاءون . ولكن رسالتى أن يلتزم الأمراء والرعايا جميعهم بطاعة الله . وهذا الخضوع لله وللكنيسة المجيدة — ياسيدتى — هو اسمى منزلة يمكن أن يحظى بها الانسان على هذه الأرض .

فقالت : ولكنكم لستم الكنيسة التى سوف أرعاها وآخذ بيدها ، سوف أدافع عن كنيسة رومه ، لأنى أعتقد أنها كنيسة الله الحقة .

فقال نوكس : لن تشكل مشيئتك سببا ياسيدتى ، ولن يجعل مجرد تفكيرك أنت من هذه الفاجرة الداعرة الرومانية القرينة الحقة الطاهرة التى تحمل بلا دنس، ليسوع المسيح . . . ولا تعجبى ياسيدتى لأنى أطلق على رومه ، الموسس الفاجرة ، لأن هذه الكنيسة ملوثة تلوثا تاما بكل ألوان الفجور الروحى .

فقالت : لا يحدثنى قلبى بهذا .

ولو كان هـذا الحديث منقولا نقلا أمينا لكان مواجهة محزنة بين الملكية والديمقراطية اللاهوتية ، وبين الكاثوليكية والكلفنية . ولو كان لنا أن نصدق نوكس ، فإن الملكة تلقت توبيخات دون أن تقابل الأذى بمثله ، ولم تزد على أن قالت :

« لقد جاوزت الحد فى إيلامى » وانصرفت إلى العشاء ، وذهب نوكس إلى كنيسته . وناشد لثنجتون نوكس أن يعامل الملكة برفق أكثر ، لأنها أميرة يافعة لم تخضع لأى تحريض أو إغراء(١٤) .

ولم يشعر أتباعه بأنه كان قاسيا عليها . ولما ظهرت فى المحافل العامة قال بعضهم بأنها وثنية ، وصاح فيها الأطفال بأن الاستماع إلى القداس خطيئة . وأصدر حكام

ادنبره قرارا بنفى الأشخاص الأقذار (كذا) « الرهبان ، أعضاء الأخوات الدينية ، القساوسة الراهبات ، الزناة[١٥] » . فعزلت مارى هؤلاء الحكام وأمرت بإجراء انتخابات جديدة . وفى سترلنج طرد القساوسة الذين أرادوا أن يقيموا لها القداس والدم ينزف من رءوسهم ، « على حين انفجرت هى باكية ، حيرة وعجزا[١٦] » . واجتمعت الجمعية العامة للكنيسة الوطنية الاسكتلندية وطالبت بمنعها من حضور أى قداس فى أى مكان ، ولكن لوردات مجلس الشورى أبوا أن يستجيبوا لهذا . وفى ديسمبر ١٥٦١ قام خلاف حاد بين المجلس والكنيسة حول توزيع إيرادات الكنيسة . فخصص للقساوسة البروتستانت السدس ، وللملكة سدس آخر ، واختص رجال الدين الكاثوليك (ولا يزالون يشكلون الغالبية) بثلثى الايراد . فأوجز نوكس هذه القسمة فى قوله : أعطى للشيطان ثلثان ، وقسم الثلث الأخير بين الشيطان والرب[١٧] . وقبض الكهنة البروتستانت فى المتوسط مائة مارك (٣٣٣ر٣ شلنات ؟) سنويا[١٨] .

واستمر رجال الكنيسة الوطنية ، طوال العام التالى ، يندّدون بالملكة ، وقد روعتهم التمثيليات والعربدة والصخب وحفلات الرقص والمغازلات التى تجرى فى بلاط مارى ، واقتصدت الملكة فى ملاهيها ومباذلها استجابة للاحتجاجات ، ولكن القساوسة أحسوا بأن عليها أن تفعل شيئا أكثر من هذا ، لأنها ما زالت تشهد القداس . وكتب أحد المعاصرين : « أ. جون نوكس يرغى ويزبد ويدوى كالرعد من فوق المنبر ، إلى حد أنى لا أخشى شيئا أكثر من أنه يوما ما سيفسد علينا كل شىء ، إنه يسود ويتحكم ، ويخشاه الناس جميعا[١٩] » . وهنا أيضا اشتبك الاصلاح الدينى مع النهضة .

وفى ١٥ ديسمبر ١٥٦٢ استدعت مارى نوكس ، واتهمته ، فى حضرة مورى ولثنجتون وغيرهما ، ببذر بذور الكراهية لها فى نفوس أتباعه . ويقول هو بأنه رد عليها بقوله : « إن الأمراء والحكام درجوا على اللعو واللهو وتضييع الوقت سدى أكثر منهم فى قراءة أعظم كلمات الله والاستماع إليها ، وأن العابثين واللاهين أعظم قيمة فى أعينهم من الحكماء والرجال الجادين الوقورين ، الذين قد يستطيعون

بشئ من النصح الكريم أن يستأصلوا بعض الغرور الباطل والزهو الكامن فى نفوس الناس جميعاً . ولكنها صفات تتأصل وتقوى فى نفوس الأمراء والملوك بفعل التعليم السيئ » فما كان جواب الملكة ـ على حد قول نوكس نفسه ، إلا أن قالت (فى حلم غير معهود فيها) : « إذا سمعت عنى مايغضبك تعال وأبلغنى إياه ولسوف أصغى إليك . » فرد عليها : « أنا ياسيدتى ، مكلف برسالة عامة فى كنيسة الرب ، وعينت من قبله لأحاسب على خطايا ورذائل الناس جميعاً . ولست مكلفا بأن آتى لكل فرد على حدة لأظهره على إثمه. فهذا عمل لاينتهى . وإذا تفضلت جلالتك بحضور المواعظ العامة ، فلا يخامرنى أى شك فى أنك ستعرفين تماما ما أريد وما أبغض . »

وتركته ينصرف فى سلام ، ولكن استمر الصراع بين العقائد . وفى عيد الفصح ١٥٦٣ قبض الموظفون المحليون على عدة قساوسة كاثوليك ، كانوا قد خالفوا القانون بإقامة القداس ، وهددوهم بالموت لوثنيتهم (٢١) . وسجن بعضهم، وهرب آخرون واختفوا فى الغابات فأرسلت مارى فى طلب نوكس مرة أخرى ، وتوسطت للإفراج عن القساوسة المسجونين ، فأجابها بأنها إذا طبقت القانون ، فإنه يكفل لها انصياع البروتستانت وطاعتهم ، وإلا فإنة يعتقد أن هؤلاء البابويين كانوا جديرين بتلقينهم درسا . « فقالت : إنى أعد بتحقيق رغبتك » . ودامت صداقتهما لبعض الوقت . ويأمر منها حوكم أسقف سانت أندروز وسبعة وأربعون قسيساً آخرون لإقامتهم القداس . وحكم عليهم بالسجن . وابتهج الكهنة البروتستانت بهذا . ولكن بعد أسبوع ، (٢٦ مايو ١٥٦٣) عندما شهدت مارى ووصيفاتها البرلمان فى أبهى حلة ، وهتف بعض الناس « بارك الله ذاك الوجة الجميل » ندد هؤلاء الكهنة البروتستانت بتبرجهن وأذيال ثيابهن وماتدلى منها من حواش . وكتب نوكس : لم تشهد اسكتلنده مثيلا لهذه الأبهة البغيضة فى السيدات من قبل (٢٢) .

وترامى إلى سمع نوكس بعد ذلك بقليل أن لثنجتون كان يحاول عقد زواج بين مارى ودون كارلوس ابن فيليب الثانى ملك أسبانيا . وإحساسا منه بأن مثل هذا الزواج سيكون ضربة قاضية على البروتستانتية فى أسكتلنده ، أعلن نوكس عن رأيه بصراحة فى موعظة ألقاها عل النبلاء الذين شهدوا البرلمان :

والآن أيها اللوردات ، وللقضاء على كل شيء ، أسمع عن زواج الملكة . . . واسمحوا لى أن أقول أيها اللوردات إنه حينما يعترف نبلاء اسكتلنده للسيد المسيح برضاهم عن أن يكون أحد الكفار (وكل أتباع البابا كفار) على رأس مملكتكم ، فانكم بذلك تبذلون أقصى مافى وسعكم لإبعاد يسوع المسيح عنها[٢٣] .

وفقدت الملكة صوابها ، فاستدعته ، وسألته — كما يقرر هو نفسه : « ماشأنك بزواجى ؟ ومن أنت فى هذه الدولة ؟ » فأجاب جوابه المشهور « فرد ولد فى هذه البلاد نفسها ياسيدتى . ومع أننى لا إرل ولا لورد ولابارون ، فى هذه الدولة ، فقد اختارنى الله (مهما كنت حقيراً فى عينيك) عضوا نافعا فيها[٢٤] » فانفجرت مارى باكية ، وأمرته بالانصراف .

وبلغت جرأة نوكس ذروتها فى اكتوبر (١٥٦٣) ذلك أنه أحاط مرة أخرى بالكنيسة الملكية الخاصة جمع من الناس احتجاجا على القداس الذى كان على وشك أن يقام . ودخل أندرو آرمسترونج وباتريك كرانزتون إلى الكنيسة وأرهبا القسيس حتى انصرف ، فأمرت الملكة التى لم تكن فى الكنيسة آنذاك ، بمحاكمة هذين الرجلين الكلفنيين بتهمة اقتحام حرمها الخاص . وفى اكتوبر أرسل نوكس كتابا يأمر فيه « الاخوة من كل الطبقات ، الذين آثروا طريق الحق » بأن يشهدوا المحاكمة . وحكم مجلس الملكة بأن هذه الدعوة خيانة عظمى ، ودعا نوكس للمثول للمحاكمة أمامها . وحضر نوكس (٢١ ديسمبر ١٥٦٣) ولكن حشدا هائلا من مؤيديه تجمع فى الفناء ، وعلى الدرجات « حتى وصل إلى باب القاعة التى جلست فيها الملكة ومجلسها » ودافع هو عن نفسه دفاعا مجيدا إلى حد أن المحكمة برأته ، وقالت الملكة « تستطيع يامستر نوكس أن تعود إلى دارك الليلة . » فأجاب هو « أدعو الله أن يطهر قلبك من رجس البابوية[٢٥] » .

وفى يوم أحد السعف ١٥٦٤ تزوج « الرسول » الذى لا يقهر ، وهو فى سن التاسعة والخمسين ، زوجته الثانية ، مرجريت ستيوارت ، التى تربطها

بالملكة ، صلة قرابة بعيدة ، وهى فى سن السابعة عشرة : وبعد سنة واحدة ، تزوجت الملكة للمرة الثانية .

٤ — الملكة تقع فى شراك الغرام ١٥٦٥ — ١٥٦٨

من ذا الذى تستطيع الملكة أن تختاره زوجا لها ، دون أن تقع فى ورطة دبلوماسية ؟ أميرا أسبانيا ؟ . ولكن لابد أن تحتج فرنسا وانجلترا ويغضب البروتستانت فى اسكتلنده . « فرنسيا » ؟ ولكن انجلترا لابد أن تقاوم ، حتى بحد السيف ، تجدد التحالف الفرنسى الاسكتلندى ، « أميرا نمسويا ، الأرشيدوق شارل » ؟ ولكن نوكس أنذر وحذر من فوق المنبر ، من الاتحاد مع « كافر » كاثوليكى ، كما أن اليزابث أخطرتها بأن الزواج من آل هبسبرج — الأعداء القدامى لآل تيودور — يعتبر عملا عدائيا .

وفى لحظ من الانفعال قطعت مارى العقدة الدبلوماسية . ففى اكتوبر ١٥٦٤ رأى ماتيو ستيوارت أنه قد آن الأوان العودة إلى اسكتلندة — وكان ماتيو ، إرل لنوكس يعتقد أنه المرشح التالى لعرش اسكتلنده بعد مارى ، وكان قد فقد كل أراضيه بمساندته هنرى الثامن ضد اسكتلندة ، وهرب إلى انجلترا تفاديا لانتقام الاسكتلنديين آنذاك . ولحق به فى اسكتلنده بعد قليل ابنه ، هنرى ستيوارت لورد دارنلى البالغ من العمر تسع عشر عاما ، والذى هو ، عن طريق والدته ، من نسل هنرى السابع ملك انجلترا ، مثل الملكة مارى . وفتنت مارى بالشاب الأمرد وأعجبت بمهارته فى لعب التنس والعزف على العود ، وتجاوزت عن غروره ، بوصفه أمرا يلتئم مع طلعته الجميلة ، واندفعت فى الغرام قبل أن تستطيع أن تتبين فيه الغباء والحمق . وفى ٢٩ يولية ١٥٦٥ ، وعلى الرغم من احتجاج اليزابث ونصف أعضاء مجلسها الخاص ، اتخذت مارى من هذا الفتى زوجا ، وأسمته ملكا . واستقال مورى من المجلس وانضم إلى أعداء الملكة العنيدة الجامحة .

ونعمت ، لشهور قلائل ، بالسعادة المشوبة بالمتاعب . لقد استبد بها توقها الشديد إلى الحب طيلة السنوات الأربع التى قضتها أرملة . وقد أثلج صدرها أن تجد من يرغب فيها . لقد منحت زوجها حبا بلاقيد ولا شرط ، وأغدقت عليه كل

شيء بلا حدود ، قال توماس راندولف سفير اليزابث : « لقد أولته كل ألوان الجلال والرفعة وألقاب الشرف ، ولا ينشرح صدرها لأي رجل لا يرضى عنه الملك الفتى ، وتنازلت عن إرادتها من أجله هو (٢٦) . . « ولكن الحظ السعيد أفسد عقل الفتى . فأصبح دكتاتوراً مستبداً وقحاً وطالب بأن يشارك الملكة سلطانها : وفي نفس الوقت أقام الحفلات الصاخبة وأسرف في الشراب ، وأبعد المجلس ، وأصابته نوبات من الحقد ، وارتاب في أن ماري ترتكب الزنى مع دافيد رتشيو .

ومن يكون رتشيو هذا ؟ أنه موسيقار إيطالي كان قد قدم إلى إسكتلندة ١٥٦١ ، وهو في سن الثامنة والعشرين ، في معية السفير (من سافوى) . ولما كانت ماري مولعة بالموسيقى ، فقد ألحقته بخدمتها كمنظم للمهرجانات الموسيقية ، ولقد سعدت بنشاطه وسرعة بديهته ، وتنوع ثقافته التي اكتسبها من القارة (أوربا) : ولما كان يعرف الفرنسية واللاتينية معرفة جيدة ، ويكتب بلغة إيطالية جميلة ، فقد اتخذته كذلك سكرتيراً لها ، وسرعان ما عهدت إليه بإعداد مراسلاتها الأجنبية وكتابتها . وأصبح مستشاراً لها ، وبات قوة لا يستهان بها ، وأسهم في توجيه السياسة . وجلس إلى مائدة الملكة يشاركها غذاءها ، وخلا بها أحياناً إلى ساعة متأخرة من الليل . ومذ رأى النبلاء الإسكتلنديون أن رتشيو قد نحاهم عن مكانتهم وحل محلهم ، وارتابوا في أنه يناصر الكاثوليك ، فإنهم تآمروا على تدميره .

وكان الايطالي الداهية في بداية الأمر قد سحر لب دارنلي نفسه ، فكانا يسرحان ويمرحان معاً ويناماِن معاً ، ولكن على حين أن المهام المنوطة برتشيو وامتيازاته وتكريمه والحفاوة به زادت ، فإن حماقة دارنلي هبطت به إلى مستوى العجز السياسي ، فانقلب حب الملك للخادم الذي أصبح وزيراً إلى مقت وبغض . ولما حملت الملكة ماري ذهبت الظنون بالملك إلى أنها حملت بولد رتشيو . واعتقد روندولف في صحة هذا بل إنه في الجيل التالي أبدى هنري كواتر ملاحظة ساخرة فقال إن جيمس الأول ملك انجلترا لا بد أن يكون « سليمان الحديث » طالما أن أباه هو دافيد العازف على القيثارة (٢٧) . وإذ لعب الويسكي يوماً برأس دارنلي ، وألهب جرأته ، انضم إلى

إرل مورتورن ، والبارون روثفن وغيرهما من النبلاء فى تدبير قتل رتشيو ، ووقعوا « عهداً » تعاهدوا فيه على تدعيم البروتستانتية فى إسكتلندة ، وعلى منح دارنلى « تاج الزواج » — أى كل حقوقه وسلطاته بوصفه ملكاً على إسكتلندة — وأن يكون له الحق فى العرش عند وفاة مارى . ووعد دارنلى بحماية الموقعين على " العهد " من نتائج "أية جريمة " قد ترتكب ؛ وبإعادة مورى وسائر اللوردات المنفيين(٢٨) .

وفى ٦ مارس ١٥٦١ كشف راندولف للورد سيسل النقاب عن المؤامرة(٢٩) . وفى ٩ مارس نفذت . واقتحم دارنلى حجرة الملكة حيث كانت تتناول العشاء مع رتشيو وليدى آرجيل ، وأمسك بالملكة واحتجزها ، واندفع مورتون وروثفن وآخرون إلى الحجرة ، واقتادوا رتشيو خارجها ، رغم احتجاجات واعتراضات لا غناء فيها من مارى ، وعلى السلم كالوا له الطعنات حتى الموت — ستا وخمسين طعنة ، إحكاماً للتدبير وضماناً للقضاء عليه ودق أحدهم ناقوس الخطر فى المدينة ، فسار حشد كبير من المواطنين المسلحين إلى القصر ، واقترحوا تمزيق مارى « إربا(٣٠) » ولكن دارنلى أقنعهم بالتفرق ، وبقيت مارى طوال الليل وطيلة اليوم التالى سجينة السفاحين فى قصر هوليرود . وفى نفس الوقت لعبت على فزع دارنلى وحبه لها ، فساعدها وصحبها ، عندما هربت فى الليلة التالية ولجأت إلى دنبار Dunbar وهناك أقسمت أن تنتقم ، فأصدرت نداء إلى مؤيديها المخلصين ، ليهبوا لنجدتها والدفاع عنها . وأعادت مورى إلى المجلس ، وربما فعلت هذا رغبة فى إشاعة الفرقة بين أعدائها .

وكان أكثر من عرضوا مساعدتها وحمايتها فعالية وأثراً جيمس هيبرن Hepburn ، إرل بوثول Bothwell الرابع . وكان شخصية غريبة سيئة الطالع ، ولم يكن وسيما ، ولكن قوى الجسم والعاطفة والإرادة . مغامراً فى البر والبحر ، يحذق الضرب بالسيف والمغول (سيف مستقيم مستدق الرأس ذو حدين) . يرهب الرجال بجرأته الهادئة ، ويفتن النساء بحديثه وتهوره واشتهاره بالقدرة على إغوائهن ، ولكنه كان كذلك على درجة عالية من التعليم ، ومحباً للكتب ، ومؤلفاً ، فى وقت لم يكن فيه كثير من النبلاء الإسكتلنديين يعرفون كتابة أسمائهم . وكرهته الملكة أول الأمر ،

لأنه أساء إليها فى أحاديثه ، ولكن هذه طريقة فى كسب اهتمام المرأة . ولما عرفت صفاته العسكرية عينته قائداً للحدود ، ولما سمعت بدرايته بالسفن والملاحة عينته أمير الأسطول ، ولما علمت برغبته فى الزواج من ليدى جين جوردون عجلت بإتمام الزواج .

وكانت الآن تخشى قتلة رتشيو وترتاب فى اشتراك زوجها فى جريمتهم . ومن ثم ولت شطر بوثول تسأله الحماية والنصح . ولم تندفع مارى إلى هذا الرجل على عجل ، بل إن صفات الرجولة فيه : الشجاعة والحيوية والقوة والثقة بالنفس ، كانت هى الصفات التى تصبو إليها طبيعتها الأنثوية ، ولم تجدها فى فرنسوا الثانى أو دارنلى . وقد لحظت كيف أن الاحترام لسيفه ولجنوده أدى بالمتآمرين إلى الاختفاء أو الخضوع ، وسرعان ما أحست بالأمان والاطمئنان إلى حد العودة إلى قصر هوليرود ، وعلى الرغم من أن نوكس كان قد أقر نتل رتشيو ، فإن مارى هدأت من روع القساوسة البروتستانت لبعض الوقت بوضع شروط أفضل لأرزاقهم والإبقاء عليهم . أما عامة الاسكتلنديين الذين لم يكونوا فى يوم من الأيام يكنون ذرة من الحب للوردات ، فإنهم تعاطفوا معها ، وتمتعت الملكة لعدة أشهر بعد ذلك بشعبية عامة : وكتب السفير الفرنسى يقول : « لم أر الملكة قط تحظى بمثل هذا الحب والتقدير والتكريم ، أو بمثل هذه الألفة بين رعاياها[٣١] . » على أنها عندما اقترب موعد الوضع ، انتابتها الهواجس واستبدت بها فكرة أنها لا بد أن تقتل أو تخلع ، وهى راقدة لا حول لها ولا قوة ولا عون[٣٢] . ولما وضعت ، فى سلام وأمان ، طفلا ذكراً فى ١٩ يونيـة ١٥٦٦ ابتهجت إسكتلندة بأسرها ، وكأنها تنبأت بأن هذا الصبى سيكون ملكاً على إسكتلندة وانجلترا معاً . وكانت مارى فى أوجها .

ولكنها كانت تعسة بدارنلى الذى استاء من تجديد ثقتها بمورى ، ومن إعجابها المتزايد ببوثول . وتناثرت الإشاعات بأنه قد يخطف الطفل الملكى ويحكم باسمه[٣٣] . واتهم دارنلى النبلاء بقتل رتشيو ، وطالب ببراءته هو . فما كان منهم ، انتقاماً منه ، إلا أن بعثوا إلى الملكة بدليل اشتراكه فى الجريمة[٣٤] . واقترح آرجيل ولثنجتون وبوثول على الملكة أن تطلقه ، فاعترضت بأن هذا قد يعرض العرش للخطر ،

فأجاب لثنجتون على هذا بأنه من الميسور إيجاد طريقة لتخليصها من دارنلى دون الإضرار بابنها فلم توافق وعرضت أنهـا تفضل الخروج من إسكتلندة ، وتترك الحكم لدارنلى ، وأنهت الحديث بقولها : محذرة ، أريد منكم ألا تفعلوا شيئاً يلوث شرفى أو ضميرى ، ولذلك أتوسل إليكم أن تتركوا الأمور كما هى ، وأن نحتمل حتى يقضى الله فيها برحمتـــه[٣٥] » . وكم من مرة تحدثت آنذاك عن الانتحار[٣٦] .

وفى أكتوبر ١٥٦٦ ، أو نحو ذلك . وقع آجريل وسير جيمس بلفور وبوثول ، وربما كان معهم لثنجتون ، على ميثاق بالتخلص من دارنلى . وترامى إلى مسامع إرل لينوكس نبأ هذه المؤامرة ، وحذر ابنه دارنلى الذى كان يعيش بعيداً عن مارى ، مع والده فى جلاسجو (ديسمبر ١٥٦٦) . وهناك مرض دارنلى ، وكان من الواضح أنه مريض بالجدرى ، رغم انتشار إشاعة بأنه مسموم . وفى الوقت نفسه حامت الشبهات حول مارى وعلاقتها الآثمة مع بوثول ، نتيجة لنمو المودة والألفة بينهما . ونعتها نوكس صراحة بأنها بغى عاهرة[٣٧] . ويبدو أنها اتصلت برئيس الأساقفة هملتون لاتخاذ الترتيبات لطلاق بوثول من زوجته . وعرضت على دارنلى أن تزوره ، ولكنه بعث إليها برد ملؤه التقريع والإهانة . وعلى الرغم من هذا ذهبت إليه (١٢ يناير ١٥٦٧) وأكدت إخلاصها له ، وأيقظت فيه من جديد حبه لها ، وتوسلت إليه أن يعود إلى إدنبره ، حيث وعدت أن ترعاه وتعيد إليه موفور الصحة والسعادة .

وهنا تدخل الرسائل المعروفـــة باسم « رسائل الصندوق الفضى » إلى مسرح الحوادث لتكمل المشهد . وتتوقف بقية القصة إلى حد ما على صحة تلك الرسائل ، وهذه قضية لا تزال بعد مضى أربعمائة سنة مثار خلاف ومناقشة . وزعموا أن تلك الرسائل وجدت فى صندوق صغير من الفضة كانت مارى قد أهدته إلى بوثول ، ثم استولى عليه ، فى ٢٠ يونية ١٥٦٧ ، من أحد خدم بوثول ، بعض وكلاء النبلاء الذين كانوا يسعون آنذاك إلى خلع الملكة . وفتح الصندوق فى اليوم التالى بمعرفة مورتون ولثنجتون وغيرهم من أعضاء المجلس الخاص : وسرعان ما عرضت

بعد ذلك على برلمان إسكتلندة ، ثم أخيراً على اللجنة الإنجليزية التى تولت محاكمة مارى فى ١٥٦٨ ، وكانت عبارة عن ثمانية خطابات وبعض شذرات متناثرة من قصائد شعرية ، وكلها بالفرنسية ، غير موجهة لأحد ، ولا تحمل تاريخاً ، ولكنهم زعموا أنها من مارى إلى بوثول . وأقسم اللوردات أعضاء المجلس أمام البرلمان أن الرسائل صحيحة ، ولم يحدث فيها أى تلاعب ، ولكن مارى ادعت أنها مزيفة . والظاهر أن ابنها اعتبرها «حقيقة ، لأنه أتلفها[٣٨] ، ولم يبق إلا صور منها » . ولما أطلع ملوك القارة على هذه الصور تصرفوا وكأنما وثقوا من صحتها[٣٩] . وارتابت اليزابث أول الأمر فى صحتها ، ثم عادت فسلمت بها فى شىء من التردد ، وأول ما يتبادر إلى الذهن عند قراءة الرسائل ، هو الارتياب فى أن امرأة تتوسط فى قتل زوجها ثم تفصح فى طيش وإسهاب بالغين عن مقاصدها فى رسائل تعهد بها إلى رسل يمكن أن يعترض أحد سبيلهم أو يرشوهم ، ثم أنه يبدو من المستحيل أن يحتفظ بوثول بمثل هذه الرسائل التى تدينه وتورطه فى جريمة . ثم من غير المحتمل بنفس القدر أن يوجد فى اسكتلندة أحد حتى الداهية لثنجتون نفسه (المشتبه فيه بصفة خاصة) كان فى مقدروه أن يزيف أى جزء هام من هذه الرسائل فى سحابة اليوم الذى مضى بين الاستيلاء على الصندوق وعرض الرسائل على المجلس أو البرلمان . والرسالة الثانية التى تحمل أكبر إدانة ، مطولة بشكل غريب . وتقـع فى عشر صفحات بالمطبعة . ولو كانت مزيفة ، لكانت أكبر عملية تزييف غير عادية ، لأن محتواها العاطفى يبدو متطابقاً مع طبيعة مارى ، قدر تطابق الكتابة مع خط مارى . وإنها لتمثل مارى شريكة ضالعة فى قتل دارنلى ، مترددة تملؤها الحسرة والأسى ، وتشعر بالعار والخجل من أجل ذلك (*) .

وسمح الملك العليل المتخوف الواثق بأن ينتقل عبر اسكتلنده فى محفة ايتيم فى بيت

(*) يميل النقاد إلى القول بأن الرسائل حقيقية فى معظمها مع بعض المحرين . وذهب لورد أكتون وهو رجل خبير كاثوليكى أمين : إلى أن أربعا من هذه الرسائل حقيقية (٤٠) ؛ وأن الرسالة الثانية مزيفة ويمكن قراءة هذه الرسائل فى كتاب أندرو لانج **Mystery of Mary Stuart** ؛ ص ٢٩١ — ٤١٤ .

قسيس «كيرك أو فيلد» القديم فى ضواحى أدنبره ، وفسرت مارى عدم نقله فوراً إلى قصر هوليرود بأنها خشيت انتقال العدوى إلى طفلهما . وهناك رقد لمدة أسبوعين ، حيث كانت مارى تزوره يومياً . وثابرت على تمريضه والعناية به حتى استرد صحته ، وكتب إلى والده (٧ فبراير ١٥٦٧) « . . . . إن صحتى الجيدة هى . . . . النتيجة السريعة لحسن رعاية . . . . الملكة التى أؤكد لكم أنها كانت طيبة طيلة هذه المدة ، ولا تزال ، تسهر على العناية بى ، على أنها الزوجة الطبيعية المحبة . ومع ذلك لا زلت آمل أن يمن الله علينا بما يدخل الفرح على قلوبنا التى أضنتها المتاعب طويلا(٤١) » . ولماذا كانت تقوم على تمريضه والعناية به طيلة أسابيع مملة إذا كانت تعلم أنه كان سيقتل حتما ؟ « إن هذا جزء من السر الكامن وراء مارى استيوارت . وفى مساء ٩ فبراير تركته لتشهد حفل زفاف إحدى وصيفاتها فى هوليرود . وفى تلك الليلة حدث انفجار فى بيت كيرك أوفيلد ، وفى الصباح وجد دارنلى ميتاً فى الحديقة .

وسلكت مارى فى أول الأمر مسلك المرأة البريئة . فحزنت وولولت وأقسمت أن تثأر . وأمرت أن تجلل غرفتها بالسواد وأن يحجب عنها الضوء ، وبقيت تعانى الظلام والوحدة . وأمرت بالتحقيق القضائى فى الحادث ، وأعلنت عن جائزة من المال والأرض لمن يدلى بأية معلومات تؤدى إلى القبض على الجناة . ولما ظهرت الإعلانات على الجدران فى المدينة تتهم بوثول بالقتل ، وكان بعضها يورط الملكة فى الحادث ، صدر بيان يهيب بموجهى الاتهام أن يتقدموا بأدلتهم ، ويعد بحماية المبلغين ومكافأتهم ، ورفض واضعو الإعلانات أن يظهروا ، ولكن إرل لنوكس حث الملكة على تقديم بوثول للمحاكمة على الفور . وأيد بوثول هذا المطلب ، وفى ١٢ أبريل مثل أمام المحققين . ولكن لنوكس لم يبرح جلاسجو ، لأنه كان يعوزه دليل الاتهام ، أو أنه كان يخشى جنود بوثول فى العاصمة . وانتهى التحقيق إلى تبرئة بوثول ، وأعلن البرلمان براءته رسمياً . وفى ١٩ أبريل أقنع آرجيل وهنتلى ومورتون واثنى عشر نبيلا آخرين بتوقيع « عهد آنسلى » يثبتون فيه ثقتهم ببراءته ، ويتعهدون بالدفاع عنه ، ويوافقون على زواجه من مارى التى أولت بوثول آنذاك عطفها وحبها علانية ، وزادت على ما كانت قد أغدقت عليه من هدايا ثمينة .

وفى ٢٣ أبريل زارت ابنها فى سترلنج ، وقد قدر لها ألا تراه بعد اليوم أبداً . وفى طريق عودتها إلى دبلن مع لثنجتون كمن لها بوثول وجنوده وهاجموها وحملوها بالقوة إلى دنبار (٤ أبريل) . واحتج لثنجتون وهدده بوثول بالقتل . ولكن مارى أنقذته وأطلق سراحه ، وانضم بعد ذلك إلى أعداء الملكة . وفى دنبار استؤنفت المفاوضات لطلاق بوثول . وفى ٣ مايو عادت مارى وبوثول إلى أدنبره ، وأعلنت أنها طليقة من كل قيد ، وفى ٧ مايو منح بوثول الطلاق . وفى ١٥ مايو ، حين رفض قسيسها الكاثوليكى تزويجهما (هى وبوثول) ، تزوجا وفق الطقوس البروتستانتية ، أمام أسقف أوركنى الذى كان فيما مضى كاثوليكياً . وانقلبت ضدها ، بوصفها نفساً هالكة ، أوربا الكاثوليكية التى كانت يوماً تناصرها . ونأى عنها رجال الدين الكاثوليك ، ونادى القساوسة البروتستانت بخلعها ، ووقف الأهالى منها موقفاً عدائياً . أما الأقلية التى تعاطفت معها فقد عزت غرامها الطائش إلى جرعة حب أعطاها إياها بوثول .

وفى ١٠ يونية أحاطت عصابة مسلحة بقصر بورثوك Borthwick حيث كانت تقيم مارى وبوثول ، فهرب الاثنان ، وكانت مارى فى ثياب رجل . وفى دنبار جمع بوثول ألف رجل ، سعت مارى وبوثول بهم أن يشقوا طريقهم عائدين عنوة إلى أدنبره : فاعترضهما فى كاريرى هل (١٥ يونية) قوة مماثلة ترفع راية نقش عليها صورة دارنلى الميت وصورة الطفل جيمس السادس . وعرض بوثول تسوية الموضوع بالنزال الفردى ، ولكن مارى رفضت أن تسمح له بذلك . وارتضت أن تستسلم إذا سمح لبوثول بالهرب . وادعت فيما بعد أن زعماء الثوار كانوا قد وعدوها بالولاء لها إذا لحقت بهم دون قتال[41] . ولاذ بوثول بالفرار إلى الشاطىء واتخذ طريقه إلى الدنمرك . وهناك بعد عشر سنوات قضاها فى السجن بأمر ملك الدنمرك قضى بوثول نحبه وهو فى سن الثانية والأربعين (١٥٧٨) .

ورافقت مارى معتقليها إلى أدنبره وسط صيحات الجنود والأهالى . « أحرقوا العاهرة اقلوها أغرقوها[42] » واحتجزت تحت الحراسة فى دار رئيس البلدية وهناك ، تحت نافذتها التى ظهرت منها شعثاء الشعر نصف عارية ، استمرت

الجموع تهددها بأقذع العبارات . وفى ١٧ يونية ، رغم احتجاجاتها واعتراضاتها الشديدة نقلت إلى سجن سحيق وأكثر أمناً ، فى جزيرة فى بحيرة لوك ليفن ، على بعد نحو ثلاثين ميلا إلى الشمال من العاصمة . وهناك طبقاً لما رواه سكرتيرها كلود وضعت توأمين قبل الأوان(٤٤) . وأرسلت ملتمساً إلى الحكومة الفرنسية ولكنها رفضت التدخل ، وأصدرت اليزابث تعليمات إلى مبعوثها بالوعد بحماية مارى ، وتهديد النبلاء بأشد العقاب إذا مسوا الملكة بأى أذى ، ودعا نوكس إلى إعدام مارى ، وأنذر بأن الله سوف يرسل إلى إسكتلندة بطاعون فظيع إذا أبقت على حياة مارى(٤٥) . وفى يونية أعاد اللوردات « رسائل الصندوق الفضى » ، وتوسلت مارى إلى البرلمان أن يستمع إليها ، (إلى مارى) ، ولكنه رفض على أساس أن الرسائل أوضحت قضيتها بما فيه الكفاية . وفى ٢٤ يولية وقعت وثيقة تخليها عن العرش ، وعين مورى وصياً على ابنها .

وبقيت لنحو أحد عشر شهراً أسيرة فى قصر لوك ليفن ، وخففت قيود السجن تدريجياً فتناولت الطعام مع أسرة وليم دوجلاس صاحب القصر ، ووقع أخوه الأصغر جورج فى غرامها ، وساعدها على الهرب (٢٥ مارس ١٥٦٨) واعتقلت ، ولكنها فى ٢ مايو عاودت المحاولة وأفلحت . ووصلت تحت حماية دوجلاس الصغير ، إلى داخل البلاد حيث التقت بجماعة من الكاثوليك ، وركبت فى ظلام الليل إلى لسان فورث ، وعبرته ، وآوت إلى بيت آل هملتون ، وهناك فى بحر خمسة أيام ، تجمع ستة آلاف رجل ، وأقسموا أن يعيدوهـــا إلى العرش ، ولكن مورى دعا البروتستانت فى إسكتلندة إلى حمل السلاح . والتقى الجمعان فى لانجسيد بالقرب من جلاسجو (١٣ مايو) ، ودحر جيش مارى السىء التنظيم . وهربت مرة أخرى ، وجدت السير على ظهر جوادها فى تهور ، ثلاث ليال سوياً ، إلى دندرينان أبى على خليج سولواى . وآنذاك أعادت إلى مانحها ، الماسة التى كانت اليزابث يوماً قد أهدتها إلى « أختها العزيزة » ، مع رسالة تقول « إنى أعيد تلك الجوهرة إلى ملكتها ، وكانت رمزاً لصداقة ومعونة موعودتين(٤٦) » . وفى ١٦ مايو ١٥٦٨ عبرت خليج

سولواى فى قارب مكشوف لصيد السمك ، ودخلت إنجلترا ، ووضعت مصيرها بين يدى غريمتها .

٥ — التكفير ١٥٦٨ — ١٥٨٧

ومن مدينة كارليل Carlisle (فى شمال غرب إنجلترا) أرسلت مارى رسالة ثانية إلى اليزابث تطلب مقابلتها لتشرح لها موقفها وسلوكها . وكانت اليزابث من حيث المبدأ تناهض مساعدة الثوار ضد أى حاكم شرعى . ومن ثم مالت إلى دعوة مارى لمقابلتها . ولكن مجلس شورى الملكة أوقعها فى حيرة وارتباك بما ساق لها من تحذيرات : فلو أن مارى سمح لها بالذهاب إلى فرنسا ، لأغريت الحكومة الفرنسية بارسال جيش إلى اسكتلنده لإعادة مارى إلى العرش . ولإعادة اسكتلنده حليفة كاثوليكية لفرنسا وشوكة فى ظهر انجلترا ، وعند ذلك تساند فرنسا دعوى مارى فى عرش انجلترا بقوة السلاح . كما يساندها الكاثوليك الانجليز . ولو بقيت مارى حرة طليقة فى انجلترا فمن الممكن أن تكون مصدر بؤرة مبعورة الثورة الكاثوليك ، وانجلترا لاتزال فى أعماق قلبها كاثوليكية فى الكثير الغالب . وإذا أرغمت انجلترا النبلاء الاسكتلنديين على إعادة مليكتهم إلى عرشها فإن حياة هؤلاء النبلاء تتعرض للخطر . كما تفقد انجلترا حلفاءها البروتستانت فى اسكتلنده : وربما اتفق سيسل مع هللام فى الرأى القائل بأن احتجاز ملكة الاسكتلنديين أو تقييد حريتها قسرا ، إنما هو خرق لكل قانون ، طبيعى أو عام أو محلى(٤٧) » . ولكنه أحس بأن مسئوليته التى تطغى على كل ماعداها . هى حماية انجلترا .

ولما كان من إحدى مهام الدبلوماسية أن تخلع على الواقعية ثوب الأخلاقية ، فقد أبلغت مارى أنه ينبغى عليها قبل الاستجابة إلى طلبها فى اللقاء مع الملكة اليزابث ، أن تبرىء نفسها من عدة اتهامات أمام لجنة تحقيق . فأجابت مارى بأنها ملكة ، ولا يمكن أن تحاكم أمام مندوبين عاديين ، وبخاصة من بلد آخر . وطلبت أن تكون لها حرية العودة إلى اسكتلنده أو الذهاب إلى فرنسا . كما طالبت أن تلتقى بمورتون ولثنجتون فى حضرة اليزابث . ووعدت باثبات إدانتهما فى قتل دارنلى . وفى ١٣ يولية ١٥٦٨ أمر المجلس الانجليزى بنقلها من كارليل (لقربها الشديد من

الحدود) إلى قصر بولتون بالقرب من يورك . وهناك خضعت مارى للسجن البسيط بناء على وعد اليزابث : « ضعى نفسك بين يدى دون تحفظ ، ولن ألقى بالا إلى أى شيء يسىء إليك . وسيكون شرفك فى مأمن من أى خدش . ولسوف تعادين إلى عرشك(٤٨) » . ولما هدأت اليزابث من روع مارى بهذا الشكل ، وافقت الأخيرة على تعيين ممثلين لها فى لجنة للتحقيق ؛ وحاولت أن ترضى اليزابث بادعائها قبول المذهب الانجليكانى ، ولكنها أكدت لفيليب ملك أسبانيا أنها لن تتخلى عن قضية الكاثوليك(٤٩) . ومن ذلك الوقت باتت مارى واليزابث فرسى رهان فى سباق للنفاق ، الأولى تلتمس لنفسها العذر بأنها سجين ملكى خانوه وغدروا به ، والثانية بأنها ملكة تكتنفها المخاطر .

واجتمعت لجنة التحقيق فى يورك فى اكتوبر ١٥٦٨ . ومثل مارى فيها سبعة أشخاص أهمهم جون ازلى أسقف روس الكاثوليكى ، ولورد هريز Herries من إقليم المستنقعات الغربية فى اسكتلنده ، وهو كاثوليكى أيضا ، وعينت اليزابث ثلاثة من البروتستانت . هم دوق نورفولك ، وارل سسكس ، وسير رالف سادلر . ومثل أمام اللجنة مورى ومورتون ولثنجتون الذين عرضوا « رسائل الصندوق الفضى » على الأعضاء الانجليز سرا . وقالوا إنه إذا أقرت مارى أن يكون مورى وصيا على العرش ، وقبلت أن تعيش فى انجلترا على راتب تقاعد كبير تدفعه لها اسكتلنده ، فلن تذاع الرسائل . ولكن نورفولك — الذى كان يحلم بالزواج من مارى ، ومن ثم يصبح ملكا على انجلترا بعد وفاة اليزابث ، رفض هذا العرض . أما سسكس فقد كتب إلى اليزابث بأنه يبدو من المرجح أن تكسب مارى قضيتها(٥٠) .

وأمرت اليزابث بأن تنتقل المحاكمة إلى وستمنستر . وهناك وضع مورى الرسائل أمام المجلس ، وانقسم الرأى حول حجية الوثائق ، ولكن اليزابث قضت بأنها لن تستقبل مارى قبل أن تثبت عدم صحتها . وطلبت مارى أن تطلع على الرسائل الأصلية أو صورتها ولكن اللجنة رفضت هذا الطلب ؛ ولم تطلع مارى قط على أصل الرسائل أو صورها(٥١) . وفى ١١ يناير ١٥٦٩ انفضت اللجنة دون أن تصدر قرارا . واستقبلت اليزابث مورى ثم أعيد إلى اسكتلنده ومعه الرسائل . ونقلت

ماری — وهی غاضبة متحدية إلى سجن أشـــد قيودا فى تتبرى **Tutbury** على نهر ترنت ، واحتجت الحكومات الأجنبية ، ولكن اليزابث أجابت بأنهم لو اطلعوا على الأدلة التى قدمت إلى اللجنة لاعتبروا معاملتها لمارى لينة هينة . لا قاسية(٥٢) . وأشار السفير الأسبانى على فيليب بغـــزو انجلترا ووعده بمعاونة شمال انجلترا الكاثوليكى له ، ولكن فيليب تشكك فى مثل هذه المعاونة ، كما أنذره دوق ألفا بأن اليزابث قد تأمر بقتل مارى عند أول بادرة للغزو أو الثورة .

وقامت الثورة . ففى ١٤ نوفمبر ١٥٦٩ قاد ارل نورثمبرلند وارل وستمورلند جيشا قوامه ٥ر٧٠٠ من الثوار إلى درهام ، وأطاحوا بمكتب الطائفة الانجليكانية وأحرقوا كتاب الصلوات العامة ، واستردوا المذبح الكاثوليكى ، واستمعوا إلى القداس ، ودبروا هجوما على تتبرى لاطلاق سراح مارى ، ولكن اليزابث فوتت عليهم الفرصة بنقـــل مارى إلى كوفنترى فى ٢٣ نوفمبر ١٥٦٩ . وعجل ارل سسكس على رأس جيش معظمه من الكاثوليك ، باخماد الثورة . وأمرت اليزابث « بشنق المقبوض عليهم من المتمردين وأتباعهم المتواطئين معهم ، وألا تنقل جثثهم بل تظل فى أماكنها حتى تتساقط اربا(٥٣) » . وبهذا أمكن التخلص من نحو ستمائة رجل وصودرت أملاكهم للتاج ، وفر نورثمبرلند ووستمورلند إلى اسكتلنده . وفى فبراير ١٥٧٠ قاد ليونارد داكريس ثورة أخرى من الكاثوليك . ولكنه هزم أيضا ، وهرب عبر الحدود .

وفى يناير ١٥٧٠ كتب نوكس إلى سيسل يشير عليه باصدار أمره بقتل مارى فورا ، « فانك إذا لم تستأصل الجذور عادت الأغصان التى تبدو ذابلة متكسرة إلى النمو والازدهار(٥٤) » ، وكان قد فرغ آنذاك من كتابه « تاريخ الاصلاح الدينى فى مملكة اسكتلنده » — وهو كتاب لا يدعى عدم التحيز : قصصى غير دقيق ، ولكنه مفعم بالحيوية زاخر بالمعلومات عن سير الأفراد ، ذو أسلوب طريف فردى لاذع لأنه صادر عن واعظ لا يخشى فى الحق لومة لائم ، يصارح كلا بما فيه دون مواربة . وهو رجل موجع قاس ولكنه عظيم ، حقق حلمه فى القوة والسيطرة أكثر مما فعل كلفن ،

وكان يبغض من كل قلبه ، ويناضل فى بسالة وجرأة ، ويستنفد آخر خفقة من الطاقة الجبارة إلى حد لايصدق لارادته الحديدية . وما جاء عام ١٥٧٢ حتى كان قد استنزف قوته ، فلم يعد يستطيع المشى — إلا إذا أعانه عليه أحد . ولكنه كان يلوذ بمن يأخذ بيده يوم الأحد حتى يصل إلى المنبر فى كنيسة سانت جيلز St. Giles وألقى آخر موعظة له فى ٩ نوفمبر ١٥٧٢ ، ورافقه كل شعب الكنيسة إلى مسكنه ، ووافاه الأجل فى ٢٤ نوفمبر ، وهو فى السابعة والستين من العمر ، فقيرا كيوم ولدته أمه . « انه لم يتجر بكلمة الرب » وترك للأعقاب أن تحكم عليه . لن يدرك هذا العهد الجحود ماذا كان بالنسبة لبلدى ، ومع ذلك فإن الأجيال القادمة سوف تضطر أن تكون شواهد عدل على الحقيقة . [٥٥] إن قلة من الناس هى التى أثرت تأثيرا حاسما فى معتقدات الشعب ، وإن قلة من أهل عصره ضارعته فى تشجيعه للتعليم وفى التعصب وفى ضبط النفس . ولقد اقتسم نوكس ومارى روح اسكتلنده ، وكان هو يمثل الاصلاح الدينى . وهى تمثل عصر النهضة ، واندحرت مارى لأنها — شأنها شأن اليزابث — لم تعرف كيف تزاوج بينهما :

وحاولت مارى — مثل نمر قلق هائج حبيس — كل إمكانات الهرب ووسائله . وفى ١٥٧١ قام روبرتودى ريدولفى ، وهو فلورنسى من أصحاب المصارف ذوى النشاط فى لندن — قام بدور الوساطة بين مارى والسفير الأسبانى ، وأسقف روسى ، ودوق ألفا ، وفيليب ملك أسبانيا ، والبابا بيوس الخامس . واقترح أن يرسل ألفا على انجلترا قوات أسبانية من الأراضى الوطيئة ، وأن تغزو انجترا فى نفس الوقت قوة كاثوليكية من اسكتلنده ، وأن تخلع اليزابث عن العرش ، وتنصب مارى ملكة على انجلترا واسكتلنده ، وأن يتزوجها نورفولك بهذه الخطة ، فلم يوافق عليها موافقة صريحة ، ولم يكشف عنها لأحد . وأقرتها مارى بصفة مؤقتة .[٥٦] ودفع البابا لريدولفى بعض المال على ذمة المشروع : ووعد بأن يوصى فيليب بقبوله ، ولكن فيليب علق رأيه على موافقة ألفا الذى دمغ المشروع بالسخافة والحمق ، على أنه مشروع خيالى ، وأنه لن ينتهى الا بكارثة على أصدقاء مارى . وضبطت رسائل ريدولفى ونورفولك لدى من قبض عليهم من خدم مارى والدوق . وأودع السجن

نورفولك وروس وعدد من النبلاء الكاثوليك . وحوكم نورفولك بتهمة الخيانة ، وصدر الحكم عليه . وترددت أليزابث فى التصديق على حكم الإعدام على مثل هذا النبيل البارز العظيم . ولكن سيسل والبرلمان الانجليزى وأقطاب الكنيسة الانجليكانية ، طالبوا بإعدام نورفولك ومارى كليهما. واتخذت اليزابث حلا وسطا فأرسلت نورفولك إلى السجن (٢ يونية ١٥٧٢) . ولما ترامت إلى انجلترا أنباء مذبحة سانت برثلميو (٢٢ أغسطس) تعالت الصيحات من جديد ، للمطالبة بإعدام مارى (٥٨) . ولكن اليزابث أصرت على الرفض .

ولن نستطيع أن ندرك مدى يأس مارى ومدى شعورها بفداحة الذنب ألا إذا تذكرنا أنها قضت فى الأسر قرابة تسعة عشر عاما . وكان مكان احتجازها يتغير ، باستمرار ، مخافة أن العطف الذى يشعر به نحوها أهالى البلاد المجاورة أو سجانوها ، يأتى بمؤامرات أخرى أو يغرى بها ، وكانت شروط احتجازها تتسم بالروح الانسانية ، حيث سمح لها بتسلم معاشها — الفرنسى — ١٢٠٠ جنيه سنويا — وأعطتها الحكومة الانجليزية مبلغاً محترما للطعام والعلاج الطبى والخدم ووسائل الترفيه وسمح لها بحضور القداس وغيره من الصلوات الكاثوليكية ، وحاولت أن تشغل الساعات الطوال بالتطريز والقراءة ، وفلاحة البستان واللعب مع كلابها المدللة ولما تلاشت آمالها فى الحرية ، فقدت حرصها على العناية بنفسها ، ولم تتريض إلا قليلا ، وأصبحت مترهلة بدينة ، وأصيبت بالروماتيزم ، وتورمت رجلاها فى بعض الأحيان إلى حد لا تستطيع معه المشى . وفى ١٥٧٧ ، وهى بنت الخمسة والثلاثين عاما فقط ، ابيض شعرها فغطته بشعر مستعار .

وعرضت ، فى يونية ١٥٨٣ ، أن تنزل عن أى حق لها فى تاج إنجلترا ، إذا أطلق سراحها ، وألا تتصل بمتآمرين قط ، وأن تعيش فى أى مكان فى إنجلترا تختاره اليزابث ، وألا تبتعد عن مقر إقامتها بأكثر من عشرة أميال . وأن تخضع لرقابة جيرانها واشرافهم. ولكن أشير على اليزابث بألا تثق فيها.

واستأنفت مارى مشروعات الهرب ،وبعدة وسائل يائسة متنوعة سعت إلى الاتصال

بسفيرى فرنسا وأسبانيا وحكومتيهما. وبأنصارها فى اسكتلنده وبممثلى البابا . وكانت الرسائل تهرب منها وإليها فى ثياب الغسيل وفى الكتب، وفى العصى ، وفى الشعر المستعار ، وفى بطانة الأحذية . ولكن جواسيس سيسل وولسنهام كشفوا عن كل مؤامرة فى حينها . وحتى بين الطلبة والقساوسة فى كلية الجزويت فى ريمس ، كان لولسنهام عملاء ووكلاء يبلغونه بكل شىء .

ولكن الهالة الرومانسية التى أحاطت بمارى الأسيرة حركت الشفقة والعطف فى قلوب كثير من الشبان الانجليز ، كما ألهبت حماسة الشبان الكاثوليك . وفى ١٥٨٣ دبر فرانسيس ثروكمورتون ، وهو كاثوليكى ، وابن أخت المغفور له سفير اليزابث لدى فرنسا ، دبر مؤامرة أخرى لإطلاق سراح مارى ، ولكن سرعان ما كشف أمره وعذب حتى اعترف . وصرخ مولولا : « لقد كتمت كل أسرارها ، تلك التى كانت أعز ما لدى فى هذه الدنيا بأسرها[٥٩] » . ومات بضربة من فأس الجلاد وهو فى سن الثلاثين .

وبعد ذلك بعام واحد ، أقنع وليم بارى parry ، وهو أحد الجواسيس الذين يعملون فى خدمة سيسل ، أقنع القاصد الرسولى فى باريس ، بأن يقدم إلى جريجورى الثالث عشر طلبا بالغفران التام ، على أساس أنه سوف يقدم على محاولة خطيرة لإطلاق سراح مارى ستيوارت وإعادة انجلترا إلى حظيرة الكاثوليكية . ورد وزير البابا (٣٠ يناير ١٥٨٤) بأن قداسته اطلع على التماس بارى ، وابتهج لما اعتزم القيام به ، وأنه سيرسل إليه الغفران المطلوب ، ويكافئه على جهوده[٦٠] . وحمل بارى هذا الرد إلى سيسل . واتهم جاسوس انجليزى آخر — يدعى ادموند نفيل — اتهم بارى بتحريضه على قتل اليزابث . وقبض على بارى ، واعترف ، فشنق ، ومزقت أوصاله[٦١] ، وهو لا يزال ينبض بالحياة .

ولما اشتد غضب مجلس الملكة اليزابث بهذه السلسلة الطويلة من المؤامرات ، وجزع وفزع لمقتل وليم أورانج ، صاغ « التعهد بالتكاتف والترابط » ، يتعهد الموقعون عليه بألا يرتضوا قط خلفا لمليكتهم ، أى شخص جرت لمصلحته أية محاولة للقضاء على اليزابث ، وأن يعذبوا حتى الموت أى فرد اشترك فى مثل هذه

المحاولة . ووقع هذا التعهد كل أعضاء المجلس ومعظم أعضاء البرلمان ، كما وقعه ذوو المكانة فى طول انجلترا وعرضها ؛ وبعد سنة أسبغ البرلمان على هذه الوثيقة صفة القانون النافذ المفعول أو المعمول به .

ولكن هذا لم يحل دون مزيد من المؤامرات . ففى ١٥٨٦ أغرى جون بللارد وهو قسيس كاثوليكى رومانى ، أنتونى بابنجتون ، وهو شاب ثرى كاثوليكى ، أغراه بتدبير مؤامرة لقتل اليزابث وغزو انجلترا بجيوش من فرنسا وأسبانيا والأراضى المنخفضة ، وتنصيب مارى على العرش . وكتب بابنجتون إلى مارى بهذا ، وأبلغها أن ستة من النبلاء الكاثوليك اتفقوا على التخلص من مغتصبة العرش ، وسألها إقرارا للخطة . وفى خطاب مؤرخ فى ١٧ يولية ١٥٨٦ قبلت مارى مقترحات بابنجتون ، ولم توافق موافقة صريحة على قتل اليزابث ، ولكنها وعدت بالمكافأة عند نجاح المشروع (٦٢) . وكان الرسول الذى عهد إليه سكرتيرها بحمل هذا الرد عميلا سريا لولسنهام . فأخذ صورة من الرسالة وأرسلها إلى ولسنهام ، وأرسل أصل الرسالة إلى بابنجتون . وفى ١٤ أغسطس قبض على بابنجتون وبللارد ، وبعد ذلك بقليل أودع السجن نحو ثلثمائة من أبرز الكاثوليك ؛ واعترف الزعيمان ، وأغرى سكرتير مارى بالاعتراف بصحة خطابها (٦٣) . وأعدم ثلاثة عشر من المتآمرين ، وأطلقت الصواريخ النارية فى سماء لندن ، ودقت النواقيس . وأنشد الأطفال التسابيح شكرا لله على نجاة الملكة اليزابث . ودوت الصيحات فى انجلترا البروتستانتية تطالب بالموت لمارى :

وفتشت حجرات مارى ، وجمعت كل أوراقها ، وفى أكتوبر نقلت إلى قلعة فوذرنجاى Fotheringay . وهناك جرت محاكمتها أمام لجنة مؤلفة من ثلاثة وأربعين من النبلاء . ولم يسمح لها بندب من يدافع عنها ، ولكنها دافعت عن نفسها فى عزم وإصرار . وأقرت باشتراكها فى مؤامرة بابنجتون ، ولكنها أنكرت إقرارها للقتل ، واحتجت بأنها ، كانسان سجن ظلما وعدوانا لمدة تسعة عشر عاما ، لها كل الحق فى تخليص نفسها بأية وسيلة كانت . وأدانتها اللجنة بالاجماع . وطلب البرلمان إلى اليزابث أن تصدر أمرها باعدامها . ولكن هنرى الثالث ملك فرنسا قدم طلبا مهذبا

للرأفة . ولكن اليزابث قالت إن مثل هذا الطلب جاء بسند ضعيف من حكومة ذبحت آلافاً من البروتستانت دون محاكمة . ودافع معظم إسكتلنده الآن عن مليكتهم ، ولكن ابنها قام بوساطة تعوزها الحماسة ، حيث ارتاب فى أنها أنكرته وتبرأت منه فى وصيتها لأنه بروتستانتى . وأوعز ممثله فى لندن إلى ولسنجهام إلى أنه — ابنها ، جيمس السادس — ولو أنه حريص على ألا تقتل أمه ، سوف يعتبر الموضوع منتهياً ، ويقنع بأن يثبت البرلمان الانجليزى حقه فى أن يخلف اليزابث على العرش ، وتزيد اليزابث من مبلغ المعاش الذى ترسله إليه . وضيع الإسكتلندى المحاذر الحريص — الوقت سدى ، بدافع من الطمع شديد ، إلى حد أن أهالى إدنبره كانوا يطلقون عليه صيحات الاستهزاء والاستهجان ، وينعبون كالبوم فى الشوارع(٦٤) . ولم يبق بين مارى وبين الموت إلا تردد اليزابث .

وانقضت قرابة أشهر ثلاثة تجرر الأيام فيها أذيالها متثاقلة ، قبل أن تحزم اليزابث المنهوكة المنزعجة أمرها ، ثم لم تفعل شيئاً . كانت قادرة على السماحة والرحمة : ولكنها سئمت حياة الفزع من أن يعاجلها بالقتل فى أية لحظة أنصار امرأة تدعى حقاً فى عرشها ، كما وضعت فى اعتبارها خطر غزو انجلترا من جانب فرنسا وأسبانيا وإسكتلنده احتجاجاً على إعدام ملكة ، كما فكرت فى إمكان موتها هى ، ميتة طبيعية أو بيد أثيمة ، وفى وقت يتيسر فيه لمارى وللكاثوليكية أن ترثا انجلترا . وحثها سيسل على توقيع التصديق على حكم الإعدام ، ووعد بأن يتحمل هو كل مسئولية نتائجه ، وفكرت فى أن تتفادى هى الحسم فى الموضوع بالإلماع إلى سير أمياس بولت Amias Paulet ، المعين لحراسة مارى ، بأنه يمكنه أن يضع حداً لهذا الارتباك ، بأن يأمر بإعدام مارى ، بناء على مجرد فهم شفوى بأن الملكة أو مجلسها يرغبان فى ذلك . ولكن بولت أبى أن يتصرف دون أمر كتابى من اليزابث ، وأخيراً وقعت التصديق على الحكم ، وحمله سكرتيرها وليم دافيسون إلى المجلس الذى أرسله فى الحال إلى بولت قبل أن تغير اليزابث رأيها .

أما مارى التى كانت طيلة هذا الإمهال الطويل ، قد عاودها الأمل ، فإنها لم تصدق النبأ فى بداية الأمر ، ثم واجهته بشجاعة . وكتبت إلى اليزابث رسالة مؤثرة ،

سألتهافيها أن تسمح « لخدمى البؤساء الذين باتوا بلا صديق أو معين ». أن ينقلوا رفاتى ليدفنوها فى أرض مقدسة ، مع سائر ملكات فرنسا » : وقيل إنها فى صباح اليوم الذى أعدمت فيه ، نظمت باللاتينية قصيدة قصيرة ، تشيع فيها كل الحماسة والرشاقة اللتين تتسم بهما ترانيم العصور الوسطى :

يا إلهى لقد وضعت كل أملى فيك
أنقذنى الآن يا يسوع العظيم ،
إنى أرسف فى الأغلال وأعانى أشد الآلام ، إنى أضرع إليك ،
متلهفة باكية راكعة ، أسبح بحمدك ، وأتوسل إليك
أن تخلصنى .

وطلبت أن يسمح لها بالاعتراف أمام كاهنها الخاص الكاثوليكى ، فلم تجب إلى طلبها ، وأحضر لها سجانوها بدلا منه قسيساً أنجليكانياً ، فرفضته : وارتدت الملابس الملكية لتقابل بها الموت ، وصففت شعرها المستعار بعناية ، وغطت وجهها بخمار أبيض ، وتدلى من عنقها صليب ذهبى ، كما كان فى معصمها صليب من العاج : وتساءلت لماذا منعت وصيفاتها من شهود إعدامها ، فقيل لها إنهن قد يحدثن اضطراباً ، فوعدت بأنهن لن يفعلن شيئاً . فرخص لها أن تصحب اثنتين منهن وأربعة رجال ؛ وسمح لنحو ثلثمائة من الإنجليز بأن يشهدوا تنفيذ الإعدام ، فى القاعة الكبرى فى حصن فوذرنجاى (٨ فبراير ١٥٨٧) وسألها اثنان من الجلادين المقنعين مغفرتها ، وتلقياها منها . ولما بدأت وصيفتاها فى الصراخ والعويل منعتهما قائلة « لقد تعهدت بالنيابة عنكما » ، ثم ركعت وصلت ووضعت رأسها فى المقصلة ، وسقط الشعر المستعار عن رأسها المفصول عن جسدها ، وكشف عن شعرها الأشيب : وكانت فى سن الرابعة والأربعين .

الصفح والمغفرة للجميع ، والعفو والمغفرة لمارى التى بذلت الجهد بشجاعة لتكون ملكة عادلة بهيجة على حد سواء : ولسنا نعتقد أنها ، وهى التى سهرت طويلا على العناية بزوجها حتى استرد صحته وعافيته ، كانت قد رضيت عن قتله ، ويمكن أن نصفح عن المرأة الشابة التى تخلت عن كل شىء مقابل حب مهما كان

طائشاً ، وينبغي أن نرثي للمرأة البائسة التي تخلى عنها أصدقاؤها ، والتي قدمت إلى انجلترا تلتمس ملجأ وملاذاً ، فلاقت بدلا منه تسعة عشر عاماً في غيابة السجن ، ويمكننا أن ندرك محاولاتها الجبارة لاسترداد حريتها . كما يمكن كذلك أن نغفر للملكة العظيمة (اليزابث) التي أصر مستشاروها على أن احتجاز ماري بين جدران السجن ، أمر حيوي بالنسبة لأمن انجلترا وسلامتها ، والتي رأت أن حياتها وسياستها مهددتان دوماً بالمؤامرات من أجل إطلاق سراح منافستها ، ماري ، وإعادتها إلى العرش ، والتي أطالت مدة هذا الأسر البغيض القاسي ، والتي لم تقنع نفسها بإنهائه بالتصديق على إعدام ماري . وكانتا امرأتين نبيلتين ، الواحدة منهما نبيلة سريعة الانفعال ، والأخرى نبيلة وحكيمة عاقلة مع شيء من التردد . وترقد كلتاهما الآن في انسجام ، الواحدة قرب الأخرى ، في كنيسة وستمنستر وقد سويت الخلافات بينهما ، في ظل الموت والسلام .

الفصل السادس

جيمس السادس والأول

١٥٦٧ — ١٦٢٥

جيمس السادس ملك اسكتلنده ١٥٦٧ — ١٦٠٣

توج جيمس السادس ملكا على اسكتلنده (٢٩ يولية ١٥٦٧) حين كان عمره ثلاثة عشر شهرا، حين كانت أمه سجينة فى لوكليفن . وكان عمره ثمانية أشهر حين قتل دارنلى الذى يفترض أنه والده ، كما كان يبلغ من العمر عشرة أشهر حين رأى أمه للمرة الأخيرة، ولم تعد له إلا اسما وخيالا تغشيه وتلطخه مأساة بعيدة مزرية . وتربى على أيدى لوردات نهازين باحثين عن مصلحتهم ومعلمين معادين لأمه : وتلقى قدرا كبيرا من العلوم الانسانية ، وقـدرا أكبر مما ينبغى فى اللاهوت ، وقدرا ضئيلا جدا فى الأخلاقيات ، حتى أصبح أعظم العلماء المسرفين فى الشراب فى أوربا .

وتولى الحكم باسمه أربعة أوصياء على العرش على التوالى — مورى ، لنوكس ، مار ، ثم مورتون ، وكلهم عدا واحـدا ، ماتوا ميتة غير طبيعية : ودافعت جماعات النبلاء المتنافسة عن شخص الملك حصن سلطانهم وقوتهم : وفى ١٥٨٢ احتجزه بعض اللوردات البروتستانت تساندهم الكنيسة الاسكتلندية الوطنية ، فى قلعة رثفن Ruthven خشية أن يخضع لنفوذ قريبه الكاثوليكى ازمى ستيوارت ، فلما أطلق سراحه وعد بالدفاع عن العقيدة البروتستانتية ، ووقع تحالفا مع انجلترا البروتستانتية ، ولما بلغ السابعة عشرة من العمر ، نهض بالمهام الفعلية للملك .

وكان شاذا بين الملوك : وكان سلوكه خشنا غير مهذب ، وكانت مشيته بشعة ، وصوته عاليا ، وكان حديثه محنة يبتلى بها سامعه لما فيه من الغلظة والحذلقة المفتقرة

إلى الحكمة . وقال أحد المراقبين الذين لا يكنون له كثيرا من الحب : « كانت معرفته باللغات والعلوم وشئون الحكم أكثر من أى فرد فى اسكتلنده(١) » ولكن نفس المراقب أضاف : « أنه كان مغرورا بشكل غير عادى » . وربما كانت هذه السمة أو الميزة ضرورية للمحافظة على الحياة فى خضم من المتاعب ، بقدر ما هى المظهر المضلل لرجل لا يستطيع أن يسترجع فى ذاكرته يوما لم يكن فيه ملكا . ولابد أن يتحلى بشىء من الذكاء المتقد ليحتفظ بتاجه على رأسه فى اسكتلنده ، ويلبس تاجا أعظم فى انجلترا حتى يموت ميتة طبيعية . وكان متقلبا إلى حد ما بالنسبة للجنس ، فتزوج من الأميرة الدنمركية الكاثوليكية ، آن ، ولكن لم يكن به ميل شديد إلى النساء ، وانغمس فى التودد إلى المحظيات إلى حد ساعد على القيل والقال .

وكان عليه أن يشق طريقه بالحيلة والدهاء وسط الأفكار العنيفة المتصارعة فى أيامه . فان أسرة جيز فى فرنسا ، والملك فيليب فى أسبانيا ، والبابا فى رومه ، تعاهدوا معه على استعادة اسكتلندة إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية . ولكن الكنيسة الاسكتلندية الوطنية كانت تحسب عليه أنفاسه خشية أن ينحرف عن مذهب كلفن . ولكنه لم يحرق الجسور من خلفه ، فتبادل الرسائل المهذبة مع الدول الكاثوليكية ، وكان به ميل إلى تخفيف القوانين المفروضة على العبادة الكاثوليكية فأطلق خفية سراح أحد الجزويت ، وتواطأ فى تهريب آخر(٢) . ولكن المؤامرات الكاثوليكية أغضبته ، وأثرت فيه البروتستانتية الظافرة فى انجلترا . وتنبأ بما قدر له مع الكنيسة الوطنية الاسكتلندية .

ولم تكن هذه الكنيسة رفيقا مشجعا مريحا ، وما حلت سنة ١٥٨٣ حتى كان قساوستها يشكلون الأغلبية العظمى من رجال الدين الاسكتلنديين ، وكانت مواردهم ضعيفة وحظهم من علوم الدنيا ضئيلا ، ومن ثم انصرفوا إلى العبادة والورع والتقوى ، وتحلوا بالشجاعة والاقدام ، وكدوا وجدوا فى إعادة الكنائس المهملة ، ونظموا المدارس ، وتولوا أمر الصدقات ، وحموا الفلاحين من ظلم اللوردات ، وألقوا المواعظ المسهبة التى استوعبها ووعاها مستمعوهم ، بدلا من الكتب والمادة

المطبوعة . وفى جلسات الكنيسة وفى المجامع الإقليمية وفى الجمعية العامة . حظى الاكليروس الجديد بقوة تنافس تلك القوة التى كانت هيئة الكنيسة الكاثوليكية قد استخدمتها ضدهم ببراعة . ولما كانوا يزعمون أنهم يتلقون الوحى من عند الله، ومن ثم فانهم معصومون من الخطأ فى ناحية العقيدة أو فى الناحية الأخلاقية ، فانهم فرضوا على السلوك العام والخاص رقابة أقسى بكثير منها على عهد حراس أو حماة المذهب القديم المتراخين . وفى كثير من المدن فرضوا غرامات على الاسكتلنديين الذين لم يحضروا الصلوات البروتستانتية ، وفرضوا توبة علنية ، وفى بعض الأحيان عقوبات بدنية ، على مايضبط من خطايا[٣] . وروعوا بانتشار الفجور والزنى ففوضوا رؤساء الكنائس ، فى أن يتنبهوا بتشديد خاص إلى أية انحرافات جنسية ، وأن يبعثوا بتقارير عنها إلى المجامع الكنسية البروتستانتية عند انعقادها ، وصعقوا بالفحش والفجور فى المسرح الإنجليزى فسعوا إلى تحريم التمثيل المسرحى فى سكتلنده ، فلما عجزوا عن ذلك ، حظروا على أتباعهم أن يشهدوه ، وفعلوا مافعله أسلافهم من اعتبار الهرطقة جريمة عقوبتها الاعدام . وتعقبوا السحرة فى حماسة بالغة وأقروا إعدامهم حرقا[٤] . وأقنعوا البرلمان بأن يصدر قانونا يفرض عقوبة الإعدام على أى قسيس يقرأ القداس ثلاث مرات ، ولكن هذا المرسوم لم يطبق على أية حال ، وعندما ترامت إليهم أنباء مذبحة سانت برثلميو ، دعت الكنيسة الاسكتلندية البروتستانتية إلى تدبير مذبحة مماثلة للكاثوليك فى اسكتلندة ، ولكن الحكومة أغفلت هذا النداء[٥] .

وباستثناء ادعاء نزول الوحى على القساوسة وعصمتهم من الخطأ ، كانت الكنيسة الوطنية الاسكتلندية (البروتستانتية) أكثر النظم ديمقراطية فى عصرها . وكان قسيسو الدوائر أو الأقسام يختارون رؤساء الكنائس شريطة موافقة شعب الكنيسة ، وكان جمهور المؤمنين يشهدون الجلسات والمجامع والجمعية العامة . وأهاجت وأغضبت هذه الإجراءات الديمقراطية البرلمان الارستقراطى والملك الممسوح بالزيت . ولما كان جيمس يفكر ويجادل — وربما يعتقد ويؤمن — فى أنه يحكم بمقتضى الحق الإلهى ، فانه شكا من أن « جماعة من القساوسة الملتهبين حماسة وغيرة

فى الكنيسة البروتستانتية ، ملكوا قيادة الشعب على هذا النحو ، وأنهم عندما استساغوا طعم الحكم وتلذذوا بحلاوته ، بدأوا يفكرون فى شكل ديموقراطى ... لقد شوهوا سمعتى وافتروا على فى مواعظهم ، لا لأية رذيلة فى شخصى ، بل لأنى ملك اعتبروه أكبر رذيلة(٦) » . وبذلك استؤنف نزاع العصور بين الكنيسة والدولة .

واتخذ النزاع آنذاك شكل هجوم أو حملة من القساوسة على الأساقفة . وكان هؤلاء — وهذا تراث كاثوليكى للكنيسة الاسكتلندية البروتستانتية — يختارون شكلا بواسطة القساوسة ولكن كانوا فعلا يعينون ، وغالبا ما يفرضون على الاكليروس بواسطة الوصى أو الملك . وكانوا يسلمون قدرا كبيرا من إيرادات الكنيسة إلى الحكومة . ولم يجد القساوسة فى الكتب المقدسة سندا أو أساسا للنظام الأسقفى ، ومن ثم عقدوا العزم على التخلص منه فى اسكتلنده ، على أنه لا يلتئم مع التنظيم الشعبي السائد فى الكنيسة الاسكتلندية الوطنية الجديدة .

وكان زعيمهم أندرو ملفيل ، اسكتلنديا عنيفا متحمسا هيأته الطبيعة ليرث عباءة جون نوكس . وبعد أن أنهى تعليمه الجامعى فى سانت أندروز ، تابع دراسته فى باريس ، ورضع لبان مذهب كلفن على يد بيز Béze فى جنيف . ولدى عودته إلى اسكتلنده (١٥٧٤) عين ، وهو فى التاسعة والعشرين من العمر ، رئيسا لجامعة جلاسجو ، فأظهر مقدرة وكفاية فى إعادة تنظيم المناهج . وقواعد الضبط والسلوك فيها . وفى ١٥٧٨ أسهم فى جمع « الكتاب الثانى لقواعد الانضباط والسلوك » الذى ندد بالنظام الأسقفى باسم المساواة الكهنوتية . ودافع عن الفصل النهائى بين مجالات كل من الكنيسة والدولة . وكان لهذا أثره فى الفصل بينهما فى الولايات المتحدة ، ولكنه طالب بحق القساوسة فى تدريب الحكام المدنيين على ممارسة سلطاتهم « على أساس كلمة الله(٧) » . على أن جيمس ، على أية حال ، أراد أن يكون حاكما مطلقا مثل هنرى الثامن واليزابث ، وآمن بأن نظام الأساقفة ضرورى للادارة الكنسية ، كما أنهم وسطاء مريحون بين الكنيسة والدولة ؛

وفى ١٥٨٠ « لعنت » الجمعية العامة للكنيسة الوطنية الإسكتلندية (البروتستانتية) وظيفة الأسقف ودمغتها بأنها «حماقة من ابتداع الإنسان » . وصدر الأمر إلى جميع الأساقفة — تحت التهديد بعقوبة الحرمان من الكنيسة ، بأن يكفوا عن مباشرة أعمالهم ، والتقدم إلى الجمعية العامة بطلب الترخيص لهم بأن يكونوا مجرد كهنة عاديين، ونبذت الحكومة « الكتاب الثانى لقواعد السلوك والانضباط » ، وتمسكت بأن الحرمان من الكنيسة لا يصبح نافذ المفعول إلا إذا صدقت عليه الدولة . وفى ١٥٨١ رشح لنوكس ، وكان آنذاك وصياً على العرش ، روبرت مونتجمرى رئيساً لأساقفة جلاسجو . ولكن قساوسة جلاسجو البروتستانت أبوا أن ينتخبوه ، ولكنه على الرغم من هذا أصر على أن يتولى مهام منصبه ، فقررت الجمعية العامة بزعامة ملفيل حرمانه من الكنيسة (١٥٨٢) ، ورضخ مونتجمرى وانسحب . واتهم ملفيل بالتحريض على (الفتنة) ، فرفض المحاكمة المدنية ، وطالب بأن يحاكم أمام محكمة كنسية . ولما أدين بتهمة احتقار المحكمة ، هرب إلى انجلترا (١٥٨٤) . وأقنع جيمس البرلمان بأن يعلن أنه يعتبر خيانة : رفض الخضوع للقضاء المدنى ، وتدخل القساوسة فى شئون الدولة ، ومقاومة حكومة الأساقفة ، وأية اجتماعات كنسية لا يرخص الملك بعقدها : فآثر كثير من القساوسة أن يلحقوا بملفيل فى منفاه ، على الامتثال لهذه الأوامر . فما كان من جيمس ، تمسكاً بسيادته العليا واستمتاعاً بها ، إلا أن أمعن فى حكم الإرهاب : فعوقب الكهنة لأنهم صلوا من أجل إخوتهم المنفيين ، وأعدم اثنان آخران بتهمة التآمر .

وقاوم رجال الدين والمترددون على كنائسهم ، بما عهد فى الاسكتلنديين من عناد وصلابة ، وشوهت النشرات التى لم يعرف مصدرها سمعة الملك . ونددت الأغانى بطغيانه والعار الذى لحق به من أجله ، وحتى النساء كن له نقداً ساخراً لاذعاً ينذرنه فيه بالجحيم وسوء المصير . وتناقص شيئاً فشيئاً ما كان يحصل عليه أساقفته من الأموال ، وسلموا الدولة منها الأقل فالأقل ، ووجد جيمس أنه بات صفر اليدين ، بلا مال — وهو مصدر قوة إرادته ، واشتد ضعفه سنة بعد أخرى ، وأقر برلمان ١٥٢٩ ، بموافقته التامة ، مرسوماً يحتفظ للكنيسة الإسكتلندية الوطنية (البروتستانتية)

بحريتها ، ويعيد إليها سلطاتها فى الشئون القضائية والضبط ، ويلغى نظام الأساقفة : وعاد المنفيون .

وإذ اشتدت جرأة ملفيل عن ذى قبل ، واجه جيمس بقوله : « خادم الرب الأبله » ، وألقى عليه الحقيقة اللاهوتية التى لا ريب فيها ، فى ١٥٩٦ ، بمثل الثبات ورباطة الجأش اللتين واجه بهما جريجورى السابع الامبراطور هنرى الرابع قبل ذلك بخمسمائة عام (١٠٧٧) فقال : « إن فى إسكتلندة ملكين ومملكتين . فهناك يسوع المسيح ومملكته ، وهى فى الكنيسة ، وأحد رعاياها الملك جيمس . . . وما هو بملك ولا رئيس ولا لورد ، ولكن مجرد عضو[٨] » . وقال — دافيد بلاك — وهو قسيس كنيسة سانت أندروز ، لجماعة المصلين (١٥٩٦) إن جميع الملوك أبناء للشيطان ، وأن اليزابث كافرة ملحدة ، وأن جيمس هو الشيطان بعينه[٩] . واحتج السفير الإنجليزى ، واستدعى مجلس الشورى القس بلاك للتحقيق ، فأبى أن يذهب قائلا إن الجرم الذى يرتكب من فوق المنبر لا يخضع إلا لمحكمة الكنيسة ، هذا فضلا عن أنه تلقى رسالته من عند الله . وأمر جيمس بمحاكمته غيابياً . فذهبت إليه لجنة من القساوسة ، ولكن الملك لم يعالج الأمر بنجاح ، بل على العكس ، طالب بأن تخضع لتصديقه كل قرارات الجمعية الكنسية والبرلمان . ودعا القساوسة إلى صوم عام ، وأعلنوا منذرين متشائمين ، أنه مهما حدث من شىء « فإنهم أبرياء من دم جلالته[١٠] » .

وتجمع حشد من المشاغبين حول المبنى الذى كان يقيم فيه جيمس (١٧ ديسمبر ١٥٩٦) فهرب إلى قصر هوليرود . وفى صباح اليوم التالى غادر إدنبره مع كل حاشيته . وأعلن إلى سكانها ، عن طريق مناد ينطق باسمه ، أنها لم تعد تصلح لتكون عاصمة ، وأنه لن يعـود إليها إلا لتنفيذ الحكم على الثوار والعصاة ، وأمر كل الاكليروس وغير المتوطنين بمغادرة المدينة . ولما لم يجد المشاغبون أحداً ليقتلوه ، تفرقوا . وحزن التجار على فقدانهم ما كان يعود عليهم من ربح فى التعامل مع الحاشية . وتساءل المواطنـون فى دهشة : هل كان النزاع يستحق الاستشهاد الاقتصادى ، وعاد جيمس إلى المدينة فى ظفر مشوب بالغضب (١ يناير ١٥٩٧) ،

وعرضت الجمعية العامة المنعقدة فى برث ، خضوع الكنيسة الوطنية الإسكتلندية ، ووافقت على ألا يعين أى قسيس فى المدن الرئيسية دون موافقة الملك وشعب الكنيسة ، وألا يتعرض القساوسة فى خطبهم لقرارات البرلمان أو مجلس الشورى ، وألا يهاجموا شخص أى إنسان من فوق المنبر . وسمح للقساوسة البروتستانت بعد ذلك بالعودة إلى العاصمة (١٥٩٧) . ولكن أعيد نظام الأساقفة . وغطت هدنة كئيبة منكودة على الحرب القديمة بين الكنيسة والدولة .

وبرزت فى الأدب الإسكتلندى تلك فى الحقبة شخصيتان عظيمتان : الملك نفسه ، وأشهر معلميه . وكانت سيرة حياة جورج بوكانان مدهشة ، فقد ولد فى سترلنجشير فى ١٥٠٦ ، ودرس فى باريس ، وخدم العلم فى فرنسا واسكتلندة ، ونهل الحماسة الفلسفية والسياسية من محاضرات جون ميجور ، وعاد من أجل الحب والعلم إلى باريس : ورجع أدراجه إلى اسكتلندة هرطيقاً هجاء لاذعاً ، وأودعه السجن الكاردينال بيتون ، فهرب إلى بوردو ، وقام هناك بتدريس اللاتينية ، وكتب قصائد ومسرحيات بلغة لاتينية جيدة إلى حد كبير ، وشاهد تلميذه مونتانى يمثل فى إحدى هذه الروايات ، ورأس إحدى الكليات فى كوامبرا ، وسجنته محكمة التفتيش الأسبانية لسخريته من الأخوة (فى فرقة دينية) ، وعاد إلى إسكتلندة وفرنسا ، ثم اسكتلندة حيث تولى تعليم مارى ملكة إسكتلندة (١٥٦٢) ، وعين رئيساً للجمعية العامة (١٥٦٧) وأعلن صحة « رسائل الصندوق الفضى » واتهم بتزييف قسم منها[1] . وأدان — مارى بلا هوادة ولا رحمة فى كتابه « كشف النقاب عن حكم مارى » (١٥٧١) وتولى التدريس لابنها على الرغم من اعتراضها على ذلك ، وتخلى عن هذه المهمة (١٥٨٢) . وجد وجاهد فى كتابه « تاريخ إسكتلندة » (١٥٧٩) لتخليص تاريخ بلاده من « القيود الإنجليزية والغرور الإسكتلندى » : وأكد من جديد فى رسالته « الحكم الشرعى فى إسكتلنده » — على الرغم من تلميذه الذى سيصبح عما قريب ملكاً مستبداً — أكد نظرية العصور الوسطى القائلة بأن المصدر الوحيد للسلطة السياسية ، بعد الله ، هو الشعب ، وأن كل مجتمع يرتكز على عقد اجتماعى ضمنى يقوم على التزامات وقيود متبادلة بين المحكومين والحكام ،

وأن لإرادة الأغلبية ، بحق ، أن تحكم الكل ، وأن الملك يجب أن يخضع للقوانين التي يقرها ممثلو الشعب ، وأنه يمكن بحق أيضا مقاومة الطاغية أو عزله أو قتله(١٢) .
فأنت ترى أن أسطورة العقد الاجتماعي ظهرت هنا قبل هوبز بقرن من الزمان ، وقبل مجيء روسو بقرنين . وشجب البرلمان الاسكتلندي كتاب بوكانان ، وأحرقته جامعة أكسفورد ، ولكن كان له أثر شديد . وذهب صمويل جونسون إلى القول بأن بوكانان هو العبقري الوحيد الذي أنجبته اسكتلنده(١٣) . وأسبغ هيوم ، في تواضع ، هذا الامتياز على نابيير (عالم رياضيات اسكتلندي ١٥٥٠ — ١٦١٧ ، مخترع اللوغاريتمات) ، أما المؤرخ الاسكتلندي كارليل فقد خص به نوكس ، حيث كان من أشد المعجبين به . أما جيمس السادس فقد كان له آراؤه الخاصة في هذه المسألة .

وكان الملك مزهواً فخوراً بكتبه قدر زهوه وفخره بحقوقه وامتيازاته . وفي ١٦١٦ نشر مجلدا ضخما « أعمال الأمير الأعظم والأقوى جيمس » ، وهو مهدى إلى يسوع المسيح . وكتب قصائد ، ونصائح إلى الشعراء ، وترجمة « للمزامير » ، ودراسة لسفر الرؤيا ، ورسالة عن « الشياطين » وكتابين من (قطع الثمن) دفاعا من الملكية المطلقة ، أحدهما وهو « الهبة الملكية » (١٥٩٨) كان كتاب نصائح لابنه هنري في فن الحكم وواجباته ، أكد حكم الكنيسة على أنه « ليس بالجزء اليسير من مهمة الملك » . أما الثاني وهو « القانون الحقيقي للملكيات الحرة » فقد شرح فيه الحكم المطلق ودافع عنه في فصاحة هائلة : إن الملوك مختارون من عند الله ، مادامت الأحداث الهامة تفرضها العناية الإلهية ، وأن تعيينهم ومسحهم بالزيت يشكلان سرا مقدسا لا يجوز النطق به ، مثلهما في ذلك مثل أي سر مقدس آخر . ومن ثم كان لهم كل الحق في أن يكون حكمهم مطلقا ، وأن معارضتهم تعتبر حماقة ، وجريمة ؛ وإثما من شأنه أن يفضي إلى الضرر أكثر من أي طغيان . إن هذا الذي كان بالنسبة لاليزابث أسطورة نافعة ، أصبح بالنسبة لجيمس مبدأ عاطفيا ، ولد لأم ملكة . وورث عنه ابنه شارل النظرية ، ودفع الثمن أو تلقى القصاص .

ومهما يكن من أمر فان انجلترا لم تتنبأ في ١٥٩٨ بما حدث في ١٦٤٩ ، وبعد

أن شوب جيمس نحب البروتستانتية وتعهد بالتزامها ، اعترف مجلس شورى المملكة اليزابث به وريثا للتاج الانجليزى ، عن طريق أمه ماري . وبعد مضى أربعة أيام على وفاة اليزابث ، بدأ جيمس (٥ أبريل ١٦٠٣) رحلة بهيجة مرحة من ادنبرة إلى لندن ، وتوقف ، متمهلا ، فى الطريق ، ليحتفى به النبلاء الانجليز ، وفى ٦ مايو وصل إلى المدن التى أخذت زخرفها وأزينت للترحيب به — انحنت الجماهير له ، وقبل اللوردات يديه . وبعد ألف سنة من صراع عقيم لا غناء فيه اتحدت الأمتان (ولم يتحد البرلمانان قبل ١٧٠٧) وهكذا كان عقم اليزابث نافعا مثمرا .

٢ — جيمس الأول ملك انجلترا : ١٦٠٣ — ١٦١٤

أى صنف من الرجال كان قد أصبح جيمس فى سبع وثلاثين سنة ؟ كان متوسط القامة ، ذا رجلين ضعيفتين ، وكرش صغير ، يرتدى سترة ضيقة و بنطلونا محشوين أو مبطنين حتى يمنعا وصـــول نصال السفاحين إلى جسمه ، وكان شعره ذا لون أسمر بنى ، وخداه متوردين ، وأنفه مكور ، تشع من عينيه الزرقاوين نظرات الارتياب والحزن ، وكأنما كان الرب خجلا من جسمه . وكان كسولا نوعا ما ، فآثر الراحة من عناء العمل ، اعتمادا منه على اليزابث ، وكانت لغته فظة ، يتميز لهوه وتسليته بالخشونة ، وكان يتمتم ويتلعثم كثيرا ، وكثيرا ما كان لسانه الخشن يفلت بغير حساب . وكان مزهوا كريما ، جبانا مخادعا ؛ لأنه كثيرا ما تعرض للخطر ، وخدع وغرر به ، مستعدا لتبادل الإساءة ، وليصفح ويلتمس الصفح ، من ذلك أنه عندما أنكر جون جب أنه ضيع بعض الوثائق الهامة ، فقد جيمس صوابه ، وركله بقدمه ، فلما عثر على الأوراق ، جثا أمام معاونه الذى أخزاه وأذله ، وأبى أن ينهض حتى يصفح عنه جب . وكان متسامحا وسط جو من التعصب وعدم التسامح . وكان فى بعض الأحيان صلبا قاسيا ، ولو أنه عادة حنون عطوف . وكان يرتاب فى ابنه هنرى لشعبيته البالغة ، ويحب ابنه شارل إلى حد الحمق . ولم تشب علاقته بالنساء أية شائبة ، ولكنه كان ميالا إلى ملاطفة الشبان الوسيمين . وكان يؤمن بالخرافات ، كما كان عالما . وكان سخيفا لاذعا ، يؤمن بالعفاريت والسحرة فى الوقت الذى يعطف فيه على بيكون وجونسون ، نحسد العلمـــاء ،

ويولع بالكتب ، وإن من أول قراراته بوصفه ملكا أنه منح جامعتى أكسفورد وكمبردج حق إرسال ممثلين لهما إلى البرلمان . ولما رأى مكتبة بودلى صاح قائلا : « لو لم أكن ملكا لآثرت أن أكان جامعيا ، ولو قدر لى أن أسجن ، وكانت لى الخيرة من أمرى ، لما آثرت مكانا أسجن فيه غير هذه المكتبة ، ملازما لهؤلاء المؤلفين الأفاضل والأساتذة الذين قضوا نحبهم[١٤] . وصفوة القول انه كان رجلا يعوزه الاتزان والحزم ، إلى حد ما ، ولو أنه كان فى قرارة نفسه سمحا ودودا ، يسخر منه الأذكياء ، ولكن يغفر له قومه ، لأنه حتى اقتربت نهايته المحزنة ، وفر لهم الأمن والطمأنينة والسلام .

ولم يكن جيمس يحب الماء كثيرا إلى حد أنه كره استخدامه لأغراض الغسل : وكان يدمن على الشراب ، وأباح فى بعض حفلات حاشيته أن تسرف النساء والرجال فى الشراب حتى تلعب الخمر برءوس الجميع وينتهى الأمر إلى ثمل عاطفى. ودرجت الحاشية على الاسراف فى الملابس وفى الحفلات ، إسرافا لم يسبق له مثيل فى بلاط اليزابث . وكانت اليزابث تميل إلى التمثيليات التنكرية ، ولكن أما وقد كتب بن جونسون الرواية ، وصمم إنيجو جونز الملابس والمناظر ، وقام بالأدوار فيها اللوردات العظام والسيدات الفاتنات ، وكأنما ارتدى الجميع ، من شدة البذخ ، أموال المملكة ، فإن الفن الخرافى الغريب غير الواقعى بلغ الآن ذروته . وبلغ الاستهتار والخلاعة. والفساد فى البلاط مبلغاً لم يسبق له مثيل . حتى جاء على لسان سيدة فى إحدى روايات جونسون قولها . « أعتقد أننى إذا لم أجد من يحبنى غير زوجى المسكين ، فلسوف أشنق نفسى[١٥] » . وقبل أفراد الحاشية « هدايا » قيمة مقابل استغلال نفوذهم فى الحصول على المراسيم والتراخيص والاحتكارات والمناصب لمن يطلبها . من ذلك أن البارون مونتاجو دفع عشرين ألفاً من الجنيهات مقابل تنصيبه وزيراً للخزانة[١٦] . وروى بسند ضعيف ، أن رجلا حساساً رقيقاً مرض وفاضت روحه عند ما سمع كم دفع أصدقاؤه مقابل تعيينه قاضياً محلياً[١٧] .

ولم يول جيمس مثل هذه المسائل كلها اهتماماً كبيراً : ولم يجهد نفسه كثيراً فى شئون الحكومة : وترك إدارة البلاد لمجلس الشورى الذى يتألف من ستة من

الإنجليز ومثلهم من الإسكتلنديين ، والذى يرأسه روبرت سيسل الذى عينه إرل سالسبورى (١٦٠٥) : وورث سيسل كل شىء إلا الصحة . فقد أقعده عن الحركة ظهره الأحدب ، حتى بات منظره يبعث على الحزن والأسى . ولكنه تحلى بكل ما كان لأبيه من فطنة فى اختيار الرجال وتوجيههم ، وتشبث صامت وكياسة ماكرة ، تفوق بها جميعاً على منافسيه المحليين وعلى أفراد أى بلاط أجنبى . ولما مات « كلب الصيد الصغير » وقع جيمس تحت سيطرة شاب وسيم هو روبرت كار ، وعينه إرل سومرست ، فهيأ له أن يخلف فى مجال السياسة والإدارة ، من هم أكبر منه سناً ، وأكثر صقلا وعلما ، مثل فرانسيس بيكون وإدوارد كوك .

وكان كوك تجسيداً للقانون، وحارساً أميناً عليه ، اشتهرته محاكمته للورد إسكس فى ١٦٠٠ ، ورالى فى ١٦٠٣ ، والمشتركين فى مؤامرة البارود فى ١٦٠٥ ؛ وخرج على الناس فى ١٦١٠ برأى تاريخى :

> يبدو فى كتبنا أنه فى حالات كثيرة ، يطغى القانون العام
> على قرارات البرلمان ، وفى بعض الأحيان يعتبرها باطلة ؛
> لأنه إذا كان قرار البرلمان مخالفاً للحق العام أو العقل ؛ ؛ ؛ .
> أو يستحيل تطبيقه ، فإن القانون العام لا بد أن يلغيه أو
> يقضى عليه بالبطلان(١٨) .

وربما كان البرلمان لا يسيغ مثل هذا الرأى ، ولكن جيمس عين كوك رئيساً للمحكمة العليا (١٦١٣) وعضواً فى مجلس الشورى ؛ وانقلب من كونه رجل الملك ، إلى رجل يزعج الملك ويقض مضجعه ، يستنكر البحث أو التحقيق فى الآراء الخاصة ، ويؤيد حرية أعضاء البرلمان فى الكلام ، وتناول بالتجريح سلطة الملك المطلقة فى مذكرات لاذعة تؤكد أن الملوك ليسوا إلا خدماً للقانون . وفى ١٦١٦ اتهمه منافسه بيكون بارتكاب أعمال محظورة ، وعزل كوك ، ثم أعيد إلى البرلمان ليستمر فى تزعم حركة المقاومة ضد الملك ؛ وأودع سجن لندن ١٦٢١ ، ولكن سرعان ما أطلق سراحه ؛ ومات غير نادم (١٦٣٤) ، مخلصاً أشد الإخلاص لنصوص القانون

وصرامته ، وترك لنا أربعة مجلدات من « مجموعة القوانين » لا تزال تشكل مرجعاً هاماً فى القضاء الإنجليزى(*) .

وفى نفس الوقت كان جيمس يتابع مع البرلمان مناقشته التى كان لا بد أن تتمخض فى عهد ابنه عن الحرب الأهلية وقتل الملك . إنه لم يكتف بممارسة كل السلطات التى كان هنرى الثامن واليزابث قد سيطرتا بها على مشرعيهما المتذمرين أو الذين روعهم التهديد ، إنه صاغ دعاواه على أنها أوامر إلهية : فأعلن إلى برلمان ١٦٠٩ :

> إن مقام الملكية هو أسمى شىء على الأرض ؛ لأن الملوك لا يقومون مقام الله على الأرض ويجلسون على عرش الله ، فحسب ، بل إن الله نفسه يسميهم آلهة أو أرباباً . . . إن الملوك يسمون بحق آلهة ، لأنهم يمارسون شيئاً شبيهاً بالسلطة الإلهية على الأرض . فانكم لو تدبرتم فى صفات الله لوجدتموها مجتمعة ومتفقة فى شخص الملك : إن الله قادر على الخلق أو التدمير والإفناء ، على البناء والهدم ، وفق مشيئته ، يبعث الحياة أو يرسل الموت ، يحاسب كل الناس ولا يحاسبه أحد . . . وللملوك نفس القدرة أو القوة : إنهم يصنعون رعاياهم أو يحطمونهم ، ولهم القدرة ، ولهم الكلمة العليا على كل رعاياهم ، وفى كل الأمور ، ومع ذلك لا يحاسبهم أحد إلا الله وحده . ولهم السلطة فى أن يجعلوا . . . من رعاياهم قطع شطرنج يحركونها كيف شاءوا — فالبيدق يطيح

(*) يروى أن زوجة كوك الثانية – وهى أرملة سيروليم هاتون كانت حاملا عندما بنى بها كوك ؛ وعندما آوى إلى الفراش وضع يده على بطنها فلاحظ جنيناً يتحرك ؛ فسألها : « ما هذا ؟ لحم فى الوعاء ؟ » أجابت : « وإلا لما تزوجت طباخا » (هذا تلاعب بالألفاظ فى الإنجليزية Cook - Coke) ويمكن أن نضيف أنها كانت قد رفضت الزواج من منافسه بيكون .

باسقف أو بفارس — فيرفعون أياً من رعاياهم إلى عنان السماء
أو يخسفون به الأرض ، وكأنما يتصرفون فى أموالهم[٢٠] .

وكانت هذه خطوة إلى الوراء ، لأن النظرية السياسة فى العصور الوسطى ، كانت قد جعلت الملك دوما . نائباً عن الشعب صاحب السيادة . والبابوات فقط هم الذين أعلنوا أنهم نواب الله على الأرض ؛ ولكى نضفى على هذه الدعوى أفضل واجهة فلسفية ، يجدر بنا أن نفترض أن البابوات — بوصفهم الرؤوس العليا للسيادة والسلطان فى العصور الوسطى ، كانوا قد آمنوا بأن الدوافع الفردية فى الإنسان قوية إلى حد أن الإبقاء على النظام الاجتماعى لا يتأتى إلا بأن يغرس فى نفوس الناس ، إجلال تقليدى للسلطة الدينية ، وللبابوات بوصفهم صوت الله وممثليه . ولكن إضعاف الإصلاح الدينى للسلطة البابوية أو هدمها . كان قد ترك السلطات السياسية مسئولة فى المقام الأول ، أو فى النهاية ، عن النظام الاجتماعى . وحكم هؤلاء أيضاً بأن السلطة البشرية الخالصة عرضة للتحدى ؛ إلى درجة أنها لاتقوى على كبح جماح النزعات غير الاجتماعية فى الإنسان ، بطريقة فعالة أو من الناحيه الاقتصادية. ومن ثم نمت نظرية حق الملوك الالهى ،جنبا إلى جنب ، مع تطور القومية والانتقاص من سلطة البابوات . وبعد أن تولى الأمراء اللوثريون فى ألمانيا ، السلطات الروحية التى كانت للكنيسة القديمة فى بلادهم ، أحسوا بأنهم محقون فى أن يحيطوا أنفسهم بالهالة الالهية التى اعتقد معظم الحكام والملوك قبل ١٧٨٩ أنها أساسية لا يستغنى عنها للسلطة الأدبية والسلام الاجتماعى . وأخطأ جيمس فى التعبير عن هذا الافتراض بوضوح أكثر مما ينبغى ، وفى أشد صيغة تطرفا .

وكان من الجائز أن يتقبل البرلمان ، قبولا نظريا (مع ابتسامات خاصة) هذه الاستبدادية الملكية ، إذا كان أعضاؤه ، كما كان الحال مع البزابث وهى فى أوج عظمتها ، من كبار ملاك الأراضى — الذين كانوا مدينين لملوك التيودور بأعمال جليلة بطولية .ولكن مجلس العموم الآن كان يضم بين أعضائه البالغ عددهم ٤٦٧ عضوا ، كثيرا من ممثلى الطبقات التجارية الناشئة الذين لايستسيغون سيطرة ملكية بلاحدود على أموالهم — إلى جانب كثير من البيوريتانيين الذين ينكرون على الملك

دعواه فى أن يحكم دياناتهم . وحدد المجلس حقوقه فى إغفال جرئ لألوهية جيمس، أو حقوقه الإلهية . وأعلن أنه له القول الفصل فى صحة انتخاب أعضائه . وطالب بحرية الكلام ، وحصانة أعضائه ضد القبض عليهم فى أثناء انعقاده ، وأثبت أنه بغير هذا لا يكون للبرلمان أى معنى أو قيمة : واقترح أن يتولى التشريع فى المسائل الدينية ، وأنكر سلطة الملك فى الفصل فى مثل هذه المسائل دون موافقة البرلمان . على أن الأساقفة الأنجليكانيين على أية حال طالبوا بحق المجمع الكنسى الأنجليكانى فى الفصل فى الأمور الكنسية ، على أن تخضع قرارته لموافقة الملك . وأبلغ رئيس مجلس العموم جيمس أنه ليس للملك أن يسن قانونا ، ولكن يستطيع فقط أن يعتمد أو يرفض أى قانون يجيزه البرلمان : وأعلن المجلس فى يونية ١٦٠٤ : « أن امتيازاتنا وحرياتنا هى حقوقنا وتراثناالقانونى : : : وليست بحال من الأحوال أقل شأنا من أراضينا ومتاعنا . . . ولا يمكن انتزاعها منا ، دون أن يكون فى ذلك إساءة صارخة إلى المملكة بأسرها[٢١] » :

وهكذا نسجت خيوط النزاع التاريخى بين « حقوق » الملك و « امتيازات » البرلمان ، هذا النزاع الذى قدر له أن يخلق ديموقراطية انجلترا ، بعد مائة من السنين توالت فيها الانتصارات والهزائم :

٣ — مؤامرة البارود : ١٦٠٥

وفوق الصراع الاقتصادى والسياسى استعرت نار الحرب الدينية ، ضاربة فيه بجذور عميقة . وكانت معظم النشرات التى سممت الجو ، عبارة عن حملات عنيفة شنها البيوريتانيون على الأساقفة والطقوس الانجليكانية ، أو الانجليكانيون على صرامة البيوريتانيين وعنادهم ، أو شنها هؤلاء وهؤلاء على مؤامرات الكاثوليك لإعادة انجلترا إلى حظيرة البابوية . ولم يقدر جيمس فظاعة هذه البغضاء ، وكان يحلم « بوفاق شبه ودى » بين البيوريتانيين والأنجليكانيين ، ولهذا الغرض دعا زعماء الفريقين إلى مؤتمر فى « هامبتون كورت » (١٤ ينـاير ١٦٠٤) : ورأس هو الاجتماع ، وكأنه « قسطنطين آخر » ، وأدهش الطرفين كليهما بعلمه اللاهوتى

وبراعته فى الجدل والمناقشة ، ولكنه أصر على « مذهب واحد ، ونظام واحد ، وديانة واحدة شكلا وموضوعا[٢٢] » ، وأعلن أن النظـام الأسقفى أمر لا معدى عنه . وذهب أسقف لندن إلى أن الملك ملهم من عند الله ، « وأنه لم ير له مثيل منذ عهد المسيح[٢٣] » . ولكن البيوريتانيين شكوا من أن الملك تصرف وكأنه طرف فى الدعوى ، أكثر منه حكما أو قاضيا فيها ، ولم يتمخض المؤتمر عن شىء اللهم إلا القرار التاريخى الذى لم يكن يتوقعه أحد ، إلا وهو إعداد ترجمة جديدة للكتاب المقدس . وأصدر المجمع الكنسى الانجليكانى فى ١٦٠٤ بعض القوانين التى تطلب من كل رجال الدين اتباع قواعد الكنيسة الانجليكانية : وفصـل الذين رفضوا الامتثال ، وسجن آخرون ، واستقال كثيرون ، وهاجر فريق آخر إلى هولنده وأمريكا .

وجلب جيمس على نفسه الخزى والعار باحراق اثنين من طائفة الموحدين (الذين يرفضون التثليث ويقولون بالتوحيد) بتهمة الشك فى ألوهية المسيح ، برغم البراهين التى قدمها الملك إليهم (١٦١٢) . ولكنه أحسن صنعا فى أنه لم يجز بعـد ذلك الاعدام بسبب الخلاف الدينى ، فكان هذان الاثنان آخر من لقى حتفه بتهمة الكفر فى انجلترا . وباطراد التحسن فى الحكومة الدنيوية ، أخذت تسود . فى بطء ، الفكرة القائلة بأن التسامح الدينى ينسجم مع الأخلاق العامة والوحدة الوطنية ، وتغزو ما كان راسخا فى الأذهان ، بطريقة تكاد تكون شاملة ، من أن النظام الاجتماعى يتطلب ديانة وكنيسة لا ينازعهما أحد . وحاول ليونارد بوشر فى كتابه « السلام الدينى » (١٦١٤) أن يدلل على أن الاضطهاد الدينى يوسع هوة الخلاف ويؤدى حتما إلى النفاق . ويضر بالتجارة ، وذكر جيمس بأن « اليهود والمسيحيين والأتراك المسلمين متسامحون فى القسطنطينية ، ومع ذلك فهم جميعا مسالمون ، ويعيشون فى سلام[٢٤] » على أن بوشر هذا يرى أن الأفراد الذين تشوب عقيدتهم شائبة الخيانة — ولعله يقصد الكاثوليك الذين يرفعون البابا فوق منزلة الملك — ينبغى أن يحرم عليهم عقـد الاجتماعات ، أو الاقامة فى أبعد من عشرة أميال من مدينة لندن .

كان جيمس فى أغلب الأحوال دوجماتيا متسامحا (الجزمية ، الدوجماتية : توكيد الرأى أو القطع به ، بفطرته ودون مبرر كاف ، أو دون أن يكون مبنيـا على مقدمات سليمة موثوقة) . لقد أغضب البيوريتانيين بتشجيعه الألعاب الرياضية فى أيام الآحاد ، شريطة حضور الصلوات الأنجليكانية أولا .وكان ميالا إلى إرخاءقبضة القانون على الكاثوليك . وبرغم معارضة روبرت سيسل والمجلس ، أوقف قوانين العصيان ، وأباح للقساوسة دخول الريف وإقامة القداس فى الدور الخاصة . وعلى طريقته الفلسفيةغير المحكمة ، راوده حلم التوفيق بين الكاثوليكية والبروتستانتية فى العالم المسيحى(٢٥) . ولكن عندما تكاثر عدد الكاثوليك بفضل هذه البارقة من النور والأمل ، وندد البيوريتانون بتساهله ، أجاز تجديد قوانين اليزابث المعادية للكاثوليك ، والتوسع فيها وتطبيقها (١٦٠٤) . من ذلك أن ارسال أى فرد للدراسة فى جامعة أو معهد لاهوتى فى الخارج كان يعاقب عليه بغرامة قدرها مائة جنيه . ونفيت وأبعدت كل الارساليات الكاثوليكية ، وحرم أى تعليم كاثوليكى ، وفرض على كل الكاثوليك الذين يمتنعون عن إقامة الصلوات الأنجليكانية غرامة قدرها عشرون جنيها فى الشهر ، ويستتبع أى تخلف عن دفع مثـل هذه الغرامات مصادرة الممتلكات الأصلية أو الشخصية ، والاستيلاء على الماشية فى أرض المقصر فى الدفع ، وعلى أثاثه وملابسه ، لمصلحة التاج(٢٦) .

ورأى أشباه المخبولين من الكاثوليك أنه لم يعـد أمامهم الآن من علاج لهذه الحالة إلا القتل . وكان روبرت كاتسبى قد شهد أباه يعانى من السجن بتهمة العصيان فى عهد اليزابث ، وانضم إلى ثورة اسكس ضد الملكة . وهو الذى فكر الآن فى مؤامرة البارود لنسف قصر وستمنستر ، فى الوقت الذى يجتمع فيه الملك والأسرة المالكة ، واللوردات والنواب لافتتاح البرلمان . وأشرك معه فى المؤامرة توماس ونتر، وتوماس برسى ، وجون رايت ، وجى فوكس Guy Fawkes ، وتعاهد الرجال الخمسة فيما بينهم وأقسموا على سرية الموضوع ، ووثقوا عهدهم بتناول القربان المقدس من يد مبعـوث جزويتى اسمه جون جيرار . واستأجروا دارا ملاصقة للقصر ، وظلوا يعماون ستة عشر ساعة يوميا ليحفروا نفقا من قبو إلى قبو ، وأفلحوا

فيما أرادوا . ووضعوا ثلاثين برميلا من البارود تحت قاعة الاجتماع في مجلس اللوردات مباشرة . وعطل تكرار تأجيل إنعقاد المجلس مرة بعد أخرى ، تنفيذ مشروع المؤامرة ، تعطيلا مشوباً بالقلق والشك . وطيلة عام ونصف العام كان على المتآمرين أن يزكوا نار الغضب فى صدورهم ، فكم خامرهم الشك فى فضيلة أو صواب مغامرة يروح ضحيتها كثير من الأرواح البريئة . مع من يظن الكاثوليك بلا هوادة ولا رحمة أنهم مذنبون . وسأل كاتسبى ، رغبة فى إعادة الطمأنينة إلى نفوس المتآمرين — سأل هنرى جارنت أسقف الجزويت فى انجلترا : هل يجاز فى الحرب الاشتراك فى أعمال قد تودى بحياة أناس غير محاربين . فأجاب جارنت بأن كل الشرائع السماوية تجيز هذا الأمر ، ولكنه حذر كاتسبى من أية مؤامرة على حياة العاملين فى الحكومة ، لن تجر إلا مزيداً من الشقاء على الكاثوليك الإنجليز ، ونقل الأسقف مخاوفه وشكوكه إلى البابا وإلى زعيم الجزويت ، فأمروه بالابتعاد عن كل دسائس سياسية ، وأن يحبط أية محاولات ضد الدولة[٢٧] . وأفضى كاتسبى إلى رجل آخر من الجزويت — اسمه أوزوالد جرينواى — « أثناء الاعتراف » بسر المؤامرة التى تضمنت الآن اتخاذ تدابير أخرى لقيام الكاثوليك فى انجلترا بثورة عامة . وأبلغ جرينواى زميله جارنت بالموضوع » وحار الرجلان الجزويتيان بين أمرين : إفشاء سر المتآمرين إلى الحكومة ، أو الصمت ، وآثرا السكوت ، ومع ذلك بذلا قصارى جهدهما ليثنيا المتآمرين عن تنفيذ خطتهم .

وسعى كاتسبى — ليخفف من وخز الضمير عند زملائه ومن مخاوفهم — إلى اتخاذ الترتيبات بأن يتسلم أعضاء البرلمان الموالين لهم ، فى صبيحة اليوم المحدد للاجتماع رسائل عاجلة تستدعيهم إلى خارج وستمنستر . وأنذر فرد صغير الشأن بين المتآمرين ، صديقة لورد مونتجال قبل موعد الانعقاد بعدة أيام . فأطلع مونتجال روبرت سيسل على جلية الأمر ، فنقل الخبر إلى الملك ، فدخل عملاؤهم وأعوانهم إلى الأقبية ، وهناك وجدوا فوكس ، كما وجدوا المتفجرات فى أماكنها ، وفى ٤ نوفمبر ١٦٠٥ قبض على فوكس واعترف بما كان يقصد إليه من نسف البرلمان فى اليوم التالى ، ولكنه على رغم التعذيب الشديد رفض الإدلاء بأسماء المشتركين

معه . ولكن هؤلاء على أية حال ، كشفوا عن أنفسهم بحمل السلاح ومحاولة الهرب . فطوردوا ، وجرى قتال أصيب فيه كاتسبي ، وبرسى ، ورايت ، بجروح قتالة . وجرى البحث عن أتباعهم وأودعوا السجن. وعندما قدم المسجونون للمحاكمة اعترفوا صراحة بالمؤامرة . ولكن أى تهديد أو تعذيب لم يحملهم على توريط القساوسة الجزويت فيها . واقتيد فوكس وثلاثة آخرون ، وسط شوارع المدينة من السجن إلى دار البرلمان حيث أعدموا (٢٧ يناير ١٦٠٦) . ولا تزال إنجلترا تحتفل بيوم ٥ نوفمبر على أنه يوم جى فوكس ، بإطلاق الصواريخ والألعاب النارية وحمل تماثيل أو صور جى والطواف بها فى الشوارع .

وفر جيرارد وجرينواى إلى القارة ، ولكن قبض على جارنت ومعه جزويتى آخر يدعى أولدكورن . وفى السجن وجد هذان الاثنان من الوسائل ماحسباه سبيلا لاتصال خفى بينهما . ولكن الجواسيس نقلوا أحاديثهما بنصها . واتهم كل منهما على انفراد بهذه الأحاديث فأنكرها جارنت ، وأقرها أولدكورن . فاعترف جارنت بأنه كان كاذبا . وانهارت قواه فسلم بأنه كان على علم بالمؤامرة ، ولكن بما أن أنباءها وصلت اليه عن طريق جرينواى الذى تلقاها على انها سر من أسرار « الاعتراف » ، فإنه لم يشعر بأنه حر فى افشائها ، ولكنه على أية حال بذل كل مافى طاقته لإحباطها . فأدين بالتستر على المؤامرة ، لا بالتآمر . وتمهل الملك لمدة ستة أسابيع فى التصديق على الحكم باعدامه ، وأبلغوه كذباً أن جرينواى فى سجن لندن « البرج » فأرسل إليه خطاباً وضع الرقباء أيديهم عليه . وسئل جارنت عما إذا كان قد اتصل بجرينواى فأنكر ، فواجهوه بخطابه ، فدافع بقوله إن المراوغة مباحة لشخص فى سبيل إنقاذ حياته . وفى ٣ مايو أعدم شنقاً ، ومزق إرباً[٢٨] .

وأحس البرلمان أنه على حق فى تشديد القوانين ضد الكاثوليك ، فمنعوا من مزاولة الطب أو الاشتغال بالقانون ، ومن استخدامهم أوصياء أو حراساً قضائيين ، وحظر عليهم أن يبعدوا بأكثر من خمسة أميال عن مساكنهم ، كما طلب إليهم أن يؤدوا قسما جديداً ، لا ينكر سلطة البابا فى خلع الحكام المدنيين فحسب ولكنه كذلك يدمغ الإصرار على هذه السلطة بأنه عمل موصوم بالعقوق والفسوق والكفر ،

يستوجب اللعنة(٢٩) . وحرم البابا بول الخامس تأدية ـــ مثل هذا القسم ، وامتثل للبابا أغلبية الكاثوليك الإنجليز وارتضت القسم أقلية كبيرة . وفى ١٦٠٦ أعدم ستة من القساوسة لرفضهم القسم وإقامتهم القداس . وفيما بين عامى ١٦٠٧ و ١٦١٨ أعدم ستة عشر آخرون(٣٠) . وامتلأت السجون بعدة مئات من القساوسة وعدة آلاف من الكاثوليك العاديين . وبرغم هذا الإرهاب كله ، استمر الجزويت لى دخول انجلترا ، فنى ١٦١٥ كان يوجد منهم ٨٠ على لأقل ، وفى ١٦٢٣ ، كان منهم ٢٨٤(٣١) . وشق بعض الجزويت طريقهم إلى إسكتلنده . وهناك أعدم واحد منهم ـــ جون أوجيلى ـــ فى ١٦١٥ ، بعد أن سحقت رجلاه فى « الدهق » (آلة التعـــذيب) ، وإبقائه يقظاً لمدة ثمانية أيام بليـــالبها بغرز الدبابيس فى لحمه(٣٢) . وهكذا وقعت أوزار الكنيسة القديمة على رأسها هى ، على يد الحقائق والقوى والسلطات الجديدة .

٤ ـــ المسرح فى أيام جيمس

تابعت نشوة انجلترا مسيرتها فى الأدب ، كما تابعتها فى الدين . وإنى لأنسب إلى عصر جيمس ، النصف الأروع فى روايات شكسبير ، وكثيراً من روائع تشابمان ، ومعظم روائع جونسون ، ووبستر ، ومدلتون ، ودكر ، ومارستون ، وبعضاً من أحسن أعمال ماسنجر ، وكل روائع بومونت وفلتشر ، وفى الشعر دون ، وفى النثر بيرتون . وأروع وأكرم من هذا كله الكتاب المقدس ترجمة الملك جيمس ، وتلك أمجاد تكفى لأن يتألق بها أى عصر ، وكان الملك يتذوق المسرحية . وفى أحد الاحتفالات بعيد الميلاد مثلت أربع عشرة رواية فى البلاط الملكى . وفى ١٦١٣ احترق مسرح « الجلوب » عن آخره نتيجة إطلاق مدفعين استلزم إطلاقهما تمثيل رواية هنرى الثامن ، ولكن سرعان ما أعيد بناؤه . وفى ١٦٣١ كان فى لندن أو بالقرب منها نحو سبعة عشر مسرحاً .

وكان جورج تشابمان يكبر شكسبير بخمس سنوات ، وعمر بعده ثمانية عشر عاماً ، وشهد ثلاثة عهود (١٥٥٨ ـــ ١٦٣٤) . وشق طريقه فى أناة وروية

حتى صار فحلا فى فنه ، وكان فى ١٥٩٨ قد أكمل بنجاح رواية مارلو Hero and Leander ،ونشر سبعة كتب من الإلياذة ، ولكنه لم ينجز ترجمة هوميروس حتى ١٦١٥ ، وظهرت أحسن رواياته فيما بين ١٦٠٧ و ١٦١٣ . وفتح للمسرحية الإنجليزية مجالا جديداً ، حين اقتبس من التاريخ الفرنسى الحديث فكرة رواية Bussy d, Ambois (١٦٠٧؟) — خمسة فصول من الخطابة الصاخبة المليئة بالتهديد والوعيد ، لا يكاد يلطف من عنفها شيء من سحر البيان ، ولكنها تقوى إلى حد مزعج فى صحيفة يتبادل فيها بوسى وعدوه التحيات الساخرة التهكمية العسيرة الهضم قدر عسر هضم الحقيقة . ولم يفق تشابمان قط من التعلم أو لم ينقطع عنه ، فإن القدر الكبير الذى حصله من اليونانية ، والقدر الأكبر من من اللاتينية استحوذا على كل تأملاته وتفكيره ، بشكل خانق ، وإن قراءة رواياته اليوم لهى ضرب من الجهد المضنى لمجرد الاطلاع والدرس ، لا حباً فى الروايات أو الاستمتاع بها . ولن نبتهج كما فعل كيتس ، « لأول نظرة نلقيها على ترجمة تشابمان لهوميروس » . فثمة حيوية دافقة هنا وهناك فى الترجمة السباعية التفاعيل تسمو بها فوق ترجمة بوب ، التى هى أفضل بصفة عامة ، ولكن موسيقى الشعر تضيع فى الترجمة ، فإن التفاعيل السداسية الوثابة فى الأصل تداعبنا بتناغم أسرع مما تفعل التفاعيل الموزونة المقيدة فى الشعر المقفى . إن أية قصيدة إنجليزية طويلة مقفاة لم تتخلص من النعاس الذى يغلب على أناشيد بحارة البندقية . وحول تشابمان إلى « شعر ملحمى » أبياتاً عشرية المقاطع ليتفق كل اثنين فى القافية — حول الأوديسية فى ترجمته لها بنفس قوة التهدئة . ولابد أن جيمس غلبه النعاس تحت هذه الأغطية الثقيلة ، إلى جانب إيماءات هوميروس العارضة ، لأنه أهمل فى دفع مبلغ الثلثمائة جنيه التى كان الأمير الراحل هنرى قد وعد بدفعها إلى تشابمان ، عند إتمام الترجمة . ولكن ارل سومرست أنقذ الشاعر العجوز من الفقر .

وهل نتوقف قليلا عند توماس هايوود ، وتوماس مدلتون ، وتوماس دكر ، وسيريل تورنير ، وجون مارستون ، أو يسمحون لنا بأن نمر عليهم مر الكرام مع تحية متواضعة لشهرتهم المتأرجحة ، أما فلتشر ، فلن نستطيع أن نبخسه حقه .

فانه فى ذروة مجده (١٦١٢ ــ ١٦٢٥) رفعته انجلترا ، فى مجال المسرحية ، إلى المرتبة التالية لمرتبة شكسبير وجونسون . كان فلتشر ابن أحد أساقفة لندن ، وابن أخ أو ابن عم لثلاثة شعراء من طراز متواضع ، فرضع الشعر وتربى على القوافى ، وأضاف هو إلى هذا التراث ماكسب من ميزة اشتراكه مع شكسبير فى « هنرى الثامن » ، « القريبان النبيــلان » ، ومع ماسنجر فى « الخورى الأسبانى » ، واشتراكه بأعظم النجاح مع فرانسيس بومونت .

ومن هذا الطراز أيضا ولد فرانك . وكان ابنا لأحد القضاة البارزين ، واخا لشاعر صغير الشأن ، ولد قبله بعام ومهد له طريق الحياة . وأخفق بومونت فى اتمام دراسته فى أكسفورد أوفى أحد معاهد الحقوق The Inner Temple وحاول أن يجرب قلمه فى شعر المرح ، وانضم إلى فلتشر فى كتابة الروايات . وشارك الأعزبان الوسيمان الواحد منهما الآخر ، فى الأكل والنوم ، والأمتعة والملابس ، والخليلات والأفكار ، أو كما قال أوبرى « كانت ثمة امرأة شركة بينهما ، وكان ثمة تشابه غريب فى أفكارهما وصورهما الذهنية[٣٣] » . وتعاون الاثنان على مدى عشر سنوات فى إخراج روايات مثل The Maids' Tragedy, Loves Liesa-Bleeding, Philaster The] Knight of the Burning Pestle والحوار قوى ، ولكنه عاصف طنان ، وحبكات الرواية متشابكة تشابكا بارعا ، ولكن حل عقدها كان متكلفا . وقل أن ارتقى التفكير إلى مستوى الفلسفة . ومع ذلك فان هذه الروايات كما يؤكد لنا دريدن ــ كان لها فى أواخر القرن ، من الشعبية على المسرح ، ضعف ما كان لروايات شكسبير[٣٤] .

وتوفى بومونت فى سن الثلاثين ، فى العام الذى توفى فيه شكسبير ، وبعد ذلك كتب فلتشر بمفرده أو مع آخرين ، سلسلة طويلة من الروايات الناجحة التى جر عليها النسيان ذيوله ، ونبعت ملهاة من رواياته التى قامت على دسائس ملتوية صاخبة مرحة ، نبعت من نماذج أسبانية ، كما أنها بدورها ــ بتركيزها على الزنى ــ مهدت للمسرحية فى « فترة عودة الملكية » . ولما تعب من هذه المناظر الدامية أو الداعرة ، أخرج فى (١٦٠٨) رواية رعوية « الراعية المخلصة » خالية من الهراء والحمق ، مثل

رواية شكسبير « حلم ليلة منتصف الصيف » . بل أنها تنافسها أحيانا من حيث الشعر . فان كلورين ، بعد أن مات حبيبها الراعى تأوى إلى كوخ ريفى بسيط بالقرب من مقبرته وتقطع على نفسها عهدا ألا تبرحه حتى يوافيها الأجل المحتوم :

سلاما أيتها الأرض المقدسة التى تحتضن بين ذراعيها الباردتين ، أصدق رجل أطعم قطعانه على سهول تساليا الدسمة المثمرة ، وهكذا أحيى جدثك ، وأوتى بنذورى الأولى ، وأقدم نظرات الأكبار والاجلال لرفاتك التى لاتزال موضع حبى . وهكذا أحرر نفسى من دفء وحرارة أى حب ينشأ من بعدك ، وأودع كل رياضة أو بهجة أو ألعاب سارة ، يعتز بها الرعاة . ولن يتوج بعد الآن جبينى بالأكاليل الغضة النضيرة ، لأتصدر حلبة الرقص . ولن أفرح أو أبتهج بعد اليوم بصحبة الغادات اليانعات والرعاة المرحين ، ولا بصوت المزمار ذى الأنغام العالية السارة فى واد ظليل ، حين يداعب النسيم العليل الأغصان ، ولسوف أكون بمنأى عن هذا كله ، مادمت أنت نأيت عنى ، يامن كنت أجلس كثيرا إلى جواره السعيد متوجة بالأزهار الناضرة ، بوصفى ملكة الصيف ، على حين يرتدى صبية الرعاة اللون الأخضر الزاهى المفعم بالحياة ، مع المنجل المزوق . والحقيبة المتدلية المصنوعة من الجلد الناعم الجميل . ولكنك وليت ، وقد ولت هذه كلها معك ، لقد فنى كل شىء ، اللهم إلا ذكراك العزيزة ، التى سوف تبقى من بعدك ، والتى سوف تنمو وتنتعش ، طالما كانت هناك مزامير تصرخ أو رعاة مبتهجون يغنون .

وألقيت هذه القصيدة الرعوية مرة واحدة ثم اختفت من المسرح . وأى حظ من الطهارة والعفة لمثل هذه التسبيحة ، فى عصر لايزال يجيش بانفعالات عهد اليزابث ؟

أما أقوى الكتاب المسرحيين فى عهد جيمس وأسوأهم ، فهو جون وبستر . ونحن لانكاد نعرف شيئا عن حياته ، وهى فى الحقيقة مجهولة . ونحن نستنتج حالته النفسية من مقدمة أحسن رواياته « الشيطان الأبيض » (١٦١١) حيث يطلق على جمهور المشاهدين « الحمير الجهلة » ويشهد مقسما بأغلظ الأيمان « بأن الأنفاس التى تخرج من الجمهور العاجز كفيلة بأن تسمم أعمق مسرحية مأســوية . والرواية هى قصة فكتوريا أكورامبونى ، التى هزت آثامها ومحاكمتها كل إيطاليا (١٥٨١ — ١٥٨٥) أيام طفولة وبستر . وتحس فكتوريا بأن دخل زوجها لايتفق مع جمالها ، فتستجيب لملاطفات دوق براتشيانو الثرى ، واقترح بأن يعمل هو على التخلص من زوجها ومن زوجته ، فيولى الموضوع عنــايته على الفور ، بمعونة أخ قواد فاجر لفكتوريا هو فلامنيو الذى كان يقدم لمثل هذه الجرائم أشد الأشعار سخرية فى الأدب الانجليزى . وقبض على فكتوريا للاشتباه فيها ، ولكنها تدافع عن نفسها فى جرأة وبراعة إلى حد يجعل أى محام يفزع من لغته اللاتينية وأى كاردينال من قلنسوته. ثم اختطفها براتشيانو من بين يدى العدالة . فطورد الاثنان وأخيرا ، قتل الاثنان مع من كانوا يتعقبونهما ، قتلة مفاجئة مثيرة أشبعت رغبة وبستر إشباعا تاما طيلة سنة كاملة ، لقد عولجت حبكة الرواية علاجا حسنا ، ورسمت الشخصيات رسما متماسكا متناغما . وكانت اللغة غالبا قوية أو كريهة ، والمناظر العصبية قوية . وارتفع الشعر أحيانا إلى مستوى فصاحة شكسبير . ولكن الرواية بالذبة للدوق الذى أصابته المدنية بالوسوسة وشدة الحساسية ، شوهتها فظاظة فلامنيو المتكلفة وحيرته الحقيرة البائسة ، كما شوهتها اللعنات والشتائم التى انسابت حتى من أرق الشفاه . « أواه : لو أنى أستطيع قتلك أربعين مرة فى اليوم الواحد ، وأظل هذا أربع سنوات سويا ، لكان هذا شيئا قليلا جدا »(٣٥) ، كما كان يشوه الرواية الفحش المنتشر فيها ، حيث ترددت لفظة « البغى » فى كل صحيفة ، أخرى ، ثم الألفاظ المزدوجة المعانى التى ربما خجل منها شكسبير نفسه .

وعاد وبستر إلى الأرض المخضبة بدماء القتلى فى رواية « دوقة لمى » (١٦١٣) فإن فرديناند دوق كالابريا ، يحرم على دوقة أمالفى ، أخته الشابة الأرملة الزواج

مرة ثانية ، لأنها إذا ماتت بلا زوج ، فإن أخاها الدوق يرث أموالها . فترثى الدوقة للطهارة المتكلفة التى أكرهت عليها :

إن الطيور التى تعيش فى المروج وفق هوى
الطبيعة الجامحة ، تحيا حياة أسعد من
حياتنا ، حيث تستطيع أن تختار رفيقاتها
وتشدو بألحانها العذبة للربيع(٣٦) .

واستبدت بها الشهوة والحرمان ، فأغرت قهرمانها أنطونيو بالزواج سراً ، وبمضاجعة عاجلة . فدبر أخوها فرديناند قتلها . وفى الفصل الأخير نرى شخصاً يقتل فى كل دقيقة تقريباً ، فالأطباء يستعدون بالسموم ، والمتوحشون بخناجرهم ، ولم يتذرع أحد بالصبر انتظاراً لقصاص عادل أو حكم مشروع . أما أسوأ الأشرار الأوغاد فى الرواية — الذى قتل الدوقة واستولى على ممتلكاتها ، واتخذ له خليلة ثم قتلها — فهو كاردينال ، ولم يكن وبستر من أنصار البابوية . وهنا أيضاً توجد توريات فى صراحة بالغة ، وتصميم على استنفاذ ألفاظ اللعنة والبغض ، واستنكار وحشى مشوش لحياة الإنسان . وترى شيئاً من النبل أو الإخلاص أو الرقة فى الأركان السحيقة لهذه الحلبة المظلمة ، فان فرديناند ينسى نفسه ، ويبتسم بالشفقة لبعض الوقت ، وهو ينظر إلى أخته التى لا تزال جميلة فى رقدة الموت .

« غطيا وجهها ! عيناى تنبهران ! لقد ماتت فى عنفوان شبابها(٣٧) !
ولكن سرعان ما يستعيد وحشيته .

ولنتأمل فى شىء أعذب وأحلى من هذا كله عند الرجل الذى كتب « اشربى من أجلى أنا وحدى ، بعينيك » Drink to me only with thine Eyes .

٥ — بن جونسون : ١٥٧٣ ؟ — ١٦٣٧

ولد فى وستمنستر بعد وفاة أبيه بشهر واحد ، وعمد تحت اسم بنيامين جونسون ، وأسقط من اسمه حرف الباء تمييزاً لشخصه ، ولكن دور الطباعة ظلت تستخدمه ،

ولو أنه مات ، حتى ١٨٤٠ ، ولا زال يظهر على لوحة معلقة على جدران كنيسة وستمنستر . وكان الزوج الأول لأمه قسيساً . وكان زوجها الثانى بناء بالأجر . وكانت الأسرة فقيرة معدمة . وكان على بن أن يشق طريقه إلى التعليم بصعوبة بالغة . وما كانت إلا الشفقة التى ملأت قلب صديق بصير لتزوده بالمال ليلتحق بمدرسة وستمنستر ، وساقه حظه إلى الوقوع تحت إشراف « وكيلها » المؤرخ العالم الأثرى وليم كامدن ، وإنصرف إلى الدراسات القديمة ، مع عداء أقل من العادى ، وأحب شيشرون وسنكا ، وليفى وتاسيتس ، وكونتليان ، وزعم بعد ذلك ، وواضح أنه على حق — « أنه يعرف من اليونانية واللاتينية أكثر من شعراء انجلترا جميعهم[٣٨] » على أن « مرحه » السريع الاهتياج والإثارة ، وعالم لندن الخشن العنيف بلا حدود ، هما اللذان حالا دون أن يدمر تعليمه فنه .

وبعد تخرجه فى وستمنستر التحق بكمبردج حيث « بقى — كما يقول أول مؤرخ لحياته — أسابيع قليلة ، لحاجته إلى مورد رزق آخر [٣٩] » ، وأراد له زوج أمه أن يكون صبى بناء ، وقد نتخيل بن جونسون وهو يتصبب عرقاً ويضطرب لمدة سبع سنين دأبا ، وهو يرص الطوب ويفكر فى الشعر . ثم فجأة خرج إلى الحرب ، وانساق فى تيارها ، واندفع إليها بنشاط وحيوية أكثر منه إلى صناعة البناء . وخدم فى الأراضى الوطيئة ، وبارز جندياً من الأعداء ، فصرعه ، وسلبه ما معه ، وعاد إلى الوطن يروى قصصاً مفصلة . وتزوج وأنجب أطفالا ، وارى منهم التراب ثلاثة أو أكثر . ووقع الشجار بينه وبين زوجته فهجرها لمدة خمس سنوات ، ثم عاد وعاش معاً عيشة ينقصها الوفاق والانسجام حتى ماتت . ولا تعرف كليو نفسها كيف كان بن جونسون — زوجها — يدبر معاش الأسرة .

ويكون السر أعمق حين نعلم أنه أصبح ممثلا (١٥٩٧) ، ولكن تفجرت منه أفكار مشرقة وأشعار ابقة . واهتز فرحاً حين دعاه توم للمشاركة فى رواية « جزيرة الكلاب » ولا شك فى أنه حمل نصيبه من المسئولية فى « المادة المثيرة للفتنة والتى تتضمن قذفاً وتشويهاً للسمعة » التى وجدها مجلس الشورى فى الرواية . وأمر المجلس بوقف التمثيل وإغلاق المسرح والقبض على المؤلفين . أما ناش الذى كان خبيراً

عتيقاً بمثل هذه المآزق ، فقد قضى نحبه فى يارموث . ووجد جونسون نفسه فى السجن ، ولما كان نظام السجن يقتضيه أن يدفع نفقة طعامه وإقامته وأصفاده فقد اقترض أربعة جنيهات من فيليب هنسلو ، فلما أطلق سراحه انضم إلى فرقة هنسلو (وشكسبير) المسرحية (١٥٩٧) .

وبعد سنة ، كتب ملهاته الهامة الأولى : « Everyman in his humour » ورأى شكسبير يمثل فيها فى مسرح « الجلوب » . ومن الجائز أن المؤلف المسرحى العظيم (شكسبير) لم يستسغ مقدمة الرواية التى اقترحت — على الرغم من النموذج السائد — اتباع الوحدات الكلاسيكية ، أو التقليدية القديمة ، وحدة العمل والزمان والمكان ، لا أن :

> تجعل طفلا ، ملفوفاً الآن فى قماطه ، ينهض حتى يستوى رجلا
> ويطوى ، بلحية وملابس حداد . ستين عاماً مضت ، إنك
> سوف تسر اليوم إذ تشهد رواية يجب أن تحتذى مثالها كل
> الروايات . رواية ليس فيها كورس ينطلق بك فيما وراء البحار ،
> ولا عرش ينهار ، مما يفرح له الأولاد . . . بل فيها أعمال ،
> ولغة مثل تلك التى يستخدمها الناس ، وأشخاص ممن يجب
> أن تنتقيهم الملهاة ، إذ كان لها أن تصور الزمان ، وتسلى
> الناس بحماقات الإنسان لا بالجرائم .

وهكذا أدار جونسون ظهره للمزاح أو الهزل الارستقراطى فى ملهيات شكسبير الأولى ، وللجغرافيا والكرونولوجيا وتعيين تواريخ الأحداث وترتيبها وفقاً لتسلسلها الزمنى الخارقتين فى المسرحية « الرومانتيكية » . وأتى بأكواخ لندن إلى المسرح ، وتخلى عن ثقافته ومعرفته الواسعتين الخارقتين ليبرز إبرازاً مشهوداً لهجات الطبقات الدنيا وأساليبها . وكان أبطال الرواية رسوماً كاريكاتورية أكثر منها ابتكارات فلسفية معقدة ، ولكنهم يعيشون ، وكانوا تافهين لا قيمة لهم ، ولكنهم من بنى الإنسان ، ولم يكونوا معقولين ولا مهذبين ، ولكنهم لم يكونوا قتلة ولا سفاحين .

وكان اللاتينيون قد استخدموا لفظة Umor لتعنى « الرطوبة » أو السائل ، كما استخدمت تقاليد أبقراط الطبية لفظة Humor لتدل على أربعة سوائل فى الجسم — الدم ، البلغم ، الصفراء السوداء ، والصفراء الصفراء . وتبعا لغلبة الواحدة أو الأخرى من هذه المواد فى جسم الانسان، كان يقال إنه ذو « مزاج» دموى ، (متفائل) ، أو بلغمى (بارد)، أو سوداوى (مكتئب) ، أوصفراوى (سريع الغضب) أما جونسون فقد حدد تفسيره لهذا الاصطلاح :

عندما تتملك إنسانا صفة بعينها ، وتسيطر على كل أحاسيسه
وأنشطته وقواه ، حتى تسير كلها فى اتجاه واحد — فهذا
مايمكن أن يقال عنه بحق « المزاج » (Humour)(٤٠)

وظهرت الكلمة فى التصوير المرح للكابتن بوباديل ، وهو تحدر مباشر من رواية باريس « المحاربون الأمجاد » ، ولكنه يمور مورا « بمزاجه » الخاص به المميز له ، ومرحه غير الواعى — فهو دوما شجاع إلا عند الخطر ، مندفع إلى القتال إلا عندما يتحداه أحد ، فهو رب السيف المكنون فى غمده .

واستقبلت الرواية استقبالا حسنا ، وكان فى مقدور بن الآن أن ينغمس فى حماقات الشباب وشهواته على نطاق أوسع ، وكان فرحا بالثقة ، مزهوا بأنه شاعر يتحدث إلى اللوردات فى أنفة وكبرياء ، ويقف راسخ القدمين ، يتعجل التمتع ويستسيغ الصراحة والمرح الصاخب ، ويغوى النساء من آن لآن ، ولكنه أخيرا (كما قال لدروموند) « آثر جور الزوجة على خفر الخليلة(٤١) » — وهجر التمثيل ، وعاش عيشة طائشة على قلمه ، وازدهر لبعض الوقت بتأليف التمثيليات التنكرية للبلاط ، وتلاءمت الأشعار الخيالية التى نظمها مع المناظر التى صممها جونز ، ولكن بن كان حاد الطبع ، فكثرت مشاجراته . ففى عام نجاحه الأول اشتبك مع أحد الممثلين ، وهو جبرييل سبنسر ، وبارزه وقتله ، فأودع السجن بتهمة القتل (١٥٩٨) . ومما زاد الطين بلة ، أنه ارتد إلى الكاثوليكية فى السجن ، ولكنه مع ذلك حوكم محاكمة عادلة ، وأجيز له أن يدفع « بالحصانة الاكليريكية » لأنه تلا « المزامير » باللاتينية « كما يفعل رجل الدين » . وأطلق سراحه

بعد أن وشم ابهامه بحديد محمى بحرف T ، حتى يمكن فى الحال اكتشاف أنه مجرم عائد ، إذا ارتكب جريمة القتل مرة ثانية ، وظل بقية حياته مدموغا بأنه مجرم .

وبعد سنة قضاها مطاق السراح أعيد إلى السجن من أجل دين عليه لم يسدده . ومرة أخرى أطلق سراحه بكفالة هنسلو . وفى ١٦٠٠ سعى جونسون وراء تسديد ديونه بكتابة رواية Every Man out of His Humour . وأثقل الملهاة باقتباسات زخرفية كلاسيكية ، وأضاف إلى أشخاص المسرحية ثلاث شخصيات استخدمت كفرقة للتعليق على الأحداث ، وأمطر بوابل من المذمة والقدح ، البيويتانيين الذين « كان الدين بين طيات ثيابهم ، والذين حلقوا شعر رءوسهم أقصر من شعر حواجبهم » ولوح بمعرفته وعلمه للكتاب المسرحيين الذين كانوا يحطمون « وحدات أرسطو » . وبدلا من الروايات الرومانتيكية المستحيلة الحدوث حول اللوردات الذين لا يصدق وجودهم ، عرض جونسون أن يكشف للندن عن ذاتها بلا هوادة ولا رحمة :

> فليواجهوا مرآة كبيرة قدر كبر المسرح الذى نمثل عليه ،
> وسوف يرون فيها علل العصر ونقائصه . مشرحة تشريحا
> دقيقا مفصلا فى كل ناحية فيها ، فى شجاعة لا تلين
> ولا تفتر . وفى ازدراء لأى خوف(٤٢)

وصنعت رواية من العداوات أكثر مما جلبت من أموال . وليس من يوصى اليوم بقراءتها . ولما لم يكن جونسون راضيا عن جمهوره الصاخب فى مسرح الجلوب ، فانه كتب ملهاته الثانية Cynthia's Revels (١٦٠١) لفرقة من ا ممثلين الشبان ونخبة صغيرة من الجمهور فى مسرح « Black Friars » ، وأحس دكر ومارسون أن الرواية تناولتهما بالهجاء. ولما استشاطت فرقة تسمبرلين غضبا لمنافسة أولاد مسرح « Black Friars » لها ، أخرجت فى ١٦٠٢ رواية دكر « Satiromastix »(ضرب المؤلف الهجاء بالسياط) وفيها تشهير بجونسون بأنه سفاح وبناء تافه مغرور متحذلق، جسمه ملىء بالبثور . وانتهى الشجار بتبادل المديح وتقارض الثناء . وابتسم الحظ

لبعض الوقت . واستضاف أحد المحامين النابهين بن جونسون فى بيته وأرسل ارل بمبروك إلى الشاعر عشرين جنيها « ليشترى بها كتبا[٣٣] » . وما أن أصبح فى أمان من الفقر والحاجة حتى أمسك بالقلم محاولا تأليف « مسرحية مأساوية » ، موضوعها « سيجانوس » الصديق الشرير الأثير لدى تيبريوس . واعتمد فى روايته بدقة على كتابات تاسيتس وسوتونيوس وديوكاسياس وجوفينال ، وأخرج تحفة رائعة ثقافية فيها بعض مناظر مؤثرة (الفصل الخامس — ١٠ مثلا) وأبيات من الشعر الرائع . ولكن جمهور المشاهدين كره الخطب الطويلة والتوجيه الأخلاقى الممل الصادر عن شخصيات تعوزها الحيوية . وسرعان ماسحبت الرواية من المسرح . وطبع جونسون النص ، وأورد على الهامش مراجعه القديمة مع بعض ملاحظات باللاتينيـــة . وتأثر لورد Aubigny ، فهيأ للمؤلف المحزون مأوى آمنا لمدة خمس سنوات .

وعاد جونسون إلى الحلبـــة فى ١٦٠٥ بأعظم رواية له « Volpone — أو الثعلب » ، هاجم فيها ، فى هجاء مقذع شهوة المال التى اجتاحت لندن : وكما هو مألوف فى الملهاة — من عهد بلوتس إلى رواية The Admirable Crichton — فان محور الرواية هو خادم ماهر . ويحضر الخادم موسكا (ذبابة بالايطالية) إلى سيده البخيل فولبون (الثعلب) الذى يدعى أنه مريض مرضا شديدا ، مجموعة من صيادى الميراث الوصيـــة — فولتوز : نسر ، ثم كورباتشيو : غراب ، ثم كورفينو : غراب أسحم — وكل منهم يترك للسيد المريض (الثعلب) هدية ثمينة ، على أمل أن يسمى وريثا له . ويتقبل « الثعلب كل هدية بنهم جشع ، إلى حد استعارة زوجة كورباتشيو لليلة واحدة . وينتهى الأمر بأن يخدع الخادم موسكا سيده فولبون حتى يعينه هو وريثا وحيدا له . ولكن بوناريو (الطبيعة الطيبة) ، يكشف الخيانـــة ، ويرسل مجلس السناتو فى البندقيـــة كل الممثلين تقريبا إلى السجن . وجعلت هذه المسرحية ، آخر الأمر ، رواد مسرح الجلوب يركعون بين يدى جونسون .

وسرعان ما انتقل من نجاح إلى محنة . فقد اشترك مع مارستون وتشابمان فى

سرحية Eastward ho (١٦٠٥) واعتقلت الحكومة المؤلفين على أساس أن الملهاة أساءت إلى الاسكتلنديين : وهدد المعتقلون بقطع أنوفهم وآذانهم ، ولكن أفرج عنهم دون أن يمســوا بأذى ، واشترك بعض ذوى المقامات الرفيعة — مثل كامدن وسلدن — فى المأدبة التى أقامها الثالوث الذى استرد حريته . ثم ، فى ٧ نوفمبر ١٦٠٥ ، استدعى جونسون إلى مجلس الشورى ، باعتباره كاثوليكيا يمكن أن يكون لديه معلومات عن مؤامرة البارود . وعلى الرغم من أنه كان قد تناول العشاء مع المدبر الرئيسى كاتسبى ، قبل ذلك بشهر ، فانه تفادى كل تورط فى المسألة . ولكن فى ٩ يناير ١٦٠٦ دعى إلى المحكمة بوصفــه متمردا مخالفا للقانون . ولما كان فقيرا معدما إلى حد لا يستطيع معه دفع غرامة مجزية ، فان المحكمة لم تتشدد فى الاتهام . وفى ١٦١٠ ارتد إلى المذهب الأنجليكانى ، فى حماســة بالغة إلى حد أنه أتى على كل مافى كأس النبيذ حين جلس إلى « العشاء الربانى »(٤٤)

وفى تلك السنة أخرج أشهر مسرحياته « الكيميائى القديم The Alchemist » ، وهجا فيها ، لا مجرد الكيمياء القديمة (محاولة تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب) ، وهذه مسألة تافهة ، بل هجا كذلك ألوانا كثيرة من الدجل والخداع التى غزت لندن بالشعوذة . إن سير ابيقور مامون واثق من أنه وقف على سر الكيمياء القديمة فيقول :

« الليلة سأحول كل مافى بيتى من معدن إلى ذهب ، وفى الصباح الباكر أرسل إلى كل المشتغلين بالقصدير والرصاص ليبيعونى مالديهم من هذا وذاك ، وأرسل إلى لوثبرى من أجل كل مافيها من نحاس .... ولسوف أشترى ديفونشير وكورنوال ، وأجعلهما مثل جزر الهند الشرقية تماما . فإنى أريد أن يكون لى من الزوجات والخليلات مثل ماكان لسليمان ، الذى كان عنده خاتم مثل ماعندى . وسيكون لى بفضل إكسير الحياة

ظر قوى صلب مثل هركيوليز ، فأصرع من الأعداء خمسين
فى الليلة الواحدة . أما المتملقون لى فسيكونون من الكهنة ،
الأطهار الوقورين ، الذين يمكن أن أستحوذ عليهم بمالى ....
وسيقدم لى اللحم فى أصداف هندية وأطباق مصنوعة من
الذهب ومرصعة بالعقيق والزمرد والصفير والياقوت الأزرق
والأحمر . أما ألسنة الشبوط (سمك نهرى) ، والسنجاب ،
وكعوب الأبل ... والفطر العتيق ، والصدور المكسوة بالدهن
لخنزيرة سمينة حامل ، والتى قطعت لتوها :... فسأقول عنها
لطباخى « هاك الذهب » فتقدم ، ولتكن فارسا(٤٥) :

وقلما كان سيرابيقور تافها ، ولكن بقية أشخاص الرواية كانوا حثالة ، وكان كلامهم بغيضا بما احتوى من معالجة موضوعات الدعارة القذرة ، وإنه لما يدعو إلى الأسى والحسرة أن نرى بن المثقف خبيرا بهـذا الغثاء وتلك النفاية ، وبلغة الأكواخ واللصوص والمتشردين . وهاجم البيوريتانيون مثل هذه الروايات تجاوزا ، فانتقم منهم جونســون بتصويرهم فى صور كاريكاتورية ســاخرة فى رواية The Bartholomew Fair ١٦١٤ .

وأخرج مسرحيات هزلية أخرى كثيرة مفعمة بالحياة ممتلئة بالعكارات

وتمرد هو نفسه فى بعض الأحيان على واقعيته الخشنة ، فى مسرحية « الراعى الحزين » وأطلق لخياله العنان ليسرح دون مبالاة :

إن وطء أقدامها لا يثنى ورقة عشب ،
أو يهز الطائر الأزغب فى عشـــه
ولكنها مثل الرياح الغربية الخفيفة انطلقت مسرعة
وحيثما ذهبت تعممت جـذور الأزهــار
وكأنما زرعتها بأقدامها العطرة(٤٦) .

ولكنه ترك الرواية دون أن يكملها ، وقصر رومانتيكيته ، (أو خياله

وعواطفه) بقية حياته . على أغنيات رقيقة تناثرت فى ملهاواته، مثل الجواهر وسط القــاذورات ، من ذلك أنه فى ملهاة « الشيطان حمار The Devil is an Ass » (١٦١٦) : يغنى فجأة :

هل شهدت الا سوسنة متألقة تنمو
قبل أن تمسها الأيدى الخشنة ؟
هل شهدت إلا تساقط الثلوج
قبل أن تلطخها التربة ؟
أو لم تلمس فراء السمــور
أو ريش البجعة قط ؟
وهل نشقت رائحة براعم الورد البرى
أو رائحة الناردين وهو يحترق ؟
وهلا تذوقت شهد النحلة ؟
أوه ! يا لبياضها ، أوه ! يالرقتها ، أوه ! يا لحلاوتها ؟

وأجمل من هذا بالطبع ، أغنيــة « إلى ســـليا To Celia » التى سرقها من اليونانية من فيلوستراتوس ، وحولها بدقة وبراعة إلى « اشربى من أجلى أنا وحدى بعينيك » .

وبعد موت شكسبير أصبح جونسون الرئيس المعترف به لجماعة الشـــعراء . وأصبح شاعر البلاط غير المتوج فى انجلترا — ولو أنه لم يعين رسميا ، ولكن الحكومة اعترفت به فى معظم الأحوال، ومنحته معاشا سنويا قدره مائة قطعة ذهبية، وأدرك الأصدقاء الذين التفوا حوله فى حانة مرميد أن طبيعته الطيبة الحافة تختفى وراء مزاجه الحاد ولسانه السليط ، فأفادوا من حديثه المثمر ، وهيأوا له أن يلعب دور الزعامة كما كان الحال مع سميه فى القرن التالى .

وكان بن آنذاك بدينا ، كما سيكون الحال مع سميه صمويل جونسون فيما بعد ، وما كان أكثر وسامة ولارشاقة ، وكم حزن على « كرشه الفظيع » ووجهه المتجعد

المملوء بالبثور نتيجة الأسقربوط . وقل أن زار صديقا دون أن يكسر كرسيا . وفى ١٦٢٤ نقل الندوة إلى « حانة الشيطان Devil Tavern » فى شارع فليت . وهناك التقى بانتظام مع جماعة نادى أبوللو الذى كان قد أسسه هو من قبل . ليتزودوا بالطعام والشراب والدعابة وثمار الفكر ، وكان لجونسون مقعد مرتفع فى أحد طرفى الغرفة له درابزين يؤدى بجسمه الضخم إلى العرش . وجرى العرف على تسمية أتباعه « قبيلة بن » ، وكان من بينهم جيمس شيرلى وتوماس كارو وروبرت هرك . الذين سموه القديس بن (٤٧) » .

وكان جونسون فى حاجة إلى صبر أيوب ، وهو غير مفطور على الصبر ، ليحتمل الفقر والمرض فى السنين التى كان يتحطم فيها . وقدر أن كل رواياته لم تدر عليه إلا مبلغا يقل عن مائتى جنيه كان ينفقها بسرعة ، ويتضور جوعا طيله الأيام التى لا يعمل فيها . وكان يفتقر إلى شئ من الحاسة أو الخبرة المالية التى جعلت شكسبير خبيرا فى إقتناء الأملاك الثابتة أو العقار ، وتابع شارل الأول صرف المعاش المخصص لجونسون ، ولكن عندما خفض البرلمان المخصصات الملكية . لم يكن المعاش يدفع دائما . على أن شارل أرسل إليه مائة جنيه فى ١٦٢٩ وقرر رئيس كنيسة وستمنستر وجماعة الرهبان فيها خمسة جنيهات «لمستر بنيامين » جونسون فى أيام مرضه وفاقته(٤٨) ولم تصب رواياته الأخيرة أى نجاح ، وذبلت شهرته ، وأختفى أصدقاؤه ، وقضت زوجته وأولاده نحبهم ، وماجاءت سنة ١٦٢٩ حتى عاش وحيداً قعيداً ، ملازما الفراش بسبب الشلل ، مع سيدة عجوز تتولى العناية بأمره . وظل يعانى من المرض والفقر ثمانى سنوات أخرى ، ودفن فى وستمنستر ، ونقش جون يونج على حجر يواجه القبر . العبارة المشهورة :

« أى بن جونسون الفذ »

ولم يبق منها إلا الكلمتان الأوليان . ولكن أى انجليزى مثقف متعلم يستطيع أن يكمل العبارة

٦ — جون دون ١٥٧٣ — ١٦٣١

فى مؤتمر هامبتون كورت اقترح مندوب بيوريتانى ترجمة جديدة للكتاب المقدس

فاعترض أسقف لندن بأن الترجمات الموجودة صالحة تماما . فقاطعة الملك جيمس وأمر بأن تتخذ إجراءات خاصة لترجمة رسمية موحدة يقوم بها أفاضل العلماء فى كلتا الجامعتين ، ويراجعها الأساقفة ثم تقدم إلى مجلس الشورى ، ثم يعتمدها الملك حتى يمكن تلاوتها دون غيرها فى كل الكنائس (٤٩) » . ونهض بهذه المهمة سير هنرى سافيل وستة وأربعون عالما آخرون ، مستندين إلى ترجمات ويكلف وتندال القديمة ، وأنجزوا عملهم فى سبع سنين (١٦٠٤ — ١٦١١) وأصبحت هذه الترجمة المعتمدة » رسمية فى ١٦١١ ، وكان لها أثرها البالغ على الحياة والأدب الحديث فى إنجلترا . ودخل إلى اللغة الانجليزية من هذه الترجمة ألف من العبارات البليغة ، وكان تقديس الانجيل آنذاك قويا جداً فى هذه البلاد البروتستانتية ، ولكنه الآن تزود بدفعة جديدة من القداسة والاقبال عليه فى انجلترا ، كما إزدادت معرفة البيوريتانيين ثم الميثوديين ثم الكويكرز بنصوصه والتعبد به ، بشكل لا يعدله إلا حب المسلمين للقرآن الكريم وتمسكهم به . وكان أثر الترجمة على أسلوب الأدب الإنجليزى مفيدا كل الفائدة ، فقد وضعت حدا للتعقيدات الطويلة الغريبة فى النثر الإنجليزى فى عهد اليزابث ، وانتهت به إلى جمل قصيرة قوية واضحة طبيعية وأحلت محل المصطلحات والتراكيب الأجنبية ألفاظا أنجلوسكونية واصطلاحات انجليزية مفعمة بالحيوية . وكان فيها ألف من الأخطاء العلمية ، ولكنها حولت العبرية الرفيعة واليونانية العادية فى الكتاب المقدس بقسميه إلى أروع تحفة فى النثر الانجليزى .

وثمة مؤلفان آخران من النثر الرفيع ميزا هذا العصر . كتاب سير والتر رالى « تاريخ العالم » (وهو ثانيهما فى الظهور) ، وكتاب روبرت بيرتون « تشريح الكآبة Anatomy of Melancholy (١٦٢١) (*) — وهو المرجع الضخم الذى وضع فيه قسيس سان توماس فى أكسفورد نبذاً مما جمعه من المعلومات اللاهوتية

(*) اكتسب بمضى النشر العادى منزلة تاريخية : من ذلك نشرات الاخبار التى كانت تملأ لندن فى أيام جيمس ، والتى تدرجت فى ١٦٢٢ حتى أصبحت أول صحيفة انجليزية باسم "الانباء الاسبوعية" “ The Weekly News

والتنجيمية ، والقديمة والفلسفية . وحسب أساتذة الجامعة أول الأمر أنه « مرح فكه ظريف » ولكنه أصبح فى حياته فيما بعد مكتئبا إلى حد أنه لم يكن يسره ويسعده إلا بذاءة بحارة الزوارق فى نهر التاميز[٥٠] . وللتخلص من كآبته «التهم » «بيرتون» « المؤلفين » الذين أمدته بهم مكتبة بودليان . وفى هذه الكتب وفى مخطوطه وفى علم التنجيم وفى الخدمات الكهنوتية : قضى أيامه الكئيبة ولياليه الممتلئة بالنجوم . وحسب طالعه الخاص ، وتنبأ باليوم الذى سيوافيه فيه الأجل المحتوم بدقة : إلى حد أن تلاميذ اكسفورد ارتابوا فى أنه شنق نفسه ليثبت أنه يعلم الغيب[٥١] .

أنه نشيط مفعم بالحيوية فى كتابه . ولما شرع فى فحص وسواس المرض عنده ووصف العلاج له ، وجد أن الاستطراد ألطف من خطته . وبالمرح الشاذ ، الذى يشبه مرح رابليه فى موضوعاته غير المطروقة ، ناقش كل شىء عن غير قصد كما كان يفعل مونتانى ، ويتبل صفحاته هنا وهناك بشىء من اللاتينية واليونانية ، ويغرى قارئه شيئا فشيئا بشكل لطيف ، إلى لا شىء ، وهو لايدعى الأصالة ، ويشعر بأن كل التأليف سرقة : « ما أرانا نقول إلا معادا من لفظنا مكرورا ، وربما كان الانشاء والمنهج من عندنا فحسب[٥٢] . » ويعترف بأنه عرف الدنيا عن طريق الكتب وعن طريق الأنباء التى تتسرب إلى اكسفورد فحسب .

> أنى لأسمع أنباء جديدة كل يوم ، كما أسمع الاشاعات العادية
> عن الحرب والطاعون والحرائق والفيضانات والسرقات ،
> وحوادث القتل والمذابح والنيازك والمذنبات والأطياف
> والأعاجيب والأشباح ، وعن المدن التى تم الاستيلاء عليها .
> والمدن التى حوصرت فى فرنسا وألمانيا وتركيا ، وإيران وبولنده
> .... الخ والتجمعات والاستعدادات اليومية وغيرها ، مما يتم
> فى هذه الأيام العاصفة : فتنشب المعارك ، ويذبح كثير من
> الرجال : كما نسمع عن غرق السفن وأعمال القرصنة
> والمعارك البحرية : ثم الصلح وتكوين العصبات ، ثم من
> خدع حربية وإنذارات جديدة ، أنها فوضى هائلة من العهود

والرغبات و الأعمال والقرارات ، والظلامات والقضايا البينات
والدفوع والقوانين والتصريحات . . . . والآراء والانشقاقات
والهرطقات .... والأعراس،والمسرحيات التنكرية وشعارات
الرياء والحفلات ، واحتفالات اليوبيل....والجنازات[٥٣]

وأنه ليحس (مثل ثورو) أنه إذا قرأ أخبار يوم واحد ، فقد يكتفى بها ويأخذها قضية مسلمة بقية العام ، مع مجرد تغيير فى الأسماء والتواريخ . وهو يرتاب فى أن الانسان سائر على طريق التقدم ، ومع ذلك يقول « لسـوف أصنع يوتوبيا (دنيا مثالية) خاصة بى ... أتحكم فيها بمحض حريتى » ويصفها فى تفصيل خيالى غريب . والواقع ، على أية حال ، أنه كان يؤثر تصفح الكتب فى هدوء فى مكتبه ,أو على ضفاف التاميز ، على الانصراف إلى إصلاح البشر . ويقدم له كل مؤلفى العالم أحسن ما لديهم ، ويثقل كاهله ما يجمع من اقتباسات ، فيعود مكتئبا مغتما من جديد ، وبعد مائة وأربع عشرة صحيفة ممتلئة ، يعقد العزم على التوصل إلى أسباب الكآبة ، وهى الخطيئة ، والشهوة الجامحة ، والافراط ، والشياطين . والسحرة ، والنجوم ، والامساك ، والاسراف الجنسى ، .... وأعراضها (أى الكآبة) ومن بينها : « ريح تقرقر فى البطن .... وتجشؤات كريهة .... وأحلام مزعجة[٥٤]» . وبعد أن أكمل مائتى استطراد ، تراه يصف أنواع العلاج للكآبة : الصلوات ، الغذاء ، الدواء ، الملينات ، إدرار البول ، الهواء الطلق ، الرياضة ، الألعاب ، الحفلات المسرحية ، الموسيقى ، الصحبة المرحة ، النبيذ ، النوم ، فصد الدم ، الاستحمام . ثم يستطرد من جديد ، إلى حد أن كل صحيفة تغدو مخيبة للآمال ومفرحة معا ــ إذا توقف سير الزمن .

أما فى الشعر فقد اختفى شعراء « السونيت » ، وظهر « شعراء ما وراء الطبيعة » : ريتشارد كروشو ، أبراهام كاولى ، جون دون ، جورج هربرت ــ الذين عبروا فى جمال وديع ، عن الهدوء والتقوى فى بيت الكاهن الأنجليكانى ، ولقد سماهم صمويل جونسون « ميتافيزيقيين » ، من ناحية واحدة فقط ، لأنهم نزعوا إلى الفلسفة واللاهوت والجدل ، وأساسا لأنهم اختاروا عن ليلى ، أوجونجورا ، أو البلياد ــ أسلوبا يتميز بالبدع والنزوات اللغوية ، والذكاء اللفظى والتركيبات

المعقدة ، والمقتطفات الكلاسيكية ، والغموض المتكلف . على أن شيئاً من هذا كله لم يحل دون أن يكون « دون » أرق شعراء العصر .

وعاصر جون دون — مثل جونسون وتشابمان — ثلاثة عهود : ففى عهد اليزابث كتب فى الحب ، وفى عهد جيمس عن التقوى ، وفى عهد شارل عن الموت ؛ ومنذ نشأ كاثوليكياً ، وتعلم على أيدى الجزويت وفى أكسفورد وكمبردج ، فقد خبر مرارة الاضطهاد وهدأة الاختفاء . واعتقل أخوه هنرى لإيوائه كاهناً محكوماً عليه بالموت ، وقضى هنرى نحبه فى السجن ، وزاد من اكتئاب جون انصرافه فى بعض الأحيان إلى كتابات سانت تريز ولويس دى جرانادا الروحية . ولكن فى ١٥٩٢ نبذ عقله الفتى النابض بالحيوية ، ما ورد فى ديانته من معجزات وكرامات ، وحام فى العقد الثالث من عمره حول المغامرات العسكرية والجنسية وفلسفة التشكك .

ولفترة من الزمن قصر جون دون شعره على الاتصال الجنسى غير المشروع صراحة ، ففى القصيدة رقم ١٧ من قصائده التأملية التى تعروها الكآبة ، امتدح « أحلى شىء فى الحب : التنوع (لذة الهوى فى التنقل) :

ما كان أسعد آباءنا فى الزمان الأول

أولئك الذين لم يجدوا فى تعدد العشاق جرماً[٥٥] .

وفى قصيدته التأمليـــة رقم ١٨ سبح فى « الدردنيل بين ستوس وأبيدوس فى صدرها » وفى القصيدة رقم ١٩ « إلى حبيبته وهى تأوى إلى مخدعها » نزع عنها ثيابها ، وفى خيال واسع ، طلب إليها : اسمحى ليدى « أن تجوسا حيث تشاءان » : وخلط بين علم الحشرات والعشق ، وحاول أن يبرهن على أنه ما دام أن البرغوث عضهما معاً فانه قد خلط دمه بدمها فقد تزوجا آنذاك بالدم ، ومن ثم يسرحان فى نشوة لا إثم فيها[٥٦] : ولكنه أتخم بالمظاهر فسئمها ، ووجد أنه ليس كريماً منه أن يرتكب الفاحشة مع كرائم السيدات ، ونسى مفاتنهن الموقوتة ، ولم يتذكر إلا الحيل التى كن قد تعلمنها من دنيا لا قلب لها ، وصب على عشيقته جوليا أكبر

اللعنات ، ونصح قارئه أن يختار رفيقة طبيعية غير متكلفة لأن « الحب المبنى على الجمال » سريع الفناء مثل الجمال[٥٧] » ثم أنشد مقطوعة شعرية مضادة لفيللون ، ووضع ميثاقاً شعرياً كان كل مقطع فيه يهوى على « العشق » بضربة قاتلة .

وفى ١٥٩٦ أبحر مع اسكس ، وساعد فى الحملة على قادس ، وأبحر معه ثانية فى ١٥٩٧ إلى جزر الآزور وأسبانيا. ولما عاد إلى انجلترا وجد وظيفة محترمة ، سكرتيراً لسير توماس أجرتون « حامل الأختام الملكية » ، ولكنه هرب مع ابنة أخيه وتزوجها (١٦٠٠)، ونشط فى أن يعولها بالشعر ، وواتاه الأولاد بمثل السهولة التى واتته بها القوافى . وغالباً ما عجز عن غذائهم وكسائهم ، وساءت صحة زوجته ، وكتب يدافع عن الانتحار . وأخيراً رق قلب سير أجرتون فارسل إلى الأسرة مبلغاً من المال (١٦٠٨) ، ووهبها سير روبرت درورى مسكناً فى قصره (١٦١٠) فى Drury Lane . ولكن بعد عام واحد فقد سير روبرت ابنته الوحيدة ، فنشر دون ، بلا توقيع ، أولى قصائده العظمى ، رثاء لها ، بعنوان An Anatomy of The world ، وفيها ضخم من موت اليزابث درورى تضخيما حتى جعل منه فناء الإنسان ثم الكون باسره :

وهكذا يفنى العالم منذ اللحظة الأولى . . . .
وتدعو الفلسفة الجديدة كل الناس إلى الشك .
وخمد عنصر النار ،
وضاعت الشمس والأرض . ولا يستطيع عقل أى إنسان
أن يوجهه التوجيه الصحيح للبحث عنها .
ويعترف الناس صراحة أن الدنيا قد ولت ،
على حين أنهم فى الكواكب وفى القبة الزرقاء
يلتمسون الكثير من الجديد ثم يرون أن كل هذا
قد انهار من جديد . . . .
لقد تفتت كل شىء ؛ وضاع التماسك ،
كل الزاد الكريم ، وكل علاقة[٥٨] .

وهكذا حزن لأنه يرى كيف أن هذه الأرض « عرجاء مشلولة » . وكانت يوماً مشهد الافتداء السماوى ، والآن فى الفلك الجديد ، مجرد « ضاحية » للدنيا . وفى إحدى حالاته النفسية نراه يمجد « الظمأ المقدس إلى العلوم » . وفى حالة أخرى يتساءل متعجباً هل سينتهى العلم بالجنس البشرى إلى الدمار

إنا نحارب أنفسنا بالأمراض الجديدة

وبالفيزياء الحديدة هناك آلة جديدة للحرب أسوأ كثيراً(٥٩) .

وكذلك تحول إلى الدين . فان تكرار إصابته بالأمراض والعلل ، والموت المشئوم لأصدقائه الواحد بعد الآخر ، انتهيا به إلى خشية الله فانه . ولو أن عقله ظل يحاول فى اللاهوت ، فانه كان قد تعلم ألا يثق فى العقل كذلك ، على أنه عقيدة أخرى . وقرر أن المذهب القديم يجب قبوله دون مزيد من النقاش ، إذا كان يوفر هدوء البال ولقمة العيش . وفى ١٦١٥ صار قسيساً إنجليكانيا ، ولم يقتصر حينئذ على إلقاء المواعظ فى نثر كثيب مؤثر . ولكنه نظم كذلك بعضاً من أكثر الأشعار الدينية تاثيراً فى اللغة الإنجليزية . وفى ١٦١٦ عين قسيساً خاصاً لجيمس الأول ، وفى ١٦٢١ أصبح رئيس كهنة سانت بول . ولم ينشر قصائده الغنائية الجنسية التى نظمها فى شبابه ، ولكنه كان قد سمح بتداول نسخ مخطوطة منها ، أما الآن فانه ـــ كما روى جونسون « يندم أشد الندم ، ويسعى إلى إعدام كل قصائده(٦٠) » . وكتب بدلا منها « قصائد مقدسة من نوع السونيت . وتحدى الموت . وهو يصفر فى الظلام .

أيها الموت . لا تزه ولا تتكبر . ولو أن بعضهم قد أسموك

جباراً رهيباً ، لأنك لست كذلك .

لأن هؤلاء الذين تظن أنك صرعتهم

لا يموتون . أيها الموت الحقير ، إنك كذلك لن تستطيع أن تصرعنى ...

لقد انقضت غفوتنا القصيرة ، ولسوف نكون فى يقظة أبدية .

ولن يكون ثمة موت بعد الآن ، ولسوف تموت أنت أيها الموت(٦١) .

وبعد أن أبل من مرض شديد ، كتب فى مذكراته فى ١٦٢٣ ، سطوراً مشهورة : « إن موت أى رجل يهد من كيانى لأنى جزء متشابك فى الجنس البشرى ، ومن ثم لا أرسل

أحدا لأستفسر عمن تنعى النواقيس ، إنها تنعانى أنا[٦٢]» . وفى أول يوم جمعة من الصوم الكبير ١٦٣١ ، نهض من فراش مرضه ليلقى العظة التى بادر الناس فقالوا إنها عظة جنازته هو ، وكان معاونوه قد حاولوا أن يثنوه عن الكلام ، لما رأوا (كما قال صديقه المخلص ازك والتون) أن علته قد اشتدت حتى تركته مجرد جلد على عظم[٦٣] » ، وما أن انتهى من إلقاء موعظته التى كان فيها فصيحا فى التعبير عن الايمان بالبعث ، « مبتهجا أشد الابتهاج لأن الله أعانه على القيام بهذا الواجب المرغوب فيه ، حتى أسرع إلى بيته الذى لم يغادره ... إلا محمولا على أيدى رجاله الأتقياء إلى قبره[٦٤] » . ووافاه الأجل (٣١ مارس ١٦٣١) بين ذراعى أمه التى كانت قد احتملت صابرة آثامه ، كما استمعت فى حنان وعطف إلى عظاته .

لقد كانت حياة حافلة متوترة ، انتظمت كل العواطف من شهوة وحب ، وشك وانحلال ، واختتمت فى عزاء دافئ ، هو عزاء الايمان القديم . إننا نحن أبناء اليوم الذين يسارع إلينا النعاس حين نقرأ سبنسر ، لنجد أنفسنا ، وقد هزها من سباتها هذا الواقعى الخيالى على نحو عجيب ، هذا الروح الوسيط معا ، عند قراءة كل صفحة من صفحاته تقريبا . إن شعره خشن ، ولكنه هكذا أراده : إنه نبذ اللطائف المتكلفة فى حديث الاليزابيين واستطاب الألفاظ التى لم تبل جدتها ، وبحور الشعر الأخاذة . وأحب الأنغام الناشزة المتنافرة التى يستطيع تحويلها إلى أنغام متناسقة لم تألفها الأذن . ولم يكن ثمة شيء مبتـــذل فى شعره بعد أن تخرج فى المواخير . إن هذا الرجل الذى صقل الفحش ، كما صقله كاتوللوس من قبل ، اكتسب من رقة الشعور والفكر ، ومن أصالة فى العبارة والعاطفة ، مالم يضارعه فيه شاعر آخر فى ذلك العصر ، اللهم إلا شكسبير نفسه .

٧ — جيمس يثير العاصفة ١٦١٥ — ١٦٢٥

إن الحب والدبلوماسية رفيقان شيمتهما الخيانة والغدر . ففى ١٦١٥ أحب الملك جيمس ، بأسلوبه الرقيق ذى الوجهين ، جورج فلير Villiers ، الشاب الوسيم الجرىء الثرى ، ذا الثلاثة والعشرين ربيعا ، فخلع عليه لقب ارل ، ثم ماركيز ثم

دوق بكنجهام ، ثم بعد ١٦١٦ أطلق يديه فى توجيه سياسة الدولة . وكانت زوجة بكنجهام ، ليدى كاترين مانرز تتبع الطقوس الإنجليكانية فى الظاهر ، ولكنها فى أعماق قلبها كاثوليكية ، وكان من الجائز أن تقنعه بصداقة أسبانيا .

إن الملك چيمس نفسه كان رجل سلام ، ولم يكن ليدع اللاهوت أو القرصنة لتورطه مع القارة . وما أن تولى العرش حتى وضع حداً للحروب الطويلة التى كانت إنجلترا قد شنتها على أسبانيا . ولما فقد فردريك أمير البلاتينات (إقليم غرب الراين) — وزوج ابنة چيمس المحبوبة اليزابث — أمارته فى بداية « حرب الثلاثين عاما » ، راود چيمس الأمل فى أن استرضاء ملك أسبانيا وهو من (آل هبسبرج) استرضاء جادا كريما ، قد يؤثر على امبراطور آل هبسبرج فرديناند الثانى ، فيسمح لفردريك باسترداد عرشه . وأثار چيمس استياء الشعب واشمئزازه حين اقترح لهذا الغرض على فيليب الرابع زواج أخته « الأميرة ماريا » الأسبانية من الأمير شارل .

ولقى رالى نهايته الأليمة ضحية السياسة الأسبانية . وكان رالى يعارض سراً إرتقاء چيمس عرش إنجلترا ، كما كان يعارض بشدة اسكس ، سند چيمس ومؤيده . وسرعان ماوصل چيمس إلى لندن حتى فصل رالى من جميع مناصبه الحكومية . وبانفعال واندفاع تميز بهما والتر ، سمح لنفسه بالتورط فى عدة محاولات لخلع الملك (٦٥) . فأودع السجن ، واحتج بأنه برئ وحاول الانتحار . وحوكم ، وأدين بناء على أدلة مشكوك فى صحتها ، وحكم عليه بالإعدام ، فى ١٣ ديسمبر ١٦٠٣ وقاسى كل ألوان التعذيب ، على أنه خائن . وفى ٨ ديسمبر كتب إلى زوجته رسالة تفيض رقة وتقى — لم يشهدها العالم فيه من قبل . ورفض جيمس توسلات الملكة والأمير هنرى للعفو عنه . ولكنه سمح للسجين بالبقاء على قيد الحياة لمدة خمس عشرة سنة أخرى ، مع بقاء حكم الإعدام سيفا مصلتا على رأسه ، وسمح لزوجة رالى بالإقامة معه فى بيت صغير بناه فى تخوم البرج (السجن) . وأمده أصدقاؤه بالكتب وأجرى بعض التجارب الكيميائية ، ونظم بعض القصائد الرائعة ، وألف كتابه « تاريخ العالم » . وبدأ الكتاب — كما نشر ١٦١٤ بمقدمة ورعة مشوشة معقدة مطولة مملة ، تكشف عن عقل مهووك شديد الاضطرابات والخبل . وبدأت القصة

بنينوى ، وانتقلت عبر مصر وجنوب فلسطين ، وإيران وكلديا واليونان وقرطاجة ، وانتهت برومه الامبراطورية . ولم يحرص رالى على الوصول إلى الأزمنة الحديثة « لأن من يتوخى الصدق كل الصدق فى كتابة التاريخ ، قد لاينجو من الأذى » وتحسن أسلوبه بمتابعة الكتابة ، حتى بلغ مرتبة عالية فى وصف معركة سلاميس ، وبلغ الذروة فى المناجاة الختامية « للموت البليغ العادل الجبار (٦٨) » .

ولكن رالى لم يرتض الهزيمة ولم يقنع بها ، ففى ١٦١٦ ، بعد أن جمع ١٦٠٠ جنيه ، رشا دوق بكنجهام ليتوسط له لدى الملك (٦٩) ، ووعده ، فى حال إطلاق سراحه ، بالإبحار إلى أمريكا الجنوبية ، ليكشف عما ظن أنه مناجم الذهب الغنية فى جويانا ، ويعود بالغنائم الملكية للخزانة الظمأى . فأفرج عنه جيمس افراجا مؤقتا مشروطا ، ووافق على أن يحتفظ رالى وشركاؤه بأربعة أخماس أية كنوز قد يستولى عليها من « الوثنيين المتوحشين » ولكن الملك الحذر البعيد النظر أبقى حكم الإعدام نافذ المفعول إغراء بحسن السلوك . وأشار السفير الأسبانى كونت جوندومار إلى أن هناك فى جويانا جاليات أسبانية ، ورجا ألا يضاروا أو يعكر صفوهم . فما كان من جيمس الحريص على السلام ،وعلى المصاهرة مع أسبانيا ، إلا أن حظر على رالى — تحت طائلة تنفيذ حكم الإعدام — التدخل فى شئون أية جاليات مسيحية فى أى مكان والأسبانية منها بوجه خاص (٧٠) ، ووافق رالى كتابة على هذه التحذيرات (٧١) ، واستمر جوندومار يعترض ويحتج ، فما كان من جيمس إلا أن أقسم على تنفيذ حكم الإعدام إذا خالف ر لى تعليماته (٧٢) .

وجهز رالى بمعونة أصدقائه ، أربع عشر سفينة أبحر بها فى ١٧ مارس ١٦١٧ إلى مصب نهر الأورينوكو . ولكن مستوطنة سانتا توماس الأسبانية اعترضت الطريق عبر النهر إلى المناجم المزعومة ،وتلك مسألة أسطورية تماما . ونزل رجال رالى إلى البر — وبقى هو على ظهر السفينة — وهاجموا القرية وأحرقوها وقتلوا حاكمها . وفترت همة القوة المنهوكة بما لقيت من مقاومة أسبانية بعد ذلك ، وتخلت عن ضالتها المنشودة فى الذهب ؛ وعادت صفر اليدين إلى السفن .

وانخلع قلب رالى عندما علم أن ابنه قد ذبح فى الهجوم ، وأنب الرجل الذى يليه فى القيادة ، فانتحر الرجل نتيجة لذلك . ولكن رجال رالى فقدوا ثقتهم به ، وتخلت السفن عن أسطوله الواحدة بعد الأخرى ، ولما عاد إلى انجلترا ، ووجد أن الملك غاضب عليه أشد الغضب ، أجرى مفاوضات للهرب إلى فرنسا ، ولكن قبض عليه ، فعاود محاولة الهرب ، ووصل إلى جرينتش . ولكن جاسوسا فرنسيا غدر به ، فقبض عليه وأودع السجن ، وأمر الملك ، الذى كان يستحثه جوندومار ، بتنفيذ حكم الاعدام .

وكان رالى ، آخر الأمر ، قد سئم الحياة ورحب بنعمة الموت العاجل ، فسار فى ٢٩ أكتوبر ١٦١٨ ، إلى ساحة الاعدام فى وقار هادىء ، جعل منه بطل شعب يمقت أسبانيا . وقال للموكلين بتنفيذ الحكم : « هيا ، أنجزوا مهمتكم ، لقد حانت ساعتى ، ولن أدع أعدائى يظنون أنى أرتعد فرقا » . واختبر بابهامه نصل البلطة ثم قال « هذا علاج ناجح عادل لكل ما أعانى من مرض وشقاء[٧٣] » وطالبت زوجته الوفية بجثته ودفنتها فى إحدى الكنائس . وكتبت « لقد أنعم علىّ السادة بجثته ، ولو أنهم أنكروا علىّ حياته . اللهم احفظ على عقلى وألهمنى الصبر[٧٤] » .

إن رحلة رالى كانت واحدة من رحلات كثيرة ، حملت رعايا جيمس إلى أمريكا ، يحدوهم الأمل . فالفلاحون المتلهفون على امتلاك أرض خاصة بهم ، والمغامرون الذين يجرون وراء الثراء من التجارة أو الأسلاب ، والمجرمون الذين يريدون الافلات من قبضة القانون ، والبيوريتانيون المصممون على رفع راية مذهبهم فوق أرض عذراء — هؤلاء جميعا وغيرهم ركبوا الصعاب وتحملوا مشاق البحر ليؤسسوا « انجلترا » جديدة فى كل مكان . فأسست فرجينيا فى ١٦٠٦ — ١٦٠٧ ، وبرمودا فى ١٦٠٩ ، ونيوفوندلند فى ١٦١٠ ، وهرب رجال الدين « الانفصاليون » الذين رفضوا كتاب الصلوات والطقوس الخاصة بالكنيسة الأنجليكانية ، إلى هولنده مع أتباعهم فى ١٦٠٨ . ومن دلفت (يولية ١٦٢٠) وسوثمبتون ويليموث (سبتمبر) أبحر هؤلاء الحجاج عبر الأطلسى . وبعد ثلاثة

أشهر من المحن والمخاطر . ألقوا مراسيهم على صخرة بليموث (٢١ديسمبر) .

وفى آسيا . اقتصرت شركة الهند الشرقية الانجليزية على ٣٠ ألف جنيه و ١٧ سفينة : حاولت بها عبثا أن تنتزع الثغور والطرق التجارية من شركة الهند الشرقية الهولندية التى كان لها ٦٠ سفينة و ٣٤٠ ألف جنيه ، ولكن بعثة سير توماس رو (١٦١٥) انتهت إلى إنشاء مستودعات تجارية فى أحمدأباد وسورات وأجرا ، وغيرها ، فى الهند . وأنشىء وعزز بالأسلحة فورت سان جورج ، لحمايتها (٤٠ ٦١) . لقد اتخــذت الخطوات الأولى لتأسيس الامبراطورية البريطانية فى الهند .

وعلى الرغم من مغريات المصالح التجارية ، والاستحثاثات البرلمانية والغيرة الوطنية الشعبية : ظل الملك جيمس لمدة ستة عشر عاما متمسكا بسياسة السلام : وتوسل إليه مجلس العمــوم أن يدخل حرب الثلاثين عاما إلى جانب البروتستانت المهددين بالخطر فى بوهيميا وألمانيا . وأهاب به أن يزوج ابنه الوحيد الباقى على قيد الحياة : لا من أميرة أسبانية ، بل من أميرة بروتستانتية . وندد بتراخيه فى تنفيذ القوانين المعادية للكاثوليكية ، وحثه على الأمر بفصل الأطفال الكاثوليك عن آبائهم ، وأن ينشأوا على البروتستانتية ، كما حــذره مجلس العموم من أن التسامح لابد أن يؤدى إلى نمو كنيسة كاثوليكية مفطورة صراحة على التعصب وعدم التسامح(٧٥) .

إن اختلاف وجهات النظر بين البرلمان والملك فى ١٦٢١ كاد أن يكون بمثابة تجريب للصراع بين البرلمان الطويل وشارل الأول (١٦٤٢) . واستنكر النواب اسراف البلاط ، والاحتكارات الدائبة على تعويق التجارة ، وفرضوا الغرامة والنفى على المحتكرين ، رافضين دفاعهم بأن الصناعة الناشئة لابد من حمايتها ضد المنافسة . فلما أنب جيمس مجلس العموم على تدخله فى أعمال « السلطة التنفيذية » أصدر المجلس (فى ١٨ ديسمبر) « الاحتجاج الأعظم » التاريخى الذى أكد من جديد أن « الحريات والاعفاءات والامتيازات ، وسلطة البرلمان ، هى التراث القديم وحق المولد غير المشكوك فيهما لأبناء انجلترا » : وأضاف : « أن المسائل الشائكة العاجلة

التى تتعلق بالملك والحكومة والدفاع عن المملكة .. كلها موضوعات ومادة صالحة للمشورة والمنافشة فى البرلمان[٧٦] » . ومزق جيمس فى غضب شديد ، من مضبطة البرلمان ، الصفحة التى دون فيها الاحتجاج ، وحل البرلمان (٨ فبراير ١٦٢٢) وأمر بأن يودع السجن أربعة من الزعماء البرلمانيين : سوثمبتون ، سلدن ، كوك ، بيم ، وعجل بتحقيق رغبة بكنجهام فى التحالف العسكرى مع أسبانيا .

وأغرى الوزير المستهتر آنذاك مليكه بأن يسمح له فى اصطحاب الأمير شارل إلى مدريد ، متباهياً ، ليرى الأميرة الأسبانية ، ويتمم الزواج ، ووافق جيمس على كره منه ، لأنـــه خشى أن فيليب قد يرد شارل إلى انجلترا خائبـــاً ، فيكون أضحوكة أوربا .

ووصل الأمير شارل ودوق بكنجهام إلى مدريد (مارس ١٦٢٣) ، فوجد أن الأميرة الفاتنة لا يمكن الوصول إليها أو الاقتراب منها ، وأن الشعب الأسبانى غاضب أشد الغضب لمجرد التفكير فى زواجها من أمير بروتستانتى ، قدر استياء الإنجليز لفكرة عودة أميرهم بعروس كاثوليكية إلى انجلترا . وقام فيليب ووزيره أوليفار بمراسم الحفاوة والتكريم للضيوف ، وكتب لوب دى فيجا رواية كمظهر من مظاهر الترحيب ، ورسم فيلاسكيه لوحة للأمير شارل ، وامتدح بكنجهام المفاتن الأسبانية إلى حد الامتياز والشرف . ولكن وضع لإتمام الزواج شرط أساسى لا مناص منه ، وهو منح الحرية الدينية للكاثوليك الإنجليز . ووافق شارل على الفور ، ووافق جيمس آخر الأمر ، ووقعت معاهدة الزواج ، ولكن عندما طلب جيمس فيما بعد من فيليب أن يعد باستخدام الأسلحة الأسبانية ، إذا اقتضى الأمر ، فى استعادة فردريك لإقليم البلاتينات ، أبى فيليب أن يلزم نفسه بشىء ، وأمر جيمس ابنه بالعودة إلى الوطن الحبيب . وإنا لنلمس الجانب الإنسانى فى الملك فى رسالته إلى شارل (١٤ يونيه ١٦٢٣) : « أنا الآن أعض بنان الندم ، وأتألم أشد الألم ، لأنى سمحت برحيلك . عنى أنا لا أعبأ بالزواج ولا بغيره ، طالما أراك بين أحضانى ثانية . أعادك الله إلى أعادك الله إلى أعادك الله إلى[٧٧] » أما الأميرة الأسبانية فانها ، عند توديعها الأمير شارل ، جعلته يقطع على نفسه الوعد بالاهتمام بأمر الكاثوليك فى انجلترا

ورعايتهم(٨٧) . وحيت انجلترا الأمير العائد بوصفه بطلا ، لأنه لم يأت بعروس ، بل أتى بدلا منها بمجموعة من لوحات تشيان (Titian — رسام من البنــدقية ١٤٧٧ — ١٥٧٦) .

أما بكنجهام الذى غضب الآن أشد الغضب لأنه خدع نفسه فى أسبانيا وارتكب هذه الحماقة هناك (كما أكد له أوليفار ذلك) فقد ولى وجهه شطر فرنسا ليعقد معها حلف مصاهرة ، وهيأ لشارل الزواج من صغرى كريمات هنرى الرابع — وهى هنريتا ماريا التى كان مذهبها الكاثوليكى شوكة من الأشواك فى جنب البرلمان القادم . واستعاد الوزير الشــاب المتهور شعبيته فى مجلس العموم ، بالالحاح على جيمس — الذى تدهورت صحته وانحطت قواه العقلية — ليعلن الحرب على أسبانيا. وعاد البرلمان إلى الاجتماع فى فبراير ١٦٢٤ ، وانتهج سياسة قوامها ، من جهة ، المصالح التجارية المتلهفة على الاستيلاء على المكاسب أو المستعمرات أو الأسواق الأسبانية ، ومن جهة أخرى ، صرف أسبانيا عن مد يد المساعدة إلى الامبراطور الكاثوليكى ضد البروتستانت فى ألمانيا . إن الشعب الذى قال بأن جيمس جبان لأنه يحب السلام ، قال عنه الآن أنه طاغية لأنه يجند الرجال للخدمة العسكرية. ولم تكن الكتائب التى أعدت ولا الأموال التى اعتمدت كافية . وأحس جيمس بالمرارة ، لاختتام حكم سلمى بحرب عقيمة .

وتكاثرت عليه العلل والأدواء فى أعوامه الأخيرة ، وكان قد سمم جسمه بالاسراف فى الطعام والشراب دون تمييز ، وكان يعانى الآن من التهاب بالجهاز التنفسى ، والتهاب المفاصــل والنقرس والحصى فى الكلى والبرقان والاسهال والبواسير ، وكان لابد من فصده يوميا ، حتى جعلت أقل متاعبه الملكية من هذا الفصد أمرا غير ضرورى(٨٩) . ورفض تناول الدواء . وتناول الأسرار المقدسة الخاصة بالكنيسة الأنجليكانية ، وفاضت روحه فى ٢٧ مارس ١٦٢٥ ، وهو يتمتم بآخر راحة لنفسه فى عقيدته .

وعلى الرغم من غرور جيمس وخشونته كان ملكا أفضل من بعض ملوك

يزوه فى النشاط والشجاعة والمغامرة . وكان « حكمه المطلق » بالدرجة الأولى عبارة عن « نظرية لطف الجبن من حدتها » وغالبا ما استسلمت لبرلمان قوى . ولم تحل مزاعمه اللاهوتية دون إرادة التسامح عنده ، وهو تسامح أكرم كثيرا من تسامح من خلفوه . وهيأ حبه الجرىء للسلام لانجلترا الازدهار ، وكبح جماح الولع بالقتال فى برلمانه ، وهو ولع يشوبه الفساد والرشوة ، وما يقابله من حماسة فى شعبه . وكان متملقوه قد أطلقوا عليه «سليمان » البريطانى لحكمته الدنيوية . ولما عجز صلى Sully عن توريطه فى النزاع فى القارة (أوربا) أطلق عليه "أعقل البلهاء فى العالم المسيحى" ، ولكنه لم يكن فيلسوفا ولا أبله ، ولكنه كان عالما يمثل دور الحاكم ، ورجل سلام فى عصر جن جنونه بالأساطير والحرب . إن الكتاب المقدس الذى تمت ترجمته فى عهد الملك جيمس أفضل من تاج أى غاز أو فاتح .

الفصل السابع

الدعوة إلى العقل

١٥٥٨ — ١٦٤٩

١ - الخرافة .

هل الناس فقراء لأنهم جهلاء ، أم جهلاء لأنهم فقراء ؟ تلك مسألة انقسم عليها الفلاسفة السياسيون إلى محافظين يؤكدون أهمية عامل الوراثة (التفاوت الفطرى الموروث فى القدرة العقلية) ، ومصلحين يعتمدون على البيئة (أهمية التعليم وإتاحة الفرصة) . وبازدياد الثروة وتوزيعها ينمو العلم ويتقلص ظل الخرافة . ومع ذلك فانه حتى فى البلد المزدهر ازدهارا كبيرا — وبخاصة بين الفقراء المنهوكين والأثرياء الخاملين — نجد أن الفكر يعيش فى متاهة من الخرافات : علم التنجيم ، حساب الجمل (دراسة المعانى السحرية أو التنجيمية للأعداد) ، قراءة الكف ، الأعاجيب ، الحسد ، السحرة ، الغيلان ، الأشباح ، العفاريت ، التعزيم لاستحضار الجن ، التعاويذ والرقى ، تفسير الأحلام ، الكرامات والمعجزات ، الشعوذة والدجل ، الخصائص الخفية ، الشافية أو المؤذية ، للمعادن والنباتات والحيوانات . فلنتدبر إذن الجو الخانق الذى يسمم جذور العلم بثماره ، فى شعب ذى ثروة ضئيلة أومركزة فى أيدى فئة قليلة . إن الخرافة لدى ضعاف الأجسام والعقول عنصر ثمين فى قصيدة الحياة ، تضىء أيامهم الكئيبة بالأعاجيب المثيرة ، وتخفف من بؤسهم بالقوى السحرية والأمانى الخفية .

وفى ١٦٤٦ احتاج سير توماس براون إلى ٦٥٢ صحيفة ليعدد ويعالج فى إيجاز الخرافات المنتشرة فى أيامه[1] ، إن كل هذا الايمان بالقوى الخفية تقريبا ، نما وازدهر

بين البريطانيين فى عهد اليزابث وأوائل عهد آل ستيوارت . ففى ١٥٥٧ نشر الملك جيمس السادس كتاباً يعتبر مرجعاً « الإيمان بالشياطين » وهو من المروعـات فى الأدب . وفيه ينسب إلى السحرة القدرة على ارتياد البيوت ، وغرس الحب و البغض فى قلوب الرجال والنساء بعض لبعض ، ونقل المرض من شخص إلى آخر ، والقتل بإحراق تمثال أو دمية من الشمع ، وإثارة العواطف المدمرة . وبرر عقوبة الإعدام للسحرة والمشعوذين — بل حتى لزبائنهم[٢] . وعندما كادت زوبعة تودى بحياته فى طريق عودته من الدنمرك مع عروسه ، أمر بتعذيب أربعة اشتبه فيهم حتى اعترفوا بأنهم كانوا قد تآمروا على القضاء عليه بوسائل سحرية . وأحرق واحد منهم حتى الموت ، وهو جون فين ، بعد أن عذب تعذيباً وحشياً[٣] .

واتفقت الكنيسة الوطنية الإسكتلندية مع الملك فى هذا الشأن ، وهدد القضاة المدنيون الذين يتساهلون مع السحرة بالحرمان من الكنيسة[٤] . وفيما بين عامى ١٥٦٠ — ١٦٠٠ أحرق نحو ثمانية آلاف من النسوة باعتبارهن ساحرات فى اسكتلندة التى لم يكن عدد سكانها يبلغ المليون[٥] . وكاد الاعتقاد فى السحر فى انجلترا أن يكون عاماً شاملا ، وشارك فى هذا الاعتقاد أطباء علماء مثل وليم هارفى وسير توماس براون . ونصت اليزابث العنيدة فى القوانين التى سنتها ١٥٦٢ على أن الاشتغال بالسحر جريمة عقوبتها الإعدام . وأعدم من أجلها إحدى وثمانون امرأة فى عهدها[٦] . وخفف جيمس السادس من نزمته بعد أن أصبح جيمس الأول ملك انجلترا ، وأصر على محاكمة المتهمين بالسحر محاكمة عادلة . وفضح الاعترافات والاتهامات الباطلة وأنقذ حياة خمس من النسوة اتهمهن صبى مخبول[٧] . وكادت المطاردة أن تنقطع بعد اعتلاء شارل للعرش ، ولكنها استؤنفت ؛ وبلغت أقصاها أيام حكم البرلمان الطويل ، حيث أعدم فى عامين اثنين (١٦٤٥ — ١٦٤٧) مائتان من السحرة[٨] .

وفى وسط هذه الموجة العاتية من الضراوة والعنف ارتفع صوت واحد يناشد العقل ويتحكم إليه ، هو ريجنالد سكوت ، وهو إنجليزى على الرغم من اسمه ، وقد نشر فى لندن ١٥٨٤ « الكشف عن السحر » . ولم يسبقه إلا جوهان فير فى كتابه

« خدعة الشيطان » (بازل ١٥٦٤) فى هذه المحاولة الخطيرة ، محاولة التخفيف من الخرافة البالغة القسوة . ووصف سكوت الساحرات بأنهن نسوة عجائز بائسات لا يستطعن الإضرار بأحد ، وأنهن ، حتى لو تصرف الشيطان عن طريقهن ، أولى بالرثاء والإشفاق ، أكثر منهن بالإحـراق ، وقال إنه فى نسبة المعجـزات إلى هاتيك العجائز الشمطاوات ، امتهاناً لمعجزات السيد المسيح . وفضح سكوت ألوان التعذيب التى جعلت اعترافات السحرة غير ذات قيمة ، وإجراءات المحاكمة المجافية للعدالة ، والمشوبة بالمخالفات والتراخى . والشكوك التى يزدردها القضاة والمحققون . ولكن لم يكن ثمة أثر للكتاب .

وفى هذا الجو حاول العلم أن يشب على قدميه .

٢ — العلوم

ومع ذلك ، فإن تقدم التجارة والصناعة كان يفرض تقدم العلوم . وكان من العسير أن تنسق النزعات الأفلاطونية والفنية فى عصر النهضة مع الاقتصاد المتوسع . واشتدت الحاجة إلى نهج عقلى يمكن أن يعالج الأرقام والحقائق . قدر ما يعالج النظريات والأفكار . ونشطت تجريبية أرسطو بعد تجريدها من أقنعة الفلسفة الهللينية المتأخرة فى الأسكندرية ومن أقنعة فلسفة العصور الوسطى . وقد أفسح توكيد الفلسفة الإنسانية الإيطالية على أمجاد الآداب القديمة وعظمتها ، نقول أفسح الطريق لتركيز أقل دقة على الحاجيات العملية الراهنة . وكان لزاماً على الناس أن تعد وتحصى ، وأن تقيس وتصمم أو تخطط . فى دقة وسرعة تحكمها المنافسة واحتاج الناس إلى أجهزة للرصد والتسجيل . ونشأت المطالب التى تحققت باختراع اللوغاريتمات والهندسة التحليلية وحساب المثلثات والآلات . والمجهر (الميكروسكوب) . وطرق الإحصاء ، والموجهات الملاحية . والأجهزة الفلكية ، وتوافرت الحياة فى أوربا الغربية منذ الآن فصاعداً . على مواجهة تلك الحاجيات .

واقترح جون نابير فى إسكتلندة ١٦١٤ ، وجوست بورجى فى سويسرا ١٦١٠ ، كل على حدة ، اقترحا طريقة للوغاريتمات (أى منطق الأرقام) يمكن بوساطتها إجراء

عمليات الضرب والقسمة وإيجاد الجذور في سهولة ويسر من الجداول الرياضية (جداول اللوغاريتمات) بأساس معين. وفى ١٦١٦ عدل هنرى برجز الطريقة من أجل الحساب العادى، بجعل الأساس ١٠ ونشر جداول تعطى لوغاريتمات الإعداد من١ إلى ١٠٠٠ر٢٠. وللآن يمكن إيجاد حاصل ضرب عددين، بأن يستخرج من مثل هذه الجداول العدد الذى يكون لوغاريتمه هو مجموع لوغاريتمى العددين المطلوب ضربهما. كما يمكن قسمة أ على ب، بإيجاد العدد الذى لوغاريتمه هو الفرق بين لوغاريتمى أ و ب. (لو أ ب = لو أ — لو ب. وأعد وليم أوترد Oughtred (١٦٢٢) وادموند جنتر (١٦٢٤) مساطر حاسبة يمكن بوساطتها إجراء العمليات الحسابية فى ثوان قليلة. وقد وفرت هذه المخترعات نصف الوقت الذى كان يصرفه الرياضيون والفلكيون ورجال الإحصاء والملاحون والمهندسون، فى عملياتهم الحسابية، وأطالت فى الواقع حياتهم[٩]. ووجه كبلر، الذى استخدم الطريقة الجديدة فى حساب حركات الكواكب، مديحاً حماسياً إلى لورد مارشستون (فى إسكتلندة) ١٦٢٠، ولم يكن يدرى أن نابيير كان قد قضى نحبه قبل سنوات ثلاث، وكان نابيير نفسه قد وقع فى خطأ يسير فى التقدير والحساب، حين حدد أن العالم سينتهى فيما بين عامى ١٦٨٨ و ١٧٠٠[١٠].

وظل الرياضيون والفلكيون متكاتفين تكاتفاً وثيقاً من أجل حساب حركات الأجرام السماوية، وحساب التقويم، وتطلب توجيه الملاحة مساعدة بارعة معقدة للقياسات الفلكية. ووضع توماس هاريوت، بوصفه عالماً رياضياً، الشكل القياسى للجبر الحديث، وأدخل علامات الجذر «أكبر من» و «أقل من» وأحل الحروف الصغيرة محل الكبيرة القبيحة المنظر، لتدل على الأرقام، وعثر مصادفة على الطريقة الناجحة، وهى وضع كل المقادير فى المعادلة فى طرف واحد، ووضع الصفر فى الطرف الثانى (المعادلة الصفرية) وبوصفه فلكياً اكتشف البقع الشمسية، وقام بارصاده لتوابع المشترى، مستقلا عن جاليليو. إن جورج تشابمان نفسه، وهو من فحول العلماء، قدر أن علم هاريوت «لا يباريه فيه أحد، وأنه لا حدود له[١١]».

وكان علم الفلك لايزال ينضح بالتنجيم . وكان تنجيم « الساعة » يقرر هل تلائم النجوم مشروع الساعة أولا تلائمه . وتنبأ التنجيم « الشرعى أو القضائى » بالأحداث عامة ، فى تعميم غامض متسم بالحكمة عادة . أما التنجيم « الطبيعى » فكان يكشف عن قدر الفرد وحظه من برجه — أى اختبار موقع النجوم ساعة مولده — وكل هذا موجود فى روايات شكسبير (ولو أنه لايدل على إيمانه به) ، وفى أيامنا هذه . وتقول نظرية التنجيم بأن القمر يحدث المد والجزر ، والبكاء ، والجنون ، واللصوصية (رواية شكسبير هنرى الرابع ١ — ٢—١٥) . وكانت كل علامة فى البروج تتحكم فى طبيعة وفى مصير أعضاء بعينها فى جسم الانسان (الليلة الثانية عشرة الفصل الأول ، ٣—١٤٦—١٥١) . واستخدم جون دى Dee الرموز فى الزمن بادماج التنجيم والسحر والرياضيات والجغرافيا ، واشتغل بالعرافة البللورية وكتب Treatise of the Rosie Crucean Secrets ، واتهم بممارسة السحر ضد الملكة مارى تيودور (١٥٥٥) ورسم خرائط جغرافية ومائية للملكة اليزابث . واقترح طريقا عبر الشمال الغربى إلى الصين . وابتدع عبارة « الامبراطورية البريطانية » وألقى محاضرات عن اقليدس أمام جماهير غفيرة فى باريس ، ودافع عن نظرية كوبرنيكس ، وأيد استخدام التقويم الجريجورى (قبل أن تروض انجلترا نفسها على هذه البدعة البابوية بمائة وسبعين عاما) . ومات عن إحدى وثمانين سنة ، وكانت حياة حافلة . وعزز تلميذه توماس دجز Digges تقبل فرضية كوبرنيكس فى انجلترا ، واستبق فكرة برونو عن الكون اللانهائى(١٢) . واستخدم توماس وأبوه ليونارد دجز « العدسات البللورية » ومن المحتمل أنها كانت بشيرا بظهور التلسكوب . واخترع وليم جاسكوان (حوالى ١٦٣٩) المصغر (الميكرومتر : أداة تستعمل مع التلسكوب أو فى الميكروسكوب لقياس الأبعاد والزوايا البالغة الصغر) الذى مكن الراصدين من ضبط التلسكوب بدقة لم يسبق لها مثيل . أما أرميا هوروكس ، وهو قسيس فقير من لنكشير مات فى سن الرابعة والعشرين ، فقال إن للقمر مدارا بيضاويا . وتنبأ — كما رصد (١٦٣٩) لأول مرة سجلها التاريخ — انتقال الزهرة حول الشمس . وساعدت تأملاته فى القوى التى

تحرك الكواكب ، نيوتن فى نظرية الجاذبية الأرضية .

وفى نفس الوقت كانت دراسة المغناطيسية الأرضية تمهد الطريق أمام نيوتن . فان جورج هارتمان ، وهو من رجال الدين الألمان (١٥٤٤) وروبرت نورمان: وهو انجليزى يشتغل بصنع البوصـلة (١٥٧٦) ، اكتشفا ، كل منهما بمفرده بعيدا عن الآخر ، انحراف الابرة المغناطيسية ، حين تكون معلقة تعليقا حرا من مركز ثقلها ، وميلها إلى الانحراف عن الوضع الأفقى إلى وضع يصنع زاوية مع سطح الأرض . وذهب نورمان فى كتابه « الحديد الجذاب » إلى القول (١٥٨١). بأن « عامل الجذب » الذى تنحرف إليه الابرة يقع فى الأرض نفسها(١٣) .

وجاء بعد هذه الطليعة الباهرة ، وليم جلبرت ، طبيب اليزابيث . وبعد سبعة عشر عاما من البحث والتجربة — التى اعتمد فى تمويلها على ثروته الموروثة ، كما عاونته الملكة أحيانا — نشر النتائج التى توصـل إليها فى أول مؤلف انجليزى كبير للعلوم : « فى المغناطيس ... والمغناطيس الأعظم وهو الأرض » (١٦٠٠) . لقد وضع إبرة بوصلة محورية ، على التعاقب : فى نقط مختلفة ، على حجر مغناطيس كروى . وسجل بخطوط على الكرة الاتجاهات التى اتجهت إليها الإبرة على التوالى ، ومد كل خط ليشكل دائرة كبيرة حول الحجر ، ووجد أن كل هذه الدوائر قطعت الكرة فى نقطتين متقابلتين تماما ، وكان هذان هما القطبان المغناطيسيان اللذان اعتبرهما جلبرت خطأ ، فى حالة الأرض ، القطبـين الجغرافيين . ووصف الأرض بأنها مغناطيس ضخم ، وفسر ، بناء على ذلك سير الابرة المغناطيسية ، وأظهر أن أى قضيب حديدى يترك لمدة طويلة فى وضع شمالى جنوبى لابد أن يصبح مغناطيسا . والمغناطيس الذى يوضع على أى من قطبى حجر المغناطيس الكروى ، يأخذ وضعا عموديا على الكرة . وإذا وضع فى أية نقطة متوسطة بين القطبين (وهى النقط التى تكون خط الاستواء المغناطيسى) يأخذ وضعا أفقيا . وانتهى جلبرت إلى أن انحراف الإبرة يكون أعظم ، كلما وضعت أقرب إلى القطبين الجغرافيين للأرض . وعلى الرغم من أن هذا لم يكن صحيحا تماما ، فقد أكده تقريبا هنرى هدسن فى ارتياده

المنطقة المتجمـــدة الشمالية (١٦٠٨) . ومن ملاحظاته الخاصة ، رسم اتجاهات لحساب خط العرض من درجة الانحراف المغناطيسى . وذهب إلى أنه « من حول جسم مغناطيسى تنتشر القوة المغناطيسية فى كل ناحية » . ونسب دوران الأرض إلى تأثير هذا المجال المغناطيسى . وانتقل جلبرت من هذا إلى دراسة الكهرباء — ولم يكن قد تم فيها شيء يذكر منذ القدم — وأثبت أن ثمة مواد أخرى كثيرة — غير الكهرمان ، يمكن بحكها أن تولد كهرباء بالاحتكاك . ومن اللفظة اليونانية لكلمة Amber (كهرمان) . كون لفظة Electric (كهرباء) لتدل على قوة تحرف الابرة المغناطيسية . واعتقد بأن كل الأجسام السماوية مزودة بالمغناطيسية ، واستخدم كبلر هذه الفكرة لتفسير حركة الاجرام السماوية . والحق أن معظم عمل جلبرت كان مثالا يدعو إلى الاعجاب للنهج التجريبى ، وأن آثاره على العلــوم والصناعة لا حدود لها .

وظهر تقدم العلوم أكثر إثارة فى جهود النفوس المغامرة أو المولعة بالتحصيل والكسب ، لا كتشاف « المغناطيس الأعظم » لأغراض جغرافية واقتصادية . وفى ١٥٧٦ نشر سير همفرى جلبرت (ولا يمت بصلة إلى وليم جلبرت) « مقالا موحياً .... عن طريق جديد إلى الصين » . مقترحا الابحار فى اتجاه الشمال الغربى ، عبر كندا أو حولها . وفى نفس العام أبحر ســير مارتن فروبشر بثلاث سفن صغيرة ليكتشف طريقا مثل هذا . وغرقت إحدى سفنه ، وهجر الثانية ملاحوها ، وسار هو قدا بالسفينة « جبراييل » البالغة الصغر والتى لم تتجاوز حمولتها ٢٥ طنا . ووصل إلى بفن لاند ، ولكن الاسكيمو حاربوه ، فعاد إلى انجلترا طلبا لمزيد من الرجال والمؤن . وانحرفت رحلاته بعد ذلك عن الجغرافيا للبحث عن الذهب دون جدوى ، ثم تمسك جلبرت بضالته المنشودة ، وهى الطريق الشمالى الغربى إلى الصين . ولكنه أغرق وهو يحاول ذلك (١٥٨٣) . وبعد ذلك بأعوام أربعة اندفع جون دافيز فى المضيق المسمى اليوم باسمه ، وحارب الأرمادا ، ثم انطلق إلى البحار الجنوبية مع توماس كافندش واكتشف جزر فولكلند ، وقتله القراصنة اليابانيون بالقرب من سنغافورة (١٦٠٥) وارتاد كافنــدش الجزء الجنوبى من أمريكا

الجنوبية وأكمل ثالث طواف حول الكرة الأرضية،ومات فى البحر (١٥٩٢)، وسار هنرى هدسن فى نهر هدسن (١٦٠٩) ، وفى رحلة أخرى وصل إلى خليج هدسن، ولكن بحارته الذين ذهبت الصعب بعقولهم ، واشتد بهم الحنين إلى الوطن ، تمردوا عليه ، وأنزلوه هو وثمانية معه فى قارب صغير مكشوف ، (١٦١١) ولم يسمع لهم ذكر بعد ذلك قط ، واكتشفت وليم بفن الخليج والجزيرة اللتين تحملان اسمه،وغامر حتى وصل إلى خط عرض ٤٥ر٧٧ — وهو مالم يصل إليه أحد مرة أخرى قبل مضى ٢٣٦ سنة — وكان له امتياز آخر ، وهو إيجاد خطوط الطـول لأول مرة برصد القمر . وشهد ريتشارد هاكلوت فى هذه السفن المأخوذة من خشب البلوط فترة من البسالة والرعب تفوق أية الياذة ، ونشر قصصها فى مجلدات ظهرت تباعا ، من أحسن ماعرف منها هومانشر تحت اسم « الابحارات الرئيسية ، رحلات الأمـة الأنجليزية وكشوفها » (١٥٧٩ ، ١٥٩٨ ، ١٦٠٠) ، وزاد صمويل بوركاس فى هذا السجل بكتاب« رحلات بوركاس (١٦٢٥) . وهكذا كان الطمع فى الحصول على الذهب ، والتحمس لمواجهة الأخطار ومشاهدة البلاد البعيدة سببا فى تقدم الجغرافيا دون قصد .

وكان أحسن ما حققه العصر فى الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا من عمل القارة . أما فى انجلترا ، على أية حال ، فان سيركنلم دجبى Kenelm Digby اكتشف ضرورة الأكسجين لحياة النبات ، كما أيد روبرت فلد Fludd ، وهو متصوف وطبيب ، فكرة التطعيم، قبل جنر Jenner بمائة وخمسين عاما . واستمرت وصفات الدواء تعتمد على إثارة الاشمئزاز ليكون للأدوية أثرها . وأوصى الدستور الرسمى للأدوية فى لندن ١٦١٨ ، بالمر ، وعصارة النبات (الدم) وتشريط الجلد ، وعرف الديك ، والفراء ، والعرق واللعاب والعقـارب وجلد الثعبان وحمار القبان (حشرة) ونسيج العنكبوت ، على أنها وسائل للعلاج ، وكان فصد الدم أول شىء يلجأون إليه(١٤) — وعلى الرغم من ذلك ، فان هذه الحقبة تفاخر بتوماس بار « بار العجوز Old Parr » الذى قدم إلى شارل الأول ١٦٣٥ ، على أنه يتمتع بصحة جيدة مع أنه كان كما زعموا ، فى الثانية والخمسين بعد المائة من عمره . ولم

يدع بار أنه يعرف سنه على التحقيق ، ولكن ولاة الأمور فى أبرشيته دونوا تاريخ ميلاده فى ١٤٨٣ ، وادعى أنه التحق بالجيش فى ١٥٠٠ ، وتذكر تفاصيل حل الأديار فى عهد هنرى الثامن . (١٥٣٦) ، فقال له الملك شارل الأول « لقد عمرت أطول من أى أناس آخرين ، فماذا فعلت أكثر مما فعلوا هم ؟ » فأجاب بار ، بأنه كان عمره فوق المائة حين ضاجع فتاة فحملت ، وأنه كفر عن خطيئته بأشد كفارة . وكان بار قد عاش ، تماماً تقريباً ، على البطاطس والخضر والخبز الجاف واللبن المخيض ، ونادراً ما ذاق اللحم . ولفترة من الوقت أصبح بار مشهوراً فى ردهات لندن وحاناتها ، وكانوا يقدمون له فيها ما لذ وطاب ، حتى أنه مات فى بحر عام من لقائه مع الملك . وفحص سير وليم هارفى جثته بعد وفاته فوجد أنه غير مصاب بتصلب الشرايين ، وشخص موته بأنه نتيجة لتغيير الهواء والغذاء[١٥] .

إن هارفى هو الذى هيأ لهذا العصر ذروة المجد العلمى بشرحه للدورة الدموية ، وهو « أجل حدث فى تاريخ الطب منذ عهد جالينوس[١٦] » . ولد فى فولكستون (١٥٧٨) ، ودرس فى كمبردج ثم فى بادوا على فابريزيو دكوابندانت ، فلما عاد أقام فى لندن ومارس الطب فيها ، وأصبح الطبيب الخاص لجيمس الأول ثم شارل الأول ، وعكف صابراً مثابراً ، سنين طوالا ، على إجراء التجارب والتشريح ، على الحيوانات والجثث ، ودرس ، بصفة خاصة تدفق الدم ومجراه فى الجروح . ووصل إلى نظريته الأساسية فى ١٦١٥[١٧] . ولكنه نشرها ، متأخراً ، فى فرانكفورت ١٦٢٨ ، على أنها « تجارب متواضعة فى تشريح الجثث ودماء الحيوان » . وهى أول وأعظم أثر فى الطب فى انجلترا .

وإن الخطوات التى تدرج فيها الكشف الذى توصل إليه هارفى لتوضح عالمية العلم . فإن وظائف القلب والدم ، ظلت لأكثر من ألف عام ، تفسر كما فسرها جالينوس فى القرن الثانى الميلادى . وكان جالينوس قد افترض أن الدم يتدفق إلى الأنسجة من الكبد والقلب سواء بسواء ، وأن الهواء يمر من الرئتين إلى القلب ، وأن الشرايين والأوردة بها مجريان للدم ، يدفعهما ويستدعيهما القلب ، فى حركة مد وجزر ، وأن الدم يجرى من الجانب الأيمن إلى الجانب الأيسر من القلب عبر

مسام فى الحجاب الحاجز بين التجاويف . وعارض ليونارد ودافنشى (حوالى ١٥٠٦) فكرة مرور الهواء من الرئتين إلى القلب ، وأنكر فيساليوس (١٥٤٣) وجود مسام فى الحجاب الحاجز . وكشفت رسومه البارعة للشرايين والأوردة عن أن نهاياتها أو أطرافها دقيقة ومتلاصقة حتى لا تكاد توحى بالمرور والدورة . وأوضح فابريزيو أن الصمامات فى الأوردة تجعل من المستحيل تدفق الدم الوريدى من القلب . وتلاشت نظرية جالينوس . واكتشف ميشيل سرفيتس (١٥٥٣) ، وريالدوكولومبو (١٥٥٨) ، الدورة الدموية الرئوية — أى مروره من الجانب الأيمن من القلب عبر الشريان الرئوى إلى الرئتين ومن خلالها ، وتنقية الدم هناك بوساطة التهوية ، وعودته عن طريق الوريد الرئوى إلى الجانب الأيسر من القلب . واستبق أندريا سيسالبينو (حوالى ١٥٧١) — كما سنرى النظرية الكاملة للدورة ، وتحولت النظرية إلى حقيقة واضحة جلية بفضل ما قام به هارفى .

وبينما كان فرانسيس بيكون ، المريض الذى يتولاه هارفى ، يمجد الاستقراء ، توصل هارفى إلى النتيجة الرائعة عن طريق الجمع اللافت للنظر بين الاستنتاج والاستقراء . إنه بتقديره كمية الدم المندفع من القلب فى كل انقباض أو تقلص بأنها نصف أوقية سائل ، حسب أنه فى ساعة ، لابد أن يصب القلب فى الشرايين ، ما يزيد على ٥٠٠ أوقية سائل ، وهى كمية تزيد على ما تحتوية الجسم كله ، فمن أين يأتى كل هذا الدم . وبدا من المستحيل أن مثل هذا القدر الكبير يمكن أن ينتج من ساعة إلى ساعة ، من هضم الغذاء . فاستنتج هارفى أن الدم الذى يخرج من القلب يعاد إليه ، وأنه ليس ثمة طريق آخر لهذا سوى الأوردة . وبفضل التجارب والملاحظات البسيطة . وعلى سبيل المثال ، الضغط بالأصبع على أى وريد سطحى — تبين فى الحال وبسهولة ، أن الدم الوريدى تدفق من الأنسجة نحو القلب .

عندما استعرضت مجموعة الشواهد التى لدى ، سواء ما استقيتها من تشريحات الأحياء وتأملاتى فيها ، أو من تجاويف القلب والأوعية التى تدخل إليها أو تخرج منها . . . . والتى كثيراً ما أمعنت التفكير فيها بشكل جدى . . . . ما عساها تكون كمية

الدم التى تنقل . . . ووجدت من المستحيل أن تكون مستمدة من عصارات الغذاء الذى يدخل إلى الجسم ، دون أن تجف الأوردة تدريجياً ، من جهة ، وأن تنفجر الشرايين لفرط امتلائها بالدم ، من جهة أخرى ، إلا إذا وجد الدم له ، بطريقة ما ، مخرجاً من الشرايين إلى الأوردة ، ومن ثم يعود إلى الجانب الأيمن من القلب . . . أقول إنى عندما استعرضت كل هذه البيانات والشواهد ، بدأت أفكر فى أنه يمكن أن يكون هناك ، « حركة ، كما لوكانت فى دائرة . » . . . والآن يمكن أن أستبيح لنفسى أن أدلى بفكرتى عن الدورة الدموية(١٨) .

وتردد طويلا فى نشر النتائج التى توصل إليها ، لما كان يعلم من روح المحافظة التى سادت مهنة الطب فى عصره . وتنبأ بأن أى فرد فوق الأربعين لن يقبل نظريته(١٩) . وروى أوبرى « سمعته يقول إنه بعد صدور كتابه : الدورة الدموية ، تدهور تدهوراً شديداً فى عمله ، حتى أعتقد السوقة أنه قد اختل عقله (٢٠) . وحتى أثبت مالبيجى Malpighi (١٦٦٠) وجود الأوعية الشعرية التى تحمل الدم من الشرايين إلى الأوردة ، لم تكن دنيا العلم تسلم بأن الدورة الدموية حقيقة واقعة . إن الفكرة الجديدة أضاءت كل مجالات الفسيولوجيا تقريباً وأثرت على المشكلة القديمة : مشكلة العلاقة المتبادلة بين الجسم والعقل . ويقول هارفى :

إن أى شعور فى العقل ، مصحوب بألم أو لذة ، بأمل أو خوف ، هو سبب فى اثارة يمتد أثرها إلى القلب ... وفى كل عاطفة تقريبا . . . تتغير ملامح الوجه ، ويظهر الدم جاريا هنا وهناك . وفى حالة الغضب تتقد العينان ، ويتقلص إنسان العين . وفى حالة التواضع تغمر الوجنات حمرة الخجل . أما فى حالة الشهوة فما أسرع ما يتضخم أو ينتفخ العضو بالدم (٢١) .

وظل هارفى فى خدمة شارل حتى الخاتمة الأليمة التى منى بها الملك تقريبا ، فقد رافقه حين طوحت الثورة بالملك إلى خارج لندن ، كما رافقه فى معركة ادجهل Edgehill ، حيث نجا من الموت بأعجوبة[٢٢] . وفى نفس الوقت نهب الثوار داره فى لندن ، وعبثوا بمخطوطاته ومجموعات التشريح التى كان يحتفظ بها . وربما كان هارفى قد جلب على نفسه عداوة كثير من الناس نظرا لحدة طبعه وآرائه . ولم يعتبر هارفى الانسان « إلا قردا ضخما شريرا كريها » كما قال أوبرى ، وذهب إلى « أننا نحن الأوربيين لم نعرف كيف نسوس نساءنا ونحكمهن ، وأن الأتراك هم الشعب الوحيد الذى استطاع أن يستخدمهن بحكمة[٢٣] . ولما كان محتفظا بنشاطه وحيويته وهو فى سن الثالثة والسبعين ، فانه نشر رسالة فى « علم الأجنة » (١٦٥١) ، نبذ فيها الاعتقاد السائد فى التوالد التلقائى لكائنات دقيقة من أجسام متحللة . واعتقد هارفى « بأن كل الحيوانات حتى هذه التى تنتج صغارها أحياء ، بما فى ذلك الانسان نفسه — تتطور وتخرج من بيضة ، وصاغ عبارة « كل حيوان يخرج من بيضة » . ومات بعد ذلك بست سنين بسبب شلل أصابه ، واهبا معظم ثروته التى تبلغ عشرين ألف جنيـــه لكلية الأطباء الملكية ، وعشرة جنيهات لتوماس هوبز « رمزاً للمحبة » .

٣ — صعود فرانسيس بيكون وسقوطه : ١٥٦١ — ١٦٢١

نحن الآن أمام أكبر عقل وأنشطه وأكثره مدعاة للفخر ، لقد وقفنا على مولده ونسبه ، ودراسته للأدب والدبلوماسية والقانون ، وفقره غير المتوقع ، والتماسه للوظيفة ، دون أن يسمع به أحد ، وتحذيره لصديقه المحسن الخير المجرم ، ومقاضاته أياه على كره منه . ولقد استنفد العلم والمعرفة والطموح كل طاقته ، حتى لم يعد به ميل إلى النساء ، على أنه على أية حال ، كان يحب الشبان[٢٤] . وفى سن الخامسة والأربعين (١٦٠٦) تزوج من أليس برنهام Barnham التى هيأت له ٢٢٠ جنيها فى العام . ولكنه لم ينجب أطفالا .

وعندما اعتلى جيمس الأول عرش انجلترا بعث إليه بيكون بكتاب مسرف فى

الزلفى والملق ، يعرض فيه نفسه على الملك على أنه صالح لتقلد المناصب وأهل لها ولما كان ابن حامل أختام الملك ، وابن أخ لآل سيسل أو من أبناء عمومتهم أو خئولتهم ، فإنه أحس بأن طول انتظاره للوظيفة الحكومية يعكس شيئا من روح العداء من جانب الوزراء المتربعين على كراسى الحكم ، وربما كانت انتهازيته المتبرمة ، نتيجة ، وفى نفس الوقت سببا فى تأخر تعيينه فى أحد المناصب . وكان قد خدم بالفعل فى البرلمان لمدة تسعة عشر عاما ، دافع فيها عادة عن الحكومة ، واشتهر بسعة الاطلاع ، والفكر البناء ، والعبارة الواضحة الأخاذة . وكان يرسل بين الحين والحين . إلى الملك « مذكرات » تفيض بالآراء السديدة فى كيفية النهوض بالتفاهم المتبادل والتعاون بين مجلس العموم واللوردات ، وتوحيد برلمانى انجلترا واسكتلنده ، وإنهاء الاضطهاد الدينى للمخالفين ، وتهدئة أيرلنده باستمالة الكاثوليك فيها ، واعطاء الكاثوليك فى انجلترا مزيدا من الحرية دون فتح الباب للمزاعم البابوية ، وإيجاد وسيلة للتوفيق بين الانجليكانيين والبيوريتانيين . وقرر مؤرخ درس الشئون السياسية فى تلك الحقبة دراسة مستفيضة — قرر « أن تنفيذ هذا البرنامج لم يكن يعنى الا تغيير كل مساوئ النصف الثانى من هذا القرن [٢٥] » . وطرح جيمس هذه المقترحات جانبا على أنها غير عملية فى ظروف التفكير السائدة. واكتفى بضم بيكون إلى طبقة الفرسان الثلاثمائة الذين وزعهم ١٦٠٣ ، وتذرع بيكون بالصبر وظلى يمنى نفسه .

وعلى الرغم من كل شئ ، فان براعته بوصفه محاميا لم توفر له الغنى والثراء إلا فى شئ من البطء . وفى ١٦٠٧ قدرت ثروته بنحو ٢٤,١٥٥ جنيه [٢٦]. وفى ضيعته التى زودها بكل ألوان الترف ، فى جورهامبرى ، كما هيأ لها نخبة من العاملين المرتفعى الأجور والسكرتيرين اليقظين مثل توماس هوبز ، نقول انه فى هذه الضيعة استطاع أن ينعم بالجمال والراحة اللتين أحبهما فى حكمة أكثر مما ينبغى ، ورعى صحته بالعمل فى الحديقة التى بنى فى وسطها ركنا فاخرا يأوى إليه ليخلو إلى نفسه يتفرغ إلى الدرس والبحث ، فكتب كما يكتب الفلاسفة وعاش كما يعيش الأمراء،

انه لم يجد سببا يبرر أن يكون العقل مفلسا ، ويبرر ألا يكون « سليمان » (أى الحكيم) ملكاً .

إن بيكون لم يطل به الأمد حتى يبلغ الهدف ، فان الملك جيمس الذى قدره حق قدره آخر الأمر عينه فى ١٦٠٧ مساعدا للنائب العام وفى ١٦١٣ نائبا عاما ، وفى ١٦١٦ عضوا فى مجلس شورى الملك ، وفى ١٦١٧ حاملا للأختام ، وفى ١٦١٨ قاضيا للقضاة . وخلعت عليه ألقاب كريمة جديدة لتزين مواهبه وقدراته : ففى ١٦١٨ عين بارون فيرولام الأول ، وفى يناير ١٦٢١ فيكونت سانت ألبانز . ولما غادر جيمس انجلترا إلى اسكتلنده ، ترك قاضى قضاته ليحكم البلاد . « واستقبل بيكون السفراء يحف به الجلال والعظمة » وعاش فى جورهامبرى محوطة الفخامة والأبهة « حتى بدا أن البلاط الملكى هنا (فى قصر جورهامبرى) ، وليس قصر هويتهول أو فى قصر سان جيمس (٢٧) » .

لقد حظى بيكون بكل شىء إلا الشرف . ففى سعيه وراء المناصب كثيرا ماضحى بالمبادىء ، فاستغل نفوذه ، كمساعد للنائب العام ، لاصدار الأحكام القضائية على الصورة التى يرغب فيها الملك (٢٨) ودافع ، وهو حامل للأختام الملكية ، عن أشد الاحتكارات تعسفا وظلما ، وحماها واضح أنه فعل هذا ابقاء على رضاء بكنجهام . وقبل ، وهو قاض ، هدايا ثمينة من المتقاضين أمام محكمته . ولم يكن كل هذا إلا شيئا من فساد هذا العصر ورخاوته ، ان الموظفين العامين كانوا يتقاضون رواتب هزيلة ، فعوضوا عنها « بالهدايا والعطايا » ممن يساعدونهم . واعترف جيمس قائلا : إذا كان لا بد لى من معاقبة الرشوة ، لمـــا تركت واحدا من الرعايا » . ان جيمس نفسه كان يقبل الرشوة (٢٩) .

وثارت ثائرة البرلمان الذى اجتمع فى يناير ١٦٢١ ضد الملك ـــ وكره بيكون ، لأنه أكبر مدافع عنه ، وأنه هو الذى قضى بشرعية الاحتكارات ، وإذا لم يكن فى مقدور البرلمان بعد أن يخلع الملك ، فان فى مقدوره تجريح وزيره ومساءلته . وفى فبراير عين لجنة لتقصى الحقائق فى دور القضاء خاصة . وفى مارس قدمت اللجنة تقريرا

أثبتت فيه أنها وجدت مخالفات كثيرة ، لاسيما فى تصرفات قاضى القضاة وسلوكه ، واتهمته بثلاث وعشرين حالة محددة من حالات الفساد . وأهاب بيكون بالملك أن ينقذه ، متنبأ بأن « هؤلاء الذين يطعنون قاضى القضاة الآن ، سرعان مايطعنون التاج بعده [٣٠] » . وأشار عليه جيمس باقرار الاتهام ، ومن ثم يضرب مثلا يحول دون الفساد فى الوظائف العامة مستقبلا ، وفى ٢٢ أبريل أرسل بيكون اعترافا إلى مجلس اللوردات . وسلم بأنه أخذ هدايا من المتقاضين ، كما فعل سائر القضاة ، وأنكر أن أحكامه تأثرت بها — فانه كان قد أصدر فى قضايا كثيرة أحكاما ضد مقدمى الهدايا. وحكم عليه مجلس اللوردات « بدفع غرامة قدرها أربعون ألفا من الجنيهات . وبالسجن فى برج لندن لمدة يرضاها الملك ، ولا يكون له إلى الأبد الحق فى تولى المناصب العامة ، وألا يدخل البرلمان فى الدولة بأسرها » . وسيق فى ٣٠ مايو إلى برج لندن ، ولكن أفرج عنه بعد أربعة أيام بأمر من الملك الذى ألغى كذلك الغرامة التى تبهظ كاهله . وآوى قاضى القضاة المعاقب إلى جورهامبرى ، وحاول أن يحيا حياة أكثر بساطة . ووجد راولى Rawley وهو أول من كتب سيرة حياة بيكون — على ورقة كتبها عند وفاته ، بالرمز « كنت أعدل قاض فى إنجلترا فى هذه السنوات الخمسين ،ولكنه كان كذلك أعدل تقريع من البرلمان فى هاتين المائتين من السنين» [٣١]

وكانت لهذا الاتهام والمحاكمة آثار طيبة ؛ ذلك أنها خففت من الفساد فى الوظائف العامة ، ولا سيما فى دور القضاء ، كما وضعت سابقة مسئولية وزراء الملك أمام البرلمان . كما أنها صرفت بيكون عن ميدان السياسة ، الذى كان فيه متحررا فى التفكير ، رجعيا فى التنفيذ ، وردته ثانية إلى مجال بديل ؛ هو مجال العلم والفلسفة حيث أمكنه « أن يدق الناقوس لتجتمع العبقريات معا » وأن ينادى فى نثر رائع بثورة العقل ومنهجه .

٤ — التجديد الكبير

كانت الفلسفة لأمد طويل ، الملجأ الذى يلوذ به بيكون هربا من عناء العمل ، إن لم تكن حبه الدفين الذى يطوى علية جوانحه ، وأسعد مايصبو اليه ويقبل عليه ؛ وكان بالفعل قد نشر فى ١٦٠٣ — ١٦٠٥ مؤلفا عظيما The Proficience

and Advancement of Learning (اتقان المعرفة والنهوض بها) ولكن بدا له أن هذا مجرد برنامج تمهيدى وليس انجازا . وفى ١٦٠٩ كتب إلى أسقف إلى Ely : أرجو أن يأذن الله لى فى أن أكتب كتابا مستفيضا منصفا فى الفلسفة ... [٣٢] » ، وفى ١٦١٠ كتب إلى كازوبون (عالم لاهوتى وكاتب فرنسى معاصر له) : « إن ما أهدف إليه هو أن أحدث تنظيما أفضل لحياة الانسان ... بفضل التأمل الصحيح الصادق[٣٣] » .

وفى أثناء السنوات التى أزعجته فيها المناصب ، كان بيكون قد أبصر — فى افتراض طائش فى أيام السعة والثراء — بخطة وقورة لتجديد العلم والفلسفة . وقبل سبعة شهور من سقوطه ، أعلن الخطة فى كتاب باللاتينية موجه إلى كل أوربا ، أسماه فى جرأة « التجديد الكبير » . وكانت صحيفة العنوان نفسها تحديا ، ذلك أنه قد رسم عليها قارب يعبر بأقصى سرعته أعمدة هرقل إلى الأطلسى ، ووضع بين الأعمدة أحد شعارات العصور الوسطى « لا تذهب إلى أبعد من ذلك » وكتب بيكون « إن كثيرين سوف يمرون عبره ، ولسوف تزداد المعرفة والعلم » . وأضافت المقـــدمة المزهوة « إن فرانسيس فيرولام (بيكون) قد تدبر هذا بينه وبين نفسه ، وحكم بأنه من مصلحة الأجيال الحاضرة والمستقبلة أن تتعرف على أفكاره[٣٤] . »

ولما وجد أن « ما يجرى فى مجال العلم الآن ليس إلا مجرد دوران حوله ، وحركة دائبة تنتهى إلى حيث تبدأ ، خلص إلى أنه » :

> ليس ثمة إلا سبيل واحد أمامنا .... وهو أن نحاول الأمر كله من جديد ، وفق خطة أفضل ، وأن نشرع فى أن نقيم من جديد ، إقامة تامة ، صرح العلـــوم والفنون العملية ، وكل المعرفة الانسانية ، على أساس سليم .... وفضلا عن ذلك فانه لما لم يكن يعلم كم من الزمن قد ينقضى قبل أن تتيسر هذه الأفكار لأحد غيره .... فانه

> عقد العزم على أن ينشر على الفور كل مايستطيع انجازه ، حتى يبقى ، فى حال وفاته ، موجزا أو خطة لما كان قد فكر فيه . إن كل المطامح بدت لناظريه هزيلة ضئيلة إذا قورنت بالعمل الذى هو بصدده(٣٥) .

وجعل إهداء المشروع برمته إلى جيمس الأول مع رجاء المعذرة « لأنى سرقت من الوقت المخصص لانجاز المهام التى وكلتها إلى ، وقتا اقتضاه هذا العمل » ، ولكن مع أكبر الأمل فى « أن يكون فى نتيجته تخليد لذكرى اسمك وتشريف لعهدك » — وهذا ماحدث ، فان جيمس كان رجلا معروفا بسعة الاطلاع والنوايا الطيبة ، فلو أمكن اقناعه بتمويل الخطة ، فأى تقدم كان يمكن تحقيقه ؟ وكما كان روجر بيكون قد أرسل قبل ذلك بزمن طويل (١٢٦٨) إلى البابا كليمنت الرابع « العمل العظيم » يلتمس منه العون على تنفيذ اقتراح بالنهوض بالعلم والمعرفة ، فان سميه أهاب الآن بالملك أن يأخذ على عاتقه « مهمة ملكية » هى تنظيم البحث العلمى ، والتوحيد الفلسفى لنتائجه ، من أجل الخير المادى والأدبى للجنس البشرى. وذكر جيمس « بالملوك الفلاسفة » — نرفا ، تراجان ، هادريان ، أنطونينوس ، بيوس ، ماركوس أوريليوس ، الذين هيأوا للامبراطورية الرومانية حكومة فاضلة لمدة قرن من الزمان (٩٦ — ١٨٠) بعد الميلاد . فهل كان من أجل حاجته إلى الاعتمادات الحكومية وأمله فى الحصول عليها ، أنه أيد الملك بمثل هذا العناد والاصرار ،وبشكل جر عليه الخراب ؟ .

وفى مقدمة أخرى طلب بيكون من القارىء أن يلقى نظرة على العلم السائد وقد هلهلته الأخطاء ، وركد بشكل مخز . لأن :

> « العباقرة العظام ، على تعاقب العصور ، كانوا يرغمون على الانحراف عن طريقهم ، إن الرجال ذوى القدرة والفكر ، فوق مستوى السوقة ، كان يسرهم ، من أجل الشهرة ، أن ينحنوا أمام حكم الزمن والجماهير ، وهكذا

فان أى تفكير من مستوى رفيع ظهر فى أى مكان ، كانت
تعصف به رياح الأفكار السوقية[٢٦] » .

ولكى يهدىء من روع رجال اللاهوت الذين كانوا متسلطين على الشعب أو الملك ، فان بيكون حذر قراءه من أن « يقصروا معنى » مايضطلع به « فى حدود الواجب ، فيما يتعلق بالمسائل الالهية أو الدينية » . وتنصل من أى قصد له فى التعرض للعقائد أو الشئون الدينية . « إن المهمة التى بين يدى ليست رأيا يجب اعتناقه ، بل هى عمل يجب القيام به . . . إنى لأأكد وأنصب فى وضع أساس أى مذهب أو نظرية ، بل أساس منفعة الانسان وقوته[٢٧] » . واستحث الآخرين أن يقبلوا عليه وينضموا إليه فى عمله ، ووثق فى أن الأجيال المتعاقبة ستواصله .

وفى نشرة تمهيدية رائعة عرض بيكون خطة للمشروع :

فأولا ، يمكن أن يحاول تصنيفا جديدا للعلوم القائمة أو المرغوب فيها ، ويفرد لها مسائلها ومجالات البحث فيها ، وهذا هو ما أنجزه فى " النهوض بالمعرفة " ، الذى ترجمه ووسع فيه فى كتاب (التوسع فى العلوم) ١٦٢٣ ، حتى يصل إلى القراء فى القارة .

ثانيا : ، يمكن أن يتفحص مواطن الضعف فى المنطق المعاصر ، ويسعى إلى " استغلال أدق وأكمل للعقل البشرى " مما صاغه أرسطو فى رسائله المنطقية ، المعروفة فى جملتها باسم Organon ، وهذا مافعله بيكون فى كتابه Novum Organum (١٦٢٠) .

ثالثا : يمكن أن يشرع فى " تاريخ طبيعى " " لظواهر الكون " — الفلك ، الفيزياء ، البيولوجيا .

رابعا : يمكن أن يعرض فى " سلم الفكر " نماذج من التحقيق العلمى ، طبقا لطريقته الجديدة .

خامسا : يمكن أن يصف مثل هذه الأشياء ، بوصفها بشائر ، " كما كشفتها أنا بنفسى " .

سادسا : يمكن أن يشرع فى تفسير تلك الفلسفة التى تعقبها فى مختلف العلوم على هذا النحو ، ومن ثم يجب إيضاحها وإثبات صحتها . « ان اكمال الجزء الأخير ... فوق طاقتى وأكثر مما أصبو إليه » . ويبدو لنا ، نحن الذين نتخبط ونلهث اليوم فى خضم المعرفة والتخصصات ، ان برنامج بيكون عقيم أشد العقم . ولكن المعرفة لم تكن آنئذ بمثل هذه السعة والدقة ، وأن روعة الأجزاء التى أنجزت لتغفر جراءة الكل . وعندما أفضى بيكون إلى سيسل بقوله « انى ضممت كل المعرفة إلى نطاق ولايتى » ، فانه لم يكن يقصد أنه فى مقدوره أن يستوعب كل العلوم تفصيلا ، ولكنه قصد أن يستعرض العلوم ، وكأنما يمسحها أو يلقى عليها نظرة عامة « من عل » ، بغرض تنسيقها وتشجيعها . وقال وليم هارفى عن بيكون إنه « كتب الفلسفة ، على نهج قاضى القضاة فى الكتابة [٣٨] » ، بل وخططها كما يخطط القائد الامبراطورى معركة .

وانا لندرك اتساع مجال العقل وحدة الذهن عند بيكون إذا نحن تتبعناه فى كتاب « النهوض بالمعرفة » ، إنه يعرض أفكاره فى تواضع غير مألوف ، على أنها « ليست أفضل كثيرا من الصوت ... الذى يحدثه الموسيقيون حين يضبطون آلاتهم [٣٩] » . ولكنه يعزف هنا كل نغماته المميزة ، إنه يدعو إلى مضاعفة عدد الكليات والمكتبات والمعامل وحدائق الأحياء والمتاحف العلمية والصناعية ، وتدعيمها جميعا ، كما يدعو إلى تحسين رواتب المعلمين والباحثين ، وتخصيص اعتمادات أكبر لتمويل التجارب العلمية ، وإلى اتصال متبادل وتعاون أوثق وخطة أفضل لتوزيع العمل بين جامعات أوربا [٤٠] . انه ، فى تقديسه أو عبادته للعلم ، لم يفقد رؤيته الصحيحة للأشياء أو وجهة النظر السليمة ، فهو يدعو إلى تعليم عام متحرر ، يشمل الأدب والفلسفة ، لأنه يهيئ للوصول إلى حكم سليم على الغايات التى تقترن بتحسين الوسائل على أساس علمى [٤١] . وهو يحاول أن يصنف العلوم فى ترتيب منطقى ، ويحدد مجالاتها وحدودها ويوجه كلا منها إلى أمهات المسائل التى تنتظر الفحص والحل وتحقق كثيراً من مطالبه عن طريق العلوم — تسجيل أفضل لتطورات المرض عند المريض ، إطالة الحياة باستعمال الأدوية الواقية ، الفحص الدقيق « للظواهر النفسية » ، والنهوض بعلم

النفس الاجتماعى . حتى لقد استبق دراستنا المعاصرة فى وسائل النجاح(٤٣) .

أما القسم الثانى والأكثر جراءة من « التجديد الكبير » فكان محاولة لصياغة منهج للعلم . لقد عرف أرسطو الاستقراء ، ودعا اليه أحيانا ، ولكن الأسلوب الغالب فى منطقه هو الاستنباط ، والمثل الأعلى فيه هو القياس . وأحس بيكون بأن المنهج القديم Organon قد أبقى العلم راكدا ، بتوكيده على الفكر النظرى أكثر منه على الملاحظة . الواقعية . أما « المنهج الجديد » فقد عرض فيه بيكون نظاما وأسلوبا جديدين للفكر — الدراسة الاستقرائية للطبيعة ذاتها ، عن طريق الخبرة والتجربة . وهذا الكتاب أيضا ، ولو أن بيكون تركه دون أن يكمله ، وعلى الرغم من كل عيوبه ، هو أروع انتاج فى الفلسفة الانجليزية ، وأول دعوة صريحة واضحة إلى عصر العقل . ولقد كتب باللاتينية ، ولكن فى عبارات مشرقة بليغة ، جرى نصفها مجرى الحكم وجوامع الكلم . إن السطور الأولى جمعت أطراف فلسفة ... تعلن الثورة الاستقرائية ، وتؤذن أو تنذر بالثورة الصناعية ، وتضع مفتاح التجريبية فى يد هوبز ولوك ومل وسبنسر .

> ان الانسان بوصفه خادم الطبيعة ومفسرها ، يمكن أن يعمل ويفهم الكثير ، والكثير حقاً من مجرى الطبيعة ، مادام قد لاحظ الطبيعة واقعيا ، أو بفكره ... أما ما وراء هذا فهو لا يستطيع أن يدرك شيئا أو يعمل شيئا . إن المعرفة الانسانية والقدرة البشرية تلتقيان فى الانسان الواحد ، وحيثما لا يعرف مجرى الطبيعة ، لا يمكن إنتاج الأثر المطلوب . ولكى تسيطر على الطبيعة . ينبغى أن تمتثل لها (*)

وكما اقترح ديكارت بعد ذلك بسبعة عشر عاما ، فى « بحث فى المنهج » ، أن يبدأ الفلسفة بالشك فى كل شىء ، فان بيكون هنا يتطلب تنقية الفكر «كخطوة أولى فى التجديد» . ذلك أن «المعرفة الانسانية كما نعهدها فى انفسنا ، ان هى إلا خليط وأكداس

(*) العبارة المشهورة « المعرفة قوة » لاترد بهذه الصيغة فى مؤلفات بيكون الموجودة الآن . ولكن فى نبذة من « التأملات المقدسة » كتب يقول « المعرفة نفسها قوة » (٤٣) والفكرة ، بطبيعة الحال ، سائدة فى كل كتابات بيكون .

لم يتيسر هضمها ، مكونة من كثير من السذاجة وسرعة التصديق ، وكثير من المصادفات والأعراض غير الجوهرية ، وكذلك من الأفكار الصبيانية التى تشربناها فى أول الأمر(٤٤) » . ومن ثم يجدر بنا ، منذ البداية ، أن نخلى أذهاننا ، قدر الطاقة ، من أية انشغالات سابقة وتحيزات وافتراضات ، بل يجدر بنا حتى أن ننصرف عن أفلاطون وارسطو ، ونكتسح من أفكارنا « الأصنام » أو الأوهام الخالدة التى ولدها فينا فرط الحساسية فى الحكم على الأشياء أو المعتقدات والتعاليم التقليدية السائدة فى مجتمعنا ، ويجب أن ننبذ الحيل المنطقية التى يمليها التفكير لمجرد الرغبة فى شىء ما ، والحماقات اللفظية للتفكير الغامض ، ويجب أن نخلف وراء ظهورنا ، كل طرق الاستنباط الفخمة ، تلك الطرق التى عرضت أن نستنبط ألفاً من الحقائق الباطنة من بضع بديهيات أو مبادىء قليلة . وليس فى العلم قبعة سحرية ، وكل ما يؤخذ من القبعة لخدمتنا يجب أن يوضع أولا عن طريق الملاحظة أو التجربة . ولكن لا يقصد هنا مجرد الملاحظة العابرة ؛ أو « السرد البسيط » للمعطيات ، ولكن « الخبرة . . . . المطلوبة للتجربة » . وعلى هذا نجد أن بيكون الذى غالباً ما انتقص من قدره على أنه يتجاهل المنهج الحقيقى للعلم ، يتقدم ليصف المنهج الفعلى للعلم الحديث :

> إن المنهج الصحيح للاختبار ، يشعل النور أولا (بالافتراض) ، ثم بوساطة هذا الضوء ينير الطريق ، بادئاً بالاختبار ترتيباً سليما . ومنه يستنتج بديهيات « الثمار الأولى » ، (النتائج المؤقتة) ومن البديهيات الراسخة تبدأ ثانية تجارب جديدة . . . إن التجربة نفسها هى التى ستقرر وتحكم(٤٥) .

ومهما يكن من أمر فإن بيكون كان على حذر من الفرضيات . حيث كانت فى الكثير الغالب توحى بها التقاليد أو التحيز أو الرغبة ، أى توحى بها (مرة أخرى) « الأصنام » . فكان يرتاب فى أى نهج تقليدى تصطفى الفرضية فيه ، قصداً أو عن غير قصد من التجريب معطيات مثبتة أو مؤكدة لها ، وتفسر تفسيراً خاطئاً أو تتعامى عن الشواهد العكسية أو المضادة . وتجنباً للوقوع فى هذا الشرك ، اقترح بيكون استقراء شاقاً ، بتجميع كل الحقائق الوثيقة الصلة بالمسألة ، وتحليل هذه الحقائق ومقارنتها

وتصنيفها ، وربطها بعضها ببعض ، ثم « بعملية صحيحة من « الاستبعاد والنبذ » أى التخلص من فرضية بعد أخرى ، على التعاقب ، حتى يمكن الكشف عن " الصيغة " أو القانون الأساسى الضمنى وجوهر الظاهرة(٤٦) . إن معرفة « الصيغة » سوف يهيىء تحكماً متزايداً فى الحدث ، فيعيد العلم بالتدريج صنع البيئة ، بل من المحتمل صنع الإنسان نفسه .

وأحس بيكون بأن هذا هو الهدف النهائى — أى أن منهج العلم سوف يطبق على التحليل البالغ الدقة للشخصية الإنسانية ، والصميم على إعادة تشكيلها . ويحث بيكون على دراسة الغرائز والعواطف ، وهذه وتلك وثيقة الصلة بالذهن ، قدر صلة الرياح بالبحر(٤٧) . ولكن هنا بصفة خاصة ، لا يكون الخطأ فى مجرد التماس المعرفة ، بل فى نقلها . ويمكن إعادة صنع الإنسان عن طريق التعليم المستنير ، لو أننا كنا نريد أن تجذب إلى ميدان التربية عقولا من الطراز الأول بمنحهم الرواتب الكافية وتكريمهم(٤٨) . ويبدى بيكون إعجابه بالجزويت ، وتمنى لو أنهم « كانوا على مذهبنا وفى صفنا(٤٩) » ، ويستنكر الملخصات ، ويحبذ التمثيل فى الكليات ، ويدعو إلى مزيد من العلم فى البرامج ، فإذا نظرنا إلى العلم والتعليم على هذا الأساس ، فإنهما (كما جاء فى « قارة أطلنطس الجديدة » لن يكونا من خدم الحكومة وأدواتها . بل مرشدها وهدفها ، ويختم قاضى القضاة الأمين بقوله « إنى أراهن بكل شىء فى سبيل نصرة الفن على الطبيعة فى سباقها(٥٠) » .

٥ — فلسفة رجل الدولة

هنا نحس بعقل جبار ... ى — رجل واحد على مدى قرن ، متمكن من الفلسفة ومن السياسة على حد سواء . وقد يشوقنا أن نقف على تفكير الفيلسوف فى السياسة ، وتفكير السياسى فى الفلسفة .

وعلى الرغم من أنه كان لبيكون منهج فى الفلسفة ، وأنه ترك عرضاً حسن الترتيب لفكره ، باستثناء المنطق ، فإن اتجاه أفكاره كان واضحاً ، ولو أنها اتخذت شكلا يدل على رجل كان لزاماً عليه كثيراً أن يخرج عن هدوء الفلسفة لينظر فى قضية

قانونية ، أو ليقف فى وجه المعارضة فى البرلمان ، أو ليمحض الرأى والنصح ملكاً لا يجدى معه الرأى والمشورة . ويجدر بنا أن نجمع آراءه من تعليقاته العابرة ومن نبذه الأدبية ، بما فى ذلك « مقالاته » (١٥٩٧ ، ١٦١٢ ، ١٦٤٥) . وفى إهدائه هذه المقالات إلى بكنجهام « وفى غرور صناعة الكتابة ، كتب بيكون، « إنى أرى . . . . أن الأثر قد يبقى ما بقيت الكتب » . وكان أسلوبه فى رسائله متكلفاً ملتوياً ، حتى لقد اعترفت زوجته : « إنى لا أفهم كتابته الملفوفة المليئة بالألغاز[٥٠] » . وبذل فى « المقالات » جهداً أكبر ، وراض قلمه على الوضوح ووصل إلى قوة هائلة فى التعبير ، لا تباريه فيها إلا صحائف معدودة فى النثر الانجليزى ، من حيث المادة ذات المغزى الهام الزاخرة بالتشبيهات المشرقة الواضحة فى صياغة دقيقة ، وكأنما أولع تاسيتس (مؤرخ رومانى — القرن الأولى الميلادى) بالفلسفة ، وتنازل ليكون واضحاً .

إن حكمة بيكون دنيوية إنه ينصرف عن الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) إلى الخفى أو الطائش من الأمور ، وقليلا ما قفز طموحه الوثاب من الجزء إلى الكل . ومهما يكن من أمر فإنه يبدو أحياناً أنه يخوض فى مادية حتمية : « لا يوجد فى الطبيعة حقاً ، شيء عدا الأجسام الفردية التى تؤدى أعمالا فردية صرفة طبقاً لقانون محدد[٥١] » . وإن البحث فى الطبيعة ليأتى بأحسن النتائج حين يبدأ بالفيزياء وينتهى بالرياضيات[٥٢] ولكن " الطبيعة " هنا قد تعنى العالم الخارجى . لقد آثر بيكون الفلاسفة المتشككين قبل سقراط ، على أفلاطون وأرسطو . وامتدح ديموقريطس الفيلسوف المادى[٥٣] . ولكنه حينئذ يرتضى تمييزاً دقيقاً بين الجسم والنفس[٥٤] ، ويستبق انتقاد برجسون للفكر على أنه « مادى أساسى » . « إن إدراك الإنسان يتأثر برؤية ما يجرى فى الفنون الميكانيكية . . . . ومن ثم يتخيل أن شيئاً شبيهاً بهذا يجرى فى الطبيعة الأشياء[٥٥] » . ويرفض مقدماً البيولوجيا الميكانيكية عند ديكارت .

ومع ما يعتمل فى نفسه من عواطف متصارعة نحو الدين ، نراه «يتبل» فى حرص، فلسفته « بالدين ، وكأنما يتبل بالملح[٥٦] » « الأفضل عندى أن أصدق الخرافات التى

فى حياة القديسين وفى التلمود وفى الكتب المقدسة ، على أن يكون هذا العالم بلا عقل[٥٧] » . ويضع الالحاد فى مكانه فى قطعة تكررت مرتين[٥٨] . وإن تحليله لأسباب الالحاد لتوضح فكرة هذا الكتاب : —

> إن أسباب الالحاد هى الانقسامات فى العقيدة ، إذا كانت كثيرة ، لأن أى انقسام أساسى يلهب حماسة الفريقين كليهما وغيرتهم ، ولكن الانقسامات الكثيرة تقود إلى الالحاد ، وثمة سبب آخر ، وهو أعمال القسس المخزية . وأخيرا ، عصور المعرفة ، وخاصة إذا سادها السلم والرخاء ، فان المتاعب والعداوات تزيد فى اتجاه عقول الناس إلى الدين[٥٩] .

إن بيكون يؤكد قاعدة أن " الدين يحد من كل ألوان المعرفة[٦٠] " . وطبقا لما رواه قسيسه راولى « كان يذهب كثيرا إلى الصلاة فى الكنيسة ، إذا سمحت ظروفه الصحية » . . . ولقى ربه على العقيدة الصحيحة للكنيسة الانجليزية »[٦١] وعلى الرغم من ذلك ، فانه أفاد ، مثل خلفه العظيم وليم أوكهام ، من التمييز بين الحقيقة اللاهوتية والحقيقة الفلسفية ، فقد يمسك الدين بمعتقدات لا يجد العلم والفلسفة عليها دليلا ، ولكن الفلسفة يجب أن تعتمـــد على العقل فقط ، كما أن العلم ينبغى أن يلتمس تفسيرات دنيوية صرفة ، على أساس سبب ونتيجة ماديتين[٦٢] .

وعلى الرغم من تحمس بيكون للمعرفة ، فانه يخضعها أو يضعها فى المحل الثانى من الأخلاق . فليس ثمة نفع للانسانية إذا لم يؤد التوسع فى المعرفة إلى الخير . « إن طيبة النفس هى أهم مزايا العقل ومنازله الرفيعة[٦٣] » ومهما يكن من أمر فان حماسته المألوفة تفتر حين يتحدث عن الفضائل المسيحية . ومن الواجب ممارسة الفضيلة باعتدال ، لأن الأشرار قد يخدعون الاخيار غير الحكماء[٦٤] . وقليل من الخداع أو الرياء ضرورى للنجاح ، إن لم يكن المدنية . والحب ضرب من الجنون ، والزواج نوع من الشرك أو الفخ : « إن الذى له زوجة وأولاد ، يضع عقبات فى سبيل النجاح ، لأنهم عوائق فى سبيل المغامرات والمشروعات الكبيرة . . .

إن أفضل الأعمال وأعظمها أثرا على النـــاس نبعت من إناس ليس لهم زوجة ولا أولاد . " وأقر بيكون – مثل اليزابث وهلدبراند – عزوبة رجال الدين ". إن حياة العزوبة تصلح لرجال الكنيسة ، لأن الصدقات لاتكاد تروى الأرض ، إذا كان لزاما عليها أولا أن تملأ بركة[٦٥] " (لاحظ نزعته إلى الاستعارة والمجاز والايجاز الأنجلوسكسونى) . إن الصداقة خير من الحب . وإن المتزوجين ليكونون صداقات غير ستقرة . إن بيكون يتكلم عن الحب والزواج بأسلوب رجل ضحى بالعواطف الرقيقة فى سبيل الطموح ، ورجل أمكنه أن يحكم مملكة أفضل من أن يحكم بيته .

أما فلسفته السياسية فقد واجهت حالات وظروفا أكثر مما واجهت نظريات . وأوتى من الشجاعة ما امتدح معها ماكيافللى . وارتضى صراحة المبدأ القائل بأن الدول ليست مقيدة بالقانون الأخلاقى الذى تلقنه لرعاياها . وأحس – مثل نيتشه ، بأن الحرب الجيدة ترحب بأى سبب ، « ويجب ألا نستمع إلى رأى أساتذة وفلاسفة العصور الوسطى الذى يقول بأنه ليس من العـــدل أن تشن الحرب إلا إذا سبقها وقوع الضرر أو الاستفزاز ... إن الخوف الحقيقى من خطر محدق ، ولولم تحدث أية ضربات ، سبب مشروع للحرب . » وفى أية حادثة « فان الحرب العادلة الشريفة هى الطريقة المثلى » للمحافظة على الأوضاع السليمة للأمة[٦٦] . وإنه لمن أقصى درجات الأهمية ، من أجل الامبراطورية والعظمة ، أن تؤمن الأمة بأن « سلاحها هو مناط شرفها ، وهو هدفها وشغلها الشاغل ». والبحرية القوية ضمان لاحترام الجيران . « والسيادة على البحار هى الرمز الحقيقى للملكية[٦٧] » . وفى شباب الدولة تزدهر الأسلحة ، وفى وسط عمر الدولة ، تزدهر المعرفة ، ثم تزدهر الأسلحة والمعرفة كلتاهما معا لفترة من الزمن ، وفى عصر اضمحلال الدولة تنتعش الأعمال التجارية والتجارة[٦٨] . وسكان المدن محاربون ضعاف ، والفلاحون أو القرويون أفضل منهم فى الحرب ، ولكن صغار ملاك الأرض الأحرار أفضل الجميع . ومن ثم فان بيكون – مثل مور ، استنكر المساحات الزراعية الكبيرة

المسورة ، لأنها تقلل من نسبة ملاك الأراضى فى السكان . واستنكر تركيز الثروة على أنه سبب هام من أسباب الفتن والثورات :

> وأول علاج أو مانع لهذه ، هو أن نزيل بكل الوسائل الممكنة ، السبب المادى . . . وهو الحاجة والفاقة . . . ونهتم بكل مايخدم التوسع فى التجارة وتوازنها ، وتعزيز الصناعة والقضاء على الخمول ، والتبديد والتبذير ، بسن قوانين الحد من الانفاق وتنظيمه . وتحسين التربة وعدم إرهاقها وتحديد أسعار الحاجيات المبيعة وتخفيف الضرائب . . . وفوق هذا كله ، انتهاج سياسة حكيمة فى عدم تجميع ثروات الدولة وأموالها فى أيد قليلة .... إن المال مثل السماد ، لاخير فيه ، إلا إذا انتشر(٦٩) .

وارتاب بيكون فى البرلمان ، بوصفه مشكلا من ملاك الأراضى والتجار غير المتعلمين المتعصبين أووكلائهم ، وفكر فى أن جيمس الأول ، بالمقارنة بهؤلاء ، متعلم يتحلى بروح إنسانية ، بل إن نظرية الملك فى " الحكم الاستبدادى المطلق " بدت فى نظره خيرة كبديل عن الزمر الجشعة والمذاهب العنيفة . واعتبر — مثل معاصره ريشيليو — أن تركيز السلطة فى يدالملك،واخضاع كبار ملاك الأراضى له ، خطوة ضرورية لإقامةحكومة منظمة. وذهب ،مثل فولتير :إلى أن تعليم رجل واحد أيسر من تعليم الجماهير . إن الثروة الهائلة الخاصة لم تزعج الملك . وكان جيمس مشدودا فى عناد بالغ إلى التبذير والضرائب والسلام .

وسخر بيكون من « الفلاسفة » الذين « يسنون قوانين خيالية لدول خيالية ، إن مقالاتهم أو محاضراتهم ، كالنجوم التى لاتعطى إلا قليلا من الضوء لأنها علىارتفاع شاهق » . ولكنه فى أيام سأمه ، أغرى بأن يصور نوع المجتمع الذى يريده للناس ليعيشوا فيه . ولا ريب فى أنه كان قد قرأ " يوتوبيا " مور (١٥١٦) ، وكان كامبانللا قد نشر لتوه كتابه " مدينة الشمس " (١٦٢٣) ، والآن فى ١٦٢٤

كتب بيكون " القارة الجديدة " (The New Atlantis) " أبحرنا من بيرو التى كنا قد قضينا فيها سنة كاملة إلى الصين واليابان عبر البحر الجنوبى " : هدوء تام ، أرزاق محدودة ، جزيرة تحوطها العناية الإلهية ، شعب يحيا حياة سعيدة فى ظل قوانين سنها لهم المغفور له الملك سليمان . وبدلا من البرلمان . مجلس سليمان — مجموعة من المراصد والمعامل والمكتبات وحدائق الحيوان والنبات ، مزودة برجال العلم ورجال الاقتصاد والفنيين والأطباء وعلماء النفس والفلاسفة ، مختارين (كما هو الحال فى جمهورية أفلاطون) بعد اختبارات متكافئة بعد فرص تعليمية متكافئة ، ثم (دون إجراء انتخابات) يحكمون الدولة ، أو بالأحرى ، يحكمون الطبيعة ، لمصلحة الانسان . ويشرح أحد هؤلاء الحكام للمتبربرين القادمين من أوربا فيقول:
" إن غاية مؤسستنا هى معرفة أسباب الأشياء وحركاتها الخفية ، وتوسيع حدود " امبراطورية الانسان ، من أجل التأثير فى كل الأشياء الممكنة(٧٠) " ، وفى هذه " الفتنة " التى تقع فى جنوب المحيط الهادى اخترع سحرة سليمان بالفعل الميكروسكوب والتلسكوب والساعات الذاتية الملء ، والغواصات والسيارات والطائرات ، واكتشفوا المسكنات والتنويم المغناطيسى ، ووسائل المحافظة على الصحة وإطالة العمر ، ووجدوا طرق تطعيم النبات وتوليد أنواع جديدة ، وتحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة . ونقل الموسيقى إلى أماكن بعيدة . وفى مجلس سليمان ترتبط الحكومة والعلم معا . وكل الأدوات وتنظيم البحث ، وهو ماكان بيكون قد توسل إلى جيمس أن يزود به البلاد ، موجودة هنا ، فى القارة الجديدة ، كجزء من عدة الحكومة وأدواتها . والجزيرة تتمتع باستقلال اقتصادى ، وهى تتحاشى التجارة الخارجية لأنها شرك ينصب الحرب . إنها تستورد المعرفة لا السلع . وهكذا يحتل الفيلسوف المتواضع مكان رجل الدولة المزهو بنفسه ، كما أن نفس الرجل الذى كان قد نصح بالحرب أحيانا عند الاقتضاء ، بوصفها دواء مقويا أو منشطا اجتماعيا ، نراه الآن ، وقد آذنت شمس حياته بمغيب ، يحلم بجنة من السلام .

٦ — صيحة العقل

استمر بيكون يعمل حتى النهاية . فنشر بعد عام واحد من تقاعده ، " تاريخ

حكم هنرى السابع » ، سجل به مستوى جديدا لكتابة التاريخ ، فهو تفسير واضح صريح ، فى نثر رشيق قوى ، للقضايا والسياسات والأحداث ، وصورة وصفية أدبية متصفة نزيهة أخاذة لحاكم بعيد عن المثالية ، حقيقية إلى حد بعيد[٧١] . وأعقب هذا مجموعة من الرسائل : " دراسة فى الرياح " " دراسة فى الكثافة والتخلخل " . " دراسة فى الحياة والموت " ، وأبحاث أخرى ، لقد تهيأ له الآن من الفراغ مالم يكن يتوقعه ، فليس ثمة دار ولا أهل ولا أصدقاء ، فان كل طلاب المنافع الذين كانوا يزدحمون على بابه أيام نفوذه وسلطانه ، تمسحوا الآن بأعتاب أخرى . وسأل مرة أحد من يتبادل معهم الرسائل : " من معك من الزملاء فى عملك ؟ فأجاب اننى الآن فى وحدة تامة[٧٢] " .

وفيما كان يحاول أن يختبر كم من الوقت يمكن أن يحفظ الجليد اللحم من التعفن والفساد ، قطع الرحلة ذات يوم من أيام الربيع ليشترى دجاجة ، وذبحها وحفظها فى الجليد ، فوجد أنه أصيب بقشعريرة . فلجأ إلى دار لورد أروندل Arundel المجاورة ، حيث وضعوه فى الفراش ، وظن أنه سقم عارض لايلبث أن يزول ، وكتب أن التجربة " نجحت نجاحا تاما " ، إنه حفظ الدجاجة ، ولكنه فقد حياته. لقد قضت عليه الحمى ، وخنقه البلغم فى ٩ ابريل ١٦٢٦ . ومات فى سن الخامسة والستين . وانطفأت الشمعة المتوهجة فجأة .

لم يكن بيكون ، كما ظن بوب " أحكم وأذكى وأحط بنى الانسان [١٣] " . فان مونتانى كان أحكم ، وفولتير أذكى ، وهنرى الثامن أحط ، وقال أعداء بيكون عنه إنه كان عطوفا نافعا ، يبادر إلى الصفح والمغفرة . وكان أنانيا إلى حد الخنوع والاستسلام ، ومزهوا إلى حد اغضاب الآلهة . ولكننا نشاركه هذه الأخطاء إلى حد نغتفر معه طبيعته البشرية من أجل الأضواء التى نشرها . إن غروره كان القوة الدافعة فيه . وإذا كنا نرى أنفسنا كما يرانا غيرنا لشلت حركتنا وتوقفنا عن العمل .

ولم يكن بيكون من رجال العلم أو الأفراد العلميين ، ولكنه كان فيلسوف علم. وكان مدى قوة الملاحظة عنده هائلا ، ولكن مجال تأمله وتفكيره كان فسيحا إلى

حد لايهيء له الوقت الكافى للبحث الخاص . وحاول شيئا من هذا دون نتيجة تذكر . . . وتخلف كثيرا عن تقدم العلم المعاصر . ونبذ آراء كوبرنيكس الفلكية ، ولكنه أورد أسبابا وجيهة لذلك[٧٤] . وتجاهل كبلر وجاليليو ونابيير . وكثيرا ماتنبه (كما حدث فى " القاره الجديدة ") إلى دور ملكة الخيال والافتراض والاستنباط فى البحث العلمى ، ولكنه ظل ينتقص من أهميته، وأتى اقتراحه بطول الأناة فى تجميع الحقائق وتصنيفها ، بأحسن النتائج فى علم الفلك ، حيث زودت الأرصاد النجمية والتسجيلات التى قام بها آلاف الباحثين — زودت كوبرنيكس بمادة استقرائية ، لاستنباطاته الثورية ، ولكنها لم تكن قريبة الشبه بالطرق الفعلية التى كشفت فى عصره قوانين حركات الكواكب وتوابع المشترى وجاذبية الأرض والدورة الدموية .

ولم يزعم بيكون أنه اكتشف الاستقراء ، وعرف أن أناساً كثيرين مارسوه من قبل . ولم يكن أول من " أطاح " بأرسطو. فان رجالا مثل روجر بيكون ، وبتروس راموس ، فعلا هذا لعدة قرون خلت . ولكن أرسطو الذى أطاحوا به (كما تحقق بيكون أحيانا) لم يكن أرسطو الاغريق الذى كان كثيرا ما استخدم وامتدح الاستقراء والتجريب ، ولكن أرسطو الفيلسوف الذى صنعه العرب وأتباع الفلسفة السكولاستية (الفلسفة النصرانية فى العصور الوسطى) . إن الذى أراد بيكون أن يقضى عليه هو المحاولة الخاطئة لاستنباط عقائد العصور الوسطى من الميتافيزيقا القديمة ، لقد ساعد بيكون على أية حال ، على تخليص أوربا النهضة من الاذعان البالغ التزمت للقديم .

ولم يكن بيكون أول من أكد أن المعرفة طريق القوة . فقد فعل روجر بيكون هذا من قبل ، وقال كامبانالا ، فى بلاغة بيكون : " إن قوتنا تتناسب مع معرفتنا[٧٥] " . وربما أفرط رجل الدولة فى الالحاح على الغايات النفعية (طبقا للمذهب المنفعة) للعلوم . ومع ذلك فانه أقر بقيمة " العلوم البحتة " بمقارنتها " بالعلوم التطبيقية " — تمييزا " لنور العلم " عن " ثماره " . وحث على دراسة الغايات والوسائل بقدر سواء ، وأدرك أن قرنا من الاختراع لا بد أن يخلق مشاكل كبرى ،

أكثر من أن يحل المشاكل القائمة ، إذا ترك الدوافع الانسانية على حالها دون تغيير ؟ وربما تبين بيكون ، فى انحلاله الخلقى هو نفسه ، الهوة التى خلقها تقدم المعرفة إلى ما هو أبعد من تهذيب الخلق ؟

ترى ماذا تبقى بعد ما أسلفنا من استنتاجات متأخرة ؟ يبقى أن بيكون كان أقوى أهل الفكر والذكاء وأعظمهم أثرا فى زمانه . لقد بزه شكسبير بطبيعة الحال فى الخيال والفن الأدبى . ولكن عقل بيكون حلق فى الكون كله ، مثل نور كشاف يحدق ويحقق مستطلعا ، فى كل الزوايا والخفايا ، فتمثلت فيه كل حماسة النهضة المتقدة اليقظة، وكل الانارة والزهو اللذين تملكا كولمبوس وهو يبحر مسعورا إلى عالم جديد . استمع إلى هذه الصيحة المرحة من الديك روبين Cock Robin وهو يؤذن بانبلاج الفجر :

> وهكذا انتهيت من هذا القسط من التعليم الذى يمس المعرفة المدنية ، وبهذه المعرفة المدنية ختمت الفلسفة الانسانية ، وبهذه الفلسفة الانسانية ، انتهيت من الفلسفة بصفة عامة . والآن وقد توقفت قليلا ، أنظر إلى الوراء ، إلى ما مررت به أو تصفحته ، فانه يبدو لى ، قدر ما يستطيع الانسان أن يحكم على نفسه ، أن هذه الكتابة ليست أفضل كثيرا من الصخب أو الصوت الذى يحدثه الموسيقيون عند ضبط آلاتهم ، مما لا يطرب الانسان لسماعه ، ومع ذلك فان هذا الضبط سبب فى حلاوة الموسيقى فيما بعد . وكذلك قنعت أنا بضبط آلات الوحى والتأمل حتى يكون العزف أفضل والأيدى أقدر . وحقا ، أنى إذ أضع أمامى حالة هذه الأزمان التى قامت فيها المعرفة بزيارتها أو جولتها الثالثة ، بكل خصائصها ، مثل تفوق عباقرة هذا الزمان وحيويتهم ، والمساعدات والأنوار التى حصلنا عليها من أعمال الكتاب القدامى ، وفن الطباعة الذى ينقل الكتب إلى كل الناس من جميع المستويات ، وانفتاح العالم بفضل

الملاحة التى كشفت النقاب عن تجارب لاحصر لها ، وعن قدر كبير من التاريخ الطبيعى ... أقول حقا إنى إزاء هذا كله ، لاأملك إلا أن أصل إلى الاقتناع بأن هذه الحقبة الثالثة من الزمن تفوق كثيرا عهد المعرفة اليونانية والرومانية ... أما عن جهودى وأعمالى ، إذا كان ثمة جهود وأعمال لى ، فانه إذا عنى الانسان أن يسر نفسه أو يسر الآخرين بالانتقاص من قيمتها أو نقدها ، فانها ستعود إلى المطلب القديم المتسم بالصبر والجلد « اضربنى إذا ما أردت ، ولكن اسمعنى فقط » فلينتقد الناس وليقرعوا ماشاءوا ، فانهم بذلك سوف يلاحظون ويقدرون(٧٦) .

إن بيكون عبر عن أنبل مشاعر عصره — لتحقيق حياة أفضل عن طريق التوسع فى المعرفة — ومن ثم فان الاعقاب خلدوا ذكراه بتذكار حى ، هو تأثرهم به ، لقد حركت روحه — لاطريقته — العلماء وبعثت فيهم القوة والنشاط . فكم أنعشهم وشحذ عزائمهم ، بعد قرون كانت العقول فيها حبيسة قواعدها ، أو واقعة فى شراك عناكب من نسج الرغبات لاالحقائق ، أن يصادفوا رجلا أحب صوت الحقيقة مهما كان عنيفا ، وأحب جو البحث والكشف ، وهو جو يبعث على الحياة ، رجلا وجد متعة فى القاء ظلال الشك على دياجير الجهل والخرافة والخوف . وظن بعض رجال ذاك العصر ، مثل دون ، أن العالم فى طريقه إلى الاضمحلال والانحلال ، وأنه يسير بسرعة إلى نهاية الفناء والتحطيم ، فأعلن بيكون إلى عصره أنه مرحلة شباب عالم ، زاخرة بفورات الحياة .

ولم يكن الناس لينصتوا إلى بيكون فى بداية الأمر ، فإنهم فى انجلترا وفرنسا وألمانيا آثروا تحكيم السلاح فى صراع العقائد ، فلما خفت حدة هذا الصراع ، فان هؤلاء الذين لم يكونوا مغلولين بقيود الحقائق ، احتشدوا ، تحدوهم روح بيكون ، ليزيدوا من سيطرة الناس ، لا على الناس ، بل على ظروف حياة الانسان ومايعتورها

من عقبات . وعندما أسس رجال من الانجليز « الجمعية الملكية فى لندن للنهوض بالمعرفة الطبيعية » (١٦٦٠) ، كان تكريما لفرانسيس بيكون وتخليدا لذكراه ، أن يكون مصدر وحى الجمعية وملهمها ، ومن الجائز أن : « مجلس سليمان » فى « القارة الجديدة » هو الذى حدد هدفها(٧٧) . وحيا ليبنتز بيكون باعتباره خالقا للفلسفة من جديد(٧٨) . وعندما تكاتف فلاسفة عصر التنوير لتأليف دائرة معارفهم التى هزت العالم (١٧٥١) فانهم أهدوها إلى فرانسيس بيكون . وكتب ديدرو فى نشرتها التمهيدية : « إذا كنا أدينا مهمتنا بنجاح ، فاننا نكون مدينين بأكبر الفضل لقاضى القضاة بيكون الذى اقترح خطة قاموس عالمى للعلوم والفنون ، فى عصر لم يوجد فيه — إذا صح التعبير — علوم ولا فنون ، وأن هذا العبقرى الفذ ، كتب فى عصر كان من المستحيل فيه كتابة تاريخ لما هو معروف — كتب تاريخا أو دراسة لما هو ضرورى أن نتعلمه أو نعرفه » . وفى غمرة الحماس قال دالمبرت عن بيكون « إنه أعظم الفلاسفة وأفصحهم وأكثرهم شمولا » . ولما تمخضت جماعة التنوير عن الثورة الفرنسية قررت نشر مؤلفات بيكون على حساب الدولة(٧٩) . ونهج الفكر البريطانى فى مغزاه ومبناه ، من هوبز إلى سبنسر — باستثناء بركلى وهيوم والهيجليين الانجليز — منهج بيكون ، فان نزعته إلى إدراك العالم الخارجى على أساس من المذهب الذرى عند ديموقريطس ، هى التى حركت هوبز إلى المادية ، وتوكيده على الاستقراء هو الذى وجه هوبز إلى علم النفس التجريبى الذى تتحرر فيه دراسة العقل من ميتافيزيقا النفس ، كما أن تركيزه على « المنافع » و « التطبيقات » أسهم مع فلسفة هلفشيوس فى توجيه بنتام إلى تعيين « النافع والصالح أو الحسن » . وأخيرا فان روح بيكون هى التى هيأت انجلترا للانقلاب الصناعى .

ومن هنا جاز لنا أن نضع بيكون فى قمة عصر العقل . إنه لم يكن مثل بعض من جاءوا بعده ، يحب العقل حبا أعمى ، فانه ارتاب فى أية أفكار أو خطط لم يتحقق منها التجريب الفعلى ، وفى كل النتائج التى شابتها الرغبة . « إن الادراك الانسانى ليس ضوءا جافاً ، إن الارادة والعواطف تنفخ فيه ، ومن ثم تنطلق العلوم التى يمكن تسميتها : بعلوم يريدها الانسان ، لأن مايرى الانسان أنه يكاد يكون

حقيقيا ، يصدقه ويؤمن به على الفور » (٨٠) . وآثر بيكون " ذلك العقل المنتزع من الحقائق ، .... ومن تحالف أوثق وأنقى بين هاتين القوتين : التجريبية والعقلانية ، يمكن أن نأمل فى خير كثير (٨١) " .

كما أن بيكون لم يقل ، مثل فلاسفة القرن الثامن عشر ، بأن العقل عدو الدين أو أنه بديل عنه ، إنه أفسح لكل منهما مجالا فى الفلسفة وفى الحياة . ولكنه كره الاعتماد على التقاليد والنصوص والمراجع ، وطالب بتغييرات عقلانية طبيعية بدلا من الافتراض أو الحدس العاطفى ، ومن الاعتراضات الخارقة للطبيعة ، والأساطير الشعبية المألوفة . إن بيكون رفع راية كل العلوم ، وجذب للانضواء تحتها أشد العقول تلهفا فى الأجيال القادمة . وسواء شاء أو لم يشأ ، فان العمل الذى دعا إليه — التنظيم الشامل للبحث العلمى ، والتوسع فى المعرفة ونشرها فى العالم بأسره — نقول ان هذا العمل يحوى فى طياته بذور أعمق مسرحية فى الأزمنة الحديثة : المسيحية ، كاثوليكية أو بروتستانتية ، تناضل من أجل حياتها ، ضد انتشار العلم والفلسفة وقوتهما ، وكانت المسرحية الآن قد ألقت مقدمتها على العالم .

الفصل الثامن

الثورة الكبرى

١٦٢٥ — ١٦٤٩

١ — الاقتصاد المتغير

إن الثورة التي سودت برلماناً وقتلت ملكاً — قبل أن يكفر لويس السادس عشر عن ذنوب أسلافه ، بمائة وأربعة وأربعين عاماً — كانت لها جذورها في الصراع الاقتصادى والخلاف الدينى ،

كان الإقطاع تنظيما يعتمد كل الاعتماد على الزراعة . وكانت الملكية تنظيما بلغ بالإقطاع ذروته . وكانت مرتبطة أشد الارتباط باقتصاد يقوم على الملاك والأرض . وحدث فى انجلترا تطوران اقتصاديان قطعاً هذه الجذور الإقطاعية . أحدهما نمو طبقة كرام المحتد ذوى الملكيات الصغيرة من غير ذوى ألقاب النبالة (Gentry) ، وهم فى موقف وسط بين الأشراف أو النبلاء ذوى الألقاب ، وبين صغار مالكى الأرض الأحرار أو المزارعين الذين يملكون أرضاً . وكانت أيديهم مغلولة فى ظل ملك وحاشية ومجموعة من القوانين لا تزال تفكر أو تصاغ بعقلية النظام الإقطاعى . ولقد اشتروا المقاعد فى مجلس النواب أو استولوا عليها عنوة ، وتطلعوا إلى حكومة خاضعة لبرلمان خاضع لهم هم أنفسهم . أما التطور الثانى فهو نمو ثروة البرجوازية — أصحاب المصانع والمحامون والأطباء — ومطالبتها بتمثيل سياسى يتناسب مع قوتهم الاقتصادية ، ولم يكن لهذه الدوافع الثورية مصلحة مشتركة ، بل تعاونوا لمجرد أن يحاولوا كبح جماع الملاك ذوى النسب والحسب والحاشية المنتفخة الأوداج ، وملك اعتبر أن الاستقراطية الوراثية ، مصدر ضرورى للنظام الاقتصادى والسياسى والاستقرار .

وكان النظام الاقتصادى يغير ، من عام لعام ، قاعدته ونقطة ارتكازه من الأرض الثابتة إلى المال المتحرك . وقبل ١٥٤٠ كان مصنع النحاس يتطلب توظيف ٣٠٠ دولار ، (بعملة الولايات المتحدة ١٩٥٨) وفى عام ١٦٢٠ ، ١٢٥ ألف دولار . وما جاء عام ١٦٥٠ حتى كانت المشروعات الرأسمالية التى تستلزم إنفاق اعتمادات ضخمة ، قد نهضت بمصانع حجر الشب فى يوركشير ، ومصانع الورق فى دارتفورد ، ومصانع صب المدافع فى برنديلى ، والمناجم البعيدة العمق التى ازداد التهافت عليها للحصول على مزيد من الفحم والنحاس والزنك والحديد والرصاص . وفى ١٥٤٠ كان هناك عدة مناجم أنتج الواحد منها عشرين ألف طن . واعتمد الحرفيون والصناع الذين يستخدمون المعادن ، على التعدين والصناعات المعدنية التى تركزت فى أيدى الرأسماليين ، وزودت مؤسسات النسيج بالمواد اللازمة . الحوانيت التى كانت تستخدم ما بين ٥٠٠ وألف عامل ، والنساجين والخياطين الذين انتشروا فى آلاف الدور فى المدن والقرى . وكانت الزراعة تسهم فى التحول الرأسمالى فى الإنتاج . واشترى الرأسماليون مساحات كبيرة من الأرض وسوروها ، بغية إمداد المدن باللحوم ، والمصانع بالصوف داخل انجلترا وخارجها . وارتفعت تجارة انجلترا الخارجية إلى عشرة أمثالها فيما بين عامى ١٦١٠ و ١٦٤٠ .

ولم يدر بخلد انجلترا أن الهوة كانت سحيقة جداً بين الغنى والفقير ، و « انحطت تعويضات العمال إلى أدنى مستوى لها فى النصف الأول من القرن السابع عشر ، لأن أسعار الطعام زادت على حين بقيت الأجور على ما هى عليه[1] » . فإذا اتخذنا (١٠٠) كأساس ، فإن الأجور الحقيقية للنجارين الإنجليز كانت ٣٠٠ حوالى سنة ١٣٨٠ ، و ٣٧٠ فى سنة ١٤٨٠ ، ٢٠٠ فى عهد اليزابث ، ١٢٠ فى عهد شارل الأول — وهذا أدنى أجر فى بحر أربعمائة سنة[2] . وفى ١٦٣٤ كانت البطالة فظيعة إلى حد أن شارل أمر بتدمير مصنع ميكانيكى لنشر الخشب أنشىء حديثاً ، لأنه عطل كثيراً من النشارين عن العمل[3] . وكانت الحرب مع فرنسا سبباً فى رفع الضرائب ، كما كانت الحرب فى فرنسا سبباً فى تعطيل تجارة الصادرات ، وسوء المحاصيل (١٦٢٩ — ١٦٣٠) سبباً فى تضخم الأسعار حتى صارت البلاد على حافة

المجاعة(٤) . وأخذ هذا الاقتصاد المتضخم في الهبوط فجأة (١٦٢٩ ، ١٦٣٢ ، ١٦٣٨) ؛ وتضافرت كل هذه العوامل مع الصراع الديني في أن تدفع بكثير من الأسرات الإنجليزية إلى أمريكا ، وتوقع انجلترا في حرب أهلية غيرت وجه الأمة ومصائرها .

وكذلك أصبحت حرب الطبقات صراعاً بين المذاهب الدينية والقوانين الأخلاقية . وكان الشمال زراعياً بأغلبية ساحقة ، وكاثوليكيا في معظمه ولو في الخفاء . أما لندن والجنوب فكانت تنمو فيها الصناعة والبروتستانتية بشكل متزايد . وعلى حين تعلقت قلوب طبقة رجال الأعمال الجديدة باحتكاراتها وبتعريفة الحماية الجمركية . فإنها في نفس الوقت طالبت باقتصاد حر تتحدد فيه الأجور على قدر العمل والسلع ، وحيث لا تكون ثمة سيطرة إقطاعية ولا حكومية على الانتاج والتوزيع والربح والملكية ، وحيث لا توصم بوصمة العار ، الأعمال التجارية ، ولا تقاضي الفوائد على الأموال ، ولا المضاربة بالثروة . وتمسك البارونات وفلاحوهم بمفهوم الإقطاع عن الالتزام المتبادل والمسئولية الجماعية ، وتنظيم الدولة للأجور والأسعار ، وضوابط العرف والقانون لشروط الاستخدام والربح . واحتج البارونات بأن الاقتصاد التجاري (المركنتلي(*)) الجديد ، الذي ينتج لسوق وطنية أو دولية ، كان يمزق العلاقات بين الطبقات ويقوض الاستقرار الاجتماعي . وأحسوا (كما أحس صغار ملاك الأراضي والحكومة) أن قدرتهم على الوفاء بديونهم والتزاماتهم مهددة بخطر آثار التضخم على قيمة الرسوم والإيجارات والضرائب التي اعتمدوا عليها . ونظروا في ازدراء غاضب إلى المحامين الذين أسهموا بشكل واضح في الإدارة ، وإلى التجار الذين حكموا المدن ، وأوجسوا خيفة من سلطان لندن التي سادتها الروح التجارية (المركنتلية) ، والتي كان عدد سكانها يبلغ نحو ٣٠٠ ألف نسمة ، من مجموع سكان انجلترا البالغ خمسة ملايين ، ومن ثم كانت تستطيع تمويل جيش وثورة .

(*) Mercantile ، نظام اقتصادي نشأ في أوروبا خلال تفسخ الاقطاعية لتعزيز ثروة البلاد عن طريق التنظيم الحكومي للاقتصاد وانتهاج سياسة تهدف إلى تطوير الزراعة والصناعة ، وإنشاء الاحتكارات التجارية الخارجية .

٢ — مرجل الديانة ١٦٢٤ — ١٦٤٩

إن الملك الجديد الذى ارتقى العرش فى ظل النظام الإقطاعى والاجتماعى العتيق المعتمد على الأرض ، والذى أحس باليأس والضياع فى لندن بتجارها والبيوريتانيين فيها ، نقول إن هذا الملك لقى من التعب والنصب فوق ما يحتمل الصبر ، من جراء تعدد المعتقدات الدينية وحدتها . إن عملية الاجتهاد أو تكوين الرأى الفردى التى دعا إليها كل رأى جديد حتى سادت وسيطرت ، تضافرت مع انتشار الكتاب المقدس ، على تشجيع اختلاف الشيع والطوائف ، حتى لقد أحصى منها أحد المؤلفين ٢٩ طائفة فى ١٦٤١ . وأحصى آخر ١٨٠ منها فى ١٦٤٩ . وفضلا عن الانقسام بين الكاثوليك والبروتستانت ، كان هناك الانقسام الحاد بين البروتستانت إلى أنجليكانيين ومسيخيين وبيوريتانيين ، وانقسام البيوريتانيين إلى المستقلين الذين كانوا يحلمون بالجمهورية ، والكويكرز الذين يعارضون الحرب والعنف وحلف الأيمان ، والمؤمنين بالعصر الألفى السعيد — أو طائفة الملكية الخامسة — الذين كانوا يعتقدون أن السيد المسيح سوف يعود سريعاً ليقيم حكمه على الأرض ، والأنتينوميين (طائفة تقول بأن الإيمان وحده — لا الامتثال للقانون الأخلاقى — ضرورى للخلاص) الذين كانوا يحاجون بأن المصطفين من عند الله مستثنون من القوانين الإنسانية ، والانفصاليين أتباع براون ، والباحثين Seekers ، والمشاغبين Ranters . وشكا أحد أعضاء البرلمان من أن « الرجال الميكانيكيين » (الحرفيين) كانوا يقيمون المنابر ويبشرون بألوان عقائدهم المتحمسة ، وكان كثيرون منهم يكسون مطالبهم الاقتصادية أو السياسية بنصوص من الكتاب المقدس ، وكان هناك الذين يقولون بتعميد البالغين فقط Anabaptists ، والمعمدانيون الذين انشقوا على الانفصاليين (١٦٠٦) وانقسموا (١٦٣٣) إلى معمدانيين عامين رفضوا النظرية الكلفنية فى القضاء والقدر ، ومعمدانيين خاصين قبلوها .

(*) Presbyterians رجال كنيسة بروتستانتية يدير شئونها شيوخ منتخبون يجتمعون جميعاً بمنزلة متساوية .

إن تعدد الطوائف والشيع ، ومساجلاتها الحادة الجريئة ، أدت بنفر من الناس إلى الشك فى جميع صيغ المسيحية وأشكالها . ورثى الأسقف Fotherby (١٦٢٢) « لأن الكتب المقدسة فقدت سلطانها على كثير من الناس ، وظن أنها لاتصلح إلا للجهلة والحمقى[٥] » — وفى ١٦٤٦ تحدث الحبر الجليل جيمس جرانفورد عن « الجماهير التى غيرت عقيدتها إما إلى التشكك . . . أو الإلحاد ، ولم يؤمنوا بشيء[٦] . » وفى كتيب عنوانه Hell Broke Loose « انفتحت الجحيم على مصراعيها » : بيان بالأخطاء السائدة ، والهرطقة والتجديف فى هذا العصر ، (١٦٤٦) وكان على رأس قائمة الهرطقات ، الرأى القائل بأن الكتاب المقدس سواء كان مخطوطاً حقيقياً (نصاموثوقا) أم لم يكن . . : فإنه لا يعدو أن يكون من صنع الإنسان ، وأنه عاجز عن أن يكشف عن إله فى السماء[٧] » ، وجهرت هرطقة أخرى « بأن العقل السليم هو الحكم فى العقيدة ، أو قاعدة الإيمان . . . ويجدر ألا نصدق بالكتب المقدسة و نظريات التثليث والتجسد والبعث إلا بقدر موافقتها للعقل ، وليس إلا[٨] » . وأنكر عدد كبير من المتشككين وجود الجحيم وألوهية المسيح . وسعى نفر متزايد من المفكرين الذين أطلق عليهم اسم « الربوبيين » إلى التوفيق بين مذهب التشكك والدين باقتراح مسيحية تقتصر على الإيمان بالله والخلود . وهيأ إدوارد ، لورد هربرت شربرى لهذا « الطريق الوسط ، أساساً فلسفياً فى بحث رائع عن « الحقيقة ١٦٢٤) . قال هربرت إن الحقيقة مستقلة عن الكتب المقدسة ، ولا يمكن أن تقررها كنيسة أو أية سلطة أخرى ، وإن أفضل اختبار للحقيقة هو موافقة الناس جميعاً عليها ، وتبعاً لذلك تكون أحكم ديانة هى ديانة « طبيعية » ، لا ديانة « موحى بها » ، تحصر نفسها فى النظريات التى تتقبلها كل المذاهب : وهى أن هناك « كائناً » ، وأنه تجب عبادته بالحياة الفاضلة المستقيمة أساساً ، وأن السلوك المستقيم ، يثاب ، وأن السلوك السيء يعاقب عليه ، إما هنا فى الحياة الدنيا ، أو هناك الحياة الآخرة . ويقول أو برى إن هربرت مات « فى هدوء » بعد أن أبوا عليه الأسرار المقدسة[٩] .

وكان البرلمان أشد قلقاً وانشغالا بالكاثوليكية منه بالهرطقة . ففى ١٦٣٤ قارب الكاثوليك فى انجلترا أن يشكلوا ربع السكان[١٠] ، على الرغم من كل القوانين والأهوال التى كان يقاسيها نحو ٣٣٥ من الجزويت ، واعتنق النبلاء البارزون المذهب القديم ، وفى ١٦٢٥ أعلن جورج كلفرت ، لورد بلتيمور تحوله إلى الكثلكة ، وفى ١٦٣٢ منحه شارل مرسوماً بإنشاء المستعمرة التى عرفت باسم ماريلاند . وفى ١٦٣٣ أرسلت الملكة الكاثوليكية هنريتا ماريا إلى رومه مبعوثاً يستجدى منصب الكردينال لأحد الرعايا البريطانيين . وعرض الملك الأنجليكانى أن يسمح بإقامة أسقف كاثوليكى فى انجلترا إذا أيد إربان الثامن خطة شارل فى عقد بعض زيجات دبلوماسية (١٦٣٤) ولكن البابا رفض . وطالب الكاثوليك بالتسامح الدينى . ولكن البرلمان — الذى يعى فى ذاكرته تعصب الكاثوليك ، ومذبحة سانت برتلميو ، ومؤامرة البارود ، والاشمئزاز من إجراء تحقيق فى مستندات ممتلكات بروتستانية كانت يوماً كاثوليكية — طالب ، بدلا من ذلك ، بالتطبيق الكامل للقوانين التى صدرت ضد الكاثوليكية . وساد شعور قوى شعاره « لا كثلكة » ، وخاصة بين طبقة صغار الملاك والطبقة الوسطى ، يعارض بالمثل ، تدفق القساوسة الكاثوليك إلى انجلترا ، كما يقاوم ازدياد التقريب بين الفكر والطقوس الأنجليكانية والكاثوليكية .

وتمتعت الكنيسة الرسمية بحماية الدولة لها حماية كاملة . وكانت العقيدة والعبادة الأنجليكانية إجباريتين قانوناً ، وجعلت المواد التسع والثلاثون قانوناً من قوانين البلاد ١٦٢٨ . وادعى الأساقفة الأنجليكانيون « الخلافة الرسولية » — أى أنهم كانوا قد رسموا بوساطة الرسول ، ورفضوا توكيد المشيخيين والبيوريتانيين أن يرسموا الكاهن شرعاً ، وكان كثير من رجال الدين الأنجليكانيين فى ذاك العصر ، رجالا يتحلون بعلم واسع وشعور كريم . وكان جيمس أشر Usher رئيس أساقفة أرماج Armagh عالماً حقاً ، برغم حسابه المشهور (فى كتابه Annales Veteris Testamenti ، ١٦٥٠) أن الله خلق العالم فى ٢٢ أكتوبر سنة ٤٠٠٤ ق . م . — وهذه غلطة فى الحساب الزمنى جعلت شبه رسمية فى طبعات الكتاب المقدس[١٢] . ودعا جون

هيلز ، قسيس السفارة الإنجليزية فى هولنده — إلى الشك والعقل والتسامح :

إن الطرق التى توصلنا إلى . . . . أى علم أو معرفة ليست إلا اثنتين ، أولاهما الاختبار وثانيتهما الاستدلال المنطقى ، إن الذين يأتونك ليلقوا إليك بم يجب أن تؤمن وماذا يجب أن تفعل ، دون أن يذكروا لك السبب فى هذا أو ذلك ، ليسوا أطباء بل إنهم متطفلون دجالون . . . إن أهم مصدر وقوة للحكمة ليس من السهل التصديق بهما . . . إن تلك الأشياء التى نجلها لقدمها ، ماذا كانت فى بداية نشوئها ؟ هل كانت زائفة ؟ إن الزمن لايستطيع أن يضفى عليها حقيقة وصدقا . إن عامل الزمن . . . مجرد شىء خارج عن موضوع البحث . . . وليس تعدد الآراء ، ولكن إرادتنا الفاسدة الشريرة — التى تظن أنه من الملائم أن نتخيل كل شىء (من نفس الفكر) كمانتصوره نحن نفسنا — هى التى أزعجت الكنيسة إلى هذا الحد . ألم نكن مستعدين لأن يلعن بعضنا بعضاً حين لم نكن متفقين فى الرأى ؟ ويمكن أن تكون قلوبنا متحدة . . .هناك شيئان يصنعان رجلا مسيحياً كاملا — إيمان صادق وسلوك قويم . ولو أن الثانى يبدو أجدر بالاعتبار ، ويخلع علينا اسم المسيحيين ، ولكن الثانى فى النهاية ، سيثبت أنه الأقوى والأرسخ ، وليس ثمة رجل . . . حتى ولو كان همجياً أو وثنياً ، لاتصل إليه أنسام الشفقة المسيحية(١٣) .

ولم يستجب بعض " عبدة الأصنام " لكرم هيلز . وكتب جزويتى بتوقيع " إدوارد نوت نبذة عنوانها Charit Mistaken (١٦٣٠) قال فيها إنه لن يكتب الخلاص لأى بروتستانتى ، إلا بمحض الصدفة(١٤) . ولكن أعاد الطمأنينة إلى قلوب البروتستانت الذين أدانهم المقال السابق ، وليم تشلنجورث ، Chillingworth الذى كان كتابه " العقيدة البروتستانتية هى الطريق المأمون للخلاص ، ١٦٣٧ " أشهر

بحث لا هوتى فى ذاك ، العصر ، لقد عرف تشلنجورث الفريقين كليهما ، فقد كان قد ارتد إلى الكاثوليكية ، ثم عاد إلى البروتستانتية ، وما زالت لديه تحفظاته ، وقال عنه كلارندون « إنه تعود الشك حتى أصبح شيئا فشيئا لايثق فى شىء قط ، ومتشككا على الأقل فى أعظم الأسرار الدينية[١٥] » .

وكان جرمى تيلور أفصح الأنجليكانيين فى عهد شارل ، ولاتزال عظاته تقرأ ، كما أنها أشد تأثيرا من عظات بوسويه ، حتى أنها هزت مشاعر أحد الفرنسيين[١٦]. وكان تيلور ملكيا متحمسا ، وقسيسا فى جيش شارل الأول . وعندما سيطر المشيخيون والبيوريتانيون على البرلمان ، وأساءوا ، فى تعصب شديد ، معاملة الأنجليكانيين الذين كانوا يوما متعصبين ، أصدر تيلور كتاب « حرية الوعظ » (١٦٤٦) وهو دعوة حذرة إلى التسامح : إن أى مسيحى قبل عقيدة الرسل يجب أن تتلقاه الكنيسة بين أحضانها ، ويجب أن يترك الكاثوليك أحرارا ، إلا إذا أصروا على سيادة على انجلترا وعلى الملوك(*) ، وقبض حزب البرلمان على تيلور وأودع السجن فى الحرب الأهلية ، ولكن بعد عودة الملكية ، انضم إلى حكومة الأساقفة فى الكنيسة ، وخف تحمسه للتسامح .

وظهر أثر الكاثوليكية المتزايد فى الرجل الأنجليكانى البارز ذى النفوذ فى عصره ، وهو وليم لود ، الذى كان رجل فكر وإرادة ، ولد ليسيطر ويحكم أو يموت . وكان متمسكا بأهداب الفضيلة أشد تمسك ، متزمتا أشد التزمت ، وطيد العزم إلى حد العناد مع سرعة الغضب . ورأى لود — كأى رجل صالح من رجال الكنيسة ، أنه من القضايا المسلم بها أن المعتقد الدينى الموحد أمر لاغنى عنه للحكومة الناجحة وأن الشعائر المعقدة ضرورية لكل عقيدة مهدئة مؤثرة ، وما كان أشد حزن المسيحيين والبيوريتانيين وأسفهم عندما اقترح لود إعادة الفنون إلى خدمة الكنيسة ، لتجميل المذبح والمنبر وجرن التعميد ، وإعادة الصليب إلى الطقوس ، والمدرعة (الرداء الكهنوتى الأبيض) إلى الكهنة . وعلى هيئة جبل خاص للخطايا ، أمر بوضع مائدة

(*) فى ١٦٣١ ، فى مستعمرة خليج مساشوست نادى روجر وليم بالتسامح بلا حدود مع الكاثوليك واليهود والكفار .

العشاء الربانى التى كانت توضع حتى الآن وسط الهيكل (وكانت تستخدم فى بعض الأحيان لوضع القبعات عليها) ، نقول أمر لود بوضع هذه المائدة خلف حاجز فى الطرف الشرقى من الكنيسة ، وكانت هذه التغييرات فى معظمها إحياء لأعراف البزابث وقوانينها ، ولكنها فى نظر البيوريتانيين الذين أحبوا البساطة ، كانت تمثل رتدادا إلى الكاثوليكية ، وتجديدا للفصل الطبقى بين القسيس وجمهور المصلين . ويبدو أن لود أحس بأن الكنيسة الكاثوليكية كانت على حق فى أحاطة الديانة بالمراسم والشعائر ، واضفاء هالة من القداسة على النسيس[17]. وقدرت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية أراءه إلى حد أنها قدمت إليه منصب الكاردينال [18] . ولكنه رفض رفضا مهذبا . ولكن يبدو أن هذا العرض أيد اوم البيوريتانيين وتأنيبهم ، وأطلقوا عليه النذير بقدوم المسيح . وعينه شارل ١٦٣٣ رئيسا لأساقفة كنتربرى وعضوا وزارة الخزانة . وعين رئيس أساقفة آخر قاضيا للقضاة فى اسكتلندة فشكا الناس من أن رجال الكنيسة يعودون إلى السلطة ، كما كانت الكنيسة فى أوج عظمتها فى العصور الوسطى .

وشرع كبير أساقفة انجلترا ، من قصره فى لامبث Lambeth فى إعادة تشكيل الطقوس والأخلاقيات الإنجليزية ، وخلق مائة عدوجديد حين فرض عن طريق « محكمة اللجنة العليا » (وهى هيئة قضائية أقامتها البزابث ، وهى الآن كنسية بشكل واضح) : فرض غرامات فادحة على المتهمين بالزنى ، ولم تطب نفوس الضحايا باستخدامه الغرامات فى اصلاح كاتدرائية سانت بول المتهدمة ، وطرد المحامين والبائعين المتجولين والمثرثرين من أبهائها[19] وحرم الكهنة الذين رفضوا الطقوس الجديدة من رواتبهم ، أما الكتاب والخطباء الذين نقدوها مرارا وتكرارا . أو ارتابوا فى العقيدة المسيحية ، أو الذين عارضوا نظام الأساقفة فكانوا يحرمون من الكنيسة ويوضعون فى آلة تعذيب خشبية ذات ثقوب تثبت فيها رجلا المذنب ويداه ، أو تقطع أذناه .

ويجب أن نتخيل بشاعة ووحشية العقوبات التى فرضت فى عهد لود ، حتى ندرك مصيره . فان الكاهن البيوريتانى اسكندر ليتون Leighton ، حوكم أمام

محكمة قاعة النجم لأنه المؤلف المعترف به لكتاب يقول بأن نظام الأساقفة ، نظام شيطانى معاد للمسيحية . فقيد فى الاغلال وسجن فى مكان موحش لمدة خمسة أسابيع فى زنزانة شديدة البرد « مليئة بالجرذان والفيران ، معرضة للثلوج والأمطار » ، فتساقط شعر رأسه ، وتقشر جلده ، وربط إلى خازوق ، وتلقى ستا وثلاثين جلدة بحبل سميك على ظهره العارى ، ووضع فى المشهرة (آلة تعذيب) لمدة ساعتين فى صقيع نوفمبر وجليده ، ودمغ بسمة العار فى وجهه ، وشق أنفه وقطعت أذنه ، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة[٢٠] . وفى ١٦٣٣ فرضت على لودويك بوير Ludowyc Bowyer ، الذى كان قد اتهم لود بأنه كاثوليكى فى دخيلة نفسه ، غرامة . ودمغ بسمة العار ، وبترت أطرافه ، وشوه جسمه ، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة[٢١] . واتهم وليم برين ، وهو من غلاة الدعاة البيوريتانيين فى « أنباء من أبسويك » (١٦٣٦) ، اتهم أساقفة لود بأنهم خدم للبابا وللشيطان[٢٢] ، وأوصى بشنق الأساقفة . فدمغ بسمة العار على خديه كليهما وقطعت أذناه ، وأودع السجن حتى أفرج عنه البرلمان الطويل (١٦٤٠)[٢٣]. وسجنت لمدة أحد عشر عاما امرأة أصرت على اعتبار السبت يوم راحة وعبادة[٢٤] .

واتفق ألد أعداء لود ، وهم البيوريتانيون ، معه على ضرورة التعصب أو عدم التسامح . وذهبوا إلى أنه حكم نهائى معقول من الأصل السماوى للمسيحية والكتب المقدسة ، فان أى فرد يعارض عقيدة قامت على هذا الأساس ، لابد أن يكون مجرما أو معتوها ، وتجب حماية المجتمع من كثير من الخطايا واللعنات التى قد تنصب على المجتمع من جراء تعاليمه . وناشد المشيخيون البرلمان -- (١٦٤٨) أن يشرع عقوبة السجن مدى الحياة لمن يستمرون على نشر تعاليم الكاثوليك والمعمدانيين والأرمينيين والكويكرز ، وعقوبة الاعدام للذين ينكرون نظريات الثالوث الأقدس ، أو التجسد . ولكن المستقلين أتباع كرومويل ، على أية حال ، عرضوا التسامح مع كل من يقبل أساسيات المسيحية ، ولكنهم استبعدوا الكاثوليك والموحدين والمدافعين عن حكومة الأساقفة[٢٥] .

وكان فى البيوريتانيين شيع كثيرة إلى حد يصعب معه جمعهم فى تعميم واحد

ينطبق عليهم جميعا . وتمسك معظمهم بكلفنية صارمة ، وبحرية سياسية فردية ، وبحق جمهور كل كنيسة فى إدارة شئونها دون إشراف الأساقفة ، وبعبادة غير موسومة بالمراسم والشعائر ، متسمة بالمساواة ، وتخلوا عن الفن الدينى الذى يلهى المصلين ويشتت أفكارهم ، واتفقـــوا مع المشيخين فى اللاهوت ولكنهم رفضوا مجامعهم الكنسية ، لأنها تنزع إلى ممارسة سلطة الأساقفة ، وأصروا على تفسير حرفى للكتب المقدسة ، واستنكروا القول بحكم العقل على الحق الموحى به ، وكانوا يجلون العهد الجديد والعهد القديم بقدر سواء ، وطبقوا على أنفسهم الفكرة اليهودية « شعب الله المختار » ، وعمدوا أطفالهم بأسماء بطارقة « العهد القديم » وأبطاله ، وفكروا فى الرب على أساس « يهوه » الصارم القاسى ، وأضافوا إلى ذلك إيمان الكلفنية بأن معظم الناس هم « أبناء العقاب الإلهى » قضت عليهم الإرادة المتحكمة من لدن إله لا يرحم بالخلود فى الجحيم ، وعزوا خلاص القلة « المختارة » ، لا إلى صالح الأعمال ، بل إلى نعمة الهبة ينعم الله بها على من يشاء متى شاء . وذهب بعضهم إلى أنه كلم الله ، وظن بعضهم أنهم ملعونون فهاموا فى الشوارع يئنون ويتأوهون ، استباقا لخلودهم فى العذاب . وبدا أن الله يسلط الصواعق دوما على رؤوس الناس .

وفى وسط هذا « الارهاب » الذى فرضته البلاد على نفسها كادت « انجلترا المرحة » أن يتقلص ظلها واستسلمت « انسانية عصر النهضة » و« طبيعية » عصر اليزابث المفعمة بالحيوية إلى شعور بالذنب وخوف من الانتقام الإلهى . وبهذا الخوف وذلك الشعور نظر الناس إلى مسرات الحياة وكأنها أرجاس من عمل الشيطان أو تحديات للاله . وعاودت قسما أكبر من الناس لم يعهد له مثيل من قبل فى التاريخ المعروف ، نقو عاودتهم المخاوف من الطبيعة البشرية والجسد ، التى كانت سائدة بين الرهبان فى الأديار . وأعلن بريم Pryme أن كل عناق « دعارة » ، وكل رقص مشترك « فسق وفجور[٢٦] » . وفى نظر معظم البيوريتانيين كانت الموسيقى والزجاج الملون والصور الدينية والأردية الكهنوتية البيضاء والكهنة الممسوحون بالزيت — كلها أمور تحول دون الاتصال بالله والاتجاه إليه . ودرسوا الكتاب

المقدس بعناية ذائقة ، واقتبسوا عباراته فى كل حديث وفى كل فقرة تقريبا ، وطرز بعض المتحمسين المتعصبين ثيابهم بنصوص مقدسة ، وأضاف المغالون فى التقى والورع لفظة « حقا » إشهادا على اخلاصهم أو صدقهم . وحرم البيوريتانيون الصالحون استخدام مستحضرات التجميل وترتيب الشعر ، على أنهما ضرب من الزهو والغرور والتفاهة . وحظوا بالاسم المستعار « ذوى الرءوس المستديرة Roundheads لأنهم قصوا شعورهم بشكل قصير جدا . ونددوا بالمسرح على أنه مخز (وهكذا كان) ، وبمطاردة الدببة والثيران على أنها عمل وحشى ، وبأخلاق البلاط على أنها وثنية . كما استنكروا الاحتفالات والأعياد الصاخبة ،ودق النواقيس ، والتجمع حول عمود أول مايو المزدان بالأشرطة والأزهار والرقص حوله ، وشرب الأنخاب ، ولعب الورق . وحرموا كل الألعاب أيا كانت فى يوم الراحة ، وقالوا انه يوم الرب ، ويجب ألا يسمى بعد الآن بالاسم الوثنى « الأحد » . ورددوا صيحات الغضب — ومن بينهم ملتون — حين أصدر شارل الأول ولود — تجديدا لمرسوم جيمس الأول — « إعلان الألعاب » ١٦٣٣ ، أجازا فيه الألعاب فى يوم الأحد بعد تأدية الصلوات . ومد البيوريتانيون تشددهم فى تحريم الألعاب والملاهى وفى الانقطاع إلى العبادة والراحة فى أيام الآحاد (قوانين الأحد الزرقاء) ، إلى يوم عيد الميلاد ، ورثوا لأسلوب الاحتفال بمولد المسيح بالمرح والرقص والألعاب ، وكانوا على حق فى أنهم نسبوا معظم تقاليد عيد الميلاد إلى أصول وثنية ، وطالبوا بأن يكون عيد الميلاد يوما مهيبا للصوم والكفارة ، وفى ١٦٤٤ أقنعوا البرلمان بعد لأى ، باقرار هذه الفكرة بمقتضى القانون :

وكما أكدت البروتستانتية على العظة أكثر مما فعلت الكثلكة ، فان البيوريتانيين كذلك توسعوا فيها حتى إلى أبعد مما جرى عليه البروتستانت ومزق التعطش إلى المواعظ بعض القلوب ، وانتقل عمدة نوروك إلى لندن ليستمع إلى مزيد من الوعظ ، واستقال بزاز من الأبرشية لأنها لا تقدم إلا عظة واحدة كل يوم أحد ، وقام « محاضرون » خاصون لإطفاء هذا الظمأ — وهؤلاء عبارة عن رجال

عاديين تستأجرهم الأبرشية لالقاء عظة يوم الأحد ، بالاضافة إلى مايلقيه الكاهن المعتاد . ونهض معظم الوعاظ البيوريتانيين بمهمتهم فى جدية بالغة فأرهبوا مستمعيهم بأوصاف الجحيم ، واتهم بعضهم الآثمين علنا بالاسم ، وأفصح واحد منهم عن مدمنى الخمر فى شعب الكنيسة ، وضرب ، وهو يتحدث عن البغايا ، مثلا بزوجة أحد أهالى الأبرشية المشهورين ، وقال آخر لمستمعيه إنه إذا كان الزنى والحلف والغش واغفال طقوس يوم الراحة ، إذا كانت هذه كلها تؤدى بالانسان إلى الجنة ، فسيكتب الخلاص للأبرشية بأسرها (٢٧) . وأحس القساوسة البيوريتانيون أن من واجبهم أن يصفوا للناس — أو يحرموا عليهم — قواعد السلوك ، وأنواع اللباس ووسائل التسلية ، فحرموا الاحتفال بأيام العطلة أو الأعياد فى الأعراف الوثنية أو الكنيسة الكاثوليكية ، وبذلك أضافوا نحو خمسين يوم عمل إلى السنة (٢٨) ؛ ودوت صيحة الواجب فى الخلق البيوريتانى ، مقترنه بغرس الشجاعة والاعتماد على النفس والحزم والاقتصاد والعمل فى النفوس ، وكان هذا نظاما أخلاقيا يلتئم مع الطبقة الوسطى ، فانه حث على العمل الجاد النشيط ، وأجاز من الوجهة الدينية المشروعات والمغامرات التجارية والملكية الخاصة . وكان الفقر ، لا الغنى ، فى نظرهم ، هو الخطيئة ، لأنه ينم على الافتقار إلى الخلق الشخصى وإلى نعمة الله (٢٩)

وكان البيوريتانيون ، من الناحية السياسية ، يتوقون إلى حكومة دينية ديمقراطية ، لا يكون فيها بين الناس إلا فروق أخلاقيه ودينية ، ولا يكون فيها حاكم غير المسيح . ولا قانون سوى كلمة الله . وكرهوا الضرائب الباهظة التى تعول الكنيسة الانجليكانية . وشعر رجال الأعمال منهم أن هذه الكنيسة الرسمية العليا الباهظة النفقات تحلبهم وتستنزف أموالهم . وقال أحد المؤلفين « إن هذه الهاوية الأسقفية تلتهم تجارة الأمة » (٣٠) . ودافع البيوريتانيون عن الثراء . ولكنهم احتقروا الترف الخامل الذى كان يرفل فيه النبلاء ، وتمسكوا بالأخلاقيات إلى حد التطرف ، كما فعلت الأجيال التالية بالحرية . ولكن ربما كانت مبادئهم القاسية تصحيحا ضروريا للانحلال الخلقى فى عصر اليزابث . وأنجبوا بعضاً من أقوى الشخصيات فى التاريخ — كرمول وملتون ، والرجال الذين فتحوا الفيافى والقفار الأمريكية .

ودافعوا عن الحكومة البرلمانية ونظام المحلفين ونقلوها الينا ، وإن إنجلترا لمدينة لهم، بشكل جزئى ، بالرصانة الحقه فى الخلق الإنجليزى ، واستقرار الأسرة البريطانية ، ونزاهة الحياة الرسمية فى بريطانيا . ولم تفقد شيئا .

٣ — البيوريتانيون والمسرح

إن أول انتصار أحرزه البيوريتانيون كان فى حربهم ضد المسرح . فإن كل ما تميزوا به — من لاهوت قائم على « الاصطفاء » و « الرفض » وخلق متزمت ، ومزاج قاس ، وحديث انجيلى — كان يتناوله المسرح بالتجريح والتسخيف ، عن طريق الصور الكاريكاتورية الفاضحة التى لا تغتفر ، وكانت الطامة الكبرى فى ١٦٢٩ : فإن ممثلة فرنسية تجاسرت على إسناد دور نسائى إلى شاب فى رواية مثلت على مسرح **Black Friars** فقذفوها بالتفاح والبيض الفاسد .

وربما أرضى الكتاب المسرحيون الجدد جماعة البيوريتانيين ، لأنهم كانوا فى جملتهم مهذبين ، ولو أنهم ، من حين إلى حين ، حاولوا بالبذاءات ، إرضاء جمهور الدرجة الثالثة ذوى الأذواق السقيمة واجتذابهم . إن رواية فيليب ماسنجر « طريقة جديدة لتسديد الديون القديمة (١٦٢٥) لم تكن تهجو الفضيلة المتزمتة : بل جشع الاحتكارات . ولم يكن ثمة شعر محلق ، ولا ذكاء يدوى ، ولا مجازات وتخيلات صارخة ، ولكن الرجل المبتز المجرد من الضمير والمبادىء الخلقية وقع فى يدالعدالة آخر الأمر . وتعاقبت خمسة فصول دون أن تظهر واحدة من البغايا أو بنات الهوى . وتحايل جون فورد على تصيد الجمهور بأن جعل عنوان الرواية " يا حسرتاه إنها مومس " ، ولكن هذه الرواية ، ورواية " القلب الكسير " (كلتاهما ١٦٣٣) احتفظتا بشىء من الاحتشام ، وربما أمكن تمثيلهما الآن لو أن الجمهور الحديث استطاع أن يتحمل العذاب فى حل عقد الرواية .

وسدد البيوريتانيون أعنف ضرباتهم للمسرح ، حين أرسل أشد أنصارهم جرأة وشجاعة ، وليم برين ، إلى الصحافة (١٦٣٢) مقاله « سوط الممثلين **Players Scourge** وكان برين محامياً ، ولم يدع النزاهة والتجرد ، وقدم إلى

المدعى مذكرة من ألف صحيفة ، وبالاقتباس من الكتب المقدسة ومن كتابات آباء الكنيسة بل حتى من كتابات الفلاسفة الوثنيين ، أثبت أن المسرحية من عمل الشيطان ، فإنها بدأت كصيغة أو شكل لعبادته . إن معظم الروايات ممتلئة بالتجديف والدعارة والفحش ، زاخرة بعناق العشاق ، والإيماءات الخليعة ، والموسيقى والأغانى والرقص الذى يثير الشهوة ، وإن كل أنواع الرقص من عمل شيطانى ،وكل خطوة فيه إن هى إلا خطوة إلى الجحيم ، وإن كل الممثلين مجرمون فجرة كفرة » .« إن كنيسة الله ، لا المسرح ، هى المدرسة الوحيدة الصالحة ، والكتاب المقدس والعظات والكتب الدينية المخلصة الورعة . . . هى المحاضرات " أى القراءات الوحيدة الصالحة للمسيحيين . فإذا أرادوا التحول عنها :

> فإن أمامهم مشاهد متعددة في الشمس والقمر والكواكب والنجوم وسائر المخلوقات التى لا نهاية لتعددها وتنوعهـا ، ليمتعوا بها أنظارهم . وإن أمامهم تغريد الطيور ليشنفوا به آذانهم ، وإن لديهم الشذا الرقيق الجميل والروائح الزكية المنبعثة من الأعشاب والأزهار والفواكه لينعشوا بها أنوفهم . . ولديهم المذاق الجميل لكل ما يصلح للأكل . . . والمسرات والمتعة التى تقدمها لهم البساتين والأنهار والحدائق والبرك والغابات ، والبهجة التى يوفرها لهم الأصدقاء والأقرباء والأزواج والزوجات والأولاد ، والمقتنيات والثروة ، وسائر النعم الظاهرة التى أنعم الله بها على الإنسان(٣١)

وكانت الحجة قوية بليغة ، ولكنها وصمت كل الممثلات بالدعارة والبغاء ، وكانت الملكة لتوها قد استقدمت من فرنسا بعض الممثلات ، وكانت هى نفسها تتدرب على تمثيل دور فى البلاط ، وجرح شعور هنريتا ماريا واستاءت ، واتهم لود برين باثارة الفتنـــة ، ودفع المؤلف بأنه لم يكن يقصد الطعن فى الملكة أو التشهير بها ، واعتذر عن عدم مراعاة الاعتدال فى كتابته . ولكن على أية حال ، فى قسوة علقت بأذهان البيوريتانيين طويلا ، منع من الاشتغال بالمحاماة وفرضت

عليه غرامة يستحيل دفعها ، ٥٠٠٠ جنيه (٢٥٠٫٠٠٠ دولار ؟) ، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة . ووضع فى المشهرة وقطعت أذناه كلتاهما[٣٢] ، ومن سجنه أصدر (١٦٣٦) " أنباء من أبزوك " اتهم فيه الأساقفة الأنجليكانيين بأنهم خونة شيطانيون ، وذئاب ضارية ، وأوصى بشنقهم . فعذب فى المشهرة من جديد ، واستؤصلت بقايا أذنيه ، وبقى فى السجن حتى أفرج عنه البرلمان الطويل ١٦٤٠ .

وفى ١٦٤٢ أصدر البرلمان أمراً بإغلاق كل مسارح انجلترا . وكان هذا فى أول الأمر ، فن تدابير حرب ، بدا أنها محدودة بهذه الأوقات الفاجعة . ولكنها استمرت حتى ١٦٥٦ . وآذنت بزوال الحياة الطويلة للمسرحية الإليزابثية ، وسط مسرحية أكبر لم يشهد لها المسرح الإنجليزى مثالا قط .

٤ ــ النثر فى عهد شارل الأول

كان هناك فى انجلترا ، رجلان على الأقل ، يستطيعان أن يطلا على المشهد المضطرب فى مقدرة وهدوء . وكان جون سلدن Selden واسع الاطلاع والعلم حتى قال عنه الناس : لا يعلم أحد أى شىء لا يحيط به سلدن علما . إنه كرجل مهتم بالآثار والتاريخ القديم ، جمع بيانات عن الدولة فى انجلترا قبل عهد النورمنديين ، وسجلا موثوقاً عن « ألقاب الشرف » (١٦١٧) ، وبوصفه مستشرقاً ، ذاع صيته فى كل أوربا ، بدراسته فى الشرك وتعدد الآلهة ، وبوصفه من رجال القانون شرح قانون الأحبار وكتب «تاريخ العشور» ودحض فكرة أنها فرضت من عندالله، وبوصفه عضواً فى البرلمان أسهم فى اتهام بكنجهام ولود وفى صياغة « ملتمس الحقوق » . وأودع السجن مرتين . وشهد « اجتماع وستمنستر » كمندوب علمانى عادى « يشهد اقتتال الحمير المتوحشة » ودعا إلى الاعتدال فى المنازعات الدينية . وبعد وفاته أصبح كتابه . « حديث المائدة » الذى سجله سكرتيره ، من الآثار الأدبية الإنجليزية ، نقتطف هنا نموذجاً منه :

> إنه لمن العبث أن نتحدث عن هرطيق ، لأن الإنسان لا يعتقد
> إلا بما يراه أو يفكر فيه هو نفسه . وفى العصور البدائية كان ثمة

آراء كثيرة ، اعتنق واحدا منها أحد الأمراء ، ودمغت
سائر الآراء بأنها هرطقات . ولا يمكن أن يكون رجل
ما أعقل الناس من أجل علمه ومعرفته ، فقد يجيء هذا
موضوعا للمناقشة ولكن الذكاء والحكمة تولدان مع الانسان
. . . . إن العقلاء لا يتفوهون بشيء فى أوقات الخطر .
إن الأسد دعا الشاة ليسألها إذا كانت ثمة رائحة تخرج من
فمه ، فلما أجابت بالايجاب عضها فأطاح برأسها لأنها غبية
حمقاء . فدعا الذئب وأعاد عليه نفس السؤال فأجاب بالنفى ،
فمزقه الأسد إربا لأنه متملق . وأخيرا نادى على الثعلب
وكرر عليه السؤال ، فتعجب وقال إنه مصاب بالبرد ولا يستطيع
أن يشم(٣٣) .

وكان توماس براون « ثعلبا » . إنه ولد فى لندن ١٦٠٥ وتلقى علومه فى مدرسة ونشستر ، واكسفورد ومونبيلييه وبادوا وليدن ، واستزاد من العلوم والفنون والتاريخ كلما وجد إلى ذلك سبيلا ، ثم انصرف إلى الاشتغال بالطب فى نوروك . وهذب من « تحليلاته للبول » بتدوين ملاحظاته وأفكاره « عن كل هذه الأشياء ، وعن قليل غيرها « On all things and a few others وأخفى بلباقة نظريته فى الدين فى كتابه « الطب الدينى » (١٦٤٢) ، وهو يمثل مرحلة فى تاريخ النثر الانجليزى . وإنك لتجد فى شخصه « مونتانى بريطانى » ، فهو مثله فى طرافته وخياله ، وفى تذبذبه وتعدد جوانبه ، وربما اقتبس عنه فيما كتب عن الصداقة(٣٤) ، وهبط بتشككه إلى الامتثال للكنيسة الانجليزية مستسيغا العقل ومعلنا إيمانه . وملأ براون كلامه بالاشارات والاشتقاقات التقليدية ولكنه أحب فن الألفاظ وموسيقاها ، مستخدما أسلوبا كأنه دواء « مضاد للبلى والفساد » .

وكان بطبيعة دراسته وتعليمه نزاعا إلى الشك . وفى أطول مؤلفاته وعنوانه « الأقوال الزائفة الشائعة » شرح وهذب مئات من « الآراء الفاسدة الشائعة » فى

أوربا — منها أن العقيق الأحمر يضىء فى الظلام ، وأن الفيل لا مفاصل له ، وأن العنقاء تتوالد بذاتها من رفاتها ، وأن السمندر (نوع خرافى من الضفادع) يمكن أن يعيش فى النار ، وأن وحيد القرن (حيوان خرافى له جسم فرس وذيل أسد) له قرن واحد فى وسط الجبهة ، وأن البجع يغنى قبل موته ، وأن الفاكهة المحرمة كانت التفاح ، « وأن ضفدع الطين يبول وبهذه الطريقة ينفث سمه(٣٥) » ولكنه كأى مهاجم للتقاليد والمعتقدات القديمة ، كان له معتقداته، فانه آمن بالملائكة والشياطين وقراءة الكف والسحرة(٣٦) ، وشارك فى ١٦٦٤ فى اتهام امرأتين بأنهما ساحرتان ، وشنقتا بعد ذلك على الفور ، وهما تؤكدان براءتهما(٣٧) .

ولم يكن به ميل إلى النساء ، وذهب إلى أن « الجنس » أمر مرذول فقال

> لم أتزوج غير مرة واحدة فقط ، وإنى لأمتدح أولئك الذين يعقدون العزم على ألا يتزوجوا مرتين ، وإنى لأتمنى أن نتكاثر ، مثل الشجر ، دون اتصال جنسى ، أو أن تكون هناك وسيلة أخرى للابقاء على الجنس البشرى ، انه أقبح عمل يأتيه الرجل العاقل فى حياته ، وليس ثمة شىء يوهن من عزيمته ويؤذى خياله أكثر من تفكيره فى أية حماقة تافهة شاذة قد ارتكبها(٣٨).

أما بالنسبة لموضوعه الرئيسى فانه مسيحى بحكم الدفاع عن المسيحية :

> أما من حيث ديانتى ، فانه على الرغم من الظروف الكثيرة التى قد تغرى العالم ، فليس لدى منها شىء قط (مثل الخزى العام فى مهنتى ، المجرى الطبيعى لدراساتى وأبحاثى ، عدم التحيز فى سلوكى وفى أحاديثى فى الموضوعات الدينية ، فلا أتحمس فى الدفاع عن دين ، ولا أعارض دينا آخر بمثل هذا العنف الذى اعتاد الناس أن يعارضوا به الديانات الأخرى) ، ولكن برغم كل شىء ، فانى أتجاسر ، دون أى إكراه، على اعتناق المسيحية الكريمة . لا لأنى أدين بلقبى لجرن المعمودية ، ولا من أجل

تعليمى ، أو المناخ الذى ولدت فيه ، .... ولكن لأنى
فى أيام نضجى وحكمى السليم على الأمـــور ، عرفت كل
الأديان وخبرتها(٣٩) .

ويحس براون بأن عجائب الدنيا ونظامها تنم على عقل إلهى — « إن الطبيعة هى فن الإله(٤٠) » ويعترف بأنه ارتكب بعض الهرطقة ، وينزلق إلى شىء من الارتياب فيما جاء بالكتاب المقدس عن الخلق والتكوين(٤١) ، ولكنه الآن يحس بالحاجة إلى ديانة مقررة ترشد الحائرين والمترددين من الناس ، ويرثى لتفاهة الهراطقة الذين يعكرون صفو النظام الاجتماعى بتوفيقهم فى عملهم(٤٢) . ولم يكن يحب البيوريتانيين ، وبقى على ولائه وإخلاصه لشارل الأول ، أثناء الحرب الأهلية ، وكافأه شارل الثانى على جهوده برفعه إلى مرتبة الفارس .

وفى سنواته الأخيرة أغراه بالتأمل والبحث فى الموت ، الكشف عن بعض المقابر فى نورفولك ، وسجل ملاحظاته وأفكاره فى تحفة من روائع النثر الانجليزى غير ذات موضوع محدد : .Hydriotaphia Urne - Buriall (١٦٥٨) . وينصح باحراق الموتى ، كأخف الوسائل عقبا لتخليص الأرض منــا . « إن الحياة بريق صاف ، واننا لنعيش «بشمس» خفية فينا » ، ولكنا نومض ثم نخبو بسرعة مخزية. وإن الأجيال لتمضى ، على حين يبقى الشجر ، وان الأسرات العريقة لا تعمر قدر ماتعمر ثلاث بلوطات(٤٣) » ويحتمل أن العالم نفسه » يقترب من نهايته « فى هذه الساعة الفاصلة من الزمن » . ونحن بحاجة إلى الأمل فى الخلود ليثبتنا ضد قصر الحياة هذا ، وإنه لسند قوى لنا أن نحس بالخلود ، — ولكن يحزننا أشد الحزن أن تدفعنا أطياف الجحيم فى التياع إلى الاحتشام واللياقة(٤٤) . وليس الملأ الأعلى « فراغا سماويا » ولكنه « فى نطاق هذا العالم المحسوس » فى حالة من الرضا والهـــدوء . ولكن براون يستدرك بسرعة حتى لا ينزلق إلى هاوية الهرطقة ، فيختم تأملاته الدينية بدعاء خاشع إلى الله :

اللهم أنعم على فى هذه الحياة براحة الضمير ، وبالسيطرة

على عواطفى ، وامنحنى حبك وحب أصدقائى الأعزاء ،
وبهذا أكون سعيدا إلى حد الاشفاق على قيصر . تلك ،
يا إلهى ، رغباتى المتواضعة التى يمليها على طموحى المعقول .
وهو كل ما أجرؤ على القول بأنه السعادة على الأرض ،
التى لا أضع فيها قاعدة ولا حدا لنعمتك وعنايتك . وأمتنى
كما تشاء حكمتك فان مشيئتك سوف تنفذ ولو فى القضاء
على (٤٥) .

٥ — الشعر فى أيام شارل

وظهرت فى نفس الحقبة طائفة من الشعراء الثانويين الأقل شأنا — الذين حظى كل منهم بأعظم الحب لدى هــذا أو ذاك من الناس — والذين أمتعوا الناس ، وملأوا وقت فراغهم بقوافى الغزل وقصائد التقوى الرخيمة . وحيث أن الملك كان يميل إليهم ويرضى عنهم لأنهم كانوا أبواقا له ولسان حاله فى كل التقلبات ، فان التاريخ يعرفهم باسم « الشعراء الفرسان » . وكان روبرت هرك **Herrick** يدرب قلمه عند بن جونسون ، وظن لبعض الوقت أن قدحا من النبيذ يمكن أن ينظم مجلدا من القصائد ، وكان يحتسى الخمر لعدة ساعات دون انقطاع ، من أجل باخوس (إله الخمر والعربدة عند اليونان والرومان) ، ثم درس ليهيئ نفسه للانخراط فى سلك رجال الدين ، وتلقى درسا فى العشق والغرام ، وقطع على نفسه عهدا أن يؤثر الخليلات على الزوجات(٤٦) . وأشار على العذارى « بجمع براعم الورد » عند تفتحها . أما عشيقته كورنا **Corinna** فانه يستحثها بقوة :

> انهضى ، انهضى ، يا للعار إن الصبح المتفتح يمثل بأجنحته
> قدرة الله كاملة . انظرى كيف أن الفجر ينبثق فى الجو عن
> خيوط الضوء الجديد الجميــــل . انهضى أيتها الغادة النؤوم
> وانظرى كيف تزين قطرات الندى العشب والشجر .... تعالى ،
> ولنذهب ونحن فى ريعان شبابنا لنسرح ونمرح فى اللهو البرىء

فى أيامنا . سوف يدركنا الهرم بسرعة ونفنى قبل أن نستمتع
بحريتنا . . . وعندما يسعفنا زماننا ، وقبل أن نذبل
ونذوى ، تعالى ياحبيبتى كورنا ، تعالى ننعم بربيع
الحياة(٤٧) .

وهكذا فى كثير من قصائده الماجنة التى نشرها (١٦٤٨) فى مجموعة Hesperides ، حيث نجد أنها ، حتى فى أيامنا الفاجرة ، فى حاجة إلى تهذيب ، حتى تلائم كل الناس . ولكن كسب العيش ضرورى كذلك . ومن ثم غادر هرك لندن الحبيبة إلى نفسه (١٦٢٩) — حاملا معه حبه للقصيد والقوافى — وقصد وهو محزون ، ليعمل قسيسا ويقيم فى بيت متواضع فى ديفونشير النائية .

وسرعان ماشرع فى نظم قصائد تفيض بالتقى والورع ، بادئا بدعاء الغفران :

أما عن قصائدى المجافية للدين ، والتى كتبتها فى أيام طيشى
ومجونى ، عن كل جملة أو عبارة أو لفظة فيها ، لم يرد فيها
ذكرك ، يا إلهى ، فتجاوز عنها يارب ، وامح من كتابى كل
سطر لم تلهمنى فيه الصواب(٤٨) .

وفى ١٦٤٧ عزله البيوريتانيون من وظيفته . وتضور جوعا ، فى خضوع وولاء ، طوال الأيام السود فى حكم كرومول ، ولكنه عاد إلى أبرشيته بعودة الملكية ، ومات هناك ، وهو فى سن الرابعة والثمانين . وضاعت كورنا فى زوايا النسيان .

ولم يعمر توماس كارو Carew مثلما عمر هرك ، ولكنه مثله ، وجد فسحة من الوقت للخليلات والمحظيات . وثمل كارو بالمفاتن التى تدق عن الوصف فى المرأة . فتغنى بها فى تفصيل جذل نشوان فى « نشوة ARapture » ، وفى ازدراء جرىء للطهر والعفة حتى أن الشعراء الآخرين حسدوا عليه دقته الفاسقة . ولم يغفر البيوريتانيون لشارل الأول تعيينه فى المجلس الخاص . ولكن ربما تجاوز عن الموضوع من الناحية الشكلية . لقد اقتبس الشعراء فى أيام شارل كل الرقة والأناقة

الفرنسيتين فى شعر رونسار وبنات أطلس ليزوقوا بالفن الرشيق مجون الشهوات]
وبعدها عن اللياقة والاحتشام .

وحظى سيرجون سكلنج Suckling بثروة طائلة فى حياته القصيرة التى لم تجاوز الثلاثة والثلاثين ربيعا . ولد فى ١٦٠٩ ، وورث فى الثامنة عشرة من عمره أموالا كبيرة . وطاف بأنحاء أوربا ليكمل دراسته ، وضمه شارل الأول إلى طائفة الفرسان ، وحارب تحت إمرة جوستافوس أدولفوس فى حرب الثلاثين عاما . وعاد إلى انجلترا (١٦٣٢) ، ليصبح بفضل وسامته وذكائه وثرائه الواسع من ذوى الحظوة فى البلاط الملكى . ويقول عنه أوبرى إنه « كان من أشجع أهل زمانه وأكثرهم شهامة وتودداً إلى النساء ، ومن أكبر المقامرين فى لعبة البولنج (اللعب بالكرات الخشبية) ولعب الورق . . . وقد تأتى أخواته إلى . . . ساحة اللعب ، تتعالى صيحاتهن وصراخهن خوفا من ضياع أنصبتهن فى القمار[٤٩] . » وابتدع نوعا من لعب الورق Cribbage (كربج) . ولم يتزوج قط فى حياته .ولكنه صاحب « عددا كبيرا من السيدات ذوات المكانة » . وفى إحدى الحفلات أهدى السيدات جوارب حريرية . وكأنها حلوى ، ثم مضى الحفل فى بذخ هائل[٥٠] . وأخرجت روايته أجلورا Aglaura فى مناظر باذخة مسرفة ، دفع نفقاتها من جيبه الخاص ، وحشد قواته للقتال إلى جانب الملك ، وخاطر بحياته فى محاولة لانقاذ سير توماس ونتورث ارل سترافورد ، وزير الملك ، من السجن (فى برج لندن) . فلما أخفق هرب إلى القارة ، وهناك حين حرم من كل ثروته . تناول السم ومات .

كذلك خدم ريتشارد لفلاس Lovelace الملك فى الحرب والشعر معا ، كما كان أيضا ثريا وسيما . رآه أنتونى وود فى اكسفورد فقال عنه انه « ألطف وأجمل إنسان وقعت عليه عيناه »[٥١] وفى ١٦٤٢ رأس وفدا من كنت يلتمس من البرلمان الطويل (وكان مشيخيا لأمد قصير) ، إعادة الطقوس الأنجليكانية . ومن أجل هذه الجرأة فى التمسك بمعتقداته ، قضى فى السجن سبعة أسابيع . ولما جاءت معشوقته ألثيا Althea تزوره وتواسيه فى السجن ، خلدها بهذه الأبيات :

عندما يرفرف الحب بأجنحة طليقة حول الأبواب ، ويأتى
بملاكه الطاهر ألثيا تهمس من خلف القضبان . وعندما
أرقد متشابكا فى شعرها لاأحول بصرى عن عينيها ، فان
الطيور التى تسبح فى الهواء لاتعرف حرية مثل هذه .

إن بعض الجـــدران لاتصنع سجنا ، ولا تصنع بعض
القضبان قفصا ، لأن العقول البريئـــة الهادئة تتخذ من
هذا وذاك صومعة . وإذا كنت أنعم بالحرية فى حبى ، وإذا
كانت نفسى طليقة . فان الملائكة الذين يحلقون فى السماء
هم وحدهم الذين ينعمون بمثل هذه الحرية(٥٢) .

وخرج إلى الحرب ثانية فى ١٦٤٥ ، معتذرا إلى خطيبته (لوسى ساكفرل Sacheverell) فى قصيدة : To Lucasta, Going to the Wars

لاتقولى ياعزيزتى انى قاس لاأرحم ، لأنى من معبد
صدرك الطاهر وبالك الخالى ، أطير إلى ساحة الحرب
وأمتشق الحسام . . . .
على أنك أنت نفسك سوف تقدسين مثل هذا التحول لأنى
لم أكن لأحبك ، إذا لم يكن الشرف أحب إلى منك(٥٣) .

وطبقا لأنباء كاذبة عن موته فى ساحة القتال تزوجت لوكاستا (لوسى الطاهرة) من شخص آخر طلب يدها . ولما أن فقد لفلاس فتاة أحلامه وثروته فى سبيل الدفاع عن الملكية ، ساءت أحواله إلى حد الاعتماد على إحسان أصدقائه وبرهم ليقيم أوده . وبات هذا الذى كان يرفل فى ثياب موشاة بالفضة والذهب ، يرتدى الآن أسمالا بالية ويأوى إلى الأكواخ . ومات من السل والهزال ١٦٥٨ ، وهو فى سن الأربعين .

وكان من الممكن أن يتعلم لفلاس فن البقاء من ادموند وولر Waller الذى نجح فى الاحتفاظ بنشاطه لمدة ستين عاما ، ممالئا جانبى الثورة الكبرى كليهما ،

وأصبح أكثر شعراء زمانه شعبية ، وعمر بعد ملتون ، ومات فى سريره ١٦٨٧ وهو فى سن الواحدة والثمانين . ودخل البرلمان فى السادسة عشرة من عمره ، وأصابته لوثة من الجنون فى سن الثالثة والعشرين ، ثم شفى وتزوج فى سن الخامسة والعشرين من سيدة فى لندن آلت إليها ثروة ضخمة ، وواراها التراب بعد ثلاث سنوات من زواجهما . وسرعان ماتودد إلى ساكاريسا (ليدى دوروثى سدنى) ، بأسلوب جديد لموضوع قديم .

اذهبى أيتها الوردة الجميلة ، وأبلغى هذه التى تضيع
وقتها وتضيعنى ، إنها الآن تعرف حق المعرفة أنى
إذ اشبهها بك ، كم تبدو هى جميلة فاتنة .
أبلغيها ، وهى فى ريعان الشباب ، وتتجنب أن يختلس
أحد النظر إلى مفاتنها ، أنك لوكنت (أيتها الوردة) ،
نشأت فى الصحراء ، حيث لايقطن إنسان ، لأصابك الذبول
دون أن يتغنى أحد بجمالك . . . .
ثم تفنى تلك التى نقرأ فيها المصير المشترك لكل ماهو
فذ نادر ، وما أقصر الأيام التى نقضيها مع ربات الحسن
الرائع والجمال المذهل .

وثمة شاعر آخر يكاد يكون من الشعراء الأقل شأنا يدخل فى زمرة شعراء هذه الحقبة ، وهو ريتشارد كراشو ، الذى امتلأ بالحماس الدينى أكثر مما أغرم بمتاع الدنيا . وكتب والده ، وهو من رجال الكنيســة الأنجليكانية ، مقالات ضد الكاثوليكية ، وملأ قلب ابنه بالمخاوف من البابوية . ولكن ريتشارد اعتنق الكاثوليكية ، وفصل من كمبردج (١٦٤٤) لمناصرته الملك ، فهرب من انجلترا إلى باريس . وهناك تعزى عن فقره « بتجليات الذات الإلهية » ، كان المتصوفة الأسبان فى نظره كشفا مقدسا عن النشوة الدينيةوالورع . وحين وقف أمام صورة للقديسة تريزا غبطها على ماظفرت به من اختراق سهم المسيح لقلبها ، وتوسل إليها أن تقبله تلميذا لها ، منكرا لذاته :

استحلفك بملء ملكوت هذه القبلة الأخيرة التى أمسكت
بروحك الطـاهرة ، وختمتك ملكا للمسيح ، وبكل
السموات التى لك فيه (ياشقيقة الساروفيم الجميلة) ،
وبكل مانجده فيك من صفاته ، ألا تتركى فى شيئا من
نفسى ، وأن تدعينى أتأمل حياتك ، بحيث أموت عن
كل حياتى .

قدم كراشو للعالم هذه القصيدة وقصائد غيرها فى ديوانه« خطوات إلى المعبد »
(١٦٤٦) ، وهى خليط متناقض يجمع بين النشوات الدينية والنزوات الشعرية :
وإنا لندرك من خلال هـذا الشاعر ، وشاعر آخر مثله متأخر عنه ، هو هنرى
فوجـان ، أنه فى تلك الأيام العصيبة المحمومة ، لم تكن انجلترا منقسمة إلى
بيوريتانيين وكلفنيين ، بل وسط حرب الشعر واللاهوت ، وجدت بعض الأرواح
أن الدين ليس كامنا فى الأضرحة الضخمة والطقوس المنومة ، ولا فى التعاليم الرهيبة
والاختيار المرسوم بالكبرياء والزهو ، ولكن فى الاتصال البرىء الواثق ، للنفس
الحائرة الخاشعة ، بالله الغفور الودود .

٦ — شارل الأول يواجه البرلمان ١٦٢٥ —١٦٢٩

أى طراز من الرجال كان هذا الملك الذى كان على انجلترا بأسرها أن تقاتل من
أجله ؟ وقبل أن تنتزع العاصفة كل آثار الرحمة والشفقة من قلبه ، كان رجلا
فاضلا إلى حد معقول — كان ابنا عطوفا بارا ، وزوجا مخلصا بشكل غير عادى ،
وصديقا وفيا ، وأبا يحبه أبناؤه حب العبادة ، وكان قد بدأ صراعه فى الحياة
بعلة خلقية فى جسمه ، فلم يكن يستطيع المشى إلى أن بلغ السابعة من العمر . وتغلب
على هذه العـاهة بالدأب على ممارسة ألعاب قوية ، حتى استطاع فى سنى الشباب
والنضج أن يتقن ركوب الخيل والصيد على أحسن وجه . وعانى من عجز عن
النطق ، فكان حتى سن العاشرة لايكاد يستطيع الابانة فى كلامه . وفكر أبوه فى
إجراء عملية له فى لسانه ، وتحسن شارل شيئا فشيئا ، ولكن ظل حتى آخر لحظة فى

حياته يتلعثم ، وكان عليه أن يتغلب على هذه العقبة بالتزام البطء فى الكلام(٥٤) .
وعندما قضى أخوه هنرى نحبه ، وكان محبوباً لدى الشعب ، وتركه الوريث الظاهر للعرش ، حامت الشبهات حول اشتراك شارل فى موته ، وكان اتهاماً ظالماً ، ولكنه أسهم فى اكتئاب الأمير وسوء حالته النفسية . فآثر العزلة المملة على المرح الصاخب والإدمان على الخمر فى بلاط والده . وبرع فى الرياضيات والموسيقى واللاهوت ، وتعلم شيئاً من اليونانية واللاتينية ، وقليلا من الأسبانية . وأحب الفن ، فاحتفظ بمجموعة أخيه ، وزاد عليها ، فأصبح جامعاً للتحف مع التمييز بين الغث والثمين منها ، وراعياً كريماً للفنانين والشعراء والموسيقيين . ودعا إلى بلاطه الرسام الإيطالى أورازيو جنتلسكى ، ثم روبنز وفانديك وفرانس هالز ، ورفض هالز ، وجاء روبنز أساساً بوصفه سفيراً . ولكن العالم كله عرف شارل على أنه الملك المزهو الوسيم ، مع فنديك بلحيته ، وكم من لوحة للملك بريشة فانديك . واستمر وليم دوبسون ، تلميذ فانديك يصور الأسرة المالكة .

وأسهمت أبوة شارل وزواجه فى القضاء عليه . لقد ورث عن أبيه فكرته عن الحق المطلق للملك ، وسلطته فى سن القوانين وتنفيذها ، والحكم بلا برلمان ، وإلغاء القوانين التى يسنها البرلمان . وبدا أن هذه الفكرة تبررها السوابق ، وكانت قضية مسلماً بها فى فرنسا وأسبانيا ، وكان يشجع شارل على اعتناقها ، بكنجهام والحاشية والملكة جميعاً . نشأت هنريتا ماريا فى البلاط الفرنسى فى نفس الفترة التى كان فيها ريشيليو قد جعل من أخيها لويس الثالث عشر حاكماً مطلقاً مستبداً على فرنسا بأسرها ، فيما عدا ريشيليو نفسه . وقدمت الملكة إلى انجلترا ، وهى تجهر عقيدتها الكاثوليكى ، مصطحبة معها فى ركب عرسها الكهنة الكاثوليك ، وزاد من تشددها فى التمسك بمذهبها ما رأت من العنت الذى يلاقيه الكاثوليك فى انجلترا . وتحلت الملكة بسحر الجمال والحيوية والذكاء ، وبكل نزوع آل مديتشى إلى الاشتغال بالسياسة . ولم يكن بد من أن تحث زوجها المخلص على التخفيف من آلام الكاثوليك فى انجلترا ، ولا ريب فى أنها كانت تحلم بتحويل الملك نفسه إلى الكثلكة . وأنجبت له ستة أطفال . ولابد أنه لقى عناء شديداً فى مقاومة رغبتها فى تنشئة

الأطفال على العقيدة الكاثوليكية . ولكنه كان قد انتهج نهجاً مخلصاً فى التمسك بالعقيدة الأنجليكانية . وتحقق أن بلاده ، انجلترا ، بروتستانتية إلى حد كبير ، معادية للبابوية التى تنذر بالأخطار .

فى ١٨ يونية ١٦٢٥ اجتمع أول برلمان فى عهد شارل : مائة من اللوردات — نبلاء وأساقفة — تمتعوا بعضوية مجلس اللوردات ، وخمسمائة رجل ثلاثة أرباعهم من البيوريتانيين(٥٥) ، انتخبوا لمجلس العموم ، بمختلف طرق الاحتيال المالى والسياسى(٥٦) ، ولم يزعم أحد بأنه كان ثمة ديمقراطية . ومن المحتمل أن مستوى الكفاية فى هذا البرلمان أعلى مما كان يمكن أن يأتى به اقتراع البالغين ، فقد ضم كوك وسلدن وبيم وسيرجون اليوت وسير توماس ونتورث . وغيرهم ، ممن خلد التاريخ ذكرهم . وزادت جملة ثروات أعضاء مجلس العموم على ثلاثة أمثال ثروات اللوردات(٥٧) . وتكشفت نزعة مجلس العموم فى مطالبته بتطبيق القوانين المعادية للكثلكة . وطلب الملك تخصيص أموال للنفقات الحكومية وللحرب مع أسبانيا ، فاعتمد المجلس مبلغ ١٤٠ ألف جنيه (٧ ملايين دولار ؟) ، وتعمد أن يكون هذا المبلغ غير كاف ، فإن الأسطول وحده كان يتطلب ضعف هذا المبلغ . وجرى العمل لمدة قرنين من الزمان ، على منح الملوك الإنجليز طيلة مدة حكمهم . حق فرض رسوم على الصادرات والواردات ، وكانت عادة شلنين أو ثلاثة شلنات عن كل برميل كبير Tun (وحدة سعة ٢٥٢ جالوناً عادة) ومن ستة إلى إثنا عشر بنساً لكل باوند . ولكن القانون الذى سنه البرلمان آنذاك « Tonnage and Poundage » سمح للملك بممارسة هذا الحق لمدة عام واحد فقط . واحتج بأن الاعتمادات السابقة كانت حاشية الملك جيمس تبددها فى إسراف وتبذير . كما شكا من أن الضرائب كانت تفرض دون موافقته ، وتقرر منذ الآن أنه لابد من دعوة البرلمان سنوياً ليفحص كل عام مصروفات الحكومة . واستاء شارل من هذه التدابير والنيات . ولما باتت لندن مهددة بالطاعون ، اتخذ من ذلك ذريعة لحل البرلمان فى ١٢ أغسطس ١٦٢٥ .

كان بكنجهام يقبض آنذاك على زمام الأمور فى الحكومة ، فإن شارل لم يرث عن أبيه الدوق اللطيف المستهتر فقط ، بل إنه كان كذلك قد تربى فى أحضانه ، ورافقه فى أسفاره ، فى صحبة كان من الصعب معها على الملك (شارل) أن يرى فى صديقه مستشاراً غير حكيم يجر عليه الكوارث . وكان بكنجهام ، بتأييد من البرلمان ، قد دفع جيمس إلى الحرب مع أسبانيا ، أما الآن فقد رفض البرلمان اعتماد الأموال اللازمة للحرب . وجهز الدوق أسطولا ضخماً ليقلع ويهاجم البضائع والثغور الأسبانية ويسلبها ، ولكنه أخفق إخفاقاً تاماً ، أما الجنود العائدون ، الذين لم يتسلموا رواتبهم ، والذين ساءت روحهم المعنوية ، فقد أعملوا السلب والنهب ونشروا الروح الانهزامية فى المدن الساحلية الإنجليزية .

ولما اشتدت حاجة شارل إلى المال ، راض نفسه على دعوة برلمانه الثانى ، وقويت المعارضة باشتداد حاجة الملك . وحذره مجلس العموم من فرض الضرائب دون إقرار البرلمان لها . ووصم اليوت الدوق (وكانا يوماً صديقين) بأنه رجل فاسد عاجز ازداد ثراء كلما أخفقت استراتيجية البلد أو سياستها . وعين البرلمان لجنة لمساءلة بكنجهام . فأنبه الملك قائلا : « أنا لا أسمح بأن يحقق المجلس مع خدمى ، فما بالكم برجل قريب منى إلى هذا الحد . » فأشار اليوت على المجلس بوقف أية اعتمادات حتى يسلم الملك بحق البرلمان فى إسقاط أى وزير ، وذكر شارل البرلمان عاضباً ، بأن فى مقدوره أن يفضه فى أية لحظة ، فرد المجلس على ذلك بمحاكمة بكنجهام رسمياً — متهمين إياه بالخيانة ومطالبين بعزله عن منصبه (٨ مايو ١٦٢٦) وأبلغ الملك بأنه لن يقر أية اعتمادات ، حتى يتم ذلك . فحل الملك البرلمان فى ١٥ يونيه ، وترك البت فى موضوع المسئولية الوزارية للمستقبل .

وبات شارل مرة أخرى معوزاً فى مسيس الحاجة إلى المال ، وبيع مقدار كبير من الصحاف الملكية الفضية والذهبية ، وطلب إلى البلاد بأسرها أن تبعث بالهبات والهدايا للملك ، ولكن ما جمع منها كان يسيراً ، فإن الثروات البريطانية كانت تناصر البرلمان ، وأمر شارل أعوانه أن يجمعوا رسوم الصادرات والواردات سالفة الذكر . برغم عدم حصوله على موافقة البرلمان ، وأن يستولوا على بضائع التجار

الذين يعجزون عن الدفع . وأمر الثغور بالانفاق على الاسطول ، وأمر وكلاءه بسوق الرجال إلى الخدمة العسكرية عنوة . وهزم رجال الامبراطور القوات الانجليزية الدنمركية التى كانت تقاتل من أجل البروتستانتية فى ألمانيا شر هزيمة . فطالب الدنمركيون حلفاء انجلترا بالمعونة التى كانت وعدتهم بها . وأمر شارل بعقد قرض إجبارى — فكان على كل دافع ضرائب أن يقرض الحكومة ١ ٪ من قيمة أرضه و ٥ ٪ من ثمن ممتلكاته الشخصية . وأودع الخصوم الأثرياء السجون ، وسيق المعارضون الفقراء إلى الجيش أو البحرية . وفى نفس الوقت حمل التجار البريطانيون المؤن والذخيرة إلى بوردوو لاروشيل للهيجونوت المشتبكين فى حرب مع ريشيليو . فأعلنت فرنسا الحرب على انجلترا (١٦٢٧) ، وقاد بكنجهام أسطولا لمهاجمة الفرنسيين فى لا روشيل ، ولكن الحملة أخفقت . وسرعان مانفد المبلغ الذى جمع من القرض وقدره ٢٠٠ ألف جنيه . وبات شارل مرة أخرى على شفا الافلاس ، فدعا برلمانه الثالث .

اجتمع البرلمان فى ١٧ مارس ١٦٢٨ ، وأعيد كوك واليوت وونتورث وجون هامدن . وأرسلت مدينة هنتنجدون لأول مرة أحد ملاك الأرض الأقوياء الشكيمة ممثلا عنها ، هو أوليفر كرومويل . وفى خطاب العرش طالب شارل بالاعتمادات متجهما ، ثم قال فى وقاحة وبغير اكتراث : « لا تأخذوا هذا على أنه تهديد ، فانى احتقر أن أهدد إلا من هم أنداد لى[٥٨] واقترح البرلمان اعتماد مبلغ ٣٥٠ ألف جنيه ، ولكن قبل التصويت على ذلك ، طلب موافقة الملك على « ملتمس الحقوق » (١٨ مايو ١٦٢٨) الذى أصبح أحد المعالم التاريخية فى الطريق إلى « سيادة البرلمان » :

إلى صاحب الجلالة الملك المعظم

إننا فى خشوع واحتشام نعرض على مليكنا وسيدنا . . . أنه من حيث أنه قد أعلن وطبق بقانون . . . . من ادوارد الأول ، أنه لا ضريبة ولا معونة يمكن أن توضع أو تفرض ،

بغير الارادة الخالصة لرؤساء الأساقفة والأساقفة وكل ارل
وكل بارون وكل فارس ، وممثلى المدن والجامعات والأحرار
من العامة . وورث رعاياك هذه الحرية ،أى أنهم لا يجبرون
على الاسهام فى أية ضريبة أو رسـوم أو معونة أو أى
تكليف آخر من هذا القبيل ، لا يكون قد وضع بموافقة
البرلمان موافقة عامة .

ومضى « الملتمس » يحتج على القروض الاجبارية ، وإهدار الملك لحق الفرد فى التحقيق فى قانونية الاعتقال ، وحق المحاكمة أمام المحلفين كما وردا فى « العهد الأعظم ١٢١٥ » . وقال كوك : « إننا سنعرف عن طريق هذا الملتمس ما إذا كتب للبرلمان أن يحيا أو يندثر » . ووافق شارل على الملتمس موافقة غامضة ملتوية، وطالب البرلمـان برد أكثر صراحة ووضوحا . وظل على موقفه من وقف الاعتمادات . فوافق الملك موافقة رسمية أو شكلية . وأحست لندن بأهمية هذا الاستسلام ومغزاه ، وقرعت النواقيس بشكل لم يسمع له مثيل لعدة سنوات من قبل .

وخطا البرلمان خطوة أخرى ، فطالب الملك بعزل بكنجهام ولكنه رفض ، وفجأة روع الطرفان حين وجـد أن هذه المشكلة خرجت من أيديهما . ذلك أن جون فلتون — وهو محارب قديم جريح أثقلته الديون ، غاضباً من أجل متأخرات معاشه ، متأثرا أشد التأثر بالنشرات — اشترى سكين جزار ، ومشى ستين ميلا من لندن إلى بورتسموث ، وغمس السكين فى صدر بكنجهام ، وسلم نفسه للسلطات (٢٣ أغسطس ١٦٢٨) . وانهارت أمام الجثة زوجة بكنجهام التى كانت على وشك الوضع ، واستولى الشعور بالندم على فلتون فأرسل إليها باعتذاراته وطلب منها الصفح ، فأجابته إلى طلبه . ولكنه أعدم دون تعذيب .

وحذر البرلمان الملك بأن استمراره فى تحصيل رسوم الصادرات والواردات إهدار للملتمس الحقوق ، فأجاب شارل بأن مثل هذه الرسوم لم يرد ذكرها فى الوثيقة ، فشجع البرلمان التجار على الامتناع عن دفعها(٥٩) وتوكيدا لحق البرلمان

فى سن التشريع الدينى ، برغم سيادة الملك الدينية ، نادى بكلفنية صارمة ، وبتفسير مضاد لآراء أرمينيوس* للمواد التسع والثلاثين باعتبارها قانون انجلترا ، واقترح ، استنادا إلى السلطة المخولة له ، فرض الخضوع للكنيسة الانجليزية على هذا الأساس ، وفرض العقوبات على الكاثوليك والأرمينيين على حد سواء[٦٠] . فأمر الملك بفض البرلمان ، وغادر رئيسه مقعد الرياسة امتثالا لهذا الأمر ، ولكن المجلس أبى أن يفض الاجتماع ، وأرغم رئيسه على العودة إلى كرسيه . نحن الآن فى ٢ مارس ١٦٢٩ حيث قدم جون اليوت ثلاثة قرارات تنص على أن تكون جريمة كبرى عقوبتها الاعدام : إدخال المذاهب البابوية أو الأرمينية أو أية أفكار أخرى تخالف تعاليم الكنيسة القويمة الصحيحة ، والاشارة أو الاشتراك بأى شكل من الأشكال فى جمع رسوم الصادر والوارد التى لم يقرها البرلمان ، ودفع مثل هذه الضرائب غير المعتمدة . ورفض رئيس المجلس أخذ الرأى على هذه الاقتراحات . فقام أحد الأعضاء بهذه العملية ، وقابلها المجلس بالهتاف والتصفيق وأقرها . ومذ علم أعضاء المجلس بأن جنود الملك على وشك الدخول إلى قاعة المجلس وطردهم ، فانهم قرروا فض اجتماعهم ، وانصرفوا .

وفى مارس أمر شارل بسجن اليوت وسلدن وسبعة أعضاء آخرين بتهمة إثارة الفتنة . وسرعان ما أطلق سراح ستة منهم ، وحكم على الثلاثة الباقين بغرامات فادحة وبالسجن لمدد طويلة ، ومات اليوت فى السجن وهو فى سن الثامنة والثلاثين (١٦٣٢) .

٧ — شارل حاكم مطلق : ١٦٢٩ — ١٦٤٠

ومضت إحدى عشرة سنة — وهى أطول فترة من نوعها فى تاريخ انجلترا لم يجتمع فيها البرلمان . وبات شارل آنذاك حرا فى أن يكون حاكما مطلقا . إنه من الوجهة النظرية لم يطالب بأكثر مما ذهب إليه جيمس واليزابث وهنرى الثامن ،

(*) جاكوب أرمينيوس (١٥٦٠ — ١٦٠٩) — وهو لاهوتى هولندى بروتستانتى عارض آراء كلفن ، فى القضاء والقدر وحرية الارادة والخلاص .

ولكنه من الوجهة العملية ذهب إلى أكثر مما ذهبوا إليه ، لأنهم لم يبلغوا بسلطات الملك وحقوقه قريبا من حد التوتر والانفجار كما كان يفعل شارل ، بفرض الضرائب غير المقررة ، وعقد القروض الاجبارية ، وإيواء الجنود لدى المواطنين ، وإجراء الاعتقالات التعسفية ، وإنكار حق المسجونين فى طلب التحقيق فى أمر حبسهم وفى المحاكمة أمام المحلفين ، وتشجيع طغيان محكمة « قاعة المنجم » ، ومحكمة اللجنة العليا وقساوتهما ، الأولى فى المحاكمات السياسية ، والثانية فى القضايا الكنسية ؛ ولكن غلطة شارل الأساسية هى عجزه عن أن يدرك أن الثروة التى يمثلها مجلس العموم أعظم كثيرا من الثورة التى يسيطر عليها الملك أو الثروة الموالية له ، وأن سلطة البرلمان لابد أن تزداد تبعا لذلك .

وفى أثناء هذه الأزمة ، وقبل أن تستنزف دماء الأمة ، ازدهر الاقتصاد ، لأن شارل — مثل والده — كان رجل سلام ، وأبقى انجلترا بعيدة عن الحرب طيلة معظم حكمه ، على حين أرهق ريشيليو فرنسا ، كما أصبحت ألمانيا خرابا بلقعا . وبذل الملك المنهوك أقصى الجهد فى التخفيف من التركيز الطبيعى للثروة . فأمر بوقف المساحات المسورة وألغى ما أقيم منها فى خمس مقاطعات داخلية بين عامى ١٦٢٥ و ١٦٣٠ ، وفرض غرامات على ٦٠٠ من ملاك الأرض المتمردين[٦١] وأمر برفع أجور عمال النسيج فى ١٦٢٩ ، ١٦٣١ ، ١٦٣٧ ، وأمر قضاة الصلح بفرض رقابة أدق على الأسعار . وعين لجانا لحماية مستوى الأجور ، والاشراف على إعانة الفقراء . وخلق لود لنفسه أعداء جددا ، بتحذيره أرباب العمل من « إذلال الفقراء واضطرارهم إلى إراقة ماء وجوههم[٦٢] » ولكن فى نفس الوقت منحت الحكومة الاحتكارات فى الملح والصابون والنشا والبيرة والنبيذ والجلود ، وأفادت منها . واحتفظت لنفسها باحتكار الفحم . فكانت تشتريه بأحد عشر شلنا للعبوة ، وتبيعه بسبعة عشر فى الصيف وتسعة عشر فى الشتاء[٦٣] . وتلك أيضا احتكارات أرهقت الفقراء إلى أبعد حد ، وهاجر إلى انجلترا الجديدة أكثر من ٢٠ ألفا من البيوريتانيين .

ودفع شارل بأنه كان لابد له من إيجاد وسيلة لتغطية نفقات الحكومة . وفى

١٦٣٤ حاول محاولة مشئومة : فرض ضريبة جديدة . ذلك أن السوابق جرت من قديم على مطالبة المدن الساحلية بأن تمد الأسطول بالسفن اللازمة له زمن الحرب ، مقابل حمايته لها ، أو أن تدفع ، بدلا من ذلك ، « مال السفن » للحكومة لتنفق منه على الأسطول . ولكن شارل الآن ، ونحن فى ١٦٣٥ ، فرض « ضريبة السفن » هذه ، وبغير سابقة ، على كل انجلترا بأسرها فى زمن السلم ، متذرعاً (وهذا حق تماماً) بالحاجة إلى إعادة بناء البحرية الخربة ، استعداداً للطوارى ، ولتتولى حماية التجارة البريطانية ضد قراصنة القنال الإنجليزى . وعارض الكثيرون هذه الضريبة الجديدة ، ورفض جون هامدن دفعها ، اختباراً لمشروعيتها ، فأودع السجن ثم أطلق سراحه . وكان بيوريتانياً موسراً من بكنجهامشير . قال عنه أحد أنصار الملكية — كلارندن ، إنه ليس من مثيرى الفتن بل إنه رجل هادىء « يتميز برزانة ودقة غير عاديتين(٦٤) » . أخفى صلابته فى كياسته ومجاملته ، وأخفى زعامته فى تواضعه .

وتأخرت محاكمة هامدن طويلا ، ولكن أخيراً بدىء بنظر القضية فى نوفمبر ١٦٣٧ ، وأورد محامو التاج سوابق "ضريبة السفن" وقالوا بأن للملك فى ساعة الخطر الحق فى أن يطلب المعونة المالية دون انتظار لانعقاد البرلمان . فأجاب محامو هامدن بأنه لم يكن ثمة ضرورة ماسة تقتضى العجلة ، و حالة طوارىء . وأنه كانت هناك فسحة من الوقت لدعوة البرلمان ، ثم أن فرض الضريبة انتهك ما تمس الحقوق التى قبله الملك . وصدر الحكم لمصلحة التاج بأغلبية سبعة ضد خمسة من القضاة ، ولكن الرأى العام ساند هامدن ، وارتاب فى نزاهة القضاة الذين هم عرضة لانتقام الملك . وسرعان ما أطلق سراح هامدن . واستمر شارل حتى ١٦٣٩ يجمع ضريبة السفن . واستخدم الجزء الأكبر منها فى بناء البحرية التى قاتلت الهولنديين وانتصرت عليهم فى ١٦٥٢ .

وفى الوقت نفسه جاوزت أخطاء الملك الجسام انجلترا إلى اسكتلنده ، فإنه أزعج المشيخيين الاسكتلنديين بزواجه من كاثوليكية ، ومده سلطان الأساقفة على

كنائسهم . وروع نصف الأشراف « بقانون الإلغاء » (١٦٢٥) الذى يقضى بالغاء كل ما منح من أراضى التاج أو الكنيسة منذ ارتقاء مارى ستيوارت إلى العرش . وعين خمسة من الأساقفة ورئيساً للأساقفة أعضاء فى المجلس المخصوص فى اسكتلنده ، ثم عين هذا الأخير وهو جون سبوتيزود Spottizwoode قاضياً للقضاة — وهوأول رجل من رجال الكنيسة يعين فى هذا المنصب منذ عهد الإصلاح الدينى . ثم إنه لما قدم ، بعد إبطاء أو تمهل مثير ، إلى اسكتلنده ليتوج عليها (١٦٣٣) ، سمح للأساقفة بإجراء الطقوس التى تكااد تكون فى معظمها مراسم كاثوليكية فى الكنيسة الأنجليكانية — الملابس والشموع والمذبح والصليب . ولما كان الأساقفة الإسكتلنديون قد وطدوا العزم على فرض سلطانهم على المشيخيات ، فانهم وضعوا مجموعة من القواعد الطقسية التى صارت تعرف — باسم " قوانين لود " ، وقد أولت هذه القوانين الملك سلطة كاملة فى الفصل فى قضايا الكنيسة ، وحرمت اجتماع رجال الدين إلا بدعوة من الملك ، وقصرت حق القيام بالتدريس على من يجيزهم الأسقف ، ونصت على ألا يرسم قسيساً إلا من يرتضى هذه القوانين(٦٥) . وأقر شارل هذه القوانين وأمر باعلانها فى كل كنائس اسكتلنده . واحتج القساوسة المشيخيون على أن نصف الإصلاح الدينى بهذه الطريقة قد نسف ، وحذروا من أن شارل يمهد لإخضاع بريطانيا لرومه . وثارت ثائرة الجمهور فى كنيسة سانت جيل فى إدنبرة عند محاولة إقامة الشعائر على الشكل الجديد ، وقذف بالعصى والحجارة الكاهن الذى تولى إقامة الشعائر ، وطوحت جنى جدز Jenny Geddes بكرسيها فى رأسه صارخة " أيها اللص القذر ، هل أنت الذى ستتلو القداس ؟ (٦٦) " وانهالت الظلامات والالتماسات على شارل من كل الطبقات تطالب بالغاء " القوانين الكنسية " السابق ذكرها . فكان جوابه أنه دمغ هذه الملتمسات بالخيانة . وبدأت إسكتلنده الثورة ضد الملك .

وفى ٢٨ فبراير ١٦٣٨ وقع ممثلو الكنيسة الإسكتلندية وسواد الناس فى إدنبره " الميثاق الوطنى " يؤكدون فيه من جديد مذهب المشيخية وطقوسها ، ويرفضون القوانين الجديدة ، وينذرون أنفسهم للدفاع عن التاج وعن " العقيدة الصحيحة " .

وبتحريض من القساوسة أيدت إسكتلنده كلها تقريباً هذا الميثاق . وهرب سبوتزوود وكل الأساقفة فيما عدا أربعة ، إلى انجلترا . وطردت الجمعية العامة للكنيسة الإسكتلندية فى جلاسجو كل الأساقفة ، وأعلنت استقلالها عن الحكومة . وأرسل الملك أوامره بفض الاجتماع ، وإلا وجهت إلى المشتركين فيه تهمة الخيانة . ولكنهم واصلوا عقد جلساتهم . وحشد الملك جيشاً قوامه ٢١ ألف جندى تعوزهم الحماسة ، سار به إلى إسكتلنده ، على حين جمع " الميثاقيون " قوة من ٢٦ ألف رجل ألهبهم الحماس الدينى والغيرة الوطنية . وعندما تلاقى الجمعان وافق شارل على عرض القضية على برلمان إسكتلندى حر وجمعية غير مقيدة من الكنيسة الإسكتلندية ، ووقعت الهدنة فى بروك Berwick فى ١٨ يونية ١٦٣٩ وبذلك انتهت « حرب الأساقفة الأولى » دون إراقة دماء . ولكن الجمعية الجديدة انعقدت فى إدنبره فى ١٢ أغسطس ١٦٣٩ ، وأكدت القرارات " الخائنة " التى اتخذت فى مؤتمر جلاسجو ، وصدق البرلمان الإسكتلندى على قرارات الجمعية . واستعد الطرفان " لحرب الأساقفة الثانية " .

ودعا الملك للوقوف إلى جانبه ، فى هذه الأزمة ، رجلا ثابت العزم كامل المزايا (وكانت هذه الكلمة شعاره) بقدر ما كان الملك متردداً عاجزاً . وكان توماس ونتورث Wentworth قد وصل إلى مقاعد البرلمان وهو فى سن الحادية والعشرين (١٦١٤) ، وكان غالباً ما يصوت ضد الملك . وكسبه شارل إلى جانبه بتعيينه رئيساً « لمجلس الشمال " ، وكافأه على نشاطه فى تنفيذ سياسة الملك بضمه إلى مجلس شورى الملك وبعث به نائباً للملك فى إيرلنده (١٦٣٢) حيث أخمدت الثورة هناك سياسته " البارعة " التى ارتكزت على كفاية مجردة من الرحمة ، وأقامت سلاماً مشوباً بالغضب . وفى ١٦٣٩ عين ارل سترافورد ورئيساً لمستشارى شارل . ونصح الملك بحشد جيش كبير ، لقمع " الميثاقيين " ومواجهة البرلمان المتمرد بقوة لا قبل له بمقاومتها . ولكن الجيش الكبير يتطلب اعتمادات من العسير تدبيرها بدون البرلمان . فدعا ، على كره منه ، برلمانه الرابع ، فلما اجتمع هذا " البرلمان القصير " (١٣ أبريل ١٦٤٠) عرض عليه الملك رسالة ضبطت ، التمس فيها الميثاقيون نجدة لويس الثالث عشر[٦٧] . واحتج الملك بأن له الحق ؛ إزاء مثل هذه الخيانة ؛

فى أن يحشد جيشا ، واتصل جون بيم سرا بالميثاقيين ، وقرر أن مشكلتهم مماثلة لقضية البرلمان ضد الملك ، وحرض البرلمان على منع المعونات المالية عن الملك ، وعلى التحالف مع الاسكتلنديين . فحل شارل البرلمان القصير بتهمة الخيانة (٥مايو ١٦٤٠) . واندلعت الفتنة فى لندن ، وهاجم الرعاع قصر رئيس الأساقفة لود ، فلما لم يجدوه قتلوا كاثوليكيا رفض الصلاة البروتستانتية(٦٨) .

وسار شارل إلى الشمال بجيش جمع ارتجالا ، وتقدم الاسكتلنديون نحو الحدود وهزموا الانجليز (٢٠ أغسطس ١٦٤٠) واستولوا على شمال انجلترا . ووافق الملك البائس على دفع ٨٥٠ جنيها يوميا حتى يتم التوصل إلى معاهدة مرضية ، ولكنه عجز عن الدفع ، وبقى الجيش الاسكلندى حول نيوكاسل ، بوصفه حليفا حاسما للبرلمان الانجليزى فى حربه ضد الملك . فدعا شارل ، وقد تولاه اليأس والذهول والحيرة ، مجلسا من النبلاء للاجتماع به فى يورك . فنصحوه بأن سلطانه بات على شفا الانهيار ، وأنه لابد له من تسوية مع أعدائه . وللمرة الأخيرة دعا الملك البرلمان ، وهو أطول البرلمانات وأشـــدها حسما وأكثرها شؤما فى تاريخ انجلترا .

٨ — البرلمان الطويل

اجتمع البرلمان فى وستمنستر فى ٣ نوفمبر ١٦٤٠ . وكان مجلس العموم يضم نحو ٥٠٠ عضوهم « زهرة الطبقة العليا والعامة المتعلمين . . . . مجلس ارستقراطى لاشعبى(٦٩) » ، يمثلون ثروة انجلترا أكثر مما يمثلون شعبها ، ولكنهم يناضلون من أجل المستقبل ضد الماضى . وأعيدت أغلبية أعضاء البرلمان القصير ، متحفزين للانتقام . وتبوأ سلدن وهامدن وبيم أماكنهم من جديد . وكان كرومول رجلا مرموقا ، ولو أنه لم يرق إلى الزعامة بعد .

وإنه ليتعذر ، على بعد الشقة ، أن نصور كرومول تصويرا موضوعيا . فان المؤرخين منذ ظهر حتى اليوم ، يصفونه بأنه منافق طموح(٧٠) ، أو قديس سياسى(٧١) . . . . إنه شخصية متناقضة ، ربما جمع — وربما وفق فى بعض

الأحيان — فى خلقه بين الصفات المتعارضة التى أدت إلى اختلاف الناس فى تقديرهم له . وهذا هو مفتاح سيرة كرومويل .

كان كرومويل من ملاك الأرض من غير ذوى الحسب والنسب . الذين لم يتمتعوا ببريق الوظائف الحكومية ، ولو أنه أسهم عن غير طيب نفس فى الانفاق عليها . ومع ذلك فانه كان له أسلافه . فكان والده روبرت كرومويل يملك ضيعة متواضعة فى هنتنجدون تدر ٣٠٠ جنيه فى العام . وكان جده الأكبر ريتشارد وليامز ابن أخى توماس كرومويل أحد قساوسة هنرى الثامن ، فغير اسمه إلى كرومويل ، وحصل بوصفه كاهنا ، أو من الملك ؛ على شىء من الضياع والموارد المصادرة من الكنيسة الكاثوليكية (٧٢) ، وكان أوليفر واحداً من بين عشرة أطفـال ، وهو الوحيد الذى عمر ، على حين مات الباقون فى سن الطفولة وكان معلمه فى المدرسة الثانوية واعظا متحمساً ، كتب رسالة يثبت فيها أن البابا عدو المسيح ، وأخرى يعدد فيها العقوبات الالهية للخطائين المعروفين بسوء السمعة . والتحق أوليفر (١٦١٦) بكلية سدنى سسكس فى كمبردج ، وكان ناظرها صمويل وارد الذى مات فى السجن (١٦٤٣) لاتخاذه موقفا بيوريتانيا عنيدا ضـد بدع لود و « إعلان الألعاب » الذى أصدره شارل . والظاهر أن أوليفر ترك كمبردج قبل التخرج . وأخيرا فى ١٦٣٨ اتهم نفسه بمقارفة شىء من طيش الشباب ونزقه :

> تعلمون أية حياة كنت أعيشها . آه لقد عشت فى ظلام محبب إلى نفسى ، وكرهت النور . كنت زعـيما ، ولـكن زعيم الخطائين الآثمين . إن هذا حق : كان التقى بغيضا إلى قلبى ، ولـكن الله حبانى رحمته ، آه ببركات رحمته سبحانه ، احمدوه واشكروه وأثنوا عليه من أجلى — وتوجهوا إليه من أجلى بالدعاء ، لعل من أسدى هـذا الصنيع الجليل أن يتمه يوم المسيح ، أو يوم الحساب (٧٣) .

ومارس كرومويل كل ضروب الندم ، وانتابه هذيان الموت وكل مظاهر القلق العقلى ، مما بقى معه مكتئبا باستمرار ، وتحدث بقية حياته بأسلوب الورع البيوريتانى .

ثم استقر وتزوج وأنجب تسعة أطفال ، وأصبح مواطناً نموذجياً ، إلى حد أنه في ١٦٢٨ ، وهو في سن الثامنة والعشرين ، انتخب ليمثل هنتنجدون في البرلمان . وباع ممتلكاته في هنتنجدون بمبلغ ١٨٠٠ جنيه (١٦٣١) وانتقل إلى سانت إيف St. Ives ، ثم بعدها إلى Ely . وعندما أعادته كمبردج إلى البرلمان (١٦٤٠) وصفه عضو آخر بقوله : " يرتدى بشكل عادى جداً حلة من قماش بسيط . . . . ولم تكن ملابسه الداخلية نظيفة كل النظافة . . تلطخ ياقته الصغيرة بقعة أو بقعتان من الدم " . . وكان وجهه منتفخاً يميل إلى الحمرة ، وصوته حاداً مجرداً من التناغم — وكان طبعه متقداً إلى حد بعيد ، ولكن مع القدرة على ضبط النفس(٧٤) ، — وكان يتحين الفرصة الملائمة ، ويخاطب الرب . وكان له قوة عشر رجال . ومهما يكن من أمر ، فان الله حتى هذه اللحظة ، اصطفى أدوات أخرى .

إن جون بيم هو الذى كشف عن الغضب الذى ساد البرلمان باتهامه سترافورد بأنه يناصر البابوية سراً ، وأنه يدبر قدوم جيش من إيرلنده للإطاحة بالبرلمان ، و « تغيير القانون والديانة(٧٥) » . وفى ١١ نوفمبر ١٦٤٠ اتهم مجلس العموم إرل سترافورد ، حيث لم يغفر له المجلس قط تخليه عن الملك — بالخيانة وأمر بايداعه السجن . وفى ١٦ ديسمبر ، وبعد أن أعلن المجلس أن القوانين الأنجليكانية الجديدة باطلة قانوناً ، اتهم رئيس الأساقفة لود « بالكثلكة » والخيانة ، وأمر بايداعه السجن كذلك ، واعترف سلدن فيما بعد بقوله : « إننا نعلم أنهم لم يرتكبوا جريمة من هذا القبيل(٧٦) » . أما شارل فقد أصابه الذهول والحيرة إزاء هذه الخطوات العنيدة القاسية ، إلى حد أنه لم يتخذ أى إجراء لحماية معاونيه . وبررت الملكة مخاوف البرلمان حين طلبت إلى كاهن الاعتراف الخاص بها أن يلتمس العون من البابا(٧٧) .

وعادت موجة التأثر والانفعال لدى الفريقين كليهما . وظهر بين المتطرفين فى لندن حزب Roota nd Branch (استئصال الأصل والفرع) — وكان يضم ملتون — وتقدم إلى البرلمان بملتمس يطلب فيه إلغاء الحكومة الأسقفية ، واستعادة حكومة الكنيسة إلى الشعب ، ويستنكر فيه ما يقول به بعض الأساقفة من « أن البابا ليس

عدو المسيح ، وأن الخلاص يمكن تحقيقه فى العقيدة الكاثوليكية[٧٨] » . ورفض المجلس هذا الملتمس . ولكنه أقر تحريم ممارسة الأعمال التشريعية والقضائية على رجال الكنيسة . ووافق اللوردات شريطة احتفاظ الأساقفة بمقاعدهم فى مجلس اللوردات . وهذا ، على أية حال ، هو ما كان يريده بالضبط أعضاء مجلس العموم ، لأنهم توقعوا أن الأساقفة فى مجلس اللوردات سوف يصوتون دائماً إلى جانب الملك . وزاد النار اشتعالا ، تلك النشرات التى انهالت ، دفاعاً عن حكومة الأساقفة أو هجوماً عليها . ذهب الأسقف جوزيف هول إلى أن لحكومة الأساقفة حقاً إلهياً ، على أن الرسل ، أو المسيح ، هم الذين أسسوها . فرد عليه خمسة من المعلقين المشيخيين ، فى نشرة مشهورة ممهورة باسم مستعار Smectymnuus مكون من الأحرف الأولى لأسمائهم . وأعقبها خمس هجمات عنيفة شنها ملتون . وفى ١٧ مايو ١٦٤١ عاد كرومويل فاقترح إلغاء حكومة الأساقفة إلغاء تاماً . وأقر مجلس العموم المشروع ورفضه مجلس اللوردات . وفى أول سبتمبر قرر أن تزال من كل الكنائس الإنجليزية كل " الصور الخليعة " وأن يمنع فى " يوم الرب " (يوم الأحد) الرقص والألعاب الأخرى . واجتاحت انجلترا موجة أخرى من تحطيم الصور المقدسة والقضاء على المعتقدات التقليدية ، فأزيلت أسيجة المذبح وأستاره ، وحطمت النوافذ ذات الزجاج الملون ، ومزقت الصور إرباً[٧٩] . وعاد مجلس العموم فأقر مشروعاً بإقصاء الأساقفة فى ٢٣ أكتوبر . فأهاب الملك باللوردات ، معلناً أنه قرر الاستشهاد فى سبيل المحافظة على مبدأ الكنيسة الأنجليكانية ونظامها ، وقد كان . وضمن تدخله عدم إقرار المشروع . ولكن الجموع المعادية منعت الأساقفة من دخول البرلمان . ووقع إثنا عشر منهم احتجاجاً أعلنوا فيه أن أى تشريع يقر فى غيبتهم يعتبر باطلا عقيما . فأدانهم البرلمان وأودعهم فى السجن . وأخيراً أقر مجلس اللوردات قانون إقصاء الأساقفة (٥ فبراير ١٦٤٢) . ولم يعد الأساقفة يتخذون مقاعدهم فى البرلمان .

وتابع مجلس العموم تدعيم سلطانه ، فاقترض من مدينة لندن المال اللازم لتغطية نفقاته . وأقر مشروعات قوانين تنص على أن تكون مدة البرلمان ثلاث

سنوات ، وتحرم حل أى برلمان قبل مضى خمسين يوماً من بدء اجتماعه ، وحل البرلمان الحالى دون موافقته . وأصلح نظام الضرائب والقضاء . وألغى محكمة قاعة النجم ومحكمة اللجنة العليا . وقضى على الاحتكارات وعلى ضريبة السفن . وألغى الحكم الصادر ضد هامدن : ومنع الملك حق جمع رسوم الصادرات والواردات ، إلا لفترات يحددها البرلمان وحده . ووافق شارل على هذه الإجراءات ، ولكن البرلمان جاوز الإصلاح إلى الثورة .

وفى مارس ١٦٤١ قدم المجلس ارل سترافورد إلى المحاكمة ، وأدانه بتهمة الخيانة ، وأرسل الحكم إلى الملك لتوقيعه . وخلافاً لما نصح به لود ، شخص شارل إلى مجلس اللوردات ، وأعلن أنه على الرغم من استعداده لعزل سترافورد من منصبه ، فإنه لن يوافق قط على إدانته بالخيانة . فأعان أعضاء مجلس العموم أن فى حضور الملك انتهاكاً لحرمة البرلمان وإهداراً لحريته وفى اليوم التالى تجمعت « حشود ضخمة حول مجلس اللوردات وقصر الملك وهى تهتف « العدالة ، العدالة » : وتطالب باعدام سترافورد . وتوسل مجلس الشورى الذى تولاه الجزع ، إلى الملك أن يذعن ، فأبى . وضم رئيس أساقفة يورك رجاءه لى رجائهم فى أن يوقع الملك على الحكم ، وأنذره النبلاء بأن حياته وحياة الملكة وحياة أطفالهما فى خطر ، ولكنه أصر على الرفض . وأخيراً أرسل إليه نفس الرجل المحكوم عليه بالإعدام رسالة ينصحه فيها بالتوقيع ، الذى هو البديل الوحيد « لعنف الرعاع[٨٠] » . فوقع شارل ، ولكنه لم يغتفر لنفسه هذا العمل قط . . وفى ١٢ مايو ١٦٤١ سيق سترافورد إلى ساحة الإعدام ، ومد لود يديه بين قضبان الزنزانة ليباركه أثناء مروره . ومات « الرجل الكامل » دون أنين أو تشنج ، أمام أعين جمهور معاد .

ووسع إعدام سترافورد هوة الخلاف فى المجلس وانقسامه إلى ما عرف فيما بعد بحزبى الأحرار والمحافظين — أولئك الذين أيدوا ، والذين عارضوا انتقال سلطة من الملك إلى البرلمان إلى حد أبعد . إن رجالا مثل لوسيوس كارى (فيكونت

فولكلند) وادوارد هايد (ارل كلارندون فيما بعــد) وكان كلاهما يساندان البرلمان — نقول إن هؤلاء الرجال تساءلوا : أولا يكون الملك ، بعد تأديبه وتهذيبه بمثل هذه القسوة ، حصنا مرغوبا فيه ضد حكم الرعاع فى لندن ، وضد تحكم البيوريتانيين فى الدين ، وضد برلمان جامح يمكن أن يقوض أركان الكنيسة ، ويهدد الملكية الخاصة ، ويعرض للخطر الكيان الطبقى فى الحياة الانجليزية بأسره ؟. وربما سلم بيم وهامدن وكروموبل بهذه الأخطار ، ولكن كان ثمة خطر آخر كان يعتلج فى نفوسهم ، ألا وهو خوفهم على حياتهم هم أنفسهم إذا استعاد الملك قوته وسلطانه . إن الملك قد يأتى فى أية لحظة بجيش نصف كاثوليكى من إيرلنده ، كما اقترح سترافورد من قبل . وقرر البرلمان ، من أجل سلامته وحمايته ، الاحتفاظ بالجيش الاسكتلندى الموالى له فى شمال انجلترا ، وأرســل إلى الاسكتلنديين منحة مبدئية قدرها ٣٠٠ ألف جنيه ، ووعد بدفع إعانة شهرية قدرها ٢٥ ألفا من الجنيهات(٨١) .

وازدادت مخاوف البرلمان باندلاع ثورة عنيفــة فجأة فى إيرلنده (أكتوبر ١٦٤١) . ودعا فليم أونل و رورى أومور الثالث ، وغيرهما من الزعماء ، إلى حرب التحرير — تحرير ألستر من مستعمريها الانجليز ، وتحرير الكاثوليك من ربقة الظلم ، وتحرير ايرلنده من نير انجلترا . وألهبت الثوار ذكريات الاضطهادات الفظيعة ، وانتزاع الملكية وطرد الأهالى بصورة آثمة ، فقاتلوا قتالا عنيفا وحشيا . أما الانجليز فى ايرلنده — دفاعا عما بدا لهم آنذاك أنه ممتلكات شرعية لهم ، وعن حياتهم — فانهم قابلوا الضراوة بأشد منها ، وغدا كل انتصار بمثابة مذبحة . واشتبه البرلمان الأنجليزى خطأ فى أن الملك أذكى نار الثورة لاستعادة الكثلكة إلى ايرلنده ، ثم بعد ذلك إلى انجلترا ، فرفض طلب الملك مالا لحشد جيش لانقاذ الانجليز فى شرق ايرلنده ، خشية أن يوجه مثل هذا الجيش ضد البرلمان ذاته . واستمرت ثورة إيرلنده فى غمرة ثورة انجلترا .

واشتدت الثورة حين رفع شارل إلى مرتبة أعلى ، اثنين من الأساقفة المبعدين الذين حوكموا ، فاقترح النواب الناقمون « الاحتجاج الأعظم » يلخصون فيه قضيتهم

ضد الملك ويعلنون عنها ، ويمكن أن يرغم الملك على منح البرلمان حق الاعتراض على التعيينات فى الوظائف الكبرى . وأحس كثير من المحافظين أن مثل هذا الإجراء سوف ينقل السلطة التنفيذية إلى البرلمان ويشل يد الملك . وازداد الانقسام الحزبى حدة ، والمناقشات عنفا ، واستل الأعضاء سيوفهم ليؤكدوا وجهات نظرهم . وصرح كرومويل فيما بعد بأنه لو كان هذا الاقتراح رفض لركب البحر إلى أمريكا(٨٢). ولكنه أقر بأغلبية ١١ صوتا . وفى أول ديسمبر ١٦٤١ قدم إلى الملك . وبدأ « الاحتجاج الأعظم » بتوكيد ولاء البرلمان للتاج ، ومضى يعدد بالتفصيل إساءات الملك إلى البرلمان ، والأضرار التى ألحقها بالبلاد ، واستعرض العيوب التى عالجتها الاصلاحات البرلمانية ، واتهم " الكاثوليك . . . والأساقفة ، والقسم الفاسد من رجال الدين " والمستشارين ورجال الحاشية الأنانيين ، بالتآمر على رد انجلترا إلى الكاثوليكية . وأشـــار إلى تكرار خرق " ملتمسى الحقوق " وتكرار حل البرلمانات المنتخبة حلا تعسفيا استبداديا . وطالب الملك بالدعوة إلى عقد جمعية من علماء اللاهوت لاعادة المذهب الأنجليكانى إلى ما كان عليه قبل قوانين لود ، واقترح على الملك أن يعزل من مجلس الشورى كل المناوئين لسياسة البرلمان ، وأن يستخدم فقط منذ الآن . " مستشارين وسفراء ووزراء ممن يرى البرلمان مبررا للوثوق بهم . وبدون هذا لن يستطيع الأعضاء أن يقدموا لجلالته الامدادات اللازمة له ، أو المساعدات للبروتستانت فيما وراء البحار ، كما أراد جلالته (٨٣) " .

وتمهل شارل فى الرد على هذا الانذار النهائى . فتخطاه البرلمان إلى الشعب ، وأمر بنشر " الاحتجاج الأعظم " ثم رد شارل فوافق على دعوة مجمع كنسى ليقمع كل " غزوات كاثوليكية " ، ورفض حرمان الأســاقفة من حق التصويت فى البرلمان ، وأصر على حقه فى أن يختار لمجلس شورى الملك أو للوظائف العامة كل من يرى أنه صالح . ثم طلب مرة أخــرى اعتمادات ماليــة . ولكن البرلمان بدلا من هذا ، اقترح " قانون الميليشيا " الذى يخوله حق السيطرة على الجيش .

ولكن شارل"، فى غمرة الحيرة والتردد ، كما هو شأنه دائما ، عمد إلى توجيه ضربة جريئة إلى البرلمان الذى شجبها على أنها عمل من أعمال الحرب . ذلك أنه فى ٣ يناير ١٦٤٢ اتهم النائب العام ، باسم الملك ، أمام اللوردات ، خمسة أعضاء من مجلس العموم — بيم ، هامدن، هوللز ، هسلريج ، سترود — اتهمهم بالخيانة لعملهم على أن يشق الجيش عصا الطاعة على الملك ، وتشجيعهم " دولة أجنبيـــة " (اسكتلنده) على غزو انجلترا وشن الحرب على الملك . وفى اليوم الثانى دخل شارل ، تظاهره قوة من ثلثمائة جندى تركهم عند الباب ، إلى مجلس العموم للقبض على الرجال الخمسة ، فلم يجدهم هناك . فقال الملك الحائر المرتبك ، وقد صار فى مأمن ، " أرى أن كل الجبناء ، قد هربوا " ، وشيعته وهو فى طريقه إلى الخروج صيحات الاستنكار والتوبيخ " الحصانة " . لأن مثل هذا الغزو الملكى المسلح للبرلمان كان غير مشروع بشكل واضح صريح . وخشية الاعتقال بالجملة ، انتقل النواب إلى دار البلدية " جلد هول " تحت حماية المواطنين . وعندما غادر شارل لندن إلى هامبتون كورت ، عاد النواب ، بما فيهم الخمسة المتهمون إلى وستمنستر . وهربت الملكة هنريتا سرا إلى فرنسا ومعها مجوهرات التاج لتشترى بها العون للملك . وسافر شارل إلى الشمال ومعه أختامه . وحاول أن يدخل هل لتأمين المؤن العسكرية هناك ، ولكن المدينة أبت عليه ذلك . فغادرها إلى يورك . وأصدر البرلمان أوامره إلى جميع القوات المسلحة بألا تمتثل إلا للبرلمان وحده (٥ مارس ١٦٤٢) . وانسحب من البرلمان خمسة وثلاثون من اللوردات وخمسة وستون من النواب ، وانضموا إلى الملك فى يورك . وأصبح إدوار هايد آنذاك كبير مستشارى الملك .

وفى الثانى من يونية نقل البرلمان إلى شارل تسعة عشر مقترحا رأى أن قبولها ضرورى للصلح . منها أن عليه أن يخول للبرلمان سلطة الاشراف على الجيش وجميع المواقع المحصنة . وأن يكون له حق تعديل الطقوس الدينية وحكومة الكنيسة ، وتعيين وعزل وزراء التاج وحراس أبنـــاء الملك ، وأن يكون له سلطة إقصاء الاشراف الذين يعينون فيما بعد ذلك ، عن مجلس اللوردات ، ورفض شارل هذه

المقترحات ، على أنها ، عمليا ، تقويض للملكية . وعين البرلمان — وكأنما كان يتدرب على دور الثورة الفرنسية — لجنة " الأمن العام " ، وأمر بأن " يحشد جيش على الفور ، (١٢ يوليه) " وسافر كرومويل وآخرون إلى مواطنهم لجمع المتطوعين وتنظيمهم . وفى نداء إلى الأمة (٢ أغسطس) أسس البرلمان ثورته ، لا على رغبته فى السيادة البرلمانية ، بل على تفاقم الكاثوليكية فى انجلترا ، وحذر البلاد من أن انتصار الملك لابد أن يعقبه مذبحة عامة للقضاء على البروتستانت(٨٤) . أوفى ١٧ أغسطس استولى وكلاء البرلمان على المخازن العسكرية فى هل . وفى ٢٧ غسطس ١٦٤٢ نشر شارل رايته فوق نوتنجهام ، وبدأت الحرب الأهلية الأولى.

٩ — الحرب الأهلية الأولى : ١٦٤٢ — ١٦٤٦ :

انشقت انجلترا الآن — بصورة لايكاد يكون لها مثيل من قبل فى تاريخها المعروف ، وانحاز إلى صف البرلمان لندن والثغور والمدن الصناعية ، وبصفة عامة الجنوب والشرق ، ومعظم الطبقة الوسطى ، وجزء من الطبقة العليا ، وعمليا كل البيوريتانيين . وانضم إلى جانب الملك اكسفورد وكمبردج والغرب والشمال ،ومعظم الارستقراطيين والمزارعين ،وكل الكاثوليك والانجليكانيين الأسقفيين تقريبا . وكان مجلس العموم منقسما على نفسه ، حيث ناصر الثوار نحو ٣٠٠ عضو ، على حين بلغ عدد الملكيين نحو ١٧٥ عضوا . وبلغ عدد مجلس اللوردات ١١٠ ، انحاز إلى جانب البرلمان نحو ٣٠ منهم فى بداية الأمر ، ورجحت كفة الثورة ضد الملك . وكان فى لندن نصف ثروة الأمة ، وقدمت للثورة القروض بسخاء عظيم ، على حين عجز الملك عن الاقتراض من أى مكان . وكان الأسطول يناصبه العداء ، فسد المنافذ على كل معونة أجنبية . ولم يكن أمام الملك إلا أن يعتمد على الهبات والمنح وعلى رجال من الضياع الكبيرة التى أحس أصحابها أن مصلحتهم فى تلك الأرض تتحقق بانتصاره ، وانبعثت من جديد فى الأسرات القديمة بعض فضائل الفروسية ومشاعرها ، وقدموا المال للملك بلا قيد أو شرط ، وقاتلوا وسقطوا فى الميدان كما يسقط كرام الرجال . واندفع الفرسان المفعمون فتوة وحيوية ،بشعورهم المعقوصة وخيلهم المطهمة بأبهى السروج إلى غمار حرب بطولية ، ومعهم كل الشعراء

إلا ملتون . ولكن الثروة كانت إلى جانب البرلمان .

والتقى الجمعان لأول مرة فى ادجهل Edgehill (٢٣ أكتوبر ١٦٤٢)، وكان كل جيش يتألف من ١٤ ألف رجل . . . وكان الملكيون تحت قيادة الأمير روبرت Rupert ابن اليزابث أميرة بوهيميا أخت شارل ، وكان فى الثانية والعشرين من عمره . أما " ذوو الرءوس المستديرة " أو البرلمانيون فكان يقودهم روبرت دفريه ارل اسكس الثالث . ولم تكن المعركة فاصلة . ولكن اسكس سحب قواته ، وتقدم الملك إلى اكسفورد ليتخذها مقراً لقيادته . ولكن نحميا والنجتون — وهو بيوريتانى متحمس أو سياسى ، أسماها فوزامبينا للبرلمان وللرب ، فهو يقول :

> هنا ندرك رحمة الله الواسعة . . . لأن جملة القتلى من الجانبين ، كما سمعت ، كان ٣٫٥١٧ ، ولكن قتل من الأعداء عشرة مقابل كل واحد فقدناه منا . ولكن انظر إلى حسن صنيع الله ، فان الذين قتلوا مناكان معظمهم من الذين ولوا الأدبار . أما الذين صمدوا واستبسلوا فقد كتبت لهم النجاة . . . . كم أود أن أوتى القدرة على أن أروى كيف أن يد العناية الإلهية صوبت بشكل رائع مدافعنا وقذائفنا لتدمير العدو . . . يا للعجب ، كيف وجه الله قذائفهم . . . إن بعضها سقط أمامهم (من جانبنا) وبعضها مر مرورا عابرا ، وبعضها عبر فوق رءوسهم ، وأخرى سقطت إلى جانبهم . . . يا لله ، ما كان أقل من مس بأذى برصاص الأعداء ممن وقفوا فى وجوههم وقاوموهم ببسالة . . . هذا صنع الله ، وما أروعه فى نظرى(٨٥) .

على أن الأمور تأزمت فى صفوف البرلمانيين فى الربيع التالى . فان الملكة هنريتا تسللت إلى انجلترا ، حاملة معها بعض الأسلحة والذخيرة ولحقت بالملك فى اكسفورد .

وضيع إسكس الوقت سدى ، على حين كان الهرب والمرض ينخران فى جيشه ، وأصيب هامدن بجرح مميت فى بعض المناوشات عند شالجروف فيلد . وهزمت قوة برلمانية فى أدوالتون مور (٣٠ يونيه ١٦٤٣) ، ودمرت قوة أخرى فى راوندواى داون (١٣ يوليه) . وسقطت برستول فى يد الملك . ولما ساءت أقدار البرلمان إلى هذا الحضيض ، ولى وجهه شطر اسكتلنده طلباً للعون . وفى ٢٢ سبتمبر وقع مندوبو اسكتلنده « تحالفاً وميثاقاً مقدسين » ، تعهد الاسكتلنديون بمقتضاه بإرسال جيش لمساعدة البرلمان مقابل ٣٠ ألف جنيه شهرياً ، شريطة أن يقيم البرلمان فى انجلترا وإيرلنده مذهب البروتستانتية المشيخية — أى حكومة المشايخ فى الكنيسة ، دون سيطرة الأساقفة ، وفى نفس الشهر عقد شارل صلحاً مع المتمردين الإيرلنديين ، المتقدم بعضهم للقتال فى صفوفه فى انجلترا . وابتهج الكاثوليك الإنجليز لهذا . وتزايد عدد البروتستانت الذين انقلبوا على الملك . وفى يناير ١٦٤٤ هزم الغزاة الإيرلنديون فى نانتوتش وتقدم الجيش الاسكتلندى نحو انجلترا . والآن كانت الحرب الأهلية تضم ثلاث أمم وأربعة مذاهب .

وفى يولية ١٦٤٣ انعقدت « جمعية وستمنستر » — ١٢١ من رجال الدين الانجليز ، ٣٠ من العلمانيين الانجليز ، وثمانية مندوبين اسكتلنديين (انضموا فيما بعد) — لتحدد البروتستانتية المشيخية الجديدة فى انجلترا . ولقد عوقت السيطرة البرلمانية أعمال هذه اللجنة حتى باتت تجرر أذيالها فى مؤتمرات تعقدها لمدة ست سنوات . وانسحب نفر قليل من الأعضاء كانوا يظاهرون الحكومة الأسقفية . وطالبت فئة قليلة من البيوريتانيين المستقلين ألا يشهد الاجتماع مشيخيون ولا أساقفة . أما الأغلبية — وفاء بتعهد البرلمان ونزولا على إرادته ، فإنها أيدت أن يتولى الأمور الدينية فى انجلترا أو إيرلنده وإسكتلنده شيوخ الكنيسة ومجلسهم والمجامع الإقليمية والجمعيات العامة . وألغى البرلمان الحكومة الأسقفية الإنجليكانية (١٦٤٣) ، وأقر التنظيم المشيخى والمذهب المشيخى ، ووضع لها القوانين (١٦٤٦) ، ولكنه احتفظ لنفسه بحق الاعتراض على أية قرارات كنسية . وفى ١٦٤٧ أصدرت الجمعية « اعتراف وستمنستر بالعقيدة والتعاليم الكبرى والتعاليم الصغرى » وكلها تثبت

مذهب كلفن فى القضاء والقدر ، والاصطفاء ، والرفض (أى الإخراج من زمرة الإبرار(*)) وأهملت الكنيسة الانجليكانية وعودة الملكية إلى أسرة ستيورت ، جمعية وستمنستر ، ولكن « الاعتراف والتعاليم » بقيت معمولا بها نظرياً فى الكنائس المشيخية فى البلاد الناطقة بالانجليزية .

واتفقت الجمعية والبرلمان على رفض ما تقدمت به الفرق الصغيرة من إلتماس التسامح الدينى . والتمست مدينة لندن المتحدة من البرلمان القضاء على كل الهرطقات . وفى ١٦٤٨ قدم أعضاء مجلس العموم مشروعات تقضى بعقوبة السجن مدى الحياة على خصوم تعميد الأطفال ، وبعقوبة الإعدام على من ينكرون الثالوث الأقدس أو المتجسد أو نزول الكتاب المقدس بوحى من عند الله ، أو خلود الروح[٨٧] . وأعدم عدد من الجزويت فيما بين عامى ١٦٤٢ و ١٦٥٠ . وفى يناير ١٦٤٥ ، اقتيد رئيس الأساقفة لود ، وهو فى الثانية والسبعين ، من السجن إلى ساحة الاعدام ، ولكن البرلمان أحس أنه مشغول بالحرب إلى أقصى حد ، اوأنه ليس ثمة مجال للرفق والمجاملة . ومهما يكن من أمر فإن كرومول ناضل فى سبيل شىء من التسامح . وفى ١٦٤٣ شكل فى كمبردج فرقة أطلق عليها « ذوو الدروع الحديدية Ironsides » وهو اسم أطلقه فى الأصل الأمير روبرت على كروموبل نفسه ، ورحب بكل الأفراد الذين ينضمون إلى الفرقة من كل الملل والنحل — باستثناء الكاثوليك وأنصار حكومة الأساقفة — « ممن لا تفارق خشية الله نفوسهم » ، وممن يتدبرون

(*) مقتطفاة من « اعتراف » وستمنستر ، فقرة ٣ « بأمر الله ، وإظهاراً لمجده وعظمته ، قدر على بعض الناس والملائكة الحياة الخالدة ، وقضى على آخرين بالموت الأبدى . أما الذين كتب عليهم الحياة الخالدة من البشر ، فإن الله — قبل وضع أساس العالم ووفقاً لمشيئته الخالدة الثابتة التى لا تتغير ، وما اقتضت إرادته الخفية — قد اختارهم فى المسيح لمجد خالد ، منه ونعمة وحباً ، دون تنبؤ بالعقيدة أو صالح الأعمال ، أو المثابرة على أى منهما ... وكل هذا وفق مشيئته الخالصة سبحانه . أما بقية البشر فعد اقتضت إرادته التى لا مرد لها ، أن يبسط إليهم رحمته ، أو يقبضها عنهم كما يشاء ، لأنه المهيمن على كل خلقه فيتغاضى عنهم ، أو يوقعهم فى الخزى ويسلط عليهم العذاب جزاء بما كسبت أيديهم إقراراً للعدالة الإلهية (٨٦) .

ما صنعت أيديهم[٨٨] . وعندما أراد ضابط مشيخى أن يطرد — من الفرقة ضابطا برتبة مقدم من أنصار تجديد التعميد (إعادة تعميد البالغين ورفض تعميد الأطفال) ، اعترض عليه كروموبل قائلا . « سيدى ، إن الدولة حين تختار موظفيها لا تلقى بالا إلى آرائهم ، طالما أنهم جادون فى خدمتها بإخلاص ، وهـذا يكفى[٨٩] » . وفى ١٦٤٤ طلب إلى البرلمان « أن يلتمس وسيلة ما للتسامح ، وفقا لما جاء فى الكتاب المقدس ، مع ذوى النفوس الضعيفة الذين لا يستطيعون فى كل الأحوال أن يخضعوا لحكم الكنيسة[٩٠] » . وتجاهل البرلمان هذا الطلب ، ولكن كروموبل ظل يمارس تسامحا نسبيا فى فرقته ، وطوال سيطرته على انجلترا .

وكان ارتقاء كروموبل إلى مرتبة القيادة مفاجأة من مفاجآت الحرب . إنه شارك لورد فرديناندو فيرفاكس أمجاد النصر فى ونسبى (١١ أكتوبر ١٦٤٣) . ولقد هزم فيرفاكس فى مارستون مور (٢ يوليـــة ١٦٤٤) ولكن رجال كروموبل « الحديديون » أنقذوا الموقف . إن قوادا برلمانيين آخرين ، مثل إرل اسكس وإرل مانشستر ، تراجعوا أو عجزوا عن متابعة انتصارهم وأقر مانشستر صراحة بعدم رغبته فى الاطاحة بالملك . وبغية التخلص من هؤلاء القادة ذوى الألقاب ، اقترح كروموبل « قرار انكار الذات » (٩ ديسمبر ١٦٤٤) ، يعتزل كل أعضاء البرلمان بمقتضاه قياداتهم . وهزم الاقتراح ، ولكن عرض من جديد وأقر (٣ أبريل ١٦٤٥) . واعتزل اسكس ومانشستر ، وعين توماس فيرفاكس — ابن فردينالدو — قائدا أعلى — وسرعان ما عين كروموبل قائدا للفرسان ، وأمر البرلمـــان بتكوين جيش « على طراز جديد » ، من ٢٢ ألف جندى ، وأخذ كروموبل على عاتقه مهمة تدريبه .

ولم يكن لدى كروموبل سابق خبرة عسكرية قبل الحرب . ولكن قوة شخصيته وخلقه ، وثبات إرادته وصموده لتحقيق الهدف ، وبراعته فى التلاعب بالأحاسيس الدينية والسياسية لدى الناس ، كل أولئك هيأ له القدرة على تشكيل قواته على نظام فذ وولاء فريد : فكان المذهب البيوريتانى يضارع الخلق الاسبرطى فى صنع جنود لا يقهرون ، انهم لم « يؤدوا القسم مثل الفرسان » ، بل على النقيض من ذلك

لم يسمع حلف الأيمان فى معسكراتهم قط ، بل إنها كانت تدوى بالعظات والصلوات . انهم لم يسلبوا ولم ينهبوا ، ولكنهم اقتحموا الكنائس ليجردوها من الصرر الدينية ، ويخلصوها من الأسقفيين أو البابويين [٩١] » . وكانوا يهتفون فرحين أو غاضبين حين يلاقون العدو . ولم تنزل بهم الهزيمة قط . . وعند ما كان الملكيون يطاردون مشاة سير توماس فيرفاكس فى ناسبى (١٤ يونية ١٦٤٥) ، حول كرومول بفرسانه الجدد الهزيمة إلى نصر مبين ، إلى حد أن الملك فقد كل مشاته ومدفعيته ونصف خيالته ، ونسخا من مراسلاته التى نشرت لتكشف عن خطته فى استقدام مزيد من القوات الايرلندية إلى انجلترا ، وإلغاء القوانين المناهضة للكاثوليكية .

ومنذ تلك اللحظة أخذت أحوال الملك تزداد سوءا وبسرعة . فإن مركيز مونتروز ، قائده البطل فى اسكتلنده ، بعد عـــدة انتصارات ، هزم فى فيلبهو وهرب إلى القارة . وفى ٣٠ يوليه ١٦٤٥ استولى جيش البرلمان على باث ، وفى ٢٣ أغسطس تخلى روبرت عن برستول إلى فيرفاكس ، والتمس الملك ، دون جدوى ، العون من كل الجهات . وأحس جنوده بأن قضيتهم خاسرة ، فتذرعوا بمختلف المعاذير وتخلفوا عنه وانضموا إلى العـــدو . وحاول بالمفاوضات الملتوية مع كل فريق على حدة أن يوقع الانقسام فى صفوف أعدائه — فيفرق بين المستقلين والبرلمان ، وبين البرلمان والاسكتلنديين ، ولكنه أخفق فى ذلك . وكان لتوه قد أرسل زوجته الحامل ، عبر أراض معادية ، لتبحر إلى فرنسا ، وأمر الآن الأمير شارل بالفرار من انجلترا بأيه وسيلة ممكنة . وتنكر هو ، مع اثنين من المرافقين ، وشق طريقه إلى الشمال حيث استسلم للاسكتلنديين (٥ مايو ١٦٤٦) . ووضعت الحرب الأهلية الأولى ، بالفعل أوزارها .

١٠ — المتطرفون : ١٦٤٦ — ١٦٤٨

وراود شارل الأمل فى أن يعامله الاسكتلنديون ، وكأنه لا يزال ملكا عليهم ، ولكنهم آثروا أن يعتبروه سجينا لديهم . وعرضوا عليه أن يعاونوه على استرداد عرشه ، إذا قبل التوقيع على « التحالف والميثاق المقدسين » وبمقتضى ذلك . يكون مذهب المسيحية المشيخية إجباريا فى كل الجزر البريطانية ، ولكنه أبى عليهم ذلك . وبعث

البرلمان الانجليزى بمندوبيه إلى الاسكتلنديين فى نيوكاسل يعرض عليهم ارتضاء شارل ملكا ، شريطة أن يقبل الميثـاق ، ويوافق على إقصاء زعماء الملكيين ، ويسمح بسيطرة البرلمان على كل القوات المسلحة ، وتعيين كبار موظفى الدولة ، ولكن الملك رفض . وعرض البرلمـان على الاسكتلنديين مبلغ ٤٠٠ ألف جنيه لتسديد متأخراتهم ونفقاتهم ، إذا عادوا إلى اسكتلنده وسلموا الملك إلى المندوبين الانجليز . ووافق برلمان اسكتلنده ، وقبل المـال ، لا على أنه ثمن الملك ، بل على أنه تعويض عن نفقات الحرب . وأحس شارل ، على أية حال ، بأنهم قايضوا عليه بالذهب . ونقل إلى هولمبى هاوس فى نورثمبتو نشير (يناير ١٦٤٧) على أنه سجين البرلمـان البريطانى .

واستعرض الجيش الانجلـيزى المعسكر آنذاك فى سافرون والدن ، على بعد أربعين ميلا من لندن ، استعرض انتصاراته ، وطالب بمكافآت متساوية . ان الاحتفاظ بجيش يبلغ ثلاثة وثلاثين ألف رجل ، اضطر البرلمان إلى رفع الضرائب إلى ضعف أعلى معدل لها أيام شارل ، ومع هذا تأخر للجند رواتب ما بين أربعة إلى عشرة شهور . وفوق ذلك فإن البوريتانيين الذين انهزموا فى البرلمان ، كانت لهم اليد الطولى فى الجيش ، وحامت الشبهات حول زعيمهم كرومويل فى أن له أطماعا لا تتفق مع سيادة البرلمان . وأسوأ من هذا كله ، أنه كان فى فرقته « أنصار المساواة Levelers » الذين يرفضون أى تمييز بين المراتب فى الدولة وفى الكنيسة ، والذين نادوا بحق الاقتراع للبالغين وبالحرية الدينية . وكان نفر قليل منهم شيوعيين فوضويين . وأعلن وليم والوين أن كل شىء يجب أن يكون مشاعا مشتركا ، ومن ثم لن تعود هناك حاجه لقيام حكومة ، لأنه لن يكون هناك حينذاك لصوص ولا مجرمون[٩٢]» وكان جون للبورن Lilburne أعظم دعاة أنصار المساواة يزداد ، بعد كل اعتقال وعقاب ، شعبية فى لندن (١٦٤٦) [٩٣] . وهوجم كرومويل على أنه من « أنصار المساواة » ولكنه برغم تعاطفه معهم ، كان يعارض آراءهم ، احساسا منه بأن انجلترا آنذاك لابد أن تؤدى فيها الديمقراطية إلى الفوضى .

واستياء البرلمان ؛ وهو آنذاك « مشيخى » . لما ينطوى عليه من خطر ، وجود جيش عرمرم مزعج ، فى مكان قريب ، وهو جيش مستقل ذو قوة . فأقر مشروعا بتسريح نصفه ، وتسجيل الباقى متطوعين للخدمة فى أيرلنده . فطالب الجنود بمتأخر رواتبهم ، فأقر البرلمان صرف جزء منها نقدا والباقى وعودا . ورفض الجنود أن يتفرقوا إلا إذا دفعت استحقاقاتهم ورواتبهم كاملة . وجدد البرلمان المفاوضات مع الملك ، وكاد أن يصل معه إلى اتفاق على إعادته إلى العرش ، شريطة قبوله « الميثاق » لمدة ثلاثة أعوام . وحذر الملك من قبول هذا العرض ، ولكن جماعة من الفرسان هاجمت هولمى هاوس وأسرت الملك ، واقتادته إلى نيوماركت (٣ — ٥ يونيه ١٦٤٧) ، وأسرع كرومويل إلى نيوماركت ، وجعل من نفسه رئيسا « لمجلس من الجيش » ، وفى ١٠ يناير بدأ الجيش مسيرة غير متعجلة إلى لندن . . وفى الطريق أرسل إلى البرلمان أعلانا صاغه أساسا صهر كرومويل القدير ، هنرى أيرتون Ireton ، ندد فيه باستبداد البرلمان الذى لم يكن خيرا من استبداد الملك ، وطالب بانتخاب برلمان جديد مع توسع فى حق الانتخاب . ووقع البرلمان بين نارين ، فإن التجار والصناع وأهل لندن كانوا يخشون احتلال الجيش للمدينة ، وطالبوا ، فى صخب شديد بعودة الملك ، وفق أية شروط كانت ، تقريبا . وفى ٢٦ يوليه اقتحمت الجموع البرلمان وأرغموه على دعوة الملك إلى لندن ، ووضع المليشيا تحت قيادة المشيخيين . وترك سبعةوستونمن « المستقلين » البرلمان إلى الجيش .

ودخلت القوات لندن فى ٦ أغسطس ، وأتوا بالملك معهم ، وأعيد « المستقلون » السبعة والستون إلى أماكنهم فى البرلمان ، الذى سيطر عليه الجيش منذ تلك اللحظة إلى أن قبض كرومويل على زمام الأمور . ولم تشب تصرفات الجيش شائبة من الفوضى أو التشويش ، ولم تكن مجردة من المبادىء ، بل حافظ على النظام فى المدينة ، وفى القوات المسلحة نفسها ؛ بل إن الأجيال التالية أجازت مطالبه التى يحتمل أنها كانت غير عملية فى أوانها . وفى نشرة بعنوان « قضية الجيش مدونة بصدق وأمانة » (٩ أكتوبر ١٦٤٧) طالب بحرية التجارة وإلغاء الاحتكارات ، وإعادة الأراضى العامة إلى الفقراء ، وألح على ألا يرغم إنسان على الشهادة ضد نفسه

فى المحكمة(٩٤) . وفى « اتفاقية الشعب » (٣٠ أكتوبر) أعلن « أن كل السلطة أصلا وأساساً فى مجموع الشعب بأسره » ، وأن الحكومة العادلة الوحيدة هى التى تكون عن طريق ممثلين ينتخبون انتخاباً حراً يتوفر فيه حق الاقتراع للبالغين ، وأنه بناء على هذا ، فإن الملوك واللوردات ، إذا سمح لهم بالبقاء فيجب أن يكونوا خاضعين لمجلس العموم ، وأنه لا يجوز إعفاء أحد من سلطة القانون ، وأنه يجب تمتع الجميع بالحرية الدينية الكاملة(٩٥) . قال الكولونيل رينزبورو « إن كل من ولد فى انجلترا ، الفقير أو أحط الناس فى المملكة ، يجب أن يكون له صوت فى اختيار أولئك الذين يضعون قوانين البلاد ، تلك القوانين التى يعيش ويموت فى ظلها(٩٦) . »

وخفف كرومويل من حدة المناقشة بدعوة زعمائها إلى الصلاة . واتهمه « أنصار المساواة » بالنفاق والتفاوض سراً لإعادة الملك ، واعترف بأنه لا يزال يؤمن بالملكية ، وأوضح لهم أن معارضة مقترحاتهم ستكون شديدة إلى حد لا يمكن معه التغلب عليها ، « بقوة العضلات » وحدها . وبعد نقاش طويل أقنع الزعماء بأن يخففوا من مطالبتهم بالاقتراع العام إلى طلب التوسع فى حق الانتخاب . ورفض بعض الجنود هذا الحل الوسط ، وعلقوا « اتفاقية الشعب » فى قبعاتهم ، وتجاهلوا أمر كرومويل بالانصراف . وقبض على ثلاثة من زعماء الفتنة ، وحوكموا أمام محكمة عسكرية قضت بإعدامهم . فأمرهم كرومويل بإجراء القرعة على حياتهم ، ومن يخسر يعدم . وعاد النظام سيرته .

وفى الوقت نفسه تمكن الملك من الهرب من سجانيه العسكريين ، واتخذ طريقه إلى الشاطىء وإلى جزيرة وايت حيث وجد مأوى أميناً فى قلعة كارسبروك (١٤ نوفمبر ١٦٤٨) . وشدد من عزيمته ما ترامى إليه من أنباء ثورة الملكيين ضد البرلمان فى الريف وفى الأسطول ، وعرض عليه المندوبون الإسكتلنديون فى لندن سراً ، أن يمدوه بجيش يعيده إلى عرشه إذ قبل إقامة النصرانية المشيخية وإبطال ما عداها من المذاهب المسيحية . وارتضى الملك هذا « الارتباط » ولكنه حدده

بثلاث سنوات . وغادر المندوبون لندن ليحشدوا جيشاً . واعتمد البرلمان الإسكتلندى خطتهم لغزو انجلترا ، وأصدر فى ٣ مايو ١٦٤٨ بياناً يطالب كل الانجليز بالالتزام « بالميثاق » ، ويحظر كل الأشكال الدينية فيما عدا المشيخية ، ويأمر بحل جيش « المستقلين » ورأى البرلمان الانجليزى أن تنفيذ هذه المقترحات لا يعنى شيئاً إلا القضاء عليه وإخضاع انجلترا لإسكتلندة . وأسرع بمصالحة كرومويل ، وأقنعه بأن يقود قواته ضد الإسكتلنديين . ولا ريب أن البرلمان سر لإبعاد كرومويل ، والإلقاء به إلى التهلكة ، وبعد ثلاثة أيام من الأخذ والرد أقنع الجيش بأن يتبعه إلى ميدان المعركة . وتبعه الجيش على كره منه ، وأقسم بعض الزعماء أنهم إذا قدر لهم إنقاذ انجلترا فلسوف يكون من « واجبهم أن يستدعوا رجل الدم ، شارل ستيوارت ، ليقدم حساباً عن الدماء التى سفكها(٩٧) . »

١١ — وأسدل الستار : ١٦٤٨ — ١٦٤٩

استطاع كرومويل بفضل ما أوتى من طاقة أن يقصر من أمد الحرب الأهلية الثانية . فعلى حين أخمد فيرفاكس ثورات الملكيين فى كنت ، اتجه أوليفر غرباً واستولى على معقل ملكى فى ويلز . وعبر الاسكتلنديون نهر تويد فى ٨ يوليه ، وتقدموا فى سرعة مذهلة حتى صاروا على بعد نحو ٤٠ ميلا من ليفربول . وفى برستون ، فى لنكشير ، التقى جيش كرومويل المكون من تسعة آلاف جندى ، مرتين ، بهذا الجمع من الاسكتلنديين والخياله الملكيين وأوقع بهم هزيمة منكرة (١٧ أغسطس) .

وبينما كان كرومويل وجنوده يعملون على إنقاذ البرلمان ، دبر البرلمان أن يحمى نفسه منهم ، بفتح باب المفاوضات من جديد ، لإعادة الملك . ولكنه أصر على أن يوقع الملك « الميثاق » وأن يضعه موضع التنفيذ ، فرفض الملك . وعرض الجيش العائد أن يؤيد عودته إلى العرش مع الحد من حقوقه الملكية إلى أضيق الحدود ، فأبى (١٧ نوفمبر) . وبغية أن يقطع الجيش الطريق على البرلمان ليعيد الملك إلى العرش ، قبض عليه ثانية وأودعه قلعة هيرست المواجهة لجزيرة وايت ، وشجب البرلمان هذا التصرف ، واقترع على قبول شروط الملك أساساً لتسوية النزاع — فأمل من قادة الجيش الذين

كانوا يتوقعون الموت ، إذا عاد شارل ، أنه لن يسمح بالدخول إلى مجلس العموم إلا لمن ظلوا على « ولائهم وإخلاصهم للمصلحة العامة» . وفى بواكير يوم ٦ ديسمبر أحاطت قوة من الجنـد تحت قيادة كولونيل توماس برايد ، بمجلس العموم ، واقتحمته ، ومنعت أو طردت ١٤٠ من الأعضاء الملكيين والمشيخيين ، وأودعت السجن أربعين عضوا أبدوا شيئا من المقاومة (٩٨) . واستحسن كروميل هـذا الاجراء . واشترك فى الاقتراع على سرعة محاكمة الملك وإعدامه .

لم يبق الآن من الأعضاء الخمسمائة الذين كان يتألف منهم مجلس العموم ١٦٤٠ إلا ستة وخمسين . وأقر هذا « البرلمان الأثارة » (الذى لم يبق فيه إلا نفر قليل) ، بأغلبية ستة أصوات ، قانونا ينص على أن شن الملك الحرب على البرلمان خيانة عظمى ، ورفض اللوردات القانون على أنه ليس من سلطة مجلس العموم ، وعندئذ (٤ يناير ١٦٤٩) ،قرر النواب أن الشعب » بعد الله مصدر كل سلطة عادلة « وأن النواب ، وهم يمثلون الشعب » ، « أصحاب السلطة العليا فى هذه الأمة ، وأنه بناءعلى ذلك تكون لتشريعاتهم قوة القانون ، دون موافقة اللوردات أو الملك» . وفى ٦ يناير عين النواب ١٣٥ عضوا لمحاكمة الملك ، وأبلغ أحد الأعضاء — وهو ألجرنون سدنى — كرومول بأنهم ليس لديهم سلطة قانونية ، ليحاكموا ملكا . ففقد كروميل صوابه وصاح فى وجهه قائلا : « أؤكد لك أننا سنقطع رأسه وفوقه التاج (٩٩) » وبذل قادة الجيش آخر محاولة لتفادى قتل الملك . فعرضوا تبرئة شارل إذا وافق على بيع أراضى الأساقفة ، وتنازل عن حقه فى الاعتراض برفض قرارات البرلمان . ولكن الملك أجاب بأنه لا يستطيع إلى ذلك سبيلا ، لأنه أقسم اليمين على أن يكون مخلصا لكنيسة انجلترا . وليس ثمة من ينازع فى شجاعته .

وبدأت المحاكمة فى ١٩ يناير ١٦٤٩ . وجلس القضاة المرتجلون الستون أو السبعون على منصة مرتفعة فى طرف من قاعة وستمنستر ، واصطف الجنـد فى الطرف الآخر ، واكتظت الدهاليز والشرفات بجمهور المتفرجين ، وأجلس شارل وحده وسط القاعة . وتلا جون برادشو رئيس الجلسة قرار الاتهام ، وطلب إلى الملك أن

بجيب ، فأنكر شارل سلطة المحكمة فى محاكمته أو صحة تمثيلها لشعب انجلترا ، وقال بأن حكومة يديرها برلمان يسيطر عليـه الجيش ، هى أسوأ طغيانا من أى طغيان أظهره هو قط ، فضجت الشرفات بالهتاف « حفظ الله الملك » ودوت المنابر باستنكار المحاكمة وشجبها . وخشى برادشو على حياته فى الشوارع ، وأرسل الأمير شارل من هولنده صحيفة لا تحمل إلا توقيعه ، ووعد القضاة بالموافقة على أية شروط يدونونها فوق اسمه ، إذا هم أبقوا على حياة والده (١٠٠) . وعرض أربعة من النبلاء أن يقدموا حياتهم فـداء للملك (١٠١) ، فرفض عرضهم . ووقع تسعة وخمسون من القضاة ، من بينهم كروموبل ، الحكم بالاعدام . وفى ٣٠ يناير سار الملك فى هدوء إلى الموت ، أمام جمهور غفـير تملكه الرعب . وبضربة واحـدة من بلطة الجلاد قطع رأسه . وكتب شاهد عيان « لقد تعالت أنات آلاف الحاضرين وقتئذ وآهاتهم ، بشكل لم أعهده قط من قبل ، وأرجو ألا أسمعه من بعد » (١٠٢) .

وهل كان الاعدام عملا مشروعا ؟ إنه بطبيعة الحال لم يكن كذلك . فإنه طبقا للقانون المعمول به ، يكون البرلمان شيئا فشيئا ، وبشكل قاس ، قد انتحل لنفسه الحقوق الملكية التى أقرتها السوابق لمائة عام . فالثورة على التحدبد أمر غير مشروع ، وليس أمامها من طريق لتدفع بالجديد إلى الأمام إلا هدم القديم . وكان شارل مخلصا فى الدفاع عن السلطات التى ورثها عن اليزابث وجيمس ، لقد أثموا ضده قدر ما أثم هو ، وكانت غلطته القاتلة أنه لم يدرك أن التوزيع الجديد للثروة ، اقتضى ، من أجل الاستقرار الاجتماعى ، توزيعا جديدا للسلطة السياسية .

وهل كان الاعدام عدلا ؟ إذا نحى القانون جانبا ، بالاحتكام إلى السلاح ، فقد يلتمس المغلوب الرحمة ، ولكن يمكن للغالب أن يفرض أقصى العقوبة إذا رأى أن هذا ضرورى لمنع تجدد المقاومة ، أو لتعويق الآخرين ، أو للحفاظ على حياته وحياة أتباعه . والمفروض أن أى ملك منتصر كان يمكن أن يطيح برأس كروموبل وأيرتون وفيرفاكس وكثيرين غيرهم ، وربما مع مختلف ألوان التنكيل والعذاب التى يتعرض لها عادة كل من يتهمون بالخيانة .

وهل كان الاعدام عملا حكيما ؟ من المحتمل ألا يكون كذلك ، ومن الواضح أ

أن كرومويل اعتقد بأن بقاء الملك على قيـد الحياة ، مهما يكن من اطمئنان إلى ضمان سجنه ، يمكن أن يحفز الملكيين الى معاودة الثورة المرة بعد المرة ، ولكن كذلك سوف يكون حافزا على تجدد المقاومة من جانب ابن الملك الذى لا يمكن الوصول إليه فى فرنسا أو هولنده ، والذى لم تلوثه أخطاء والده ، والذى لا بد أن تكلل هامته وشيكا بأمجاد البطولة . إن إعدام شارل الأول أدى إلى تحول كان يمكن التنبؤ به فى الشعور الوطنى الذى استرد مساره على مدى أحد عشر عاما ، ويوحى التاريخ اللاحق بأن الرحمة كانت عين العقل والحكمة فإنه عند ما وقع چيمس الثانى ، ابن شارل ، بالمثل ، فى الخطأ الجسيم ، تدبرت ثورة ١٦٨٨ الجليلة الأمر ، فى دهاء ارستقراطى ، وسمحت له عمدا بالهرب إلى فرنسا ، وكان لخلعه نتائج ثابتة دائمة . ومهما يكن من أمر ، فإن الثورة السابقة هى التى مكنت للثورة اللاحقة فعاليتها السريعة .

إن الثورة الكبرى تماثل ثورات الهيجونوت فى فرنسا القرن السادس عشر ، كما تماثل ، برغم الفوارق الكثيرة ، الثورة الفرنسية ١٧٨٩ — فهناك فى الحالة الأولى العصيان المسلح للكلفنية البسيطة العابسة التى شدت من أزرها الثورة التجارية ، ضد الكنيسة الشديدة التمسك بالشعائر والطقوس وضد الحكومة الاستبدادية المطلقة . وهناك فى الحالة الثانية ثورة الجمعية الوطنيه التى تمثل سلطان المال وقوة الطبقة الوسطى ، ضد ارستقراطية تمتلك الأرض يتزعمها ملك حسن النية ولكنه متخبط مرتبك . وما وافى عام ١٧٨٦ حتى كان الانجليز قد استوعبوا ثورتهم ، وكان فى مقدورهم أن ينظروا بعين الفزع القلق ، عن اقتناع ، إلى ثورة خضبت بالدم ، مثل ثورتهم ، أرض دولة وقتلت ملكا ، لأن الماضى حاول أن يقف جامدا لا يريم .

NOTES المراجع

CHAPTER I

1. Froude, *Reign of Elizabeth*, I, 11.
2. Neale, *Queen Elizabeth*, 26.
3. Ibid., 37.
4. Froude, I, Introd., vii.
5. Read, C., *Mr. Secretary Cecil and Queen Elizabeth*, 32.
6. Ibid., 119
7. Hughes, P., *The Reformation in England*, III, 46.
8. Froude, *Elizabeth*, III, 306.
9. Froude, I, 448.
10. Barnes, H. E., *Economic History of the Western World*, 205.
11. Hallam, *Constitutional History of England*, I, 245.
12. Lingard, J., *History of England*, VI, 324.
13. Christopher Hatton in *Shakespeare's England*, I, 80.
14. Neale, 61.
15. Ibid., 75-6.
16. *Shakespeare's England*, I, 5.
17. Neale, 186.
18. Froude, I, 120.
19. *Cambridge Modern History*, III, 289.
20. Froude, IV, 62.
21. Thornton, *Table Talk from Ben Jonson to Leigh Hunt*, 9.
22. Hallam, I, 133.
23. Neale, 80.
24. Read, 361.
25. Froude, II, 84.
26. *Camb. Mod. History*, II, 581.
27. Froude, I, 300.
28. Ibid., 103.
29. Ibid., 491.
30. Creighton, *Queen Elizabeth*, 154.
31. Church, R. W., *Spenser*, 116.
32. Lingard, VI, 321.
33. Aubrey, *Brief Lives*, 105.
34. Chute, *Shakespeare of London*, 145.
35. Bacon, Fr., *Philosophical Works*, 860, Apophthegm 55.
36. Froude, V, 108
37. Sir John Hayward in Muir, K., *Elizabethan and Jacobean Prose*, 1.
38. Chute, *Ben Jonson*, 163
39. Froude, I, 8, 14
40. Ibid. and 145, II, 318, Allen, J. W., *History of Political Thought in the Sixteenth Century*, 199-200.
41. Ascham, *The Scholemaster*, 81.
42. Froude, III, 4
43. Taine, *English Literature*, 160
44. Smith, Preserved, *The Age of the Reformation*, 634
45. Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 5, 6.
46. Bradbrook, *The School of Night*, 7; Boas, *Marlowe and His Circle*, 90; and the ed. of *Love's Labour's Lost* by A. T. Quiller Couch and J. Dover Wilson, London, 1923.
47. Bradbrook, 39.
48. Ibid., 12.
49. Robertson, *Freethought*, II, 10.
50. Green, J. R., *Short History of the English People*, ch. vii, sect. 3.
51. Froude, I, 183; IV, 65; V, 228.
52. Ibid., IV, 385-6.
53. *Camb. Mod. History*, II, 562.
54. Chute, *Ben Jonson*, 79.
55. Roeder, *Catherine de' Medici*, 492.
56. Froude, IV, 119; Neale, 215.
57. Payne, E. A., *The Anabaptists of the 16th Century*, 19; Lingard, VI, 170.
58. Pastor, *History of the Popes*, XVII 250.
59. McCabe, *Candid History of the Jesuits*, 150.
60. Froude, I, 329.
61. Ibid., II, 345; Hughes, III, 159.
62. Macaulay, *Critical and Historical Essays*, I, 6; *Camb. Mod. History*, III, 349.
63. Lingard, VI, 122
64. Hughes, III, 289.
65. Pastor, XIX, 441-2.
66. Ibid.
67. McCabe, *Candid History*, 148.
68. Ibid., 150.
69. Froude, IV, 284.
70. Ibid., 294-5.
71. Lingard, VI, 165; Froude, IV, 297.
72. Pastor, XIX, 458.
73. Hughes, III, 325-6.
74. Neale, 265.
75. Hughes, III, 363; Williams, F. B., *Elizabethan England*, 10.
76. Froude, V, 238.
77. Hughes, III, 380; Neale, 299.
78. Hallam, I, 169; Lingard, VI, 257.
79. Hughes, III, 391-6.
80. Allen, J. W., *History of Political Thought in the Sixteenth Century*, 216-7, Hallam, I, 190.
81. Hallam, I, 198.
82. Hughes, III, 408.
83. Lea, H. C., *Studies in Church History*, 508
84. Neale, 178.
85. Hallam, I, 205.
86. *Camb. Mod. History*, III, 345.
87. Walton, Izaak, *Life of Richard Hooker*,

in Clark, B. H., *Great Short Biographies of the World*, 556.
88. Hooker, Richard, *Works: Laws of Ecclesiastical Polity*, I, x, 4, 8.
89. Ibid., VIII, vi, 11.
90. Ibid., I, i, 1.
91. Froude, IV, 237.
92. Ibid., 191.
93. D'Alton, E. A., *History of Ireland*, III, 199.
94. Froude, IV, 233, 236.
95. Ibid., 233.
96. Froude, II, 466.
97. *Encyclopaedia Britannica*, 14th ed., XV, 778b.
98. Froude, II, 211.
99. Nussbaum, F. L., *History of the Economic Institutions of Modern Europe*, 122; Froude, II, 468.
100. Barnes, *Economic History*, 265.
101. Acton, J. E., *Lectures on Modern History*, 152; Davies, E. Trevor, *The Golden Age of Spain*, 212; Froude, III, 309; V, 37.
102. Froude, V, 344.
103. Ibid., 400.
104. Michelet, Jules, *Histoire de France*, IV, 4.
105. Froude, V, 413.
106. Ibid., 430-1.
107. Spedding, J., *Life and Times of Francis Bacon*, I, 56.
108. Strachey, *Elizabeth and Essex*, 173.
109. In Eddy, Sherwood, *The Challenge of Europe*, 205n.
110. Strachey, *Elizabeth and Essex*, 6.
111. Clarendon, *Robert Devereux and George Villiers*, in Clark, *Great Short Biographies*, 603.
112. Spedding, I, 21.
113. Ibid., 179.
114. Ibid., 56.
115. Strachey, 65.
116. Spedding, I, 231.
117. Spedding, note to Rawley's *Life of Bacon*, in Bacon, *Philosophical Works*, 3.
118. Strachey, 172; Spedding, *Life of Bacon*, I, 227; Creighton, *Queen Elizabeth*, 279.
119. Holzknecht, *Backgrounds of Shakespeare's Plays*, 301; Chambers, E. K., *William Shakespeare*, I, 354; Strachey, 241.
120. Spedding, I, 343-8.
121. Strachey, 264-5.
122. Creighton, 295.
123. Strachey, 279.
124. In Muir, *Elizabethan and Jacobean Prose*, 39.
125. Ibid., 40.
126. *Hamlet*, III, iii, 15-23.
127. Bacon, *Advancement of Learning*, Preface to the King.
128. *Henry VIII*, V, v, 18.

CHAPTER II

1. A phrase of unknown origin, as old as 1300.—Mencken, H. L., *New Dictionary of Quotations*, 343.
2. Bernal, *Science in History*, 284; Wolf, A., *History of Science in the Eighteenth Century*, 630.
3. Trevelyan, *English Social History*, 191.
4. Rogers, *Economic Interpretation of History*, 38; Traill, *Social England*, III, 365; Froude, *Henry VIII*, I, 19; Lipson, *Growth of English Society*, 157f..
5. *Shakespeare's England*, I, 320.
6. Rogers, *Economic Interpretation*, 37; Rogers, *Six Centuries of Work and Wages*, 84, 88, 100.
7. Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 94; *Shakespeare's England*, I, 331.
8. Creighton in Traill, III, 373.
9. Gasquet, *Henry VIII and the English Monasteries*, II, 515n.
10. Smith, P., *Age of the Reformation*, 476.
11. Beard, Chas., *Toward Civilization*, 227.
12. Trevelyan, *Social History*, 160-1.
13. Wolf, *History of Science in the Sixteenth and Seventeenth Centuries*, 614.
14. Thompson, J. W., *Economic and Social History of Europe in the Later Middle Ages*, 497
15. Sée, H., *Modern Capitalism*, 55.
16. Trevelyan, *Social History*, 120.
17. Sarton, G., *Introduction to the History of Science*, IIIa, 324.
18. Addison, J. D., *Arts and Crafts in the Middle Ages*, 26.
19. Froude, *Elizabeth*, II, 88.
20. Chute, *Shakespeare of London*, 63.
21. Ascham, *Scholemaster*, 71-8 and end.
22. Einstein, Lewis, *Italian Renaissance in England*, 160.
23. Hughes, III, 137.
24. Goethe, *Faust*, Part II, lines 616-18, quoted in Haydn, H., *The Counter-Renaissance*, 362.
25. *Camb. Mod. History*, III, 363.
26. Chute, *Ben Jonson*, 41.
27. Trend, J. B., *Civilization of Spain*, 110.
28. Hughes, III, 144.
29. *Shakespeare's England*, I, 416.
30. Froude, *Elizabeth*, V, 461.
31. Trevelyan, *Social History*, 140.
32. Lingard, VI, 323.
33. *King Lear*, IV, vi.
34. Lingard, VI, 323.
35. Hallam, I, 35.

36. *Shakespeare's England*, I, 398.
37. Froude, *Elizabeth*, IV, 122-3; *Shakespeare's England*, I, 400.
38. Hallam, I, 234; Spenser, E., *Poetical Works*, Introd., xxiii.
39. Browne, Sir Thos., *Religio Medici*, Introd., x.
40. Garrison, *History of Medicine*, 819.
41. Bacon, Essay "Of Gardens," in *Philosophical Works*, 791.
42. *Merchant of Venice*, I, ii.
43. *Much Ado about Nothing*, III, iv.
44. Holzknecht, 44.
45. Philip Stubbs in James, B. B., *Women of England*, 250.
46. Wright, Thomas, *Womankind in Western Europe*, 334.
47. *Merchant of Venice*, III, ii, 89.
48. *Shakespeare's England*, II, 94.
49. Wright, Thomas, *History of Domestic Manners and Sentiments in England*, 456.
50. James I, *A Counterblast to Tobacco* (1604), In Muir, 89.
51. McKinney and Anderson, *Music in History*, 278.
52. *Oxford History of Music*, II, 221.
53. Ibid., 208.
54. Haydn, H., *The Portable Elizabethan Reader*, 666.
55. Burney, C., *General History of Music*, II, 306.
56. In the National Portrait Gallery, London.
57. Blomfield, R., *Short History of Renaissance Architecture in England*, 37.
58. Bishop, A. T., *Renaissance Architecture of England*, 34; Blomfield, 86.
59. Ibid.
60. Haydn, *Counter-Renaissance*, 13.

CHAPTER III

1. Burton, Robert, *Anatomy of Melancholy*, 7.
2. *Shakespeare's England*, II, 183.
3. Putnam, G. H., *Censorship of the Church of Rome*, II, 258.
4. *Shakespeare's England*, II, 217.
5. Cambridge *History of English Literature*, III, 369.
6. Garnett and Gosse, *English Literature*, II, 68.
7. Camb. *History of English Literature*, III, 372.
8. Ascham, *Scholemaster*, 17-23.
9. Haydn, *Portable Elizabethan Reader*, 183.
10. Lyly, *Euphues: The Anatomy of Wit*, 3.
11. Greene, Robert, *A Groats-worth of Wit Bought with a Million of Repentance*, in Taine, *English Literature*, 168.
12. In Muir, 28.
13. Symonds, J. A., *Shakespeare's Predecessors*, 435.
14. Saintsbury, *History of Elizabethan Literature*, 233.
15. Bourne, *Sir Philip Sidney*, 75.
16. Aubrey's *Brief Lives*, 278.
17. Bourne, 115.
18. Ibid., 27-30.
19. Ibid., 277.
20. Sidney, Philip, *Works: Defense of Poetry*, 9.
21. Sidney, *Works*, III, 14.
22. Ibid., I, 7.
23. Ibid., I, 16.
24. *Defense of Poetry*, 41.
25. Sidney, Sonnet xxxi.
26. Bourne, 326.
27. In Haydn, *Elizabethan Reader*, 394.
28. Bourne, 349.
29. Spenser, *Poetical Works*, 559.
30. Prefatory *Letter to Raleigh*, in *Poetical Works*, 407.
31. *Faerie Queene*, II, xii, 78.
32. Thornton, *Table Talk*, 1.
33. Van Doren, *Anthology of World Poetry*, 1026.
34. Aristotle, *Poetics*, 1449-50.
35. *Defense of Poetry*, 38.
36. Mantzius, *History of Theatrical Art*, III, 11.
37. *Shakespeare's England*, II, 241.
38. Chambers, E. K., *The Elizabethan Stage*, I, 255.
39. Holzknecht, 110.
40. Chambers, *Elizabethan Stage*, I, 258.
41. Shakespeare, *Twelfth Night*, II, iii.
42. *Pericles*, IV, ii.
43. Chambers, *Elizabethan Stage*, IV, 273-5.
44. *Henry V*, I, i, 13.
45. *Hamlet*, III, ii, 10.
46. Holzknecht, 153.
47. *Shakespeare's England*, II, 277.
48. *Hamlet*, II, ii, 354.
49. Mantzius, III, 228.
50. Marlowe, *Works*, Appendix, 428-30.
51. Bakeless, John, *Tragicall History of Christopher Marlowe*, 112.
52. Symonds, *Shakespeare's Predecessors*, 437.
53. Bakeless, 113.
54. Marlowe, *Tamburlaine*, Part I, Act II, vii.
55. France, A., *The Gods Are Athirst* 57.
56. Ecclesiastes, i, 18.
57. Marlowe, *Faustus*, I, i.
58. *The Jew of Malta*, II, iii.

59. Ibid., I, i.
60. Ibid., II, i.
61. *Tamburlane*, Part I, Act I, i.
62. Bakeless, 156; *Esquire Magazine*, December 1954.

CHAPTER IV

1. Chambers, *William Shakespeare*, II, 264.
2. Ibid., 257.
3. Lee, Sidney, *Life of William Shakespeare*, 22.
4. Chambers, *Shakespeare*, II, 188.
5. Ibid., 189.
6. Ibid., 259, 265.
7. Shakespeare, Sonnet xxix.
8. Sonnet cx.
9. Chute, *Shakespeare*, 269.
10. Sonnet CLII.
11. Lee, 68.
12. Raleigh, W., *Shakespeare*, 150.
13. Chambers, *Shakespeare*, I, 434.
14. *As You Like It*, II, vii.
15. *King Lear*, IV, vi, 120.
16. *Timon of Athens*, IV, i, 35.
17. Ibid., IV, iii, 54.
18. Ibid., IV, iii, 151f.
19. *Troilus and Cressida*. II, ii, 166.
20. *Coriolanus*, I, iv, 57.
21. Thornton, *Table Talk*, 5.
22. *Encycl. Brit.*, III, 781b.
23. *Two Gentlemen of Verona*, I, i, 71.
24. *The Tempest*, I, ii, 129.
25. *Midsummer Night's Dream*, II, iii, 61.
26. *Hamlet*, II, ii, 310.
27. *Romeo and Juliet*, I, ii, 139
28. *Julius Caesar*, I, ii, 139.
29. *Tempest*, II, i, 47.
30. Hauser, A., *Social History of Art*, I, 422.
31. *Love's Labour's Lost*, I, i, 166.
32. *Richard III*, I, i, 1.
33. Ibid., I, i, 24.
34. *2 Henry IV*, IV, iv.
35. *1 Henry IV*, III, i.
36. *Much Ado about Nothing*, II, iii.
37. *2 Henry IV*, III, i.
38. *King John*, IV, ii.
39. *Troilus and Cressida*, III, iii.
40. *Midsummer Night's Dream*, I, iii.
41. *Merchant of Venice*, I, iii.
42. *Twelfth Night*, III, iv.
43. *Mid. Night's Dream*, I, i.
44. *Othello*, I, i.
45. *King Lear*, IV, vi.
46. *Hamlet*, I, iv.
47. Ibid., II, ii.
48. *Mid. Night's Dream*, II, i.
49. *Two Gentlemen of Verona*, IV, ii.
50. *Cymbeline*, II, iii.
51. *Measure for Measure*, IV, ii.
52. *Mid. Night's Dream*, V, i, 7.
53. Examples in Chambers, *Shakespeare*, 228-30.
54. *Comedy of Errors*, III, i, 76.
55. *Tempest*, IV, i, 199.
56. *As You Like It*, III, ii.
57. Shaw, Bernard, *Man and Superman*, Preface, xxviii.
58. *Hamlet*, I, v.
59. *Much Ado about Nothing*, V, i.
60. *Hamlet*, III, iv, 88.
61. Ibid., II, ii.
62. *Coriolanus*, IV, vii
63. *Hamlet*, I, iv, 25.
64. *Richard III*, V, iii.
65. *Richard II*, III, iii.
66. *1 Henry IV*, III, i; cf. Haydn, *Counter-Renaissance*, 602f.
67. *Troilus and Cressida*, I, iii.
68. *King Lear*, V, ii, 9.
69. *Twelfth Night*, II, iii.
70. *King Lear*, IV, vi, 112f.
71. *Pericles*, II, i.
72. *Tempest*, II, i, 147-64.
73. *Hamlet*, IV, iv, 35.
74. Raleigh, *Shakespeare*, 61.
75. *King John*, III, i.
76. *Henry VIII*, II, ii; *Romeo and Juliet*, IV, ii.
77. *King Lear*, IV, i, 36.
78. Ibid., V, iii, 169.
79. V, ii, 10.
80. *King John*, III, iv, 108.
81. *Hamlet*, I, iii, 126-28.
82. *Macbeth*, V, v, 23.
83. *Merchant of Venice*, V, i.
84. *Measure for Measure*, III, i, 118.
85. *Hamlet*, I, iv, 67.
86. Chambers, *Shakespeare*, II, 194.
87. In Lee, *Shakespeare*, 179.
88. Jonson, *Timber*, in Chute, *Ben Jonson*, 340.
89. Lee, 177.
90. Ibid., 178.
91. Aubrey, 275.
92. Jonson, *Timber*, in Lee, 277.
93. Chambers, *Shakespeare*, I, 84.
94. Lee, 203.
95. Aubrey, 275.
96. Ibid., 85.
97. *Tempest*, I, ii, 5.
98. Ibid., IV, i, 148.
99. V, i, 48.
100. V, i, 181.
101. Chambers, *Shakespeare*, I, 89.
102. Holzknecht, 380-1.
103. Voltaire, Letter of July 19, 1776, in Denoiresterres, G., *Voltaire et la société française au xviiime siècle*, VIII, 108.

104. In Croce, B., *Ariosto, Shakespeare, and Corneille,* 284.
105. Voltaire, article on Dramatic Art, in Holzknecht, 387.
106. Goethe, *Wilhelm Meister,* Book II, chs. xiii-xvi.

CHAPTER V

1. Brantôme, *Book of the Ladies,* 92.
2. Ibid., 124.
3. Sainte-Beuve, *English Portraits,* 6.
4. Pastor, XVI, 283.
5. Lingard, VI, 12.
6. *Book of Discipline,* Heads I and III, in Knox, *History of the Reformation in Scotland,* II, 281-3.
7. Knox, *History,* II, 321-2.
8. In National Portrait Gallery, London, and in Uffizi Gallery, Florence.
9. Lang, Andrew, *Mystery of Mary Stuart,* 13, 61.
10. Knox, *History,* II, 10; Froude, *Elizabeth,* I, 255.
11. Knox, II, 8.
12. Ibid., 12.
13. Ibid., 13f.
14. Lang, *History of Scotland,* II, 107.
15. Ibid.
16. Muir, Edwin, *John Knox,* 240.
17. Knox, *History,* II, 29.
18. Lang, *History,* II, 110.
19. Fosdick, *Great Voices of the Reformation,* xxix.
20. Knox, *History,* II, 44-6.
21. Lang, *History,* II, 126.
22. Knox, II, 71-7; Lang, II, 127; Muir, *Knox,* 253.
23. Knox, II, 81.
24. Ibid., 83.
25. Ibid., 93.
26. Zweig, *Mary Queen of Scots,* 108.
27. Neale, *Queen Elizabeth,* 141.
28. Lang, *History,* II, 160.
29. Ibid.; Froude, *Elizabeth,* II, 50.
30. Lang, II, 162.
31. *Camb. Mod. History,* III, 272.
32. Lang, *Mystery,* 75.
33. Ibid., 108-11.
34. *Camb. Mod. History,* III, 273.
35. Lang, *History,* II, 171; Lingard, VI, 67.
36. Lang, II, 170-2.
37. Ibid.; Knox, *History,* lxxiii.
38. Zweig, 158.
39. Lang, *Mystery,* 236.
40. Acton, *Lectures,* 150-2; Lang, *Mystery,* 295, 353, 362.
41. Ibid., 133.
42. Lang, *History,* II, 188.
43. Neale, 161.
44. Lang, *Mystery,* 194.
45. Froude, *Elizabeth,* II, 307, 310.
46. Brockway and Winer, *Second Treasury of the World's Great Letters,* 112.
47. Hallam, I, 167.
48. Froude, *Elizabeth,* II, 407.
49. Ibid., 404; Lang, II, 200.
50. Lang, II, 203.
51. Lang, *Mystery,* 286.
52. Lingard, VI, 97.
53. Froude, III, 110.
54. Muir, *Knox,* 282.
55. Knox, *History,* I, vii.
56. Lingard, VI, 126.
57. Ibid., 128; Hughes, III, 278.
58. Roeder, *Catherine de' Medici,* 491.
59. Neale, 263.
60. Pastor, XIX, 450-2.
61. Lingard, VI, 187.
62. Ibid., 205-6; Pastor, XXI, 7-19.
63. Ibid., 25; Froude, V, 259-61.
64. Williams, Chas., *James I,* 76, 80-3; Froude, V, 294.
65. Zweig, 291.

CHAPTER VI

1. Fontenoy in Froude, V, 74.
2. Lang, *History,* 276, 294-6, 305, 395; Lingard, VI, 183.
3. Lea, *Studies in Church History,* 502-8.
4. Ibid., 500.
5. Lang, *History,* II, 243.
6. James I, *Basilikon Doron,* in Gooch, *English Democratic Ideas in the Seventeenth Century,* 41.
7. Lang, *History,* II, 278.
8. *History Today,* March 1956, 159.
9. Buckle, *History of Civilization,* IIa, 199.
10. Williams, *James I,* 132.
11. *Encycl. Brit.,* IV, 310.
12. Allen, J. W., *History of Political Thought,* 339-40; cf. Carlyle, R. W., *History of Medieval Political Theory,* 332f; Figgis, J. N., *From Gerson to Grotius,* 167-72.
13. Allen, op. cit., 342.
14. Quoted by Oliver Dick in Introduction to Aubrey's *Brief Lives,* xxx.
15. In Chute, *Ben Jonson,* 249.
16. Ibid., 268.
17. Ibid., 217.
18. Bowen, C. D., *The Lion and the Throne,* 315.
19. Aubrey, 67.
20. In Robinson, J. H., *Readings in European History,* 349; Allen, 254; Dunning, W. A., *History of Political Theories,* II, 217.
21. Allen, J. W., *English Political Thought,* 26.
22. Ibid., 124.

23. Lingard, VII, 17.
24. Allen, *English Political Thought*, 223.
25. Williams, *James I*, 192-3.
26. Lingard, VII, 19-22.
27. Ibid., 29.
28. Ibid., 40-3.
29. Ibid., 46-8.
30. Ibid., 50, 96.
31. McCabe, *Candid History of the Jesuits*, 198.
32. Lang, *History*, II, 508.
33. Aubrey, 21.
34. Hallam, H., *Literature of Europe*, III, 324.
35. Webster, *The White Devil*, in Webster and Ford, *Plays*, p. 91.
36. Webster, *Duchess of Malfy*, in Webster and Ford, p. 145.
37. Ibid., IV, ii.
38. Thornton, *Table Talk*, 15.
39. Thomas Fuller in Chute, *Ben Jonson*, 37.
40. Jonson, *Every Man out of His Humour*, Induction.
41. Thornton, 7.
42. Jonson, *Every Man out of His Humour*, Induction.
43. Thornton, 8.
44. Chute, *Ben Jonson*, 161.
45. Jonson, *The Alchemist*, II, i.
46. Baskerville, Read, etc., *Elizabethan and Stuart Plays*, 1077.
47. Herrick, *Poems*, 241.
48. Chute, *Ben Jonson*, 310.
49. Williams, *James I*, 189.
50. Introduction to Burton, *Anatomy of Melancholy*, p. x.
51. Ibid.
52. Burton, *Anatomy of Melancholy*, 8.
53. Ibid., 3.
54. Ibid., 79-80.
55. Donne, *Poems*, 83.
56. Ibid., 26.
57. Elegy XIII; Elegy II.
58. *Poems*, 182.
59. Ibid., 180.
60. Thornton, 4.
61. *Poems*, 253.
62. In Peterson, *Treasury of the World's Great Speeches*, 91.
63. Ibid., 92.
64. Walton, *Life of Dr. Donne*, in Peterson, 95.
65. Hallam, *Constitutional History*, I, 347; *Encycl. Brit.*, XVIII, 961b; Lingard, VII, 7.
66. Text in Schuster, M. L., *Treasury of the World's Great Letters*, 82-4.
67. Raleigh, Sir Walter, *Selections*, 61.
68. Ibid., 117.
69. Lingard, VII, 101.
70. Spedding, *Life of Fr. Bacon*, II, 288-9; Wallace, *Sir Walter Raleigh*, 261f
71. Lingard, VII, 102.
72. *Encycl. Brit.*, XVIII, 961b.
73. Wallace, *Raleigh*, 315.
74. Raleigh, *Selections*, Introduction, 28.
75. Lingard, VII, 117.
76. Williams, *James I*, 258.
77. Hallam, *Constitutional History*, 109.
78. Ibid., 122.
79. MacLaurin, C., *Mere Mortals*, 137.

CHAPTER VII

1. Browne, Sir Thomas, *Pseudodoxia Epidemica*, in *Works*, Vols. II and III.
2. Thorndike, Lynn, *History of Magic and Experimental Science*, VI, 548-9.
3. Lecky, *Rationalism in Europe*, I, 38n; Williams, *James I*, 106-10.
4. Lang, *History*, II, 434.
5. Hughes, *Reformation*, II, 286n.
6. Ibid., 285.
7. Thorndike, VI, 550; Chute, *Ben Jonson*, 229.
8. Trevelyan, *English Social History*, 232.
9. Smith, Preserved, *History of Modern Culture*, I, 97.
10. Ibid., 95.
11. Robertson, *History of Freethought*, II, 13.
12. Huntington Library Bulletin, April 1934, p. 99.
13. Wolf, *History of Science*, I, 292.
14. Ibid., 426.
15. John, Evan, *King Charles I*, 153; Kellogg, *The New Dietetics*, 84-.
16. Garrison, *History of Medicine*, 248.
17. Sigerist, *The Great Doctors*, 141.
18. Harvey, *Exercitatio anatomica de motu cordis et sanguinis*, in Hammerton, *Great Books*, 273.
19. Walsh, J. J., *The Popes and Science*, 396.
20. Aubrey, 131.
21. Prinzmetal, *Heart Attack*, 111-2.
22. Aubrey, 128.
23. Ibid., 130.
24. Ibid., 11.
25. Gardiner, S. R., in Garnett and Gosse, *English Literature*, II, 12.
26. Spedding, *Life of Bacon*, I, 542.
27. Aubrey, 9.
28. Macaulay, *Critical and Historical Essays*, II, 326-8.
29. Bowen, *The Lion and the Throne*, 428; *Camb. Mod. History*, III, 571.
30. Spedding, *Life*, II, 463.
31. Ibid., 633.
32. Ibid., I, 563.
33. Ibid., 569.

34. Bacon, *Philosophical Works*, 241.
35. Ibid.
36. Ibid., 244.
37. Ibid., 247.
38. Aubrey, 130.
39. Bacon, *Phil. Works*, 167.
40. Ibid., 76, 78; *De Augmentis scientiarum*, Preface.
41. *Philosophical Works*, 76.
42. *Advancement of Learning*, ch. 8.
43. Bacon, *Works*, ed. Spedding and Ellis, VII, 241.
44. *Novum organum*, i, 97.
45. Ibid., i, 82; and "Plan of the Work" in *Philosophical Works*, 250.
46. *Novum organum*, ii, 13, 17.
47. *Philosophical Works*, 144.
48. Ibid., 77.
49. Ibid., 50.
50. Spedding, *Life*, I, 111.
51. *Novum organum*, ii, 2.
52. Ibid., ii, 8.
53. Ibid.
54. *De Augmentis*, iv, 3.
55. *Novum organum*, i, 66.
56. *De Augmentis*, end.
57. Essay "Of Atheism"
58. Ibid.; *Advancement of Learning*, in *Philosophical Works*, 45; *De Augmentis*, iii, 2.
59. Essay "Of Atheism."
60. *Valerius Terminus*, ch. i, in *Philosophical Works*, 186.
61. Rawley's *Life*, in *Phil. Works*, 9.
62. *De Augmentis*, ix, 1.
63. Essay "Of Goodness."
64. Ibid.
65. "Of Marriage and Single Life."
66. Essays "Of Empire" and "Of the True Greatness of Kingdoms."
67. *De Augmentis*, viii, 3, in *Phil. Works*, 610-11.
68. "Of Vicissitude of Things."
69. "Of Seditions and Troubles."
70. *Phil. Works*, 727.
71. *History of Henry VII*, in *Works*, VI, 238-45.
72. In Nichol, J., *Fr. Bacon*, II, 4.
73. Pope's *Essay on Man*, line 282.
74. *Thema coeli*, in *Phil. Works*, 705; *Descriptio globi intellectualis*, ibid., 685.
75. In Friedell, *Cultural History of the Modern Age*, I, 335.
76. *The Advancement of Learning*, in *Phil. Works*, 167.
77. Wolf, *Science in the Sixteenth Century*, 640; Bernal, *Science in History*, 305.
78. Hallam, *Literature of Europe*, III, 72.
79. Nichol, J., II, 235.
80. *Novum organum*, i, 49.
81. Ibid., i, 26, 95.

CHAPTER VIII

1. Rogers, *Six Centuries of Work and Wages*, 103.
2. Ibid., table at p. 73.
3. John, *Charles I*, 167.
4. French, Allen, *Charles I and the Puritan Upheaval*, 100-2.
5. Robertson, J. M., *Freethought*, II, 24.
6. Ibid., 77.
7. Ibid., 76.
8. Ibid.
9. Aubrey, 135.
10. Belloc, H., *Richelieu*, 49.
11. McCabe, *Candid History*, 202.
12. Toynbee, A., *Study of History*, IX, 178.
13. Allen, *English Political Thought*, 237.
14. Ibid., 242.
15. Ibid.
16. Taine, *English Literature*, 259-62.
17. Hume, D., *History of England*, IV, 183.
18. Gardiner, S. R., *History of England 1603-42*, VII, 302.
19. French, *Charles I*, 281.
20. Lingard, VII, 181; Taine, *English Literature*, 265.
21. *Camb. Mod. History*, IV, 279.
22. Allen, *English Thought*, 194.
23. Carlyle, T., *Oliver Cromwell*, I, 93.
24. French, 306.
25. Schaff, *History of the Christian Church: The German Reformation*, I, 79.
26. Allen, *English Thought*, 283.
27. French, 281.
28. Markun, L., *Mrs. Grundy*, 114.
29. Weber, Max, *The Protestant Ethic*, 177.
30. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 387.
31. Allen, *English Thought*, 279f; Lingard, VIII, 190.
32. Ibid., 191n.
33. Thornton, *Table Talk*, 72, 106.
34. Browne, *Religio Medici*, 77.
35. Browne, *Works*, II, 226.
36. *Religio Medici*, 70, 34.
37. Singer, *Studies in the History of Science*, 222.
38. *Religio Medici*, 82.
39. Ibid., 1.
40. Ibid., 18.
41. Ibid., 25.
42. Ibid., 10.
43. Ibid., 179.
44. Ibid., 60.
45. Ibid., 92.
46. Herrick, *Poems*, 181.
47. Ibid., 178.
48. Ibid., 198.
49. Aubrey, 287.
50. Ibid., 289.
51. Ibid., 192.

52. Lovelace, *Poems*, 78.
53. Ibid., 18.
54. MacLaurin, *Mere Mortals*, 143-4; John, *Charles I*, 4; French, 16.
55. Bishop, *Renaissance Architecture*, 25.
56. John, *Charles I*, 65.
57. Ibid., 66.
58. Ibid., 133; Lingard, VII, 164.
59. Gardiner, S. R., *History of England 1603-42*, VII, 1.
60. Ibid., 41-3.
61. Tawney, *Religion and the Rise of Capitalism*, 173.
62. Ibid., 174; Allen, *English Thought*, 360.
63. Rickard, *Man and Metals*, II, 799
64. Clarendon, *History of the Rebellion*, I, 323.
65. Ibid., 188f.
66. Carlyle, *Oliver Cromwell*, I, 94.
67. Lang, *History of Scotland*, III, 71.
68. John, *Charles I*, 207.
69. Morley, *Oliver Cromwell*, 72.
70. Clarendon, *passim*; Hume, D., *History of England*, IV, 174, 401.
71. Carlyle, *Oliver Cromwell*; Firth, *Oliver Cromwell*; Buchan, *Oliver Cromwell*.
72. Morley, *Cromwell*, 9.
73. Carlyle, *Cromwell*, I, 98.
74. Ibid., 108.
75. Clarendon, I, 300; Gardiner, *History of England*, IX, 230.
76. Thornton, *Table Talk*, 108.
77. Gardiner, IX, 251-2.
78. Allen, *English Thought*, 346f.
79. Morley, *Cromwell*, 91; Hallam, *Constitutional History*, II, 119; Allen, 354.
80. Clarendon, I, 452.
81. Ibid., 466.
82. Firth, *Cromwell*, 61.
83. Clarendon, II, 49 f.
84. Allen, *English Thought*, 313, 403-4.
85. Robinson, J. H., *Readings*, 356.
86. Schaff, *History of the Christian Church: The Swiss Reformation*, II, 565.
87. Firth, 149; Bury, J. B., *History of Freedom of Thought*, 86; Robertson, J. M., *Freethought*, II, 76.
88. *Camb. Mod. History*, IV, 312
89. Firth, 147.
90. Ibid.
91. Macaulay, *History of England*, I, 100.
92. Gooch, *English Democratic Ideas*, 119, 179.
93. Ibid., 124.
94. Ibid., 128.
95. *Camb. Mod. History*, IV, 345.
96. Firth, 175.
97. Morley, *Cromwell*, 240.
98. Lingard, VIII, 110.
99. Morley, 267.
100. John, *Charles I*, 294.
101. Hume, *History*, IV, 465.
102. Churchill, W. S., *History of the English-Speaking Peoples*, II, 223.
103. Robinson, *Readings*, 359.